منشورات اتحاد



القاهـــــرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

المحتويات

الدكتور عبدالغني علي الأَهْجُري (*)

سفارتان بين دولة الأئمة الزيدية ودولتي الطاهريين والمماليك الجراكسة

على عهد الإمام الزيدي المتوكل يحيى شرف الدين الحسني

تظل السفارات واحدة من أهم مجليات العلاقات المتشابكة بين القوى السياسية مهما تباينت طبيعة هذه العلاقات ما بين السلم والحرب، التحالف والتنافر، التقارب والتخاصم، وتُعدُّ الوثائق المنقولة بين أطراف السفارات – سواء نُقلت شفاهةً أو كتابياً– واحداً من أهم مصادر المادة التاريخية الأصلية وأكثرها صدقاً، فكاتبو تلك الوثائق ليسوا بشهود عيان فحسب، بل هم الأطراف التي صنعت الأحداث التي حُرِّرَت الوثائق حولها ومن أجلها، مع افتراضنا وجود مراعاة لاعتبارات المجاملات ومراسم التقرب وألفاظ التودد بين الأطراف أثناء صياغتها، فهي تلقي الضوء – من خلال مضامينها الصريحة أو الضمنية – على جوانب مهمة من تاريخ تلك القوى السياسية في فضاءات لا يتطرق المؤرخون – غالباً – إلى تغطيتها، كما أن دراسة السفارات إجمالاً يساعد في تسليط الضوء على جوانب غالباً ما تكون هامشية في ثنايا الحديث عن الجوانب المختلفة للتاريخ، وخاصة بعض حوادث التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعسكري .

وفي مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي يقلُّ وجود القدر الكافي من نصوص الوثائق السياسية التي قامت بنقلها السفارات بين القوى السياسية اليمنية أو بينها وبين

* أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بقسم التاريخ في كلية التربية – جامعة صنعاء، الجمهورية اليمنية .

غيرها من القوى غير اليمنية، ولعل سبب إغفال كثير من المؤرخين اليمنيين لتضمين تلك النصوص في مؤلفاتهم هو نظرتهم إليها على أنها من ضروب الاستطراد غير المحمود في تفاصيل الأحداث التي أرخوا لها .

في هذا البحث نقف مع اثنتين من أهم وثائق السفارات التي تضمنتها المصادر التاريخية اليمنية، تم تحريرهما في العقدين الثاني والثالث من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ولم ينقل إلينا نصهما كاملاً إلا واحداً فقط من المؤرخين اليمنيين، هو المؤرخ الحسن ابن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن الحسين بن عبدالقادر شرف الدين الحسني (ت١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م)[1] في كتابه القيم (المواهبُ السَّنِيَّةُ مِمَّا مَنَّ بِهِ اللهُ تعالى من الفَواكِهِ الجَنِيَّةِ من أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ المُتَوَكِّلِيَّةِ)، وهذا المؤرخ من أحفاد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين، ذلك الإمام الزيدي الذي يُعدُّ الطرف الرئيس في هاتين السفارتين، ويبدو أن هذا المؤرخ قد وجد نص الوثيقتين كاملاً ونقلهما، إما لاطلاعه على بعض المصادر الخاصة بالإمام المتوكل شرف الدين نفسه مما لم يطلع عليها غيره من المؤرخين، أو أن محتوى الوثيقتين كان متاحاً لغيره من المؤرخين السابقين غير أنهم لم يُقدِّروا أهمية تضمين النَّصَّيْن كاملين في مصادرهم، واكتفوا بالتطرق إلى ذكر حصول تلكم السفارتين .

الوثيقة الأولى هي الخاصة بالسفارة التي بعثها الإمام المتوكل على الله شرف الدين بن شمس الدين(ت٩٦٥هـ/١٥٥٧م) - رأس الدولة الزيدية باليمن في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكانت وجهتها بلاط السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهر (ت٩٢٣هـ/١٥١٧م)، أقوى سلاطين الدولة الطاهرية باليمن وأكثرهم قوة ونشاطاً عسكرياً، وتنوع محتواها ما بين الوعظ والتحذير والتهديد، وقد جاءت السفارة في سياق الصراع الدموي الكبير بين الدولتين حول مناطق النفوذ على الساحة اليمنية والذي كانت فيه الكفة راجحة لصالح الدولة الطاهرية .

أما الوثيقة الثانية فقد حملتها السفارة التي بعثها الإمام المتوكل شرف الدين نفسه إلى الأمير حسين الكردي، قائد الحملة التي جردتها دولة المماليك الجراكسة على عهد السلطان قانصوه الغوري(ت٩٢٢هـ/١٥١٦م) لمواجهة النفوذ البرتغالي المتزايد في السواحل الهندية ومياه المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي، الذي مثل بؤرة نزيف كبير للمقدرات الاقتصادية

لدول المنطقة بشكل عام، إضافة إلى كونه تهديداً دينياً لوضعه استهداف الأراضي المقدسة بالحجاز ضمن مخططاته الاستعمارية .

السفارة الثانية في أصلها هي نتيجة طبيعية لفشل السفارة الأولى، فقد كانت الغاية منها الاستنجاد بالحملة المملوكية وطلب النصرة والعون من قائدها إزاء العنت الذي واجهه الإمام الزيدي أمام القوات الطاهرية، ومحاولة منه لإيقاف حملة الإبادة التي قادها السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب لأفراد الشريحة العلوية الشيعية الزيدية والفاعلة سياسياً وعسكرياً آنذاك .

ومما يزيد من أهمية هاتين السفارتين هى النتائج المترتبة عليهما ، فقد تمخضتا عن أحداث كبيرة بلغت حد تحول الحملة المملوكية عن مسارها المرسوم، واقتحام الأراضي اليمنية، والدخول في صراع مسلح دموي مع الدولة الطاهرية، كانت فيه الدائرة على الدولة الطاهرية، قتل في آخر أحداثها السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري عند أسوار صنعاء، هو وأخيه الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب وذلك سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، وهو ما مثل انهياراً شبه كامل للدولة الطاهرية، واستيلاءً للقوات المملوكية على مساحة واسعة من أراضى اليمن، ولم يوقف استمرار زحفها على المناطق المتبقية سوى هزيمة الدولة الأم – دولة المماليك الجراكسة في مصر– في موقعة مرج دابق الشهيرة في السنة نفسها، ومقتل السلطان قانصوه الغوري على أيدي القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول .

ويجمل بنا في البداية إيراد إشارة تعريفية – بلا إسهاب ولا إخلال- بالشخصيات الثلاث الأهم، التي مثلت المحاور الرئيسة لهاتين السفارتين، وهذه الشخصيات هي: السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب، والأمير المملوكي حسين الكردي، والإمام الزيدي المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين.

السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري(٨٩٤-٩٢٣هـ/١٤٨٩-١٥١٧م) :

هو السلطان الظافر الثاني صلاح الدين عامر بن عبدالوهاب بن داود الطاهري، الأموي القرشي نسباً ، الشافعي الأشعري مذهباً وعقيدةً، رابع سلاطين الدولة الطاهرية باليمن، وأكثرهم

شُهرةً وسَطوةً وقوةً وهيبةً، وأطولهم حكماً، يُشار إلى مدة حكمه بالبنان، وتسترعي انتباه الباحثين في تاريخ اليمن -والمُطَّلعِين عليه- فيتوقفون عندها، فهي في نظرهم جديرة بالدراسة لأمور عدة، أهمها: أنها أطول مدة حَكَمَ فيها مَلِكٌ طاهريٌّ[٢]، ولما عُرِفَ به هذا السلطان من الصفات المتميزة حكماً وإدارةً وعلماً وعمراناً[٣]، وكذلك لما تميز به عهده من شدة الصراع وقوة احتدامه بين القوى السياسية الداخلية الكثيرة، كالصراع في إطار التنافس على العرش بين السلطان نفسه والأمراء الطاهريين من أخواله أبناء السلطان الظافر الأول عامر بن طاهر[٤]، والصراع الكبير بين الدولة الطاهرية والأئمة الزيدية على مناطق النفوذ والتوسع[٥] - وإن أعطى كل طرف منهما تأصيلاً شرعياً يبرر صراعه مع الآخر - والصراع الشديد بين الأئمة الزيدية أنفسهم -مع بعضهم بعضاً- بعد أن تعدد الداعون إلى أنفسهم بالإمامة منهم، والصراع - شبه الدائم - مع أغلب القوى القَبَلِيَّة في تهامة ويافع[٦] وبَيْحَان[٧] وغيرها من المناطق.

ومما يجعل مدة حكم السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري مميزة عن غيرها - أيضاً - أنها تُعد من أخطر المراحل التاريخية التي مر بها اليمن، وخاصة العشرين سنة الأخيرة منها، فقد ظهر على المسرح الدولي - ثم الإقليمي - قوةٌ بحريةٌ استعماريةٌ عاتيةٌ - بمقياس ذلك العصر - ألا وهي قوة البرتغاليين، وكانت اليمن واحدةً من أكثر الأطراف تضرراً من هذا التحول الكبير، ذلك التحول الذي أحدث هزة عنيفة غيرت موازين القوى على مستوى العالم القديم، وهذا التحول بدوره أدى إلى دخول اليمن في صراع مع بعض القوى الخارجية، في مقدمتها قوة المماليك الجراكسة الحاكمين لمصر في هذه الفترة، ونتج عنه - في آخر مراحل هذا الصراع - القضاء على السلطان الظافر الثاني؛ وتعريض الدولة الطاهرية عموماً إلى الانهيار.

الأمير حسين الكردي (ت٩٦٥هـ/١٥٥٧م):

الأمير حسين الكردي هو أحد القواد البارزين في الأسطول البحري المملوكي، أُوكِلت إليه مهمة القيام بالتصدي للبرتغاليين في الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي، وخاصة أمام الشواطئ الهندية التي تمثل المصدر الأم لتجارة التوابل، التجارة الأهم والأثمن على مدار قرون طويلة في العصرين القديم والوسيط، بل حتى مشارف العصر الحديث، وقد قاد الأمير حسين الكردي حملتين في هذا الصدد، وتكللت مساعي الحملة الأولى في سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م)

بالنجاح فيما تغير مسار الحملة الثانية عندما اتجهت صوب عمق الأراضي اليمنية لتدخل في صراع مرير مع الدولة الطاهرية، والذي أسفر عن تمكن القوة المملوكية من القضاء على معظم قوة الطاهريين وقتل آخر سلاطينهم السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب السابق ذكره .

الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين[٨] (٩١٢هـ-٩٦٥هـ/١٥٠٦ - ١٥٥٧م):

هو الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين[٩] بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى بن المرتضى الحسني العلوي نسباً، الزيدي المعتزلي مذهباً وعقيدةً، حفيد الإمام الزيدي الشهير المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م) الذي أعلن نفسه إماماً عام٧٩٣هـ/١٣٩١م إثر وفاة الإمام الزيدي الناصر صلاح الدين محمد بن علي الحسني، كما أنه سبطُ الإمام الزيدي المتوكل على الله المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي الحسني(ت٨٧٩هـ/١٤٧٤م) .

أعلن المتوكل على الله يحيى شرف الدين إمامته للزيدية في ظرف من أحلك ظروف تاريخها باليمن، فقد تمكن السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري من كسر شوكتها، وقهر قوتها، وتشتيت جموعها، وزرع الإحباط في نفوس قادتها وأتباعها، إذ انتزع منها أعز حصونها وقلاعها وأمنعها، وفرق كثيراً من رجالها ما بين قتيل أو أسير أو هائم على وجهه في البلاد، ولم يبقَ من متصدري الإمامة الزيدية سوى الإمام الناصر الحسن بن عزالدين بن الحسن الحسني(ت٩٢٩هـ/١٥٢٣م)[١٠]، الذي كان منطوياً على ذاته في أقصى شمال اليمن، ولم يكن بيده من مفاتيح تحريك الأمور ما يجعله يخطو الخطوة الأولى لإقالة العثرة الزيدية أو تحريك ما ركد من مائها .

لما أعلن الإمام المتوكل شرف الدين إمامته سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م) بعث رسله منطلقاً من حصن الظفير[١١] طالباً البيعة من خاصة الزيدية وعامتها[١٢]، ولم تكن الاستجابة له كبيرةً في بداية أمره نظراً للسطوة التي كانت للدولة الطاهرية وشدتها في التعامل مع العناصر الزيدية ومن تعاون معها، إضافةً إلى أنه لم يكن قد عُرف لديهم كشخصية يعلق عليها الآمال في إحداث الفرق في الوضع القائم يومئذ .

كانت السنوات التالية لإعلان إمامة المتوكل يحيى شرف الدين تشهد بلوغ القوات الطاهرية إلى ما لم تكن قد وصلت إليه من المناطق في عمق الرقعة الجغرافية الزيدية بشمال صنعاء وغربها، كدخولها حصن ثلا وقلعة كوكبان سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) مع حصنين آخرين بجوارهما، وفي سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) أرسل السلطان الظافر الثاني عامر نائباً عنه إلى صعدة مشفوعاً بحامية صغيرة، غير أنه فشل في بلوغ مرامه، ثم وضع يده على مناطق أخرى إضافية لتبلغ الدولة الطاهرية عندئذٍ أقصى امتدادٍ لها على الأرض اليمنية .

كانت الأساطيل البرتغالية في هذه الأثناء قد رفعت من وتيرة نشاطها العدواني على السفن التجارية العربية في المحيط الهندي بما لا يسع القوى المتضررة السكوت عليه، وكانت مصر المملوكية هي المتضرر الأكبر؛ لذلك أرسلت حملتين بحريتين لمواجهة البرتغاليين، انطلقت الحملة الثانية منهما سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) ورست في جزيرة كمران، وقد رأى الإمام المتوكل شرف الدين في وجود هذه القوة فرصة لكسب موقفها وتوظيفه في دعم جهوده في مواجهة الطاهريين، لذلك قام بمراسلة أمير الحملة، الأمير حسين الكردي، شاكياً إليه السلطانَ الظافرَ الثاني، معدداً مظاهر اضطهاده لآل البيت النبوي ومساوئ حكمه، ومطالباً إياه بالنصرة[١٣]، وكان الأمير حسين الكردي في حاجة إلى استجلاء موقف السلطان الظافر الثاني من حملته، فلما بلغه موقفه المتخاذل منها، واستعداده لمواجهتها بدلاً عن دعمها وتوفير كل أشكال التعاون معها، رد على الإمام المتوكل شرف الدين بما يؤكد دعمه له.

ولما وقع الصراع بين الحملة المملوكية وبين الدولة الطاهرية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وتحققت الهزيمة الكبيرة للطاهريين في السنة التالية، ومقتل السلطان الطاهري في هذا الصراع، وسيطرة المماليك على كثير من المناطق اليمنية بما فيها صنعاء، كان موقف الإمام المتوكل شرف الدين سلبياً من الطرفين، وذلك في انتظار ما سيسفر عنه الصراع الدائر، ولكنه أحس بأن المماليك عازمون على مواصلة التوسع في اليمن، وهو ما دعاه إلى رفض هذا التوجه والقيام بأولى خطوات الصدام معهم بدخوله حصن ثلا في السنة ذاتها (٩٢٣هـ/١٥١٧م)؛ فضرب عليه المماليك حصاراً لم يرفعوه إلا عندما بلغهم خبر مقتل سلطانهم قانصوه الغوري ثم سقوط دولتهم على أيدي الجيوش العثمانية[١٤].

الخلفية الفكرية والسياسية للصراع في اليمن عصرئذٍ :

من المعروف أن الزيدية هي أحد فِرْقَتَي الشيعة الرئيستين[١٥]، والحضور التاريخي الحقيقي للزيدية في اليمن – من الناحية الفكرية والفقهية – قديم، تعود بداياته الأولى إلى أواخر القرن الثالث الهجري ، ومن أهم أركان الفكر الشيعي الزيدي القول بالإمامة، فقد تضمنت رسائل المؤسسين والمنظرين للفكر السياسي والعقائدي الزيدي الأوائل إشارات صريحة بأن الإمامة أصل من أصول الدين التي لا يصح إسلام المرء بدونها ، ومفهوم الإمامة في الفكر السياسي الزيدي يمكن إجماله في حصر أحقية الفاطميين من أحفاد الإمام علي بن أبي طالب في الحكم دون غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية، وقد زال إحساس العلويين بكونهم ضيوفاً على اليمن منذ السنوات الأولى لوصولهم إليها ، إذ اتخذوا من أتباع الفكر الزيدي وحَمَلَتِه ركيزة للتوسع السياسي على حساب القوى اليمنية الأخرى، واستمر هذا الفكر وقوداً لمعظم أوجه الصراع الدموي بين اليمنيين من أتباع الفرقة الزيدية وغيرهم طوال فترات تاريخ اليمن حتى مطلع التاريخ المعاصر .

كان العامل الفكري هذا مُذْكياً إضافياً لمسببات الصراع الأخرى – الجغرافية والقَبَلِيَّة والاقتصادية – التي كانت تدفع اليمنيين للاشتباك مع بعضهم منذ مراحل ما قبل اعتناقهم جميعاً للدين الإسلامي، ومن ضمن الدوافع الفكرية العقائدية أيضاً التي أسهمت – دائماً– في إذكاء الصراع بين اليمنيين اتهام الأئمة الزيدية وعلمائها لبقية اليمنيين بأنهم يقولون بعقيدة الجبر، وبالتالي وجب جهادهم وقتالهم، أو دفعهم – على الأقل – عن المساحات الجغرافية التي يقطنها أتباع الفرقة الزيدية، وقد اتضح ذلك بجلاء في مراسلاتهم الثنائية الأدبية، الشعرية والنثرية، منها تلك القصيدة التي نظمها – في المدة ذاتها– الإمام الزيدي المنصور بالله محمد بن علي الوُشَلي السراجي (ت٩١٠هـ/١٥٠٤م)[١٦] يهدد فيها السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري (ت٩٢٣هـ/١٥١٧م) في غمرة صراعهما على صنعاء، فقال الإمام الوُشَلي:

عَدِمْنا خَيْلَنا إن لَمْ تَرَوْها ... وَأَنْتُمْ بَيْنَ أَيْدِينا نَعامُ

ونَجْزِيْكُم بِفِعْلِكُمُ قَدِيماً ... جَزاءً لا خَفاءَ ولا انكِتامُ

سَيُهْزَمُ جَمْعُكُمْ يَوْمَ التَّلاقي ... ولا يُغْني عَنِ القَتْلِ انهِزامُ

وَلكِنّا سَنَقْتُلُ مَنْ أَرَدْنا ... وَنَأْسِرُ مَنْ نَشَاءُ ولا نُضَامُ

وَتُشْرِقُ أَرْضُنَا بالعَدْلِ[١٧] فِيْها ... وَيُنْفَى الظُلْمُ إِذْ حَصَلَ المَرَامُ

وَنَحْمَدُ رَبَّنَا وَنَقُوْلُ بُعْداً ... لأَهْلِ الظُّلْمِ إِذْ حَصَلَ المَرَامُ

كَمَا بَعِدَتْ ثَمُوْدُ وَقَوْمُ عَادٍ ... وأَهْلُ الأَيْكَةِ القَوْمُ اللِئَامُ[١٨]

ومنه كذلك تحريضه واستنفاره لإمامين زيديين معاصرين له كان أحدهما يحكم منطقة صعدة وما حولها – هو الإمام الهادي عزالدين بن الحسن (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، بينما تمركز الآخر في صنعاء – وهو الإمام المؤيد بالله محمد بن الناصر بن محمد (ت٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) – لكي يقوما بصد السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري، وجعل مدخله لاستثارة حفيظتهما التركيز على (الجبرية) باعتبارها معتقداً يقول به السلطان، من وجهة نظره، وهي فى حدّ ذاتها لدى الزيدية مسوغ كافٍ لقتاله، وسبب مقنع لحربه، وخاصة إذا ما كان قد أصبح خطراً محدقاً بالمذهب الزيدي نفسه ومهدداً إياه بالإزالة، ولذلك قال الإمام المنصور الوشلي في تحريضهما :

وَصَنْعَاءُ المَدِيْنَةُ فِي بَلاءٍ ... أَحَاطَ بِسُوْرِهَا القَوْمُ الطُّغَامُ

ذَوُو الجَبْرِ الذِيْنَ لَهُمْ قِتَالٌ ... يُلازِمُهُ الشَّنَاعَةُ والمَلامُ

إلى البَارِيْ أَضَافُوا كُلَّ فِعْلٍ ... قَبِيْحٍ لا حَيَاءَ ولا احتِشَامُ[١٩]

وَأَنَّ زَعِيْمَهُمْ رَجُلٌ غَشُوْمٌ ... عَلَى صَنْعَاءَ نِيَّتُهُ المَقَامُ[٢٠]

وقال أيضاً في السياق نفسه :

فَيَا مَلِكَيْ صَنْعَا وصَعْدَةَ أَنْتُمَا ... لِفُلْكِيْ نَجَاةٌ فِي بِحَارٍ تغْرقُ

ويا مَلِكَيْ آلِ الرَّسُوْلِ تَدَارَكَا ... هُدَىً كَادَ فِي بَحْرِ الضَّلالَةِ يَغْرَقُ

هُوَ المَذْهَبُ الزَّيْدِيُّ مَذْهَبُ جَدِّكُمْ ... بِطَلْعَتِهِ نُوْرُ الهِدَايَةِ يَبْرُقُ

فَحَامُوا عَلَيْهِ بالصَّوَارِمِ والقَنا ... وأَرْوُوا ظَمَاهَا مِنْ دَمِ القَوْمِ يُشْرِقُ[٢١]

وفيما يتعلق بالمدة التي نتناولها في هذا البحث أضيف عاملان آخران إلى قائمة العوامل السابقة، زادا من حدة الصراع بين الدولة الطاهرية والأئمة الزيدية، أما العامل الأول فهو رغبة السلاطين الطاهريين في الأخذ بالثأر من الأئمة الزيدية الذين قامت قواتهم بقتل السلطان الطاهري المؤسس الظافر الأول عامر بن طاهر سنة (٨٧٠هـ/١٤٦٦م)، وأما العامل الثاني فهو اجترار الطرفين للماضي المتمثل في استحضار عقدة الصراع الجاهلي بين الأمويين الهاشميين في مكة إضافة إلى ما وقع ضمن أحداث الفتنة الكبرى وفي مدة حكم يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، إذ أن السلاطين الطاهريين كلهم ينتسبون إلى بني أمية في حين أن الأئمة الزيدية جميعاً من بني هاشم .

ويقتضي الإنصاف أن نذكر أن اليمنيين من غير أتباع الفرقة الزيدية – من جانبهم – قد بادلوا الزيديين نظرة عدم الرضا بمثلها ، فقد نظروا إلى الزيدية على أنها إحدى الفرق الضالة، أو على الأقل المبتدعة[٢٢]، وذلك لعدد من الاعتبارات الفكرية العقائدية والاختلافات الفقهية المذهبية، إذ أن بعض كبار علماء الزيدية وأئمتها قد خاضوا في مسألة الصحبة والصحابة وقدحوا في بعض أعلامهم، إضافة إلى تبني الزيدية للعقيدة الاعتزالية بينما كان بقية اليمنيين متبنين إما للعقيدة السلفية الحنبلية أو الأشعرية، وكلاهما خصمان تاريخيان للمعتزلة؛ فانعكس ذلك على موقفهم السياسي من الإمامة الزيدية نفسها ، وكان موقفهم متسماً بديمومة الرفض وعدم القبول، وقد غذَّتْ هذه القناعة أفراد الجيوش التي قادها السلاطين – والطاهريين منهم – في صراعهم مع القوة الزيدية، ومن المعروف بداهة أن أشرس المعارك هي تلك التي تدور بين طرفين كلاهما يزعم أنه يقاتل باسم الله تعالى وجهاداً في سبيله .

السفارة الأولى : أرسلها الإمام شرف الدين إلى السلطان الظافر الثاني عامر الطاهري :

هناك أهمية كبيرة لمعرفة المناسبة التي تم بعث هذه السفارة في أجوائها ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الزيدية قد واجهت ظروفاً قاسية لم تمر بمثلها طوال تاريخ وجودها في اليمن، إذ تمكن السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب من كسر شوكتها ، وقهر قوتها ، وتشتيت جموعها ، فزرع الإحباط في نفوس قادتها وأتباعها ، وذلك لأنه حقق ضدها انتصارات كبيرة جداً ، تمكن على إثرها من انتزاع أعز حصونها وأمنع قلاعها ، ومد نفوذه إلى معظم الرقعة الجغرافية التي مثلت عمقاً لدولة الأئمة الزيدية، وفرق كثيراً من رجالها ما بين قتيل أو أسير أو هائم على

وجهه في البلاد ، ولما فشل الإمام المتوكل شرف الدين في استعادة - ولو بعض - ما فقدته الدولة الزيدية، قام بتحرير هذه الوثيقة وبعثها إلى السلطان الظاهري المذكور وذلك في سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) .

تعليق على وثيقة السفارة الأولى :

تعد وثيقة هذه السفارة - مقارنة مع غيرها من الوثائق السياسية التي تضمنتها المصادر التاريخية اليمنية - هي الوثيقة السياسية الأطول، والأكثر تفصيلاً في موضوعها، ويمكننا أن نجمل أهم ملامح هذه الوثيقة في النقاط الآتية:

(١) تعد هذه الوثيقة واحدة من وثائق الفكر السياسي الزيدي المهمة؛ ذلك لأنها تضمنت تمسكاً بفكر الإمامة الذي أرسى دعائمه قدماء منظري الزيدية ومؤسسو دولتها في اليمن، وفي الوقت نفسه ألمحت بشكل واضح إلى قبول الزيدية - ممثلين بإمامهم يحيى شرف الدين - التفاوض حول حلول وسطى يمكن القبول بها في غمرة حالة الضعف التي أصابت الزيدية تحت وطأة السطوة الطاهرية، وهي نغمة لم تُؤثَر عن غيره من الأئمة الزيديين السابقين .

(٢) في ثنايا المحتوى الفكري لهذه الوثيقة ثمة موضوع مناسب لدراسته من قِبَلِ المتخصصين في الفكر السياسي والسياسة الشرعية، لعلهم يجدون فيها دليلَ تجديدٍ تقدميٍّ اضطراري في فكر الإمامة عند الزيدية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، خاصة أنها صادرة عن واحد من أشهر أئمة الزيدية باليمن على الإطلاق.

(٣) استخدم الإمام شرف الدين في كتابة هذه الوثيقة أسلوباً هو أقرب لطريقة الوعظ الديني والترويج الفكري منه للخطاب السياسي، لذلك ضمنها عدداً كبيراً من الآيات القرآنية الداعمة لوجهته الفكرية وقناعته السياسية، بلغ عددها ستة وعشرين آية قرآنية، معللاً ذلك بقوله : " ... بل ندعوكم إلى تأمل آيات القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ ولهذا استكثرنا في رسالتنا من آيات القرآن للقطع بحفظه من الخلل والزيادة والنقصان، ولم نستكثر من إيراد أحاديث الرسول صلى الله عليه وعلى أولاد فاطمة البتول وسلم؛ لقلة المتواتر منه والمتلقى بالقبول، واحتياج الأحادي منه إلى معرفة الرجال العدول، والمعروف منهم والمجهول، الذي لا يخبط فيه إلا العلماء الفحول ... "[٢٣].

(٤) قام محرر الرسالة بتكرار التذكير بشواهد التقارب بين المذهب الزيدي والمذاهب السنية الأخرى الشافعية والحنفية والمالكية، ناصحاً السلطان الطاهري الظافر الثاني بمراجعة أقوال العلماء المتقدمين من علماء المذاهب المشار إليها، والدالة على التزامهم الولاء والمودة لآل البيت النبوي، يتضح ذلك في مثل الفقرة التي يقول فيها: " وإذا كنت من أهل التقليد، لمن لم يعرف حكم الشرائع المفيد، فإن عليك فرضاً واجباً، وحتماً لازباً، وهو التزام من تركن على فضله ووعده، وعدم طمعه في الدنيا وهلعه، أن يتلو عليك نصوص العلماء المتقدمين من الشافعية والحنفية والمالكية، إذ لم يكونوا ليميلوا عن علماء أهل البيت الطاهرين ... "[٢٤] إلى أن قال : " ... فلا تظن أن بين المذهب الزيدي وبين مذاهب الفقهاء الأقدمين عداوة، وكلٌ منهم يصوِّب الآخر في اجتهاده، ولا يخطِّيه في مذهبه واعتقاده، وإنما فرق بينهم علماء السوء المتأخرون ..."[٢٥] .

(٥) تضمنت هذه الوثيقة معلومات تاريخية لم تُشرْ إليها أي من المصادر التاريخية اليمنية المعروفة والمتداولة إطلاقا، وهي الإشارة إلى أن بعضاً من أقارب الإمام يحيى شرف الدين قد انضم إلى البلاط الطاهري، منابذاً قومه وأهل مذهبه، ومتخذاً منهم موقف الضد السياسي، ولعله كان يلعب دور الدليل والمستشار للسلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب في حربه ضد الزيدية وأئمتها، وأشارت الوثيقة إلى أنه كان متولياً بعض المهام لدى الإمام شرف الدين ثم حدث ما جعله ينقم عليه فاتخذ جانب الطاهريين وأخذ في تحريضهم ضده، تقول الوثيقة : "... وكأني بمن عندك من أهل مذهبنا- بل من بعض قرابتنا - يقول: لقد فعلت هذا الوجه بمن هو عنده، وذلك قول غير صحيح، صادر من غير نصيح، فإنه يعلم - وأنت تعلم - أنك غير فاعل لذلك، لأحد من أهل الممالك، ولعلك تعلم - ونحن نعلم - مما نقمنا على المشار إليه، عدم صلاحه لما عُوِّلَ فيه عليه ..."[٢٦] .

(٦) تَصَوَّرَ محررُ الوثيقةِ ما يمكن أن تكون حُجَجاً للسلطان الطاهري في هجومه الكاسح على الزيدية، فكان يفترضها ثم يقوم بالرد عليها، وهي من أساليب المعتزلة الفلاسفة، والمتضلعين بعلوم المنطق وطرائق الجدل، لذلك نجد تكراراً لعبارات أمثال قوله : فإن قلت ... فلماذا لم ...

(٧) من ملامح البناء اللغوي في هذه الوثيقة حفاظ محررها على ما كان متعارفًا عليه من الإكثار من المحسنات البديعية كالسجع وغيره، واستخدامه التناص واستعارة الألفاظ المشهورة المتداولة، كان أكثر استعارته من ألفاظ الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية .

(٨) عندما أراد محرر الرسالة الاستشهاد بموقف الإمام أبي حنيفة النعمان المؤيد - أو على الأقل المتعاطف - مع ثورة العلويين الزيديين في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور سنة (145هـ/762م)، وقع في خلطٍ بين الزعيمين العلويين الشقيقين: إبراهيم بن عبدالله الثائر في البصرة بالعراق[٢٧] وبين أخيه يحيى بن عبدالله الذي أعلن ثورته بعد وفاة الإمام أبي حنيفة النعمان[٢٨]، وهو خطأ تاريخي واضح، إذ يقول: "... وقد كان من تلامذة زيد بن علي عليه السلام أبو حنيفة، ونال بسبب موالاة الإمام يحيى بن عبدالله ما هو معروف في السير، وكذلك نال الشافعي رحمه الله بسبب موالاة الإمام يحيى بن عبدالله إلى حد الضرب بالسياط، ..." [٢٩]، ولعله غاب عن محرر الرسالة أن البعد الزمني بين وفاة الإمامين الشافعي وأبي حنيفة النعمان قريباً من مائة سنة، فكيف يقفان سوياً موقف الموالاة من العلوي الثائر يحيى بن عبدالله؟! .

(٩) لم تتضمن هذه الوثيقة أية إشارة إلى كون كاتبها هوأحد رجال حاشية الإمام المتوكل يحيى شرف الدين أم هو نفسه، وهو ما أرجحه، فهو معروف بعلمه الواسع ومعرفته التامة باللغة العربية وآدابها، ويكفي لمعرفة مدى سعة علمه الالتفات إلى أنه بويع بالإمامة الزيدية التي تشترط بلوغ درجة الاجتهاد في متصدري إمامتها، كما لم تتضمن هذه الوثيقة - من جهة أخرى - اسم السفير الذي قام بإيصالها إلى السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب .

السفارة الثانية: أرسلها الإمام المتوكل شرف الدين إلى الأمير حسين الكردي:

كانت الأساطيل البرتغالية في مطلع القرن الهجري العاشر/السادس عشر الميلادي قد رفعت من وتيرة نشاطها العدواني على السفن التجارية العربية في المحيط الهندي وامتداداته حتى توقفت الحركة التجارية فيه بشكل كامل - أو كادت- ولم تكن اليمن ومصر والقوى السياسية والعسكرية الفاعلة فيهما بمنأى عن الأحداث الدائرة في المحيط الهندي لما له من أهمية قصوى بالنسبة إليهما[٣٠]، وكان لموقع اليمن الجغرافي المتوسط بين المجالين الحيويين للمماليك من جهة والبرتغاليين من جهة أخرى دوره في إجبار اليمنيين على التأثير والتأثر بمجمل ما يدور في المنطقة حتى لو افترضنا - جدلاً - وجود الرغبة لديهم في السكون وعدم الولوج في حلبة الصراع، إذ أنه من المستحيل أن يقوم المماليك بأي نشاط عسكري مضاد للبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر دون الدعم المادي والمعنوي للسلطات القائمة في اليمن، كما أن الاستحالة قائمة في وجه البرتغاليين إذا ما عزموا على سد البوابة الجنوبية للبحر الأحمر في وجه التجار المصريين والشاميين

وبعض الأفارقة، وكذلك الوصول إلى تحقيق الشق الصليبي من أهداف حملاتهم ببلوغ الأراضي المقدسة بالحجاز، الاستحالة قائمةً في وجههم إذا لم يؤكدوا سيطرتهم على الموانئ اليمنية المهمة وجزرها الكبيرة سواءً في البحرين العربي أو الأحمر، أي: إن اليمن كانت نقطة الارتكاز الجغرافية في أحداث هذه المرحلة من تاريخ المنطقة.

ومن الواضح بجلاء أنه لم يكن هناك ثمة مطامع مملوكية في اليمن، سواءً قبل هذه المرحلة المصيرية من تاريخ المنطقة أو قبلها، وكان هذا الأمر - من خلال اضطراد المسيرة التاريخية للعلاقات الودية القائمة بين القوى والدول الحاكمة في المنطقتين - راسخاً لدى الجميع، فلم نشهد مؤشرات لانعدام الثقة أو حلول الشك على هذه العلاقات، وهو ما تعكسه الهدايا المتبادلة بين العروش الحاكمة، وما استغاثة الطاهريين بالسلطان قانصوة الغوري ضد القرصنة البرتغالية ثم الموقف المُشَرِّفُ لحاكم عدن - مرجان الظافري - من الحملة المملوكية الأولى التي قادها الأمير حسين الكردي إلى الهند سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م)[٣١] إلا أدلةً إضافيةً على صفاء العلاقات الثنائية بين الطرفين الطاهري والمملوكي عصرئذ.

بَيْدَ أن سوء الفهم الذي صاحب مسير الحملة المملوكية الثانية سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م) يُعدُّ استثناءً في علاقة اليمن بمصر سياسياً، فقد وصلت الحملة المكونة من حوالي عشرين سفينة - محملةً بما يقرب من ستة آلاف جندي معهم كثير من مؤنهم الحربية والحياتية اللازمة - إلى جزيرة كَمَرَان، " وكان هدفها النهائي هو الهند وتأمين التحصينات العسكرية في البحر الأحمر وطرق الهند ضد الأسطول البرتغالي، وخوفاً من معاودة البرتغاليين الهجوم على البحر الأحمر وجدة على شاكلة ما فعلوا عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م) "[٣٢].

ما أن سمع الإمام الزيدي المتوكل يحيى شرف الدين بنزول الحملة في جزيرة كمران حتى حاول استمالة أميرها - حسين الكردي - وإقحامه في الصراع الدائر بينه وبين السلطان الظافر الثاني عامر الطاهري، فأرسل إليه السفارة التي نتناولها هنا[٣٣]، وقد أرجأ الأمير الكردي الرد عليه لأنه لم يضع في حساباته أن يُخْرِجَ الحملةَ عما جُرِّدَتْ من أجله، ولعله لم يؤجل الرد عليه إلا تحسباً للظنون التي تمكن الإمام شرف الدين من إثارتها عنده بخصوص السلطان الطاهري[٣٤].

بعث الأمير حسين الكردي رسالته الثانية إلى السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب - مشفوعةً بهدايا جليلة من السلطان الغوري - يستعجله في إرسال ما يحتاجه جند الحملة من الزاد

وغيره، فاستشار السلطان بطانته فاختلفوا ما بين مؤيدٍ ومعارض، وكانت حجة المعارضين أن دعوى خروج الحملة إلى الهند وجهاد البرتغاليين ما هي إلا ستارٌ لبسط النفوذ على اليمن[٣٥]، وأن هذه المساعدة إذا ما بُذلتْ فإنها ستصبح حقاً مكتسباً يصعب رفض بذلها لاحقاً، وقد مال السلطان الظافر الثاني إلى هذا الرأي، فأغلظ الرد لمبعوثي الأمير الكردي، وأرسل إلى ابنه عبدالوهاب - حاكم زبيد - بمنع السفن من التوجه في البحر الأحمر نحو الشمال[٣٦]، قاصداً بذلك حرمان الحملة من مصادر غذائها، فصدقت الظنون التي كان الإمام شرف الدين قد أثارها لدى الأمير حسين الكردي، فرد عليه رداً يعرب له عن تضامنه معه .

في مثل هذا الوضع أصبح استمرار الحملة المملوكية في مواصلة طريقها بالغ الصعوبة، خاصةً أن المسافة المتبقية بينها وبين وجهتها النهائية مازالت بعيدة جداً، وأنها إذا كانت غير قادرة على الحصول على ما يكفيها من المؤن وهي مازالت في النطاق الحيوي لها فإنها ستكون أعجز في مواجهة قوة عظمى بحجم البرتغاليين وإمكاناتهم، ولعل الأمير حسين الكردي رأى في موقف الطاهريين هذا ممالأةً للبرتغاليين ووقوفاً إلى صفهم، فوجد نفسه مضطراً إلى معاقبتهم، ولما كنا على علم بمدى قوة شخصية السلطان قانصوه الغوري فإننا ندرك أن تغيير مسار الحملة - كما سنراه - كان عن مشورةٍ منه، وليس محض اجتهاد شخصي من قائد الحملة .

تحولت الحملة بقوامها كاملاً إلى السواحل اليمنية، وتقاطرت القوى المعارضة للحكم الطاهري، من القبائل وغيرهم، إلى الأمير حسين الكردي باذلين له المساعدة والعون، مقدمين أنفسهم جنوداً في حملته، فصَعَّبَ ذلك الأمرَ على الطاهريين[٣٧]، الذين انهزموا أمام المماليك في أول اختبار لهم معهم، فوقعت زبيد تحت السيطرة المملوكية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وسقط الأمير عبدالوهاب بن السلطان الظافر الثاني جريحاً ليموت بعدها بأيام في تعز، وكان لبنادق المماليك الحديثة التي لم يعهدها اليمنيون دور الفصل في هذه المعارك[٣٨]، وتتابعت هزائم الطاهريين أما المماليك، بما فيهم السلطان الظافر الثاني نفسه الذي خسر أول معركة يقودها أمامهم سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) في منطقة التُّرْبَّة[٣٩]، فانسحب إلى مدينة تعز، ثم غادرها إلى إبّ أمام زحفهم، فأقاموا الخطبة للسلطان الغوري على منابرها[٤٠] .

واصلت القوات المملوكية تقدمها حتى دخلت المقرانة - مركز الحكم الطاهري، وتقهقر السلطان الظافر عامر الثاني حتى وقعت بين الطرفين المعركة الفاصلة عند أسوار صنعاء في ربيع الآخر من

سنة ٩٢٣هـ الموافق مايو ١٥١٧م، وانجلت المعركة عن مقتل السلطان الطاهري وأخيه عبدالملك[٤١]، وبذلك استحكمت قبضة المماليك على أهم المناطق في اليمن، في تهامة والجبال، ولم تستعصِ عليهم من المناطق التي قصدوها سوى عدن .

تعليق على وثيقة السفارة الثانية :

اختلفت وثيقة هذه السفارة عن وثيقة السفارة الأولى من نواح عدة، منها أن هذه الوثيقة تضمنت التصريح باسم السفير الذي تصدر للسفارة وحمل الرسالةَ بيده من المُرْسِل إلى المُرْسَل إليه، فهو الفقيه العالم العامل صلاح الدين بقية المجاهدين-كما وصفته الوثيقة - صلاح بن سراج الله، ومما يؤسف له أن مصادر تراجم علماء اليمن التي صنفها مؤرخو الزيدية أو خصومهم لم تتضمن ترجمة لهذا الفقيه، ومن جانب آخر اختلفت هذه الوثيقة عن سابقتها بأنها صرَّحتْ بأن ما تم تدوينه في متن الرسالة ليس كل ما أراد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين تحريره فيها، وأن السفير مفوض في تبيين ما لم يتسع مقام كتابة الرسالة له، فقد قال الإمام شرف الدين في آخر عباراتها : " ... والفقيه الصالح صلاح يحقق لكم ما لا يتسع له الكتاب، ولا يقوم به إلا المشافهة والخطاب، وصلاة الله على سيدنا محمد وآله وسلم "[٤٢] بينما نجد وثيقة السفارة الأولى لا تصرح بفتح الباب أمام السفير لإضافة شيئ إلى ما تم التطرق إليه من الحجج فيها، وآخر وجو الاختلاف بين السفارتين أن الأولى كانت بين قوتين يمنيتين في حين أن أحد طرفي الثانية كانت قوة إقليمية غير يمنية .

من ناحية أخرى نجد عدداً من أوجه التشابه في البناء اللغوي لوثيقتي السفارتين ومحتواهما الدلالي، فمُحَرِّر كلا الوثيقتين قد حافظ على قدر كبير من زخرفة ألفاظهما بالسجع وأخواته من المحسنات البديعية الأخرى، وذلك ما يدعونا إلى ترجيح أن كاتب الوثيقتين هو الشخص نفسه، وربما يكون الإمام المتوكل يحيى شرف الدين شخصياً، كما أن وثيقة السفارة الثانية أكَّدتْ على المعلومات التاريخية التي تضمنتها وثيقة السفارة الأولى عن وجود أحد أقارب الإمام شرف الدين من الزيدية العلويين بين صفوف الطاهريين، يعضدهم وينصرهم على أهل مذهبه، وهي المعلومة التي لم تتضمنها المصادر التاريخية اليمنية، تقول الوثيقة الثانية : " ... وأعانه على ذلك رجل منا أهل البيت، ادعى ما ليس له بحق، فأنكر عليه الإمام الوشلي، فلم يزل صاحبنا يعضد هذا الطاغية، وينصر فرقته الباغية، حتى تمكن من الإمام الوُشَلِي محمد بن علي... "[٤٣].

هناك مجموعة من النقاط المهمة الجديرة بالإبراز في ثنايا ملامح وثيقة السفارة الثانية، يمكننا التطرق إلى أهمها في النقاط الآتية:

(١) مع أن الخلفية الفكرية العقائدية والمذهبية التي يدين بها حكام الدولة الطاهرية بمن فيهم السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب هي نفسها الخلفية العقائدية والمذهبية التي يدين بها المماليك الجراكسة بمن فيهم الأمير حسين الكردي ، التي سبقت الإشارة إلى أنهما من دوافع الصراع بين الزيدية وغيرهم من أبناء اليمن، إلا أن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين لم يجد بأساً في الاستعانة بالأخير ضد الأول، وهو ما يعزز القناعة بأن القوى اليمنية وظفت الخلافات الفكرية والمذهبية في صراعها مع بعضها كونها حافزاً كبيراً لأفراد جيوشها للإنخراط في صراع تلك القوى على المصالح السياسية والاقتصادية بحماسة كبيرة، فقد كان الطاهريون - حكاماً ومحكومين- شافعيي المذهب أشعريي العقيدة، وذلك بالضبط ما ينطبق على الأمير حسين الكردي ورؤسائه ومرؤوسيه .

(٢) ألمحت هذه الوثيقة بشكل شبه صريح إلى النسب الأموي للطاهريين وسلطانهم الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب، وهو ما غاب تماماً في ثنايا وثيقة السفارة الأولى، تقول الوثيقة في معرض مدحها للأمير حسين الكردي : "... أمير الأمراء الإسلامية، مفرج كرب العترة الطاهرة الزكية، الناقم بثأر الحسين من الفرقة الغوية، الظالمة العامرية، المتحلي من أجل ذلك بكل زين، المتخلي عن كل شين، الوافي بحق سيد الشهداء الحسين، الأمير الجليل النبيل حسين، حياه الله من السلام بأسناه، ومن الإكرام بأزكاه وأهناه ..."[٤٤]، وفي ذلك قرينة واضحة تدل على أن إرث الماضي السحيق من الفتنة الكبرى والصراع بين معاوية بن أبي سفيان والإمام علي بن أبي طالب وما تلاه إبان الحكم الأموي كان ماثلاً بين عيني الإمام يحيى شرف الدين ومستحضراً إياه في صراعه مع الطاهريين .

(٣) ربما يتبادر إلى الذهن أن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين لم يتطرق إلى التلميح إلى ما جرى للحسين بن علي على أيدي الأمويين إلا ليستجيش عاطفة الأمير حسين الكردي كونه يحمل الاسم نفسه وليحمله على التعاطف مع الزيدية المنتسبين إلى حفيد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما .

(٤) استطاع الإمام المتوكل يحيى شرف الدين في رسالته أن يوجز بعبارة غير مخلة ما أوقعه السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب في رجال الزيدية وقادتها ، وذلك من مهارته اللغوية ومعرفته القوية بها، إذ يقول في ذلك : "... بأنا لم نزل إلى الله مبتهلين، ولما لديه من الفرج منتظرين، وبالتجرد لما بدت من عدو الله الجائر عامر، والقيام بالدعاء إلى دفاعه وجهاده امتثالاً لأوامر الله الملك القادر، ولكن منع من ذلك عدم المعين والناصر، وخذلان من أهل الزمان المشؤوم القاصر، وميل من الناس إلى الأطماع الحقيرة، وانخداع بزخارف الأباطيل الفاضحة المبيرة، حتى

تمكن منهم هذا الظالم الغشوم، وأوقعهم من الخزي والوبال والهوان في أقصى التخوم، وشمل شره البريء والغوي، والضعيف والقوي، والشجي والخلي، وتتبع بمعظم جيشه ومكره أهل بيت النبي، ولم يبق في سلطانه لأهل البيت باقية، ولا أجيب لهم بإجابة نافعة واعية، حتى بددهم الظالم في البلاد، وفرق بين الآباء منهم والأولاد، ومات الأكثر منهم في تخوم اليمن مطرودين متبددين، يتمنى الولد أن يحضر موت أبيه، والوالد أن يشاهد أحوال بنيه، وفعله في آل المصطفى ما حرم الله في ملك اليمين، بل في سبي الكفار الخارجين عن الدين... ولقد هَمَّ – أخزاه الله – بقصد الحرمين، وإخراج من فيه من ولد الحسين ..." (٤٥) .

(٥) أراد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين أن يستحث دواعي الفخر لدى المماليك القادمين من مصر لعله ينجح في تحويلها إلى رد إيجابي على استنجاده بهم، وذلك من خلال التذكير بسلطان مصر قانصوه الغوري، وبما لمصر من ذكر معروف في سيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيقول: " ... فرجعنا ... إلى الله سبحانه وتعالى، وسألناه تعجيل الفرج، وإطفاء وهج المهج، على يد من هو أهل للمحامد المبرورة، والمقاصد المشهورة، في حياطة الدين والرعاية لحق رسول رب العالمين، وما ذاك إلا لسريرة صالحة، وتجارة رابحة، من السلطان الأكرم، والمستطيل الأعظم، قانصوه أطال الله بقاه وتوفيقه، وأوضح إلى كل مقصود مبرور طريقه، ولقد رعا لسر الله العظيم في أهل البيت والنسب الكريم، الذي جعله الله في مصر لخليلة إبراهيم، وخاتم أنبيائه محمد عليهما وعلى آلهما أفضل الصلاة والتسليم، ونرجو أن الله تعالى قد وفقكم، أيها الغزاة الأعلام، لمشابهة من قال فيهم الملك العلام : " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم..." (٤٦) .

(٦) جعل محررُ هذه الوثيقة الشاهدَ من هذه السفارة وبيت القصيد في هذه الوثيقة الاستنجادية صريحاً واضحاً، إذ هو طَلَبُ المدد من الرجال والعدة لكي يستخلص الزيدية أرضهم من أيدي الدولة الطاهرية، ولم يترك المحررُ الاحتمال قائماً في ألا يتضح المطلب الرئيس من السفارة والسفير، تقول الوثيقة : " ... وهذا كتابنا يحتوي على التهنئة السنية، بما فتح الله به من الفتوحات الهنية، والحث لكم على استدراك هذه البقية، من عترة نبيكم الطاهرة الزكية، وبذل المعاونة على استخلاص سائر البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه وأنصاره، وقد بقيت لنا بلاد مجاورة لبلاده، ونحن نفتقر إلى الإعانة منكم، بما أمكن من الرجال والعدة، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، والله خير الناصرين... " (٤٧) .

الملاحق

- الملحق الأول : النص الكامل لوثيقة السفارة الأولى التي بعثها الإمام المتوكل يحيى شرف الدين إلى السلطان الطاهري الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (١٩) (سورة الحشر)، أما بعد : حمداً لله حق حمده، وشهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة خائف لوعيده، راج لوعده، والصلاة والسلام على سيدنا رسوله وعبده، وعلى الناحين بنحوه، والقاصدين بقصده، فهذا كتاب ممن هو لجميع أمة محمد كالوالد الشفيق، باعتبار النصيحة التي هي الدين، بنص سيد المرسلين، للخاص والعام والقريب والسحيق، كيف بمن يرجى بقبوله للنصيحة صلاح عامة المسلمين، وسداد كافة المؤمنين، ودفع البلية عن أهل بيت الأمين، وسكون واعيتهم الحاصلة بما نالهم من التمحيص والتمحين، وحقن دمائهم ودماء الناس أجمعين، (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الذاريات)، لا جرم من كان القصد الحسن التصدير بهذا [ص: ٢٢] البلاغ الأنور إلى ملك اليمن، فأقول : ولست مزكياً نفسي، من العيوب ومقارفة الذنوب، ولكن أفعل بالخبر المشهور، والأثر المأثور، مُرُوا بالمعروف وإن لم تفعلوه كله، واجتنبوا المنكر وإن لم تجتنبوه كله [٤٨]، واعتصم بالله من أن أكون من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وأسأله أن يكون لي حيث قصدي.

أيها الملك الذي تزينت له دنياه، فظن أن رضى مولاه في فعله ما يطابق هواه، وغرّه قول جهال أوليائه : إن الله أكرمه بالقهر لأعدائه، سلام عليك، والله وسيلتي إليك، في أن تتبع كلامي في كتابي هذا تتبع طالب للرشاد، مفرغ قلبه من الأحقاد، منصف من نفسه، ذاكر قرب حلول رمسه، وحيداً لا مؤنس له ولا وَزَرَ ولا مهرب ولا مفر إلا ما اكتسب من صدق اليقين، واستصحاب تقوى المتقين، ولا يصدنك أنفة المتكبر عن تأمل ما أتى به مُذَكِّرُه، فنصيحة في تخشين، خير من خديعة في لين، إياك أن تتبع هواك فيضلك عن سبيل الله، (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (سورة ص)، فإن دعاك من جلسائك عبيد هواهم إلى ما فيه بقاء التذاذهم ...[٤٩] فـ (قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (سورة الأنعام)، وتيقظ عن سِنَة الغفلة قبل أن تُسْتَزْعَج للرحلة بموقظ قول نحن إليه صائرون: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (سورة الأعراف)، وتفكر تفكر الذين إذا

علموا هم يعملون، وفي معنى تهديد (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (سورة الحجر)، (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (سورة المؤمنون)، واطف تأجج نار الكبر بقوله تعالى: (نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (سورة البقرة)، ولا يغرنك قول الجليس والخليل: إن الذي أنت عليه جميل مقيل، (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) (سورة الفرقان)، وقال – وهو أصدق القائلين– (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (سورة الزخرف)، وهيهات أن يأتي آمناً من يخبط في ذنبه خبط العشوى، ويضرب بأسباب الهوى إلى غير سبيل التقوى، (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (سورة النازعات)، هذا وانا لا نلتمس منكم اتباعنا، والانقياد لمجرد قولنا، بل ندعوكم إلى تأمل آيات القرآن المجيد، الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (سورة فصلت)؛ ولهذا اسكثرنا في رسالتنا من آيات القرآن للقطع بحفظه من الخلل والزيادة والنقصان، ولم نستكثر من إيراد أحاديث الرسول صلى الله عليه وعلى أولاد فاطمة البتول وسلم؛ لقلة المتواتر منه والمتلقى بالقبول، واحتياج الأحادي منه إلى معرفة الرجال العدول، والمعروف منهم والمجهول، الذي لا يخبط فيه إلا العلماء الفحول، قال الله تعالى: (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (سورة آل عمران)، فنحتاج إلى معرفة حقيقة العبادة، ولا تُعرف حقائقها إلا بالنظر في أوامر الباري ونواهيه، ثم تتبع أحوالك وأحوال من تعاديه وتناويه، فما وافق الشرع اتبع، وما بعد عنه احترز منه وامتنع، عملاً بما ندب إليه قول من بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة الأعراف) .

وإذا كنت من أهل التقليد، لمن لم يعرف حكم الشرائع المفيد، فإن عليك فرضاً واجباً، وحتماً لازباً، وهو التزام من تركن على فضله ووعده، وعدم طمعه في الدنيا وهلعه، أن يتلو عليك نصوص العلماء المتقدمين من الشافعية والحنفية والمالكية، إذ لم يكونوا ليميلون عن علماء أهل البيت الطاهرين، ثم تنظر هل أنت في أفعالك وأقوالك أحق بالأمر أم مَنْ يتأهل لهذا الأمر من أهل البيت الجامع لشروط الزعامة، وأسباب الإمامة، التي هي كلها أمور دينية ومصالح كلية، وإن قلت: إنك لم تحارب من أهل البيت إلا من ظهر ظلمه وجار حكمه، فما سبيلك إلى من لم يظهر منه ذلك ولا سلك في مثل تلك المسالك، بل ما سلطانك على من دأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتنزه عن المعاصي في صغره والكبر، ولا يفعل فعلاً إلا وقد نظر في موافقته

للشرع الشريف، ومطابقته للدين الحنيف، ثم انظر في فعالك، هل أنت تحرّي فيها مطابقة ذلك؟ وانظر في أتباعك وأهل مذهبك في زمانك، هل معهم من الزهد والورع مثل أتباع خصومك حتى تأخذ لنفسك؟ فإن قلت: إني ما أجريت العدل في أهل البيت إلا لقيامه مقام الجاهل، فهلا قمت مع العادل منهم على الجائر حتى يستقيم على الحق وينحط الباطل، ثم انظر إلى أعوانك الذين يتعلقون بالأمر ... [٥٠] على مثل مال الذي أجريتهم عليه، من فعل المنكر والجور، والفعل بما لم يطابق الشرع المطهر، فيجري لك في هذا أنّ قَصْدَ نفسك وقَصْدَ من معك ليس إلا رفعة الدنيا لا غير، وكثير من علماء مذهبك يقول: إنك غير جارٍ على شريعة الرسول .

هذه نبذة من أمور ظاهرة، يفهمها العالم وغير العالم، ولا تسأل في علماء مذهبك إلا من ليس يأخذه في الله لومة لائم، ويخاف عقاب ما أشارت إليه هذه الآيات التي قال الله فيها: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) (سورة آل عمران)، (لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(سورة آل عمران)، (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) (سورة البقرة) ولا تقبل منهم من غير نظر منك لنفسك، وافتكار فيما ألقوه إليك من الإخبار، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: استفت نفسك وإن أفتاك المفتون[٥١]، فإن مجرد التقليد ليس طريقاً إلى السلامة، ولا سبيلاً إلى الأمان عند الندامة، في هذه الأمور القطعية، والعوائد الكلية، بل لابد فيها من البيان حتى [ص:٤٢] يسكن الخاطر والجنان، وإلى هذا المعنى أشار الملك الرحمن: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)(سورة التوبة)، قال ابن عباس: ما عبدوهم، بل قالوا فاتبعوهم من غير برهان، وقال الله تعالى حاكياً عن المقلدين: (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ) (سورة غافر)، (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ) (سورة الأحزاب)، وذم المقلدين حيث قال: (قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (سورة المائدة)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: من أخذ دينه عن أفواه الرجال ذهبت به الرجال من يمين إلى شمال، وكان في دين الله على أعظم زوال[٥٢] ... [٥٣] .

وليت شعري هل بقي عند علماء مذهبك شرع الإمام كما هو نص الشافعي وغيره من العلماء الأعلام، فإن كان ذلك عندكم باقياً فهل تعتقد في نفسك أنك إمام المسلمين؟! فإن قلت: لا، فما طريقك إلى فعل أفعال الأئمة؟ وما سلطانك على من توليت عليهم من هذه الأمة؟ وكيف حالك

عند خالقك؟ وإن قلت: نعم، قلت لهم: هلّا لها شروط معتبرة، وقواعد محررة، فلابد أن يقولوا: نعم، فانظر هل قد أدركت شروطها وحقائقها؟ واستكملت أسبابها وطرائقها؟ فلا شك أن الإمام خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومنها هذا، وتعلم أنك في هذا الزمان قد جردت لعداوة أولاد نبيك صلى الله عليه وآله وسلم وتفريقهم، وتبديدهم في البلدان، وقد جرى عليهم منك هذا التمحيص، وما خرجوا من الشام إلى اليمن إلا من مثل هذا البلاء والتنغيص، وليس عليهم في هذا حرج عند الله وعند من يعرف ويعقل سنن الأنبياء والصالحين، وإنما الحرج والمصيبة في الدين والدنيا على من تصدى لمناواتهم، وتعنّى بمعاداتهم، وانظر الذين فعلوا مثل فعلك ممن قد تمكّن أكثر من تمكُّنك من الأموية والعباسية وغيرهم من الملوك، هل كان لهم بذلك في دينهم ودنياهم أثر صالح؟ أم قد أهلكوا أنفسهم، وبطل أمرهم واضمحل، إلا بكل سوء ذكرهم، ولم يعرف لأحد منهم باقية، وكل لسان عليهم بالذم ناعية، وأولاد علي عليه السلام لا يزال يتجدد أمرهم، ولا يبلى على وجه الأرض ذكرهم، وذلك مصداق قول جدهم صلى الله عليه وآله وسلم: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض[٥٤]، فالله الله في نفسك، احذر أن يكون خصمك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تفريقك أولاد بنته في البلاد، وقصدك لهم بالهلاك والفساد، فإن قلت: إنك لم تقصد إلا من كان منهم ظالماً لنفسه، وغير عامل لحلول رمسه، فلا ننكر أن منهم من قد كان كذلك، ولو لم يكن منهم ذلك ما وقعوا في المهالك، لكن مالك لا تعين الصالح منهم على الطالح حتى يكون من أهل النظر في المصالح، بل صرت تجعل همك في نكاية أفضلهم وخيارهم، وتقصد بالسوء علماءهم.

هذا ونحن ندعوك إلى أمور: إما إخلاصك إلى صاحب الإمامة، [ص:٥٢] من أهل الرئاسة بالحق والزعامة، من أولاد بنت نبيك المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار، وعملك على رأيه في الإيراد والإصدار، حتى تكون من جملة أتباعه وأعوانه وأنصاره، فتفوز بخير الدنيا والآخرة، وتظفر بالسعادة التامة، ولا أراك لهذا فاعلاً، والأمر الثاني: أن تعين صاحب هذا الأمر من أولاد بنت نبيك بشيء من المال والبلاد، تقرّب بذلك إلى رب العباد، وتقتصر على ما قد صار في يدك من الممالك، ولا تضيق على أولاد بنت نبيك المسالك، وتجمع شملهم في أوطانهم، وتقرّب إلى الله باجتماعهم في أعطانهم[٥٥]، والذي تخافه في اجتماعهم لا يضرك مع علم الله بقاء مملكتك، ولا ينفعك حذرك مع علم الله زوالها، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ

بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) (سورة يونس)، مع أن الموت قريب عاجل، والزوال من الدنيا - وإن مُلكتْ كلها - لا يشك فيه عاقل، فليست الدنيا تسوى هذا الاحتفال، ولا تقابل بهذا الالتفات إليها والإقبال، ولو كانت الدنيا عند الله تسوى جناح بعوضة ما سقى فيها كافر شربة ماء[٥٦]، فلا تغتر بما ملكت فيها من الملك الزائل، والمال الطائل، فقد تملّكه كافرون في كثير من الأرض، ذات الطول والعرض، وكأني بمن عندك من أهل مذهبنا- بل من بعض قرابتنا - يقول: لقد فعلت هذا الوجه بمن هو عنده، وذلك قول غير صحيح، صادر من غير نصيح، فإنه يعلم - وأنت تعلم - أنك غير فاعل لذلك، لأحد من أهل المالك، ولعلك تعلم - ونحن نعلم - مما نقمنا على المشار إليه، عدم صلاحه لما عُوِّلَ فيه عليه، وهذا الوجه قد جعله الشيخ علي بن طاهر لحي والدنا الإمام المطهر بن محمد عليه السلام، فإنه أعانه على أخذ ذمار، واستصفى ما حولها من الأقطار، وكان عوناً له على أمره، حتى قيل أنه أخذ منه ولاية فيما يقدم فيه ويحجم، ويقطع ويجزم، فإن صح ذلك فهو إذاً من الموفّقين، السعداء في الدنيا والدين، ولعل أسرار زيارته الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وروايته التي تُذكر قد أدركته حتى فاز بجزيل الثواب، ونجى من وبيل العذاب .

وإن لم يحصل منك لا هذا ولا هذا، فأمرٌ ثالث، وهو المهادنة لمن بقي من الزيدية في هذه البلاد الحقيرة، والقرى اليسيرة، فإنها لا تزيد في ملكك إن علم الله بقاه، ولا تمنع من هلاكك إن أراد الله انتفاه، وقد صرت في أمهات بلاد اليمن، والله أعلم ما يكون في حرب من بقي، هل لك أم عليك، (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (سورة يونس) .

وقد عجبنا من قصدك لنا بالعداوة من غير أن تعرفوا ما عندنا، ولا تتيقنوا قصدنا، وما تنقمون منا إلا أن قمنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآن ما قد جرى بيننا وبينكم ما يحرج الصدور، وقد طلبنا منكم أخذ هذه الأمور، والصلاح فيها لكم ولسائر الجمهور، هذا ولا بد أن يكون من عندكم من الناس في رسالتنا هذه على أنصاف:

- منهم من يقول: هذا رجل مغفل يطلب ما لا يتقدر، ويحاول ما لا يتصور .
- ومنهم من يقول: هذا يجرُّ العرض إلى [ص:٦٢] نفسه .
- ومنهم من يقول غير ذلك .

فعليك أن تنظر في القول لا في القائل، فقد قال سبحانه في حق سيد البشر حين جرى في حقه مثل هذه الأقوال ممن كان في زمنه: (وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) (سورة غافر)، (وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) (سورة محمد) .

واعلم – هداك الله – أنه إذا حصل جمع شمل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على يديك كنت أسعد الملوك والسلاطين، وأرفع مشايخ الأولين والآخرين، فتعلم أن زيد بن علي وأبا حنيفة والشافعي ومالكاً رضي الله عنهم أجمعين على شريعة واحدة، وطريقة غير متباعدة، وقد كان من تلامذة زيد بن علي عليه السلام أبو حنيفة، ونال بسبب موالاة الإمام يحيى بن عبدالله ما هو معروف في السير، وكذلك نال الشافعي رحمه الله بسبب موالات الإمام يحيى بن عبدالله إلى حد الضرب بالسياط، فلا تظن أن بين المذهب الزيدي وبين مذاهب الفقهاء الأقدمين عداوة، وكلا منهم يصوّب الآخر في اجتهاده، ولا يخطّيه في مذهبه واعتقاده، وإنما فرق بينهم علماء السوء المتأخرون.

ولنختم كتابنا هذا بما ختم الله كتابه الكريم، حيث قال: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (سورة البقرة)، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم »[٥٧].

- الملحق الثاني : النص الكامل لوثيقة السفارة الثانية التي بعثها الإمام المتوكل يحيى شرف الدين مستنجداً بالأمير المملوكي حسين الكردي قائد الحملة المملوكية إلى الهند :

« بسم الله الرحمن الرحيم، نعمة سبقت وشملت، ومنحة تمت وكملت، بلغت من لدن حكيم خبير، على أهل بيت نبيه البشير النذير، أجراها على يد ملك السيف الأمير، الهمام الخطير، أمير الأمراء الإسلامية، مفرج كرب العترة الطاهرة الزكية، الناقم بثأر الحسين من الفرقة الغوية، الظالمة العامرية، المتحلي من أجل ذلك بكل زين، المتخلي عن كل شين، الوافي بحق سيد الشهداء الحسين، الأمير الجليل النبيل حسين، حياه الله من السلام بأسناه، ومن الإكرام بأزكاه وأهناه، والله المسؤول أن يوفقنا وإياه لإصابة مراده، وهداية عباده، وإجراء أحكام شريعته الطاهرة في بلاده، وتطهيرها من آثار الجائر وتنويرها من ظلمات جرأته وعناده، وبعد : فإن كتابنا هذا لتعريف خاطر الأمير، وفقه الملك القدير، بأنا لم نزل إلى الله مبتهلين، ولما لديه من الفرج منتظرين، وبالتجرد لما بدت من عدو الله الجائر عامر، والقيام بالدعاء إلى دفاعه وجهاده امتثالاً لأوامر الله الملك القادر، ولكن منع من ذلك عدم المعين والناصر، وخذلان من أهل الزمان المشؤوم القاصر، وميل من الناس إلى الأطماع الحقيرة، وانخداع بزخارف الأباطيل الفاضحة المبيرة، حتى تمكن منهم هذا الظالم الغشوم، وأوقعهم من الخزي والوبال والهوان في أقصى التخوم، وشمل شره البرئ

والغوي، والضعيف والقوي، والشجي والخلي، وتتبع بمعظم جيشه ومكره أهل بيت النبي، ولم يبق في سلطانه لأهل البيت باقية، ولا أجيب لهم بإجابة نافعة واعية، حتى بددهم الظالم في البلاد، وفرق بين الآباء منهم والأولاد، ومات الأكثر منهم في تخوم اليمن مطرودين متبددين، يتمنى الولد أن يحضر موت أبيه، والوالد أن يشاهد أحوال بنيه، وفعله في آل المصطفى ما حرم الله في مِلْكِ اليمين، بل في سبي الكفار الخارجين عن الدين، وأعانه على ذلك رجل منا أهل البيت، ادعى ما ليس له بحق، فأنكر عليه الإمام الوشلي، فلم يزل صاحبنا يعضد هذا الطاغية، وينصر فرقته الباغية، حتى تمكن من الإمام الوشلي، محمد بن علي، ولم يعذرنا أهل زماننا عن القيام في مقامه الجلي، ولقد هَمَّ - أخزاه الله - بقصد الحرمين، وإخراج من فيه من ولد الحسين، فرجعنا - مع بذل ما بقي معنا من جهد في دفاع مجهود المذاكرة له كثير من الحدود - إلى الله سبحانه وتعالى، وسألناه تعجيل الفرج، وإطفاء وهج المهج، على يد من هو أهل للمحامد المبرورة، والمقاصد المشهورة، في حياطة الدين والرعاية لحق رسول رب العالمين، وما ذاك إلا لسريرة صالحة، وتجارة رابحة، من السلطان الأكرم، والمستطيل الأعظم، قانصوه أطال الله بقاه وتوفيقه، وأوضح إلى كل مقصود مبرور طريقه، ولقد رعا لسر الله العظيم في أهل البيت والنسب الكريم، الذي جعله الله في مصر لخليله إبراهيم، وخاتم أنبيائه محمد عليهما وعلى آلهما أفضل الصلاة والتسليم، ونرجو أن الله تعالى قد وفقكم، أيها الغزاة الأعلام، لمشابهة من قال فيهم الملك العلام: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة) .

وقد رجحنا إرسال هذه الرسالة بيد صاحبنا الفقيه العالم العامل صلاح الدين، بقية المجاهدين صلاح بن سراج الله، كتب الله هدايته، وأحسن رعايته، وهذا كتابنا يحتوي على التهنئة السنية، بما فتح الله به من الفتوحات الهنية، والحث لكم على استدراك هذه البقية، من عترة نبيكم الطاهرة الزكية، وبذل المعاونة على استخلاص سائر البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه وأنصاره، وقد بقيت لنا بلاد مجاورة لبلاده، ونحن نفتقر إلى الإعانة منكم، بما أمكن من الرجال والعدة، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، والله خير الناصرين، والفقيه الصالح صلاح يحقق لكم ما لا يتسع له الكتاب، ولا يقوم به إلا المشافهة والخطاب، وصلاة الله على سيدنا محمد وآله وسلم »[٥٨] .

الهوامش

١- أديب آل الإمام المتوكل يحيى شرف الدين في عصره، ومؤرخ أخبارهم، كَوكَبَانِيُّ المولد والنشأة، أخذ عن مشاهير علماء اليمن في زمنه، وكانت له مطارحات ومناقشات ومساجلات مع عدد من علماء وأدباء اليمن، وأشهرهم إبراهيم بن الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، وقد ترك ديواني شعر، أحدهما عامي والآخر بالفصحى، كما اشتهر كتابه المشار إليه (المواهِبُ السَّنِيَّةُ)، انظر زبارة: محمد بن محمد بن يحيى (ت١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ودار العودة، بيروت، (د، ت)، ج١ ص ٣٢٩ - ٣٣٦ ، الوجيه، عبدالسلام عباس، أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عَمَّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٣٢٢، ٣٢٣ .

٢- قامت هذه الدولة سنة (٨٥٨هـ / ١٤٥٤م)، وحكمها الملكان الأخوان الظافر الأول عامر بن طاهر والمجاهد علي بن طاهر مدة ٢٥ سنة، ثم حكمها الملك المنصور عبدالوهاب بن داود مدة ١١ عاماً، وامتدت فترة حكم الملك الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب إلى حوالي ٢٩ عاماً، وبقي الأمراء الطاهريون في نزاع دائم حتى انتهى أمرهم بعد وفاة الملك الظافر الثاني عامر بعشرين سنة تقريباً، أي أن ظهورها استمر حوالي ٨٥ عاماً، فتكون مدة حكم الملك الظافر عامر ثلث المدة تماماً، بل تزيد قليلاً .

٣- للاطلاع على جهود هذا السلطان وإنجازاته العمرانية والعسكرية والعلمية ينظر المدخلي، د. محمد ربيع هادي عمير، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٤- ابن الديبع، أبو الضياء عبدالرحمن بن علي (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، (د، ن)، ص ٤٣١ - ٤٤٦، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٧٩م، ص ١٨٥-١٩٨، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق د. يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٤١-٢٥٧، الكندي، تاريخ حضرموت السياسي [العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة]، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ١ ص ١٥٤، محمد ربيع المدخلي، الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية، ص ٧٦ - ٨٨.

٥- يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٦١٨- ٦٢٥، الكبسي، محمد بن إسماعيل (ت١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م)، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ١٢٦، ١٢٧، أحمد، د. محمد عبدالعال، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص ٣٢٣، ٣٢٤، زبارة، محمد بن محمد بن يحيى

(ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، أئمة اليمن، مطبعة النصر الناصرية، تعز، ١٩٥٢م، ص ٣٦٠، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٤٢، ٤٤٥، الفضل المزيد، ص ٢٣٤ - ٢٤٧ .

٦- يَافع اسم لقبيلة حِمْيَريَّة كبيرة، وأطلق اسمها على المنطقة التي يسكنها أفرادها، وتقع منازلها بين الضَّالع ولَحج، وهي أرض جبلية صخرية شديدة الوعورة، ترتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ٢٢٠٠ قدم، ويبلغ ارتفاع بعض جبالها إلى ٢٥٠٠ قدم، وهي أعلى المناطق في المحافظات الجنوبية من اليمن وأكثرها ارتفاعاً، وبقدر ما أسهمت هذه الطبيعة الصعبة جداً في عزلة أهلها أسهمت أيضاً في إكسابهم قدراً عالياً من الشجاعة والإقدام، وجعلتهم مغرمين بالسفر والهجرة إلى نواحٍ يمنية مجاورة أو أقطار أخرى، بامخرمة، الطيب بن عبدالله بن أحمد (ت٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)، النسبة إلى المواضع والبلدان، نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، تحت رقم(٢٥٦٩)، ق ٤٠٢، الحجري، محمد بن أحمد (ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق إسماعيل الأكوع، مكتبة الإرشاد، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج ٤ ص ٧٧٣، ٧٧٤، المقحفي، إبراهيم بن أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج ٢ ص ١٨٩٤ - ١٨٩٦ .

٧- بَيْحان حقلٌ أثري واسعٌ في قاع فسيح يمتد باستطالة ابتداءً من سفوح الجبال الواقعة شمال مدينة البيضاء إلى أطراف رملة السبعتين التي تعد أحد أكبر أقسام صحراء الربع الخالي، وبَيْحان أحد منازل قبيلة مُراد المَذْحِجيَّة الشهيرة، التي ينتمي إليها قاتل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الخارجي الشهير عبدالرحمن بن ملجم المرادي، وأرض بَيْحان زراعية خصبة، غنية بالمياه المنحدرة إليها من جبال البيضاء، ومياهها الجوفية متوافرة على أعماق قريبة، لذلك تكثر فيها مزروعات الحبوب وبعض الفواكه والخضروات، وتكثر فيها المناحل، وبَيْحان تقع على أطلال مدينة تَمْنَع الأثرية القديمة، التي كانت عاصمة لدولة قَتَبان اليمنية في فترة ما قبل الميلاد، وهي تشكل واحدة من مديريات محافظة شَبْوَة المتاخمة لصحراء الربع الخالي، بامخرمة، المصدر السابق، ق ٧٥، الحجري، المصدر السابق، ج ١ ص ١٣٢، ١٣٣، المقحفي، المصدر السابق، ج ١ ص ٢٠٨، ٢٠٩ .

٨- تناولت المصادر والمراجع الآتية أخبار هذا الإمام، ابن داعر، صلاح بن داعر المرهبي (ت في القرن العاشر الهجري)، سيرة الإمام يحيى شرف الدين، صورة عن نسخة مخطوطة بمكتبة زيد الحوثي، صنعاء، ق٤ وما بعدها، زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٦٩ وما بعدها، اتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين، مطبعة المقام الشريف، صنعاء، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، ص ٧٤، خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، تحقيق أحمد محمد زبارة، مركز التراث والبحوث اليمني، ساري، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج ٣ ص ٥٥ وما بعدها، شرف الدين، الحسن بن عبدالرحمن بن أحمد شرف الدين (ت١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م)، المواهب السنية مما منَّ به الله تعالى من الفواكه الجنية من أغصان الشجرة المتوكلية، مخطوط، صورة عن نسخة إبراهيم عبدالكريم شرف الدين، كوكبان، ص ١٦ وما بعدها، شرف الدين، محمد بن إبراهيم بن المفضل بن إبراهيم (ت١٠٨٥هـ/١٦٧٤م)، السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية، (د، ت، ن

)، ص١ وما بعدها، المؤيدي، داود بن الهادي بن أحمد (ت ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م)، ذيل البسامة، (ملحق بكتاب مآثر الأبرار) تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمَّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص ١٣٩٠، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص٦٣٥ وما بعدها.

٩- حمل الاسمين معاً : يحيى وشرف الدين، أي أن شرف الدين ليس لقباً له، وقد اشتهر باسمه شرف الدين أكثر من شهرته باسم يحيى، انظر مصادر سيرته .

١٠-هو الإمام الناصر الحسن بن عزالدين بن الحسن (ت٩٢٩هـ/١٥٢٣م)، أعلن دعوته وإمامته فور وفاة أبيه، وبعث رسائله إلى كثير من الجهات، وقَبِلَ أمير صعدة محمد بن الحسين الحمزي البهال إمامته، وأقام الدعوة له على منابرها بالرغم من أنه كان معارضاً لأبيه، ورفض إمامته عدد من كبار أهل بيته، وقد وقعت المناظرة بينه وبين معارضه الإمام المنصور بالله محمد بن علي الوَشَلي السراجي في السودة حول مسوغات الخروج والتعارض، ولم يُسَلِّمْ أحدٌ منهما لصاحبه، ولم يذكر في عهد الإمام الناصر بعد ذلك ما يشتهر سوى تحالفه مع الشريف محمد بن عبدالله الشويع - أحد أشراف المنطقة الشمالية الشرقية لليمن - ضد الإمام المتوكل يحيى شرف الدين سنة (٩٢٤هـ/١٥١٨م)، انظر زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٥٧، اتحاف المهتدين، ص ٧٣، خلاصة المتون، ج ٣ ص ٤٢، الكبسي، اللطائف السنية، ص ١١٧، المؤيدي، ذيل البسامة، ص١٣٧٤ وما بعدها، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٢١ وما بعدها .

١١-أحد أشهر معاقل العلم والحصون الشهيرة في تاريخ اليمن، به كهوف عديدة وعميقة، يقع في قمة جبل إلى الشمال من مدينة حجة، ويبعد عنها بمسافة ١٥ كيلومتراً تقريباً، وتنتشر على جوانبه الكثير من المدرجات الزراعية، وهو اليوم مركز إداري من مديرية مَبْيَن بمحافظة حجة، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج ٣ ص ٥٦٧، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ص ٩٧٥، ٩٧٦ .

١٢-زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٧٢، خلاصة المتون، ج ٣ ص ٥٨، شرف الدين، المواهب السنية، ص ١٧، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ١٩، ٢١، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٣٥.

١٣-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦- ٢٨، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ - ٢٩، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٤٢، خطاب، عبدالعظيم، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م، ص ٢٠٩ .

١٤-زبارة، خلاصة المتون، ج ٣ ص ٧٦، شرف الدين، المواهب السنية، ص ٣١، أئمة اليمن، ص ٣٨٨ .

١٥-الفرقة الأخرى هي الشيعة الإمامية، وكل فرق الشيعة - وإن كَثُرَتْ - ما هي إلا من فروع هاتين الفرقتين الرئيستين(الزيدية والإمامية)، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م)، رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج ٦ ص ٢١١، الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت٣٣٠هـ/٩٤١م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م،

ج ١ ص٨٨، البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ٣٨ .

١٦- هو الإمام المنصور بالله محمد بن علي بن محمد بن أحمد الوُشَلي السراجي الحسني (ت.٩١٠هـ/١٥٠٤م)، أحد أعلام الزيدية، علمياً وسياسياً وعسكرياً، كان معروفاً بالفضل وسعة العلم والشجاعة والإقدام، لهذا كان رأس حربة الزيدية في صراعها المرير مع الدولة الطاهرية على عهد السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب قبل تمكنه من اكتساح مناطق نفوذ الزيدية، وكان الإمام المنصور محمد الوشلي يستخدم مهارته العالية في البلاغة وجودة نظم الشعر في تحريض جموع الزيدية وأئمتها المتصارعين على منصب الإمامة ليقوموا بمواجهة خطر الطاهريين الداهم، وقد وقع في أسر السلطان الطاهري الظافر الثاني فألقاه في السجن حتى توفي فيه سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م)، الزحيف، محمد بن علي بن يونس (ت٩١٦هـ/١٥١٠م)، مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار، تحقيق عبدالسلام الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمَّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٣ ص١٢٦٩، زبارة، أئمة اليمن، ص ٣٥٨-٣٦٦، الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ص ٩٦٩ .

١٧-المقصود بالعدل والظلم في هذا البيت – في تقديري- ليس المدلول البدهي لهاتين اللفظتين الذي يتبادر إلى ذهن القارئ، بل فيها تضمين لاصطلاح عقائدي، فالقائل هنا يشير إلى العقيدة الزيدية الاعتزالية، الشهيرة بـ(عقيدة العدل والتوحيد)، والظلم المشار إليه فيه تلميح إلى وصف الزيدية للعقيدة الجبرية التي اتهموا بها أهل السنة في اليمن .

١٨-إسماعيل بن محمد، سمط اللآل في شعر الآل، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، تحت رقم (١٨٤١ أدب)، ص ٣٣٢ .

١٩-ذلك أن الزيدية – كغيرهم من القائلين بالعقيدة الاعتزالية – يقولون بأن الإنسان يخلق أفعاله بنفسه، ومن لا يقول بقولهم – في نظرهم – فهو يضيف كل فعل إلى الله سبحانه وتعالى.

٢٠-المصدر السابق، ص ٣٢٩ .

٢١-المصدر السابق، ص ٣٣٥.

٢٢-البريهي، عبدالوهاب بن عبدالرحمن السكسكي (ت٩٠٤هـ/١٤٩٨م)، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ص ١١٣ .

٢٣-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٣ .

٢٤-المصدر السابق، ص ٢٤ .

٢٥-المصدر السابق، ص ٢٦ .

٢٦-المصدر السابق، ص ٢٥ .

٢٧-الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ج ٧ ص ٥٥٢، الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن بن أحمد (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م)، مقاتل الطالبيين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٢٣٢-٣١٥ .

٢٨-الطبري، المصدر السابق، ج ٨ ص ٢٣٥، الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٤٦٥- ٤٧٠، ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مكتبة صبيح، القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ١٥٦، ١٥٧ .

٢٩-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦ .

٣٠-السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة من ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٤م، ص ٢٨١.

٣١-ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ٣٠٤، ٣٠٥، خطاب، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، ص ٢٠٤.

٣٢-السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص ٢٨٢، سليم، محمود رزق، الأشرف قانصوه الغوري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د، ت)، ص ١١٨ .

٣٣-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦- ٢٨، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ – ٢٩، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٤٢، خطاب، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، ص ٢٠٩ .

٣٤-يبدو أن البطانة السيئة كان لها الدور الكبير في إيغار صدر السلطان الظافر الثاني عامر بن عبدالوهاب الطاهري على الحملة التي بلغته أخبارها عندما وصلت إلى جازان، فقد أرسل أميرها -حسين الكردي- رسولاً منه إليه يخبره ببلوغ الحملة جازان، وأن وجهتها الهند بغرض جهاد البرتغاليين، ويستحثه إلى بعث معونته المالية والعينية، انظر شهاب،محمد صالح، أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار الفارابي، بيروت، لجنة نشر الكتاب اليمني، عدن، ١٩٧٧م، ١٤٧، شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، الطبعة الخامسة، ص ٢٣٣، ٢٣٤، ويحكي المؤرخ بافقيه، محمد بن عمر الطيب، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ١٠٦: أن السلطان انزعج للخبر وأعرض عن الجواب، وإذا أخذنا بهذه المعلومة فإنها ستكون التفسير القوي لإرجاء الأمير حسين الكردي الرد على الإمام شرف الدين، وكأنه لم يكن قد استوثق بعدُ من موقف البلاط الطاهري من حملته .

٣٥-سالم، د. سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربية وجامعة صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م، ص ٩٩ .

٣٦-ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٠، الفضل المزيد، ص ٣٥٨، بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ١٠٦، ١٠٧، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٤٢، ٦٤٣، خطاب، قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، ص ٢٠٥، ٢٠٦ .

٣٧-بافقيه، المصدر السابق، ص ١١٤، يحيى بن الحسين، المصدر السابق، ص ٦٤٤، ٦٤٥، ابن الديبع، المصدر السابق، ص ٤٦٤، ٤٦٥، الفضل المزيد، ص ٣٦١ .

٣٨-المصدر السابق، ص ٣٦١، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٤، النهروالي، محمد بن أحمد (ت٩٩٠هـ/١٥٨٢م)، البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات المدينة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ٢١ .

٣٩-تصغير تربة، قرية كبيرة إلى الجنوب الشرقي من مدينة زبيد، وليست بعيدة عنها، وهي اليوم إحدى مراكز مديرية زبيد الإدارية بمحافظة الحديدة، المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، ج ١ ٢٢٧، ٢٢٨ .

٤٠-شيبان، أحمد سالم، الوجود المملوكي في اليمن٩٢١-٩٤٥هـ/١٥١٥-١٥٣٨م، دار الثقافة العربية، الشارقة وجامعة عدن، الطبعة الأولى، (د. ت)، ص ١٦٥، بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، ص ١٢٥، النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص ٢٩، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٨، الفضل المزيد، ص ٣٦٩ .

٤١-المصدر السابق، ص ٣٧٠، ابن الديبع، قرة العيون، ص ٤٦٩، ٤٧٠، يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص ٦٥١، شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٢٣٥ . Smith, G. Rex, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, p141

٤٢-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٧ .

٤٣-المصدر السابق، والصفحة نفسها .

٤٤-المصدر السابق، ص ٢٦ .

٤٥-المصدر السابق، ص ٢٧ .

٤٦-المصدر السابق، والصفحة نفسها .

٤٧-المصدر السابق، ص ٢٧ ، ٢٨ .

٤٨-الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (ت٩٧٥هـ/١٥٦٧م)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، عناية إسحاق الطيبي، بيت الأفكار الدولية، أمريكا، (د، ت)، ج ١ ص ٢٤٧ - برقم (٥٥٢٢).

٤٩-في أصل المخطوطة هنا كلمة لم أستطع تَبَيُّنَها فتركت مكانها .

٥٠-وهنا أيضاً كلمة لم أستطع تَبَيُّنَها فتركت مكانها .

٥١-الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج ١ ص ١٠٣٨ - برقم (٢٩٣٣٩)، أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ/٩٥١م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الفكر، بيروت، (د، ت)، ج ٩ ص ٤٤ ، ونحوه البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)، كتاب التاريخ الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ج ١ ص ١٤٥، برقم (٤٣٢).

٥٢-لم أجد هذا الحديث - لا نصاً ولا معنىً - في أيٍّ من كتب الحديث المطبوعة المشهورة التي توافرت لي.

٥٣-هنا أيضاً كلمة لم أستطع تَبَيُّنَها فتركت مكانها .

٥٤-الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ/٩٨٩م)، جامع الترمذي، تحقيق عادل مرشد، مكتبة دار البيان الحديثة، الطائف، ودار الأعلام، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ٨٢٥، برقم (٣٧٨٨)، وصححه الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج ٣ ص ٢٧٧ .

٥٥-أعطان، جمع عَطن، والعطن للإبل كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض، انظر ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد(ت٧١١هـ/ ١٣٣١م)، لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، (د،ت)، ج٧ ص ٤٤٢، وأراد الإمام شرف الدين هنا معناها المجازي لا الحقيقي.

٥٦-الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ٢ ص ٣٠٥، برقم (٦٨٦)، الترمذي، جامع الترمذي، ص ٥٢٠، برقم (٢٣٢٠)، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٣ ص ٢٥٣ .

٥٧-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢١ - ٢٦، وأشار إليه شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ باقتضاب.

٥٨-شرف الدين، المواهب السنية، ص ٢٦ - ٢٨، شرف الدين، السلوك الذهبية، ص ٢٥ - ٢٩ .

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .
• أحمد: محمد عبدالعال (الدكتور)
٢. بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م .
• إسماعيل بن محمد:
٣. سمط اللآل في شعر الآل، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، تحت رقم (١٨٤١ أدب) .
• الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل(ت٣٣٠هـ/٩٤١م)
٤. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
• الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسن بن أحمد (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م)
٥. مقاتل الطالبيين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
• الألباني، محمد ناصر الدين
٦. صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م
٧. سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
• البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٢٥٦هـ/٨٦٩م)
٨. كتاب التاريخ الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .
• البريهي: عبدالوهاب بن عبدالرحمن السكسكي (ت٩٠٤هـ/١٤٩٨م)
٩. طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م
• البغدادي: عبدالقاهر بن طاهر (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)
١٠. الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .
• الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ/٨٨٩م)
١١. جامع الترمذي، تحقيق عادل مرشد، مكتبة دار البيان الحديثة، الطائف، ودار الأعلام، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .
• الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ/869م)
12. رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384هـ/1964م .
• الحجري: محمد بن أحمد (ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)
١٣. مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق إسماعيل الأكوع، مكتبة الإرشاد، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .
• خطاب: عبدالعظيم
١٤. قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٣م
• داعر: صلاح بن داعر المرهبي (ت في القرن العاشر الهجري)
١٥. سيرة الإمام يحيى شرف الدين ، صورة عن نسخة مخطوطة بمكتبة زيد الحوثي، صنعاء .
• ابن الديبع: أبو الضياء عبدالرحمن بن علي (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)
١٦. بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٧٩م .
١٧. الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق د. يوسف شلحد، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٨٣م .
١٨. قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، (د، ن) .

• زبارة: محمد بن محمد بن يحيى (ت١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)

١٩. أئمة اليمن، مطبعة النصر الناصرية، تعز، ١٩٥٢م .

٢٠. اتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجددين، مطبعة المقام الشريف، صنعاء، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م .

٢١. خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، تحقيق أحمد محمد زبارة، مركز التراث والبحوث اليمني، ساري، بريطانيا، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

• الزحيف: محمد بن علي بن يونس المعروف بابن فند (ت٩١٦هـ/ ١٥١٠م)

٢٢. مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ويسمى [اللواحق الندية بالحدائق الوردية]، تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عَمَّان، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

• سالم: سيد مصطفى (الدكتور)

٢٣. الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربية وجامعة صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧م .

• السلمان: محمد حميد

٢٤. الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة من ١٥٠٧ – ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٤م .

• سليم: محمود رزق

٢٥. الأشرف قانصوه الغوري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د، ت).

• شرف الدين: أحمد حسين

٢٦. اليمن عبر التاريخ، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

• شرف الدين: الحسن بن عبدالرحمن بن أحمد شرف الدين (ت١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م)

٢٧. المواهب السنية مما منَّ به الله تعالى من الفواكه الجنية من أغصان الشجرة المتوكلية، مخطوط، صورة عن نسخة إبراهيم عبدالكريم شرف الدين، كوكبان .

• شرف الدين: محمد بن إبراهيم بن المفضل بن إبراهيم (ت١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م)

٢٨. سيرة الإمام شرف الدين المسمى [السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية]، (د، ت، ن) .

• شهاب: حسن صالح

٢٩. أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار الفارابي، بيروت، لجنة نشر الكتاب اليمني، عدن، ١٩٧٧م

• شيبان: أحمد سالم

٣٠. الوجود المملوكي في اليمن ٩٢١–٩٤٥هـ/ ١٥١٥–١٥٣٨م، دار الثقافة العربية، الشارقة وجامعة عدن، الطبعة الأولى، (د، ت) .

• الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)

٣١. تاريخ الأمم والملوك، تحق ق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م .

• ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)

٣٢. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مكتبة صبيح، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م .

• بافقيه: محمد بن عمر الطيب

٣٣. تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

• الكبسي: محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م)

٣٤. اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

• الكندي: سالم بن محمد (ت ١٣١٠هـ/١٨٩٢م)

٣٥. تاريخ حضرموت السياسي [العدة المفيدة الجامعة لتواريخ قديمة وحديثة]، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

• بامخرمة: الطيب بن عبدالله بن أحمد (ت٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)

٣٦. النسبة إلى المواضع والبلدان، نسخة مصورة عن مخطوطة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، تحت رقم ٢٥٦٩ .

• المدخلي: محمد ربيع هادي عمير(الدكتور)

٣٧. الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عصر السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

• المقحفي: إبراهيم أحمد

٣٨. معجم البلدان والقبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .

• ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد(ت٧١١هـ/ ١٣٣١م)

٣٩. لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

• المؤيدي: داود بن الهادي بن أحمد (ت ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م)

٤٠. ذيل البسامة، (ملحق بكتاب مآثر الأبرار) تحقيق عبدالسلام الوجيه وآخر، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عَمَّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م .

• أبو نعيم: أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ/٩٥١م)

٤١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الفكر، بيروت، (د، ت) .

• النهروالي: محمد بن أحمد (ت٩٩٠هـ/١٥٨٢م)

٤٢. البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات المدينة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

• الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين (ت٩٧٥هـ/١٥٦٧م)

٤٣. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، عناية إسحاق الطيبي، بيت الأفكار الدولية، أمريكا،(د.ت)

• الوجيه: عبدالسلام عباس

٤٤. أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عَمَّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م

• يحيى بن الحسين: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي(ت ١١٠٠هـ/١٦٨٨م)

٤٥. غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

46. Smith, G. Rex, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997.

الدكتور/ كرم حلمى فرحات أحمد(*)

الجوانب السياسية والحضارية لبلاد الحجاز
كما تصورها رحلة ابن بطوطة
في القرن الثامن الهجرى

المقدمــة :

جاء هذا البحث شاملاً في موضوعه ، حيث رصد لنا الجوانب السياسية والحضارية لبلاد الحجاز كما تصورها رحلة ابن بطوطة، مما يثبت لنا أن كتب الرحالة تعد من أهم المصادر التاريخية لرصد تاريخ الحجاز.

وهذا البحث يسهم في إلقاء الضوء على أهمية دراسة كتب الرحلات خاصة رحلة ابن بطوطة، ومدى أهميتها، وأسلوب ابن بطوطة ومنهجه في تدوين رحلته، وتسجيل انطباعاته لا سيما وأن كتب الرحلات عموماً تعدّ من أصدق المصادر التاريخية وأكثرها عناية بما يتعلق بالحجاز سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعلميا وجغرافيا، مما تفتقر إليه المصادر الأخرى، إذ اتصف الرحالة – ولو بدرجات متفاوته – بدقة الملاحظة، والوصف والتقصى وتسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق.

---

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد- كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة قناة السويس.

ولعل هذا البحث يكشف لنا القيمة العلمية لرحلة ابن بطوطة بوصفها مصدراً مهما من مصادر تاريخ بلاد الحجاز.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فقد بيّنت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره ومدى أهمية كتب الرحلات كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز.

التمهيد: حياة ومكانة ابن بطوطة الاجتماعية والعلمية ثم خصائص ومميزات رحلته والهدف منها.

المبحث الأول: المشاهدات الجغرافية والعمرانية لبلاد الحجاز.

المبحث الثاني: الجوانب السياسية والادارية لبلاد الحجاز.

المبحث الثالث: الجوانب الاجتماعية لبلاد الحجاز.

المبحث الرابع: الجوانب الاقتصادية لبلاد الحجاز.

المبحث الخامس الجوانب العلمية لبلاد الحجاز.

الخاتمة: وقد تضمنت أهم النتائج التى تمخض عنها البحث.

التمهيد

نال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الشهير بابن بطوطة ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م ، لقب أعظم الرحالة المسلمين على الإطلاق، وكشفت روايات رحلته عن الإنسان المسلم وعن طبيعة الأمة الإسلامية في القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادي، حيث أبرزت لنا الجانب المشرق من الحضارة الإسلامية، وإن مما يزيد أهمية الرحلات أنها تكشف لنا النقاب عن الإنسان في فكره وسلوكه وتنظيمه الاجتماعى عبر التاريخ.

لذا فمن الواجب أن نتناول مقتطفات من حياة الرحالة ابن بطوطة ومكانته الاجتماعية والعلمية والهدف من رحلته وخصائصها ومميزاتها. وابن بطوطة هو محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عبد الرحمن[١] بن يوسف اللواتى الطنجى، أبو عبد الله بن بطوطة (٧٠٣-٧٧٠هـ/١٣٠٣-١٣٦٨ م)[٢] الملقب بشمس الدين [٣] رحالة مغربى، يرجع نسبه إلى «لواته»[٤] إحدى القبائل البربرية، ولد سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) يوم الإثنين السابع عشر من رجب بمدينة طنجة.[٥]

ينسب ابن بطوطة لأسرة علم، فمنها القضاة والعلماء، وهو ما ذكره لملك الهند عندما خيره بين الوظائف التى يرغبها، فقال: أما الوزارة والكتابة فليست شغلى، وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل أبائى.[٦] درس ابن بطوطة بطنجة، وكان يعدُ نفسه لتولى القضاء مثل كثير من أفراد عائلته، ويؤيد ذلك حديثه عن نفسه بعد وصوله إلى تونس: »وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف عند خروجه من تونس قاصداً الحجاز.[٧] وهذا دليل علمه بالفقه، وقد ذكر ابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ أنه لقى العديد من العلماء.[٨] كان ابن بطوطة سريع الاندماج والتأقلم مع أهل المدن والبلدان التى زارها، وألف عادتها نظراً لطول مدة سفره، وكان شديد الحرص على التمسك بتعاليم الدين الإسلامى[٩]، فلا يكاد يسمع برجل صالح أو عالم إلا وسارع إلى لقائه والتبرك بدعائه وهو كثير الزواج، كما عُرف عنه شدة الاعتزاز بوطنه والحنين لأهله طوال غيابه عنهم، ولاشك أن ابن بطوطة حذق فنون الفروسية والقتال، ففى رحلته هذه ما يشهد على اشتراكه في بعض المعارك التى حدثت أثناء تنقلاته.

وما أن بلغ ابن بطوطة الثانية والعشرين حتى تاقت نفسه إلى الرحلة، وعن هذه الرحلة يقول عبدالرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ: كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥هـ وانتهاؤها سنة ٧٥٤هـ»[١٠] وقد حدد ابن حجر العسقلانى ت٨٥٢ هـ خروجه للرحلة في رجب سنة ٧٢٥هـ[١١]،

وبهذا تكون الرحلة قد استغرقت تسعاً وعشرين سنة، جاب فيها جميع الأقطار التى تسنى له الوصول إليها في ذلك الوقت فانتهى به الأمر إلى ترحال وراء آخر وسفر إثر سفر ، ورحلة تعقبها رحلة أخرى، ومثله كثير من الرحالة والتجار المسلمين، وقد قدم زكى حسن مسحًا وتصنيفًا جيدًا لكتاباتهم ، وقد تصدر لكتابة هذه الرحلة محمد بن محمد بن عبدالله بن جزي الكلبي (٦٩٣-٧٥٨هـ/١٢٩٤-١٣٥٧م) ، وهو كاتب السلطان أبي عنان فارس المريني حاكم المغرب حينذاك في الفترة (٧٩٤-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٨م) وبتوجيه من هذا السلطان أملى ابن بطوطة تفاصيل رحلته علي ابن جزي ، وكانت مهمة ابن جزي أن يسمع الحديث ويدونه ويرتبه وينقحه ويوضح ما أغمض منه ،وقد حافظ ابن جزي علي تدوين كل المعلومات التي أملاها صاحب الرحلة ولم يسقط منها شيئا ولم يتعرض ابن جزي لتحقيق ما أورده ابن بطوطة لأنه كان واثقا من صحة ماأورده علي وجه العموم ،وقد عني ابن بطوطة بالشكل والنقط لكل ما أشكل أوغمض لئلا يلتبس علي القارئ وكان يوضح معاني الكلمات الأعجمية ،وقد انتهى ابن جزي من كتابتها في عام (٧٥٧هـ/١٣٥٦ م) .[١٢] كان هدف ابن بطوطة من الرحلة والباعث له على السفر، ومفارقة الأهل هو حج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أدى فريضة الحج سبع مرات الأولى سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) والثانية سنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) والثالثة سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) والرابعة سنة (٧٢٩هـ/١٣٢٨م) ،والخامسة سنة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) ، والسادسة سنة(٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) والسابعة سنة(٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .[١٣]، ولم يشر ابن بطوطة إلى طلبه العلم في البلدان التي زارها، واكتفى بالإشارة إلى سماعه على بعض الكبار من العلماء والوعاظ، ولقائه للعديد من العلماء.[١٤] من أبرز صفات ابن بطوطة التي تمتع بها قوة المشاعر الدينية، حيث كان الباعث الأول له على الرحلة والسفر هو حج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر ابن بطوطة رسول الله إلا ويقرن ذكره بالصلاة عليه والتسليم، ويبدو هذا الشعور الديني العميق في أحاديثه عن المسجد الحرام والطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، وما ماثل ذلك، يقول في حديثه عن الرحلة وهو متجه إلى مكة: «ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك، والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها» [١٥]، وقد قطع في تجواله أكثر من مائة وخمسة وسبعين ألف ميل، واستطاع ابن بطوطة أن يحتفظ بكل مشاهداته في ذهنه دون تمحيص، يدفعه لذلك حب الاستطلاع والتعرف على غرائب وعجائب البلدان.[١٦]

كان ابن بطوطة مثقفاً ثقافة دينية، ودرس في المغرب قبل خروجه إلى الرحلة، ثم درس على مشهورى العلماء في البلاد التى زارها وأجازه كثير من العلماء، يقول عن نفسه: «سمعت بجامع

بنى أمية جميع صحيح الإمام البخارى على الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبى النعم المعروف بابن الشحنة الحجّار، ويقول: ومن أجازنى من أهل دمشق الشيخ أبو العباس الحجازي[١٧] وأكثر ما يلفت الانتباه مدى اهتمامه بالناس بمختلف طبقاتهم وعلى الأخص العلماء والصالحين، فهو بذلك يعدّ مؤرخاً من الناحية الاجتماعية للمسلمين في عصره[١٨]، خاصةً وأن رحلته تحتوي الكثير من الموضوعات في مختلف النواحي، مما دفع كثير من المترجمين ترجمة هذه الرحلة إلى الإنجليزية والفرنسية. وقد تناولها بالدراسة والترجمة المستشرق الفرنسى «بلاتش ترابيبه» فى كتابه «الرحالة العرب فى العصر الوسيط». [١٩]

كان ابن بطوطة سخياً كثير الإنفاق يستدين بلا حدود وينفق كما يشتهى، يعطى الفقراء ويعطى الأصدقاء، ويهدى إلى الرؤساء ، وعُرف عنه أنه طاهر السريرة طيب القلب حسن الظن بالناس، يمدح الناس ويشيد بشرف النساء ويحب الصالحين ويلازم المرضى حتى يمن الله عليهم بالشفاء، ويشكر الله ويشكر للناس أياديهم.

وكان فارساً يقاتل، وقد حكى مواقف عديدة تدل على شجاعته، يقول: «ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارساً وخرج في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان، وكان أصحابى ذوى نجدة فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثنى عشر رجلاً، واصابتنى نشابة، وأصابت فرسى نشابة ثانية، ومنّ الله بالسلامة منها. [٢٠] وأول منصب تقلده ابن بطوطة كان قاضى الركب الحجازى الخارج من تونس، ثم تولى القضاء بالهند وبجزيرة المهل.[٢١] وعقب عودته إلى وطنه ولى قضاء بعض المدن.[٢٢] امتازت رحلة ابن بطوطة بطولها، وحفلت بتنوع حوادثها فجمعت الكثير من الغرائب، وحوت الكثير من المعلومات عن أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكان حريصا على الاتصال بالملوك لينال أعطياتهم، ويتمكن من مواصلة رحلته مما يدل على علو مكانتهالاجتماعية.

ومن الملاحظ اهتمام ابن بطوطة بالجانب الاجتماعى من حيث حالة العلماء والملوك وعادات الناس في البلاد التى زارها، وقد تمتع بذاكرة قوية خاصة في سرد بعض المعلومات الخاصة بوصف المساجد وأبعادها، وحفلت رحلته بالحكايات والروايات دون تمحيص فيها ولاتدقيق، لقد جاءت رحلته حافلة بأوصاف دقيقة مع اهتمامه بذكر القصص الغريبة والنادرة في رحلته، مما أكسبه خبرة كبيرة فى هذا المجال ، وقد قيل عن السفر : «إن السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير».[٢٣]

المبحث الأول

المشاهد الجغرافية والعمرانية في بلاد الحجاز

رصد ابن بطوطة مشاهداته الجغرافية والعمرانية في رحلته بدقة وصدق وأمانة، وحفظ لنا هذه المشاهد كتاريخ لبلاد الحجاز في وقت غفل عن حفظها كثير من المؤرخين.

١-المشاهد الجغرافية في الطريق إلى الحجاز: تبوك: طريق الحاج الشامي يبدأ من تبوك، وأرضها خصبة ويكثر به النخيل ، ويري بها سقاؤون حول عين ماء غزيرة، بنيت على هيئة صهريج كبير، أقيمت لهم حولها أحواض كبيرة، يسقون منها الجمال ويملؤون منها القرب.[١]

*- العلا: وهي موضع من ناحية وادي القري بينها وبين تبوك ثمانية أيام وبها أحساء بين الرمال -وهو ماء تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلي صلابة أمسكته، فأتاح لأهلها زراعة النخيل وبعض المزروعات الأخرى، فأصبحت قرية كبيرة جميلة المنظر انتشرت فيها العديد من الدور، واشتهر أهلها بفضلهم وأمانتهم في دفع الكثير من الحجاج إلى ترك الفائض من حاجتهم من الأزواد بها إلى حين قفولهم من الحج وهي أيضاً سوق كبير حيث يقصده تجار الشام النصارى للبيع والشراء مع الحجاج.[٢]

*- حجر ثمود: وتعرف اليوم بمدائن صالح بينها وبين تبوك خمسة أيام وقد أطلق عليه ابن بطوطة بئر الحجر أو حجر ثمود، وأشار إلى كثرة الماء بها، وحدد مكان مبرك ناقة صالح عليه السلام ، بأنه بين جبلين، بجانبه أثر مسجد يصلى الناس فيه.[٣]

*- هدية: آخر وادي العطاس، ماؤها أحساء، وصف بمرارته، يستخرج بواسطة الحفر، وينتشر قطاع الطرق حولها، مما يضطر الحجيج لقتالهم هناك، وبعدها تظهر أعلام المدينة المنورة.[٤]

٢- المشاهد الجغرافية بالمدينة المنورة: هي مدينة مشرقة جميلة، أرضها سبخة مشرفة على وادٍ مليئ بالنخيل، ولم يتطرق ابن بطوطة لوصفها العام

*- جدة: قال عنها ابن بطوطة: هي بلدة قديمة على ساحل البحر، يُقال إنها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة، وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد، يتصل بعضها ببعض وهي كثيرة.[٥]

*- جبل الطبول: يشرف هذا الجبل على موضع معركة بدر، وقد شبهه ابن بطوطة بكثيب رمل ممتد، وذكر أيضاً جبل الرحمة على يسار مدخل بدر، يُقال إن الملائكة نزلت عليه يوم بدر.[٦]

٣- المشاهد الجغرافية في الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة:

*- ذو الحليفة : تبعد عن المدينة ستة أو سبعة أميال، وقيل إنها تعرف ببئر عليّ، وأرض ذي الحليفة بطحاء سهلة تشرف على وادي العقيق.[٧]

*- صحراء البزواء: صحراء واسعة مسيرتها ثلاثة أيام، مجهولة المسالك عديمة المعالم.[٨]

*- وادي رابغ: آخر البزواء، يوجد به الكثير من مستنقعات الماء الجارية، تحت الرمال، يحفر الحجاج لاستخراج الماء النقي منها وفي بعض الطريق عقبة محجرة، وتتكون غدران فيها فترة طويلة خاصة بعد هطول المطر.[٩]

*- عقبة السويق: على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل يقصدها الحجاج لشرب السويق بها.[١٠]

*- عسفان: منزل آخر في أرض مُنبسطة تحف بها الجبال متوفر بها آبار عذبة، وبها الكثير من أشجار المقل وبها حصن خرب.[١١]

*- خليص: تقع بين جبلين يكثر بها النخل ، وبها عين دائمة الجريان، أحدثت في الأرض أخاديد تبدو على هيئة الآبار، ويوجد بها بئر تنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.[١٢]

*- بطن مرّ أو مرّ الظهران: هو وادٍ خصب يضم قرى كثيرة يزرع بها النخيل والفواكه التي تجلب إلى مكة المكرمة وبها عين ماء كبيرة.[١٣]

٤-المشاهد الجغرافية بمكة المكرمة:

* نظراً لمكانة مكة المكرمة الدينية والعلمية في نفوس المسلمين، فقد وصفها ابن بطوطة وصفاً جغرافياً كوادٍ مجدب ليس فيه زرع، تحيط به الجبال بحيث لا يراها قاصدها إلا عند اقترابه منها ، وعلى الرغم من تكوينها الجغرافي إلا أنها عامرة بالسكان وامتدادها آخذ في الاستطالة.[١٤]

*- جبل أبي قبيس: أشار ابن بطوطة إلى أنه أقرب الجبال للمسجد الحرام يحيط به الجنوب والشرق، يشرف على الحجر الأسود ويقع في أصله ويرقى إليه من ثلاثة مواضع، من شعب عمر وشعب علي وشعب أجياد الصغير، وبه قبر آدم عليه السلام، وعلى هذا الجبل كان انشطار القمر للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أحد الأخشبين.[١٥]

*- جبل قعيقعان: يسمى الأحمر ويسمى هو وأبو قبيس الأخشبان والجبحبان، ويقع جبل قعيقعان شمال مكة.[١٦]

*- جبل الخندمة[١٧]: وهو المشرف على شعبي أجياد الأكبر وأجياد الأصغر.[١٨]

*- جبل ثور[١٩]: وهو على بعد فرسخ من مكة المكرمة على طريق اليمن، وهو الجبل المشهور الذي أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه عند هجرتهما إلى المدينة المنورة.[٢٠]

*- جبال التنعيم: وهي أربعة جبال تقع على طريق التنعيم، اثنان من الجهة اليمنى واثنان من الجهة اليسرى، وعليها أربعة أعلام من الحجارة، يقال إنها الجبال التي وضع عليها سيدنا إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير.[٢١]

- المزدلفة: وصفها ابن بطوطة بأنها أرض منبسطة فسيحة تقع بين جبلين، وقدروا المسافة بينها وبين عرفات بمثل المسافة بين منى ومكة المكرمة.[٢٢]- عرفات: وقد تميزت بانبساط أرضها، وإحاطة الجبال بها، حيث يقع جبل الرحمة في طريقها بعيداً عن الجبال الأخرى، فهو عبارة عن حجارة منقطعة بعضها عن بعض، وأسفل الجبل وعلى مكان غير بعيد منه مكان وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو عبارة عن جبل قليل الارتفاع، وحول جبل الرحمة جبال وصهاريج للماء، وعلى يسار العلمين اللذين وضعا للمستقبل أيضاً وادي الأراك، وبه أراك أخضر يمتد في الأرض امتداداً طويلاً.[٢٣]

٥-المشاهد العمرانية:

تناول ابن بطوطة المشاهد العمرانية في بلاد الحجاز وشمل هذا التناول المساجد والأربطة والمباني والحصون والآبار وأماكن الوضوء.

* الحصون الموجودة بطريق الحجاز: شاهد ابن بطوطة حصن بعسفان وهو حصن قديم ذو أبراج، وشاهد أيضا بخليص حصنين، أحدهما ذو عمارة جديدة مبنى على ربوة، والآخر متهدم يقع أسفل منه.[٢٤]

* الآبار وأماكن الوضوء بالمدينة المنورة: من هذه الآبار بئر أريس، تقع بالقرب من مسجد قباء، وكذلك بئر رومة وهي في جهة الغرب من حصن العزاب بالقرب من الخندق.[٢٥] كما أشار

ابن بطوطة إلى وجود دار للوضوء عند باب السلام، أمر الملك المنصور قلاوون(٦٧٨-٦٨٩هـ) ببنائها.[٢٦]

*- المساجد الموجودة في المدينة المنورة: وفي مقدمتها المسجد النبوي الشريف، وروضته الشريفة، والحديث عن المنبر الكريم.[٢٧] ووصف ابن بطوطة مسجد قباء بأنه مسجد مربع الشكل له مئذنة طويلة بيضاء، وفي وسطه روضة صغيرة هي مكان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم، واحتوت قبلة هذا المسجد على عدة محاريب، وله باب واحد.[٢٨] ومسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢٩]، ومسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه[٣٠] ومسجد الفتح الذي نزل فيه سورة الفتح على النبي صلى الله عليه وسلم.[٣١]

*- الحصون بالمدينة المنورة: شاهد ابن بطوطة حصن العزاب وقد نسب هذا الحصن إلى عمر بن الخطاب الذي قام بإسكان عزاب المدينة فيه.[٣٢]

المساجد في مكة المكرمة: تناول ابن بطوطة المساجد في مكة المكرمة وفي مقدمتها المسجد الحرام، فوصفه ووصف أبوابه، والصفا والمروة، وبئر زمزم والمقام والكعبة المشرفة. وتناول في حديثه الكلام على مآذن هذا المسجد.[٣٣] ومسجد فوق جبل أبي قبيس: وسطحه مشرف على مكة المكرمة. وقد أراد الملك الظاهر عمارته.[٣٤] مسجد الجن: ويقع على يمين المستقبل لمقبرة المعلاة، في وادٍ بين جبلين. ويبدو أن المسجد كان مهدّماً في زمن رحلة ابن بطوطة لإشارته إلى خرابه.[٣٥] ومسجد على طريق التنعيم: يبعد عن مكة المكرمة بنحو ميل، ويقال إن موضع المسجد هو موضع جلوس النبي صلى الله عليه وسلم عند عودته من العمرة مستريحاً، وقد أطلق عليه المتكأ.[٣٦] مسجد المزدلفة: ويقع بوسط المزدلفة وعليه قبة، وتظهر أنواره ليلاً من بُعد.[٣٧] مسجد إبراهيم عليه السلام: يقع هذا المسجد قرب آبار الشبيكة بوادي طوى، والظاهر أن المسجد غير معروف الآن.[٣٨] مساجد التنعيم: وهي عدة مساجد مبنية بالحجارة وتنسب إلى السيدة عائشة رضي الله عنها.[٣٩]

*- الأربطة في مكة المكرمة: أورد ابن بطوطة أسماء عدد من الأربطة بمكة المكرمة منها: رباط الصوفية، وقيل رباط السدرة وبابه يفتح على المسجد الحرام بجانب باب بني شيبة وسماه باب الرباط.[٤٠] ورباط بأعلى جبل أبي قبيس: وقد أشار ابن بطوطة إلى عزم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري على تعميره[٤١]. ورباط الموفق: بالقرب من باب إبراهيم وإنه من أفضل الأربطة[٤٢] ورباط العباسي: وقد خصص لسكنى المجاورين، وقد شيده الملك الناصر ناصر الدين

محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١ هـ)، وهو بين الصفا والمروة في سنة(٧٢٨ هـ/١٣٢٧م.[٤٣] ورباط الشرابي: يقع عند باب بنى شيبة وقد جعله رميثة بن أبي نمي مجمد بن أبي سعد (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) أمير مكة داراً له.[٤٤] ورباط ربيع وهو من أحسن الأربطة بمكة، وبداخله بئر عذب ورباط كلالة الذي كان شيخه الشيخ سعيد الهندى.[٤٥]

* المبانى بمكة المكرمة: وصف ابن بطوطة المبانى بمكة المكرمة وخاصة القريبة من الحرم، وقد حرص على مشاهدة العديد من الدور بها منها: دار خديجة رضى الله عنها ودار مولد النبى صلى الله عليه وسلم ودار أبي بكر الصديق رضى الله عنه وموضع صلب عبد الله بن الزبير[٤٦] كما تناول وصف أسوار مكة المكرمة وأبواب هذه الأسوار[٤٧].

* الحصون بمكة المكرمة: تم تشييد حصن فوق جبل أبي قبيس لكنه هُدم قبل دخول ابن بطوطة إلى مكة المكرمة بزمن.[٤٨]

* الآبار وأماكن الوضوء بمكة المكرمة: تحدث ابن بطوطة عن آبار عذبة تسمى آبار الشبيكة على طريق التنعيم، وقد أكد ابن بطوطة على وجود بساتين غناء في منطقة الزاهر مما يؤكد على وجود آبار لسقيها.

كما أشار ابن بطوطة إلى وجود بئر عند باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام، وبئر آخر بداخل رباط ربيع. كما أشار إلى وجود دار للوضوء بجوار رباط العباسى، والذي بناها هو الملك الناصرمحمد بن قلاوون سنة(٧٢٨هـ/١٣٢٧م) .[٤٩]

المبحث الثاني

الجوانب السياسية والإدارية لبلاد الحجاز

استطاع ابن بطوطة أن يصور لنا العالم الإسلامي من خلال رحلته، وأوضح لنا أنه دولٌ مفككة متناحرة، خلال القرن الثامن الهجري، ولم يقتصر الأمر على أن يستقل كل قطر بكيانه، فقد تفككت بعض الأقطار إلى دويلات متعددة،وكان الحكام يغيرون على جيرانهم ويسلبونهم سلطانهم، ويستولون على مدنهم، ويكون مصير المهزوم القتل أو اللجوء السياسي.[١] كما يوضح لنا ابن بطوطة أن الحياة السياسية لم تخل من المظالم والمؤمرات ولم تكن بلاد الحجاز بمعزل عن هذه السياسة التي كانت موجودة في العالم الإسلامي آنذاك.

لقد صور لنا ابن بطوطة الجوانب السياسية من خلال بيان إمارة مكة والمدينة وبيان مدة علاقتهما مع سلاطين الدول الإسلامية ومدى سياستهم مع أفراد رعيتهم، ثم أشار إلى مدن بلاد الحجاز التي تعتبر وحدات إدارية، وتناول التنظيمات المالية، والموارد المالية، كما تحدث عن التنظيمات القضائية، وكذلك الحسبة ومالها من دور مهم في الحياة العامة في بلاد الحجاز.

إمارة مكة المكرمة: عاصر ابن بطوطة أثناء رحلته إلى مكة المكرمة الأميرين الشريفين الأجلين الأخوين أسد الدين رميثة [٢] وسيف الدين عطيفة [٣] ابني الأمير أبي نمى بن أبي سعد بن على بن قتادة الحسيني.

وقد أشار ابن بطوطة أن مكة المكرمة كانت تتبع السلطان يوسف بن رسول (٦٤٧-٦٩٤هـ / ١٢٤٩-١٢٩٣م) ملك اليمن المعروف بالمظفر، فيقول: »وبمقربه من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن، وكان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ)/ ١٢٧٧-١٢٨٨م) .«[٤] وجاء في كتاب غاية المرام، أن بني رسول وصلوا اليمن بصحبة الملك المعظم توران شاه بن أيوب المتوفي سنة(٥٧٦ هـ/ ١١٧٥م[٥]، وحظى المنصور نورالدين عمر بن علي بن رسول (٦٢٦-٦٤٧هـ/ ١٢٢٥-١٢٤٦م) بمكانة كبيرة لدى الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل الأيوبي حتى أنابه بمكة المكرمة مرة واستنابه نيابة عامة باليمن مرتين، وأوصى له بالملك من بعده

ملك اليمـن.[٦] . وكان للملك المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٢٦-٦٤٧هـ) نفوذ سياسى وأدبى ببلاد الحجاز، كان كثير الاهتمام بالحرمين الشريفين وتقديم الخدمات للحجاج، وتقديم الجمال التى تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى،ولا يقل عنه في الاهتمام بالحجاج الناصر محمد بن قلاوون ، بل يزيد، فيتحدث ابن بطوطة عن زاوية بناها هذا الملك الناصر بسرياقوس خارج القاهرة لخدمة الحجاج المسافرين. وكان هذا الملك يبعث إلى مكة المكرمة مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين وكل ما يحتاج إليه الحرم الشريف، ومن قول ابن بطوطة متحدثا عن صلاة الجمعة في الحرم: «فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود ، كل ذلك من كسوة الملك الناصر محمد بن قلاوون»[٧]

كما عمرالناصر محمد بن قلاوون رباطا وبنى داراً للوضوء داخل الحرم، يقول ابن بطوطة: «وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه، وهو الآن رباط يقطنه المجاورون، وقد عمّره الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله، وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين، وجعل لها بابين أحدهما في السوق والآخر في العطارين، وعليها ربع يسكنه خدامهما »[٨]

إن ماذكره ابن بطوطة عن سلطان اليمن المنصور عمر بن علي بن رسول والملك الناصر محمد بن قلاوون يدل على مدى العلاقة بين أشراف مكة المكرمة وسلاطين مصر واليمن، ولم تقتصر العلاقة على هذين القطرين بل تعدتها إلى بلاد البجة[٩] حيث إن الشريف أبا نمى أمير مكة المكرمة قد تزوج بنت ملك البجة، وأنجب منها ولداً يسمى زيد المعروف بابن السواكنية صاحب جزيرة سواكن[١٠]، فعندما وصل ابن بطوطة إلى سواكن قال: «إن سلطانها الشريف زيد بن أبى نمى [١١] وأبوه أمير مكة المكرمة.[١٢]

كما امتدت علاقة أمراء مكة المكرمة إلى العراق أيضا، فقد تم الدعاء على قبة زمزم في سنة(٧٢٩ هـ/١٣٢٨م) لسلطان العراق أبي سعيد بن خربند بن أرغون الذي حكم العراق قرابة عشرين عاما، وتوفي سنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣١م)[١٣]، في عهد الشريفين رميثة وعطيفة أميرى مكة المكرمة، ويبدو أن سبب الدعاء لسطان العراق في ذلك العام عائد إلى كثير صدقات أهل العراق وسلطانها المبعوثة إلى مكة المكرمة، فقد ذكر ابن بطوطة وقت وجوده بمكة المكرمة في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م و٧٢٩هـ/١٣٢٨م وصول الأمير أحمد بن الأمير رميثة، ومبارك بن

الأمير عطيفة من العراق حاملين صدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة المكرمة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق، ثم يذكر ابن بطوطة أن الدعاء لصاحب العراق لم يتكرر عقب تلك السنة[١٤]

لقد انفرد ابن بطوطة عن غيره من المؤرخين الرحالة بإلقاء الضوء على علاقات أخرى كجانب من الجوانب السياسية لبلاد الحجاز، وقد أفاض في وصف هذه العلاقة، وهي علاقة أشراف مكة بسلطان مصر الملك الناصر حلوها ومرّها، وقد امتدت هذه العلاقة إلى قضاة مكة المكرمة الذين ارتبطوا معه بصلات جيدة، حيث كانت صدقاته وصدقات أمرائه تصل إلى يد قاضي مكة المكرمة نجم الدين محمد بن الإمام محيي الدين الطبري، والذي تولى توزيع أعطياته على أشراف مكة المكرمة وكبرائها، وخدمة الحرم الشريف وجميع المجاورين، وعلي الرغم من قوة الصلة بين سلاطين المماليك في مصر وأمراء مكة المكرمة، فإن صلتهم بملوك اليمن كانت قوية أيضا وقد أشار ابن بطوطة إلى الدعاء لسلطان بني رسول وذكر اسمه بعد الدعاء للسلطان المملوكي الملك الناصر في مصر.[١٥] مما يدل على سياسة الموازنة التي اتبعها أمراء مكة المكرمة للمحافظة على علاقتهم ببني رسول باليمن وسلاطين مصر، إلا أنه يبدو أن علاقتهم بسلطان مصر الملك الناصر قد شابها نوع من الفتور عقب فتنة أشار إليها ابن بطوطة في حديثه عن علاقة الملك الناصر بأمراء مكة المكرمة، إذ حدث في سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م أثناء موسم الحج خلاف بين أمير مكة «عطيفة» وبين «أيدمور» أحد الأمراء بالقاهرة في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون[١٦]، بسبب قيام تجار من أهل اليمن بالسرقة، فرفع الأمر إلى أيدمور الذي أوعز لمبارك ابن الأمير عطيفة باحضار اللصوص، فاعتذر عن ذلك لعدم معرفته بهم، ولعل في هذا إشارة إلى عدم رضى أمير مكة المكرمة عن تدخل أيدمور في شئون مكة المكرمة، وخاصة الحجاج اليمنيين حفاظاً على علاقة مكة المكرمة وأهل اليمن، وعندما حدث سرقة لأهل مصر والشام، تكفل أمير مكة المكرمة بحل الأمر فلم يرض عن ذلك أيدمور نظرا لما حدث من قبل فتطاول علي أمير مكة المكرمة مما آثار غضب الناس عليه، ثم ركب أيدمور متوجها نحو عسكره فلحقه أمير مكة وأتباعه فقتلوه هو وولده، فوقعت الفتنة بالحرم، واشتدت وحاول القاضي وأهل مكة المكرمة إيقاف ماحدث وعقد الصلح ودخل الحجاج مكة المكرمة، فأخذوا أمتعتهم ورحلوا إلى مصر، وبلغ الخبر الملك الناصر فاستاء لذلك، وسيّر عساكره إلى مكة المكرمة، ففرّ الأمراء عطيفة وابنه مبارك، ورميثة وأولاده إلى وادي نخلة، فلما وصلت عساكر الناصر إلى مكة المكرمة بعث أمير مكة ابناً له بطلب الأمان فأعطوه الأمان ،ثم خلع عليه مبعوث الناصر وأعاده إلى الحكم.[١٧]

لم تفتر همة أمراء مكة المكرمة عن توطيد أواصر المحبة وحسن العلاقات مع سلاطين المالك الإسلامية، حيث ارتبط هؤلاء الأمراء بعلاقات ودية مع سلطان كلوة[١٨] وهو أبو المظفر حسن بن سليمان[١٩] حيث كانوا يفدون عليه لنيل أعطياته، كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة.[٢٠]

ومن الملامح التى ذكرها ابن بطوطة ظلم الحكام لرعاياهم، حيث بين أن مكة المكرمة لم تنج من ظلم الحكام لبعض أفرادها، فيقول: ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة، وكان هذا الشيخ قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالاً عظيما قدم به مكة المكرمة فسجنه الأمير عطيفة أمير مكة وطالبه بأداء المال فامتنع فعذبه حتى أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وعاد إلى بلاد الهند.[٢١] كما تطرق ابن بطوطة في رحلته إلى معرفة بعض المدن والقرى التى تتبع مكة المكرمة فذكر لنا جُدة حيث كانت تتبع شريف مكة المكرمة وعليها عامل من قبله مهمته تحصيل المكوس والضرائب.[٢٢]ويتبين لنا أن نفوذ أشراف مكة المكرمة قد شمل وادي الصفراء[٢٣] وذكر أيضا أن فيها حصناً يسكنه الحسنيون.[٢٤]

إمارة المدينة المنورة: عاصر ابن بطوطة أثناء رحلته إلى المدينة المنورة أميرين هما طفيل بن منصور بن جماز الحسينى[٢٥] وكبيش بن منصور بن جماز.[٢٦] ولم يكن للمدينة المنورة الحظ الأوفر مثل مكة المكرمة من اهتمام ابن بطوطة، بل إن المدينة المنورة لم تحظ إلا بالقليل من الاهتمام، وبالتالي فالمعلومات السياسية عنها قليلة إذا ماقورنت بما كتبه وماذكره ابن بطوطة عن مكة المكرمة.كما تحدث ابن بطوطة عن كيفية تولى طفيل بن منصور الإمارة فقال: تولى إمرة المدينة المنورة كبيش بن منصور بن جماز عقب قتله لعمه مقبل بن جماز[٢٧] وقيل توضأ بدمه، ثم إن كبيشاً بن منصور خرج سنة(٧٢٧هـ/١٣٢٦م) إلى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فأخلدوا إلى الراحة وتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلاّ وأبناء مقبل بن جماز في جماعة من عبيدهم ينادون بالثأرات مقبل. فقتلوا كبيش بن منصور صبراً ولعقوا دمه وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور.[٢٨] وجاء في رواية القلقشندي: أن مقبلاً بن جماز اشترك في إمرة المدينة المنورة مع أخيه منصور على إثر طلبه من الظاهر بيبرس بمصر لذلك، وعندما قام منصور بالإيعاز لابنه في تدبير شئون المدينة المنورة خلال غيابه فاعتبر مقبل ذلك تعدياً على حقوقه في الإمارة فهجم على ابن أخيه وانتزعها منه، مما دفع بكبيش إلى الخروج من المدينة المنورة واللحاق بأحياء العرب طالباً مساعدتهم واستعاد المدينة وقتل عمه مقبل في سنة٧٠٩هـ وعاد منصور إلى إمارته ثم مات

سنة ٧٢٥هـ فولى ابنه كبيش فقتله عسكر ابن عمه ودى بن جماز الذي حكم المدينة من قبل الملك الناصر بن قلاوون وعقب وفاته تولاها طفيل بن منصور وانفرد بامارتها.[٢٩]

أورد ابن بطوطة بعض الملامح السياسية حول أمراء المدينة المنورة مثلهم كغيرهم من أمراء العالم الإسلامي، فكما فيهم عدل وانصاف فيهم أيضا سياسة الإغتيال والمؤمرات، فقد عُرفت في المدينة المنورة وسيلة القتل في سبيل الإمارة، بل إنها شملت حتى من يتطاول على شخص الشريف ولو خطأ، فيقتل جزاء ذلك، وذكر ابن بطوطة أن أحد فقهاء ومدرسى المالكية بالمدينة المنورة ويدعى أبو العباس الفاسى، تحدث يوما مع الناس فانتهى به الكلام إلى القول أن الحسين بن على بن أبي طالب لم يعقب، فبلغ ذلك أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسينى فأنكر كلامه واستعظمه وأراد قتله، ثم عدل عنه ونفاه من المدينة، وقيل بل بعث إليه من قام بقتله، واختفى أثره.[٣٠]

إن ما ذكره ابن بطوطة عن أحوال المدينة المنورة السياسية قليل جداً، لكنه أبرز مدى الصراع على الإمارة والسلطة، كما نجد أن ما ينطبق على مكة المكرمة ينطبق أيضاً على المدينة المنورة من حيث علاقتها بمصر في بعض الأحيان وانقطاعها أحياناً أخرى.

فالعلاقة والارتباط بمصر قائم على أساس الوضع الاقتصادي والاستقرار الداخلي، فمتى توفر الاستقرار وعم الرخاء الاقتصادي أصبحت إمارة مستقلة، ومتى تزعزع الوضع الداخلي نجد الأشراف الحسنيين يسارعون إلى الاستنجاد بملوك مصر ضد بعضهم بعضاً فتعود العلاقة مرة أخرى، وبالمقابل حرصت تلك الدول على إقامة علاقة ودية مع أشراف الحجاز وإرضائهم في سبيل الدعاء لهم على منابر الحرمين الشريفين.[٣١]، ولذلك فملوك مصر تكتفي عند ذكر نواب الحجاز باظهار الطاعة[٣٢]، وأقصى عقاب ينزل بأشراف الحجاز في حالة خروجهم عن الطاعة أو مخالفة ما يصدر إليهم من أوامر هو الاعتقال مدة من الزمن في القاهرة، وإسناد الأمر لمن عليه الدور في تولي السلطة.[٣٣] أما الجوانب الإدارية لبلاد الحجاز: فقد أشار ابن بطوطة [٣٤] إلى أن من مدن الحجاز التى تعتبر كوحدات إدارية ينبع، والوجه، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة وجدة ورابغ ووادي الصفراء وخليص.[٣٥]، وبجانب الحديث عن هذه الوحدات الإدارية نتناول الحديث عن أمراء تلك البلاد ونظام ولاية العهد ونظام الوزارة، وعندما وصل ابن بطوطة إلى جدة أشار إلى أن متولى أمرها كان من قِبل أمير مكة، ولقبه بالأمير وهو أبو يعقوب بن عبد الرزاق.[٣٦]

وحمل حاكم ينبع لقب أمير، وكان أحياناً يلجأ إلى الاستبداد وارتباطه بمصر، كما تبعت مرّ الظهران[٣٧] والصفراء مدينة مكة المكرمة كناحية إدارية ونظام إداري يختص بالمدن التابعة لبلاد الحجاز.[٣٨] نلاحظ من خلال ما ذكره ابن بطوطة أن الأمراء ببلاد الحجاز كانوا أُسَرا من الأشراف وقد تولوا حكم البلاد وهم من ذرية الحسن والحسين ابني الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنهم جميعاً، فهي إمارة عربية في تقاليدها[٣٩]، وقد أشار ابن بطوطة وغيره من الرحالة الذين نزلوا بلاد الحجاز إلى بعض حكام مكة فذكروا على سبيل المثال: قتادة بن إدريس، وحسن بن قتادة.[٤٠]، وأبو سعد الحسن، ثم خلفه ابنه أبو نمى، ثم رميثة وحميضة[٤١]، أما المدينة المنورة فخضعت لأسرة من الأشراف من ذرية الحسين بن على رضى الله عنهما، وأشار ابن بطوطة إلى بعض حكامها منهم: طفيل بن منصور بن جماز، وكبيش بن منصور.[٤٢]

كما لم تغفل كتب الرحالة ومن بينهم ابن بطوطة الإشارة إلى الصراع القائم بين الأمراء والأشراف في بلاد الحجاز على السلطة ومحاولتهم الوصول إليها بمختلف الوسائل إلى جانب اشتراك اثنين في إدارة شئون البلاد، ومثال ذلك الصراع على السلطة، ودور الشريف أبي نمى فيها، وما حدث بين رميثة وحميضة.[٤٣] والملاحظ أن الأمر لم يكن مقصوراً على مكة المكرمة، بل نجده واضحاً في المدينة المنورة في عهد طفيل بن منصور وكبيش بن منصور، واشتراك مقبل في الإدارة مع أخيه منصور عقب مقتل كبيش.[٤٤]

أما نظام ولاية العهد كجانب من التنظيمات الإدارية في بلاد الحجاز، فإنها لم تكن موجودة في تقاليد الأشراف، ولكن يعدّ ولي العهد للحكم عن طريق المشاركة أثناء عهد والده أو أخيه فتتاح له الفرصة لإثبات مدة أهليته لهذا المنصب.[٤٥]، وأحياناً يعهد الأمير لأحد أبنائه صراحةً مثلما فعل الأمير أبي سعد الحسن لابنه أبي نمى.[٤٦]، وغالباً ما يكون الفصل في هذا الأمر إما للخليفة ببغداد أو لسلاطين المماليك بمصر، فقد فصل السلطان الناصر في أمر رميثة وحميضة عندما اشتد الخلاف بينهما وبين إخوانهم[٤٧].

أما نظام الوزارة في بلاد الحجاز فقد أظهرت بعض كتب الرحالة الذين عاشوا في القرن السابع والثامن الهجريين وجود الوزراء في بلاد الحجاز غير أن ابن بطوطة أغفل ذلك، فربما كان الوزير ينوب عن أمير مكة المكرمة في حضور بعض المناسبات مثل إنابة الوزير عن الشريف أبي نمى في حضور ختم القرآن في المسجد الحرام ليلة السابع والعشرين من رمضان.[٤٨]

أما من ناحية التنظيمات المالية، فكل ما أشار إليه ابن بطوطة كان يتعلق بالأعطيات والأوقاف في زمن رحلته، حيث كانت الأعطيات والهدايا والهبات تصل إلى أشراف مكة المكرمة مثل التى وصلت من مصر إلى قاضى مكة المكرمة نجم الدين محمد بن الإمام محيى الدين الطبرى وكيل السلطان الناصر فى مصر، حيث تولى توزيعها على كافة أهل مكة المكرمة.[٤٩]، وتلك التي أهداها وزير الشريف أبى نمى للخطيب في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان[٥٠]

وهناك الصدقات والأعطيات التى تصل من العراق لأهل مكة المكرمة. ومنها أيضا التى يأخذها الأشراف من سلطان كلوة.[٥١] أما الأوقاف فقد تمثلت في المساكن التى أسهم الأغنياء في إنشائها من أموالهم الخاصة، سواء من أهل البلاد أو من القادمين عليها، وأوقفت على المجاورين، إلى جانب الأموال المبذولة لهم.[٥٢]

كما أشار ابن بطوطة إلى التنظيمات القضائية في بلاد الحجاز باعتبار أن القضاء أدى دوراً مهمّاً في الحياة العامة، وهو من أجل المناصب[٥٣]، إذ تقوم مهامه على الفصل في الخصومات ومشكلات الأفراد والجماعات، وبيّن ابن بطوطة أن تعيين القاضي يتم في مكة المكرمة من قِبل الخلافة العباسية قبل سقوط بغداد. وعقب انتقالها إلى مصر أصبح مرسوم تعيين القاضي يصدر منها كما يوجد لهؤلاء القضاة نواب يلتزمون بأداء أعمالهم في حالة غيابهم.[٥٤]

وكذلك الأمر في المدينة المنورة فهناك القاضى ونائبه، يقول ابن بطوطة: إن سراج الدين عمر المصري أقام في خطة القضاء بالمدينة المنورة نحو أربعين سنة، وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون. فكان القاضى يقوم بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء وعند ثبوت هلال شهر ذي الحجة يقوم القاضى بإلقاء خطبة شاملة وخاصة بأحكام الحج لكافة الحجاج، موضحاً لهم الطريق السليم لأداء الفريضة[٥٥]

ومن مهام القاضى إلقاء خطبة الجمعة المشتملة على الوعظ والتذكير والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه والدعاء لعمى النبى صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس رضى الله عنهما، وكذلك الحسن والحسين رضى الله عنهما، وزوجات النبى صلى الله عليه وسلم وفاطمة الزهراء، ثم الدعاء للخليفة العباسى وأمير مكة المكرمة ثم لحاكم مصر وولى عهده.[٥٦]وأشار ابن بطوطة إلى الحسبة ومالها من دور مهم في الحياة العامة في بلاد الحجاز، وهى تسهم مع القاضى

في تنفيذ القوانين المتصلة بالمصالح والآداب العامة في الغش والاحتيال، وقد أورد ابن بطوطة اسم أحد الأشخاص الذين تولوا منصب المحتسب وهو إمام الحنابلة محمد بن عثمان، وإلى جانب قيامه بالحسبة فهو نائب في القضاء أيضا، ويبدو أن أمير مكة المكرمة يقوم بحماية المحتسب ويعطى عمامة في حضور عدد كبير من الناس ضماناً لعدم التعرض له بسوء.[٥٧] أما التنظيمات الحربية، فالواقع أن الرحالة معلوماتهم عنها قليلة، وعلى الرغم من ذلك فقد ألقى ابن بطوطة بعض الضوء على أسماء بعض القادة، فمنهم: محمد بن إبراهيم، وعلي وأحمد أبناء صبيح، وعلي بن يوسف، وشداد بن عُمر، وعامر الشرق ومنصور بن عُمر، وموسى المرزق.[٥٨] وقد سبق التجيبي في رحلته ابن بطوطة حيث أخبر أن أمر القادة لم يقتصر على أبناء الأسرة الحاكمة في أن يكون منهم قادة الجيش، بل تعداه إلى الموالي حيث برز منهم أحد القادة من ذوي الكفاءة والشجاعة في عهد الشريف أبي نمى حيث نزل التجيبي أثناء رحلته في داره ويدعى محمد بن الحسن.[٥٩]



المبحث الثالث

الجوانب الاجتماعية لبلاد الحجاز

أشار ابن بطوطة في رحلته إلى الجوانب الاجتماعية في المجتمع الحجازى، فتحدث عن طبقات هذا المجتمع وعاداته وتقاليده والاحتفالات التى يقيمها، والملابس التى يرتديها.

١- طبقات المجتمع: استطاع ابن بطوطة أن يوضح لنا صورة المجتمع الحجازي المقسم إلى طبقات بحسب مراتبها الاجتماعية، وظهر من كلامه أن الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز قد تنوعت وأخذت مظاهر عدة، ولاغرابة في ذلك، فالتفاوت الطبقى كان له أثره الكبير في بلاد الحجاز،وأهم هذه الطبقات:

* الطبقة الحاكمة: تولى حكم الحجاز الأشراف من ذرية الحسن بن علي رضى الله عنهما في مكة المكرمة، ومن ذرية الحسين بن علي رضى الله عنهما في المدينة المنورة واتسم حكمهم بطابع الإمارة فقط.(١). وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة، فذكر أن من حكام مكة المكرمة الأشراف من نسل الشريف أبى نميّ عطيفة ورميثة، ومقرهما مكة المكرمة.(٢)، ودارهما قرب المسجد الحرام وأقام رميثة أحياناً في حصن الجديد.(٣)، وقد عُرف عن رميثة حُسن السيرة في أهل مكة المكرمة بينما كان الناس يخشون أخاه حميضة لقسوته(٤)، وتولى الحكم من أولاد رميثة عجلان(٥)، وثقبة.(٦)

أما المدينة المنورة فقد أشار ابن بطوطة إلى حكامها وهما كبيش بن منصور بن جماز، وطفيل بن منصور بن جماز من ذرية الحسن بن على رضى الله عنهما، واعتمد الأشراف على حرس يعرفون بالحرابة، وهم يحفون بالأمير وبين يديه وهم يحملون الحراب باعتبارهم حرس أمير البلد.(٧)

* طبقة القوّاد: وهي من الطبقات التى لها أهميتها الكبرى، وتتبع الشريف، ويتم اختيار أفرادها من أكابر الأشراف،وكانوا يخرجون مع موكب الأمراء مثل موكب الأمير رميثة والأمير عطيفة في المناسبات . من هؤلاء القواد: محمد بن الحسن مولى الشريف أبى نميّ في مكة(٨)، وأحيانا قد يكون القائد لايمت للأسرة الحاكمة بصلة، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة من خلال ما أورده من أسمائهم مثل محمد بن إبراهيم، وعلى وأحمد ابنى صبيح،وعلى بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق، ومنصور بن عمر،وموسى المزرق وغيرهم.(٩)

* طبقة العلماء: حظى العلماء بأهمية كبيرة لدى الناس، وحظيت بلاد الحجاز بزيارة العديد منهم، وجلسوا لإلقاء الدروس، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فمن علماء مكة المكرمة الشيخ الفقيه العالم الصالح إمام المالكية أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الإمام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن. وإمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان، وإمام الحنفية المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الأصل المكى المولد، ومن علماء المدينة المنورة بهاء الدين بن سلامة، وعز الدين الواسطى، وسراج الدين عمر المصرى والفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون، والإمام المحدث جمال الدين المطرى، وأبو عبد الله الغرناطى.[١٠]

* طبقة القضاة: تُختار طبقة القضاة من رجال العلم، فهم يلحقون بفئة العلماء، يقومون بتنفيذ الأحكام الدينية على سائر الناس، وفي بلاد الحجاز أشار ابن بطوطة إلى وجود هذه الطبقة، ووجود قضاة لجميع المذاهب، فكل طائفة تتبع إمامها وقاضيها ،ولكل إمام مكان محدد في المسجد، يصلى فيه مع أتباعه، ومن قضاة مكة المكرمة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الإمام العالم محيى الدين الطبرى، والعالم شهاب الدين فاضل بن نجم الدين محمد، ومن قضاة المدينة المنورة القاضى سراج الدين عمر المصرى، وبعده جمال الدين الأسيوطى.[١١]

* طبقة أصحاب المهن: ومنها طبقة التجار، الذين كانوا أصحاب دور كبير في بلاد الحجاز، التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على التجارة، وكانت حوانيت التجارة مصفوفة على جانبى الصفا و المروة، وهناك الفلاحون المشتغلون في بساتين مكة المكرمة المتناثرة في "الزاهر" الذي هو مبني علي جانبي الطريق خارج مكة المكرمة يحتوي علي ديار وبساتين ، والمتناثرة أيضا في "المسفلة" وهو موضع خارج مكة المكرمة بالإضافة إلى مهن أخرى كالسقائين والخبازين، وصناع الحلوى والرعاة[١٢]، والأغوات وهم خدم المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة.[١٣]، ويعملون على العناية بالمسجد خلال ساعات الليل والنهار ونظافته وإشعال وإطفاء قناديله.[١٤]، ومن المهن أيضاً صناعة الثياب، إذ يطلق على أحد أبواب المسجد الحرام باب الخياطين[١٥]، إلى جانب مهنة الطوافة حيث يقوم سدنة البيت بالطواف بالحجاج مقابل أجر علي ذلك .[١٦]، بالإضافة إلى مهنة الحمالة والجزارة والبناء والتنجيد وصناعة الدهان[١٧]، الذين لهم أجرة معلومة، وهذه مجمل المهن التى أشار إليها ابن بطوطة، واستطعت تتبعها، ولايعنى هذا اقتصار أهل الحجاز على هذه المهن فقط، فربما وجدت غيرها ولكن ابن بطوطة أغفل ذكرها.

* طبقة الفقراء والمجاورين: كان بعض فقراء الحجاز يفرغ نفسه للعبادة، وبعضهم يعيش على الصدقات، يقول ابن بطوطة: ومن المجاورين بمكة المكرمة الإمام الصوفى عفيف الدين عبد الله بن أسعد، كثير الطواف أناء الليل وأطراف النهار وغيره من المجاورين الكثير والكثير.[١٨]

٢- العادات والتقاليد: تحدث ابن بطوطة عن العادات والتقاليد الحسنة والمكارم الجميلة لأهل مكة المكرمة واصفاً إياها بأنها من الأفعال الجميلة، والأخلاق الحسنة، كالإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ودلل على ذلك بأنه متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا أطبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له، ولايردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنها يعطى ثلثها أو نصفها عن طيب نفس، ومن عادات المكيين الاحتفاء بالضيوف وإقامة الولائم، كما أدرجوا على إعداد مياه زمزم للشرب في الحرم حيث توضع في دوارق بعد تنظيفها وتوضع حولها الكيزان[١٩] البيضاء وتسمى الغراريف.[٢٠]

ومن عادتهم الحسنة أيضا الاعتناء بالأيتام ومساعدتهم على تعلم طرق الكسب الحلال، حيث اعتاد الأيتام الصغار الجلوس في السوق ومع كل واحد منهم قفتان، إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، ويسمون القفة مكتملاً، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر، ويعطى ذلك للصبى يجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى، ويحمل الصبى ذلك إلى دار الرجل ليتهيأ له طعام منها مقابل أجر معلوم، في حين يتجه الرجل لقضاء أعماله.[٢١]

كما أشار ابن بطوطة أن من عادات أهل مكة المكرمة كثرة استعمالهم الطيب والكحل والسواك، وحرص النساء على الطواف في ليلة الجمعة.[٢٢]

ومن عادات أهل المدينة المنورة ما شهده ابن بطوطة في مسجد الفتح حيث يقول: وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلّقوا في صحنه حلقا، وأوقدوا الشمع الكثير، وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله، وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة، والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى

الله عليه وسلم، وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة، ويوزعون الصدقات الكثيرة على المجاورين والضعفاء والمحتاجين.[٢٣]

وإذا كان ابن بطوطة قد أشار إلى العادات والتقاليد الحسنة لأهل مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد أشار أيضا إلى العادات والتقاليد غير الحسنة والتى تتطرق إلى البدع والشائعات مثل اعتقاد بعض أهل مكة في زيادة ماء زمزم في ليلة النصف من شعبان، وقد ذكرها من قبله ابن جبير في رحلته والعبدري أيضاً.[٢٤]، وأشيع أيضاً أن حمام الكعبة لا يهبط على الكعبة أو فوقها، وإذا هبط شفى من علته أو مات لحينه.[٢٥]

ومن الشائعات ما أثير حول جبل ثور، وقولهم من لم يستطع دخول الغار من الفتحة التى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فهو ابن زنا.[٢٦] ومن البدع "أنه في حالة وجود قحط يخرجون مصحف زيد بن ثابت الصحابي الجليل رضى الله عنه ويضعونه في القبة مع المقام بعد فتح باب الكعبة ثم يجتمع الناس وهم حاسرو الرؤوس داعين الله ومتضرعين إليه حتى يتداركهم برحمته.[٢٧]

ومن العادات غير الحسنة المنتشرة بين بعض أهل المدينة المنورة التى أشار إليها ابن بطوطة، أن هناك قطعة من الجذع الذي حنّ للنبي صلى الله عليه وسلم يقبلها الناس، ويبادرون للتبرك بلسمها ومسح الخدود فيها.[٢٨]

من الشائعات التى سجلها ابن بطوطة أثناء طريقه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، عادة الركب المار بتبوك إعداد الجيش بأسلحته ويتقدم الرجالة والفرسان وخلفهم الركب، في حين يقوم بعضهم بتحميل أكوام الحطب على الدواب لقلته بأرض تبوك، ويقبلون على المدينة بهذه الهيئة زاعمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخلها بتلك الطريقة.[٢٩]

٣- الاحتفالات: درج أهل مكة المكرمة على الاحتفال بمناسبات معينة منها: احتفالهم يوم الجمعة وخروج الخطيب والمؤذنين، واحتفالهم بشهر رجب والعمرة وغيرها من العبادات، واحتفالهم في شهر شعبان بإيقاد المصابيح والمشاعل، والصلاة والطواف والخروج للاعتمار.[٣٠]

كما يحتفلون في رمضان بضرب الطبول عند باب الأمير، وتفرق الأئمة السنيين استعداداً

لإقامة التراويح، وتجديد فرش المسجد، والإكثار من الشمع والمشاعل، واستمرار عادة ختم القرآن الكريم في الوتر من العشر الأواخر لشهر رمضان، وكذلك الاحتفال ببداية شهر شوال، وتزيين الحرم المكى بالمصابيح والشموع الموقدة في جميع أنحاء الحرم وسطحه، وسطح المسجد الموجود بأعلى جبل أبي قبيس، والاحتفال بشهر ذي الحجة، وضرب الطبول في أوقات الصلاة إلى يوم الصعود إلى عرفات، ويقوم الخطيب يوم السابع من ذى الحجة أثر صلاة الظهر بإلقاء خطبة في الناس يرشدهم إلى الطرق الصحيحة في أداء الفريضة، وكان هذا الاحتفال موجوداً وقت زيارة ابن بطوطة لمكة المكرمة.(٣١)

٤- الملابس: حرص أهل الحجاز على لبس الملابس النظيفة الحسنة، وقد أشار ابن بطوطة إلى أمير مكة المكرمة وهو يلبس ثوباً أبيضاً وعمامة بيضاء، متقلداً سيفه، ويلبس القاضى الخطيب في صلاة الجمعة ملابسه السوداء المزينة بخيوط الذهب وعلى رأسه عمامة سوداء مزينة أيضا، وعليه طيلسان شرب رقيق، كما يرتدى رئيس المؤذنين وقت صلاة الجمعة ملابس سوداء، ويحمل على عاتقه سيفه، وساد اللون الأبيض ثياب أهل مكة المكرمة، وقيام الأمير بإلباس المحتسب عمامة تكون له جوازاً، فلا يجرؤ أحد على التعرض له، ولكنها تصبح عديمة النفع عند رحيل صاحبها عن مكة المكرمة.(٣٢)

المبحث الرابع

الجوانب الاقتصادية لبلاد الحجاز

سجل ابن بطوطة في رحلته العديد من الجوانب الاقتصادية لبلاد الحجاز سواء على المسار الزراعى أو الصناعى أو التجارى وذلك على النحو التالى:

١- الزراعة: نلاحظ أن بلاد الحجاز قد اعتمدت في الزراعة على المياه، ومن ناحية توفّر المياه نجد في القرين بئر مياه عذبة، وفي مكة المكرمة هناك سقاية للماء، وفي بطن مرّ وخليص وبدر والصفراء وقباء مياه آبار عذبة، وبذلك اتسعت الرقعة الزراعية في مختلف مدن بلاد الحجاز، وقد أشار ابن بطوطة إلى المحاصيل الزراعية في بلاد الحجاز فيقول: ولقد أكلت بها من الفواكه والعنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لايماثله سواه طيباً وحلاوة، حيث تجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة، وبطن مرّ.(١)

ونلاحظ أن الأراضى الزراعية كانت قريبة من مكة المكرمة وما حولها من القرى والأودية، يقول ابن بطوطة: ثم رحلنا من عسفان، ونزلنا بطن مرّ، ويسمى أيضا مرّ الظهران، وهو وادي خصب كثير النخل ذو عين فوارة سيّالة تسقى تلك الناحية، ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة المكرمة.(٢)

كما اشتهرت الطائف بخصوبة ترتبها الزراعية، حيث تحوى الفواكه وتضم بساتينها النخيل والعنب والخوخ والتين، وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك عند حديثه عن رباط ربيع بمكة المكرمة عندما يأتي أهل الطائف بالفواكه بأنهم يخرجون العشر من الناتج من النخيل والعنب والخوخ والتين.(٣)

٢- الصناعة: ساهمت الأحجار الكريمة كالجواهر والياقوت وغيرها المجلوبة إلي بلاد الحجاز في ازدهار صناعات رائجة ومعروفة ، وهي صناعة الحلي والمجوهرات وغيرها من صناعات الفضة استخدمت في تزيين المسجد الحرام،حيث كانت هذه المادة من الفضة تجلب إلى البلاد ، وقد أشار ابن بطوطة أيضا إلى توفر الفضة والذهب في بلاد الحجاز ورخص أسعارها.(٤)

٣- التجارة: اعتمدت بلاد الحجاز على التجارة لإقبال الكثير على العمل في مجالها، ويبدو أن طبيعة البلاد قد دفعت السكان إليها ونجد ذلك واضحاً في القرآن الكريم في دعوة سيدنا إبراهيم الخليل لأهلها: "فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" سورة إبراهيم (آية ٣٧) وقال تعالى: "أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ" القصص (آية ٥٧). فالآيات تشير إلى المكان وماخصه الله به من مميزات دينية، وهي اتجاه القلوب إليه، ثم الناحية الاقتصادية المتمثلة فيما ساقه الله لهم من رزق ليكونوا شاكرين لنعمه، ومحافظين عليها، أما الآية الثانية فأشارت إلى قدسية المكان، وإلى الأرزاق والخيرات المحمولة إليه من كل مكان، وقد أشار ابن بطوطة إلى المراكز التجارية في بلاد الحجاز مثل، جدة وهو ميناء بحرى، ومكة المكرمة، وينبع وتبوك والعلا والدهناء ورابغ وعسفان وغيرها من الموانى.[٥]

كما أشار ابن بطوطة إلى أن الورادات التجارية تحمل من داخل بلاد الحجاز إلى مكة المكرمة فيحمل إليها الخضار والفواكه من الأودية القريبة مثل وادي نخلة وبطن مرّ ومن الطائف.[٦]

وقد تعددت الأسواق التجارية في بلاد الحجاز وتنوعت مبيعاتها وأوقاتها، وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة فذكر أن في مكة المكرمة يوجد سوق تجاري ما بين الصفا والمروة، تباع فيه الأطعمة، وسوق للثياب والأمتعة، وسوق للعطارين عند باب بنى شيبة وسوق الدقاقين أي التوابل في أجياد، يقول ابن بطوطة: وبين الصفا والمروة سوق عظيمة، تباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه.[٧]

المبحث الخامس

الجوانب العلمية لبلاد الحجاز

حفلت رحلة ابن بطوطة بالجوانب العلمية لبلاد الحجاز، متضمنة المذاهب الإسلامية وبعض المدارس العلمية، وأشهر العلماء الكبار، وذلك على النحو التالي:

١- المذاهب الإسلامية في بلاد الحجاز : تعددت المذاهب الإسلامية في بلاد الحجاز، وقد أشار ابن بطوطة إلى تعدد الأئمة في الحرم المكي تبعاً لتعدد المذاهب، فكان هناك المذهب المالكي، والشافعي والحنفي والحنبلي، ويمثل كل مذهب من هذه المذاهب إمام كبير فهناك الفقيه العالم إمام المالكية أبو عبد الله محمد بن أبي زيد عبد الرحمن. وشهاب الدين بن البرهان إمام الشافعية، وشهاب الدين أحمد بن علي إمام الحنفية، والمحدث محمد بن عثمان البغدادي الأصلي المكي المولد إمام الحنابلة. [١] ولفت انتباه الرحالة الذين سبقوا ابن بطوطة وزاد استنكارهم من وجود الفرقة الزيدية حيث كان الإمام الزيدي موجوداً زمن رحلة ابن جبير عام٥٧٩(هـ/١١٨٣.م) واستمر وجود الزيدية في وقت رحلة التجيبي إلى مكة سنة(٦٩٦هـ/١٢٩٦.م) ولكن هذه الفرقة اختفت واختفى وجود إمامها في وقت رحلة ابن بطوطة الذي زار مكة سنة(٧٢٦هـ/١٣٢٥.م) وبالرغم من تعدد الأئمة والمذاهب بالحرم الشريف إلا أنه لم يحدث اضطهاد أو تحيز لمذهب على آخر، بل سار أئمة وعلماء المذاهب جنباً إلى جنب لنشر العلم، وربما يحدث تفقه العلماء على أكثر من مذهب.[٣]

٢- المدارس العلمية في بلاد الحجاز: سارت المدارس العلمية بمكة المكرمة جنباً إلى جنب مع المسجد الحرام في نشر العلم، وقد أشار ابن بطوطة إلى مدرسة واحدة فقط وهي المدرسة المظفرية، التي بناها ملك اليمن المظفر نور الدين عمر بن رسول. [٤] غير أن المسجد الحرام يعدّ مدرسة علمية ومركزاً لنشر العلم والتعليم من أعظم المراكز العلمية، حيث تعقد فيه حلقات العلم المتنوعة، ليس وفق منهج محدد بل كان الأمر متروكاً لكل عالم في تدريس المفيد.[٥]

وقد أشار ابن بطوطة إلى أن الكثير من طلاب العلم قد حرصوا على طلب العلم بالمسجد الحرام، وليس بالمدارس المنتشرة بمكة وحدها. [٦] ولم يشير ابن بطوطة في رحلته إلى وجود مدارس علمية بالمدينة المنورة بسبب ما كان عليه المسجد النبوي والمسجد الحرام من نشاط علمي بسبب وفرة العلماء والكتب العلمية، وكأنما مكة والمدينة كانتا مقراً للعلم والعلماء.

ويأتي المسجد النبوي مركزاً ثانياً من المراكز العلمية بالحجاز، وظلت المدينة المنورة مقصداً لطلبة العلم، وكان العلماء المجاورون يحتفظون بكتبهم داخل المسجد النبوي في أماكن خاصة بهم، كما ضم المسجد النبوي مكتبة كبيرة وبعض المصاحف الموقوفة على المسجد.[٧]

وقد شاهد ابن بطوطة وغيره من الرحالة الذين نزلوا بلاد الحجاز خزائن للكتب في المسجد الحرام، وهي كتب وقفت على المسجد الحرام إلى جانب الكتب الخاصة بكل عالم يتولى التدريس، إلى جانب الكتب الموقوفة من قبل علماء مكة المكرمة مما يعطى انطباعًا واضحًا عن وجود اتصال حضارى بين المسلمين فى بلاد الحجاز وشعوب الدول الأخرى، مما أعطى بلاد الحجاز بعض الخصوصيات الثقافية التى تنفرد بها عن باقى المنطقة العربية[٨].

٣- أشهر العلماء الكبار بمكة المكرمة : ضمت مكة المكرمة جمعاً غفيراً من العلماء، سواء كانوا مقيمين بها أو مجاورين للمسجد الحرام، في زمن ابن بطوطة وقد أورد ابن بطوطة عدداً من هؤلاء العلماء مثل: نجم الدين محمد بن محيي الدين الطبري، المولود في سنة(٦٥٨. هـ/١٢٥٩.م) ،تفقه وأفتى وتولى القضاء حتى مات في سنة ٧٣٠.هـ/١٣٢٩.م، لقيه ابن بطوطة وأثنى عليه لفضله وكثرة صدقاته ومواساته للمجاورين وحسن خلقه، وكثرة عبادته وإطالة مكوثه في المسجد الحرام وقيامه بإطعام الأشراف والأعيان والفقراء، وخدم الحرم الشريف والمجاورين، وحظى بمكانة كبيرة لدى الملك الناصر ملك مصر، إذا يعتبر وكيلاً عنه في توزيع صدقاته وصدقات أمرائه على سكان مكة المكرمة. [٩]

والعالم الفاضل جلال الدين محمد الأقشهري، جاور بالحرمين وسمع بها الكثير، وله عناية كبيرة بالحديث الشريف، ولد سنة(٦٦٤.هـ/١٢٦٥.م) ، ومات بالمدينة المنورة سنة٧٣٩(.هـ/١٣٣٨.م) وقد لقيه ابن بطوطة وأشار إلى جلوسه عند باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام[١٠]

وإمام الحنابلة محمد بن عثمان البغدادي، سمع وحدّث وناب في القضاء بمكة المكرمة عن القاضي نجم الدين الطبري، وتوفى سنة(٧٣١.هـ/ ١٣٣٠.م) ولقيه ابن بطوطة وبيّن أنه بغدادي الأصل مكي المولد، وكان المحتسب بعد قتل تقى الدين المصري، وله عند الناس هيبة وسطوة[١١]

ومحمد بن عبد الله بن أحمد الطبري المكي الشافعي، ولد سنة(٦٧٨.هـ/١٢٧٩.م) بمكة المكرمة وتوفى سنة(٧٣٥.هـ/١٣٣١.م) وقد مدحه ابن بطوطة كثيراً لبلاغته وحسن بيانه، وكان يكتب لكل جمعة خطبة خاصة بها.[١٢]

والعالم عز الدين الحسن بن علي الواسطي، ولد سنة(٦٥٣.هـ/١٢٥٥.م) ومات في شعبان سنة(٧٤١.هـ/ ١٣٤٠.م)، ذكره ابن بطوطة من مكة المكرمة والمدينة المنورة وقال عنه: إنه من أصحاب الأموال الطائلة، يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي.[13]

والعالم أحمد بن محمد بن أحمد زين الدين الطبري المكي، ولد سنة (٦٩٣هـ/١٢٩٣.م)، وتوفى بمكة المكرمة سنة(٧٤٢.هـ/١٣٤١.م) قال عنه ابن بطوطة: إنه الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين من أهل الفضل والإحسان للمجاورين.[14]

والعالم أحمد بن علي بن يوسف شهاب الدين الحنفي المكي إمام الحنفية بالحرم الشريف، ولد بمكة المكرمة سنة(٦٧٣.هـ/١٢٧٤.م) وتوفى بها سنة (٧٦٣هـ/١٢٧٤.م)، قال عنه ابن بطوطة: إنه من كبار أئمة مكة المكرمة وفضلائها وكرمائها، قام في كل عام باستدانة أربعين أو خمسين ألف درهم لإطعام المجاورين وأبناء السبيل.[15]

٤- أشهر العلماء الكبار بالمدينة المنورة: حفلت المدينة المنورة بالعديد من العلماء القائمين على التعليم ونشر العلم، إضافة إلى العلماء القادمين إليها، وربما جاور بعضهم واستقر بها ذلك في زمن ابن بطوطة من بين هؤلاء العلماء: العالم الجليل سراج الدين عمر بن أبي العباس الأنصاري، ولد سنة(٦٣٥.هـ/١٢٣٧.م) وتوفى سنة(٧٢٦هـ/ ١٣٢٥.م)، أشار إليه ابن بطوطة بقوله: قاضي وخطيب المدينة المنورة، ظل قاضي وخطيب المدينة نحو أربعين سنة.[16]

والعالم جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد العبادي السعدي الشافعي رئيس المؤذنين بالحرم النبوي الشريف، ونائب القاضي والخطيب والإمام في المدينة المنورة، ولد سنة(٦٧١.هـ/١٢٧٢.م) وتوفى سنة(٧٤١.هـ/١٢٤٣.م) وقال عنه ابن بطوطة: هو الإمام المحدث الفاضل.[17]

والعالم محمد بن محمد بن أحمد كمال الدين المصري، نبغ في الفقه، وسمع الحديث، تولى القضاء والخطابة والإمامة بالمدينة المنورة، ولد سنة(٦٧٤.هـ/١٢٧٥.م) في القاهرة، وتوفى سنة(٧٤٥.هـ/١٣٤٤.م)، ولقيه ابن بطوطة قائلاً عنه: إنه من مصر وأشار إلى توليه الخطابة والقضاء بالمدينة المنورة.[18]

والعالم أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي، جاور بالمدينة وأخذ الحديث وأتقن الفرائض والحساب، توفى سنة(٧٥٤هـ/١٣٥٣م) ولقيه ابن بطوطة وأثنى عليه ونعته بالشيخ المجاور المعروف بالتراس وأصبح فيما بعد أحد القائمين على خدمة المسجد النبوي الشريف.(١٩)

والعالم محمد بن فرحون بن محمد بن فرحون التونسي المولد والمنشأ، أشار ابن بطوطة إلى عمله نائباً للقاضي سراج الدين، وله العديد من الأبناء بالمدينة المنورة، ومات سنة(٧٢١هـ/ ١٣٢٠م) وقد برع في علم الميقات.(٢٠)

والعالم عبد الله بن محمد بن فرحون قاضي المالكية ومؤرخ المدينة المنورة، ولد سنة(٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، أخذ العلم على يد علماء عصره، واستوطن المدينة المنورة، وعمل نائباً للقاضي مدة أربع وعشرين سنة، ثم انفرد بقضاء المالكية، وكان عالماً بالحديث ومعانيه والقرآن الكريم وتفسيره، وله العديد من المؤلفات، قال عنه ابن بطوطة: أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم.(٢١)

والعالم البهاء بن سلامة المصري الذي قام بالخطابة، والإمامة بالمدينة المنورة، أشار ابن بطوطة إلى إمامته للمسجد النبوي الشريف وقت قدومه إلى المدينة المنورة، وكان من أكابر المصريين(٢٢)

لقد تمتعت مكة المكرمة والمدينة المنورة بمكانة علمية عظيمة في نفوس المسلمين جميعاً، وهما من أهم المراكز التي تشد إليها الرحال وتضرب إليها أكباد الإبل في سبيل طلب العلم والعبادة، وقام علماؤها بدور كبير في النهوض بالحركة العلمية وازدهارها.

الخاتمة

لقد اعتمدت في هذا البحث على كتاب رحلة ابن بطوطة لإظهار أهميته، والتأكيد على أن هذه الرحلة من المصادر المهمة لتاريخ الحجاز، وقد تمخض هذا البحث عن عدد من النتائج تتعلق بالجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ومن هذه النتائج نتائج الجوانب السياسية: حيث ظهر من خلال الدراسة أنه قد حدث اضطراب سياسى في بلاد الحجاز نتيجة تصارع أمراء الأشراف فيما بينهم على الإمارة ، وقد استعان الأمراء الأشراف بملوك مصر تارة وبملوك اليمن تارة أخرى في سبيل الحصول على الحكم ، وقد ارتبط أشراف الحجاز ارتباطا وثيقاً في القرن الثامن الهجرى بالمماليك بمصر، الذين تدخلوا في شئون الحجاز الداخلية، وامتد ليشمل الأمراء أنفسهم من ناحية توليتهم وعزلهم ، وامتدت سيطرت أمراء مكة المكرمة على مناطق شاسعة خارج الحجاز ليشمل مملكة سواكن وبلاد البجة.

أما الجوانب الاجتماعية: فقد تعددت الطبقات في المجتمع الحجازى، واختلاف تركيبته السكانية ، وظهرت عادات وتقاليد انفرد بها أهل الحجاز عن سائر الأمصار الإسلامية ، وكذلك الاحتفالات المرتبطة بأكثر الشهور العربية.

أماالجوانب الاقتصادية:فقد ظهر من خلال الدراسة استقرار الأحوال السياسية بالممالك الإسلامية المجاورة للحجاز يعقبه استقرار سياسى واقتصادى بالحجاز بسبب ما يصلها من أعطيات منها بانتظام ، وأن أهل الحجاز لديهم معرفة بأساليب المعاملات التجارية بمختلف أنواعها ، وأن للأسواق وانتشارها وجود كبير .

ومن حيث الجوانب العلمية: كانت رحلة ابن بطوطة مشاهدات في بلاد الحجاز بمثابة موسوعة علمية مصغرة عن هذه البلاد لما حوته من معلومات مهمة لكافة أحوال المسلمين في القرن الثامن الهجرى.

وتضمنت هذه الرحلة العديد من أسماء العلماء البارزين في مكة والمدينة ، كما ضمت مكة المكرمة والمدينة المنورة المذاهب الإسلامية الأربعة وسار علماء هذه المذاهب جنبا إلى جنب لدفع الحركة العلمية والنهوض بها وبروز دور المسجد الحرام العلمى، وكذلك دور المسجد النبوى فكان كل منهما بمثابة جامعة مفتوحة يتوافد إليها طلاب العلم المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامى.

كما أبرزت الدراسة دور العلماء المجاورين في رواج الحركة العلمية بمكة المكرمة والمدينة المنورة، واطلعت الدراسة من خلال رحلة ابن بطوطة على كثير من المشاهد الجغرافية والعمرانية في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

هوامش البحث

هوامش التمهيد

١- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، طبعة عالم المعرفة العدد ١٣٨، الكويت ١٩٨٩م ص٢٧. وانظر ابن الخطيب ذو الوزارتين لسان الدين ت٧٧٦هـ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤م، ٢٧٣/٣ .

٢- ابن حجر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى ت٨٥٢هـ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة دار الجيل - بيروت بدون تاريخ٣/ ٤٨٠.

٣- ابن بطوطة، الرحلة، طبعة دار صادر بيروت ١٩٨٥ص٥.

٤- «لواته» بطن من بطون البربر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زهيك. انظر عبد الرحمن بن خلدون ت٨٠٨هـ، تاريخ ابن خلدون، طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٩م،١١٦/٦.

٥- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤. و«طنجة» : بلد على ساحل بحر المغرب، وهى مدينة قديمة، آثارها ظاهرة، بناؤها بالحجارة قائمة على البحر، وهى على ظهر جبل، وهى آخر حدود أفريقيا، انظر ياقوت الحموى ت٦٢٦هـ، معجم البلدان طبعة دار صادر - بيروت . بدون تاريخ. ٤٣/٥.

٦- ابن بطوطة، الرحلة ص ١١٥.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٨.

٨- ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة ٣/ ٤٨٠.

٩- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤.

١٠-ابن خلدون عبد الرحمن ت ٨٠٨ هـ، المقدمة طبعة دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة بدون تاريخ، ٣٢٢/١.

١١-ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة. طبعة دار الكتب الحديثة القاهرة بدون تاريخ، ٤/ ١٠٠.

١٢-انظر مقدمة ابن جزي برحلة ابن بطوطة ص٩-١٣ ،وانظر ابن الخطيب ،الإحاطة ٢/٢٥٦-٢٥٧، ٢٦٥ ، وانظر زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٤١م ، وانظر:

- M.Zaki: Arab Accounts of India (During The Fourteenth century) dell, Delhi, 1981 .

١٣-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤، ١٧٠، ٢٤٠-٢٤٢، ٢٨٠، ٦٥٤.

١٤-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣/ ٤٨٠.

١٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤، ١٣٠.

١٦-كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان، طبعة جامعة الدول العربية ١٩٥٧ م ٤٢١/١. ونقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ط٣، طبعة المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع- بيروت ١٩٨٢.م ص١٨٠.

١٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٠٨ - ١١٠.

١٨-نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب ص١٨٢.

١٩-حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب ص٤١، والبستاني، دائرة المعارف ٣٩٩/١.

وانظر :

- Blanche Trapieu : Les Voyageurs Arabes au Mogen Age. Gallimard. 8 eme edition. 1937.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ٤١٠، ٥١٥ - ٥١٦.

٢١-جزيرة المهل، وهي ما تعرف اليوم بجزائر المالديف، انظر محمد محمود الصياد، رحلة ابن بطوطة، طبعة دار المعارف للطباعة، والنشر والتوزيع تونس ١٩٨٥ م، ص٤٩. وشوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، طبعة عالم المعرفة - العدد (١٥١) الكويت ١٩٩٠، ص١٩٣.

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٨، ٥١١، ٥٨٢-٥٨٨، وانظر ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣/ ٤٨٠.

٣٢- انظر مقدمة هذا المرجع :

- C.H.Lockitt. theadventure of Travel. Longman : 15th edition 1960 .

هوامش المبحث الأول

١-ابن رشيد، ملء العيبة، ط دارالغرب الإسلامي- بيروت ١٩٨٨.م ٧/٥، ابن بطوطة، الرحلة ص١١٢.

٢-ابن رشيد، ملء العيبة ١١/٥ - ١٢ ، ١٥ - ١٦، وابن بطوطة، الرحلة ١١٢ - ١١٣.

٣-البلوي، تاج المفرق تحقيق الحسن السائح - ط بيروت (د . ت) ٢٧٨/١، وابن بطوطة، الرحلة، ١١٢ - ١١٣، وابن رشيد، ملء العيبة ١٤/٥ - ١٥.

٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١١٣، والبلوي، تاج المفرق ٢٧٩/١.

٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢١٨ - ٢١٩، وابن بطوطة، الرحلة ص٢٤٢ - ٢٤٣.

٦-العبدري، الرحلة المغربية ص١٦٣ - ١٦٤، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٨ - ١٢٩.

٧-البلوي، تاج المفرق ٢٧٩/١، وابن بطوطة، الرحلة، ص١٢٨.

٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨-١٢٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٦٣ – ١٦٤.

٩-العبدري، الرحلة المغربية ص١٦٤ – ١٦٥، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٩.

١٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٦٦.

١١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٩.

١٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٩-١٣٠.

١٣-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٠.

١٤- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣١، وأبو عبدالله العبدري:الرحلةالمغربية – تحقيق محمد الفاسي – طبعة الرباط – المغرب ١٩٦٨.م ،ص١٧٢ – ١٧٣، التجيبي االقاسم بن يوسف ت٧٣٠هـ:مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، طبعة الدار العربية للكتاب – ليبيا- تونس ١٩٧٥.م ص٢٣٠.

١٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣١-١٤٤، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٥١.

١٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٥٠.

١٧-جبل الخندمة: الخندمة جبال مكة الشرقية التى تبدأ من أبى قبيس متجهة شرقا إلى المفجر الذي يفصل بين جبال منى وجبال مكة وتمتد جنوبا حتى تشرف على المفجر الغربى الذي يفصلها عن جبل ثور، انظر البلادى عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، طبعة مطبوعات نادى الطائف الأدبى- السعودية ١٩٧٨.م، ١٦٠/٣.

١٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٣.

١٩-وهو الآن يقع داخل عمران مكة، ويشرف على حى الهجرة.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٥، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٥٥، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٨٦.

٢١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤-١٤٥، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٦١.

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٨٣ – ١٨٤، والحربي، المناسك وأماكن طرق الحج تحقيق حامد الجاسر ط٢ – الرياض ١٩٨١.م ص٥٠٦ – ٥٠٨، والفاسي، شفاء الغرام ٤٩١/١ – ٤٩٢، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٤ – ٥٠٦.

٢٣-العبدري، الرحلة المغربية ص١٨٤ – ١٨٥، والفاسي، شفاء الغرام ٤٨٢/١ – ٤٨٨، وابن بطوطة، الرحلة

ص١٦٩ – ١٧٠.

٢٤-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٢، وابن رشيد، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – تحقيق محمد الحبيب جـ٢ طبعة الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٢م، جـ٣ طبعة ١٩٨١م وجـ٥ طبعة دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٨٨م ٥/١٥، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٩ – ١٣٠.

٢٥-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٦، عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة ط٤، طبعة المطبعة العربية الحديثة – بيروت ١٩٨٥م ص٢٣٩، ٢٤٦، والشنقيطي، الدر الثمين ط٣، طبعة دار القبلة – مكة ١٩٩١م ص١٦٧.

٢٦-ابن بطوطة، الرحلة ص١١٨ – ١١٩.

٢٧-ابن بطوطة، الرحلة ص١١٤ – ١١٩.

٢٨-البلوي، تاج المفرق ١/٢٨٧ – ٢٨٨، وابن بطوطة الرحلة ص١٢٥.

٢٩-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٥، والبلوي، تاج المفرق ١/٢٨٨.

٣٠-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٥، والبلوي، تاج المفرق ١/٢٨٨.

٣١-البلوي، تاج المفرق ١/٢٨٨، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٥.

٣٢-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٦.

٣٣-البلوي خالد بن عيسى ت٧٨٠ هـ، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق ومقدمة الحسن السائح، طبعة بيروت (د . ت)، ١/٣٠٥ – ٣٠٧، والفاسي محمد بن أحمد الحسيني ت٨٣٢ هـ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عُمر عبد السلام التدمري طبعة دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٨٥م، ١/٣٦٩، ٣٨٥ – ٣٨٧، ٣٣٠ – ٣٣١، ٣٤٦، التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٣ – ٢٤٦، ٢٢٧ – ٢٢٨، ٣٠٣ – ٣٠٤، ٢٧٩ – ٢٨٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٢، ١٣٦ – ١٣٩، ١٤٠.

٣٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١٤٢ – ١٤٤، والبلوي، تاج المفرق١/٣١٢.

٣٥-البلوي، تاج المفرق ١/٣٠٨، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٢، وسيد عبد المجيد بكر، أشهر المساجد في الإسلام ط دار القبلة – مكة ١٩٨٤م ص١٠٢ – ١٠٤.

٣٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٩، والبلوي، تاج المفرق ١/٣٠٩.

٣٧-ابن بطوطة، الرحلة ص١٦٩.

٣٨-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٩، والبلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية ط دار مكة السعودية ١٩٨٠.م ص٢٧٢، وابن بطوطة، الرحلة ص١٦٩ - ١٧٠.

٣٩-التجيبي، مستفاد الرحلة ص١٤٣، والبلوي، تاج المفرق ١/ ٣١٠، والفاسي، شفاء الغرام ١/٤٢٩، وابن ظهيرة، الجامع اللطيف ص٢١٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٣.

٤٠-الفاسي، شفاء الغرام ١/٥٢٧، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٩، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٥.

٤١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٤، والفاسي، شفاء الغرام ١/ ٥٢٧.

٤٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٠، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٥٦، والفاسي، العقد الثمين ١/ ١٢٢.

٤٣-الفاسي محمد بن أحمد الحسيني ـ٨٣٢ هـ- والعقد الثمين في أخبار البلد الأمين، تحقيق عُمر عبد السلام التدمري طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٥. م، ١/ ١٢٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤١.

٤٤-ابن فهد، إتحاف الورى ٣/ ٦٠، والفاسي، شفاء الغرام ١/٥٢٨، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨.

٤٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٤، والفاسي، شفاء الغرام ١/٥٣٢ - ٥٣٥، والفاسي، العقد الثمين ١/ ١٢٠ - ١٢٢، وابن فهد، إتحاف الورى٢/٥٦٤، ٣/ ٦٤.

٤٦-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٣٣ - ٢٣٦، ٣٣٩، والبلوي، تاج المفرق ١/ ٣١١ - ٣١٣، والفاسي، شفاء الغرام ١/٤٣٨، ٤٣٩، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٠، ١٤٢.

٤٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣١.

٤٨-ابن فهد، إتحاف الورى ٢/ ٥٣٦ - ٥٣٨، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٥٢، وابن الجوزي، المنتظم ١٠/ ٢٦٠.

٤٩-البلوي، تاج المفرق ١/ ٣٠٩، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٣٣، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩، والفاسي، شفاء الغرام ١/ ٥٥٩، ٥٣٢، ٥٤٦ - ٥٥٢، والفاسي، العقد الثمين ١/ ١٢٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤١ - ١٤٣، ١٥٤.

هوامش المبحث الثاني

١- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤، ٢٢.

٢- رميثة بن أبي نمى محمد بن أبي سعد حسن بن أبي علي أمير مكة، وليها نحو ثلاثين سنة، توفى ثامن ذي القعدة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥.م انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، طبعة مكتبة الخانجي القاهرة (د . ت) ١/ ٣٠٦.

٣- عطيفة بن أبي نمى محمد بن أبي سعد خسن بن أبي علي أمير مكة، وليها إحدى عشرة سنة ونصف، وقتل سنة ٧١٠هـ. انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي ١/ ٢٧٩.

٤- السلطان يوسف بن عمر بن علي بن رسول أحد سلاطين الولة الرسولية ،الذين حكموا اليمن أكثر من قرنين واتسع ملكهم فشمل أكثر بقاع اليمن ، وتيرجع تسمية الدولة بهذا الاسم إلي أن نسبهم ينتهي إلي محمد بن هارون الغساني ، وكان أثيرا عند الخليفة العباسي ، فأرسله عدة مرات إلي سلاطين الأيوبيين بمصر فأطلق عليه لقب رسول ، واعتبر المؤرخون أن دولة بني رسول دولة يمنية وليست دخيلة ولذلك يعتبرون محمد بن هارون من حفدة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة .انظر أحمد شلبي ،موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، الطبعة الثالثة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٥.م ، ٣٥١/٧ .وانظر ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٩، ١٤٨.

٥- أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب تحقيق ناظم رشدي، ط بيروت (د . ت) ص٥٠ – ٥٥، والزركلي، الأعلام طبعة دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨٦.م ٩٠/٢.

٦- العز بن فهد، غاية المرام تحقيق فهيم شلتوت – طبعة دار المدني السعودية١٩٨٦.م ٥٩٦/١ – ٥٩٨.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ٤٣ ، ١٤٩، ١٦٠، ١٦١.

٨- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤١.

٩- البجة: أرض أسفل مصر، والبجاة هم جنس من الحبش، وبلادهم بين البحر الأحمر ونيل مصر، والبجة من مدن الحبشة، انظر ابن حوقل أبو القاسم النصيبي ت٣٦٧هـ، صورة الأرض، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص١٥١، وياقوت الحموي، معجم البلدان ٣٤٠/١.

١٠- سواكن: ميناء سوداني على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليه السفن التى تقدم من جدة، وأهل بجاة سود نصارى، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان ٢٧٦/٣.

١١- زيد بن أبى نمى محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسنى، انظر الفاسى تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى ت ٨٣٢ هـ، العقد الثمين في أخبار البلد الأمين تحقيق عمر عبد السلام التدمرى، طبعة دار الكتاب العربى – بيروت ١٩٨٥ .م، ٤٨٣/٤ – ٤٨٤.

١٢- ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٥ .

١٣- أبو سعيد بن خربند بن أرغون بغا ملك التتار وصاحب العراق والجزيرة وخراسان والروم، كان مسلماً حسن الإسلام، أقام في الملك عشرين سنة، ومات سنة٧٣٦هـ/١٣٣٥.م. انظر ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة ٥٠١/١ ، ١٣٧/٢.

١٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٧٢ ، ٢٤١.

١٥-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩ ، ١٦١ .

١٦-أيدمور أحد الأمراء بالقاهرة في أيام الملك الناصر، كان أمير جندار، وحج بالناس، انظر ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة٤٠٧/١.

١٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٢ .

١٨- كِلوة: موضع بأرض الزنج وعلى بعد نحو ٢٤٠ كم، إلى الجنوب من مدينة دار السلام عاصمة تنزانيا حاليا، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان ٤٧٨/٤.

١٩-هو أبو المظفر حسن بن سليمان، كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج والإغارة عليهم، فكثرت غنائمة، وعمل على صرفها وفق تعاليم الشريعة الإسلامية في كتاب الله عز وجل، وقد حكم ٢٤ سنة ومات دون عقب. انظر ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٥٨ ، والمالكى سليمان عبد الغنى، سلطنة كلوة الإسلامية، طبعة دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦ م، ص٤٣.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٥٨.

٢١-ابن بطوطة،الرحلة ص ١٥٥ .

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٣ .

٢٣-وادى الصفراء من ناحية المدينة المنورة، وهى فوق ينبع مما يلي المدينة المنورة، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان ٤١٢/٣.

٢٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨ .

٢٥- هو طفيل بن منصور بن جماز الحسينى، استقر في إمرة المدينة المنورة بعد قتل أخيه كبيش بن منصور بن جماز الحسينى في رجب ٧٢٨ هـ/١٣٢٧م وكان أميراً كبيراً كامل السؤدد وعالى الهمة صاحب جود، محسناً لاسيما إلى المجاورين، استمر حاكما إلى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، انظر السخاوى شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عنى بطبعه ونشره أسعد طرا بزونى الحسينى. (د.ت) ٢٥٨/٢-٢٥٩.

٢٦-كبيش بن منصور بن جماز الحسينى، ولى إمرة المدينة المنورة بعد قتل أبيه في رمضان سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤م، فأقام سنة ونحو خمسة أشهر، وقتل على يد أولاد عمه مقبل بن جماز فى رجب ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، انظر السخاوى، التحفة اللطيفة ٤٢٦/٣-٤٢٧.

٢٧-مقبل بن جماز بن شيحة بن هشام الحسينى، طرق المدينة المنورة في شعبان سنة ٧٠٩ هـ/١٣٠٩م فتغيظ منه كبيش بن منصور بن جماز وهو ابن أخيه، وكان إذ ذاك يخالف أباه على الإمرة فدهمهم مقبل بن جماز ليلاً ونصب سلماً خشبياً كان معه وصعد منه على السور فاستيقظ له كبيش وتقاتلا إلى أن قتل مقبل وقتل معه عدد من أقاربه، انظر ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة ٤٢٦/٤.

٢٨-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٤ .

٢٩-القلقشندي، صبح الأعشى شرح وتعليق نبيل الخطيب ط دار الفكر ودار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧.م ٣٠٤/٤ - ٣٠٥، وأحمد بن محمد بن صالح الحسيني، المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي ط بيروت ١٩٧٢.م ص١١٨ - ١٢١.

٣٠- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٣-١٢٤.

٣١-عز الدين بن فهد، غاية المرام ٤١/٢.

٣٢-المصدر السابق ١٨/٢.

٣٣-الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد الأكوع ط٢ صنعاء١٩٨٣ م ٢٨٠/١، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٧٨/٤، والعز بن فهد، غاية المرام ٨٠/٢.

٣٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨- ١٢٩.

٣٥-ينبع : مكان بين مكة والمدينة، وتسمى بذلك لكثرة ينابيعها، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤٥٠/٥.

- رابغ : واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة، ياقوت الحموي، معجم البلدان١١/٣.

- وادي الصفراء: من ناحية المدينة كثير النخل والزرع والخير بينه وبين بدر مرحلة، وماء هذا الوادي كله عيون، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤١٢/٣.

- خليص: مكان بين مكة والمدينة، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان٣٨٧/٢.

٣٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ٢٤٣.

٣٧-مر الظهران: موضع على مرحلة من مكة، وهو الوادي وبه عيون كثيرة، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان ١٠٤/٥.

٣٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٨-١٢٩.

٣٩-القلقشندي، صبح الأعشى ٢٨١/٤.

٤٠-التجيبي، مستفاد الرحلة تحقيق عبد الحفيظ منصور ، ط الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس ١٩٧٥.م ص٣٠٥، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٧٧/٤.

٤١-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٥ - ٣٠٦.

٤٢-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٣ - ١٢٤.

٤٣-التجيبي، مستفاد الرحلة ص ٣٠٥ - ٣٠٧.

٤٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٤.

٤٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٧، وأحمد بن عمر الزيلعي، نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة. مجلة الدارة العدد (٣) الرياض١٤٠٩هـ ص٧٤ - ٧٥.

٤٦-العصامي، سمط النجوم ٢٢٥/٤.

٤٧-المصدر السابق ٢٢٧/٤.

٤٨-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٦٣.

٤٩-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٩٤، ١٦٠، وانظر ابن فهد، إتحاف الورى ٥٤٦/٢.

٥٠-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٦٣.

٥١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٧٢، ٢٤١. ٢٥٨.

٥٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩، ١٧١.

٥٣-القلقشندي، صبح الأعشى ٢٣٦/١٢.

٥٤-ابن بطوطة، الرحلة ص١٤٩، ١٥١، ١٦١، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٤١٥، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٣٦/١٢ - ٢٣٧.

٥٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٤٦٥، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٠، ١٢١، ١٦٩.

٥٦-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٠.

٥٧-الماوردي، الأحكام السلطانية، ط دار الكتب العلمية بيروت (د . ت) ص٢٩٩، وابن الأخوة، معالم القربة تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م ص٥١، والسنامي، نصاب الاحتساب تحقيق مونل يوسف ط دار العلوم القاهرة ١٩٨٣م ص١٢ - ١٣، وابن بطوطة، الرحلة ص١٥١ - ١٥٢، والفاسي، العقد الثمين ١٣٤/٢ - ١٣٥.

٥٨-ابن بطوطة، الرحلة ص١٦٢.

٥٩-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٩، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٨١/٤.

هوامش المبحث الثالث

١- القلقشندي، صبح الأعشى ٢٨١/٤.

٢- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٨٤.

٣- الفاسي، العقد الثمين ٤١٥/٤.

٤- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٦ - ٣٠٧.

٥- عجلان بن رميثة ولي مكة لعدة مرات وتوفى سنة٧٧٧هـ، انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي ٤٤٢/١.

٦- ثقبة بن رميثة من أسرة قتادة ولي إمارة مكة شريكاً لأخيه، ثم استقل بها إلى أن مات سنة٧٦٢هـ / ١٣٦٠م، انظر ابن تغري بردي، الدليل الشافي ٢٣١/١، وانظر الفاسي، العقد الثمين ٥٩/٤ - ٦٠.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٢-١٦٣.

٨- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٩، وسليمان المالكي، بلاد الحجاز ط دارة الملك عبد العزيز - الرياض ١٩٨٣م ص١١٠.

٩- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٢.

١٠-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٠ - ١٥١، ١٢٠ - ١٢١.

١١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩ ، ١٢٠ - ١٢١.

١٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨ - ١٤٩، وجميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي - ط تهامة السعودية ١٩٨٥م ص٢٣٠.وانظر ابن جبير، الرحلة ص١٢٨،١٢٧، ١٢٥.

١٣-الأغوات، جمع الأغا، انظر عبد الرحيم عبد الكريم الأنصاري، تحفة المحبين تحقيق محمد العروس ط تونس ١٩٧٠م ص٥٣.

١٤-السخاوي، التحفة اللطيفة ٦١/١ - ٦٣.

١٥-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٤٧.

١٦-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٦٤.

١٧-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣٣٦/٤، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨ - ١٤٩.

١٨-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٢ - ١٥٣.

١٩-الكوز: نوع من الأواني ذو عروة وفي حالة عدم وجودها يسمى كوباً. انظر ابن منظور، لسان العرب (ك.و.ز).

٢٠-التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٣ ، ٤٦٣، والمغرفة ما يغرف بها وهي على قدر ملء اليد، ابن منظور، لسان العرب (غ.ر.ف)

٢١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٨-١٤٩.

٢٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٩، وابن المجاور، تاريخ المستبصر ضبط وتصحيح أوسكر لونفرين - ط بريل - ليدن ١٩٥١.م ص٩.

٢٣-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٢٦-١٢٧.

٢٤-ابن جبير، الرحلة ص١١٩، والعبدري، الرحلة المغربية ص١٧٥ - ١٧٦، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٧.

٢٥-الفاسي، شفاء الغرام ص٣٠٠، وابن ظهيرة، الجامع اللطيف ص٢٩، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٨٩.

٢٦-التجيبي، مستفاد الرحلة ص ٣٥٣ - ٣٥٦، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٥.

٢٧-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٨.

٢٨-ذكر هذه البدعة ابن جبير في رحلته ص١٧٠، والعبدري في الرحلة المغربية ص٢١٩ ، وابن بطوطة، الرحلة ص١١٣.

٢٩-ابن بطوطة، الرحلة ص ١١٢.

٣٠-ذكرها الأزرقي في أخبار مكة تحقيق رشدي الصالح - ط٣ دار الثقافة بيروت ١٩٧٨.م ١/ ٢١٠، وابن بطوطة في الرحلة ص ١٢٨، ١٥٦٠، ١٦٥.

٣١-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٦٦-١٦٩، وابن جبير، الرحلة ص١٤٩.

٣٢-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥١-١٥٢.

هوامش المبحث الرابع

١- القرين : مكان بالقرب من جدة ، وهومنزل الحجاج يحرمون منه . وبطن مر : موضع من نواحي مكة ،عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران واديا واحدا . وخليص :هو حصن بين مكة والمدينة . والصفراء : واد كثير النخل والزرع من ناحية المدينة المنورة .انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٤٩٩/١ ،٣٨٧/٢، ٤١٢/٣، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٢، وقد ذكرها ابن جبير في الرحلة ص٨٨ - ٨٩، ٩٣، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٣.

٢- ابن المجاور' تاريخ المستبصر ص٤١، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٠.

٣- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٤، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٥٣/٤ - ٢٥٤، وابن المجاور، تاريخ المستبصر ص٩.

٤- العلا : اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام . الدهناء : منزل بطريق مكة من البصرة .رابغ : واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة ، انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٤٩٣/٢، ٣، ١١/٣.

١٤٤/٤ ،وابن بطوطة، الرحلة ص ١٧١-١٧٢، ومؤلف مجهول، الاستبصار ص١١.

٥- انظر العبدري، الرحلة المغربية ص١٦٥ – ١٦٦، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٢٣، وابن بطوطة، الرحلة ص١١٣، ١٢٨، ١٢٩.

٦- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٢، ١٥٤.

٧- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٣٩، ١٤١، وابن المجاور، تاريخ المستبصر ص١٢ – ١٣، وجميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ص٢٣١، والفاسي، العقد الثمين ٤٤٦/٣، ١٦١، ١٦٦.

هوامش المبحث الخامس

١- ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٠ – ١٥١.

٢- ابن جبير، الرحلة ص٧٨ ، ٨٠، والتجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٩٧ – ٢٩٨.

٣- الفاسي، العقد الثمين ١٩٦/٥ – ١٩٩، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٢٢/٢.

٤- ابن بطوطة، الرحلة ص١٣٩، والفاسي، العقد الثمين ٤٨٩/٧.

٥- علي حسني الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية طبعة مكتبة الخانجي – القاهرة (د . ت) ص٢٢٩، وعبد الرحمن بن صالح عبد الله، تاريخ التعليم في مكة المكرمة طبعة دار الشروق – القاهرة ١٩٨٢.م ص٤١، ومحمد الحسيني، الحياة العلمية في الدولة الإسلامية طبعة الكويت ١٩٧٣.م ص٣٧ – ٣٨.

٦- ابن بطوطة، الرحلة ص١٤٠.

٧- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٢٩٦ – ٢٩٧، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٢٣١/٣.

٨- التجيبي، مستفاد الرحلة ص٣٠٦، ٣٧٦، وابن بطوطة، الرحلة ص١٣٨، والفاسي، العقد الثمين ١٠٢/٥. وانظر :

- Kary Campbell, contem porary Tales from Eastern Arabia, in The lood Nights: critical Essay and Annotated Bibliography, Dar Mahjar Publishing and Distribution Cambridge. Mass P.84-85 . 1985 .

٩- الفاسي، العقد الثمين، ٢٧١/٢ – ٢٧٢، وابن شهبة الدمشقي، طبقات الشافعية ،ط عالم الكتب – بيروت ١٩٨٧.م ٢٩٣/٢ – ٢٩٤، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ط دار الفكر – بيروت (د . ت) ٩٤/٦ – ٩٥، وابن بطوطة، الرحلة ص١٤٩.

١٠-الفاسي، العقد الثمين ٢٨٦/١ – ٢٨٧، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣٠٩/٣، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٤٦٠/٣ – ٤٦٥، وابن بطوطة، الرحلة ص ١٤٠.

١١-الفاسي، العقد الثمين ١٣٤/٢ - ١٣٥، وابن بطوطة، الرحلة ص١٥١.

١٢-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٤٦٦/٣، والفاسي، العقد الثمين ٤٦/٢ - ٤٩، وابن بطوطة، الرحلة ١٤٩ - ١٥٠.

١٣-السخاوي، التحفة اللطيفة ٤٨٢/١ - ٤٨٣، وابن بطوطة، الرحلة ١٥٣، ١٢٠.

١٤-ابن بطوطة، الرحلة ص ١٥٢، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة٢٤٣/١ - ٢٤٤، الفاسي، العقد الثمين ١١٩/٣.

١٥-الفاسي، العقد الثمين ١١١/٢ - ١١٣، وابن بطوطة، الرحلة ص١٥١.

١٦-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٣١٢/٣ - ٣١٧.

١٧-الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ط دار إحياء التراث العربي - بيروت (د . ت) ص١١٠، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٤٦٦/٣، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢١.

١٨-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ١٥٩/٤ - ١٦٠، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢١.

١٩-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢١ - ١٢٢، وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣٣٦/٤.

٢٠-ابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠ - ١٢١، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٧٠٦/٣ - ٧١٠.

٢١-ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ٣٠٠/٢، والسخاوي، التحفة اللطيفة ٤٠١/٢ - ٤٠٩، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠ - ١٢١.

٢٢-السخاوي، التحفة اللطيفة ٥٤/١، وابن بطوطة، الرحلة ص١٢٠.

المصادر والمراجع

١-أحمد بن إبراهيم الحنبلى ت٨٧٦هـ:شفاء القلوب في مناقب بني أيوب - تحقيق ناظم رشدي. ط بيروت (د . ت).

٢-أحمد شلبي :موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ١٩٨٥ .م

٣-أحمد بن عمر الزيلعي :نظام المشاركة في الحكم لدا الأشراف بمكة المكرمة. مجلة الدارة العدد الثالث. ط. الرياض ١٤٠٩هـ.

٤-أحمد بن محمد بن صالح الحسيني:المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي، طبعة بيروت ٢٠١٩٧٢.

٥-ابن الأخوة محمد بن محمد القرشي ت٧٢٩هـ:معالم القربة في أحكام الحسبة - تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦.م

٦-الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله ت٢٥٠هـ:أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - تحقيق رشدي الصالح الطبعة الثالثة. دار الثقافة - بيروت ١٩٧٨.م

٧- البستاني المعلم بطرس:دائرة المعارف - طبعة دار المعرفة، بيروت. لبنان، بدون تاريخ.

٨- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى ت٧٧٩هـ:تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٨٥.م

٩- البلادى، عاتق بن غيث:معالم مكة التاريخية والأثرية. طبعة دار مكة - السعودية ١٩٨٠.م

- معجم معالم الحجاز. طبعة نادي الطائف الأدبى، السعودية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨.م

١٠- البلدي حمد بن عيسى ت٧٨٠هـ: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، طبعة بيروت (د .ت).

١١- التجيبي القاسم بن يوسف ت٧٣٠هـ:مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، طبعة الدار العربية للكتاب - ليبيا- تونس ١٩٧٥.م

١٢- ابن تغري بردي ت٨٧٤هـ:الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، ط مكتبة الخانجي- القاهرة (د . ت).

١٣- ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي ت٦١٤هـ:الرحلة، طبعة دار صادر - بيروت ١٩٨٠م.

١٤- جميل حرب محمود :الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، طبعة تهامة - السعودية ١٩٨٥م

١٥- ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي ت٥٩٧هـ:المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة حيدر آباد - الدكن - مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ.

١٦- ابن حجر العسقلانى شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد ت٨٥٢هـ:الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة دار الجيل بيروت بدون تاريخ، وطبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة (د.ت).

١٧- الحربي الإمام أبو إسحاق ت٢٨٥هـ:المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة - تحقيق حمد الجاسر الطبعة الثانية - الرياض ١٩٨١م

١٨- حسنى محمود حسين:أدب الرحلة عند العرب، الطبعة الثانية - دار الأندلس سنة ١٩٨٣م.

١٩- حسين محمد فهيم:أدب الرحلات، طبعة عالم المعرفة العدد ١٣٨- الكويت ١٩٨٩م.

٢٠- الحسيني أبو المحاسن محمد بن علي ت٧٦٥هـ:ذيل تذكرة الحافظ الذهبي. ط. دار إحياء التراث العربي ،بيروت(د . ت).

٢١- ابن حوقل، أبو القاسم ابن حوقل النصيبى ت٣٦٧هـ:صورة الأرض، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

٢٢- الخزرجي علي بن الحسن ت٨١٢هـ:العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية - تصحيح محمد بن علي الأكوع الطبعة الثانية - صنعاء - اليمن ١٩٨٣م.

٢٣- ابن الخطيب ذو الوزارتين لسان الدين ت٧٧٦هـ:الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤م.

٢٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ت٨٠٨هـ:تاريخ ابن خلدون، طبعة مؤسسة جمال للطباعة والنشر- بيروت ١٩٧٩م.ومقدمة ابن خلدون، طبعة دار نهضة مصر-الطبعة الثالثة - القاهرة بدون تاريخ.

٢٥- ابن رشيد أبو عبد الله محمد بن عُمر ت٧٢١هـ: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في

الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة – تحقيق محمد الحبيب جـ٢ طبعة الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٢م، جـ٣ طبعة ١٩٨١م وجـ٥ طبعة دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٨٨م

٢٦- الزركلي خير الدين ت١٣٩٧هـ:الأعلام، طبعة دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ١٩٨٦م

٢٧- السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت٩٠٢هـ:التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عنى بطبعه ونشره أسعد طرا بزوني الحسيني. د.ت.

٢٨- سليمان عبد الغني المالكي:بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، طبعة دارة الملك عبد العزيز الرياض ١٩٨٣م

٢٩- السنامي عُمر بن محمد ت٦٩٦هـ:نصاب الاحتساب، تحقيق موئل يوسف، طبعة دار العلوم – القاهرة ١٩٨٣م

٣٠- سيد عبد المجيد بكر:أشهر المساجد في الإسلام طبعة دار القبلة – مكة ١٩٨٤م

٣١- الشنقيطي غالي محمد الأمين:الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين، الطبعة الثالثة، طبعة دار القبلة الثقافية الإسلامية – مكة ١٩٩١م

٣٢- ابن شهبة الدمشقي أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عُمر ت٨٨٥هـ:طبقات الشافعية، صححه وعلق عليه الحافظ عبد العليم خان – طبعة عالم الكتب – بيروت ١٩٨٧م

٣٣- شوقي عبد القوى عثمان:تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، طبعة عالم المعرفة – الكويت، العدد ٥١ لسنة ١٩٩٠م

٣٤- ابن ظهيرة محمد جاد الله بن محمد ت٩٨٦هـ:الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف – الطبعة (٤) الكتبة الشعبية – بيروت ١٩٧٣م

٣٥- عبد الرحمن بن صالح بن عبد الله:تاريخ التعليم في مكة، طبعة دار الشروق – مصر ١٩٨٢م

٣٦- عبد الرحيم عبد الكريم الأنصاري:تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب – تحقيق محمد العروس، طبعة تونس ١٩٧٠م

٣٧- العبدري أبو عبد الله بن العبدري ت٦٨٨هـ:الرحلة المغربية – تحقيق محمد الفاسي – طبعة الرباط – المغرب ١٩٦٨م

٣٨- عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة، الطبعة الرابعة، طبعة المطبعة العربية الحديثة بيروت ١٩٨٥.م

٣٩- العز بن فهد بن عز الدين عبد العزيز بن محمد بن فهد ت٩٢٢هـ: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام - تحقيق فهيم شلتوت، طبعة دار المدني - السعودية ١٩٨٦.م

٤٠- العصامي عبد الملك بن حسين ت ١١١١هـ: سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي. طبعة المطبعة السلفية - مصر (د . ت).

٤١- علي حسني الخربوطلي :الحضارة العربية الإسلامية، طبعة مكتبة الخانجي - مصر (د، ت).

٤٢- ابن العماد الحنبلي ت١٠٨٩هـ: شذرات الذهب، طبعة دار الفكر - بيروت (د . ت).

٤٣- الفاسى تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى ت٨٣٢هـ: - العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، تحقيق عمر عبد السلام التدمرى، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٨٥. - وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عُمر عبد السلام التدمري طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٥.م

٤٤-ابن فهدالنجم عمر بن محمد بن محمد بن فهد ت٨٨٥ هـ: اتحاف الوري بأخبار أم القري ،تحقيق فهيم شلتوت،ط، مكتبة الخانجي-القاهرة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣ م.

٤٥-القلقشندي أحمد بن علي ت٨٢١هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرح وتعليق نبيل الخطيب طبعة دار الفكر - ودار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧.م

٤٦-كراتشكوفسكى، أغناطيوس يوليا نوفش: تاريخ الأدب الجغرافي العربى، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان، وراجعه أيغور بليايف، طبعة جامعة الدول العربية ١٩٥٧.م.

٤٧-المالكى سليمان بن عبد الغنى: سلطنة كلوة الإسلامية، طبعة دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٦.م.

٤٨-الماوردي علي بن محمد :الأحكام السلطانية والولايات الدينية - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت (د . ت).

٤٩- بن المجاور يوسف بن يعقوب ت٦٩٠هـ:تاريخ المستبصر ،ضبط وتصحيح أوسكر لونفرين طبعة بريل – ليدن.١٩٥١ م

٥٠-محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ،طبعة الكويت ١٩٧٣ م.

٥١-محمد محمود الصياد:رحلة ابن بطوطة، طبعة دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع تونس ١٩٨٥.م.

٥٢-ابن منظور محمد بن مكرم ت٧١١هـ: لسان العرب. طبعة دار صادر – بيروت (د . ت) وطبعة دار المعارف –
مصر (د . ت).

٥٣-نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الطبعة الثالثة، طبعة المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢.

٥٤-ياقوت الحموى شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت٦٢٦هـ:معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

المراجع الأجنبية :

55- Blanche Trapieu : Les voyageurs Arabes au Mogen Age. Gallimarl. 8eme edition . 1937 .

56- C.H › Lockitt. Theadventure of Travel Longman: 15 th edition 1960 .

57- Kary Compbell , contem Porary Toles From Eastern Arabia , in The Lool Nights: Critical Essays and An nota ted Bibliog rapraphy, Dar Mahjar Publishing and Distribution , cambridge. Mass. p. 84-85. 1985 .

58- M. Zaki : Arab Accownts of India (During The Fourteenth century) dello, Delhi, 1981 .

د . خلف دبلان خضر الوذيناني [*]

سياسة السلطان با يزيد الأول الجديدة في الفتح العثماني

نهاية طموحاته وتفكك دولته في موقعة أنقرة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م

قبل تولى السلطان بايزيد الأول الحكم

في سنة ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م توفي السلطان أورخان بن أرطغرل بن عثمان، وخلفه ابنه السلطان مراد الأول، ليواجه في بداية حكمه أعداء دولته في اتجاهين خطرين.

أولاً : كان في المشرق إمارة القرمان السلجوقية التي بدأت تنظر بعين الخوف الشديد في نمو الإمارة العثمانية، واستطاع السلطان مراد الأول أن يوجه لها ضربات أقعدتها عن التحرك ضده طوال حكمه كما سيأتي الحديث عنها مفصلاً في البحث.

ثانياً : في أوروبا كان الإمبراطور البيزنطي يسعى إلى الانقضاض عليه، ولكن السلطان مراد الأول استولى على أدرنة ١٣٦٦م، واتخذها عاصمة لبلاده، الأمر الذي كان له صدى في مختلف العواصم الأوروبية، وخاصة لدى البابا في روما، وقد دعا إلى حملة صليبية دون جدوى، بينما تابع العثمانيون توسعهم واستولوا على سالونيك[1].

فكان نمو الدولة العثمانية نحو أوروبا سبباً في قيام التحالف من القوى الصليبية البلقانية لصد الغزو العثماني، ولكن السلطان مراد الأول خاض ضد أعدائه الصليبيين معركة قوصوه

* أ / مشارك- بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - بجامعة أم القرى- مكة المكرمة

الكبرى في ١٥ يونيو ١٣٨٩م، سقط فيها السلطان مراد الأول شهيداً بعد أن أسر فيها ملك الصرب، والذي أعدمه السلطان با يزيد الأول في ساحة المعركة[٢].

السلطان بايزيد الأول يعتلي عرش الدولة العثمانية :

فتولى السلطان با يزيد الأول عرش الدولة العثمانية بعد موقعة قوصوه المشهورة، وتمت بيعته في ميدان المعركة بعد استشهاد والده السلطان مراد الأول (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م)، وكان السلطان با يزيد الأول أكثر من أبيه كرهاً للمسيحية، وأقل تعصباً للإسلام، ولكنه خطا خطو والده في الفتح والجهاد في أول الأمر[٣].

حين واصل حربه وتقدم بجيوشه داخل بلاد الصرب[٤]،حتى انتصر على ملكها استيفن بن لازار وأخذه أسيراً[٥] ولكن استيفن بن لازار ملك الصرب عرض على السلطان الصلح فوافق على ذلك[٦].

فاستهل السلطان با يزيد الأول أعماله بأن عين استيفن ابن ملك الصرب [لازار] حاكماً على بلاد الصرب، وتزوج من أخته[٧] مليحة[٨]، وترك له حكم بلاده على حسب قوانينهم وأنظمتهم وأعرافهم دون التدخل في شئونهم الداخلية على شرط دفع جزية سنوية للدولة العثمانية على أن يدين له بالولاء، مع تقديم عدد معين من الجنود الصربية للانضمام إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب خدمة حربية للدولة على أن يقوم ملك الصرب نفسه بقيادتهم عند الحاجة تحت قيادة السلطان العثماني[٩]، كما تعهد ملك الصرب أيضاً للسلطان با يزيد الأول ببناء المساجد والمدارس والمحاكم للمسلمين في بلاد الصرب[١٠]، وبذلك فقدت الصرب استقلالها منذ ذلك الوقت حتى القرن التاسع عشر الميلادي حين نالت استقلالها في تلك الفترة[١١]. فأصبح بعد هذا الفتح والتوغل العثماني في البلقان، وجهاً لوجه مع أكبر الشعوب البلقانية عداء للعثمانيين (البلغار والمجر)[١٢].

عندئذ أقام السلطان با يزيد الأول علاقات ودية مع ملك الصرب استيفن بن لازار، وكان هدف السلطان من إقامة هذه العلاقات أن يتخذ من دولة الصرب حليفاً له في حروبه في آسيا الصغرى، كما أراد من هذه الدولة أن تكون دولة حاجزة بين أملاكه في البلقان وبين دولة المجر، التي كان يخشى من انتهازها عند غيابه للحرب في آسيا الصغرى فتغير على أملاكه العثمانية بها[١٣].

وكان من مظاهر هذه الصداقة بين استيفن والسلطان با يزيد الأول أن رد السلطان إلى استيفن كل الميزات والحقوق التي كان يتمتع بها أبيه لازار كملك على بلاد الصرب، كما وعده بمنح

الصرب نصف الغنيمة التي تخرج بها كل من الدولتين في حروبها المنتظرة في آسيا الصغرى، وقد اتبع السلطان با يزيد الأول هذه السياسة، وهو عدم ضم بلاد الصرب إلى أملاكه، بل منحهم الاستقلال الذاتي، ليسكن بال الصربيين حتى لا يكونوا شغلاً شاغلاً له نظراً لشهامتهم وحبهم للاستقلال(١٤)، وخاصة أن ملك الصرب استيفن قد وافق على دفع الجزية للسلطان سنوياً، لذلك تمت معاملتهم معاملة أهل الذمة(١٥).

وقد استفاد با يزيد الأول من هذا التحالف مع استيفن ملك الصرب حين برهن هذا الصليبي وقومه الصربيون على إخلاصهم لبايزيد في حروبه مع المجر(١٦)، على الرغم من أن السلطان اشتهر بحدة الطبع والقسوة، حيث اتسمت تصرفاته بالاندفاع والتسرع(١٧).

وعلى أية حال فإنه بعد هذا التحالف مع الصرب اطمأن با يزيد الأول على حدوده الغربية، فاتجه لغزو آسيا الصغرى لتوحيد الإمارات السلجوقية المسلمة في الأناضول لضمها لأملاكه العثمانية(١٨)، وكان في نيته أيضاً القضاء على بيزنطة، وخصوصاً حين ساد الأمن في أوروبا، فأخذ يتدخل في سياسة القسطنطينية مستغلاً أوضاعها المضطربة الداخلية، لأن المدينة تمر بفترة ضعف، فانتهز السلطان هذه الفرصة وسار بنفسه إلى قلعة « الآشهر » المعروفة باسم «فيلادلفيا »(١٩)، عند الأوربيين، ففتحها ٧٩٥هـ/ ١٣٩١م، وكانت آخر مدينة مهمة بقيت للقسطنطينية في آسيا الصغرى بالأناضول(٢٠).

السلطان بايزيد الأول يتطلع لضم الإمارات السلجوقية :

لذلك بدأ السلطان با يزيد الأول يتطلع لضم الإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى، وكانت سياسة السلطان با يزيد شرقية، بمعنى أنه فضل الاتجاه بفتوحاته نحو آسيا الصغرى من أجل تحقيق وحدة الأناضول لتكون تحت راية الدولة العثمانية بعد أن أمن حدود بلاده الغربية(٢١)، وكان يتميز هذا السلطان بالطموح في سياسته، فقد بذل جهداً في توحيد منطقة الأناضول ليقود العالم الإسلامي تحت إمرته(٢٢)، وليس معنى ذلك أنه لم يحدث احتكاك بين الدولة العثمانية والإمارات السلجوقية التركية الإسلامية الواقعة في آسيا الصغرى.

وقد ظهر هذا الاحتكاك قبل حكم السلطان با يزيد الأول في الستينات من القرن الرابع عشر الميلادي بين السلطان مراد الأول والد السلطان با يزيد الأول وبين أمير القرمان كما سبق ذكره، عندما أدرك الأخير أنه لا يستطيع المجازفة بالحرب مع الدولة العثمانية القوية، ولكي يحتفظ باستقلاله وكبريائه، فقد وافق على أن يزوج ابنته لبا يزيد بن مراد الأول.

وبذلك حصل السلطان مراد الأول نتيجة زواج ابنه على أجزاء من إمارة القرمان دون قتال، وكان من هذه الأجزاء، مدينة كوتاهية، ذات الموقع الاستراتيجي الفريد، وكان احتلال العثمانيين لهذه المدينة ضربة قوية لإمارتي تكه وحميد.

وعندما أدرك أمير إمارة حميد ضعفه أمام مقاومة الدولة العثمانية، قام ببيع بعض أجزاء من دولته المطلة على ولاية تكه وكرميان، والقرمان إلى السلطان مراد الأول، وكان أهمها مدينة عك شهر التي تقع على حدود إمارة القرمان، وتم ضم هذه الأجزاء المهمة إلى أملاك الدولة العثمانية.

ويجب أن نلاحظ ملاحظة مهمة أن السلطان مراد الأول لم يقض على كل الإمارات السابقة، بل كان هناك ثلاث إمارات أخرى في آسيا الصغرى وهي (آيدين، وصاروخان، ومنتشا) ظلت هذه الإمارات المسلمة على استقلالها لم يمسها السلطان العثماني آنذاك، وكانت دولة القرمان من أقوى الدول السلجوقية التركية في الأناضول التي عجز السلطان مراد الأول عن إخضاعها، وكانت تربطه بأميرها علاء الدين أواصر المصاهرة[٢٣].

هذا هو الموقف في آسيا الصغرى حين تولى السلطان با يزيد الأول إمارة الدولة العثمانية، حين عزم على توجيه فتوحاته نحو الأناضول بآسيا الصغرى، ذلك التوجه الذي أدى في النهاية إلى سقوطه في معركة أنقره ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م[٢٤].

وكان زعماء الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية في الأناضول آيدين[٢٥]، وصاروخان[٢٦]، ومنتشا[٢٧]، الذين احتفظوا باستقلالهم منذ قيام الدولة العثمانية، هي أولى الإمارات التي غزاها السلطان با يزيد الأول، وقد قبلوا في بداية الأمر بحكمه، نتيجة لخوفهم منه، لإنجازاته وفتوحاته العظيمة في أوروبا[٢٨].

وكانت هذه الإمارات تطل على بحر إيجه، وكانت في نزاع دائم مع العناصر التجارية اللاتينية ولا سيما منها جنوة، وتتميز هذه الإمارات التركية بطابع تجاري أكثر منه حربي مثل إمارة القرمان وكيرميان، وكان نزاعها الدائم مع العناصر اللاتينية قد أضعفها، مما سهل للسلطان با يزيد الأول استسلامها وبالتالي احتلالها[٢٩]، ولنفس السبب ترك أمير آيدين للسلطان أملاكه، وخرج منها ليعيش مطمئن البال في إحدى المدن الخارجة عن النفوذ العثماني.

وتلا ذلك قيام كل من أميري منتشا وصاروخان بترك ولايتهما للسلطان با يزيد الأول واحتمائهما لدى أمير قسطموني[٣٠]، وخوفاً من السلطان قام حاكم إمارة القرمان الأمير علاء الدين وتنازل للسلطان عن جزء كبير من أملاكه ليؤمن له ما تبقى من أملاك[٣١]، وباستيلاء السلطان با يزيد الأول على تلك الإمارات فقد حاز على أهم الموانئ وأعظمها والواقعة على بحر إيجه، (آيدين ومنتشا) وبذلك أصبحت الدولة العثمانية تطل على بحر إيجه، كما حازت أيضاً على أسطول إمارة صاروخان، وقد نفذ به العثمانيون من سواحل منتشا إلى البحر الأبيض المتوسط[٣٢]، وهذا الموقع خلق نقطة جديدة للاحتكاك بين الدولة العثمانية من ناحية، وبين البندقية وجنوة من ناحية أخرى.

استدعى هذا الموقف ظهور العثمانيين على بحر إيجه بتكوين بحرية عثمانية، ولو أن البحرية العثمانية لم تنم وتكبر خلال عهد السلطان با يزيد الأول، إلا أن عهد السلطان با يزيد الأول، كان بداية تفكير الدولة العثمانية بالحاجة الملحة إلى بناء أسطول بحري يعتدّ به لمواجهة المعارك البحرية[٣٣]، ولكن هذه الإمارات ما لبث أهلها أن استاءوا من اتجاه السلطان بايزيد الأول لعطفه على العناصر المسيحية، بل والاعتماد عليهم كمستشارين له دون المسلمين[٣٤].

وعلى أية حال فبعد هذه الفتوحات التي كان أغلبها بدون حرب، عاد السلطان با يزيد الأول إلى أوروبا، وحاصر ملك الروم في القسطنطينية مانويل باليولوج، وبعد أن ضيق عليها الحصار، ترك حولها جيشاً كبيراً لمحاولة فتحها، وغادرها لغزو بلاد الأفلاق، فاستطاع قهر أميرها (دوك مانيس) والتغلب عليه، وأرغمه على التوقيع على معاهدة يعترف فيها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده، ويتعهد للسلطان فيها بدفع الجزية سنوياً مع بقاء بلاده له يحكمها بمقتضى عوائد وقوانين أهلها، وتم ذلك في سنة ١٣٩٣م[٣٥].

وفي أثناء حرب السلطان بايزيد الأول مع الأفلاق في أوروبا أراد علاء الدين أمير القرمان استرداد ما تنازل عنه للسلطان، مستغلاً انشغاله في الحرب، وقد اتحدت معه الإمارات السلجوقية الواقعة في جنوب غربي الأناضول، كما اتحد معه القاضي برهان الدين الذي كان يسيطر على مساحات واسعة وسط الأناضول، ويتمتع بنفوذ كبير في أواسط رعاة التركمان في الشرق في حلف ضد السلطان با يزيد الأول لاسترجاع ما أمكنهم استرجاعه من مساحات كبيرة من المدن والأراضي التي ضمها با يزيد الأول إلى أملاك الدولة العثمانية بالقوة.

وقاد علاء الدين جيشاً قوياً وسار به لمهاجمة أنقره، فاستطاع الانتصار على حاكمها تيمور طاش باشا، وأخذه أسيراً معه، وزحف على بقية المدن الواقعة في الأناضول[٣٦].

ولّما بلغ السلطان با يزيد الأول الهجوم الذي شنه أمير القرمان على أملاكه في الأناضول، عاد مسرعاً بنفسه لإنقاذ الموقف إلى آسيا الصغرى، فتقابل الجيشان حول أنقره، فكانت الهزيمة على علاء الدين أمام السلطان ثم أسره[٣٧]، واكتسح السلطان إمارات آسيا الصغرى، وأعاد ضم صاروخان وآيدين ومنتشا التي اتحدت مع إمارة القرمان من جديد للطاعة العثمانية، وعاد العثمانيون إلى بحر إيجه وأرسوا قواعد قوتهم البحرية، وفي الجنوب استولوا على (أضاليا) آخر مدن أمير تكه، وكانت هذه المدينة أول ميناء عثماني على البحر الأبيض المتوسط[٣٨].

ولكن السلطان بايزيد الأول كان قلقاً بسبب الأحداث والتطورات في أوروبا التي كانت تحاك ضد الدولة، فلابد له من العودة بسرعة إلى عاصمة بلاده أدرنه وذلك للاستعداد لهذه المؤامرة والقضاء عليها، كما كان هناك بعض الإشكاليات في خطوط مواصلاته الطويلة التي كانت لا تبشر بالخير ولا بالانتصار والهيمنة على الإمارات السلجوقية، لذلك نراه يوافق بمبادرة منه على عقد الصلح مع علاء الدين أمير القرمان مضطراً على أن ينسحب السلطان من قونية على أن يحتفظ بمدينتي (عك شهر، وعك سيرا) الواقعة في الشمال الغربي من إمارة القرمان[٣٩].

وعلى هذا الأساس عاد با يزيد الأول إلى بلغاريا وذلك عندما وقع أول نزاع بينه وبين ملك المجر (سجموند)، ولكن علاء الدين لم يعتبر من المعركة السابقة، بل انتهز انشغال با يزيد في حربه مع بلغاريا، ووطد العزم على طرد العثمانيين من إمارته، للسيطرة على أملاكهم في الأناضول، وقد اتحدت معه الإمارات السلجوقية مرة أخرى، وتمكن بالفعل من استرداد (عك شهر)، واتجه نحو مدينة أنقرة واستطاع الفوز على تيمور طاش باشا في أحد المعارك، وأخذه معه أسيراً مرة ثانية، ثم توجه لأخذ بروسة[٤٠].

لذلك عاد السلطان بايزيد الأول من جديد حينما علم بمحاولة علاء الدين انتزاع السيطرة من العثمانيين للأناضول، ولكن بعد أن حقق انتصاراً باهراً على البلغار، وبالقرب من كوتاهية واجه جيش القرمان جيش السلطان وجيوش أتباعه من المسيحيين (البيزنطيين والصربيين والبلغار والولاش) على آمر سراي، فاستطاع السلطان أن يقضي على الجيش القرماني، فانهزم علاء الدين أمام السلطان با يزيد الأول مرة ثانية، وتم أسره مع ابنيه (محمد وعلي)[٤١].

وقد رافق الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني السلطان با يزيد الأول في حملته إلى الأناضول الثانية، وكان با يزيد الأول ينظر إلى الإمبراطور مانويل على أنه تابع له أو من أتباعه، بينما كان الإمبراطور يرى نفسه حليفاً وعلى قدم المساواة مع السلطان با يزيد الأول.

وقد ظل الإمبراطور ضيفاً في سراي بروسه (بورصة) مدة طويلة، وكان يتحدث التركية بطلاقة، وقد التزم باتجاهات السياسة العثمانية الخارجية إزاء بيزنطة[٤٢].

وهذا دليل لما سبق لتشجيع أنصاره الصليبيين على دفع اتجاه السلطان با يزيد الأول إلى المشرق، لذلك نراهم يشاركونه في حروبه ضد الولايات السلجوقية المسلمة في الأناضول، وعلى رأس إمبراطور بيزنطة، وكانت هذه السياسة من السلطان سياسة خاطئة، كادت أن تخسر الدولة العثمانية بسببه، تقدمها في أوروبا وينتهي مدها في أوروبا إلى الأبد.

وعلى أية حال فقد حاول علاء الدين من أسره أن يعرض على السلطان الصلح على أساس الاتفاقية السابقة، ولم يفلح لأن السلطان با يزيد الأول أدرك أن اتفاقه مع علاء الدين لا طائل من ورائه لعدم التزامه بالمعاهدة السابقة، والآن يعد مصدر تهديد للدولة. لذلك وجد السلطان أن الفرصة أصبحت مواتية بين يديه للقضاء عليه وعلى إمارة القرمان نهائياً للتخلص من هذا الخطر، فعلاء الدين قد وفر على السلطان با يزيد الأول مشقة السفر إلى القرمان لإخضاعها عندما حضر بنفسه إلى بروسة (بورصة) لانتزاعها من السلطان، ولكنه خسر المعركة، لذلك رفض السلطان الصلح مع علاء الدين أمير القرمان، وقام بقتله ١٣٩١م، لاستقرار المنطقة، وبذلك انتهت سلطة علاء الدين والقرمان[٤٣]، وعاد السلطان إلى عاصمة بلاده بروسة بعد أن قتل علاء الدين بن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة إلى أن أطلق سراحهما تيمور لنك بعد موقعة أنقرة سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م[٤٤].

والحقيقة أنه لم يتم إخضاع القرمان نهائياً فقد ظلت هذه الإمارة حتى سقوط القسطنطينية تقض مضاجع سلاطين الدولة العثمانية بين الفينة والفينة[٤٥]. وواصل السلطان با يزيد الأول فتوحاته في الأناضول بآسيا الصغرى، واكتسح سيواس وتوقات[٤٦]، وكان آخر أمرائها برهان الدين أمير سيواس[٤٧].

في حين أن الإمارة العثمانية في الوقت الذي استشهد فيه السلطان مراد الأول في قوصوه قد أخذت على عاتقها دوراً مهماً وهو الاستمرار في أراضي الأناضول والروملي، وتحولت إلى دولة

كاملة الأركان. ولكن السلطان با يزيد الأول حين اعتلى عرش الدولة (١٣٣٩م)، بدأت الدولة العثمانية بقيادته تطبيق سياسة جديدة خاطئة، كانت من أسباب زوال حكمه ونهاية لطموحاته على يد تيمورلنك في كارثة أنقرة كما سيأتي الحديث عنه في بابه[٤٨]، حين فرض سيطرته المباشرة على هذه المناطق التي طرد منها أسرتها الحاكمة وإخضاعها لسلطته المركزية المباشرة، ولقيت هذه السياسة مقاومة ليس فقط في البلدان المفتوحة بل داخل الدولة العثمانية نفسها، وكانت هذه موجهة ضد التسرع في ضم المدن والإمارات، واعتبرت ذلك خروجاً عن التقاليد العثمانية[٤٩].

فقد كانت سياسة مراد الأول هي ترك الأراضي على شكل إقطاعات عسكرية للأمراء، فبدأت من بعده سياسة تحويل هذه الأراضي إلى الملكية العثمانية بالفعل، إذ حدث فور سماع خبر وفاة السلطان مراد الأول أن ظهرت انتفاضات في الأناضول والبلقان تمرد فيها أمراء الإقطاع في الأناضول، فقام بايزيد الأول مسرعاً نحوهم (١٣٨٩/ ١٣٩٠م) لإخماد هذا التمرد، وأخذ منهم أراضيهم لتصبح أرضاً عثمانية خالصة.

وأصبحت الإمارات القديمة سناجق عثمانية يتولى إدارتها عمال يجري تعيينهم من العاصمة، وكان نتيجة لهذه الجهود التي بذلها أن انخفض عدد الإمارات المناهضة له في الأناضول إلى مركزين أساسيين، - الأناضول وسيواس - وهذه الأعمال كانت بمثابة التطبيقات الأولى لسياسة استهدف بها السلطان با يزيد الأول، الذي عرف بلقب « الصاعقة » إقامة دولة مركزية قوية تدار من مركز واحد، هو السلطان، وكان هو يفعل ذلك يضع نصب عينيه صفة القائد المجاهد، وقد استطاع أن يصيغ ادعاءات السيادة داخل هذا الإطار[٥٠].

وقد اشتد العثمانيون في انتقاد سلطانهم با يزيد الأول حول إدخاله استعمال الدفتر في النظام الإداري العثماني، يضاف إلى ذلك أنه حاول في الأراضي التي ضمها حديثاً أن يحل عبيده (غلمانه) محل الاستقراطية المحلية فاعتبرت هذه السياسة خروجاً على القاعدة والتقاليد العثمانية، وكانت هذه السياسة من أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى نكبة السلطان بايزيد الأول وزال حكمه في موقعة أنقره، وعودة الأسر الحاكمة في القرمان على أثرها وغيرها من الإمارات السلجوقية الأخرى في الأناضول[٥١] إلى الاستقلال بإماراتهم.

وهذا مما يعزز القول بأن آل عثمان لم يحكموا قبضتهم على إمارة القرمان إلا بعد فتح القسطنطينية[٥٢].

السلطان بايزيد الأول يتابع حروبه في أوروبا :

ثم عاد السلطان با يزيد الأول، متابعة حروبه في أوروبا فأمر بزحف عام على طول حدوده الشمالية والشمالية الغربية، ووصلت قواته الغازية إلى ألمانيا لتثبيت حكمه هناك، وفي عام ١٣٩٣م استكمل احتلال بلغاريا وزود آدين وسلسترياً ونيكوبولي وغيرها من قلاع الدانوب بحاميات قوية بعد أن قام بتقوية تحصيناتها تحصيناً قوياً، مما عزز من مكانة السكان المسلمين في تلك المدن، الذين ازدادت أعدادهم على طول الحدود الشمالية للدولة العثمانية، على أثر اعتناق عدد كبير من البلقانيين المسيحيين للإسلام، وهجرة عدد من مسلمي الأناضول إلى البلقان.

وما لبث أن حاصر السلطان با يزيد الأول العاصمة البيزنطية، وشدد عليها الحصار، وطلب من الإمبراطور بعد قهره من منطق القوة أن يعين قاضياً في القسطنطينية للفصل في شئون المسلمين، وقبل الإمبراطور إيجاد محكمة إسلامية وبناء مسجد وتخصيص سبعمائة (٧٠٠) منزل داخل المدينة للجالية الإسلامية، كما تنازل للسلطان بايزيد الأول عن نصف حي غلطه، التي وضع فيها السلطان حامية عثمانية قوامها ستة آلاف (٦٠٠٠) جندي، وزيدت الجزية التي كانت الدولة البيزنطية تدفعها للسلطان العثماني.

وفرضت الخزانة العثمانية رسوماً على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة، وأخذت المآذن من تلك اللحظة تنقل الآذان إلى العاصمة البيزنطية، والتي أطلق عليها العثمانيون بعد الفتح « اسطنبول »[٥٣]، وقد فرض عليها السلطان الرقابة من خلال الحامية العثمانية وإحكام السيطرة عليها[٥٤].

وبعد هذه المكاسب الجديدة للسلطان با يزيد الأول فقد أشار عليه مستشاروه المسيحيون بترك أوروبا وشأنها والتوجه إلى الأناضول بآسيا الصغرى، لاستكمال القضاء على الإمارات السلجوقية المسلمة وتوحيدها تحت السلطة العثمانية، وكان هدف المسيحيين من ذلك هو صرف السلطان عن الفتوحات الإسلامية نحو أوروبا، كما كان يفعل أسلافه لحرمانه أولاً من الأجر ومن ثم الثروات الجديدة[٥٥]، وثانياً إبعاد شبح الحرب عن دولهم لتوجيه السلطان وتحريضه للاصطدام بالإمارات السلجوقية المسلمة، وذلك لإضعاف قوته وبالتالي إعطاء فرصة للعالم المسيحي لاستعادة أنفاسه لبناء قواته وتسوية خلافاته لتوحيد جهوده، ضد الدولة العثمانية التي توغلت في داخل البلقان، للانقضاض عليها في أقرب فرصة لطردهم من أوروبا كلها.

وقد نجح المسيحيون في تحويل أنظار السلطان إلى الشرق، حينما استصوب قولهم، لذلك لف بعنان فرسه ورايته من الغرب إلى الشرق، مخالفاً لمن سبقه من أسلافه، وعلى أية حال فإنه لم يبق من الإمارات السلجوقية التي ضمها السلطان إلى الدولة العثمانية، والتي قامت على أطلال دولة آل سلجوق في الأناضول سوى إمارة قسطموني(٥٦).

وكانت هذه الإمارة خارجة عن أملاك الدولة العثمانية، وتقف حائلاً بين الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبحر الأسود، وبالاستيلاء على هذه المدينة يعني حصول الدولة على ميناء مهم جداً وهو ميناء سينوب على البحر الأسود(٥٧)، وكان أميرها يسمى با يزيد أيضاً، قد احتمى بإمارته الكثير من الأمراء وأبنائهم الذين استولى السلطان على بلادهم بالقوة ولإيجاد مبرر لغارته عليها فقد أرسل السلطان با يزيد الأول، تنفيذاً لنصيحة مستشاريه المسيحيين إلى أمير قسطموني يطلب منه تسليم أولاد أميري (آيدين وصاروخان)، فامتنع عن تسليمهم فسار السلطان على رأس جيشه، إلى إمارة قسطموني لأخذها بالقوة وهرب با يزيد أمير قسطموني ومعه أمراء الإمارات السلجوقية الذين سبق أن احتموا به إلى تيمورلنك يشكون إليه السلطان با يزيد الأول ويستنجدون به لاسترداد بلادهم، فاستجاب تيمور لرد بلادهم(٥٨)، وهذا هو سبب غزو بلاده من تيمورلنك(٥٩)، أما السلطان فقد ضم وهو في طريقه للاستيلاء على قسطموني، مدن سامسون(٦٠)، وقيصرية(٦١) وجنابك وعثمانجق(٦٢)، وبذلك انقرضت جميع الإمارات السلجوقية القائمة بالأناضول، وصار العلم العثماني كما أراد السلطان العثماني يرفرف أو يخفق فوق صروحها(٦٣)، وبهذا أصبح السلطان با يزيد الأول سيد الأناضول، ولكنه كان سيداً بالاسم، إذ لم يكن العثمانيون قد هضموا بعد هذه المناطق الأسيوية المفتوحة، كما تدل حوادث النزاع بين تيمورلنك والسلطان با يزيد فقد كان سكان هذه المناطق لا يزالون موالين لأسراتها الحاكمة، وقد اتضح ذلك في معركة أنقرة كما سيأتي(٦٤).

وهكذا بعد أن قضى السلطان با يزيد الأول على الفتن في الأناضول سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م وبالتحديد بعد ضم الإمارات السلجوقية في الأناضول وتوحيدها، وظن المسيحيون أنهم قد نجحوا في صرف السلطان عن أوروبا ليستريحوا من الزحف الإسلامي نحو بلادهم للأبد، إلا أن السلطان استشعر بمسئولية الجهاد نحو أوروبا مرة أخرى لذلك حشد قواته وواصل سياسته لغزو أوروبا لاستكمال فتح القسطنطينية، فاستولى على مدينة سالونيك(٦٥)، وتمركز فيها، ومنها اتجه إلى شمال بلاد البلغار، وعندما علم سسيمان ملك بلغاريا داخله الخوف لفقد بلاده من السلطان، وجاء بنفسه إلى الصدر

الأعظم، (علي بن خير الدين قرة خليل باشا وزير السلطان با يزيد الأول، ومعه ولده، ووضع كل منهما - الأب والابن - في عنقه منديل الأمان، فأمنهما على حياتهما، وأرسل الأب إلى مدينة فيليبولي في مقدونية، وأبقى ابنه في معسكر السلطان، ولم يلبث الابن كثيراً حتى اعتنق الإسلام دون إكراه، عندما رأى سماحة الإسلام[٦٦]، وقد قام السلطان باستكمال فتح بلاد البلغار وضمها إلى أملاك الدولة، فأصبحت تلك المناطق ولاية عثمانية[٦٧].

وحين علم سيجموند ملك المجر افتتاح السلطان بعض مدن البلغار التي كان يعتبرها تحت نفوذه وسيطرته، غضب وأرسل إلى السلطان يقول له : من أين لك الحق أن تستولي على بلاد البلغار، فلما حضر الرسول بين يدي السلطان أراه حزمة من الأقواس والنشاب، وقال له : «اذهب وأخبر مولاك بما نظرت »، وكان هذا الجواب دليلاً على الحرب، ولما عاد الرسول وأبلغ مولاه «ملك المجر » بما عاينه ورآه، فكر بأنه لا يقدر على حرب ومقاومة الدولة العثمانية وجنودها[٦٨]، وكان من الطبيعي أن تثير انتصارات الدولة العثمانية جزع الغرب[٦٩]، فعمّ الخوف معظم الأوربيين من سرعة تقدم فتوح العثمانيين في أوربا، فقامت ضجة وفزع للحض على جيوشهم[٧٠] للتصدي للعثمانيين.

سيجموند يدعو لشن حرب صليبية على المسلمين العثمانيين:

لذلك انطلق سيجموند إلى مدينة روما يطلب من البابا بوتيفاس الثاني النجدة والمساعدة والعون[٧١]، كما دعا حكام أوروبا المسيحيين إلى شن حرب صليبية ضد المسلمين العثمانيين، وكان ذلك ١٣٩٤م، لصدهم عن بلاده، ويعتبر سيجموند المحرك الأول لتلك الحرب الصليبية، لأنه أصبح متاخماً للدولة العثمانية في عدة نقاط، فخاف خوفاً شديداً وخشي فقد مملكته، كما فقدها البلغاريون من قبل سنة ١٣٩٣م[٧٢]، لأن بلغاريا كانت بين السلطان العثماني وسيجموند ملك المجر، وكان الأخير يدرك أنه لا يستطيع وحده إنقاذ البلقان. وفي نفس الوقت كان ملوك أوروبا يدركون أن الطريق أمام العثمانيين إلى قلب أوروبا سيصبح مفتوحاً لو نزلت هزيمة كبيرة بالمجر[٧٣]، وكان من نتائج الاستيلاء على بلغاريا يعد تهديد لبيزنطة بصورة دائمة وخطيرة، فأصبحت الدولة العثمانية تتطلع إلى الأراضي المجرية لتحطيم النفوذ المجري هناك، وكان هذا الأمر وراء توحيد دول أوروبا ضد الدولة العثمانية، لتشكيل حملة صليبية[٧٤].

ومن هذا المنطلق انتعشت الروح الصليبية ولقيت دعوة سيجموند استجابة وتأييدًا من البابا - بونيفاس الثاني - الذي دعا أوروبا إلى شن حرب صليبية ضد الدولة العثمانية، لذلك عادت

الفكرة الصليبية التي نسيها الناس في الظاهر منذ أمدٍ بعيد، تعود إلى الظهور من جديد مرة أخرى[٧٥].

وتلك الدعوة لقيت صدى قوي وأشعلت ملوك أوروبا وأباطرتها حماساً في حركة واسعة للوقوف صفاً واحداً لطرد العثمانيين من أوروبا[٧٦]، فأرسل البابا بونيفاس الثاني من روما أربعة آلاف جندي مقاتل، وكذلك ملك فرنسا كارلوس الثالث بستة آلاف مقاتل للانضمام إلى سيجموند ملك المجر[٧٧]، أغلبهم من نبلاء فرنسا، وفيهم كثير من أقارب ملك فرنسا تحت قيادة الشاب الكونت دي نفر[٧٨] ابن ملك دوك بورغونيا[٧٩]، وقد انضم إلى أولئك الجنود وفرسان القديس يوحنا الارشليمي، أمير الأفلاق وبلغاريا اللذان خلعا ولاءهما للعثمانيين[٨٠].

وقيل التحق بالكونت دي نفر، وهو في طريقه إلى بلاد المجر، من ألمانيا حوالي ستة آلاف مقاتل ألماني، بقيادة الكونت بلاتين روبيرت بن روبيرت الثاني، ومن انجلترا عشرة آلاف مقاتل بقيادة هنتجدون، وانحاز إليه حاكم الأفلاق في عشرة آلاف مقاتل، وقدم من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا حوالي ثلاثة عشر ألف مقاتل، وكان ملك المجر سيجموند ينتظر هذه الجيوش ومعه حوالي ستون ألف مقاتل[٨١].

وعلى أية حال فإنه لا يهمنا الأعداد المقاتلة للطرفين، بقدر ما يهمنا في النهاية تشكيل جيش صليبي اشتركت فيه كل دول أوربا الغربية، وكذلك دول المواجهة التي تواجه الزحف العثماني أو مناطق السيطرة العثمانية، وقد توافد هؤلاء الجنود الصليبيون إلى بودا، من انجلترا، واسكتلنده، وبولنده، وبوهيميا، والنمسا، وإيطاليا، وسويسرا، وكذلك من بلدان جنوب شرقي أوربا[٨٢]، تدفعهم الروح الصليبية لسحق وطرد الدولة العثمانية من أملاكها في أوربا.

وبعد تردد من البندقية للدخول في هذه الحرب اشتركت وأعدت أسطولاً صغيراً في الدردنيل، وذلك لتفتيش المضيق لجعل خط الإمدادات الأوربية متصلاً بالقوات الموجودة في المجر، لمحاولة درء الخطر العثماني من استغلال هذا المضيق لقطع الإمدادات الأوربية وبالتالي يعمد إلى فشل الحلف الصليبي[٨٣].

وقد استغرقت هذه الاستعدادات الأوروبية وقتاً طويلاً، وكان البابا صاحب الدعوة، وصرفت أوروبا مبالغ كبيرة من الدراهم لم يسبق أن صرفتها أوروبا في القرون الوسطى[٨٤].

وكان الهدف من هذا الحلف الصليبي أو الحملة الصليبية هي هزيمة وسحق الأتراك العثمانيين وطردهم بصورة نهائية من البلقان إلى الأناضول، ثم محاولة الوصول إلى البقاع المسيحية في بيت المقدس بفلسطين، لتخليصها من يد المماليك، وكانت هذه خطة الحملة[٨٥].

لهذا اجتمع المجلس العسكري الأعلى في بودابست، وتم انتخاب ملك المجر سيجمند الأول للقيادة العامة، فاجتاز الجيش الصليبي الحدود المجرية العثمانية ودخل الأراضي العثمانية[٨٦]، عن طريق بلاد الصرب، التي حافظ أميرها على ولائه وعهده للسلطان با يزيد الأول، مما دعا الحلفاء الصليبيون إلى تخريب أراضيه لعدم تحالفه معهم[٨٧].

وقد عبر هذا الحلف نهر الدانوب (الطونة) وعسكر حول مدينة نيكوبلي[٨٨] لمحاصرتها والاستيلاء عليها[٨٩]، وكانت هذه المدينة من أقوى وأهم المعاقل العثمانية على نهر الدانوب في أوروبا، وكانت محصنة تحصيناً قوياً بأسوار منيعة[٩٠].

وظل هذا الحلف الصليبي متمركزاً حول قلعة نيكوبلي الواقعة على الضفة الجنوبية من نهر الدانوب (الطونة) لحصارها والاستيلاء عليها، فلم يستسلم القائد العثماني (دوغان بك) والذي حيدهم عن دخول القلعة وقد مضت فترة أسبوعين أي (١٥) يوماً على حصار الصليبيين لها دون فائدة، في حين وردت الأخبار بأن العثمانيين أخذوا يقتربون من القلعة، وكان جيش السلطان بايزيد الأول قد تحرك من تراقيا، فاق فرسانه، خيالة الصليبيين في سرعة الحركة[٩١]، وقد وصلت مقدمة جيشه تحت قيادته إلى نيكوبلي في يوم الاثنين الموافق ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م، وعسكر بجيشه في التلال على مسافة ثلاثة أميال من الجيش الصليبي[٩٢]، يرافقه كثير من الجيش الصربي بقيادة أميرهم استيفن وفاءً للشرط الذي التزم به في الصلح مع السلطان با يزيد الأول، فتقدم السلطان لحرب الحلف الصليبي المذكور، فاشتعلت نار الحرب بين الفريقين، ولكن فقدان روح النظام عند هؤلاء الصليبيين المحاربين جعل حماسهم عديم الجدوى بالكلية، وذهبت جهود سيجموند لقيادتهم أدراج الرياح[٩٣]، حين بادرهم السلطان با يزيد الأول بالهجوم واشتبك معهم في معركة سال فيها الدم بين الفريقين وانتهت هذه المعركة بفوز العثمانيين على الحلف الصليبي بهزيمة ساحقة[٩٤]، بجيش قوامه حوالي سبعين ألف جندي، وكان الجيش الصليبي مؤلفاً من مائة وثلاثين ألف جندي، إلا أنه لم يكن هؤلاء الصليبيين قد شاهدوا حرباً بهذا الحجم ولا طالعوها في الكتب، كانوا جنوداً جيدين، لكنهم لم يعتادوا إلا على مقاتلة خمسة عشر ألف جندي وجهاً لوجه على أكثر تقدير.

فكانوا يجهلون تكتيك الحرب العثمانية، لذلك اضطربوا عندما ضيق عليهم السلطان بايزيد الأول الخناق، وأرادوا النجاة والهرب عن طريق نهر الطونة لكنهم شاهدوا أن النهر من أوله إلى آخره مرصوف بالخيالة الأتراك، فقد حالوا بينهم وبين النهر، فكان العثمانيون الأتراك يقتلون بالسيف من لم يستسلم منهم[٩٥]، أما سيجموند ملك المجر، فقد هرب من المعركة إلى شاطئ البحر الأسود حيث وثب على إحدى السفن من الأسطول النصراني ففرت به إلى أوروبا، وبذلك تضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوربي، وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة واعتداد بقوة ملكها سيجموند، وبهزيمته أصبح الوضع في البلقان أكثر سوءًا وأصبح الطريق ممهداً أمام العثمانيين لمزيداً من الفتح[٩٦]، وقد أمكن للسلطان إبادة معظم القوة الصليبية الكاثوليكية الضخمة التي احتشدت في (بودا) خلال مدة قصيرة عند قلعة نيكوبلي، وكانت تلك القوة الصليبية خلال زحفها نحو الأماكن تحرق وتهدم ما يصادفها في الطريق وتوقع أنواع المظالم بالسكان الأرثوذكس المحليين، فلما منيت بالهزيمة، تأكد لديهم الرأي القائل باستحالة طرد العثمانيين من الأناضول[٩٧].

وقيل مات من الصليبيين غرقاً في النهر وضرباً بالسيف حوالي مائة ألف جندي، وتمكن من الفرار حوالي عشرة آلاف جندي[٩٨]، كما وقع في الأسر حوالي عشرة آلاف جندي قام الجنود العثمانيون بقتل معظمهم أمام السلطان، منهم كثير من نبلاء فرنسا، وأطلق سراح الباقين منهم يوحنا كونت دي نفر[٩٩]، فقد عفا عنه السلطان لشجاعته وبسالته[١٠٠]، وكانت خسائر الأتراك غير معلومة لديهم، ولكن المصادر الأوربية تقدر حجم الخسائر العثمانية بثلاثين ألف جندي تركي بين قتيل وجريح[١٠١].

وعلى أية حال فقد استطاعت إمارات فيدن البلغارية، من الإفلات والنجاة من السقوط في أيدي العثمانيين ١٣٩٣م، ولكن العثمانيين استطاعوا الاستيلاء عليها في هذه المرة ١٣٩٧م، نتيجة لهزيمة الحلف الصليبي في موقعة نيكوبلي ١٣٩٦م، حيث أصبح الطريق سهلاً وممهداً أمام العثمانيين كما سبق ذكره، لذلك استطاعوا احتلال أثينا، ثم عبروا مدينة اسميوس، واجتاحوا أرجوس، وانتصروا على القوات البيزنطية هناك، واجتاحوا الشاطئ الجنوبي، وكان ذلك إذاناً بأن القسطنطينية قد جاء دورها، بعد القضاء على كل العناصر الصليبية أو التي باستطاعتها أن تمد يد المساعدة لمدينة القسطنطينية، التي كانت تمر بفترة ضعف في السنوات العشر الأخيرة[١٠٢]، هذا الأمر عمل على ذيوع شهرة السلطان با يزيد الأول في العالم الإسلامي كمجاهد كبير،

وعلى ذلك كان في مقدوره أن يضع القسطنطينية تحت الحصار الشديد ويتطلع إلى احتلال روما، وهذا أثار الخوف في نفوس أهلها، أما الإمبراطور البيزنطي فقد كان يعتقد عن إيمان أن إنقاذ القسطنطينية لن يتم إلا عن طريق المساعدة التي يمكن الحصول عليها من الخارج، كما توقع أن فتح القسطنطينية قريب المنال[١٠٣]، وأعلن السلطان با يزيد الأول أنه سيحتل إيطاليا، بعد فتح القسطنطينية، وأن حصانه سيتناول طعامه على مذبح كنيسة القديس بطرس في روما[١٠٤].

عندما فقدت بيزنطة كثيراً من تأثيرها وهيبتها بعد معركة نيكوبلي، مما جعل الإمبراطور مانويل الثاني يطلب المساعدة من روسيا والبندقية، وملك فرنسا وبريطانيا لإنقاذ القسطنطينية من تهديد العثمانيين لها، فاستجاب شارل ملك فرنسا لطلب مانويل، فأرسل من المضحك فرقة تتكون من ألف ومائتين جندي تحت قيادة المارشال بوكيكو (Boucicaui) الذي سعى لشق طريقه إلى القسطنطينية، ولكن القوة التي كانت معه صغيرة لن تستطيع إنقاذ القسطنطينية[١٠٥].

في نفس الوقت كان حنا السابع منافس الإمبراطور مانويل الثاني على العرش يتفاوض في فرنسا لبيع حقه في العرش لملك فرنسا مقابل قصر هناك، ودخل يقدر بمائتين وخمسين ألف فلورين ذهبي، فقرر الإمبراطور مانويل الذهاب إلى الغرب لطلب المساعدة، وتدخل بوكيكو للصلح بين الإمبراطورين البيزنطيين المتنازعين (حنا ومانويل) وتقرر أن يحكم حنا السابع كإمبراطور في القسطنطينية في غياب مانويل، ومع ذلك فإن مانويل لم يكن يأمن له، فأرسل أسرته عند أخيه في المورة، وذهب في رحلة لطلب المساعدة من الغرب، فزار البندقية وعدداً من المدن الإيطالية، ثم ذهب إلى باريس، ومنها إلى لندن، ولم تحقق رحلته نتائج إيجابية إلا بعض الوعود، التي لم تتحقق لصد الهجوم العثماني المحتمل لفتح المدن فرحل إلى باريس مرة أخرى، وأقام بها عامين، إلى أن وصلته أخبار هزيمة السلطان با يزيد الأول على يد المغول مما جعل القسطنطينية تنعم بفترة راحة من الاستقرار[١٠٦] كما سيأتي ذكره.

وفي الحقيقة أن الصربيين قد أثبتوا ولاءهم للدولة العثمانية في ساحة نيكوبلي، والتي أحرز فيها السلطان با يزيد الأول بمساعدتهم قمة مجده في تلك المعركة، فأرسل من ميدان القتال إلى قاضي بروسه يخبره فيه بانتصاره في نيكوبلي[١٠٧]، كما بعث من أدرنه عاصمة بلاده الرسائل إلى كبار حكام المشرق الإسلامي، يزف فيها بشرى انتصاره في معركة نيكوبلي، وقد أرسل مع الرسل مجموعة من الأسرى الصليبيين كهدايا من المنتصر دليلاً مادياً على انتصاره، واتخذ لقب

« سلطان الروم » كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول[١٠٨]، وبهذا الانتصار العظيم الذي حققه السلطان با يزيد الأول في معركة نيكوبلي رسخت أقدام العثمانيون في البلقان، حيث انتشر الخوف بين الشعوب البلقانية، وخضعت بلغاريا والمجر للدولة العثمانية، وعاقب السلطان حكام جزيرة المورة الذين قدّموا المساعدات للحلف الصليبي[١٠٩]، ويعني ذلك أن العثمانيين بهذا العمل قد سيطروا على شبه جزيرة البلقان كلها ما عدا مدينة القسطنطينية وما حولها[١١٠].

العلاقة المملوكية العثمانية فى بداية عهدهاتختلف عن نهايته :

وكانت العلاقة المملوكية العثمانية في بداية عهدها طيبة، فلم يحدث بين الدولتين صدام، لعدم ظهور أطماع لأي منهما في أملاك الآخر، وقد زاد من تحالفهما الخطر المغولي الزاحف نحو الغرب، المتجه نحو بلادهما[١١١].

لذلك أرسل السلطان با يزيد الأول إلى الخليفة العباسي المتوكل المقيم في القاهرة، طالباً منه أن يخلع عليه لقب سلطان الروم لكي يسبغ على السلطة التي مارسها أو تمتع بها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً لتزداد هيبته لدى العالمين الإسلامي والمسيحي، ولم يكن في استطاعة السلطان برقوق – حامي الخليفة العباسي – أن يتعلل أو يرفض طلب السلطان، بل وافق عليه، إذ كان يرى في السلطان العثماني حليفه الأوحد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تهدد كلا الطرفين بخطر عظيم[١١٢]، لذلك خلع عليه الخليفة العباسي لقب سلطان أقاليم الروم تدعيماً لموقفه هناك، وتوحيداً لجهودهما معاً ضد الغازي المغولي لهما على حد سواء[١١٣]، وعلى الرغم من مخاوف السلطان برقوق من الخطر المغولي نحو بلاده، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين[١١٤]، وهنا يجب التنويه أن السلطان با يزيد الأول، وهو أول من لقب «سلطان آل عثمان»، لذلك لم ينتقل آل عثمان من طور الإمارة إلى دور السلطنة إلا في عهد السلطان با يزيد الأول، وعلى يديه أصبحت الأمارة العثمانية الدولة التي عرفت باسم الدولة العثمانية، كما أن هذا السلطان بحق هو أول من فكر في توحيد العالم الإسلامي، وكانت طموحاته أن يقوده تحت إمرته[١١٥]، وقد تدفق على الأناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية وسلطانها، وكانت هذه الهجرة لم تقتصر على رعايا التركمان، بل كانت مليئة بالجنود الذين أسهموا في الحياة الحكومية والاقتصادية والثقافية، في إيران والعراق، وما وراء النهر، إضافة إلى الجموع الفارة أو الهاربة من أمام زحف قوات تيمورلنك من أواسط آسيا[١١٦].

وقد صدقت مخاوف السلطان برقوق حين أخذ السلطان با يزيد الأول يتطلع إلى المماليك في آسيا الصغرى، شرق الأناضول، فكان احتكاكه أكثر من مرة بدول المماليك في مصر والشام، فقد هاجم قيصرية، وقبض على أميرها الذي كان يتبع لدولة المماليك، وسيطر على بلاد القاضي برهان الدين وسط الأناضول، وحين بدأت انتصاراته[١١٧] حضر بنفسه في ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، إلى سيواس، وشاهد الوضع هناك، وكان ابنه محمد الأول (جلبي)، والياً على هذا الإقليم[١١٨]، ولما علم السلطان با يزيد الأول بوفاة الأمير برقوق، وتولى ابنه فرج الحكم مكانه على مصر أرسل إليه رسولاً يعرض عليه ترك « ملاطية » الآهلة بالسكان الأتراك لأنها تخص القاضي برهان الدين التي آلت بلاده للسلطان العثماني، وعندما تلقى الجواب بالرفض من الأمير فرج المملوكي قام بإعداد جيش لهذا الغرض ونزل به من سيواس إلى ملطية، وقام بحصارها حتى استسلم أهلها في شهر محرم ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، فأخذها عنوة من المماليك[١١٩] وقد أدى ذلك الأمر إلى توتر العلاقات المملوكية العثمانية في الوقت الذي كان فيه خطر تيمورلنك ماثلاً على أبواب الأناضول (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م)، فاحتل السلطان العثماني المدن المملوكية الأخرى، كحصن منصور (آدي يمان) كاهته بسني دارنده، ديوريغي البستان، حتى تجاوزت الحدود العثمانية نهر الفرات، كما اعترف بنو دلقادر بالسيادة العثمانية في ١٣٩٩/٩/٢م، وخضعت له مدينة خربوت وارزبجان، وهكذا تكونت الوحدة الأناضولية التي يسعى من أجلها لإعادة أحياء تركية علاء الدين السلجوقية في آسيا الصغرى[١٢٠].

هذه السياسة الجزئية منه في الشرق أوقعته فيما بعد لأن يدخل ساحة نفوذ تيمورلنك من ناحية والأراضي المملوكية من ناحية أخرى، حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام تيمورلنك[١٢١] كما سيأتي.

وعلى أية حال فقد شعر السلطان با يزيد الأول بما شعر به القاضي برهان الدين أحمد حاكم سيواس آنذاك، لما كان على قيد الحياة بالخطر المغولي عقب استيلاء تيمورلنك على بغداد للمرة الأولى حين لجأ للعثمانيين والمماليك في مصر، وشرح لهم هذا الوضع المريب من أطماع المغولي، فاقترح بإعداد حلف ضد تيمورلنك، ولكنهما (العثمانيون والمماليك) لم يهتموا بهذا الأمر[١٢٢].

لذلك أحس السلطان العثماني كما سبق ذكره بحرج موقفه وخطأ ما أقدم عليه، عندما أحس بالخطر المغولي يقترب من بلاده، ولا نصير له في المنطقة سوى دولة المماليك، فقام بالاعتذار

لسلطان المماليك الناصر صلاح الدين بن فرج بن برقوق عما أقدم عليه، وأرسل له هدية ثمينة مع أحد رسله، وظل السلطان بايزيد الأول يؤكد صداقته.واحترامه لسلاطين المماليك[١٢٣]، حتى طلب من السلطان المملوكي فرج ما طلبه القاضي برهان الدين وهو التحالف معه ضد الخطر المغولي الذي أصبح على مقربة من بلادهما، فرفض السلطان المملوكي فرج ذلك التحالف بعد التشاور مع أمراء المماليك، الذين تأثروا باحتلال السلطان العثماني لملطية وغيرها من الممالك التابعة للدولة. فقضى هذا الاحتلال على إمكانية التحالف بينه وبين السلطان فرج بن برقوق، وقد استفاد تيمورلنك من هذا الخلاف والتنافر بين المماليك والعثمانيين في صالحه[١٢٤]، حيث تمكن من مداهمة كلا القوتين على انفراد[١٢٥]، فقد غزا سيواس العثمانية وقام بتخريبها وبهذا العمل فقد أنزل بالعثمانيين أول ضربة، واكتفى في بداية الأمر بسيواس، ولم يتقدم نحو الأراضي العثمانية.

أما السلطان با يزيد الأول فقد شعر بأن الوضع في سيواس مؤلم، فقد تأثر كثيراً، لعدم استعداده لملاقاة تيمورلنك على الفور، لكنه سار بقواته إلى قيصري، وانتظر تيمورلنك، لكن تيمورلنك اتجه نحو سوريا[١٢٦] وهاجم المماليك في مصر والشام وتمكن من هزيمتهم سنة ١٤٠٠م، بالقرب من مدينة دمشق[١٢٧].

ولما رأى السلطان العثماني اتجاه تيمورلنك نحو المماليك قاد الجيش العثماني بنفسه إلى الحدود الشرقية، وأخذ مدينة أزربيجان من أميرها مهتران حليف تيمورلنك، وبعد ذلك خيّره بأن يعيد له المدينة على أن يصبح – مهتران – تابعاً له ويكون حاكماً على أزربيجان ثم أخذ عائلة مهتران كرهينة لديه حتى يضمن ولائه، وأرسلها إلى مدينة بروسة (بورصة) وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م، وبهذه الصورة فقد اتسعت الفجوة بين تيمورلنك وبايزيد الأول لغارته على أمير ازربيجان التابع لتيمورلنك[١٢٨].

وبعد ذلك عاد السلطان إلى عاصمته بروسه (بورصة) ليستريح من عناء الحروب، وليمتع باللذات[١٢٩] ونشوة انتصاراته، وأيضاً مراقبة الزحف المغولي، ورصد اتجاهاته للاستعداد له، وبينما هو على تلك الحال، فقد أرسل تيمورلنك خطاباً أثناء حملته لسوريا يهدد السلطان بايزيد فيه، وينبه من الغفلة، لارتكاب الأخطاء ضد حلفائه وأمراء الإمارات السلجوقية المسلمين الذي اغتصب ممتلكاتهم، وتهديده لدولة المماليك، كما ذكّره بغموض أصل أسرته، فأغلظ له السلطان بايزيد الأول الجواب مع رسوله[١٣٠]، وبين له أنه من أسرة عريقة ذات أمجاد معروفة، ومن نسب

عالي، وطلب بأن يكون تيمورلنك تابعاً له مفاخراً بتاريخهم العظيم، فانصرف الرسول المغولي مخذولاً[١٣١].

استغلال الخلاف بين السلطان بايزيد الأول وتيمورلنك :

استغل إمبراطور القسطنطينية وملوك أوروبا هذا الخلاف الذي وقع بين السلطان بايزيد الأول وتيمورلنك، وطلبوا من الأخير نجدتهم لإنقاذ سقوط القسطنطينية في يد السلطان بايزيد الأول، وكان تيمورلنك قد بدأ مواصلة فتوحاته وزحفه نحو خوارزم وبالتحديد قد وصل إلى ما بين النهرين لمواصلة قتال السلطان با يزيد الأول[١٣٢]، الذي كان ينوي حصار القسطنطينية، ولما علم أن إمبراطور القسطنطينية قد استنجد بتيمورلنك، تقدم بجيشه لحصار القسطنطينية، عقاباً له على موقفه العدائي، ثم طلب السلطان تسليم المدينة، واتبعها بالاستيلاء على الشاطئ الآسيوي وعلى جزء ضيق من مضيق البسفور، ولكن الإمبراطور رفض تسليم القسطنطينية، فأحكم السلطان الحصار عليها مصمماً في هذه المرة فتحها[١٣٣].

وفي أثناء هذا الحصار وصل السلطان بايزيد الأول رسالة من تيمورلنك، يأمره فيها بإعادة جميع أراضي بيزنطة التي سبق للسلطان الاستيلاء عليها ورفع الحصار عنها، وفي نفس الوقت بلغه زحف تيمورلنك إلى أطراف بلاده، فشق على السلطان العثماني هذا الأمر، لذلك رأى رفع الحصار عن القسطنطينية - للاستعداد لصد الزحف المغولي عن بلاده - بعد أن شارفت على السقوط واكتفى بالصلح مع ملكها، مع أن أوربا كانت تتوقع سقوطها في أي لحظة لعدم استطاعتهم تقديم المساعدة المطلوبة لخوفهم من السلطان العثماني[١٣٤].

غير أن التقدم الذي أحرزه السلطان با يزيد الأول في الأناضول عقب النجاح الذي حققه في الغرب جعله يقف وجهاً لوجه أمام تيمورلنك الذي ظهر من الشرق على مسرح الأحداث لغزو العثمانيين[١٣٥]، نظراً لسياسة السلطان العثماني الخاطئة لاتجاهه نحو المشرق مخالفاً في ذلك سياسة أسلافه الذين كان هدفهم الجهاد لنشر الإسلام نحو الغرب، فاكسبته تلك السياسة عداوة الجميع من مسلمين وأوربيين، فأنقذ هذا الغزو سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني، الذي كان يدعي لنفسه الوصاية في الأناضول كوريث للمغول، ونتيجة لسوء علاقته أيضاً مع سلطان المماليك، وجد نفسه وحيداً أمام تيمورلنك، وكان أمراء الأناضول الذين طردهم من إماراتهم وحوّلها أو ضمها لدولته فأصبحت أراضي عثمانية، وكذلك رجال الإقطاعات كانوا غير

راضين عن السياسة المركزية التي أتبعها السلطان وطبقها، هؤلاء جميعاً كانوا يرون في تيمورلنك أنه منقذ لهم[١٣٦].

وكان يمكن لبايزيد الأول اكتساح أوروبا، لولا ما قدّره الله، من قدوم خطر تيمورلنك، الذي عصف بالسلطنة العثمانية، وتسبب في انهيارها لفترة حتى استعادت وحدتها على يد ابنه السلطان محمد الأول[١٣٧].

وعلى أية حال فقد حشد السلطان با يزيد الأول جيوشه التي كانت متفرقة في أنحاء أوروبا وآسيا عائداً بها إلى بروسة (بورصة) عاصمة بلاده للاستعداد لحرب تيمورلنك[١٣٨]، ويعني ذلك تحويل جيشه صوب الشرق، لإبعاد الخطر الجديد خطر المغولي تيمورلنك عن الدولة العثمانية[١٣٩].

وتيمورلنك هذا ينتمي إلى الجنس التركي، ينحدر في أصوله إلى إحدى الأسر الكريمة في بلاد ما وراء النهر، تولى هذا القائد عرش خرسان عام ١٣٦٩م، وعاصمته سمرقند، في الوقت الذي كان فيه السلطانين مراد الأول وابنه بايزيد الأول يرسيان قواعد دولتهما البلقانية، سيطر تيمورلنك على القسم الأكبر من العالم الإسلامي، فقد انتشرت قواته في آسيا من مدينة دلهي إلى مدينة دمشق، ومن بحر أرآل إلى الخليج العربي، واحتل فارس وأرمينيا، وأعالي الفرات ودجلة، والمناطق الواقعة بين بحر قزوين إلى البحر الأسود، وفي روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدنيبر[١٤٠]، وأعلن بأنه سيجعل الأرض المسكونة ملكاً له، وكان دائماً يردد هذا القول: « أنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض، طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء»، وكان يكره أن تكون هناك قوة أقوى منه أو منافسة له.

وقد اتصف تيمورلنك بالشجاعة والعبقرية الحربية والمهارة السياسية، وكان إذا قرر أمراً يطّلع على التقارير التي يبعثها إليه جواسيسه الذين كان يرسلهم إلى ذلك المكان، ليكون ملماً بقوة وضعف أعدائه.

وكان تيمورلنك لا يتسرع في اتخاذ القرارات بل يوازن ويفكر بترو حتى يتخذ القرار المناسب، ثم يتمسك به، لهيبته التي كان يتمتع بها بين جنوده، وكانوا يطيعون أوامره أياً كانت ومهما كانت.

على أن تيمورلنك باعتباره مسلماً صالحاً كان يراعي العلماء ورجال الدين وبخاصة دراويش

الطريقة النقشبندية، وكانت دولته شبيهة بدولة السلطان بايزيد الأول من حيث أنهما قامتا على أنقاض دول صغيرة لجأ أمراؤها إلى كلا الجانبين كما سبق ذكره[١٤١].

ومهما يكن القول فقد واصل تيمور زحفه حتى وصل إلى بغداد في العراق، فهرب حاكمها السلطان أحمد جلائري[١٤٢]، خوفاً من بطشه، كما هرب حاكم أزربيجان قرة يوسف، والتجأ بعائلتيهما إلى السلطان بايزيد الأول، وكان تيمورلنك يسعى لنصرة أمراء القرمان وأوربا الذين استطاعوا استمالته، وقد وافق ذلك ما بنفسه من أطماع لمد نفوذه على بلاد الشام وبلاد الأناضول، لذلك أرسل سفيراً إلى السلطان بايزيد الأول يطلب فيه تسليم أحمد جلائري، وقرة يوسف ولكن السلطان رفض هذا الطلب، وعاد السفير إلى تيمورلنك[١٤٣].

محاولة للصلح بين تيمور لنك والسلطان بايزيد الأول :

وفي رواية أرسل تيمورلنك خطاباً إلى السلطان بايزيد الأول يريد الصلح دون قتال حيث قال: « أنت رجل مجاهد في سبيل الله، وأنا لا أحب قتالك، ولكن انظر أي البلاد التي كانت معك من أبيك وجدك، فاقتنع بها وسلم إليّ البلاد التي كانت من إرثنا ».

وقد أشار الصدر الأعظم العثماني علي باشا على السلطان بايزيد الأول بأن يتبع سياسة السلم والصلح مع تيمورلنك، وقد أرسل سفيراً إلى تيمورلنك للتفاهم في الصلح، وكلفه السلطان بعمل معاهدة إذا اتفقا، ولكن تيمورلنك لم يكترث بالأمر، بل زحف إلى حدود الأناضول، وأخبر سفير السلطان العثماني بأنه ينتظر رد سلطانه بايزيد الأول، وسمح للسفير والوفد المرافق له بالعودة وأرسل معهم سفيره الخاص بالشرط التالي :

أن تيمورلنك يريد استلام قرة يوسف بصفة خاصة حياً أو ميتاً، لكن السلطان بايزيد أجاب السفير، بأن قرة يوسف لم يقدم له أي معلومات أو مساعدة، وأنه في ضيافته الخاصة، لذلك لا يمكن أن يسلم إليه كل من جاء إليه لاجئاً مهما كلفه ذلك من أمر[١٤٤].

بيد أن السلطان العثماني كان لديه خفة وشجاعة، ولم يكن عنده صبر ساعة، كان إذا تكلم وهو في صدر المجلس فإنه لا يزال في حركة زحف أو اضطراب حتى يصل إلى أطراف الإيوان، ولما وصل شرط تيمورلنك إليه رفض تنفيذ هذا الصلح واستهجنه في أسلوبه وفرض ما يريد، لذلك ردّ عليه مهدداً ومتحدياً قوته ومرحباً بقدومه للقتال[١٤٥] دون ضيفه.

لذلك أدرك تيمورلنك أنه لا يمكنه حرب السلطان العثماني على الأقل في هذا الوقت الحاضر مثل ما كان يفعل في الماضي، واضطر أمام ذلك إلى نقل معظم قواته إلى وسط آسيا وبالتحديد في مدينة «قرباغ» حيث قضى الشتاء بها[١٤٦].

وكما لجأ أمراء العراق وأزربيجان إلى السلطان العثماني بايزيد الأول، فقد لجأ من قبلهم إلى تيمورلنك أمراء الإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى، وفي كلا الجانبين أصبح اللاجئون يحرضون ويحركون كل طرف لشن الحرب ضد الآخر، ولم تجد هذه التحريضات آذاناً صاغية في بادئ الأمر من الطرفين[١٤٧].

الصليبيون يحرضون تيمور لنك للهجوم على العالم الإسلامي :

وقيل أو أشيع بأنه قد دخل طرف ثالث وهم الصليبيون الذين عمدوا إلى تحريض تيمورلنك على هجوم العالم الإسلامي من جهة الشرق وذلك عن طريق بناتهم اللواتي كن في قصور أمراء وحكام المغول مستغلين هذا عن طريق السياسة والمفاوضات[١٤٨]، وخاصة من المدن الأوربية، (جنوة وقشتالة)، الحاقدة على السلطان بايزيد الأول، فقد شجعت تيمورلنك على حرب الدولة العثمانية[١٤٩].

ولكن تيمورلنك لم يستمع إلى رسلهم بسبب تمسكه بالإسلام من ناحية ومن الناحية الأخرى، لم يكن هناك ما يدل على تقديم أي مساعدات مجدية يمكن أن تقدمها كل من جنوة وقشتالة له، ولكن هذه الاتصالات قد تكون شجعت تيمورلنك على العمل ضد العثمانيين[١٥٠]، ومستغلاً كراهية المماليك وأمراء الأناضول وشعوبهم الإقطاعيين لحكم السلطان بايزيد الأول، وقد هيأت هذه الظروف المناخ لتيمورلنك لغزو بلاد السلطان العثماني.

إضافة إلى أن الصليبيين قد زوجوا بناتهم، وأهدوا بعض جواريهم الحسان للعمل في قصور حكام المغول وأعيانهم لاستمالة قلوبهم قبل عقولهم لتحريكهم لغزو الدولة العثمانية من المشرق حتى تتوقف حركة جهادهم عن الفتح في أوروبا، وهم يتولون الهجوم المعاكس من الغرب ليتمكنوا من إبعاد خطر العثمانيين عن أوروبا كلها بمساعدة المغول، وقد حاولوا من قبل صرف السلطان بايزيد الأول إلى الشرق ليركز جهوده في توحيد الإمارات الإسلامية بالأناضول لتحويله عن أوروبا، وبالتالي يفسح لهم المجال للزحف إلى بلاد الشام للاستيلاء على القدس الشريف في فلسطين[١٥١].

وكانت نتيجة حربه مع هذه الإمارات المسلمة والتي فرّ أمرائها للاحتماء بتيمورلنك وطلب المساعدة منه لاسترداد إماراتهم في نظري أهم أسباب غارة المغول على الدولة العثمانية، إضافة إلى أطماع المغول منذ موجهاتهم الأولى، وقد تكون هذه الحملة استمراراً للغارات السابقة التي قامت في وسط آسيا.

إلا أن ما برره تيمورلنك لهذه الغارة هو خوفه من تحركات السلطان بايزيد الأول ضده، وضربه من الخلف لأنه كان يفكر في غزو الصين لتوسيع ممتلكاته، فخشى تحالف المماليك مع الدولة العثمانية للحرب ضده، وهذا فيه شيء من الصحة لذلك لابد أن يستثمر التنافر الحالي بينهما في صالحه، وكان يتحين الأسباب والفرص وحين سنحت له، بادر بالزحف على الدولة العثمانية[١٥٢].

والحقيقة أن الدولة العثمانية بدأت هي الأخرى منذ فترة من الزمن تستشعر نوايا الخطر المغولي يهددها من الشرق، مما يتيح لبيزنطة فرصة جديدة يتنفسون من خلالها الصعداء وينفكون من الضغط العثماني[١٥٣].

وهذه دلالة واضحة على تأثير أوروبا على فكر تيمورلنك وأمرائه عبر بناتهم وجواريهم، لذلك استجابوا لقلوبهم قبل عقولهم، فكانت الكارثة بين المسلمين كما سيأتي.

وقد أدرك السلطان با يزيد الأول حتمية الصراع مع تيمورلنك، ولهذا السبب قيل أنه سعى إلى تقوية مركزه الحربي في آسيا الصغرى عن طريق القضاء على الإمارات التي قامت على أنقاض دولة السلاجقة[١٥٤]، وهذا احتمال ضعيف يؤكده الباحث بل تقوده الأطماع لتوحيد أمارات الأناضول تحت حكمه مهما كلفه ذلك الأمر.

لذلك أخطأ حين اتجه إلى ضم دول إسلامية كانوا كثيري العدد، وغير راضين عن سياسة السلطان الذي أخذ يتدخل في شئونهم الخاصة دون مراعاة لهم، وفي هذه السياسة التي اتبعها قد خالف فيها أسلافه في سياسة الفتح العثماني، وهو الاتجاه نحو الغرب للفتح ونشر الإسلام هناك، دون الالتفات إلى الممالك الإسلامية في المشرق[١٥٥]، وكان ينبغي عليه أن يعقد مع تلك الممالك حلف صداقة وحسن جوار ليستعين بهم في أي لحظة ضد أوروبا، ويكونون بجواره في مثل هذه المحن لا ضده كما هو الحال.

لهذا سقط السلطان في طموحاته، عندما تعددت عليه الجبهات واتسعت الفجوات في الغرب والشرق الإسلامي، ولم يبق له صديق، مما أكسبه عداوات المسلمين قبل الأوربيين لتدخله في

شئونهم، وكان عليه أن يكسبهم إلى جانبه دون الدخول في صدام معهم والحقيقة أنه كان شجاعاً مقداماً، ولكن يبدو لم تكن عنده حنكة وسياسة أجداده المؤسسين في الفتح العثماني[١٥٦].

أما السلطان بايزيد الأول فكانت تعيب سياسته التعجل في الفتح العثماني، دون تمييز بين الدول الإسلامية والأوربية، كان أسلافه في فتح أي مدينة في الغرب وليس في المشرق الإسلامي يستريحون حتى تستقر أحوال هذه المدن ويضمنون ولاءها وانتظامها ضمن ممالكهم السابقة حينئذ يبدءون بغزو جديد، وهكذا كانت سياستهم في فتوحاتهم في اتجاه واحد منذ تكوين دولتهم.

وعلى أية حال فعندما رفض السلطان بايزيد الأول تسليم أعداء تيمورلنك إليه بشكل سافر، والتزم بحمايتهم، مهما كلفه ذلك الالتزام، لذلك تردد تيمورلنك في بداية الأمر في غزو السلطان بايزيد الأول حتى لا يثير المشاكل والمشاعر ضده في العالم الإسلامي، والتي لم تكن أساساً في صالحه، باعتباره أحد قوى العالم الإسلامي، ولكنه كان عازماً على فتح بلاد الصين، وإدخالها إلى الإسلام، وكان يعلم أن الدولة العثمانية لا تبالي بأية حدود بينهما، كما كان يخشى من استمرار استيلائها على الإمارات السلجوقية في آسيا الصغرى والتي لجأ إليه حكامها لتخليصهم منه في استرجاع أقطارهم[١٥٧]، وخاصة أن تيمورلنك قد بدأ بغزو الحدود العثمانية.

وكان تيمورلنك يعلم أن غالب جند السلطان بايزيد الأول هم من السلاجقة، أبناء الإمارات المذكورة ففكر في استمالتهم في صفه، لذلك أرسل إلى زعمائهم وكبار رجالهم، يذكرهم بجنسهم ولجوء أمرائهم لديه، ويعدهم ويمنيهم صادقاً بإعادة ممتلكاتهم التي سلبها السلطان بايزيد الأول منهم، فوعدوه سراً بالانضمام إليه عند الحرب[١٥٨]، وقد نجح تيمورلنك في هذه المهمة من اختراق صفوف السلطان العثماني بأخذ هذه الموافقة، والتي تعد من أهم العوامل التي أسقطت بايزيد في الميدان كما سيأتي الحديث عنه.

عندئذ بدأ تيمورلنك بعد أن ضمن ولاء أبناء الإمارات السلجوقية داخل جيش السلطان العثماني غارته في سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، بجيوشه على بلاد آسيا الصغرى التابعة للدولة العثمانية، وفتح مدينة سيواس بأرمينيا، وأسر حاكمها أورخان ابن السلطان بايزيد الأول، ثم قام بقطع رأسه، لرفض والده تسليم أحمد الجلائري، وقرة يوسف له[١٥٩].

ثم أعقب ذلك قتل ما أسره من العثمانيين، لكنه اعترف أنه لم يلق صموداً في الحرب طيلة حياته مثل صمود آل عثمان، لذلك أدرك عدم مقدرته إسقاط القلاع الأناضولية، لكنه كان يطمع

في إبادة الجيش العثماني، عندئذ انسحب من الأناضول إلى قفقاسيا، متجنباً الحرب مع السلطان بايزيد الأول، على أمل أن يعترف له بالتبعية مثل ما اعترف له سلطان الهند والمماليك من قبل، ولكن السلطان بايزيد الأول غيرهم، فقد رفض الاعتراف بتيمورلنك، وبصيغة فيها تحقير، فلم يتحقق أمله، وظن السلطان العثماني بعد ذلك الانسحاب أن المشكلة قد انتهت، ولكن الحقيقة أن تيمور كان ينوي العودة بتخطيط جيد لكسب المعركة[١٦٠].

تيمور لنك يستعد لشن الحرب على الدولة العثمانية:

ولكن آراء أمراء تيمورلنك وأتباعه وحتى أولاده وأحفاده انقسمت إلى من يريد منعه من التحرك إلى الأناضول، لأنه لا يليق بهم حرب الدولة العثمانية السنية، حنفية المذهب والتي تنطق أيضاً التركية مثلهم، وحاملة لراية الجهاد الإسلامي، وهناك من يشكك في قدرة انتصاره على السلطان بايزيد الأول لقوة المقاومة التي لقيها جيشه في سيواس واعترف بها تيمورلنك نفسه، وهناك فريق آخر يحرضه على حرب العثمانيين[١٦١]، ويبدوا أنهم أمراء الأناضول اللاجئين لديه.

وقد حاول تيمورلنك خلال قضائه الشتاء في قفقاسيا إقناع أمرائه وأبنائه المعارضين لشن الحرب على الدولة العثمانية يدفعه شكه باحتمال ضرب السلطان بايزيد الأول لجيشه من الخلف أثناء حملته المرتقبة على الصين[١٦٢]، لأن السلطان بايزيد الأول كان ينوي الاستيلاء على مناطق أزربيجان والجزيرة، والعراق إذا ترك تيمورلنك هذه الأماكن، لذلك كان لا يريد ترك منافس قوي خلف ظهره، وخاصة إذا كان خصمه السلطان بايزيد الأول، إلا أنه في نهاية المطاف طلب تيمورلنك من السلطان بايزيد الأول قبول شروطه لإنهاء الحرب معه وهذه المطالب هي كالتالي :

(١) إطلاق سراح مهتران حاكم أزربيجان مع عائلته.

(٢) إرسال السلطان لأحد أبنائه كرهينة لديه.

(٣) إرسال ما يدل على خضوع السلطان بايزيد له.

(٤) إعادة إمارات الأناضول إلى أمرائها.

(٥) تسليم قرة يوسف وأحمد جلائر وتسليم عائلتيهما مقابل مساعدة العثمانيين في حروبهم مع الصليبيين.

وكان جواب السلطان بايزيد الأول مع صدره الأعظم الذي كلفه بالتحرك لمواجهة تيمورلنك رداً على شروط الصلح قوله: « إن قواتنا سوف ترد لنا شرفنا، ولن نعيش عبيداً أو خاضعين لأحد » وفي نفس الوقت رفع الحصار عن القسطنطينية، وعقد مع إمبراطورها مانويل معاهدة صلح، ثم سحب جيشه مضطراً للاستعداد لمقابلة المغولي، وعندما كتب السلطان بايزيد الأول رسالته إلى تيمورلنك فإنه كتب اسمه بحروف كبيرة واضحة، بينما كتب اسم تيمورلنك بالحروف السوداء الصغيرة احتقاراً له[١٦٣].

هذا الرد ساعد تيمورلنك على إقناع قادته بالحرب ضد السلطان العثماني، وبين لهم سياسة بايزيد المتسرعة لأطماعه وتحقيق طموحاته، في حين أن قدوم تيمورلنك هو الآخر من الشرق إلى تلك المنطقة تقوده الأطماع والمغامرة للتوسع، فقد أضرم نار الحرب من موسكو إلى نهر الكنج حتى وصل إلى سوريا المملوكية، تدفعه إضافة إلى أطماعه استجابة بعض ملوك أوربا، وملك القسطنطينية، الذين استنجدوا به لصد بايزيد الأول عن فتح القسطنطينية كما سبق ذكره. لذلك اتخذ تيمورلنك من قضيتي أحمد جلائري حاكم العراق وقرة يوسف حاكم أزربيجان اللذين لجأ إلى السلطان بايزيد الأول ذريعة للغارة على الدولة العثمانية[١٦٤].

ويعني أن أطماع تيمورلنك وتوسعاته لا تقل مكراً عن السلطان العثماني، أما السلطان بايزيد الأول فقد قام خلال تلك الفترة، بإعداد جيوشه التي كانت متفرقة في أوربا، وطلب الاستعانة من حلفائه الصرب، وعاد إلى بروسه العاصمة[١٦٥]، وخاصة عندما علم بسير تيمورلنك إلى سيواس وخذلان أبطاله في مدينة سيواس، حين استقوى عليهم تيمورلنك بجيشه الكبير وقتل ابنه، وملأت انتصاراته الأسماع، وألقت الخوف والرعب في قلوب الجيش العثماني لقساوته في معاملة أسراه[١٦٦]، ولكن هذا الأمر لم يخيف مثل السلطان بايزيد الأول، الذي سار بجيشه لحرب هذا المغولي الذي أفسد عليه فتح القسطنطينية، وانتقاماً لدم ابنه[١٦٧]، حينما علم من عيونه أن تيمورلنك في سيواس، سار إلى أنقرة، يريد أخذ بعض الولايات قبل وصول تيمورلنك لها، مثل مدينة قاضي برهان الدين، ومدينة اقتراع الجبلية (التي استولى عليها تيمورلنك) كما سبق، لأن أغلب جنوده كانوا من المشاة فلابد أن يختار المواقع المرتفعة، وقد وفق في هذه الخطة ضد تيمورلنك في أول الأمر، لأن قوات تيمورلنك أغلبهم من الفرسان.

ثم أصدر السلطان بايزيد الأول أوامره إلى الصدر الأعظم للدولة علي باشا وقادة الجيش بعدم

القيام بحرب ميدانية، وأرسل قوة من الجيش تقطع الطريق على تيمورلنك في المنطقة الموجود بها، واعتراض إمدادات جيشه التي ستلحق به، وكان إقدام السلطان على هذه الخطة لاعتداده بنفسه وفي قواته بالانتصار على قوات تيمورلنك.

وعندما تلاقت طلائع القوتين المغولية والعثمانية في مناطق سيواس وتوقاد، رأى تيمورلنك أنه في خطر إذا حارب في هذه المنطقة لسيطرة القوات العثمانية على الممرات الواقعة بين سيواس وتوقات.

لذلك انسحب من تلك المنطقة مسرعاً نحو مدينة قيسرية بناء على ما ورده من معلومات عن القوات العثمانية وتركزها في المواقع المهمة السابقة، لكنه لم يذهب بكل القوات بل بقواته الاحتياطية، وكانت قليلة حتى يتجنب مواجهة العثمانيين، وبسبب انسحاب تيمورلنك وعدم قبوله للحرب بين توقاد وسيواس، فإن السلطان بايزيد الأول ترك قوة صغيرة في الموقع المذكور واتجه نحو الغرب في نفس الاتجاه الموازي لقوات تيمورلنك[١٦٨].

والحقيقة أن تيمورلنك كان يريد أن يسحب أو يستدرج قوات السلطان بايزيد الأول خلفه، إلا أن السلطان عرف اللعبة ولم تنطل عليه هذه الخدعة، بل كان ينتظر موعد المواجهة مع تيمورلنك، الذي سار نحو مدينة قره سي، فلما علم بقدوم القوات العثمانية نحوه اضطربت أحواله وفشلت خطته، لأن المكان لم يكن مناسب للحرب، لذلك تحدث مع أركان جيشه دون حرج لتدارس هذا الأمر وتغيير الخطط التي تضمن لهم الانتصار، فاستقر الرأي على أن يتقدم بجيوشه بسرعة فائقة، وترك العثمانيون خلفه، فسلك طريق أنقرة، وحين وصلها ضرب الحصار على قلعتها، ولكنه لقي مقاومة عنيفة من محافظها يعقوب بيك من قبل السلطان العثماني، كما توقع أيضاً في هذه المرة أن يأتي السلطان بايزيد الأول من الطريق الذي جاء منه، وكان ينوي السيطرة على أنقرة من ناحية القلعة التي أحكم الحصار عليها والواقعة في الشمال الشرقي لأنقرة، وقبل مجيء السلطان العثماني وقواته، قام تيمورلنك بقطع المياه عن القلعة، وكان الهدف من ذلك هو الإسراع في سقوطها، لأن تيمورلنك كان يتوقع وصول الجيش العثماني متأخراً، ولكن القوات العثمانية كانت تسير في عدة اتجاهات، كما أسرعت في الخروج من الطريق الذي لم يكن يتوقعه تيمورلنك على الإطلاق، لأنه كان ينتظر وصول الجيش العثماني من الشرق الجنوبي، إلا أن الجيش العثماني جاء من الشمال الشرقي، وبالتحديد من ناحية قلعجيك روال، ونزلوا بقرية ملكشاه بوادي جوبوك[١٦٩].

فاضطرب تيمورلنك لهذه المفاجأة، وانشغل بالإعداد للقتال، في تلك اللحظة الحرجة، وطوال الليل، وإزاء هذا الموقف أو الوضع الخطير واللحظة الحاسمة فإن تيمورلنك استطاع أن يحافظ على الهدوء لتمضي هذه المواجهة بسلام، وقد عمل تلك الليلة على تغيير جبهة القتال، حيث انسحب من مكانه جانب القلعة ليتجنب الاصطدام مع السلطان العثماني في هذا الوقت.

ونلاحظ فيما سبق أن تيمورلنك دائماً ما يغير خططه الحربية للمرونة التي كان يتمتع بها إذا أحس بحرج خطته، مع أخذ مشورة قادته بعكس خصمه السلطان العثماني وهذه المرونة هي إحدى عوامل النصر على خصمه السلطان بايزيد الأول كما سيأتي.

أما السلطان بايزيد الأول الذي أوقع تيمورلنك في هذا الحرج الذي كاد فيه أن يقضى عليه في أول مواجهة لو اتبع مشورة أبنائه وقادة جيشه الذين أشاروا عليه بمبادرة الهجوم السريع لمواجهة تيمورلنك في اللحظة التي كان يخشاها تيمورلنك، لكنه رفض الأخذ برأيهم، ففوت فرصة الانتصار على خصمه في تلك المواجهة، حيث رأى أنه من الصواب عدم المواجهة لقرب قاعدة الجيش المغولي، وهذا الأمر أعطى لتيمورلنك وقتاً طويلاً للتفكير للتخلص من هذا الوضع الخطير، والخطأ الذي وقع فيه حسب توقعاته الخاطئة، فقام بتغيير خطته التي تكفل له الانتصار[١٧٠].

وعلى أية حال فقد بدأت المعركة الحاسمة بين القائدين في يوم الجمعة ١٩/ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ الموافق ٢٠ يونية ١٤٠٢م، وقيل في يوم الجمعة ٢٧ ذو الحجة ٨٠٤هـ الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٤٠٢م[١٧١].

قيل بأن جيش تيمورلنك حوالي سبعمائة (٧٠٠) ألف جندي، وجيش السلطان بايزيد الأول حوالي مائة وعشرين (١٢٠) ألف جندي[١٧٢].

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ العثماني إسماعيل حقي بأن جيش تيمورلنك يقدر بمائة وستين (١٦٠) ألف جندي، أما قوات السلطان بايزيد الأول فتقدر بنحو سبعين (٧٠) ألف جندي، وذلك كما ورد في كتاب (فتحنامه) التيموري.

لذلك لم يكن هناك تناسب بين قوات الفريقين، فقد جاء تيمورلنك بقوة كبيرة مجهزة بالدروع الواقية من ما (وراء النهر) أي من أواسط آسيا الوسطى، عندما علم بأن خصمه السلطان بايزيد الأول الذي يتمتع بصفة الشجاعة والإقدام، وبهذه الصورة نرى كثرة أعداد قوات تيمورلنك

(١٦٠) ألف مقاتل، وبصفة خاصة في أعداد الفرسان، إضافة إلى وجود (٣٢) فيلاً في جيشه، مقابل (٧٠) ألف عثماني مقاتل يغلب عليهم كثرة المشاة[١٧٣]، وقيل جيش السلطان العثماني مائة وعشرون (١٢٠) ألف جندي مقاتل، ولكن كان أكثرهم من المشاة[١٧٤]، والباحث يميل للأخذ بهذا القول، إذا كان جيش تيمورلنك مائة وستين (١٦٠) ألف جندي مقاتل.

وفي الحقيقة لا يهمنا أعداد جيش الفريقين كما أوردته المصادر السابقة بقدر ما يهمنا نتيجة المعركة، لتناقض المصادر التاريخية في تحديد عدد الجيشين بدقة لما فيها من مبالغات في تقدير أعداد المقاتلين في كل فريق.

خيانة تشطر الجيش العثماني نصفين :

والجدير بالذكر أنه لما دارت المعركة أوصى السلطان بايزيد الأول قادته بالتضحية والإقدام لإحراز النصر على خصمه، فاقتتل الجيشان قتالاً شديداً أظهر السلطان العثماني خلاله من الشجاعة ما أبهر العقول من قبيل شروق الشمس حتى غروبها، ولكن فرار عساكر فرسان الأناضول من فرق (آيدين ومنتشا وصاروخان والقرمان) وسرعة انضمامهم وانحيازهم إلى صفوف خصمه تيمورلنك، حسب اتفاقهم معه السري السابق، لوجود أمرائهم وأبنائهم وكبار رجالهم في صفوف الجيش المغولي، قيل أنهم كانوا يقدرون هؤلاء المقاتلين بحوالي خمسين (٥٠) ألف مقاتل، لذلك لم يبق مع السلطان العثماني سوى عشرة آلاف جندي انكشاري[١٧٥] والقوات الصربية التي صمدت في القتال، وقد أثبتوا ولاءهم وصدقهم للدولة العثمانية حين ثبتوا في الحرب ضد تيمورلنك، وقاتلوا ببطولة وبسالة شهد لهم تيمورلنك بقدرتهم الحربية[١٧٦]، على أن ذلك النقص لم يثن السلطان العثماني فقد استمر في الحرب والقتال ضد خصمه[١٧٧].

ولكن هذه الخيانة تسببت في شطر جبهتين داخل صفوف الجيش العثماني وبالتحديد في قلب الجيش الذي كان على رأسه السلطان العثماني، وعلى أثر ذلك تشتت الجيش في الميمنة والميسرة، لفقد السيطرة على إدارة المعركة، فانهزم الجيش العثماني أمام قوات تيمورلنك، فاقترح قادة الجيش العثماني على السلطان بايزيد الأول، الانسحاب لإعادة ترتيب الأوضاع كما كان يفعل تيمورلنك، ولكن السلطان رفض الانسحاب وفضل الاستمرار في القتال دون الانسحاب[١٧٨].

ولكن الصدر الأعظم علي باشا وكذلك مراد باشا، وأغا الانكشارية حسن أغا وغيرهم

من كبار قادة الجيش العثماني انسحبوا لعدم تكافؤ القوتين، ولكنهم قاموا بتخليص أولاد السلطان على الرغم من هزيمة الجيش، فأخذوا سليمان الابن الأكبر الذي شاهد الهزيمة ولاذ معهم بالفرار إلى مدينة بروسه (بورصة) ومن بورصة غادر سلميان إلى مدينة أدرنه بالقرب من مدينة القسطنطينية[١٧٩].

وانسحب محمد الأول الذي استطاع بالتدريج من السيطرة على مناطق سيواس وأماسية ومعه جيش الاحتياط، ولحق به أخيه عيسى.

أما مصطفى وموسى فقد بقي مع والدهما ولم ينسحبا كما انسحب أخويهما حتى وقعا في الأسر معه كما سيأتي[١٨٠]. ولاذ بالفرار ملك الصرب وقواته بعد أن رأى الهزيمة التي لا يقوى على مقاومتها مفضلاً مبدأ السلامة[١٨١].

ولو أخذ السلطان بمشورة أصحابه وحاول الانسحاب لتغيير خطته أو طلب الهدنة للتفاوض على الصلح حتى يستطيع أن يعيد حساباته وتنظيم جيشه من جديد لكان هناك قولاً آخر، ولكنه ثبت في مكانه، وفضل أن يموت بشرف في ميدان القتال ولا ينسحب كما أشار عليه قادته[١٨٢].

هزيمة السلطان العثماني :

لهذا انهارت قوته لاستخدامه الشجاعة والقوة دون العمل بالسياسة والكياسة التي اتبعها خصمه تيمورلنك في عدة لقاءات مع السلطان حيث ينسحب ليتجنب القوة العثمانية ومن ثم يقوم بتعديل خطته التي تضمن له الانتصار والسلطان بايزيد يتعقبه من مكان لآخر دون تخطيط لثقته واعتزازه بقوته حتى أرهق جيشه.

وكان بإمكانه الانسحاب أو الهرب من المعركة حسب رأي مستشاريه كما أسلفنا، لكنه رجل عنيد، واصل الحرب رغم هذه الظروف[١٨٣]، لأنه لم ييأس من النصر على خصمه وظن أنه لا زال قادراً على هزيمته بما بقي معه من خواص رجاله فقد صعد بهم على ربوة، كان يقدر عددهم بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان، فهاجم بهم قوات تيمورلنك الذين يقدرون بسبعين (٧٠) ألف مقاتل، وبعد قتال شديد، أحاطه المغول بقوات كبيرة، فأخذ بلطة كانت بيده وانقض بها على الجيش الذي أحاط به وبقواته حتى يتمكن من الهرب فاستطاع فك الحصار الذي ضرب عليه من

قبل تيمورلنك وجنوده بقوة قليلة، وفقت هذه القوة من فك الحصار عن سلطانها وهرب هذه المرة بصعوبة بالغة من حلقة الحصار[١٨٤].

وعندما علم تيمورلنك بخروج السلطان با يزيد الأول من الحصار المضروب عليه، أرسل إليه فرقة تتبعه للقبض عليه، ولما وصلت إليه تلك القوة انقض عليها السلطان للقضاء عليها، فاستمر القتال بين الطرفين حوالي ثلاث ساعات حتى سقط آخر النهار، حين وقع به جواده قضاءً وقدراً، وقبل أن يمتطيه مرة أخرى تم الإمساك به وأسره، حيث نقل إلى تيمورلنك، وكان ذلك في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ الموافق ٢٥ يوليو سنة ١٤٠٢م[١٨٥]، فقابله باحترام وحاول تيمورلنك أن يروح عنه، فقال السلطان له أنت السبب في هذا الوضع! ثم ألبسه تيمورلنك عباءة تليق به، وأمر باتخاذ التدابير والإجراءات لعدم هروبه، وقد أسر معه إبناه موسى ومصطفى، وكذلك أمير الأمراء صاري دمرداش باشا، وعلي بيك وغيرهم من خاصته وظلوا معه في الأسر[١٨٦].

يقول الشاعر في شجاعة السلطان بايزيد الأول وإقدامه والغدر به حين انسحب من جنده فرق الأناضول للانضمام إلى عدوه تيمورلنك وقد سبق أن ذكرنا اتصال تيمورلنك بهم سراً وعاهده على ذلك وقت الحرب بعد أن وعدهم بإعادة إماراتهم هذه الأبيات من القصيدة التالية:

ورابعهم شمس العلا «بايزيد» هم	موافقه في الحرب مرة مطعم
لئن كان مع تيمور ما انقذ القضا	فإن ارتكاب الغدر منشأ التثلم
ولا عجب للأسد أن ظفرت بها	كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربه وحشي اسقطت حمزة الردا	وحتف علي من حسام ابن ملجم[١٨٧]

وبعد انتهاء الحرب بهذه النتيجة سيطر تيمورلنك على الموقف، فأرسل حفيده محمد ميرزا إلى بروسه (بورصة) بقوة تقدر بثلاثين (٣٠) ألف جندي للقبض على الأمير العثماني سليمان بن السلطان بايزيد الأول، ثم أرسل قوة أخرى من الجيش لتعقب القوات العثمانية التي انسحبت من المعركة.

أما تيمورلنك فظل على مشارف مدينة أنقرة لمدة ثمانية (٨) أيام، ثم غادرها إلى مدينة كوتاهية، وأعجبه المكان فمكث فيها شهراً، وفك فيها أبناء علاء الدين القرماني (محمد علي) من السجن، ثم نقلهم ليكونوا تحت نظره في مدينة كوتاهية[١٨٨]، كما أعاد إلى أمراء الأناضول

مناطقهم التي سلبها منهم السلطان بايزيد الأول[١٨٩] وزاد على ذلك تيمورلنك بأن أعطى أبناء القرمان مناطق: قيسرى واشكي شهر وبنو دلقادر، وغيرها من المناطق الأخرى التي كانت في الأصل تتبع للعثمانيين.

وأرسل تيمورلنك خطاب إلى هنري الرابع ملك إنجلترا وشارل السادس ملك فرنسا، يخبرهم عن انتصاره في أنقره، وأنه هزم السلطان العثماني بايزيد الأول، وأسره، الذي لم يمكنهما القضاء عليه في حربهم معه في نيكوبولي[١٩٠]. ففرحت دول أوربا بما وقع للسلطان بايزيد، وقيل أن ملك فرنسا بعث تهنئة إلى تيمورلنك بهذه المناسبة، فأجابه تيمورلنك على التهنئة[١٩١].

والباحث يميل إلى أن أوربا هي التي أرسلت بالتهنئة بعد أن أرسل لهم تيمورلنك فرحاً بنشوة الانتصار، يخبرهم عن انتصاره على السلطان العثماني الذي لم تستطع أوربا مجتمعة الانتصار عليه.

أسباب هزيمة السلطان العثماني أمام تيمور لنك :

إن أسباب هزيمة السلطان العثماني بايزيد الأول أمام تيمورلنك - هو أنهم لم يألفوا حرب الفيلة التي كانت تجيدها قوات المغول، كما كان انسحاب جنود وفرسان امارات الأناضول السلاجقة من جيش السلطان العثماني إلى تيمورلنك لوجود أمرائهم معه بعد أن أمطروا العثمانيين بوابل من السهام في ظهورهم، وبالتحديد على الجناح الأيسر مما أدى إلى خلخلة الجيش العثماني، إضافة إلى عدم انسحاب السلطان بايزيد من المعركة حسب رأي مستشاريه، لتغيير خطته الحربية حسب الأمر الواقع، كما فعل خصمه عدة مرات كما سبق ذكره، بل أصر على مواصلة الحرب، على الرغم من هذه الظروف القاسية، مفضلاً ذلك على الانهزام، تلك العوامل من الأسباب التي عجلت هزيمة الجيش العثماني وجعلته يطلب النجاة[١٩٢]، تاركه خلفها سلطانها لمصيره لعدم استجابته لكبار جيشه ومستشاريه.

وكان علي حسون له رأيٌ، ذكر أن جيوش النصارى التي كانت تحت قيادة السلطان بايزيد الأول لم تدخل المعركة إلا وهي مكرهة[١٩٣]، وقد خالفه المؤرخ العثماني إسماعيل حقي (Ismail Hkki) بأن هؤلاء الصرب الذين كانوا تحت قيادة السلطان قد ثبتوا في القتال ضد تيمورلنك، وقد شهد لهم المغول أنفسهم ببطولتهم وبسالتهم ضده، لكنهم هربوا بعدما انكسر الجيش العثماني وهرب العثمانيون طلباً للنجاة لعدم استجابة سلطانهم للرأي والمشورة كما سبق ذكره[١٩٤].

ولكن لعلَّ علي حسون على حق بأن بعضهم دخل هذه الحرب وهو مكره، ولعلهم كانوا يعلمون مدى التحالف الصليبي بين أوروبا والمغول.

وعلى أية حال فقد سعى هؤلاء الصليبيون قبل تقدم المغول نحو العالم بأن يكون هجومهم معاً في آن واحد، مع العلم أن المغول في ذلك الوقت قد دخلوا الإسلام، إلا أن الصليبيين قد استغلوا الخلاف المذهبي بين العثمانيين السنة، وما كان عليه تيمورلنك من التشيع، فأقنعوه بوسائلهم التي تقدمت بغزو العثمانيين من الشرق، وهم يهجمون عليهم من الغرب للقضاء عليهم[١٩٥].

ولكننا لم نرى للصليبيين هجوم، كما اتفقوا مع المغول، لأن المصادر العثمانية والأوربية لم تذكر عن ذلك شيئًا، بل ذكرت دورهم التحريضي للمغول لغزو الدولة العثمانية بالأساليب التي سبق ذكرها، للخوف الذي أوقعه العثمانيون في قلوبهم في معركة قوصوه ونيكوبولي التي لازالوا يتذكرونها، لذلك لم يتقدموا، ولم يحركوا ساكناً، بل أنهم تحرروا من الحاكم العثماني بعد المعركة.

ومن الأسباب الأخرى والمهمة في هزيمة السلطان بايزيد الأول، هي أنه عندما دخل تيمورلنك الأناضول في سنة ١٤٠٢م من شهر يوليو، وصل أنقرة، وتجول بها مدة طويلة للتعرف على جغرافيتها لاختيار المواقع المناسبة للقتال، وأخذ السلطان بايزيد الأول يتعقبه من مكان إلى آخر، حتى أرهق جيشه التعب، بعكس تيمورلنك الذي وصل مبكراً إلى الأناضول، فاستراح ونظم جيشه وهيأهم للقتال[١٩٦].

وكان على السلطان بايزيد الأول أن يستريح بعد عناء السفر الطويل من (بروسه إلى أنقرة) إلا أنه لم يتوقف، ليستعد لقتال تيمورلنك، ويبدو أن هدف تيمورلنك فيما تقدم من التحركات هو إرهاق خصمه، لما يعرفه عنه من تعجل وخفة عن طريق عيونه في المنطقة، وأيضاً تحاشي المواجهة معه في بعض المواقع التي نرى أن تيمورلنك ينسحب منها لعدم جدوى المعركة فيها، لذلك كان المغولي يسحبه للموقع الذي يناسب جيوشه وهي المواقع المكشوفة، وكان بإمكان السلطان العثماني أن يتنبه لخداع خصمه ودهائه.

ومن الأسباب كذلك فقد كانت الغالبية في جيش السلطان بايزيد الأول من المشاة، أما تيمورلنك فكان أغلب جيشه من الخيالة، وهو أصلح للقتال في الميادين الفسيحة المكشوفة كموقع

هذه المعركة[١٩٧]، الذي اختاره المغولي، وقبل به السلطان العثماني دون أن يفكر في الانسحاب لموقع آخر يناسب رجاله المشاة.

وقد أخطأ كذلك خطأً كبيراً حينما قبل الحرب الميدانية، بدلاً من حرب العصابات مع خصمه تيمورلنك[١٩٨]، كما أن جهل السلطان في اختيار موقع جيشه للقتال ضد تيمورلنك وضعه في موقف حرج من الناحية التكتيكية العسكرية، فقد فيها توازنه القتالي أمام خصمه، إضافة إلى فارق العدد الكبير في الجيش المغولي، في الوقت الذي هرب فيه معظم الجيش العثماني إضافة إلى أبناء أمارات الأناضول وهو في أحلك الظروف، فتركوه لمصيره، والتحقوا بالجيش المغولي لتيمورلنك[١٩٩].

كذلك من الأسباب دخول المغول الإسلام، لذلك كان الجيش الانكشاري تنقصه الحماسة الدينية لحربه ضد إخوانه المسلمين، وقد كانت هذه من العوامل المهمة في انتصاراتهم ضد البيزنطيين، وتلك من أهم الأسباب في هزيمة السلطان العثماني بايزيد الأول أمام المغول[٢٠٠].

وقد كان العثمانيون قبل هذه الحرب ضد تيمورلنك، يتوسعون وينقلون عاصمتهم من مكان لآخر ليقتربوا بها إلى أرض العدو، أما في حربهم ضد تيمورلنك فوجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن قلب دولتهم (غرب الأناضول)، لهذا أصبحت المعركة حتمية، وضعت الدولة العثمانية في موقف حرج للغاية، بسبب عداوتها مع القوى البلقانية المسيحية، والإمارات السلجوقية المسلمة في الأناضول، وهذه من العوامل التي أدت إلى خسارة العثمانيين إضافة إلى ضخامة الجيوش التي كان يقودها تيمورلنك، والذي لم يهزم من قبل[٢٠١]، فكانت معركة أنقره أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى (٤٧٦م - ١٤٥٣م)، وفي هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام العسكريين المسلمين في التاريخ، الكل منهما يريد النصر على الآخر، وكان يقتسمان الأقطار ما بين الصين وبحر الأدرياتيك، ومعهما أبناؤهما، وقيل كانت خسائر تيمورلنك حوالي أربعين ألف مقاتل وهي خسارة لم يسبق له أن تكبدها، رغم انتصاره الساحق في المعركة[٢٠٢].

فموقعة أنقرة كانت ذات أهمية بالنسبة إلى التاريخ العثماني باعتبارها الهزيمة الساحقة الوحيدة التي حلت بالعثمانيين خلال الثلاثة القرون الأولى من تاريخ الدولة، والمرة الوحيدة التي شهدت أسر عاهل من آل عثمان، ولكنها لم تكن من المعارك التي غيرت مجرى التاريخ للمنتصر والمهزوم على حد سواء[٢٠٣].

فالدولة العثمانية كانت تفتقد إلى كل ما يجعل منها دولة في الوقت الذي لم يدرك فيه السلطان بايزيد الأول الاتجاه الحقيقي لإقامة الدولة، فهي دولة غزاه تحارب الكفار، لذلك اتجهت منذ نشأتها الأولى نحو الغرب للفتح ونشر الإسلام، ولكن السلطان بايزيد الأول نراه أخطأ في الاتجاه الحقيقي للدولة، عندما ترك نهج أسلافه في الخط الذي رسموه للدولة واتجه إلى الشرق الإسلامي، لضم دول إسلامية - الإمارات السلجوقية في الأناضول - وكانت هذه الدول كثيرة العدد، وعلى جانب كبير من النفوذ، وغير راضين عن سياسة السلطان العثماني، وتدخله في شؤونهم، دون مراعاة لظروف المنطقة القائمة آنذاك، مخالفاً في ذلك سياسة أسلافه في الفتح، وكان عليه أن يكسبهم في صفه ضد البيزنطيين والمغول، ولكن السبب يعود إلى أن (مارياد سبينا) والحزب المسيحي في البلاط السلطاني كان لهما الأثر الكبير في توجيه السلطان نحو الشرق الإسلامي لضم الدول الإسلامية وتوحيدها، وكان الهدف من ذلك هو صرف السلطان عن أوروبا وعن نهج أسلافه[٢٠٤]، وقد نجحوا في ذلك عندما أدى ذلك الاتجاه إلى الاصطدام بتيمورلنك وكارثة أنقرة كما سبق[٢٠٥]، وتعد هذه كذلك من العوامل المهمة في هزيمة السلطان العثماني أمام تيمورلنك، لتركه نهج أسلافه في الغزو نحو أوروبا كما أسلفنا من قبل والاتجاه نحو إخوانه المسلمين في العالم الإسلامي، وتلك الأعمال عجلت بسقوطه للأخذ بمشورة أعدائه.

على الرغم من أن السلطان بايزيد الأول قد تهيأ له ما كان مطمع أنظار العثمانيين منذ زمن الغازي عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية، وهو فتح القسطنطينية[٢٠٦]، إلا أن سياسة التسرع في الفتح التي اتخذها السلطان بايزيد الأول، مخالفاً فيها أسلافه الذين كان شأنهم شأن الفاتح الحكيم الذي لا يكتفي بفتح البلاد، وضرب الذلة على سكانها، بل كانوا يستريحون بضع سنين من عناء الفتح، ليعيدوا ترتيب جيوشهم، ويوطدوا أركان بلادهم المفتوحة مع البلاد السابقة للربط فيما بينهما لنشر العلم والعدل والسلام، ثم بعد ذلك يتطلعون إلى فتح جديد نحو أوروبا[٢٠٧]، لذلك نرى هذا السلطان لم ينهج هذا النهج بل كان يتخبط في حروبه نحو الشرق والغرب[٢٠٨]، ومن أجل ذلك كسب عداوة المسلمين قبل الصليبيين وهذه من الأسباب كذلك التي عجلت بهزيمته أمام المغول.

فتيمورلنك ما كان يهدف إلى غزو المدن العثمانية، بل إن اتجاه السلطان بايزيد الأول نحو الشرق لتوحيد إمارات الأناضول، ودولة المماليك في مصر هي التي أثارت حفيظة تيمورلنك، ودفعته دفعاً للغارة على السلطان العثماني[٢٠٩].

وفي الحقيقة كانت الضربة قاسية على الدولة العثمانية، ولكن ما خفف منها هو أن تيمورلنك لم يكن يرغب في الاستيلاء على الأناضول بقدر ما أرهبه الفارين إليه من أمراء الإمارات السلجوقية التي استولى عليها السلطان بايزيد الأول، لذلك أراد وقف الزحف العثماني نحو الشرق لحماية حدوده من العثمانيين، ثم بعد ذلك عاد إلى سمرقند للاستعداد لغزو الصين[٢١٠].

وعلى الرغم من تدخل تيمورلنك في الأناضول لفترة قصيرة، فإن نتائج هذا التدخل قد حطمت قوة الدولة العثمانية، وأخر فتح القسطنطينية، وحماها من الانهيار لمدة نصف قرن[٢١١].

لذلك تعد معركة أنقرة في التاريخ العثماني إحدى الكوارث التي أصابت الدولة العثمانية في مقتل، وأطالت عمر البيزنطيين والقرون الوسطى خمسين (٥٠) سنة، بالإضافة إلى أنها أخرت وحدة الأناضول حوالي سبعين (٧٠) سنة، حتى أن السلطان سليم الأول لم يتمكن من ضم بعض الأراضي التي كانت في عهد السلطان بايزيد الأول أراضي عثمانية إلا بعد مائة وخمسة عشر (١١٥) سنة من معركة أنقرة[٢١٢].

وعلى كل حال فقد كانت نهاية السلطان بايزيد الأول نهاية حزينة وغير سعيدة في نهاية الموقعة، ولكن تيمورلنك لم يقتل أسيره، بل استقبله استقبالاً يليق بمكانته كسلطان دولة، وفي رواية أخرى قيل أهانه بعد أن شرع في الهرب ثلاث مرات[٢١٣]، بعد أن كانت هناك بعض المحاولات التي قام الأمير محمد ابن السلطان بايزيد الأول، لتخليص والده من الأسر، إلا أنها باءت بالفشل، ولكن لا يعرف مدى صحة هذه الرواية، وكيفية تنفيذها، وإن كانت المصادر التاريخية البيزنطية والعثمانية لم توضح هذه المحاولات[٢١٤].

وعلى الرغم مما قيل فقد عاش السلطان بايزيد الأول في الأسر مدة سبعة (٧) شهور واثني عشر (١٢) يوماً، وكانت هذه الهزيمة هي السبب في موته كمداً وهو في الأسر سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م، وصرح تيمورلنك لابنه موسى بأن يدفن في مقابر سلاطين آل عثمان في بروسه (بورصة)، وهذا يؤكد على حسن معاملة المغولي لأسيره[٢١٥].

وقد دامت سلطنته حوالي ثلاثة عشر (١٣) سنة، وشهر واحد وثمانية (٨) أيام، وقد توفي وعمره ثلاثة وأربعون (٤٣) سنة[٢١٦].

وبعد هذه المعركة نعمت أوربا براحة وخاصة بعد نشوب الصراع بين أبناء بايزيد الأول، فقد تحررت من دفع الجزية التي كانت تدفعها للدولة العثمانية طوال فترة هذا الصراع[٢١٧]، وهذا ما سوف تناولته في بحث مستقل باسم « فترة فاصلة في الدولة العثمانية ».

الهوامش

١- عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الإسلامية، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٣م، ص ٣٤ ـ ٣٥.

٢- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الثانية، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٣٧، عبد العزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص ٣٥.

٣- مؤلف مجهول : سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد : مخطوط، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى تحت رقم ٦٧٥ لوحة ١٦ ـ ١٧، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٥١، محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م، ص ٣٥.

٤- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الثانية، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٣٧.

٥- زبيده عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى، الناشر، دار الفكر العربي، ص ١٧٢.

٦- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٧.

٧- إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، الطبعة الأولى، مطبعة عموم الأوقاف، ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ص ٤٧.

٨- وقيل « أوليفرا » وقيل اسمها « ماريا » ـ انظر محمد فريد بك : المصدر السابق، ص١٣٧، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١.

٩- محمد أديب آل تقي الدين الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق، تقديم كمال سليمان الصليبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج١، ص ٢١٤، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الثالثة، بيروت. المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٠.

١٠- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، الطبعة الثالثة، دمشق. دار الطباعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص ٤١.

١١- بيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٢.

١٢- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٥.

١٣- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، الطبعة الأولى، مصر، طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق، ١٣١٢هـ، ج١، ص ١٣٧، إسماعيل ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الأولى، الناشر مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٤٠، الحصيني : منتخبات

التواريخ لدمشق، ج١، ص ٢١٤.

١٤- إسماعيل ياغي : المرجع السابق، ص ٤٠.

١٥- الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق، ج١، ص ٢١٤.

١٦- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥. .

١٧- زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ٣٥. Moss Baynes : Byzantium, Ox Ford, 1962, p. 81 - 82

١٨- محمد أنيس المرجع السابق، ص ٣٥.

١٩- فيلادلفيا : تقع غرب الأناضول إلى الشرق من مدينة أزمير الحالية باسطنبول. انظر : محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٣٧. حاشية رقم (١).

٢٠- إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ص ٤٩٥، الحصيني : منتخبات التواريخ لدمشق، ج١، ص ٢١٤.

٢١- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥.

٢٢- محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة، الطبعة الأولى، الناشر دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٢١.

٢٣- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥.

٢٤- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٥ ـ ٣٧.

٢٥- تقع في جنوب غرب تركيا جنوب فيلادلفيا. انظر : محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٧، حاشية رقم (٢).

٢٦- جنوب آيدين على بحر إيجه. انظر : محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٨، حاشية رقم (١).

٢٧- شمال أزمير على بحر إيجه. انظر : محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ١٣٨، حاشية رقم (٣).

٢٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١.

٢٩- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٧.

٣٠- تقع في شمال الأناضول، على بعد نحو (١٠٠) كيلو متراً عن البحر الأسود. انظر محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٣٨، حاشية رقم (٣).

٣١- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٧ ـ ١٣٨، الحصيني : المصدر السابق، ج١، ص ٢١٤.

٣٢- يلمار أوز تونا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة : عدنان محمود سليمان، تركيا، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨م، ج١، ص ١٠٣.

٣٣- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٧.

٣٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١.

٣٥- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩.

٣٦- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩، أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص٥١، الحصيني : المصدر السابق، ج١، ص ٢١٥.

٣٧- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ج٢، ص ٤١ ـ ٤٢، الحصيني : المصدر السابق، ج١، ص ٢١٥.

٣٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢.

٣٩- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٨.

٤٠- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩، محمد أنيس : المرجع السابق، ص ١٣٨.

٤١- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢.

٤٢- يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ج١، ص ١٠٤.

٤٣- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢، محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٨

٤٤- أحمد تشلبي القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسّام عبد الوهاب الجابي، الطبعة الأولى، دمشق، دار البصائر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص ١٨ ـ ١٩.

٤٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٣.

٤٦- سيواس وتوقات : مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا حالياً. انظر : محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٣٩، حاشية رقم (٤).

٤٧- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩.

٤٨- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة : إشراف وتقديم إكمال الدين إحسان أوغلي، ترجمة، صالح سعداوي، الناشر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩م، ج١، ص ١٨.

٤٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢.

٥٠- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة : المصدر السابق، ج١، ص ١٨، محمد فريد بك : المرجع السابق، ص ١٣٩ - ١٤٠.

٥١- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٣.

٥٢- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

53- Solomn, Modell, Ahistory of the Weaskern world, vol, 1 Newjersex, prentice hall, 1974, p. 497 – 498

أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص٥٣ - ٥٥.

٥٤- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

٥٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٥.

٥٦- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٠.

٥٧- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٩، محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩.

٥٨- أحمد تشلبي القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٨ - ١٩.

٥٩- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

٦٠- مدينة صغيرة شمال تركيا على ساحل البحر الأسود. انظر : علي حسون، المرجع السابق، ص٢٠، حاشية رقم (٥).

٦١- مدينة تقع في الأناضول وهي تعد عقدة مواصلات برية مهمة. انظر : علي حسون، المرجع السابق، ص ٢٠، حاشية رقم (٦).

٦٢- تقع إلى الجنوب الغربي من سامسون. انظر : محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ١٢٠، حاشية رقم(١).

٦٣- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣٩ - ١٤٠.

٦٤- محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٣٩.

٦٥- سالونيك : عاصمة مقدونية اليونانية وثاني كبرى مدن اليونان على خليج يعرف باسمها. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣، حاشية رقم (١).

٦٦- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص١٨.

٦٧- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠.

٦٨- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٣.

٦٩- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس منير البعلبكي، الطبعة السادسة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤م، ص ٤١٩.

٧٠- أحمد شلبي : التاريخ والحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، الناشر مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م، ج٥، ص ٤٨٦.

71- Nor man, I. Ottoman Empire and Islamic Tradition, New York, Alrted, A. Knop, 1972, p. 14 – 15.

٧٢- Norman, Ibid, p. 15 محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٠، يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ص ١٠٧، أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، الطبعة الأولى، الكويت، دار الوثائق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٨ .

٧٣- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٥.

٧٤- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦ ـ ١٠٧، عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٥.

٧٥- كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص ٤١٩، Nor man, I pid, p. 15.

٧٦- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص١٩.

٧٧- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص٤٤.

٧٨- هذا القائد كونت نيفر، هو ابن ملك يورغانيا والتي تقع حالياً في وسط فرنسا من الشرق. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤، حاشية رقم (١).

٧٩- يورغونيا : كانت ولاية عظيمة في شرق فرنسا، مستقلة لم يكن لملوك فرنسا عليها سوى السيادة، وحق طلب الجنود عند الضرورة منها. انظر : محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١٤١، حاشية رقم (١).

٨٠- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٣ ـ ١٤٤، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤.

٨١- بسام العسلي : الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، بيروت، دار النفائس، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

٨٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤، Rosetli, The Battle, Ofnicoplis, p, 619.

83- Recueil des, Historiensdes Groisades publ, Academicdes, Iuscriptions etbellsletters, paris, 1841 – 1905, p. 609. زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٧٥.

٨٤- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧.

٨٥- يوسف آصاف : المصدر السابق، ص ٤٤، علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٠.

٨٦- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ص ١٠٧.

٨٧- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٤.

٨٨- نيكوبلي : نيكوبول : [Nikopol] مدينة تقع في شمال بلغاريا على الحدود الرومانية. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥، حاشية رقم (١).

٨٩- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤.

٩٠- بسام العسيلي : المصدر السابق، ص ٥٠.

٩١- هذه الحركة : اشتهر بها الجيش العثماني منذ تأسيسه.

٩٢- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧، بسام العسيلي : المصدر السابق، ص٥١ - ٥٢.

93- George Ostrogorsky ; History of The Byzantine state Translated to English by joan Hussey, Oxford, Basil, Black Well, 1968, p. 546، كارل بركلمان : المرجع السابق، ص ٤١٩. محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤، يوسف آصاف : المصدر السابق، ص ٤٥.

94- George : Ibid. ٤٥، يوسف آصاف : المصدر السابق، ج١، ص ٤٥.

٩٥- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٧ - ١٠٨.

96- The Cambridge, History, of Islam, vol, 1, Cambridge, 1970, p. 285 إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٤٨، زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٥.

٩٧- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج١، ص ١٩.

٩٨- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٨.

٩٩- قيل إن السلطان با يزيد الأول لما أطلق سراح الكونت دي نفر، كان قد ألزمه بالقسم أن لا يعود لمحاربته مرة أخرى، ولكن السلطان قال له : « إني أجيز لك أن لا تحتفظ هذا اليمين، فأنت في حل من الرجوع لمحاربتي، إذ لا شيء أحب إليّ من محاربة جميع مسيحي أوربا والانتصار عليهم»، انظر : محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤.

١٠٠- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥، محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٤.

١٠١- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٨.

١٠٢- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٥. George Ostogorsky : op, cit, p 493

١٠٣- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج١، ص ١٩.

١٠٤- سالم الرشيدي : محمد الفاتح، الطبعة الثالثة، الناشر دار الإرشاد، جدة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص ٣٣.

١٠٥- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٦. George Ostrogorsky : Ibid, p. 493

106- Hussey, J : The Byzntine World, Now, York 1957, p. 282 - 283
زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٦ ـ ١٧٩.

١٠٧- سالم الرشيدي : محمد الفاتح، المرجع السابق، ص ٣٣.

١٠٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٢.

١٠٩- إسماعيل ياغي : المرجع السابق، ص ٤٢ ـ ٤٣.

١١٠- ستانلي بول : الدولة الإسلامية، القسم الثاني، ترجمة محمد صبحي فرزات، مطبعة الملاح، دمشق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦.

١١١- أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومقدماته، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م، ص ٤.

١١٢- كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص ٤٢.

١١٣- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٤٩.

١١٤- أحمد فؤاد متولي : المرجع السابق، ص ٤.

١١٥- محمد حرب : المرجع السابق، ص ٢١.

١١٦- أحمد مصطفى عبد الرحيم : المرجع السابق، ص ٥٥.

١١٧- محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، الطبعة الثالثة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج١، ص ٥٥٢ - ٥٥٣، Ismail Hkki Uzunc Osmanli Arsili; Tarihi, 5 Baski, I Gilt, Istanbul, 1988, s, 300.

١١٨- يلماز أوزتونا : المصادر السابق، ج١، ص ١٠٦، ابن إياس : المصدر السابق، ج١، ص ٥٥٢.

119- Ismail Hakki : a. g. e, s. 300.

120- Ismail Hakki, a. g. e, s, 300.

١٢١- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٦.

١٢٢- ابن إياس : المصدر السابق، ج١، ص ٥٥٢.

١٢٣- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ص ١٨.

124- Ismail Hakki, a. g. e, s, 304 - 305.

125- Mehemet Zeki Pakalin : Osmanli Tarih Deyimleri, s, 443 – 444.

١٢٦- أحمد فؤاد متولي : المرجع السابق، ص ٤، ٩، ١٠، عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص٣٦، aynieser, s, 444.

١٢٧- محمد حرب : المرجع السابق، ص ٢١.

128- Ismail Hakki : a. g. e, s, 304, 305.، عبد العزيز نوار : المرجع السابق، ص ٣٦

١٢٩- إن الإشاعات التي تقول بأن السلطان بايزيد الأول كان يشرب الخمر والعربدة غير صحيحة، بل كلها لا ترقى إلى الصحة، ولا تروق لأذهان الشعب على أية حال، وقد نعت بذلك من قبل أعدائه، بل الرجل كان لديه خفة وشجاعة – انظر : Mufassal Osmanli Tarihi, s, 214.

١٣٠- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٥.

131- Ismail Hakki, a. g. e, s, 305.

١٣٢- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٤٩.

133- John Hearssy : City of Constantine, Britan, 1880, p, 283

محمد فريديك : المصدر السابق، ص ١٤٤. يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦.

١٣٤- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٨.

١٣٥- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج١، ص ١٩.

١٣٦- المرجع السابق، ج١، ص ١٩.

١٣٧- الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، محمد حرب : المرجع السابق، ص ٢٢.

١٣٨- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦. Solomon Modell, A History of The Weastern World, 2 vollumes, Newjersey, Prentice hall, 1974, p, 497.

١٣٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٥.

١٤٠- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٦، زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٧.

١٤١- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٦ – ٥٧.

١٤٢- أحمد الجلاتري : هو آخر الجلاترين في بغداد، وهو الذي استعاد مدينة بغداد من تيمورلنك عام ٧٩٧هـ، وولي عليها الوالي فرج، ثم عاد تيمورلنك واستعاد بغداد في شهر ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ، بعد مذبحة عامة، مما جعل أحمد جلاتري يلجأ إلى السلطان بايزيد الأول كما أسلفنا. انظر : يوسف آصاف: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧.

١٤٣- القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٩.

144- Ismail Hakki, a. g. e, s, 306.

١٤٥- القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٩.

146- Ismail Hakki, aynieser, s, 306.

١٤٧- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٧، علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٣.

١٤٨- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢١.

١٤٩- عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الإسلامية، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٣م، ص ٢٦ – ٢٧.

١٥٠- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

١٥١- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

١٥٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٧ – ٥٨.

١٥٣- كارل بروكلمان : المرجع السابق، ص ٤٢٠.

١٥٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

١٥٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٥٨.

١٥٦- يلماز تونا : المصدر السابق، ج١، ص ١٠٩.

١٥٧- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ص ١٠٩.

١٥٨- القرماني : المصدر السابق، ج١، ص ١٩.

١٥٩- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

160- Runicman. S:History of the Crusades, 3 vols, Cambride,1954, p, 55 - 56.، يلماز اوزتونا : المرجع السابق، ج١، ص ١٠٩ – ١١٠.

161- Ismail Hkki : a. g. e. s, 306. يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

١٦٢- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص٥٧.

163- Ismail Hkki : a. g. e. s, 306 – 308.

164- J. A. Rmarriott : Dictatorship, and Democrcy, p. 68 - 89، يوسف آصاف :

المصدر السابق، ج٢، ص ٤٧، علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٢، Ismail Hkki : aynieser, p, 306.

١٦٥- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٦.

١٦٦- فمن معاملته السيئة لأسراه أنه عندما فتح (سيزاوار) بنى فيها برجاً من أجساد محاربيه وأنه أخذ ألفين من الرجال الأحياء ثم وضع بعضهم فوق بعض نظير الحجارة، وبناهم بالطين واحداً فوق الآخر، وفي واقعة سيواس أخذ فرسان الأرمن وأحنى رؤوسهم بين أرجلهم وألقاهم في خنادق واسعة وردمهم بالتراب. انظر : يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦، وإذا كان لي تعليق على هذه المعلومات فأعتقد أن هذا الكلام مبالغ فيه لا يصدقه العقل.

١٦٧- يوسف آصاف : المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦، Ismail Hkki, a. g. e, s, 309.

168- Ismail Hkki, op, cit, s, 309. aynieser, s, 309 .

169- Ismail Hkki, aynieser, s, 309 – 310 .

170- Ismail Hkki, Ibid, s, 310. aynieser,s, 310 .

١٧١- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠، Ismail Hkki, aynieser, s, 311.

١٧٢- إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠.

173- Ismail Hkki, a. g. e, s, 311 .

١٧٤- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

175- Modell solomon : Ahistory of the Western Warld, vol, 1, p, 497، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ج١، ص ٤٩٦.

176- Modell Solomon : I, p, 497, Ismail Hkki, a. g. e, s, 313 : إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ج١، ص ٤٩٦.

١٧٧- محمد حرب : المرجع السابق، ص ١٣١.

178- Modll Solomon, Ibid, 494 - 497. ، إبراهيم بك حليم : المصدر السابق، ص ٥٠

179- Osmanlia Nsikloped Disi, Tarih, Medeniyet, Kultur, p, 174, Turkiye Diyanet Vakfi Islm, Ansiklope Dedisi, Cilt, Istanbui, 1995, p, 480.

180- Osmanlia Nsik lopedisi, Tarih, Medeniyet, Kultur, p, 174.

181- Ismail Haki, a. g. e, s, 314.

182- Ismail Hkki, aynieser,s, 314. ١٣١ ، محمد حرب المرجع السابق، ص

١٨٣- محمد حرب : المرجع السابق، ص ١٣١.

184- Ismail Hkki, aynieser,s,314, Modell Solomon, op, cit, p, 497 إبراهيم بك حليم، : المصدر السابق، ص ٥٠.

185- Osmanlia Nsiklopedisis, Tarih, Medeniyet, Kultyr, p, 174، إبراهيم حليم بك : المصدر السابق، ص ٥٠، Modell Solomon,op,cit,p,497-498، Ismail Hakki, a. g. e,s, 315.

186- Osmanlin Nsiklopedisis, Ibid, p, 174, Turkiye Diyanet Vakfi Islm, op, cit, 480.

١٨٧- محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، الطبعة الأولى، الناشر مطبعة المقتطف، مصر، ١٣١١هـ، ج٥، ص ٤٧.

188- Ismail Hakki, a. g. e, s, 315.

189- Osmanlia Nsiklopedisi, Medeniyet, Kultur, p, 174.

190- Ismail Hakki, aynieser, s, 315.

١٩١- أحمد جودت : المصدر السابق، ج١، ص ٤٠، Normn. I. Ottoman Empire and Islamic tRadition, Newyork, 1972, p, 25 - 26.

١٩٢- محمد حرب : المصدر السابق.

١٩٣- تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٣.

194- Osmanli Taihi, op, cit, p, 313.

١٩٥- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٣.

١٩٦- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

١٩٧- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٨، Runicman. S., op, cit, p, 56.

١٩٨- يلماز أوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

١٩٩- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧٨.

٢٠٠- أحمد شلبي : المرجع السابق، ج٥، ص ٤٨٧.

٢٠١- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٧.

٢٠٢- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١٠.

٢٠٣- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

٢٠٤- أحمد عبذ الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

٢٠٥- أحمد جودت : المصدر السابق، ج١، ص ٤٠، أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص٥٨-٥٩.

٢٠٦- أحمد جودت : المصدر السابق، ج١، ص ٤٠.

٢٠٧- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٣١.

٢٠٨- علي حسون : المرجع السابق، ص ٢٤، Norman, I, op, cit, p, 25.

٢٠٩- أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٥٨.

٢١٠- عبد العزيز سليمان نوار : المرجع السابق، ص ٣٨.

٢١١- زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ٧٩، يلماز اوزتونا : المرجع السابق، ج١، ص ١١١، The Cambridge, History, of Isiam, voi, I, p, 279.

٢١٢- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ١١١.

٢١٣- سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد : المصدر السابق، ورقة ١٧، إسماعيل سرهنك : المصدر السابق، ج١، ص ١٩٦، أورخان محمد علي : المرجع السابق، ص ١٨.

214- Ismail Hakki, a. g. s, 315.

٢١٥- محمد فريد بك : المصدر السابق، ص ١٤٧.

٢١٦- يلماز اوزتونا : المصدر السابق، ج١، ص ٥٨.

217- George Ostrogor Sky, op, cit, 496.

د. محمد قائد حسن الوجيه(*)

المطرفية الزيدية في اليمن

ظهورها في القرن الخامس الهجري ومعتقداتها

وقضاء الإمام عبد الله بن حمزة عليها

أهم عناصر البحث:

أولاً: نشأة الفرقة المطرفية وإلى من تنسب:

ثانياً: جهود المطرفية لإقامة هجرهم ونشر أفكارهم:

ثالثاً: صراع المطرفية مع الزيدية المخترعة (التقارب والاختلاف):

رابعاً: صراع المطرفية مع الإمام أحمد بن سليمان واستخدام المناظرات للحسم:

خامساً: خلاف المطرفية مع الإمام عبد الله بن حمزة واستخدام السيف للحسم:

سادساً: أهم معتقدات المطرفية:

سابعاً: القضاء على المطرفية نهائياً من قبل الإمام عبد الله بن حمزة:

* أستاذ مساعد بقسم التاريخ - كلية التربية- جامعة صنعاء.

أولاً: نشأة الفرقة المطرفية وإلى من تنسب:

استمر زيدية اليمن فِرْقَة واحدة تتبع الهادي في الأصول والفروع، حتى ظهر الخلاف والشقاق بين علمائها[١]، فانقسمت الزيدية[٢] نتيجة لذلك إلى ثلاث فِرَق هي: المطرفية، المخترعة، الحسينية، وقد اختلفت المصادر في تحديد زمن ظهور هذه الفِرَق، فذهب البعض إلى تحديد زمن انقسام الزيدية إلى مطرفية ومخترعة[٣]، إلى عهد الإمام القاسم بن علي العياني(٣٨٨-٣٩٣هـ/٩٩٨-١٠٠٢م)[٤] ،وإذا كانت اليمن قد استقبلت العديد من المذاهب الوافدة، ومزجت بعضها بطابعها الإقليمي الخاص، ومنحته السمة والشخصية المتمايزتين، فإنها أفرزت بعض المذاهب ذات الطابع المحلي، مثل: الحسينية والمطرفية، وهما فرقتان انشقتا عن المذهب الزيدي، ومن ثم فقد ولدا في اليمن وتلاشيا على مسرحها دون أن يفطن أحد في العالم الإسلامي إلى وجودهما، ولمّا كانت هاتان الفرقتان تتميزان بالطابع المحلي الخالص فإن المصادر عنهما ظلت محصورة داخل المصادر اليمنية[٥]، ولعل قول يحي بن الحسين هو الأرجح، إذ أن مطرف بن شهاب الذي تنسب إليه المطرفية كان قد بايع الحسين بن القاسم العياني بالإمامة الذي تولاها سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، واستمر إماماً حتى مقتله سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م بل إن مطرف سيشارك في الحروب التي خاضها الإمام الحسين بن القاسم ضد أعدائه[٦]، لكنه رجع عن القول بإمامة الحسين بن القاسم[٧] ،عندما صدر عنه الآراء والأقوال التي عارضها المطرفية.

ومما يؤيد هذا الرأي ظهور العديد من العلماء المخترعة الذين تصدوا للمطرفية زمن الإمام الحسين بن القاسم أو بعد مقتله، فمن علماء المخترعة الذين ترجم لهم ابن أبي الرجال في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، واشتهروا بالرد على المطرفية :الفقيه إسماعيل بن عُلا الذي عاصر الإمام القاسم العياني، وتصدى للمطرفية، وألّف العديد من الرسائل رداً عليهم[٨]،أما الحسينية فقد ظهرت في عهد الإمام الحسين بن القاسم، واستمرت بعد وفاته وأخذت بآرائه.

مؤسس فرقة المطرفية[٩] علي بن حرب، أحد كبار علماء الزيدية في ريدة[١٠]،وعنه أخذ علماء المطرفية، وفي مقدمتهم مطرف بن شهاب[١١]، الذي تنسب إليه هذه الفرقة[١٢]، وقد تباينت الآراء حول نشأة المذهب المطرفي حيث يذكر عبد الله العنسي عن زمن ومكان ظهور المطرفية قائلا:"إن الزيدية قد طبقت الآفاق شرقا وغربا ، وهذا المذهب..مذهب المطرفية لا يُسْمَع إلا في هذه البلاد من حدود بلاد بني شريف إلى نقيل صيد طولاً ،ومن بلاد بني جبر إلى عنس عرضا ، وما عدا

ذلك لا يعرف فيه اسم المطرفية ..دُوْن الوقت الأول الذي هاج فيه مذهبهم.. وقد روي أن القوم إنما أتوا من قبل الباطنية، وإلا فقد كانوا زيدية، وكان حدوث مذهب المطرفية بعد الخمسين وأربعمائة سنة للتاريخ المبارك، وكان..إذا أُحضِرَ الواحد منهم بين يدي الشيخ يحي بن عمار وناظره قال: لما تناظرني على مذهب أنا أكبر منه سنا"[١٣]،كما تباينت الآراء أيضا عن مؤسس المذهب المطرفي فقال البعض أن المؤسس الحقيقي لهذ المذهب هو أحد مفكري الباطنية، بناحية الأهنوم، وكان قد تظاهر باعتناق المذهب الزيدي، واستطاع بحيله البارعة أن يستغل بساطة العامة في التأثير عليهم وإقناعهم بآرائه ومعتقداته، ويقال أنه رأى يوماً حبة شعير نبتت في جانب مسجدهم داخل الجدار، فسألهم هل يجوز لأحد أن يخدش المسجد؟ فقالوا: لا يجوز ذلك، قال ولِمَ؟ قالوا:لأن هذا قبيح، لو زاد الخَدْش لَخَرِبَ المسجد، وخرابه قبيح، فتركهم أياماً ثم سألهم ما تقولون في هذه الحَبَّة؟ ألم تخدش جدار المسجد؟ قالوا: نعم، قال: أهذا قبيح أم حسن؟ قالوا: هذا حسن-بناء على ما كانت عليه الزيدية من المذهب الصحيح- قال: ألم تقولوا بالأمس إن خدش المسجد قبيح؟ وما زال يحاورهم ويناورهم، وكثُرت المناظرات، وأن الله تعالى لا يفعل القبيح، ثم وصل بهم إلى النتيجة التي يريدها، وهي أن هذا النبات ليس من خلق الله، وإنما هو حاصل من المواد والطبائع.[١٤]

كانت بداية افتراق المطرفية عن الزيدية المخترعة ما حدث من المناظرات بين رجلين من الزيدية الأول علي بن شهر، والآخر علي بن حرب[١٥].

ولَمّا اشتدت المناظرات بين الرجلين كان لكل واحد منهما اتباعه ومؤيدوه، "فصاروا فرقتين، فتعصب أولئك على شبهتهم، واستندوا إلى زهادهم ولم يجدوا أزهد من مطرف، فتبعوه وتسموا بالمطرفية بأنفسهم، وبقي المسلمون على بصيرتهم يقولون نحن زيدية التزاما بمذهب العترة الطاهرة الزكية، الذين هم بعد المنصوص عليه زيد بن علي"[١٦]،ولم يزل مطرف ينشر آراءه بين أتباعه إلى أن اكتملت لديهم الصورة الكاملة عن القول بالأصول والإحالة والفطرة والتدبير والطرد والعكس وغير ذلك من الأمور التي صارت تدل على هذا المعتقد الجديد[١٧].

من الصعوبة تحديد زمن دقيق لبداية انتشار المطرفية وإن كان المرجع ظهوره زمن الإمام الحسين بن القاسم العياني،أو بعد وفاته -كما سبق القول-فعبد الله بن حمزة يذكر أن أول من تصدي للمطرفية هو الشريف زيد بن علي بن الحسين[١٨]، ويصف مسلم اللحجي بأن زيد بن علي بن الحسين هذا كان من متكلمي المخترعة، ومعلوم أن اسم المخترعة لم يُطلق على الزيدية إلا بعد

الخلاف بين علي بن حرب وعلي بن شهر، وهما من معاصري مطرف بن شهاب، كما يَذكر أحد علماء الزيدية ودعاتها أن الشريف زيد بن علي بن الحسين رَدَّ على مطرف بن شهاب.[١٩]

كان مطرف بن شهاب يسكن في بيت حُنْبُص[٢٠] ، ثم انتقل إلى سِنَاع[٢١]، فابتنى بها هِجْرَة[٢٢]، ومسجداً ومطاهر[٢٣]، واتخذها مركزاً لتجميع أصحابه، ونشر معتقداته، فأظهر العبادة والطهارة، والزهد، واستدعوا الناس إلى الدراسة، فأقبل إليها كثير من الدارسين والعلماء[٢٤]، فأقيمت المناظرات فيها، بين المخترعة والمطرفية من الزيدية، فيذكر مسلم اللحجي أن علي بن حرب أقنع عليان بن سعد بالتوجه معه إلى سِنَاع، فلما وصلها قال:"فأتينا سِنَاع وبها المشائخ الذين من الطراز الأول فلم أحتج مع النظر إليهم وإلى ما هم عليه من الديانة، وإلى حسن ترتيبهم فيها إلى دليل على فضلهم، وتيقنت أنهم الناس، ثم طالبتهم على ما يعلمون، ويتعلمون من الاعتقاد بالأدلة، فأتوا بما لا مزيد عليه من البرهان، ولا شك معه في البيان، فانقطعتُ إليهم بعد ذلك، ورفضتُ أهلي ووطني إلا من الزيارة في الحين والحين"[٢٥]، ومن سناع انتقل الفكر المطرفي إلى أماكن أخرى في اليمن.[٢٦]

وعن زهد المطرفية وما وصلوا إليه من العبادة يقول عبد الله بن زيد العنسي:"...وهم أعني المطرفية أكثر من رَجَعَ إلى الحق على يدي من الفِرَق البدعية.. وأعانني على ذلك ما كانوا عليه من الخوف لباري البرية، وكثرة الخضوع له في الجهر والخفية.. إلا أن ما حملهم على التعصب على مذاهبهم.. ما هم عليه من التشدد والحمية والتقليد لمشائخهم البدعية، وتحسين الظن بهم لما يرون عليهم من آثار التزهدات الجلية والخَيِّرَة منهم، لمخافتهم له في السر والعلانية".[٢٧]

أما الحسن بن زيد ومحمد بن حميد اليرسمي فقد دخلا سناع "وكانا يومئذ يعتقدان بالاختراع، قال: فكانا يأتيان أشياخ الزيدية في سناع، ويتعرفان على ما هما عليه، وفي يوم امتد بهما الكلام..في مسجد سناع حتى غَرُبَت الشمس..فقال الحسن لا أروح حتى أفرغ من هذه المسألة.. وعادوا إلى الكلام، فانقطع الحسن وسلم للمشايخ..ثم انتقل إلى سناع، وانتقل معه ابن حميد، وأتقن الحسن التدريس ورسومه"[٢٨] ،أما نهد بن الصباح فظل يناظر مطرف بن شهاب أربعين يوماً في فنون العلم ومسائل الدين[٢٩].

ونتيجة لهذه المناظرات بين المطرفية والمخترعة أخذت سناع شهرة علمية واسعة نتيجة لتوجه العلماء والطلاب إليها ،حتى قال مسلم اللحجي:"فكان ذلك مما ازدادت به شهرة الموضع عند الناس بالعلم والعبادة،والتعليم، فَقُصِد من كل جهة وحيّ"[٣٠].

ثانياً: جهود المطرفية لإقامة هِجَرهم ونشر أفكارهم:

أدى هذا النجاح للمطرفية إلى تفكير علمائها بالمحاولة لنشر فكرهم في مناطق أخرى خارج سناع، فما أن عرض نهد بن الصباح على مطرف فكرة الخروج من سناع لدعوة الناس بقوله:"أيها الشيخ إنك ها هنا خامل ضايع مضيع لعباد الله،قال:فما ترى أن أصنع؟ قال: تسير بنا إلى أرض عنس[٣١] ،حتى نُحْيِي بها من دين الله ما أمكن، قال: فَعَلِمَ أن هذا من صواب الرأي، فسارا معاً إلى ذمار، وكان أهلها مخترعة، فلما نزلا بها أتيا مسجدها،وسمع بهما الناس، فاجتمعوا إليهما...فافترق المجلس على موافقة من الجمهور لمطرف.. وغلب على أكثر الناس اعتقاد مذهبه"[٣٢] ،ثم توجه مطرف إلى بلج التراخم، واستطاع أن يَضُم إلى صفه شيخها أبا عبد الله محمد أحمد الترخمي بعد مشقة وعسر[٣٣].

غير أن هذا الدور الذي قامت به سِنَاع لم يستمر بسبب ما تعرضت له من هجوم من قِبَل الصليحيين في عهد الداعي سبأ بن أحمد الصليحي، والذي سينازع السيدة أروى بنت أحمد الصليحي شئون الدولة في الفترة ٤٧٨-٤٩٢هـ/ ١٠٨٥-١٠١١م[٣٤] ،حيث سيستجيب لبعض خصوم المطرفية، فيعمل على تخريب سنَاع، وتخويف أهلها[٣٥] ،مما دفع المطرفية للبحث عن مكان آخر، يقول مسلم اللحجي:"لما اضطرت الزيدية إلى الخروج عن سناع إلى بعض البلدان.. قالوا:نخشى أن نموت في شعاب الأرض، وبطون الأودية..فكثر ترددهم وإحجامهم عن ذلك.. (ف) جعل إبراهيم بن الهيثم بعد ذلك يجول في البلاد ويطلب المساكن..فأصاب وادي وقش خالياً من السكان"[٣٦].

عندما وجد المطرفية أن القبائل المجاورة لوقش[٣٧] يرحبون بنزول المطرفية بينهم، وبعد أن عُقد الجوار بذلك ، انتقل المطرفية إلى وقش، وأقاموا بها "هجرة تقام فيها الصلاة وتُؤدى الفرائض ويُعبد الله فلا يُعصى ويُتعلم العلم ويُحي فيها الدين، حتى قامت بالحجة لله على أهل العصر، فقام الإمام الداعي إلى ربه ،المشهر سيفه"[٣٨]، وقد قَبلُوا عدداً من الشروط منها أن يكون ابن الهيثم المطرفي حاكماً لا محكوم عليه، فعقدوا له ذلك،[٣٩] ، وأعطت القبائل الحق للمطرفية في أن لا يُدْخِلُوا إلى هجرتهم من لا يرغبون فيه، قال مسلم اللحجي:"وكان (لهم)شروط .. على من يجاورهم،وذمم على من يتغلب عليهم في دارهم ممن يكرهون جواره" [٤٠]، وقد كان للهجرة كثير من الحقوق التي تتمتع بها ، مثل: أنه يجب على جميع القبائل الكف عن الاعتداء عليها ،

وأن يلتزموا بحقوقها، كما أن لهذه الهجرة عدم الالتزام بالعادات القبلية، وبالتالي يجب عليها الابتعاد عن المنازعات القبلية، كما يجب عليها أن تتمسك بأحكام الشريعة الإسلامية، وتعمل على تطبيقها، لذلك كانت الهجرة تزخر بالعلماء سواء القضاء أم التعليم، لكل ذلك كانت الهجرة آمنة مُؤَمِّنَة لكل من ورد إليها في ليل أو نهار-سواء كان ظالما أو مظلوما حتى يؤخذ الحق منه أو له.[٤١]

وإلى جانب ما كانت تقوم به هِجْرَة وقش من مهام الفرائض والتعليم، فقد كانت ملاذاً لمن "خشي على نفسه من ظالم غاشم، هرب إليها للأمن ..ومن أهَمَّهُ أمر معاده ومعاشه، أتى متوكلاً على الله"[٤٢] ،ونتيجة لهذه الوظائف الهامة التي كانت تقوم بها هذه الهجرة، فقد "تسامع بها الناس.. نحو ما كانت السمعة بسناع، فانتهى ذكرها إلى أطراف الآفاق، فضُرِبَت إليها آباط الإبل، وطُوِيَت إليها المراحل وَنَفَعَ الله بها من أراد.. من خلقه"[٤٣].

وصل المطرفية في هذه المرحلة إلى الاعتقاد بوجوب هَجْر الظالمين واعتزالهم، ورأوا أنه يجب على الإنسان أن يَهْرُب بنفسه وولده وحرمه من مجامع الناس، وقراهم ومدنهم، لظهور فساد الناس والمدن والقرى في دينهم ودنياهم ،ووجوب المهاجرة للظالمين والاعتزال للفاسقين وذلك فرض من رب العالمين في كل وقت وحين"[٤٤] ،ومن هذا المعتقد قاموا بإنشاء العديد من الهِجَر[٤٥]وبانتشار المطرفية في هذه الهِجَر دون القرى والمدن اليمنية الأخرى يتبين أن هذه الهِجَر كانت بالنسبة للمطرفية ملاذا آمنا يضمنون فيه التمتع بالحرية الفكرية المطلقة في عرض أفكارهم، بل وفي إقامة مدارسهم التي يلقنون فيها مذاهبهم لتلاميذهم[٤٦]، وهكذا كَوَّنُوا مجتمعا خاصا بهم له تعاليمه وتقاليده.[٤٧]

ثالثاً: صراع المطرفية مع الزيدية المخترعة (التقارب والاختلاف):

حرص المطرفية على إقناع معاصريهم بأنهم لم يأتوا ببدعة جديدة، ولكنهم متمسكون بالتعاليم الصحيحة المنسوبة إلى الإمام الهادي، مؤسس الدولة الزيدية باليمن، لذلك قالوا بأن مطرف بن شهاب أخذ المذهب عن علي بن محفوظ بريدة، وابن محفوظ أخذ العلم ومذهب الهادي عن طريقين أحدهما عن أبي الحسين أحمد بن موسى الطبري، عن المرتضى محمد بن الهادي، والأخرى: عن إبراهيم بن بالغ الوزيري، عن أبيه عن الهادي[٤٨].

لهذا عندما سَأَلَ مسلم اللحجي شيخه إبراهيم بن علي عَمَّا إذا كان قد أخذ الاعتقاد من علماء

سناع ووقش، أو أنه التقى بمطرف أو نهد بن الصباح، فإنه غضب من هذه الأسئلة وقال:"أخذته من شيعة الهادي: أوَ مذهب الهادي قد خفي حتى لا يوجد إلا عند أولئك؟. أخذت عن عامر بن صعتر عن عامر بن تميم عن أبيه عن جده عن الهادي إلى الحق"(٤٩).

وهو ما يذكره مطرف بقوله:"لاتحسبوا أننا أخذنا ..واعتقدنا هذا العلم من الأوراق، أخذناه من بين شوارب الرجال، يريد الإسناد إلى الهادي"(٥٠)، واستشهد المطرفية على صحة آرائهم في مناظراتهم مع خصومهم على كتب المرتضى محمد بن الهادي، وهو ما يذكره مسلم اللحجي عندما ناظر المطرفية قوم من آل عَمَّار من المخترعة من مشرق حاشد:"منهم يحي بن عمار المتكلم في الاختراع، فطالبوهم بالمناظرة، حتى دار بينهم الكلام في ذلك.. فطالبوهم [أي المخترعة] على ذلك شهادة سماعية من كتب آل رسول الله صلى الله عليه.. فاستشهدوا [أي المطرفية] بمسألة العدل من كلام المرتضى لدين الله محمد بن يحي"(٥١).

خالف المطرفية فرقة المخترعة عندما تناظر علي بن حرب وعلي بن شهر(٥٢)،وأخذ كل واحد منهما برأيه(٥٣) -كما سبق القول- مما أدى إلى ظهور فرقتي الزيدية (المخترعة(٥٤) ،والمطرفية)، ودخلا في مناظرات بعد أن اجتمع المطرفية في هجرة سِنَاع، واتخذوها مسجداً وهجرة ومطاهر.

اتخذ المطرفية طريقاً مستقلاً بعد أن تراجعوا عن مبايعة الإمام الحسين بن القاسم العياني بالإمامة لما بَدَرَ منه من آراء، ثم استمروا في التجمع في هِجَرِهم للعبادة والذكر، حتى ظهر الإمام أبو الفتح الديلمي فدخلوا معه في خلاف، لكن هذا الخلاف ظل في هذه المرحلة خلافاً في الجانب الفكري فقط، فيذكر العنسي أن الإمام أبا الفتح الديلمي ردّ على المطرفية برسالة سماها "الرسالة المبهجة في الردّ على الفرقة الضالة المتلجلجة"(٥٥)، مما يؤكد اختلافهم معه على الإمامة.

كما ظل المطرفية على اختلاف مع الشريف حمزة بن أبي هاشم، وابنه الحسين بن حمزة، الذي ألَّف رسالتين في الردّ على المطرفية، والتي يقول عنهما عبد الله بن زيد العنسي في حديثه عن العلماء الزيدية الذين تعرضوا للتأليف في الرد على المطرفية:"وكذلك..السيد العالم الحسين بن حمزة.. رأيت له قطعتين من الكلام عليهم[أي المطرفية]"(٥٦).

استفاد المطرفية في هذه الفترة من عدم ظهور منافس قوي لهم، سواءً عند الحسينية، أم المخترعة، فزاد نشاطهم، وتعددت هِجَرهم، وكثر أنصارهم،مستغلين للظرف المحيط بهم، فبعد وفاة الإمام الحسين بن القاسم العياني في سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م، تعطلت الإمامة بعده ما يقارب

العشرين عاماً، حتى ظهور الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن سنة٤٢٦-٤٣٣هـ/١٠٣٤-١٠٤١م، وقد يرجع سبب ذلك لاعتقاد اتباع الإمام الحسين بن القاسم في عودته، لدرجة أن أخاه جعفر بن القاسم لم يفكر في القيام بأمر الإمامة، على الرغم من تأييد بعض القبائل له، ورغم أن الظروف تهيأت له باستدعاء أهل صنعاء له لدخولها، ويرجع ذلك لاعتقاده بعودة أخيه.

استغل المطرفية ذلك الفراغ السياسي لنشر أفكارهم، إذ لم يكن هناك أي شكل من أشكال الدولة في المناطق الشمالية، والتي كانت تسمى اليمن الأعلى، حيث كانت صنعاء مقسمة بين ثلاث قوى قبلية هي اليعفريين وآل الضحاك، وابني أبي الفتوح-كما مر سابقاً-.

وحتى عند ظهور الإمام أبي الفتح الديلمي دخل في صراع مع المحتسبين الحسينيين، فلم يتم أي تعاون بينه وبين جعفر بن القاسم العياني، وبوفاة الإمام أبي الفتح تعطلت الإمامة ما يقارب من ثمانية وثمانين عاماً، نشط خلالها المطرفية وعقدوا المناظرات مع المخترعة[٥٧]، فقد كان أبو السعود محمد بن وضاح العنسي(ت٤٨٠هـ/١٠٨٧م) من علماء المطرفية المناظرين، وكان في بداية حياته من المخترعة، ثم اعتنق التطريف، وتصدى للدفاع عنه، والرد على المخترعة، وله قصيدة يردّ فيها على علماء المخترعة يقول فيها:

والله يخترع المعاني عندهم   كالطعم والحركات والألوان

وكذا التكرم والسماحة عندهم   فعل الإله وفطرة الأبدان[٥٨].

كما أن العالم المطرفي القاضي شريح بن أسعد الشهابي(ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) تصدى لعلماء المخترعة مثل عبد الله البشاري، وكان بينهما مساجلات شعراً ونثرا [٥٩]، وحين هاجم محمد بن حميد الزيدي المخترعي عقائد المطرفية[٦٠]، قام العالم المطرفي أبو السعود بن زيد بالردّ عليه في أرجوزة شعرية منها:

نحن قلنا النار مثل المـــاء   والقار مثـل القُصّة البيضاء[٦١].

الجدير بالذكر أن المطرفية لم تقتصر في مناظراتها مع الفِرَق الزيدية من الحسينية والمخترعة، بل ناظرت الفِرَق الأخرى في اليمن، سواء من أهل السنة أم الأباضية والإسماعيلية[٦٢]، فقد ناظر مطرف بن شهاب القاضي الشافعي سليمان بن عبد الله النقوي أكبر قضاة الشافعية في صنعاء فأقنعه مطرف بمذهبه وحكم بمذهب مطرف وأصبح من أنصاره، بل ناظر المطرفية

الفرقة الإسماعيلية، وقد اتسمت العلاقة بين المطرفية والإسماعيلية بالعلاقة السلمية حيث كان الصليحيون يرغبون في انخراط المطرفية في جيوشهم لذلك اعترفت بمذهبهم في أول الأمر، إلا أن المطرفية تجنبوا سياستها، بل نجد منهم من يسفه مذهب الصليحيين ويرد عليه مثل أبي السعود بن زيد بن الحسن، الأمر الذي سيدفع بالدولة الصليحية إلى إرسال ابن أحمد الهليجي ليقتل أبو السعود بن زيد وهو يغسل ثيابه.(٦٣)

رابعاً: صراع المطرفية مع الإمام أحمد بن سليمان واستخدام المناظرات للحسم:

بظهور الإمام أحمد بن سليمان، وإعلان خروجه بالإمامة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م(٦٤)، انتهى الفراغ السياسي الذي طالما نعم به المطرفية، ووظفوه لصالحهم، وفي بداية الأمر لم يعلن المطرفية معارضتهم لإمامة أحمد بن سليمان، كما لم يرحبوا بقيامه(٦٥)، غير أن قتل حاتم بن أحمد اليامي للشيخ محمد بن عليان(٦٦)، كان سبباً لجمع فرقتي الزيدية المطرفية والمخترعة على البيعة للإمام أحمد بن سليمان، طالبين منه الثأر لمقتل ابن عليان(٦٧).

غير أن هذا الولاء من المطرفية للإمام لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما تقاعسوا عن نصرته يقول سليمان الثقفي: "فَسَدَ أكثر أهل الهِجَر بالمطرفية، وقعدوا عن الإمام، وأقعدوا الناس، واستمالتهم الدنيا وحطامها"(٦٨)، وكانت بداية الخلاف بين الإمام والمطرفية أن قوما من المطرفية في أشيح والجاهلي(٦٩)، خالفوا الإمام ولم يُقرُّوا له بالطاعة فخرج لتأديبهم فاستولى على الجاهلي، وألهان، وكاد أن يسيطر على أشيح لولا توجهه إلى مخلاف جعفر بعد أن عين على هذه المناطق ولاة من قِبَله وطرد المطرفية منها(٧٠).

لم يحتدم الخلاف بين المطرفية والإمام أحمد بن سليمان، حتى حدث الخلاف بين القاضي جعفر ابن أحمد بن عبد السلام(٧١)، وبين المطرفية في سِنَاع، حيث كان القاضي جعفر قد ذهب إلى العراق وعاد بكتب كثيرة من كتب المعتزلة(٧٢)، وقد تأثر الزيدية في اليمن بشكل كبير بكتب المعتزلة التي أدخلها إلى اليمن القاضي جعفر بن عبد السلام، حيث أقبل السواد الأعظم من الزيدية على قراءة كتب المعتزلة هذه، وتركوا كتب قدامى الزيدية، بل وصل بهم الأمر إلى حد رفضها، ومزقوها وجلّدوا بها الكتب الجديدة التي تتضمن أفكار المعتزلة، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى ظهور طائفة من علماء الزيدية تندد بهذا التحول وتعمل على إحياء المذهب الزيدي في صورته القديمة، وأطلقوا عليه (مذهب العترة عليهم السلام)، تمييزا له عن أفكار الزيدية الأخرى الممزوجة

بالاعتزال، وأطلقوا على هؤلاء الذين قاموا بعملية المزج- التي أخفت معالم المذهب الزيدي في صورته القديمة النقية- اسم الشيعة المعتزلة.[٧٣]

وعده الإمام أحمد بن سليمان النصرة للقاضي إن وقف في وجه المطرفية وأنكر بدعتهم[٧٤]،يقول صاحب سيرة الإمام أنه لما وصل القاضي جعفر من العراق، قال له الإمام أحمد بن سليمان:"هل علمت يا قاضي أحداً ممن قابلته في العراق يقول بشيء لما تقوله المطرفية أو تعتقده أو تعمل به، أو وجدت في كتاب أو سمعت بأحد يقول بقولهم.فقال: لا، قال له: فإنه يجب عليك أن تردهم عن جهلهم وتنكر بدعهم... فقال له القاضي: قد عرفت ما تقول ولكن القوم كثير، وقد صاروا ملء يمننا هذا، ولو أَبيْتُ أُنكر عليهم لرموني بقوس واحدة، وأنت يا مولانا تقرب وتبعد، وأنا أخاف القوم ولا طاقة لي بهم، فوقع كلام الإمام في أذن القاضي فعمل به"[٧٥]. ، فناظرهم في سناع ثم في وقش[٧٦] ولما لم يسمعوا منه وآذوه وقاموا في وجهه[٧٧]،عاد إلى سناع مع مجموعة من أنصاره وكان له مدرسة في مسجد سناع فعارضه المطرفية بمدرسة أخرى في جانب المسجد، فقام أحد أنصار القاضي جعفر فأطفأ سراجهم، فعادوا فأطفئوا مصباح القاضي وأصحابه، ووقع بينهم كلام[٧٨].

لمّا علم الإمام بذلك قال:"قد وجبت عليّ فريضة القاضي ونصرة من قد نصره"[٧٩]،فَهَمّ بالخروج إلى المطرفية، ومحاربتهم، فتراجعوا وأقرّوا له بالإمامة وطلبوا الصفح، فقبل منهم، ودخل وقش، وأحلّ بها القاضي جعفر، وأقام هناك وكتب كتاباً ألفه وسماه كتاب الرد على من طعن في إمامته[٨٠].

ويرجع سبب تنكر المطرفية للإمام أحمد بن سليمان إلى تشددهم في أمر الإمامة، والشروط الواجب توافرها في الإمام[٨١]،فذهبوا إلى عدم الاعتراف بإمامة أحد بعد الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين، سوى المرتضى ابنه، وأنكروا على الزيدية حصر الإمامة في قريش[٨٢] ،يقول صاحب تاريخ بني الوزير"وقد كانت المطرفية لسعة علومهم وصلابة تدينهم وصبرهم على العبادة والقيام والصيام يحتقرون معارف غيرهم، ويقع من بعضهم إعجاب بالتبحر في العلوم، وللعلم طغيان كطغيان المال، فكان من ذلك أنهم لا يذكرون الإمام أحمد بن سليمان بالإمامة، إنما يسمونه الأمير

خامساً: خلاف المطرفية مع الإمام عبد الله بن حمزة واستخدام السيف للحسم:

خفت حدّة العداء للمطرفية بعد وفاة الإمام أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، والقاضي جعفر بن عبد السلام سنة٥٧٣هـ/١١٧٧م، مما أعطى الفرصة من جديد لازدهار مذهب المطرفية وانتشاره خاصة في عهد الأيوبيين الأوائل في اليمن[٨٤].

مثّل طول الفترة بين موت الإمام أحمد بن سليمان ٥٦٦هـ/١١٧١م، وقيام عبد الله بن حمزة[٨٥] لأوّل مرة محتسباً في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٨٦]،فرصة أمام المطرفية كي تمارس نشاطها وتنشر معتقداتها دون أن تصطدم بصعوبات كبيرة تضعها أمام أزمة سواء من الناحية النظرية حيث لم تصل مع الإمامة الزيدية المخترعة إلى حد القطيعة، ومن الناحية العملية لم تدخل في صراع وحرب معها حتى هذا الوقت[٨٧]،على الرغم من خلو اليمن من حكم الأئمة بعد أحمد بن سليمان لفترة تقارب سبعة عشر عاماً، إلا أن الإمام أحمد بن سليمان كان قد حكم على المطرفية بحكم الكفار، فلا تحل مناكحتهم ولا ذبائحهم ولا تقبل شهادتهم، وهذا الحكم ترك صدىً كبيراً بعده في الأوساط العلمية والسياسية، وجرى الخوض حول هذه المسألة من قبل جماعة من العلماء الذين سبقوا الإمام عبد الله بن حمزة بفترة طويلة[٨٨].

بقيام عبد الله بن حمزة سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م، بالإمامة[٨٩]،بايعه المطرفية بالإمامة بعد أن اجتمع مشايخهم بالإمام وأعلنوا اعترافهم باستحقاقه لها، فرحب بهم الإمام وعينهم ولاة على الأقاليم، يقول ابن دعثم:"توجه كل منهم عن أمر الإمام لنفاذ الأوامر الإمامية والتأهل لوقت الحاجة، وإقامة الجمعة في هِجَرهم، والقيام بالمعروف والنهي عن المنكر،وتجبيش الجيوش إلى ثغور الجهاد"[٩٠] ،وقد ظلت العلاقة بين الإمام عبد الله بن حمزة والمطرفية حسنة فترة غير قصيرة[٩١]،إلا أن المطرفية أخفقوا في تنفيذ المهام التي أوكلهم بها الإمام لأنهم لم يتعودوا على العمل بالسياسة، وجباية الأموال وإعداد الجيوش، وانصرفوا إلى ما اعتادوا عليه من عقد المجامع العلمية[٩٢]،مثل المجلس العام الذي يعقد في وقش مرة كل عام للدراسة والمناظرة[٩٣].

بدأ الخلاف بين الإمام والمطرفية عندما قام الإمام بعزلهم عن الولاية، ومنع عنهم أموال الزكاة، لِماَ رآه منهم من ضعف وتواني في القيام بالمهام التي أوكلها إليهم[٩٤]،فضاقت عليهم الأحوال، وتشاوروا، واتفقوا على إقامة الأمير المنتصر بالله محمد بن مفضل[٩٥]، محتسباً ليدافع عنهم وبايعوه على ذلك[٩٦].

استمرت العلاقة حسنة والصلة مستمرة بين الطرفين الإمام عبد الله بن حمزة والمطرفية، فعند انتصار الإمام على الأيوبيين، أرسل الفقيه يحي بن الحسين البحيري زعيم المطرفية في وقش في عصره رسالة تهنئة للإمام بهذا الانتصار على الأيوبيين في صنعاء[٩٧]، إلا أن عودة الأيوبيين إلى صنعاء سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م، وعقد الإمام الصلح معهم جعلت الخلافات بين الإمام والمطرفية تعود من جديد،لرؤية الأخيرين بضرورة مقاتلة الأيوبيين، وعدم عقد الصلح معهم، فأرسل المطرفية ممثلاً عنهم إلى الإمام ليحثوه على قتال الأيوبيين، لكنه تمسك بالصلح الذي عقده، واستمر في تقدمه إلى صعدة[٩٨]،كما عارض المطرفية الإمام في تولية تهامة للمؤيد السليماني من قبل الإمام، والتي رأت المطرفية في ذلك إعانة له على إحياء رسوم الجور التي جرى عليها الأمراء من بني سليمان، ووصلت المعارضة من المطرفية للإمام إلى حدّ قال ممثلهم للإمام:"إن جَدَّدْتُ له الولاية بغير دليل ولا حجة، فأنا متأخر عن هذا الأمر"[٩٩]،يقصد أي عدم اعترافه بإمامته، إلا أن الإمام لم يبالِ بذلك بقوله:"أنا لا أبالي بمن تأخر عني، مهما كُنْتُ على بصيرة من أمري"[١٠٠].

ظل الأمير المنتصر يدافع عن المطرفية، ويراجع الإمام بشأنهم،وكان الإمام يسمع منه لمكانته عنده،ولم تتوتر العلاقة بين الطرفين حتى وفاة الأمير المنتصر في صفر سنة ستمائة هجرية[١٠١]،ويتبين ذلك من خلال ما أبداه الإمام من حزن عليه في قصيدة رثاء، وأوفد أخاه الأمير عماد الدين يحي بن حمزة مع جماعة من أنصاره إلى وَقَش للتعزية[١٠٢].

لم تلبث العلاقة بين الإمام عبد الله بن حمزة والمطرفية أن سادها التوتر من خلال الجهود التي بذلها بعض من أنصار الإمام لإفساد هذه العلاقة، يقول صاحب تاريخ بني الوزير:"ثم أن شيعة الإمام أكثروا في المطرفية إلى الإمام، ورووا عنهم أموراً جمة في المعتقدات على صفة شنيعة صريحة،وكَثَّرَ النقل إلى الإمام في ذلك"[١٠٣] ،يضاف لذلك أن الأميرين يحي بن منصور ومحمد بن منصور ابني أخي الأمير المنتصر، واللذين كانا متوليين الدفاع عن المطرفية، بعد وفاة الأمير المنتصر، لم يكن لهما من المودة والألفة مع الإمام مثل التي كانت لعمهما ، فتغير الإمام تجاه المطرفية ولم يعد يقبل وساطة الأميرين، ودفاعهما عن أمور المطرفية والمحاجة عنها[١٠٤].

لقد كانت معارضة المطرفية للإمام تشغله لأنها تتميز عن أي معارضة أخرى كونها صادرة من داخل الزيدية التي هو إمامها ، خاصة إذا كانت المعارضة في مسألة الإمامة ذاتها ، فقد اشترطت المطرفية أن يكون الإمام في الغاية من العلم، وهو مستوى من المعرفة يكاد يكون من المستحيل

تحديده، وهذا في حد ذاته مشروع معارضة مستمرة لأي إمام، فالعلم في نظر كل جماعة ما تعتقده صحيحاً، وليس من السهل إقناع أي مُدَّعٍ للإمامة بأنه أقل علماً من غيره، وكل من يتمتع بقدر من المعرفة يرى نفسه أقدر من غيره على فهم أمور الدنيا والدين[١٠٥].

يقول العنسي: "ومن الظاهر المشهور أنهم لا يقولون بإمامة أحد بعد الهادي سوى المرتضى ولا يقولون بإمامة الناصر الأطروش، ولا بإمامة الناصر بن الهادي ولا من بعده من الأئمة، ويبطلون القتال معهم، منذ ظهر مذهبهم، ولم يقم إمام إلا وهم أعداؤه،وهو عدوهم..ولا يرون تقديمهم في الرياسة، بل يوجبون تقديم شيوخهم"[١٠٦].

زاد من حدّة الخلاف بين المطرفية والإمام ما نقله رجل من المطرفية يسمى عمار بن ناصر الشهابي، حضر اجتماع المدرسة المنصورية في ذي مرمر، فتم فيها الحديث عن المطرفية، وتم التعريض بمذهبهم، فقام هذا الرجل بنقل ذلك لأهل مذهبه من المطرفية في وقش، وبث شكواه إليهم، فجرت مكاتبة بين الفقيه المطرفي على بن يحي البحيري والإمام، فيها مديح وعتاب، ودعوة للمناظرة والمناقشة[١٠٧]،وقد أبدى الإمام استعداده لذلك، وطلب منهم القدوم بجماعة من أهل العقل والعلم لإجراء ذلك[١٠٨] وكان مما قاله الإمام في جوابه على شيخ المطرفية البحيري:"فإن رأيت أن تأتي بجماعة من أهل العلم والعقل والإنصاف..فإن كانوا على بصيرة في تأخرهم ازدادوا يقيناً، وإن كانوا على غير بصيرة فأهل التدين أولى من رجع إلى الصواب، لأن غرضهم طلب النجاة..فلا بأس في ذلك بل هو عين الصواب"[١٠٩].

تردد المطرفية في بادئ الأمر في القدوم لمناظرة الإمام لخوفهم على أنفسهم فـ "كانوا يظهرون أنهم يخافون على أنفسهم، وأن ذلك هو العائق لهم عن الوصول إلى الإمام لمناظرته.."[١١٠]،ثم أظهروا العزم على القدوم جميعاً إلى الإمام لإجراء تلك المناظرة، وحددوا اللقاء إلى ذي مرمر، أو إلى ثلا، ولكن الإمام اشترط إن أرادوا ذلك أن يكون وصولهم إلى صعدة[١١١]،وهكذا أخذ الفريقان يتخاذلان ويتباطأن عن المناظرة، واتهم كل منهما الآخر بالتهرب والخوف[١١٢].

لمّا كثر التباغض والمراسلات بالسب والشتم، وتبارى شعراء الفريقين في هجاء وتفنيد معتقدات كل فريق وسب مذهبه[١١٣]،زاد الموقف تأزماً وإشعالاً لنار الفُرقَة بين الطرفين[١١٤]، مما دفع الإمام للحكم بكفرهم، وجعل كفرهم قسمين:إلحاد في ذات الله وإلحاد في فعله، فإلحادهم في ذاته أنهم

أثبتوا لله صفات قديمة، فجعلوه أكثر من واحد، وجعلوا وحدانيته خمسة، وأما إلحادهم في فعله فلأنهم نفوا عنه أعماله مثل الأمراض والمصائب، والبلايا والمضار، وأضافوا إليه أفعال البرية، فقالوا: بأنه تعالى لم يقصد فعل شئ بعد الأصول وهي عندهم الماء والهواء والريح والنار، وقالوا: بأن تحصل هذه الحوادث بإحالات الأجسام واستحالتها، ويأخذ عليهم عجزهم عن تحديد هذه الإحالات وتصريفها(١١٥) ،بينما يذهب عبد الله بن زيد العنسي إلى أن كفر المطرفية على أربعة أوجه: "كفرهم في الله، وكفرهم في أفعاله، وكفرهم في رسله، وكفرهم في الوعد والوعيد"(١١٦).

سادساً: أهم معتقدات المطرفية:

وعن معتقدات المطرفية وجه أئمة الزيدية المخترعة التهم العدة للمطرفية، وَاتَّهَمُوهَا بالخروج عن الدين،فالإمام أحمد بن سليمان وجه لهم أكثر من نيف وأربعين تهمة ،قال بَأنّ المطرفية جَمَعَتْهَا من شتى فِرَق الضلال، حيث ذكر أنها أخذت عشر خصال من الطبيعية الملحدة، وأربع خصال من المجوس والثنوية، وسبع خصال من اليهود، وخصلتين من النصارى، وخمس خصال من عبدة الأوثان، وأربع من الباطنية، وخصلتين من المشبهة، وثمان من القَدَرِيَّة، وثلاث من الخوارج(١١٧)، لذلك "أخذوا من كل مذهب أخبثه، فخرجوا من جلة المسلمين، وفارقوا أهل الملة"(١١٨).

وللتحقق من هذه التهم لابد من عرضها على الفكر المطرفي، الذي لم يبق منه سوى كتاب واحد، وهو "البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق"، الذي يذكر أن "للعالم أصولا أربعة هي الماء والهواء والرياح والنار، وهي أصل ما خلق الله... والعالم على كماله محدث مخلوق، والله تعالى خالقه، سواءً خلق ما خلق من ذلك جملةً وتدريجاً ،فالذي حصل على معنى التدريج كالحيوان من الماء المهين، والأشجار من الماء، والطين والمطر من السحاب، وكثير منه يزيد بعد النقصان كالإنسان وغير الإنسان من جماد وحيوان، فتبين أن من الأشياء فرعاً ومنها أصلاً "(١١٩).

وقالوا بأن الله تعالى خلق العالم يَحِيل ويَسْتَحِيل(١٢٠) ،ومعنى ذلك يؤثر وينفع إذا استعمله الإنسان على ما عَلِم الله سبحانه، ومُضراً إذا خالف تعاليم الله ،كل ذلك جبراً، لا اختياراً، فما حصل منه من تأثير في الوجهين جميعاً هو من فعل الله، لا فعل له غيره، ولا موجد له سواه(١٢١) ،ومعنى قولنا يستحيل هو يتغير..وذلك كما يقول القائل النار تُحرق والماء يروي، والطعام يشبع، ..والدواء ينفع، والسم يفنى، كل ذلك يخبر الله تعالى له، وكذلك يستحيل أيضاً جبراً من الله سبحانه

لا اختيارا[١٢٢] ،لهذا يتهمهم خصومهم بأنهم نفوا جميع الحوادث عن الله تعالى وأضافوها إلى الإحالة والاستحالة[١٢٣].

كما يعتقد المطرفية بأن الأعراض تسمع سماع العلم ولا تسمع سماع الحس، لأن الحواس لا تقع على الأجسام سواء كان الشيء مسموعاً أم ملموساً أم مشموما[١٢٤] ،لذلك فنزول القرآن يكون بمعنى نزل ووصل لا بمعنى انحدر وانفصل، فسماعه بهذا المعنى يعنى العلم وليس النزول والانتقال[١٢٥] ،ولهذا تم توجيه الاتهام إلى المطرفية بأنهم يقولون بأن الله تعالى لم ينزل على البشر كتاباً من السماء،وأن كتب الله صفة ضرورية لقلب الملك الأعلى لا تفارقه، فيجحدون كتب الله وآياته[١٢٦] ،وهو ما يذكره صاحب البرهان الرائق بقوله:"فإن قلتم في قلب الملك فكيف تقولون بنزوله..جواب: قلنا أن الله سبحانه خلقه في قلب الملك الأعلى"، ويستدل بحديث: بأن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل كيف تأخذ هذا الوحي، قال: من ملك فوقي، قال: كيف يأخذه ذلك الملك، قال: يلقيه الله في قلبه..."[١٢٧].

ويعتقد المطرفية أن جميع أفعال العباد كلها حسنها وقبيحها فعلهم، لا فعل الله سبحانه، لم يشاركه فيها مشارك، ولم يخلقها فيهم ولا جبرهم عليها، وإنما أقدرهم على فعلها، ومكنهم من إحداثها، وعرّفهم خيرها وشرها[١٢٨] ،وأن أفعال العباد لو كانت خلقاً لله تعالى لَمّا جاز أن يأمر ببعضها وينهى عن بعض،لأن أمر الإنسان بما لا يقدر عليه ونهيه عمّا يعجز عن الامتناع عنه قبيح، وهو تعالى لا يفعل القبيح[١٢٩] ،يقول المحلي:"من قال أنه تعالى خلق لأفعال العباد ولم يفرق بين الحسن منها والقبيح، ومن قال أنه غير خالق لها لم يفرق أيضاً بين الحسن والقبيح منها ، وأيضاً فإنه لو كان خالقاً لِمَا هو حسن من فعل العبد، لبطل الأمر كما يبطل النهي، أو كان خالقاً لِمَا هو قبيح من فعله لبطل الثواب كما يبطل العقاب، ولبطل المدح كما يبطل الذم"[١٣٠].

وتقول المطرفية أن الله سبحانه لا يُكلف أحداً من خلقه ما ليس في وسعه لأن تكليف ما لا يطيق قبيح، وهو تعالى لا يقبل القبيح[١٣١] ،وأنه تعالى لا يعذب من لا ذنب له ولا يريد الظلم ولا يرضى الكفر ولا يحب الفساد ، لأنه تعالى لا يفعل شيئاً من القبائح[١٣٢] ،وبناءً على ذلك فلن ينال ما عند الله إلا بطاعته،أو بالتفضل، ولا يتفاضل أهل التكليف عند الله سبحانه إلا على حسب تفاضلهم في الأعمال.[١٣٣] ،لا في الأعواض، ويقولون بأن كل ما استحقه العبد المؤمن من ثواب أو عقاب لا يكون إلا بالعمل وبالتالي ينفي ذلك الأعواض عما يصيب المؤمن من أمراض

وآفات(١٣٤)،فالعوض عندهم ثلاثة أوجه:"إما أن يكون مساوياً للثواب أو ناقصاً عنه، أو زائداً عليه، فإن زاد عليه فهو أفضل منه، والقليل أفضل من العامل الصحيح، وذلك مخالف لقوله تعالى"وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما"(١٣٥)، ... وإن كان مثله فقد كان ينال ذلك بعمله، فأين ما في مقابل الألم... وإن كان العوض دون الثواب فما وجه الحكمة في إيصال النازل إلى العبد مع أنه كان يصل بعمله إلى أفضل من عوضه..."(١٣٦)،وقد وجه خصوم المطرفية الاتهام إليهم بنفيهم للعوض على ما أصاب المؤمنين بأن ذلك إضافة الظلم إلى الله، تعالى الله عنه علواً كبيرا(١٣٧).

وقال المطرفية بأن الله ساوى بين الخلق بستة أمور هي: الخلق والرزق، والموت، والحياة، والتعبد، والمجازاة، وخالف بينهم في ثلاثة هي:الصور، والألوان، واللغات(١٣٨).

والأرزاق عند المطرفية على ثلاثة أوجه:الأول: المساواة في الرزق بين جميع العباد، فيفُقر بعضاً ويُغني آخرين بدون سبب، قال تعالى:"الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم"(١٣٩).. والضرب الثاني: التفضيل في الأرزاق قال تعالى:"والله فضل بعضكم على بعض في الرزق.."(١٤٠)،والضرب الثالث: وهو أن الله يقلل الرزق بالمعصية ويكثره بالطاعة، قال تعالى:"لإن شكرتم لأزيدنكم ولأن كفرتم إن عذابي لشديد" فأخبر أنه يزيد في الرزق بالشكر، ويعذب على الكفر بسلب الرزق وغيره(١٤١).

كما ذهب المطرفية بأن الأرزاق لا تتم إلا بالاكتساب "ولو لم يكسبوه لم يكن معهم، فمن يُمكنُه الكسب وَتَرَكَهُ كان فقره من نفسه لا من ربه"(١٤٢)،وقد تقل الأرزاق بأسباب من العباد كترك العناية بزرايعهم وأراضيهم... وقد تقل الأرزاق بتدخل من المخلوقين، نحو أن يُهَب له مالاً فَيُغْنَى به، أو يَأْخُذ له الظالم مالاً فيفتقر(١٤٣).

واعتبر المطرفية المال الحرام ليس رزقاً (١٤٤) ،وقد نَسَبَ إليهم خصومهم القول بأن الأرزاق ليست من الله، ولكنها تحصل بالاكتساب والضرب في الأرض، والتحايل وسائر الأسباب، ونفوها عن الله، وبأنه سبحانه لا يرزق العصاة(١٤٥).

أما في الموت فذهبوا إلى أن الأعمار تختلف باختلاف البنية والأوطان والأزمان.."فمن صحت بنيته، واعتدلت مادته وطابت محلته، وبريت من معاصيه ساحته، حتى طالت مدته، واستوفى

عمره، ما لم يظلمه غيره بقتل يقطع به أجله"[١٤٦]،والأجل هو الوقت الذي عَلِمَهُ الله أن الإنسان يموت فيه، أما أنواع الآجال فثلاثة: الأول: أجل ضربه الله سبحانه لعباده إذا سَلِمُوا الهوارم، قال تعالى:"وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا"[١٤٧]،والأجل الثاني: أجل النقمة قال تعالى:"إن أجل الله إذا جاء لا يأخر"[١٤٨]،الأجل الثالث: أجل محتوم وهو الذي يقطع نَسَب من العبد إما عمداً أو خطأً[١٤٩].

أما عن موت الأطفال فيقول المحلي:"وأما الأطفال فإن الله خلقهم للعبادة، فإذا ماتوا قبل البلوغ قلنا أنهم ماتوا في ذلك الوقت لجناية الغير عليهم، وهو تعالى مُميتهم وفاعل موتهم، ومن أنكر أن يكون الموت فعلاً لله سبحانه أنكر خلق السماوات والأرض وذلك الغير الجاني عليهم يسمى لهم مُميتا حقيقة بالجناية الواقعة منه"[١٥٠].

وقد نُسب للمطرفية القول بأن الأعمار والآجال والموت والحياة، تقع بحسب الطبائع والمواد، وأن موت الطفل ليس من رب العباد، كما نسبوا إليهم أن الإنسان يقدر على تأخير عمره إلى مائة وعشرين سنة، بإصلاح معيشته وغذائه، ومعرفة دائه من دوائه[١٥١] ،وتُتهم المطرفية بأنها كفرت بأربعمائة وثلاث وسبعين آية صريحة لا تحتمل التأويل، ولا خلاف من الأمة بكفر من ردّ آية واحدة، فكيف من ردّ كل هذه الآيات[١٥٢].

سابعاً: القضاء على المطرفية نهائياً من قبل الإمام عبد الله بن حمزة:

استقرّ رأي الإمام عبد الله بن حمزة على ضرورة مواجهة المطرفية لَمّا أصبحوا يشكلونه من تهديد خطير له ،وقد تنامى شعور الإمام عبد الله بن حمزة بالخطر من جانب المطرفية لما يرونه من عدم اشتراط العلوية في الإمامة، ونفي شرط العلوية يعني عدم شرعية الإمام عبد الله بن حمزة على حساب مقتضى القواعد الزيدية ، خاصة إذا علمنا أن الإمام عبد الله بن حمزة شخصية طموحة، فقد كان يفكر بأن تصل دولته إلى الحجاز والشام[١٥٣]، حيث يذكر يحي بن الحسين بأنه فرض المكوس على أمراء الحجاز وكانوا يدفعونها على مضض.[١٥٤]

فعزم على التحول من سياسة المهادنة والمناظرة إلى سياسة استخدام القوة، وقد ساعدته الظروف في ذلك، إذ استغل عقد الهدنة بينه وبين الأيوبيين في أواخر سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م[١٥٥]،للقضاء على خصومه من المطرفية، فقد قام الإمام بقتل رجل لشهادة الشهود بأنه مطرفي بعد أن رفض التبرؤ من المطرفية[١٥٦]،فلما بلغ ذلك المطرفية اشتد جزعهم

عليه، وعظم عندهم الخطب فيه، وأيقنوا بالهلاك، فأنشئوا الأشعار، وبثوا الكتب في الأقطار، وبعثوا الرسل إلى الآفاق بالرسائل[١٥٧]،ويظهر من خلال بعض الإشارات في السيرة المنصورية أن الإمام كان قد أصدر حكمه في المطرفية خلال هذه الفترة باعتبار دارهم دار حرب، فحَكَمَ الإمام على المطرفية بأحكام أهل الحرب،وأن مكامنهم التي سموها هجراً حكمها حكم دار الحرب، فتحرم مناكحتهم وموارثتهم، وأكل ذبائحهم، وقَبْرهم في مقابر الإسلام والمسلمين، إلى غير ذلك من أحكام المشركين [١٥٨]،فالمطرفية في نظرهم أكفر من النصارى واليهود بما لا يرتاب فيه منصف[١٥٩]، بل أجازوا قتلهم غيلة، وغزوهم ليلاً ونهاراً، وتحريقهم[١٦٠].

وقد سعى الإمام عبد الله بن حمزة إلى التنكيل بمذهب المطرفية واعتبار أتباعه كفرة ضالين ويجب عليهم التبرؤ من مذهبهم إن هم أرادوا العيش بأمان في مناطقهم، حيث يذكر ابن دعثم أنه قَبْل قتل الرجل المطرفي كان قد تم القبض على مجموعة من المطرفية، تبرءوا من مذهبهم، وبايعوا الإمام، وأعطوه العهد على الخروج من مذهب المطرفية عندها "كتب (الإمام) لهم كتاباً فيه أسماؤهم، وصفاتهم، وشياتهم، مخافة أن يُطْلَبوا بصعدة، أو غيرها فيجري عليهم حكم المطرفية"[١٦١].

عندما تكررت حوادث قتل الإمام للمطرفية اجتمعوا للتشاور لاتخاذ القرار الذي سيشكل حتمية الصراع بين الفرقتين دون تراجع، ذلك القرار الذي تمثل في إسقاطهم لإمامة عبد الله بن حمزة، وتعيينهم إماماً خاصاً بهم، فاختاروا الشريف يحي بن منصور بن مفضل، في اجتماعهم في ذي مرمر، وأعلن السلطان بشر بن حاتم تأييده لهم[١٦٢]،وأعلنوا قدومهم لمناظرة الإمام في ثلا في الموعد الذي حدده، وإن لم يحضر سقطت إمامته، غير أن الإمام اعتذر عن الحضور[١٦٣]،فحاول المطرفية أن يستغلوا ذلك لمصلحتهم،فـ"أشعروا الناس أنهم جاءوا لمناظرة الإمام وأنه وعدهم لذلك إلى ثلا ليوم عَيَّنُوه،وأنه إن لم يلقهم لذلك اليوم سقطت الإمامة، واعترف لهم بأنهم على الحق،.. وأشعروا الناس خلافهما عليه ..وحضوهم على جمع أهل البلاد والحديث في الأسواق"[١٦٤].

دفع ذلك الإمام إلى كتابة رسالة عامة لكافة الناس يصرح فيها بكفر المطرفية،وردتهم، ويقرر حكمه فيهم إن أظفره الله عليهم "فإن ظهرنا عليهم بنصر الله قتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وبعنا النساء والعيال، كما يفعل بالمشركين، ولم يكن عندنا لكل حالم إلا السيف"[١٦٥].

فعلت هذه الرسالة بالمطرفية فعلها بين القبائل وفي المجتمع، إذ تأثر وضعهم،ونظر الناس

إليهم كفرقة مرتدة، فصار الرجل إذا سبّ صاحبه قال: يامطرفي، وصار الواحد من المطرفية إذا أراد دخول بعض الأسواق لا يدخلها إلا متكتماً أو في ذمة أو جوار[١٦٦].

ويعود أول خبر عن ابتداء قتل الإمام للمطرفية إلى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، عندما أمر أخاه عماد الدين يحي بن حمزة بمضايقة أهل هجرة قاعة، وقتل من أمكنه منهم، فقطع الأمير موادهم، وأخافهم في طرقاتهم[١٦٧]، فلما ضاقت أحوالهم بقاعة بعثوا صريخاً إلى وقش فأتى إلى مسجدهم وهم على اجتماعهم،فكسر عصاه، وفرق جرابه، وقال:أدركوا إخوانكم وإلا فهم هالكون، وحكى لهم ما انتهى إليه أمرهم، وأن الأمير فرض عليهم الزُنّار علامة لهم، فلما بلغهم ما حلّ بأصحابهم من الخزي والنكال تكاتبوا، وأجمعوا رأيهم على الغارة إلى أصحابهم[١٦٨].

تقدم الإمام في ثلاث خلت من جمادى الآخرة سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، إلى قرية مُدَع من مصانع حمير فحطّ بجانب البلد من شرقيها وجمع الناس وأبان لهم أمور المطرفية واتضاح ردتهم وكفرهم، فعظم ذلك على الناس لَما كانوا يُجِلُّون المطرفية ومعتقداتهم[١٦٩]،وقد حاجج جماعة من الناس من أهل البلد عن المطرفية وسألوا الإمام عن السبب الذي استحقت به المطرفية اسم الردة؟ فألزمهم إحضار علماء أهل هجرة قاعة إن أرادوا ذلك، وإن لم فيتبرؤا من مذهب المطرفية، وأمهلهم حتى صباح اليوم التالي، فلما حضروا دانوا للإمام وسلموا له، ثم أرسل الإمام رجل من قبله إلى قاعة يعرض على أهلها من المطرفية العودة عن مذهبهم، وأمهلهم ثلاثة أيام، فعقدوا مناظرة في مسجد قاعة، أقرّ المطرفية خلالها للإمام بكل مسائل الخلاف، ما عدا مسألة واحدة وهي قولهم بأن فعل العبد لا يعدوه، ولا يوجد في غيره لظنهم أنهم لا يكفرون بالالتزام بهذه المسألة[١٧٠].

دخل الإمام هجرة قاعة وعرض على أهلها البراءة من مذهب المطرفية ولعن كبارها، والدخول في الإسلام باللفظ، وقبضت دور وأملاك الذين أجْلُوا عنها لبيت المسلمين، واعتبر مسجد قاعة مسجد ضرار، ثم قبضه ووهبه الإمام للفقيه بهاء الدين علي بن أحمد الأكوع، وأقيمت المدرسة المنصورية بها لتدريس علوم المخترعة،وكلف للتدريس بها مِنْ قِبَل الإمام الفقيه أحمد بن محمد المحلي[١٧١].

لما قبض الإمام على هجرة قاعة وأخرج المطرفية عنها، أقبلت الهِجَر التي حولها بالطاعة والمبايعة للإمام[١٧٢]،وتمت ملاحقة المطرفية في بيت علمان[١٧٣]،وحصن بكر[١٧٤]،الذي كان فيه شيخ مطرفي أعمى كان يعمل على نشر أفكار المطرفية بقوة، وصدق وعزيمة،وينتقل من هجرة إلى

أخرى، فطلبه أنصار الإمام، مما دفع البعض للتقدم إلى الإمام يطلبون منه الأمان لهذا الشيخ، فرفض الأمام وطلب الشيخ المطرفي وقبض عليه، وأمر بضرب عنقه[١٧٥] .فأقبلت المطرفية من هجرها من جهة المغرب أفراداً وأزواجاً، ودخلوا في طاعة الإمام، واعتنقوا مذهب الاخترع[١٧٦].

ومن الغريب أن يتهاوى علماء المطرفية في المناظرات التي عقدوها مع الإمام بتلك السرعة، وذلك أن تخليهم عن معتقدات مذهبهم وهم المشهور عنهم السعة والتبحر في العلوم أمر يثير الحيرة، ومن ثم فإننا أمام أحد احتمالين:

الأول: أن تكون هذه المناظرات قد تمت تحت تهديد السلاح.

والثاني:أن يكون أبو فراس بن دعثم قد بالغ في وصف انتصار الإمام عبد الله بن حمزة، وغلبته في هذه المناظرات[١٧٧] ومما يُرَجِّح مبالغات ابن دعثم في انتصارات الإمام ما يذكره في السيرة من أن الانتقام الإلهي كان يحل بالمطرفية كلما حاولوا التعرض للإمام بالشتم والسب، فأحد المطرفية سبّ الإمام فهاج عليه أحد الكلاب واستخرج لسانه من بين الأضراس وشدخها[١٧٨]، والمشرقي (محمد بن منصور بن مفضل) شتم الإمام، فزلّت به رجله فعصفها وخرّ مغشياً عليه[١٧٩]، وأهل ذي مرمر بهجرة روسح بوادي السر، استقبلوا المطرفية واستضافوهم فاستدارت عليهم سحابة فأصابتهم ببرد دون سائر البلاد التي حولهم، لم تدع شيئاً من الزروع والأعناب، فرحل المطرفية إلى موضع يسمى القفار، فحدث لأهل هذا الموضع ما حدث لسابقه، ولمّا نزل المطرفية هجرة الظهراوين بشظب، وأطلقوا ألسنتهم بالسبّ والأذى رماهم الله تعالى في موقعهم ذلك ببرد، فاجتاح أعنابهم وزروعهم خاصة دون أهل شظب.[١٨٠]

هدأت الأمور نسبياً بين الإمام والمطرفية حتى سنة ٦١٠هـ/١٢١٢م، عندما خرج محمد بن منصور بن مفضل وكان يُدعى"المشرقي" لتردده بين وقش وممتلكاته في خولان العالية(المشرق)، فجمع المطرفية في وقش وغيرها، وتوجه بهم إلى مسور، وأنكر على الإمام ما وقع من تكفيرهم[١٨١] ،ولعل سلطان مسور كان قد وعدهم النصرة بالمقاتلين ، حيث يتوجه المشرقي ومن معه من المطرفية ومن ناصره من رجال القبائل لحصار قوات الإمام في حصني عران والمصنعة[١٨٢].

عمل الإمام على منع هذا التحالف والمناصرة من القبائل للمشرقي أو المطرفية، فكفر المشرقي ومن تبعه، كما جعل موالاته كفر، ومن شك بكفر المطرفية فهو كافر أيضاً، يقول:"..الشقي المشرقي رأسهم وسنانهم وسيفهم ولسانهم ... المعلوم من حال الشقي أنه بنى أمره على الكذب .. وذلك أنه ادعى الإمامة، وهو غير مستحق لها، وذكر أنه وجد كنوز دقيانوس (دقلد يانوس) وهي

ودائع آل قنبر..فطوقته العار طوق الحمامة،لما استوعب من الوديعة وادعاء من الإمامة"(١٨٣) ،ثم يقول في تكفير من ناصر المشرقي:"..إن حكم من بايع المشرقي كافر شقي وتصويبه كفر، وكذلك حبه والحرب زايد على ذلك، لأنه يتضمن النصرة والولاية..وحكم تابعه حكمه"(١٨٤).

قرر الإمام أن يحسم أمر المطرفية بالقتال،فوجه أخاه يحي بن حمزة إلى بني الفُلَيْحِي غربي مُدَع "فقتلهم وسباهم، وأرعب قلوب أهل تلك الجهة"(١٨٥)، كان أمْر السبي للنساء في هذه المعركة هو الأول من نوعه عند زيدية اليمن منذ عهد الهادي، حيث سَتُسبى نساء المطرفية باعتبار دارهم دار حرب، وعلى أنهم كفار في نظر الإمام، وهناك العديد من النصوص الزيدية التي أباحت سبي النساء،وحرضت القبائل عليه منها: ".. فلأجل ما قلناه جاز قتلهم، وسبي ذراريهم، وغنم أموالهم، لأن هذا حكم المرتدين إذا تغلبوا في دار ... وإنما يُنْكِر سبي الكفار من لا يعرف الآثار... فكيف يرتاب ذو عرقان في جواز قتل المطرفية وسبي ذراريهم وتغنم أموالهم، وتنزيلهم منزلة الحربيين، مع عقائدهم الكفرية التي زادوا في كثير منها على اليهود والنصارى، وغيرهم من الضلال الحيارى"(١٨٦)، ويقول: "أنزل (الإمام) بهم أنواع النكال من الفتك والسبي وتغنم المال، وجعلهم بمنزلة الكفار الحربيين لأنهم كفروا وصارت لهم شوكة"(١٨٧)، كما انطبقت بقية أحكام دار الحرب والدار الكفرية على المطرفية، فمساجدهم ضرارية، وإذا باع المطرفي ما ورثه من قريبه المطرفي بعد إسلام البائع كان بيعه مختلاً إلا أن تكون الدار دار إسلام وينتقل المطرفي إلى دار الإسلام، فأما في دار الكفر فلا يصح بيع المسلم، وإن أسلم أحد أزواج المطرفية دون الآخر انفسخ النكاح(١٨٨)، وعن قوة النكال بالمطرفية قال حميد المحلي: "وقد اجتهد[الإمام عبد الله بن حمزة] في تدمير المطرفية وصب عليهم كل محنة وبلية، حتى صاروا بين قتيل وطريد، وأجرى فيهم الأحكام من القتل وسبي الذرية في البلاد الحميرية وغيرها من النواحي المغربية"(١٨٩).

كما أمر الإمام بهدم مسجد المطرفية في سناع، وهدم هِجْرَة وَقَش دورها ومسجدها، وخرج أهلها إلى بلاد آنس وخولان، وذهبوا كل مذهب(١٩٠).

كتب أحد المطرفية ويدعى ابن النساخ(١٩١)،رسالة وجهها إلى الخليفة العباسي الناصر أحمد بن المستضيئ(١٩٢)،يحرضه فيها على حرب الإمام(١٩٣)،لكن هذا الخليفة كان من الضعف،بحيث لا يمكنه فعل أي شي في حالة افتراض أن هذه الرسالة قد وصلته(١٩٤)،إلا أن ما يلفت النظر استمرار الإنكار على السبي والقتل للمطرفية، واعتبار دارهم دار حرب، وهو الأمر الذي دفع الإمام إلى كتابة العديد من الرسائل للدفاع عن رأيه في المطرفية، منها:رسالة أسماها "أجوبة تتضمن ذكر

المطرفية"، وهي عبارة عن إجابات عن كثير من الانتقادات والتساؤلات، التي وصلت الإمام عبد الله بن حمزة بسبب قتله المطرفية، وسبيه لأبنائهم، ومصادرة ممتلكاتهم[١٩٥].

ثم ألف "الرسالة الهادية بالأدلة البادية في بيان أحكام أهل الردة"[١٩٦] ،لإقناع المنكرين بسلامة قراراته، وأنه بنى حكمه فيهم على أدلة لا تقبل الشك، لكن موجة الإنكار تواصلت مما دفع الإمام إلى تأليف رسالة أخرى بعنوان:"الرسالة الموسومة بالدرة اليتيمية في تبين أحكام السباء والغنيمة"[١٩٧] ،حيث يقول في سبب تأليفها:"... فلما تكرر السؤال من الأصحاب وحق كل محب أن يُجاب، أنشأنا هذه الرسالة وسميناها الدرة اليتيمية في تبين أحكام السبا والغنيمة..."[١٩٨].

انحسر الفكر المطرفي وضعف أنصاره نتيجة لتلك الضربات الموجعة، وهو الأمر الذي دفع كثيرا منهم إلى الرجوع عن معتقداتهم، واعتناقهم مذهب الإمام، الذي ارتضاه لهم، وبوفاة الإمام عبد الله بن حمزة سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، انحسرت موجة الصراع التي ميزت فترة حكمه، وأفسحت المجال أمام المناقشة والمجادلة التي تبناها بعض علماء المخترعة دون أن يكون ذلك بتكليف من السلطة الإمامية، ويبدو أن جهود هؤلاء العلماء قد حققت نتائج إيجابية[١٩٩]، يقول أحد دعاة المخترعة –في منتصف القرن السابع– أنه قد صنف تصانيف كثيرة في أصول الدين، ثم قام بكتابة رسائل إلى المخالفين، فرجع كثير منهم، وجماعة وافرة من رؤساء المطرفية، والمطرفية أكثر من رجع إلى الحق، وذلك لما كانوا عليه من الخوف لله[٢٠٠] ،وهذا يعنى أن مذهب المطرفية قد خرج من صراعه مع الإمام عبد الله بن حمزة في حالة من الضعف، فبدأ في الذبول،فلم يأت منتصف القرن الثامن الهجري إلا وكان المذهب المطرفي قد تلاشى تماما[٢٠١]، وقد ذهب البعض بأن الفكر المطرفي استمر في بلاد اليمن نحو ثلاث مائة سنة[٢٠٢].

الهوامش

١- عبد الفتاح فؤاد: الإمام الزيدي أحمد بن سليمان وآراءه الكلامية، دار الدعوة، الاسكندرية،ط١، ١٩٨٦م،،ص١٤٨.

٢- يذهب الأستاذ الدكتور محمد الحريري إلى تقسيم تاريخ زيدية اليمن إلى ثلاثة مراحل: المرحلة الأولى تبدأ من عهد الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين حتى انهيار دولة الأئمة الزيدية في سنة ٤٤٤هـ، وخلال هذه المرحلة نجح الإمام الهادي في نقل المذهب الزيدي من مرحلة الفكر النظري إلى مرحلة التطبيق العملي، فازدهر المذهب الزيدي وتعددت المؤلفات فيه حيث كان على رأس المؤلفين في هذه الفترة الأئمة الزيدية أنفسهم وأبناؤهم، والمرحلة الثانية: تبدأ بانشقاق مطرف بن شهاب عن الزيدية ، ونشوء فرقته التي تنسب إليه فرقة المطرفية، ودخولها في صراع مع أئمة الزيدية، ومنهم الإمام أحمد بن سليمان، والقاضي جعفر بن عبد السلام، الذي جلب كتب المعتزلة من العراق، وناظر بها المطرفية، وبذلك تأثر زيدية اليمن في هذه المرحلة كثيرا بكتب المعتزلة، المرحلة الثالثة: تتميز بظهور جيل جديد من علماء الزيدية معارضين للتأثر الزيدي بالتراث المعتزلي، وقاموا بحركة كبرى لأحياء المذهب الزيدي في صورته التي كان عليها زمن قدامى الزيدية، وكانت بداية ذلك في مطلع القرن السادس الهجري، ومن أمثلة هؤلاء العلماء: حميدان بن حميدان، وعبد الله بن زيد العنسي. انظر: (د. محمد عيسى الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لأحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، صفحات(٤٤-٧٥)، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس والعشرون، المجلد السابع، ربيع١٩٨٧م، ص٥٣-٥٨).

٣- سُمِّيَتْ المخترعة بهذا الاسم لقولها باختراع الله الأعراض في الأجسام.انظر: (علي بن الحسن بن القاسم:ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم١٠٥٦، تاريخ، ورقة١٤٠.ابن جمال الدين بن الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى:تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة (بني الوزير) علماء الزيدية، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة،رقم٩٥٦، تاريخ، جـ١ ،ورقة١٣٤، جـ٢ ،ورقة٢٠١.أيمن فؤاد سيد: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٤م،،ص٩١)، ويستمد دليل الاختراع فحواه من الآيات القرآنية المثيرة لدفائن العقول، في الوقوف على معرفة موجد هذا الكون، وهذه الآيات كثيرة منها:"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار" إلى قوله تعالى:"لآيات لقوم يعقلون"(البقرة/١٦٤)، وقوله تعالى:"وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون"(يس/١٦٤)، وكما يقول ابن رشد أن هذا الدليل من أدلة الشرع على الصانع، ويحرره بقوله أن:"هذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في فطر الناس، أحدهما:أن هذه الموجودات مخترعة، وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات، وكما قال تعالى:"إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له"(الحج/٧٣)

فإنا نرى أجساماً جمادية تحدث فيها الحياة،فنعلم قطعاً أن هاهنا موجد للحياة ومنعماً بها..أما الأصل الثاني:فهو أن كل مُخْتَرَع فله مُخْتَرِع، فيصح من هذين الأصليين أن للموجودين فاعلاً مخترعاً له، وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات كان واجباً على من أراد معرفة الله أن يعرف جواهرالأشياء، ليقف على حقيقة الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات.(أحمد عارف:أصول الاتفاق في القضايا الكلامية،رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٤٧، ١٤٨)، ويذهب المخترعة إلى أن أفعال الله تعالى قسمين: قسم مخترع ابتداء وقسم مخترع متولد عن سببه، ولو شاء الله لأبطل سببية السبب، فلم يحصل عنه المسبب، وهو ما يذكره الإمام عبد الله بن حمزة إذ يقول في الشافي: "لأنه سبحانه يفعل أفعاله اختراعا سواء كانت مبتدأة أو متولدة فإن المتولد في حكم المبتدأ". انظر: (بدر الدين الحوثي: حوار حول المطرفية تعليق على مقال: " الجامعات- المساجد في شمال اليمن، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م، ص٧٠).

٤- يحي بن الحسين:طبقات الزيدية الصغرى، نسخة مصورة لدى الباحث عن نسخة لدى الدكتور عبد الرحمن الشجاع،ورقة٧٣ ،٧٤،أحمد عارف:المرجع السابق،ص٣٠،أيمن فؤاد سيد:مصادر تاريخ اليمن، ،ص٩٠.

٥- انظر: عبد الله الحبشي:المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، صفحات(٤٧- ٥١)، العدد الثالث، السنة السادسة،نوفمبر ديسمبر،١٩٧٧م،ص٤٧.

٦- يحي بن الحسين: أنباء الزمن،مخطوط بالمكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء، رقم (٤٤٧)، ،ورقة٣٧ ،عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن،ص٤٧، ويذكر مادلونج أن مطرف بن شهاب عاصر الإمام الحسين بن القاسم العياني. انظر: Wilferd Medelung Islam in Yemen, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen(25 April 1987 to 5 April 1988), Published by Pinguin-verlag, Innsbruck .Umschau-Verlag, Franlkfurt/Main,PP.174-177. P.178

٧- يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،روقة٨٢، القاضي إسماعيل الأكوع:هِجَر العلم ومعاقله في اليمن،دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م،جـ١،ص١٦٦، ١٦٧.

٨- ابن أبي الرجال: مطلع البدو، مخطوط مصور لدى الباحث عن نسخة الدكتور عبد الرحمن الشجاع،ر،جـ١،ص١٦٥.

٩- بينما ذهب آخرون إلى أن مؤسس المطرفية هو مطرف بن شهاب. انظر:(ويلفرد ماديلونغ:أصول الهجرة اليمنية،ص٢٠، إسماعيل الأكوع:الزيدية نشأتها ومعتقداتها، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م،،ص٥٥).

١٠-رَيْدَة:بفتح أوله،مدينة باليمن على مسيرة يوم من صنعاء،ذات عيون وكروم.(يحي بن الحسين:غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق:سعيد عبد الفتاح عاشور،دار الكتاب العربي، القاهرة،١٩٦٨م، جـ١،ص١٧٧،هامش٢)، وهي على بعد ٧٠ كيلو مترا من صنعاء.(إسماعيل الأكوع:البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، الجيل الجديد، صنعاي، ط٢، ١٩٨٨م، ،ص١٣٥،هامش١).

١١-هو مطرف بن شهاب بن عمرو بن عباد الشهابي ،(إبراهيم بن القاسم:طبقات الزيدية الكبرى،ويسمى بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد، تحقيق:عبد السلام عباس الوجيه،مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية،عمان،الأردن،الطبعة الأولى،٢٠٠١م، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص١١٢٥، الأكوع: هجَر العلم، جـ١،ص١٦٥)، كان يعمل حراثاً ، ثم كره العمل واتجه إلى طلب العلم، فترك بيت حنبص غربي صنعاء، واستعان بما معه من أموال على الدراسة في صنعاء وريدة على شيوخ عصره.(يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة٨٢، الأكوع: هجر العلم، جـ١،ص١٦٥ ،١٦٦)، لذلك ذهب البعض أن مِنْ أبرز مهام المطرفية نشر أفكارها في أوساط القبائل والمزارعين، فنشرت التعليم في أوساط شعبية لم تكن تاريخياً من الأسر والبيوت التي تهتم بالتحصيل العلمي.(علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن، في القرن السادس الهجري، المركز الفرنسي، صنعاء، ط١، ١٩٩٧م، ص٩، وكان مطرف منقطع النظير في المجادلة وإفحام الخصوم بالحجة والدليل، من ذلك مناظرته لعلي بن محمد الصليحي، الذي حاول إخراجه عن مذهبه، فابتدأ الصليحي مناظرة مطرف بقوله: إن النبي ــصلى الله عليه وسلم-قال: "ستختلف أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا وحدة، فقال مطرف: نعم قال صلى الله عليه وسلم، الحق ما اجتمعتْ عليه الأمة والباطل ما اختلفتْ فيه، ولن تجتمع أمتي على ضلالة، وقد اجتمعتُ أنا وأنت على إمامي، -يعني علياً- واختلفنا عند إمامك،يعني إمامة المهدي العبيدي، فأعرض الصليحي عنه.(أحمد عارف:مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية في اليمنفيما بن القرن الثالثا والخامس الهجري، المؤسسة الجامعية، بيروت،ط١، ١٩٩١م، ،ص١٧٨).

٢١- علي بن الحسين بن القاسم بن أحمد بن المنصور:ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب،ورقة١٤٠، ابن حمال الدين ابن الهادي بن المرتضى:تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة (بني الوزير) علماء الزيدية، جـ١ ،ورقة١٣٣ ،جـ٢ ،ورقة١٩٩ يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،روقة٨٢، أحمد عارف:المرجع السابق ،ص١٧٨، د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن، قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس للشرفي،المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، العدد٢٦، المجلد السابع، ١٩٨٧م،صفحات (٤٤- ٧٥) ص٥٥. Al-Qadi Isma'il Bin Ali al-Akwa', Nashwa'n Ibn Sai'd al-Himyari' and the Spiritual, Religious and Political Conflicts of his Era, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at= =The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen (25 April 1987 to 5 April 1988), published by Pinguin-verlag, Innsbruck Umschau-Verlag,Franlkfurt/main,PP.212-231.P.215.

١٣-عبد الله العنسي: التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام، مخطوط مصور لدى الباحث، عن صورة لدى محمد جعفر الباحث في جامعة أسيوط ،ورقة٦٣،لوحقب.

١٤-عبد الله زيد العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة٥٧لوحقب،٥٨لوحةأ.

١٥-علي بن الحسين بن القاسم:ذوب الذهب،ورقة ١٤٠،، يحي بن الحسين: طبقات الزيدية،ورقة٨٢.

١٦-عبد الله العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية،ورقة٥٨ ،لوحقب،عبد الغني عبد العاطي: المرجع السابق، ص١١، ١٢.

١٧-د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص١٢.

٨١-(عبد الله بن حمزة:أجوبة تضمن ذكر المطرفية وأحكامها، ص١٤٣، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن للدكتور
عبد الغني عبد العاطي، صفحات١٤٢-١٧٤)عين للدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

١٩-د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص١٤.

٢٠-بيت حُنْبُص:قرية في الغرب الجنوبي من صنعاء.(المقحفي:معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، طبعة ١٩٨٥م، ،ص٦١)،وهي قرية عامرة من مخلاف بني شهاب الأعلى،وكانت قديماً من مخلاف المَعْلَل من بني مطر وأعمال صنعاء،وهي في الغرب الجنوبي منها،كانت من القرى المشهورة بالعلم والعلماء،وكانت من مراكز المطرفية.(الأكوع:هجر العلم ومعاقله في اليمن،جـ١، ص١٦٣، ١٦٤).

٢١-سِنَاع:قرية على بعد ٨ كيلو مترا من صنعاء، كانت مقرا للمطرفية.(المقحفي: المرجع السابق ،ص٢١٤)، وقيل تبعد عن صنعاء ١٠ كيلوا مترا. (د. الحريري:تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٥).

٢٢-هِجْرَة:هي مفرد هِجرَات،وهو موضع يسكنه العُبَّاد وأهل العلم.(محمد رضا الدجيلي: الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٥م،ص٦٠).

٢٣-يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة٨٠.

٤٢- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري،ص١٦،١٧.

٢٥-مسلم اللحجي: أخبار الأئمة من أهل البيت وشيعتهم باليمن،مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع،جـ٤ ،ورقة٩٩.

٢٦-عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن،ص٤٨.

٢٧-عبد الله بن زيد العنسي: التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة١،لوحة أ،ب.

٢٨-اللحجي: المصدر السابق، جـ٤،ورقة٥٢.

٢٩-المصدر السابق،جـ٤،ورقة١٢.

٣٠-المصدر السابق،جـ٤،ورقة٥٢.

٣١-عَنْس:بفتح أوله وسكون ثانيه،وآخره سين مهملة،مخلاف كان يُطْلَق على كثير من مخاليف ذمار المعروفة اليوم،ولكنه اليوم يطلق على مخلاف عنس السلامة،ويقع في مشرق ذمار،على مسافة خمسة عشر كيلو متر أو أكثر،وينسب إليه العلماء بنو العنسي الساكنون في ذمار وغيرها. (الأكوع:البلدان اليمانية،ص٢١٣،هامش٣).

٣٢-اللحجي:أخبار الأئمة،جـ٤،ورقة١٢، يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة ٩٢.

٣٣-المصدر السابق، جـ٤،ورقة١٣.

٣٤-حول ذلك أنظر: (عمارة اليمني:تاريخ اليمن، تحقيق: مجمد زينهم، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٥١، عبد الرحمن ابن الديبع: قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق: محمد على الأكوع، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٩٥٤م، ص٢٦٧، عبد الرحمن الوصابي: تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق: عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٨٣م، ص٤٠، يحي بن الحسين:غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، جـ١،ص٢٦٧، د.عصام الدين الفقي: اليمن في ظل الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٢م، ص١٧٠، أيمن فؤاد سيد: المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة،ط١، ١٩٨٨م، ص١٥١، عارف تامر: أروى ملكة اليمن،دار الأضواء،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٩٨م،ص٧٣، السجلات المستنصرية، سجل رقم٣٧، صفحات(١٢٦، ١٢٧) ، وسجل رقم٣٨، صفحات(١٢٨، ١٢٩) وسجل رقم٢٢، صفحات(٨٠-٨٢).

٣٥-د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص١٨، ورغم ذكر ذلك فإنه من غير الواضح أن سبأ الصليحي قام بالهجوم على سناع، وإنما قام بتهديد المطرفية فيها، وما ذكره مسلم اللحجي يؤكد ذلك، حيث يشير إلى أن المطرفية هم من قرر ترك سناع،فيقول:"لمّا فسد على الزيدية أمر سناع،وأجمعوا على الخروج عنها"(اللحجي:المصدر السابق،جـ٤،ورقة٨٩)، ويقول:"لما اضطرت الزيدية إلى الخروج عن سناع"(اللحجي: المصدر السابق ،جـ٤،ورقة٧٧)، ولكن التساؤل من الذي أفسد عليهم مدينتهم؟أو من أضطرهم للخروج عنها والإجماع على تركها؟ خاصة أنه من المستبعد أن يكون من أفسدها من داخلها.

إذا علمنا أنها كانت هجرة للمطرفية وحدهم، ومن تبعهم، أو من قدم لمناظرتهم ثم يرحل عنهم بعد ذلك، إلا أن خروجهم عنها قد يكون لتأكدهم من هجوم محتمل من قبل سبأ الصليحي عليها، حيث كان قد عزم على ذلك بعد أن استطاع أحد المقربين إليه ويدعى محمد بن حميد التأثير على سبأ وتغييره تجاه المطرفية. (اللحجي:المصدر السابق،جـ٤،ورقة١٤٢) وبالتالي فليس هناك ما يؤكد تقدم سبأ الصليحي إلى سناع وتدميرها.

٣٦-اللحجي:أخبار الأئمة، جـ٤ ،ورقة٧٧، ٧٨، عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،ص٤٨.

٣٧-القبائل التي استشارها إبراهيم ابن الهيثم هي قبائل: بني شهاب، وحمير البدوية،وحضور، وسويد قضاعة، وحدثان نهد. (وليفرد مادلونج: أصول الهجرة اليمنية،ص٢١، ٢٢)،

٣٨-اللحجي: المصدر السابق، جـ٤ ،ورقة٧٨.

٣٩-انظر:اللحجي: المصدر السابق ،جـ٤ ،ورقة٧٨.

٤٠-اللحجي:المصدر السابق ، جـ٤ ،ورقة٥٦.

٤١-انظر:د.سيد مصطفى سالم: وثائق يمنية، دراسة وثائق تاريخية، طبعة دار لكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٢٢٠-٢٢١.

٤٢-المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة٧٨.

٤٣-المصدر السابق،جـ٤ ،ورقة٧٨، وقد ازدهرت هِجْرَة وقش بالعلم والعلماء حتى بلغ مجموع من فيها من العلماء والمفتين نحو خمسمائة عالماً وقاضياً، وكان أكثر اجتماعهم في خلوة الحديث بمسجد وقش. (عبد الله الحبشي:المرجع السابق،ص٤٩).

٤٤-سليمان المحلي: البرهان الرائق، ورقة ٢٣٧ لوحة أ.

٤٥-مثل هِجْرَة الروعة بالطرف من حضور الأحبوب،وهِجْرَة جنب، التي تعرف بمعين. (اللحجي:أخبار الأئمة، جـ٤، ورقة٩٨، ١٠٤)،ويظهر من المواضع التي انتشر فيها المطرفية أنها في معظمها كانت (هِجَر) تقع في مناطق قريبة من صنعاء، وفي تهامة، وفي أرض بكيل على الجانب الشرقي للخط الممتد بين صنعاء وصعدة. (د.الحريري:المرجع السابق ،ص٥٥).

٤٦-د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٧.

٤٧-د.محمود إسماعيل: الفِرَق الإسلامية في طور الانحطاط، صفحات(١٤٨-١٥٨)، مجلة العصور الجديدة، القاهرة، السنة الأولى،العدد العاشر،يونيو ٢٠٠٠م،ص١٥٣.

٤٨- إبراهيم بن القاسم بن المؤيد بالله: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص١١٢٥، الأكوع: هِجَر العلم ومعاقله، جـ١ ،ص١٦٦، عبد الغني عبد العاطي: الصراع الفكري في اليمن، ١٣، ١٤.

٤٩- د. عبد الغني عبد العاطي: الصراع الفكري في اليمن، ص١٤، غير أن يحي بن الحسين يذكر: " إن كانت الأصول التي أحدثها المطرفية من أقوال الهادي بعده فيما يستدلون به على الإمالة والاستحالة، فإن أقوال الهادي مجملة لا تصريح فيها بما يذهب إليه القوم، وإنما أحدث هذا الرأي مطرف بن شهاب بفكره ونظرته، وتُوهم أنه يوافق أصول الهادي وهي موافقة بعيدة". انظر: (يحي بن الحسين: طبقات الزيدية، ورقة١٠٨).

٥٠- يحي بن الحسين:المصدر السابق ،ورقة٨٤، الأكوع: هِجَر العلم، جـ١ ،ص١٦٦.

٥١- مسلم اللحجي: أخبار الأئمة،جـ٤ ،ورقة٣ ، ٤ ،وهو ما يؤكده صاحب البرهان الرائق من أنه سيكتب مصنفه هذا، وينتزع ما يستحسنه من كُتُب العلماء مما يوافق مذهب الهادي يحي بن الحسين. (سليمان بن محمد بن أحمد المحلي: البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق، مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/عبد الرحمن الشجاع، ورقة٢)، ويستشهد بكلام المرتضى بن الهادي ووالده الإمام الهادي، وخاصة كتاب المسترشد للهادي. (المحلي: الحدائق الوردية، ورقة٧٨، لوحة ب).

٥٢- علي بن شهر: هو رأس فرقة المخترعة من الزيدية، وكان إماماً واسع المعرفة في علوم الزيدية، وكان مقيماً في "بيت أكلب" من نواحي جبال عيال يزيد، شمال صنعاء. (ابن المرتضى: تاريخ السادة (بني الوزير) ،جـ٢ ،ورقة١٩٩، يحي بن الحسين: طبقات الزيدية ،ورقة٧٤).

٥٣- الحجوري: روضة الأخبار، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(٤٣٦) تاريخ يمن شمالي، جـ٤ ،ورقة١٠٤ ،لوحة ب.

٥٤- سبق القول بأن فِرْقَة المخترعة سميت بهذا الاسم لقولها باختراع الأعراض في الأجسام، إلا أن المطرفية ترى في الاختراع أن الأعراض متفرعة من الأجسام وينسبون هذا القول للإمام الهادي، فإذا كانت الأعراض فرعاً للجسم فالقول باختراعها باطل، لأن القائل باختراع الأعراض في الجسم يلزمه أن يُجَوِّز تعري الجسم منه لا سيما إن أنكر أن له علة. (سليمان المحلي: البرهان الرائق، ورقة٧٨، لوحة أ،ب).

٥٥- عبد الله بن زيد العنسي: الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة، ص٢٨٨، رسالة ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن، للدكتور: عبد الغني عبد العاطي، صفحات(٢٧٤-٢٨٩).

٥٦- المصدر السابق، ص٢٨٨ ،كما دخل الزيدية في جدال ومناظرة مع العديد من علماء المخترعة، مثل محمد بن حميد الزيدي، والعلامة سيعد بن بريه. (عبد الله بن حميد الدين: الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات، مركز الرائد، صنعاء، ط١، ٢٠٠٤م، ص١١١).

٥٧-كما قام المطرفية بعقد مناظرات مع الاباضية فقد حدث أن رحل رزام بن أحمد من علماء المطرفية إلى شظب قاعدة الأباضية فصلى بأصحابه في جماعة منفصلة عن جماعة الأباضية، ولما استنكر عليه أحد علمائهم ذلك قال لهم: رزام: إنما صَدَّنا عنكم ما نَرى من تبرج نسائكم وإباحتكم دخولهن الأسواق،ومزاحمة الرجال،ثم جرت بينهم مناظرة فلم يستطيعوا إجابته. (عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،ص٥٠).

٥٨-يحي بن الحسين:طبقات الزيدية،ورقة١٠١.

٥٩-ابن أبي الرجال:مطلع البدور،جـ٣،ص٨٤، ٨٥، ٨٦، يحي بن الحسين: المصدر السابق ،ورقة١٠٠، ١٠١.

٦٠-من أشعاره ضد المطرفية: يا قوم إنّا مِنْ هُمُ بَرَاءُ هم واليهود عندنا سواء وفي قصيدة أخرى قال: ومرجف يرجف في سوق مَدَر ما بين ذبيان وما بين عدر. (ابن أبي الرجال:مطلع البدور، جـ٤ ،ورقة٢٠٦).

٦١-يحي بن الحسين:طبقات الزيدية، ورقة٩١.

٦٢-د.الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٦).

٦٣-أنظر:عبد الله الحبشي:المطرفية مذهب مجهول،ص٥١.

٦٤-بويع للإمام أحمد بن سليمان بالإمامة في صفر سنة٥٣٢هـ/١١٣٧م.(الثقفي:سيرة الإمام أحمد بن سليمان،عين للدراسات، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٨، أحمد بن صلاح الشرفي:اللآلئ المضية في أخبار أئمة الزيدية ،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، بالقاهرة، رمق (١٩٤٠)، تاريخ، جـ٢ ،ورقة١٥٨، لوحة ب، ترقيم من قبل الباحث، د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٦)، وإن كان البعض يذهب إلى أن خروجه كان في سنة٥٣٣هـ/١١٣٨م. انظر: H.A.R. Gibb And J.H.Kramerst, Shorter Encyclopaedia of Islam,.P.652.

٦٥-يتضح ذلك من قول شيخ المطرفية عيسى بن محمد الكرندي عندما سُئِلَ عن الإمام أحمد بن سليمان والثناء عليه، فقال: "إنكم إذا ذكرتم مثل هذا بلغة فطمع فيما لا يحل له ولا لكم، فهلك وهلكتم، فلا يسمعن منكم هذا الكلام".(الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،مجلة اليمن الجديد،العدد الأول،١٩٧٨م،ص٣٨).

٦٦-محمد بن عليان: هو رائد الشيعة في اليمن بوقش، بايع مع خولان للإمام أحمد بن سليمان.(الثقفي: المصدر السابق ، ص١٣٢، ١٣٣).

٦٧-ابن المرتضى: تاريخ السادة (بني الوزير)، جـ٢، ورقة٢٢٢.

٦٨-سليمان الثقفي: المصدر السابق، ص١٦٩.

٦٩-الجاهلي: قرية من عزلة مخلاف ضوران، ناحية ضوران قضاء آنس محافظة ذمار. (المصدر السابق، ص٢٤٧، هامش ٢ للمحقق).

٧٠-الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٤٧، ٢٤٨.

٧١-هو القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام، كان في مرحلة مبكرة من حياته يتبع المذهب المطرفي، ثم لم يلبث أن خرج منه والتحق بالفرقة المخترعة، وناصر الإمام أحمد بن سليمان، تتلمذ على يد الشيخ زيد بن الحسن البيهقي الذي قَدِمَ من خراسان، ثم عزم على التوجه معه إلى العراق لإكمال تتلمذه على يديه، فمات شيخه في الطريق، ولم يثنه ذلك عن إتمام الرحلة، ففعل وظل في العراق يطلب العلم حتى قيل ذهب الى العراق وهو أعلم أهل اليمن، وعاد وهو أعلم أهل العراق، كان أبوه باطنياً إسماعيلياً، حيث كان قاضي الدولة الصليحية في عهد السيدة أروى بنت أحمد، وعاد القاضي جعفر من العراق بالعلوم التي لم يصل بها سواه من الأصول والفروع والمعقول والمسموع، وعلوم القرآن، وتوفي بسناع حدّه جنوبي صنعاء سنة٥٧٣هـ. (إبراهيم بن القاسم: طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، المجلد الأول، ص٢٧٦-٢٧٨، يحي بن الحسين: طبقات الزيدية، ورقة ١٢٦، عبد السلام عباس الوجيه: أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، الأردن، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٧٨-٢٧٩، ابن المرتضى: تاريخ السادة (بني الوزير)، جـ٢، ورقة٢١١، ٢٢٣، ٢٢٤، علي بن الحسن بن القاسم: ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، ورقة١٣٩، أحمد صبحي: في علم الكلام، (١) المعتزلة، النهضة العربية، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م، ص٣٥٣، لزيدية، الزهراء، القاهرة، ط١٩٨٥، ٢م، ص٢٢٦).

٧٢-وقد ذهب البعض إلى اعتبار القاضي جعفر بن عبد السلام أول من أدخل كتب المعتزلة إلى اليمن وقالوا بأن اليمن لم تعرف كتب المعتزلة قبل ذلك التاريخ، الذي حددوه بسنة ٥٥٤هـ. انظر: (د. صبحي: المرجع السابق، ص٣٥٣، الزيدية، ص٢٢٦)، وقد اعتمد هذا القول على ما ذكره يحي بن الحسين في غاية الأماني: "من أن كتب ومذاهب المعتزلة ظهرت في عهد الإمام أحمد ابن سليمان بعناية القاضي جعفر بن عبد السلام، ولم تكن قد ظهر قبلاً". (غاية الأماني، جـ١، ص٣١٨)، وكان استجلاب الكتب من قبل الأمام أحمد بن سليمان والإمام عبد الله بن حمزة، من أجل الدفاع عن دولتهم، أمام الفرق المنشقة عنهم مثل المطرفية، فملأت خزائنهم بالمعارف المختلفة، والمخزون الثمين من تراث المعتزلة. (أحمد عارف: أصول الاتفاق، ص٥٨-٥٩).

٧٣-د. محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن، ص٥٦، ٥٧.

٧٤-عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، العدد الأول، ١٩٧٨م، ص٤٠).

٧٥-سليمان الثقفي:سيرة الإمام أحمد بن سليمان، ص٢٨١-٢٨٢.

٧٦-لم تقتصر مناظرة جعفر بن عبد السلام للمطرفية بل ناظر أهل السنة، أو كما يسميهم بالجبرية والمشبهة، وهو الأمر الذي دعا العالم السني يحي بن أبي الخير العمراني الحنبلي أن يتصدى لهذا القاضي، وقد وضع كل واحد منهما مُؤَلَّفاً يرد فيه على الاتهامات التي أوردها كل منهما على معتقدات الآخر. (أحمد عارف: مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية في اليمن، ص١٨٦).

٧٧-الثقفي: سيرة الإمام أحمد بن سليمان ،ص٢٨٣

٧٨-المصدر السابق ،ص٢٨٣،٢٤٨، عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول ، ص٤١، الزحيف: اللواحق الندية ،ج٢ ،ص٧٧٣.

٧٩-المصدر السابق،ص٢٨٤.

٨٠-المصدر السابق،ص٢٩٧، ٢٩٨.

٨١-يرى المطرفية في الإمام أن يكون أعلم الناس وأفضلهم.(أحمد شوقي:الزيدية في اليمن ودورهم السياسي،مجلة كلية الآداب سوهاج، جامعة أسيوط، العدد ١٥، ١٩٩٤م، ص١١٨)، كما ذهبوا إلى عدم حصر الإمامة في أولاد فاطمة.(فؤاد عبد الفتاح: الإمام أحمد بن سليمان وآراؤه الكلامية، ص١٥١).

٨٢-د.محمد الحريري: تطور المذهب الزيدي في اليمن،ص٥٥، بل إن بعض علماء المطرفية كا لشيخ محمد بن علي الأهنومي كان ينكر قيام أحد من أئمة الزيدية بالإمامة في اليمن إلى يوم القيامة. (المرجع السابق،ص٥٥).

٨٣-ابن المرتضى:تاريخ السادة (بني الوزير)،ج٢ ،ورقة٢١٧ ،إسماعيل الأكوع:هجر العلم ومعاقله، ج١ ،ص٥٣٩.

٨٤-د.عبد الغني محمود عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن، ص٣٥.

٨٥-هو الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحي بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.(الزحيف: اللواحق الندية،ج٢ ،ص٧٩٩-٨٠٠)، ولد سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، وبويع له بالإمامة سنة٥٩٣ هـ/١١٩٦م، وتوفي سنة٦١٤ هـ/١٢١٦م.(العرشي:بلوغ المرام، ص٤٠٩، الواسعي:تاريخ اليمن،ص١٩١، ١٩٢).

٨٦-يحي بن الحسين:أنباء الزمن،ورقة٥٥، غاية الأماني،ج١ ،ص٣٢٩، ٣٣٠، حيث تقدر هذه الفترة

بحوالي ١٧ عاماً، ثم ترك عبد الله بن حمزة الاحتساب بعدها وقام بالإمامة سنة٥٩٣هـ/١١٩٦م، فكان الانقطاع للمرة الثانية يقدر بحوالي عشر سنوات، ما بين احتساب عبد الله بن حمزة وقيامه بالإمامة. أنظر(يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١،ص٣٢٩ ،٣٤١).

٨٧-علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٥٩.

٨٨-عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، العد د الأول، ١٩٧٨م،ص٣٩.

٨٩-يحي بن الحسين:أنباء الزمن،ورقة٥٧، غاية الأماني،جـ١،ص٣٤١.

٩٠-أبو فراس بن دعثم:السيرة الشريفة المنصورية،دار الفكر المعاصر، بيروت،ط١، ١٩٩٣م، جـ٢،ص٨٩، حيث ولىّ الإمام عبد الله بن حمزة على وقش وبلاد بني مطر وبلاد بني شهاب السلطان محمد بن إسماعيل.(المصدر السابق،جـ٢،ص٨٨).

٩١-علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٦٠.

٩٢-د.عبد الغني محمود عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣٥.

٩٣-ابن دعثم: المصدر السابق،جـ٢،ص٨٩، د.عبد الغني محمود عبد العاطي:المرجع السابق،ص٣٥.

٩٤-د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص٣٥.

٩٥-هو الأمير المنتصر محمد بن مفضل، أحد الأعلام وسادات أهل البيت الكرام، كان يرى بعدم كفر المطرفية، وإنما هم أفاضل شيعة الهادي، والقاسم وأتباعهم، ولا مصلحة في حربهم واعتقاد كفرهم.(ابن المرتضى:تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة(بني الوزير) علماء الزيدية،جـ١،ورقة١٣٢).

٩٦-ابن دعثم:المصدر السابق،ص١٦٩، يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١،ص٣٧١-٣٧٢،د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص ٣٦،٣٥.

٩٧-يحي بن الحسين: غاية الأماني،جـ١،ص٣٦٢.

٩٨-المصدر السابق، جـ١،ص٣٧٢.

٩٩-يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١،ص٣٧٩.

١٠٠- المصدر السابق،جـ١،ص٣٧٩.

١٠١- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣٦.

١٠٢- ابن المرتضى: تاريخ السادة العلماء الفضلاء الأئمة(بني الوزير)، جـ٢ ،ورقة٢٠٢.

١٠٣- المصدر السابق، جـ٢ ،ورقة٢٠٢ ،٢٠٣.

١٠٤- لمصدر السابق،جـ٢ ،ورقة٢٠٣.

١٠٥- على محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٧٥.

١٠٦- عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول في اليمن،مجلة اليمن الجديد،العدد الأول،١٩٧٨م،ص٣٦.

١٠٧- ابن دعثم:السيرة المنصورية، جـ٣،ص٥٣٦،عبد الله الحبشي: المرجع السابق،ص٤٣،وانظر الملحق رقم(١)ص(٣٠- ٣١) عن المراسلات بين المطرفية والإمام عبد الله بن حمزة.

١٠٨- ابن دعثم: المصدر السابق ، جـ٣،ص(٥٤١).

١٠٩- المصدر السابق،جـ٣ ،ص٥٤٣.

١١٠- المصدر السابق،جـ٣ ،ص٥٥٠.

١١١- ابن دعثم:السيرة المنصورية،جـ٣،ص٥٥٠.

١١٢- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣٧.

٣١١- ابن دعثم: المصدر السابق ،جـ٣ ،صفحات٨٢٦-٨٣٧.

١١٤- د. عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق ،ص٣٧.

١١٥- عبد الله بن حمزة:العقيدة النبوية، ص١٣٥، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،للدكتور عبد الغني عبد العاطي، صفحات١٣٠-١٤٢، على محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن،ص١٧٨.

١١٦- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة، ص٢٧٧، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن، للدكتور عبد الغني عبد العاطي، صفحات٢٧٤-٢٨٩.

١١٧- أحمد بن سليمان:الهاشمة لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الجهال،تحقيق:د.عبد الغني عبد العاطي،مجلة كلية الآداب،جامعة المنصورة، العدد الثاني والثلاثون،يناير ٢٠٠٣م،ص(٥٠- ٧١)،عبد الله بن حمزة: العقيدة النبوية، ص١٣٨-١٤٠، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن، صفحات(١٢٩-١٤٢).

١١٨- أحمد بن سليمان:المصدر السابق ،ص١١٢، الجدير بالذكر أن خصوم المطرفية يحملونهم حتى مسؤولية دخول القوى الأيوبية لليمن يقول عبد الله العنسي: "وكاتبوا الظلمة من خلفاء بني العباس.. في زمن الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة .. وحملوهم على تصدير العساكر إلى هذه الديار ديار اليمن، وهو سبب وصل الغز البلاد..".(عبد الله بن زيد العنسي: التميز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة١٣٣،لوحةأ).

١١٩- سليمان المحلي:البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق، ورقة٦٣، لوحة ب، ٦٤، لوحة أ، عبد الله العنسي: المصدر السابق ،ورقة٤ ،لوحةأ،د.عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص٢٣.

١٢٠- "ومعنى يحيل يغير، ومعنى يستحيل يتغير، وما أحد منهم على اختلاف مذاهبهم إلا وهو يقول بالإحالة والاستحالة". (عبد الله بن زيد العنسي: المصدر السابق ،ورقة٤ ،لوحةأ).

١٢١- سليمان المحلي: البرهان الرائق،ورقة٦٨، لوحة ب.

١٢٢- المصدر السابق ،ورقة٦٨، لوحة ب.

١٢٣- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن، ص٢٤.

١٢٤- سليمان المحلي: البرهان الرائق، ورقة١٠٢ ،لوحة ب.

١٢٥- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٢٥.

١٢٦- المرجع السابق،نفس الصفحة، عبد الله العنسي: التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة١٢ ،لوحةب، ورقة٩٩ ،لوحةأ ،ب،أحمد بن سليمان:حقائق المعرفة،ورقة٤٦٣.

١٢٧- سليمان المحلي: المصدر السابق، ورقة١٨٤، لوحةأ.

١٢٨- المصدر السابق، ورقة١٣٧، لوحة أ.

١٢٩- د.عبد الغنى عبد العاطي:المرجع السابق ،ص٢٧، ٢٨.

١٣٠- سليان المحلي:المصدر السابق،ورقة١٣٧ ،لوحة ب، ١٣٨ ،لوحةأ.

١٣١- سليمان المحلي:البرهان الرائق،ورقة١٤٩ ،لوحة ب.

١٣٢- المصدر السابق،ورقة١٥٢، لوحة أ.

١٣٣- المصدر السابق ،ورقة١٦٦، لوحة ب.

١٣٤- المصدر السابق،ورقة١٦٧،لوحةأ، ب، ١٦٨،لوحة أ، وانظر:عبد الله العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام،ورقة٧٩،لوحةب.

١٣٥- سورة (النساء) من الآية(٩٥).

١٣٦- سليمان المحلي:المصدر السابق،ورقة١٦٧،لوحة ب.

١٣٧- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٢٩.

١٣٨- سليمان المحلي:المصدر السابق ،ورقة١١٩، لوحة أ، د. عبد الغني عبد العاطي:المرجع السابق،ص٣٠.

١٣٩- سورة(الروم) من الآية(٤٠)

١٤٠- سورة (النحل) من الآية(٧١)

١٤١- سليمان المحلي:البرهان الرائق،أوراق ١٢٠، لوحة أ،ب، ١٢١، لوحة أ.

١٤٢- المصدر السابق،ورقة١٢١، لوحة أ،وانظر:عبد الله العنسي:التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام، ورقة١٢٢،لوحةأ.

١٤٣- سليمان المحلي: المصدر السابق، ورقة١٢٢، لوحة أ.

١٤٤- المصدر السابق، ورقة١٢٣، لوحة أ، ب.

١٤٥- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٣١.

١٤٦- سليمان المحلي:المصدر السابق،ورقة١٢٤،لوحة ب.

١٤٧- سورة الأنعام من الآية(١٢٨).

١٤٨- سورة(نوح) من الآية(٤)

١٤٩- المحلي:المصدر السابق،ورقة١٢٤، لوحة أ، ١٢٥، لوحة ب.

١٥٠- سليمان المحلي: البرهان الرائق،ورقة١٢٥،لوحة ب.

١٥١- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري،ص٣٢.

١٥٢- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الموسومة بالتوقيف على توبة أهل التطريف، ص٣٠٣، ضمن كتاب:

الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٩٩-٣٠٣)، عبد الله العنسي:كتاب الفتاوى النبوية المفحصة عن أحكام المطرفية، ص٣١٦، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٣١٤-٣٣٩)، ابن دعثم:السيرة الشريفة المنصورية،ج٣،ص٨٢٤)، ويذكر أنه ألّف كتاب بأمر من الإمام عبد الله بن حمزة يبين مخالفة المطرفية لكل هذه الآيات وسماه"المجموع من آيات القرآن الشريف المبطلة مذهب الطبيعية أهل التطريف".(ابن دعثم:المصدر السابق ،ج٣،ص٨٦٥،٨٢٥).

١٥٣- أحمد عبد الله عارف: مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن،ص١٨٣.

١٥٤- يحي بن الحسين:غاية الأماني،ج١، ص٣٦٢.

١٥٥- يذكر ابن دعثم في السيرة عدداً من الحوادث الفردية التي كانت البدايات الأولى لقتل الإمام لأناس ينتسبون للمطرفية في أواخر سنة ٦٠٢هـ، فقد ناظر أحد أنصار الإمام رجلاً من المطرفية في قرية ثربان من أوطان سفيان في المفاضلة، فانتهى الأمر إلى أن قال المطرفي واسمه على بن موسى الفتلاني: إن الله تعالى ساوى بين النبي(صلى الله عليه وسلم) واليهودي،وما اختص نبيه بفضل ولا اجتباه لرسالة، فلما حُكِيَ ذلك للإمام أمر بضرب عنقه. (ابن دعثم: المصدر السابق ،ج٣، ص٨٢٥).

١٥٦- ابن دعثم: السيرة المنصورية،ج٣،ص٣٨٣.

١٥٧- المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

١٥٨- عبد الله بن حمزة:أجوبة مسائل تتضمن ذكر المطرفية وأحكامها، ص١٤٤، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات١٤٢-١٧٤، أحمد بن سليمان:الهاشمة لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الجهال، ص١١٢،ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٩٥-١١٢)، عبد الله بن حمزة:الرسالة الهادية بالأدلة البادية في بيان أحكام أهل الردة، ص١٧٦، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٨، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن، صفحات(١٧٥-٢٠٢).

١٥٩- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة،ص٢٨٧، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٧٤-٢٨٩)، عبد الله بن زيد العنسي: الرسالة الموسومة بالتوقيف على توبة أهل التطريف، ص٣٠٢، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن، صفحات(٢٩٩-٣٠٣).

١٦٠- عبد الله بن زيد العنسي:الفتاوى النبوية المفصحة عن أحكام المطرفية، ص٣١٨، ٣١٩، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٣١٤-٣٣٤).

١٦١- ابن دعثم:المصدر السابق،ج٣،ص٨٣٧.

١٦٢- المصدر السابق،ج٣،ص٨٤٨، ٨٤٩.

١٦٣- المصدر السابق ،جـ٣ ،ص٨٥٠.

١٦٤- ابن دعثم:السيرة المنصورية، نفس الجزء والصفحة.

١٦٥- المصدر السابق،جـ٣ ،ص٨٦٥، وانظر الملحق رقم(٤٣) ص(٦١٦-٦١٨) عن السيرة المنصورية،جـ٣ ،ص٨٦٣-٨٧١).

١٦٦- المصدر السابق،جـ٣ ،ص٨٨٧.

١٦٧- المصدر السابق ،جـ٣ ،ص٨٩١، ٨٩٠.

١٦٨- المصدر السابق ، جـ٣ ،ص٨٩٨، ٨٩٧.

١٦٩- المصدر السابق ،جـ٣ ،ص٩٦٢.

١٧٠- ابن دعثم:السيرة المنصورية، جـ٣ ،ص ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤.

١٧١- لمصدر السابق،جـ٣ ،ص٩٦٥.

١٧٢- المصدر السابق،جـ٣ ،ص ٩٦٨.

١٧٣- بيت عَلْمان: قرية من عزلة المصانع الخارجية ناحية ثلا.(د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤١ ،هامش٥).

١٧٤- حصن بُكْر: يقع على بعد ١٢كيلو مترا جنوب قرية قاعة.(المرجع السابق،ص٤١ ،هامش٧).

١٧٥- ابن دعثم: المصدر السابق ،جـ٣ ،ص٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠.

١٧٦- المصدر السابق،جـ٣ ،ص٩٧٠.

١٧٧- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٣ ،).

١٧٨- ابن دعثم: السيرة المنصورية، (جـ٣ ،ص٨٢٦).

١٧٩- المصدر السابق،(جـ٣ ،ص٨٢٦).

١٨٠- المصدر السابق،(جـ٣ ،ص٨٥١).

١٨١- يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٩٧.

١٨٢- المصدر السابق،جـ١ ،ص٣٩٧.

١٨٣- عبد الله بن حمزة:أجوبة مسائل تتضمن ذكر المطرفية وأحكامها، ص١٤٧ ،١٤٨،ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(١٤٢-١٧٤).

١٨٤- المصدر السابق ،ص١٤٩.

١٨٥- يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١ ،ص٣٩٧ ،٣٩٨، .

١٨٦- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الناطقة بضلال المطرفية الزنادقة، ص٢٨٦، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٧٤-٢٨٩).

١٨٧- عبد الله بن زيد العنسي:الرسالة الموسومة بالتوقيف على توبة أهل التطريف، ص٣٠١، ضمن كتاب: الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٩٩-٣٠٣).

١٨٨- عبد الله بن زيد العنسي:الفتاوى النبوية المفصحة عن أحكام المطرفية،ص٣٢٦، ٣٢٧، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٣١٤-٣٣٤)

١٨٩- المحلي: الحدائق الوردية،جـ٢،ص١٧١) ، ويقصد بالنواحي المغربية المناطق الغربية من اليمن.(أحمد عارف: مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن،ص ١٨٠ ،هامش٤٦).

١٩٠- يحي بن الحسين:غاية الأماني،جـ١،ص ٤٠٠. د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٣، ذكر القاضي الشماحي أن جملة من قتلهم الإمام عبد الله بن حمزة من المطرفية بلغ أكثر من مائة ألف، إلا أنه لا يذكر المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة. انظر: (القاضي عبد الله الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة،دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٤م،ص٨٢).

١٩١- ابن النساخ:هو الحسن بن محمد النساخ، أحد فقهاء المطرفية في قاعة،ويبدو من نَسَبه أنه من أسرة عملت بنسخ الكتب، وهو أحد رجال المطرفية الذين نجوا من مقتل المطرفية في قاعة، ولجأ إلى مسور ثم وقش، وبعد خرابها هرب إلى آنس، وهناك ألف رسالته إلى الخليفة العباسي.(علي محمد زيد:تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري،ص١٩٢).

١٩٢- هو: الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد أبو العباس المستضيئ بأمر الله، ولد يوم الاثنين عاشر رجب سنة٥٥٣هـ/١١٥٨م، وبويع بالخلافة في ذي القعدة سنة٥٧٥هـ/١١٧٩م، ولم يَلِ الخلافة أطول منه، فإنه أقام فيها سبعة وأربعين سنة.(السيوطي:تاريخ الخلفاء،تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة،ط١، ٢٠٠٣م، ص ٤٣٨) ،غير أن وقت إرسال الرسالة من قبل ابن النساخ للخليفة العباسي وصلت في مرحلة كان الخليفة في حال من الضعف لا يستطيع أن يعمل معها شئ، حتى أن السيوطي يذكر في حوادث سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م هجوم الفرنج على النيل من رشيد، ودخولهم إلى بلدة (فَوّة) فينهبونها ويستبيحونها، ثم يرجعوا سالمين في عهد هذا الخليفة.(السيوطي: المصدر السابق، ص٤٤٤)، هذا في افتراض أن الرسالة قد وصلت للخليفة، إذ لا يبدوا أنها قد لاقت أي اهتمام يذكر في بغداد.(علي محمد زيد:المرجع السابق،ص١٩٢).

١٩٣- يحي بن الحسين:المصدر السابق،جـ١،ص ٤٠٠، ٤٠١،أحمد عبد الله عارف:المرجع السابق،ص١٨٠-١٨١.

١٩٤- على محمد زيد:المرجع السابق،ص١٩٢.

١٩٥- انظر: كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(١٤٢-١٧٤).

١٩٦- انظر: كتاب الصراع الفكري في اليمن، صفحات(١٧٥-٢٠٦).

١٩٧- انظر: كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات (٢٠٦-٢٥٣).

١٩٨- عبد الله بن حمزة: الدرة اليتيمية،ص٢٥٣، ضمن كتاب الصراع الفكري في اليمن،صفحات(٢٠٦-٢٥٣)، كان تكفير المطرفية بالإلزام محل خلاف بين العلماء، فيذكر يحي بن الحسين: "أن الأمير المنتصر بن محمد المفضل العفيف وهو من المعاصرين للإمام عبد الله بن حمزة لم يرى بتكفير المطرفية..وبناء على ذلك رأى من لم يكفر بالإلزام والتأويل كالمؤيد أحمد بن الحسين الهاروني، ورواه عن الجميع من أهل البيت، وقال في (الزيادات) لا أرى أحداً يكفر بالإلزام، وقال مثل ذلك القاضي عبد الله الدواري في "شرح الزيادات" وقال "وهو الذي يصححه أصحابنا وهو المعول عليه"، ومما يؤيد القول بعدم التكفير بالإلزام ما ذهب إليه جماعة من العلماء المتأخرين كالعلامة ابن الوزير صاحب كتاب"فضائل علماء بن الوزير" يقول أنه لو صح التكفير بالإلزام لزم كفر كثير من أهل المذاهب وتفسيقهم، والكفر والفسق إنما يكون بما يدين المكلف قولاً وعملاً، لا فيما ينكره ويتبرأ منه، .. وقال الإمام يحي بن حمزة: الإلزام هو ظني لا يكفر به، وقد نقل أصحابنا عن الهادي والقاسم بن إبراهيم القول بكفر المتأول، فلم أجد لها نصاً ولا وجدتُ ما يخرج عليه ذلك من مذهبهم، ويقول يحي بن الحسين وهو يشرح هذه المسألة: "والتكفير بالإلزام اختلف علمائنا فيه، فالجمهور على أنه لا يكفر به، ولا يفسق"، وقد قال بعدم التكفير من المتأخرين جماعة كالإمام شرف الدين والفقهاء المعاصرين له، والإمام عز الدين بن الحسن، والعلامة محمد بن إبراهيم الوزير وغيره. انظر: (عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول، ص٤٣- ٤٤)، والإلزام: (هو أن تلزم الغير على ما يقول به ما لا يقول به)، انظر: (إسماعيل الأكوع: الزيدية نشأتها ومعتقداتها، ص٥٧، هجَر العلم ومعاقله، جـ١،ص١٦٧)، فالإلزام طريقة خطيرة لا تبقي رأيا سليما، إذ في وسع كل خصم أن يلزم صاحبه بما يريد. (زيد بن علي الوزير: تحقيق على مقال العلامة بدر الدين الحوثي -حوار حول المطرفية-، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني،صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م،ص٧٩).

١٩٩- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٤، وعن ذلك يقول محمد سالم عزان:"..إنه لا تلازم بين تنزيه المطرفية والطعن في الإمام عبد الله بن حمزة على كل حال، لأنه يمكن أن يقال إن الإمام حكم بما أدى إليه نظره، وهو مجتهد،ومعنيّ بالأمر أكثر من غيره، فقد بنى فعله تجاه المطرفية على أمور

لا نعلم جميعها بالتفصيل، وهذا يوجب له الحمل على السلامة، وشأنه في ذلك شأن الأئمة الذين وقعت بينهم حروب، قُتل فيها كثير من الناس، ومع ذلك لم يجزم أحد من الزيدية بهلاك فريق معين منهم وتُرِك أمر الجميع إلى الله تعالى.. ومع ذلك فلا يصح الحكم سلفاً على مخالفيه بأنهم مخطئون خطأ يوجب لهم القتل والتشريد، وسبي الأهل والذرية، اللهم إلا إذا كان معصوما وخُوِّلف تشريع يوجب هذا النوع من التنكيل، والإمام عبد الله بن حمزة وسائر أئمة الزيدية لا يدعون العصمة لأنفسهم ولا يقطعون بعدم وقوعهم في الخطأ، يقول الإمام زيد بن علي: "إنما نحن مثل الناس، منا المخطئ ومنا المصيب، فسائلونا ولا تقبلوا منا إلا ما وافق كتاب الله وسنة نبيه" صلى الله عليه وسلم. (محمد سالم عزان: المطرفية بين الحقائق والإشاعات، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء،المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م،ص(٧١، ٧٢).

٢٠٠- د.عبد الغني عبد العاطي:الصراع الفكري في اليمن،ص٤٤.

٢٠١- المرجع السابق،ص٤٤.، يذكر صاحب ذوب الذهب الذي عاش في القرن الثاني عشر، أن المذهب المطرفي مكث في اليمن ثلاثمائة سنة، وانتشر في بلاد الزيدية، ولم يبق منهم أحد في زمنه.(على بن الحسن بن القاسم:ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، ورقة ١٤٠، لوحة أ)، وربما كان يقصد بهذه الفترة من بداية إظهار المطرفية الخلاف للمخترعة، لأنهم عاشوا أكثر من ذلك، "وقد بقي من المطرفية جماعة حتى زمن الإمام المهدي علي بن محمد في القرن الثامن الهجري، ثم تلاشى أمرهم ودخل اتباع هذا المذهب في زمرة الناس فاعتنقوا المذهب الزيدي، فكان في هذا الرجوع فائدة وطنية، حيث ضمن لنا وحدة البلاد وعدم تفرقها".(عبد الله الحبشي: المطرفية مذهب مجهول،ص٤٤).

٢٠٢- الأكوع:هجر العلم،جـ١،ص١٦٧.

المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات :

الحجوري،محمد بن يحي بن يوسف(ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م).

-روضة الأخبار، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(٤٣٦) تاريخ، يمن شمالي، جـ٤.

ابن أبي الرجال، أحمد بن صالح بن محمد(ت١٠٩٢هـ/١٦٨١م).

-مطلع البدور ومجمع البحور، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

الشرفي، أحمد بن محمد بن صلاح(ت١٠٥٥هـ/١٦٤٥م).

- الآلئ المضية في أخبار أئمة الزيدية، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(١٩٤٠) تاريخ، جزءان، مخطوط غير مرقم. (ترقيم من قبل الباحث).

علي بن الحسن بن القاسم بن أحمد بن المنصور(ت ق١٢هـ/١٧م):

- ذوب الذهب في محاسن أهل الأدب، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(١٠٥٦) تاريخ.

العنسي، عبد الله بن زيد العنسي.

-التمييز بين الإسلام والمطرفية الطغام، مخطوط مصور عن مخطوط لدى الباحث/ محمد جعفر الباحث بجامعة أسيوط.

اللحجي،مسلم بن محمد بن جعفر(ت٥٤٥هـ/ ١١٥٠م).

-أخبار الأئمة من أهل البيت وشيعتهم باليمن،الجزء الرابع، مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

المحلي، حسام الدين حميد أحمد المحلي(ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م).

-الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/عبد الرحمن الشجاع، مخطوط مصور بالأوفست.

المحلي،سليمان بن محمد بن أحمد المحلي(ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م)

-البرهان الرائق المخلص من ورط المضايق، مخطوط مصور لدى الباحث عن صورة لدى الدكتور/عبد الرحمن الشجاع، ورقة٢)،

ابن المرتضى،ابن جمال الدين بن الهادي بن إبراهيم بن علي المرتضى (ت٩٨٥هـ/١٥٧٧م).

-تاريخ السادة العلماء الفضلاء والأئمة (بني الوزير) علماء الزيدية،مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم(٩٥٦) تاريخ.

يحي بن الحسين ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد الحسني(ت١١٠٠هـ/١٦٨٩م).

-أنباء الزمن، مخطوط بالمكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء، رقم(٤٤٧).

-طبقات الزيدية الصغرى، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

ثانياً: المصادر المطبوعة :

إبراهيم بن القاسم بن الإمام المؤيد بالله(ت١١٥٢هـ/١٧٣٩م).

-طبقات الزيدية الكبرى، القسم الثالث، ويسمى بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد ، تحقيق:عبد السلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمان،الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

- الثقفي،سليمان بن يحي:

-سيرة الإمام أحمد بن سليمان، تحقيق:د.عبد الغني عبد العاطي،عين للدراسات، القاهرة،الطبعة الأولى،٢٠٠٢م.

ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن عمر الشيباني(ت٩٢٤هـ/ ١٥١٨م).

-قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق:محمد بن علي الأكوع، المطبعة السلفية، القاهرة،١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت٩١١هـ/١٥٠٥م).

-تاريخ الخلفاء، تحقيق:عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى،٢٠٠٣م.

أبي فراس ابن دعثم.

-السيرة الشريفة المنصورية،سيرة الإمام عبد الله بن حمزة(٥٩٣-٦١٤هـ)، تحقيق: عبد الغني عبد العاطي، دار الفكر المعاصر،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٩٣م.

الوصابي،وجيه الدين عبد الرحمن(ت٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م).

-تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق:عبد الله محمد الحبشي،مركز الدراسات والبحوث اليمني،صنعاء،١٩٨٣م.

يحي بن الحسين بن القاسم (ت١١٠٠هـ/١٦٨٩م):

– طبقات الزيدية الصغرى، مخطوط مصور لدى الباحث عن مخطوط مصور لدى الدكتور/ عبد الرحمن الشجاع.

–غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م، القسم الأول.

اليمني،عمارة بن أبي الحسن الحكمي(ت٥٦٩هـ/١١٧٤م).

–تاريخ اليمن،تحقيق:محمد زينهم محمد عزب،دار الجيل،بيروت،الطبعة الأولى،١٩٩٢م.

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة:

إبراهيم المقحفي	–معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، طبعة ١٩٨٥م
د. أحمد صبحي	–الزيدية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة،الطبعة الثانية،١٩٨٥م.
أحمد عبد الله عارف	–في علم الكلام (دراسات فلسفية لأراء الفرق الإسلامية في أصول الدين) ،النهضة العربية ، بيروت ، ط٥ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. –الاتجاهات الفكرية في اليمن فيما بين القرن الثالث والقرن الخامس الهجري، المؤسسة الجامعية، بيروت،الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
إسماعيل بن علي الأكوع(جمع وتحقيق)	–البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، مؤسسة الرسالة،بيروت، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
....	–الزيدية نشأتها ومعتقداتها، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الثانية،١٩٩٣م.
....	–هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر، بيروت ، دمشق، الطبعة الأولى،١٩٩٥م.
أيمن فؤاد سيد(الدكتور)	– مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية،القاهرة،1974م.
بدر الدين الحوثي	– المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة،ط١، ١٩٨٨م – حوار حول المطرفية تعليق على مقال: " الجامعات– المساجد في شمال اليمن، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م،

المؤلف	العمل
زيد بن علي الوزير:	تحقيق على مقال العلامة بدر الدين الحوثي –حوار حول المطرفية–، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني،صنعاء، المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م
سيد مصطفى سالم عارف تامر	وثائق يمنية، دراسة وثائق تاريخية، طبعة دار لكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م
عبد السلام عباس الوجيه	–أروى ملكة اليمن، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٨م. أعلام المؤلفين الزيدية،مؤسسة الإمام زيد الثقافية، الأردن،ط١، ١٩٩٩م.
عبد الفتاح أحمد فؤاد	–الإمام الزيدي أحمد بن سليمان وآراءه الكلامية، دار الدعوة،الإسكندرية، الطبعة الأولى،١٩٨٦م.
عبد الله حميد الدين	–الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات، مركز الرائد، صنعاء، الطبعة الأولى،٢٠٠٤م.
عبد الغني عبد العاطي	–الصراع الفكري في اليمن بين الزيدية والمطرفية، دراسة ونصوص، عين للدراسات، القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠٠٢م.
عبد الله الشماحي	–اليمن الإنسان والحضارة، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٤م.
عصام الدين الفقي(الدكتور)	–اليمن في ظل الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٨٢م.
علي محمد زيد	–تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري، المركز الفرنسي،صنعاء،الطبعة الأولى،1997م.
محمد رضا الدجيلي	–الحياة الفكرية في اليمن، في القرن السادس الهجري، المكتبة الوطنية، بغداد،١٩٨٥م.
محمد سالم عزان	المطرفية بين الحقائق والإشاعات، مجلة المسار، مركز التراث والبحوث اليمني، صنعاء،المجلد الثاني، العدد الثاني، ٢٠٠١م،

محمد عيسى الحريري -تطور المذهب الزيدي في اليمن قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لأحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس والعشرون، المجلد السابع، ربيع١٩٨٧م،صفحات(٤٤-٧٥).

رابعاً: المقالات العربية

أحمد بن سليمان -الهاشمة لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الجهال، تحقيق:د. عبد الغني عبد العاطي، مجلة كلية الآداب،جامعة المنصورة، العدد الثاني والثلاثون، يناير٢٠٠٣م

أحمد شوقي العمرجي -الزيدية في اليمن ودورهم السياسي،مجلة كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط، العدد ١٥، إبريل١٩٩٤م.

عبد الله الحبشي -المطرفية مذهب مجهول في اليمن، مجلة اليمن الجديد، العدد الثالث، السنة السادسة،نوفمبر ديسمبر،١٩٧٧م، صفحات(٤٧-٥١).

محمد عيسى الحريري -تطور المذهب الزيدي في اليمن قطعة منتزعة من كتاب شفاء صدور الناس لأحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس والعشرون، المجلد السابع، ربيع١٩٨٧م،صفحات(٤٤-٧٥).

محمود إسماعيل الفِرَق الإسلامية في طور الانحطاط، صفحات(١٤٨-١٥٨)، مجلة العصور الجديدة، القاهرة، السنة الأولى،العدد العاشر،يونيو ٢٠٠٠م

سابعاً: الرسائل العلمية:

أحمد عبد الله عارف -أصول الاتفاق في القضايا الكلامية بين الزيدية والمعتزلة، رسالة ماجستير، قسم فلسفة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة،١٩٨٢.

ثامناً :المراجع الأجنبية:

-Al-Qadi Isma'il Bin Ali al-Akwa, Nashwa'n Ibn Sai'k al-Himyari and The Spiritual, Religious and Political Conflicts of his Era, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen (25 April 1987 to 5 April 1988), Published By Pinguin-VerlalnnsbruckUmschau-Verlag, Franlkfurt/Main, PP.212-231.

-Wilferd Madelung, Islam in Yemen, Yemen 3000 Years of Art and Civilisation in Arabia Felix, at The Staatilches Musesm Fur Volkerkunde Munchen(25 April 1987 to 5 April 1988), Published by Pinguin-verlag, Innsbruch Umschau-Verlag, Franlkfurt/Main,PP.174-177.



الملاحــق

المراسلات بين المطرفية والإمام عبد الله بن حمزة

في بداية الخلاف بين الطرفين. (*)

قدم رجل من المطرفية يقال له عمار بن ناصر الشهابي إلى ذي مرمر فحضر المدرسة المنصورية هناك، وجرى فيها الحديث عن مذاهب الخصوم ومن بينهم المطرفية، ولما رجع الرجل المطرفي إلى هجرة وقش بث شكواه وحكى غير ما شاهده وسمعته أذناه وذكر ما دار في المدرسة المنصورية من السب للمطرفية فشق ذلك عليهم وزادهم نفارا، وكتب إليهم الإمام يدعوهم فلم يزدهم دعاؤه إلا فرار، وجاء كتاب الفقيه علي بن يحي البحيري معرضا بذلك وعاتباً فيما جرى من السب والأذى، وما خص به ذلك الرجل من الاستخفاف والبذاء، وجعل في صدر كتابه أبياتاً قال فيها:

مقام أمير المؤمنين بن حمزة أجل وأعلى أن يحيط به وصفي

رفعتُ إليه الطرف فارتد خاسئا ولا غرو أن يرتد من خجل طرفي

وأيقنت أن الصيد ما ضمه الفرا فقلتُ لكفي عن كتابته كفي

على أنني في القرب والبعد عنده موالاته حصني المنيع ولا أخفي

ومما جاء في كتابه: ... ولعل العواطف الإمامية، والآراء الموفقة المنصورية، أن تؤنس المملوك بكف أهل تلك الأذية، والخيار إليه سلام الله عليه من قبل أن تزيغ قلوب فريق منا، فلإنسان خلق هلوعا، فقد كان في أول الأمر أصبح الناس رحماء بينهم، لا تسمع إلا سلاما سلاما، وكل شي على منتهى أمله من سكون الدهماء وحسن الحال، وتمام النعماء،والدعاء لأمير المؤمنين بطول البقاء لما ساق الله إلى الجميع بسببه، وأجراه من الصلاح على لسانه ويده، بالرفق الذي لا ضعف معه، والشدة التي لا يشوبها عنف، وعلو الهمة وقلة الغفلة، وأحكام السياسة وصواب التدبير، فأشد الناس بعداً عنه كالقريب، وأقربهم منه في حق الله كالغريب، فما أحد يعدو قدره ولا يتجاوز حده، ولا يتكلم إلا فيما يعنيه.

ومع ذلك تزداد الأمور إلا إحكاماً، ولا عقود الدولة الميمونة إلا انتظاماً حتى انطلقت الألسن المعقودة، وانبسطت الأيدي المعقولة بعدل أمير المؤمنين، ولم يكن ينبغي لصاحبه في العموم فما

* - نقلا عن: أبي فراس بن دعثم: السيرة الشريفة المنصورية.جـ٣.ص٥٣٦-٥٤٥.

شأن الخصوص وأمير المؤمنين يعلم ما الوافر كالمقصوص،فإن رأى الإنصاف ممن تولى كبره، ولكل امرئ منا ما اكتسب من الإثم، وليت أنا بقدر الحب نبتسم.

... وفي هذه الدلالة صفة العلة ولعل جوابها أن يروى من الغلة وقد تضمنت فصولاً كثيرة هيج دفينها وصول الشيخ عمار بن ناصر الشهابي، وما انقلب به من تشريف الإخوان. فالله يبقيهم والسلام.

وقد رد عليه الإمام عبد الله بن حمزة كتابا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. سلام عليك.. أما بعد. فإن كتابك وصل إلينا بتحقيق الموجب لما تقدم وتأخر من المراجعة، فيما يقطع المشاحنة والمنازعة، ويؤدي إلى الألفة، ويمنع الخلفة، وتلك سبيل الصالحين، وشعائر أهل الدين، وقد كان ذلك كما ذكرت أولى، وجرت به السنن أولاً ثم نجم بعد ذلك ناجم الخلاف بالطعن والتخلف لغير حدث أوجب ذلك، ولا رأي يقبل، بل على منهاج السلف الصالح... وأهم الأمور علينا ما يعود على الزيدية أصلحها الله بلم الشمل وطرد دواعي الجهل وقد كان فيما تقدم لهم عذر، فإن كان غير واضح في الاختلاف فما العذر بعد قيام قائم من آل محمد صلوات الله عليه وعليهم، إنما الخلاف قبله، وعنده يرجع الجميع إلى رأيه،وتنقطع دواعي الفتنة بيمون نظره.....هذه منابر آل محمد صلوات الله عليهم معطلة من ذكرهم منذ دهر طويل، وفيئهم مأخوذ، وحقهم مغصوب، وثأرهم مطلول، والفرقان فيما اختلفوا فيه موجود، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، فأما إذا لم تبق إلا المغالبة فما أحد يخبئ عن نفسه ما يجده كما قال ضرار بن الخطاب: وعن أي نفس بعد نفسي أقاتلُ، وكان صاحب الأمر إذا اضطرته الأمر هادن، وإن قام عمودها فاتن، فأي الفريقين كان أو متى وصل الأرض قبل صاحبه. نانظر في ذلك بما يوفقك الله سبحانه ويعينك عليه، فصاحب هذا الأمر على وجهين إما أن يظهر، فأقبح الأمور على من ينتسب إلى الدين أن يظهر وليس معه لسان صدق، وإما أن لا يظهر وند حق له استحقاقه،كانت حسرة، فأكثر الأئمة لم يطبق على إمامته إلا بعد موته، وإن لم تظهر له حجة على استحقاقه كان شبهة يجب أن يكون في حلها على يقين، ولم يرتكبها على الخطر ويتمسك بحبل الغرور وهن متمكن الاستبصار بالوصول إليه،والمراجع له في أموره، والسلام، وصلى الله على محمد وآله وسلم.



د. رضوان أحمد الليث[*]

المسلمون وأهل الذمة في بلاد الشام في عصر الخلافة الراشدة

يعد الدين الإسلامي ديناً عالمياً لكل البشر، ولذلك نجده يتجاوز حدود البلدان والأقاليم، لأنه ليس ديناً قومياً خاصاً بالعرب، وإنما لكافة الناس في الأرض، يقول الله عز وجل {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[١].

وبما أن الإسلام خاتم الرسالات السماوية فلا بد على أتباعه من إيصال دعوته إلى كل الناس بمن فيهم أصحاب الديانات ذات الأصل السماوي وأتباع العقائد الوضعية ، والدعوة تقوم على أساس البلاغ فقط لقوله عز وجل {وما على الرسول إلا البلاغ المبين}[٢]. وكذلك عدم إكراه الناس على اعتناق الإسلام، لأنه لا يجوز شرعاً لقول الله تبارك وتعالى { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي }[٣] ، وإنما الدعوة تقوم على أساس التوجيه الإلهي القائل في محكم كتابه (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)[٤].

فقام النبي صلى الله عليه وسلم ، بناءً على هذا التوجيه الرباني بدعوة اليهود في يثرب إلى الإسلام، لكنهم رفضوا وفضلوا الاحتفاظ بدينهم مقابل دفع الجزية، وعرض الإسلام أيضاً على نصارى نجران، لكنهم فضلوا البقاء على دينهم مقابل تسليم الجزية، ولم يحدث أن تعرض اليهود أو النصارى إلى مضايقات أو اعتداءات بسبب عدم إسلامهم، لأنه لا يجوز طالما وقد أقروا بالجزية ودفعها للمسلمين، كما أمر الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}[٥].

* أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته المشارك - قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة صنعاء.

وبناء على هذا فقد صار على المسلمين حمايتهم، وعدم التعرض لهم بسوء، وحذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين من ذلك بقوله ((من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة))[٦١] ، وأمام هذه النصوص وغيرها، لابد أن يتم التعامل مع أهل الذمة على ضوئها .

وهنا لا بد علينا أن نتعرف على سلوكيات المسلمين مع أهل الشام أثناء الفتح وبعده، سواء كانوا خلفاء أم قادة أم أفرادا، هل وجد تطابق بين النصوص والعهود وتعامل المسلمين مع أهل الذمة؟ أم كانت النصوص والعهود في واد والتعامل في واد آخر؟ وماذا عن ردة فعل سكان بلاد الشام تجاه المسلمين أثناء الفتح ، هل كانت عدائية أم حيادية أم مناصرة للروم ، أم مؤيدة للمسلمين ؟

وهل تغيرت أحوال سكان بلاد الشام بعد أن أصبحوا من رعايا الخلافة الإسلامية ؟ أم ظلت على ما كانت عليه في عهد الروم ؟ وإذا حدثت تغيرات فما هي وهل كانت سلبية أم إيجابية؟ ولمعرفة ذلك تم تقسيم البحث إلى محورين رئيسين :

المحور الأول: المسلمون وأهل الشام عند الفتح من خلال وصايا الخلفاء الراشدين تجاه سكان البلاد المفتوحة، وتعامل المسلمين مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح، وكذلك موقف سكان الشام من المسلمين .

أما المحور الثاني فهو : حقوق أهل الذمة من سكان بلاد الشام بعد الفتح، ويتناول الحقوق التي صارت لسكان بلاد الشام بعد أن أصبحوا من رعايا المسلمين ، مثل : حرية الاعتقاد ، الحرية السياسية، حماية الملكيات، حرية المتاجرة والكسب، حرية التقاضي والعدل، كما يتناول أيضاً واجبات أهل الذمة .

المحور الأول : المسلمون وأهل الشام أثناء الفتح :

تحقيقاً للتكليف الرباني بعد أن انتشر الإسلام واستقرت أركانه في أنحاء الجزيرة العربية كان على المسلمين أن يستكملوا ما كان قد بدأه الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر الإسلام خارج الجزيرة بدءاً بأقربها داراً وهي بلاد الشام .

فقد تولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان أول عمل بعد قضائه على حركة الردة، إعداد الجيوش الإسلامية، وإرسالها للقيام بالفتوحات الإسلامية ومنها بلاد الشام، وحرص

على تقديم الوصايا والتعليمات لقادة الجيش الإسلامي، تتضمن الإحسان إلى سكان بلاد الشام، وعدم التعرض لهم بسوء.

إن إقامة العدل بين الناس من الأمور المطلوبة والأساسية، وما أنزل الله سبحانه وتعالى الشرائع إلا للتوحيد ولإقامة العدل ورفع الظلم عن المظلومين، وردع الجبارين .

والشريعة الإسلامية اهتمت بهذا الجانب، ولم يحد عن هذا الخلفاء والمسلمون، لأنهم ملزمون ومكلفون من رب العالمين لقوله تعالى : {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي}(٧)، ويقول سبحانه وتعالى {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}(٨).

وأمام هذه النصوص وغيرها، لا بد على المسلمين أن يوفوا بها ويسيروا عليها، فكانت رعاية الخلفاء لهم كبيرة، والاهتمام بأحوالهم واجبة، فمن توصية الخليفة أبي بكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما المتجه نحو بلاد الشام قوله: "يا يزيد، إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه، وإذا لقيت العدو فأظفركم الله بهم، فلا تغلل ولا تمثل، ولا تغدر، ولا تجبن، ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تعرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلة، وستمرون بقوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم "(٩).

هذه الوصية من خليفة رسول الله أمراً صريحاً بأن على المسلمين المشتركين في عملية الفتح (قادة أم أفراد) أن يتجنبوا بعد انتصارهم على القوى المانعة لوصول الإسلام إلى السكان، الغلل أي الحقد والضغينة، وكذلك عدم التمثيل بجثث أعدائهم بعد النصر لأنه لا يجوز، وعدم الغدر، وعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعدم حرق الأشجار وتقطيعها لأن الإنسان المسلم وغير المسلم، يستفيد منها، ولأن الإسلام يبني ولا يهدم، لقول الله تعالى {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة}(١٠).

وفسر العلماء هذه الآية بأن المقصود هو التعمير(١١).

وتلزم وصية الخليفة السابقة المسلمين، عدم التعرض لبهائم سكان البلاد التي يتم فتحها إلا بالحق، والأهم من هذا عدم التعرض لرجال الدين، والمتعبدين في دور عبادتهم من النصارى.

ويبدو أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه، لم يكتف بتلك الوصايا، بل كانت توجد لديه عيون لمراقبة أعمال المسلمين في بلاد الشام، وكيفية تعاملهم مع سكانها، والرفع إليه في حالة المخالفة بصورة مباشرة دون علم القادة، فعندما فر أهالي قرى الداريين من قراهم خوفاً على أنفسهم من القتل ظنا منهم أن المسلمين لن يتركوهم وشأنهم كما صور لهم، وصاحب هروبهم ترك دورهم وأراضيهم، وربما وجد بعض المسلمين من ذهب ظنه بأنه أحق بها، فلما وصل الخبر بفساد المسلمين إلى الخليفة كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح رسالة قال فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر الصديق إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: "امنع من كان يؤمن بالله واليوم الأخر من الفساد في قرى الداريين، وإن كان أهلها قد جلوا عنها، وأراد الداريون أن يزرعوها، فإذا رجع أهلها إليها فهي لهم، وأحق بهم والسلام عليك"(١٢).

ولم يكتف بذلك بل أرسل رسالة إلى الداريين أصحاب تلك البلاد يطمئنهم على أراضيهم وحمايتها من العابثين، ويكلف عمرو بن العاص بحراستها والدفاع عنها من كل طامع، جاء فيها "هذا كتاب من أبي بكر أمين رسول الله الذي استخلف في الأرض بعده، كتبه للداريين ألا يفسد عليهم مأثرتهم قرية حَبْرى(١٣) وبيت عينون(١٤)، فمن كان يسمع ويطيع فلا يفسد منها شيئاً، وليقم عمرو بن العاص عليهما فليمنعهما من المفسدين "(١٥).

وهذا الكتاب يمثل اهتمام قيادة الدولة الإسلامية بسكان البلاد أثناء الفتح وحرصها على المحافظة على كافة ممتلكاتهم المالية والعينية، فلم يكن دافع الفتح بالنسبة للمسلمين الحصول على الغنائم بأي صورة من الصور ، كما يصوره البعض، ولكن قد يوجد منهم من له رغبة في الغنائم، غير أنه يواجه بالشدة والمنع والمعاقبة.

وبما أن المنبع المُسْتَقَى منه واحد فلم يختلف عمر بن الخطاب عن سلفه، أبي بكر رضي الله عنهما في توصية الجيش الإسلامي المتجه نحو الأمصار ومنها بلاد الشام التي لم يكن قد استكمل فتحها في عهد أبي بكر رضي الله عنه ويتمثل ذلك في قوله "بسم الله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، والنصر، ولزوم الحق، والصبر، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ثم لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تتكلموا عند الجهاد ولا تقتلوا امرأة، ولا هرماً، ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الجمعان، وعند حمة النهضات، وفي شن الغارات..."(١٦).

ونجد هنا أن وصية عمر رضي الله عنه لم تخرج عن وصية أبي بكر رضي الله عنه، فالرؤيا واحدة تجاه سكان البلاد المفتوحة من أهل الذمة، ونلاحظ هنا تأكيدها على تجنب قتل الأطفال والشيوخ والنساء. مع تفصيل ما أجملته وصية أبي بكر في هذا الجانب من حيث طلب عمر في وصيته أن يتجنبوا قتل الفئات السابقة، حتى وإن كانوا يوجدون في ميدان القتال، وفي مختلف مراحل المعركة، ولم يرد في الأمر إلا من ناحية وصيته في لزوم الحق، وأن يتجنبوا الاعتداء على كل شيء مملوك للسكان.

وبلغ حرص الخليفة عمر رضي الله عنه بشئون أهل الذمة، أنه في مرضه الذي مات فيه أوصى بهم من سيخلفه على المسلمين بهم بقوله "أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً أن يوف لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم"(١٧).

وهذا دليل على الحرص على الإيفاء بما عاهد به المسلمون أهل الذمة، بل والدفاع عنهم من أي اعتداء قد يتعرضون له، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم سواءً أكان ذلك بالجزية أم الخراج، وهذا من الناحية المادية أو تكليفهم بأعمال لا يستطيعون القيام بها، فالواجب الرفق بهم.

أما في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه، فقد صارت البلاد المفتوحة تحت حكم المسلمين، ولذا كانت وصيته إلى الولاة على الأقاليم ومنها بلاد الشام، أن يستوصوا بأهل الذمة خيراً فقال: "... ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم"(١٨).

وبما أن أهل الذمة صاروا من رعايا الخلافة الإسلامية، فكانت وصية الخليفة عثمان رضي الله عنه بالتعامل معهم وفقاً بما أوجبه الشرع الإسلامي بإعطائهم حقوقهم، وإلزامهم بما عليهم من واجبات.

وبذلك نجد أن وصايا الخلفاء الراشدين نفسها، لم تخرج عن الوصايا التي وردت في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

تعامل المسلمين مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح:

كان المسلمون أثناء الفتوحات الإسلامية يتمثلون تعاليم كتاب الله عز وجل وسنه نبيه صلى الله عليه وسلم، والتي تمثلت خلاصتها في وصايا الخلفاء الراشدين التي سبق الإشارة إليها.

فالمتأمل في العهود التي منحها القادة المسلمون لأهالي المدن الشامية، يجد أن مضمونها وأهدافها واحدة، لم تختلف منذ فتح أول مدينة وحتى اكتمال الفتح للشام، فهذه بُصرى أول مدينة فتحت وعقد أهلها صلحاً مع المسلمين بموجبه يتم منحهم الأمان على دمائهم وأموالهم وأولادهم مقابل دفع الجزية[١٩].

وسار المسلمون بالأسلوب نفسه الذي ساروا عليه مع سكان بُصرى، حيث أعطى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عهد الأمان لأهل لُدّ ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا ملكها، ولا من صلبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، وعلى أهل لُدّ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام"[٢٠].

ولم تخرج العهود التي أعطاها أبو عبيدة رضي الله عنه لمدن الشام، من حيث المضمون والالتزام مع العهد الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر لأهل لُدّ وسائر أهل فلسطين ، فقد أعطى أبو عبيدة عهد الأمان لأهل بعلبك على الحرية الدينية، وعدم الاعتداء على كنائسهم وأموالهم: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادي الأولى، ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج، شهد الله وكفى بالله شهيداً"[٢١].

إن العهود التي أوردناها سابقاً على سبيل المثال، لم تختلف عن العهود التي عقدت مع بقية المدن الشامية، فقد تضمنت الآتي:-

- الحرية الدينية فلا يكرهون على اعتناق الإسلام، ولا ينزل المسلمون كنائسهم بغرض السكن أو تهدم أو ينتقص من أجزائها.

- إعطائهم الأمان على أموالهم ودورهم، فلا يجوز التعرض لأموالهم بالمصادرة أو النهب، أو فرض إتاوات بغير حق تتجاوز ما هو مقرر عليهم من الجزية والخراج.

- منح أهل الذمة الأمان على أنفسهم، فلا يجوز التعرض لهم بالأذى الجسدي أو النفسي بالضرب أو الحبس أو السب أو القتل لمجرد الاختلاف في العقيدة، وكذلك عدم التمييز بينهم.

- المساواة بينهم في دفع الجزية، فلا يوجد تمييز بين شخص وآخر، أو مدينة وأخرى، بل الجميع متساوون في تسليمها ومقدارها.

- وعلى الرغم من أن الجنود الروم يعدون أعداء للمسلمين كونهم هم الذين يعدون العدة ويحاربون المسلمين، ومع ذلك نجد أن المسلمين لا يخرجونهم عن عهود الأمان، فأعطوهم مساحات لرعي مواشيهم، ومنحوهم مهلة شهرين للتفكير إما في دخول الإسلام أو البقاء على دينهم ، وعليهم الجزية ، وإما الخروج إلى حيث يشاءون، وهذا يمثل قمة العدل والتسامح مع أعدائهم.

ويبلغ من حسن تعامل المسلمين مع سكان البلاد التي تم فتحها، احترام رغباتهم فيما يريدون، فقد طلب أهل إيليا من أبي عبيدة الأمان والصلح مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام، وشرطوا عليه أن يكون المتولي لعقد الصلح معهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوافق أبو عبيدة وأرسل إلى أمير المؤمنين بالخبر، الذي وافق على ذلك وقدم الشام، وانعقد الصلح معهم[٢٢].

ولو كانت المسألة غالب ومغلوب لرفض المسلمون طلبهم وأصروا على فتحها ، ولكن احترام رأي الأهالي وسماع ما يقولونه مطلوب، حتى يكتمل الخير وتعم الفائدة الجميع.

وقد التزم المسلمون أثناء الفتح الإسلامي بوصايا الخلفاء، وطبقت على أرض الواقع فيما يخص عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ سواءً عند المعارك أو شن الغارات على المدن التي لم تدخل في صلح مع المسلمين. ففي معركة من المعارك حمل صفوان بن المعطل على رومي وقتله وبجواره زوجته عليها سلاح، فلما رأت زوجها قتل، حملت على صفوان الذي لم يتعرض لها" فأومأ إليها بالسيف ولم يضربها ، لكنه حمل عليها فولت المرأة من بين يديه"[٢٣]. وكان بإمكان صفوان أن يأخذها سبيه له أو أن يستمر في ملاحقاتها حتى يبث الرعب في قلبها ويخيفها، لكنه فضل تركها.

ومثال آخر يؤكد مدى التزام المسلمين بوصايا الخلفاء ، وعدم مخالفتها أنه أثناء إغارة المسلمين على المعرة[٢٤] وبلدة العواصم[٢٥] وقنسرين[٢٦] وكفر طاب[٢٧]، وقع في الأسر نساء وأطفال ورجال، وأصطحبهم الجيش الإسلامي إلى مركز القيادة، فلم يتلذذ عياض بن غنم بمنظر النساء والأطفال وهم يبكون، فأمر بإطلاق سراح الجميع بعد أن أقر الرجال بدفع الجزية[٢٨]. ولم تذكر المصادر التاريخية بأن رجلاً من المسلمين انتهك عرض امرأة سواءً كانت أسيرة أم غير ذلك.

ومما يحسب أيضاً للمسلمين أثناء الفتح عدم ترويع سكان البلاد المفتوحة بعدم مهاجمتها مباشرة وإثارة الفزع والخوف بين سكانها ، وكانوا يعسكرون خارج المدن، وهذا ما حصل في بعلبك، فلم يدخلها المسلمون بل عسكروا خارجها ، ولم يسمح لأي فرد من المسلمين بدخولها[٢٩].

والأمر ذاته حدث مع أهالي حمص، فقد عسكر المسلمون خارجها ، ونتيجة لأخلاق المسلمين وحسن تعاملهم مع المدن الأخرى، نجد أهل حمص يعرضون على أبي عبيدة الدخول إلى مدينتهم ليقينهم بصدق المسلمين والتزامهم بعهودهم في عدم التعرض لأموالهم وممتلكاتهم، ولكنه رفض عرضهم واستقر مع جيشه خارج المدينة ، وظل المسلمون في معسكرهم ولم يدخلوا حمص إلا بعد معركة اليرموك ١٥هـ/ ٦٣٦م[٣٠].

إن عدم دخول المسلمين المدن وبقائهم خارجها ، لا يعني عدم الاختلاط مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح، فقد كانت العلاقات بين الجانبين تقوم على الاحترام المتبادل، وازدهرت المدن الشامية تجارياً بوجود المسلمين .

فنجد حدوث رواج تجاري في بعلبك لأن المسلمين كانوا يغيرون على المناطق الساحلية التي فيها الروم والعرب الذين لم يدخلوا في صلح معهم، فيعودون محملين بالغنائم فيبيعونها لأهل بعلبك الذين يفرحون ببيع المسلمين وشرائهم. "وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالاً عظيماً"[٣١].

ولو كان المسلمون شرهين ومحبين للأموال وجمعها، لجعل ذلك أهل بعلبك ينفرون منهم ويقاتلونهم، ولكن الأموال الطائلة التي جنوها من وراء وجود المسلمين كان بالنسبة إليهم نعمة، حلت عليهم من السماء .

غير أن فرحتهم بما ربحوه من تلك التجارة لم تكتمل ، لأن تلك الأرباح التي جنوها فتحت شهية بطريق بعلبك الروماني للأموال، فطالبهم بالعشر من أرباحهم فوافقوا لكثرة أرباحهم، فطمع

بهم أكثر وطالبهم بربع أموالهم، ومما قاله لهم: "أنا أعلم أن هذه المدينة في كسب عظيم وتجارة رابحة، ما رأى أهل بعلبك مثل هذا أبداً"[٣٢].

إن ما قام به بطريق بعلبك، يعد شهادة للمسلمين على تعاملهم الراقي مع سكان بلاد الشام أثناء الفتح القائم على إعطاء كل ذي حق حقه، والبعد عن الجشع والطمع في أموال الآخرين، وأن خروجهم كان للدعوة، وما يحصلون على غنائم يتم بيعها برخص للسكان كونهم لا يريدون إلا متطلبات احتياجاتهم فقط دون تكديس الأموال وجمعها، ولأن هذا يتعارض مع النصوص الشرعية، وأهداف خروجهم.

ونتيجة للفارق الشاسع بين تعامل البطريق وتعامل المسلمين مع السكان، ثار الأهالي ضد البطريق وقتلوه مع غلمانه، وطلبوا من المسلمين دخول المدينة[٣٣].

إن التجارة لا يستقيم أمرها في حالة عدم الاستقرار وغياب الأمن والأمان، وشيوع الحروب أو وجود إدارة فاسدة، تعبث بالأموال والممتلكات.

ومع وجود الجيوش الإسلامية في بلاد الشام، كان تجار المدن يسعون إلى عقد صلح مع المسلمين الذين كانوا يتمتعون برؤية صائبة تجاه التجارة التي يستقيم حال السكان بها، ويطمئنون لتوفر احتياجاتهم وسهولة الحصول عليها بيسر وأمان. فعندما ذهب أهل حلب من التجار والعاملين بالسوق وغيرهم إلى أبي عبيدة يطلبون منه عقد الصلح معهم حفاظاً على مصالحهم، قال: "إن هؤلاء أهل متجر وسوقة وصناع وهم مستضعفون، وقد رأينا أن نحسن إليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم"[٣٤].

أما تجار وسوقة حمص فكانوا يخرجون إلى معسكر المسلمين، بعد عقد صلح معهم فيبيعون ويشترون، ويربحون الأموال الكثيرة، وسهل لهم الأمر سماحة المسلمين في بيعهم وشرائهم[٣٥].

والمعروف أن التجار لا يمكن أن يخرجوا للبيع والشراء في معسكر للعدو، لا يأمنوا فيه على تجارتهم وأموالهم، ولكن لما زال الخوف من الجيش الإسلامي، ولمعرفتهم من شواهد سابقة لمسوها أن هؤلاء لا يتعرضون لحقوق الآخرين مهما كانت .

موقف سكان بلاد الشام من المسلمين أثناء الفتح:-

لم تكن الانتصارات العسكرية التي حققها المسلمون هي السبب في ضم بلاد الشام إلى دار الإسلام، بل كان هناك ما هو أعظم منها تأثيراً على السكان، ألا وهو الجانب الأخلاقي، فقد كان له تأثير عظيم على هؤلاء السكان، حيث كان المسلمون يتمتعون بأخلاق عالية وإن شذ عنهم القليل، فلم يغدروا أو يخالفوا ما عقدوه مع السكان من عهود الصلح، أو يعترضوا الطرق بهدف السلب والنهب، فكانت أخلاقهم النابعة عن الدين الإسلامي، تؤثر في السكان وتجعل أهل البلاد التي لم تفتح بعد يسعون بأنفسهم لعقد الصلح مع المسلمين، ليس خوفاً منهم، وإنما لما سمعوه عن سلوكهم وأخلاقهم.

فهذا أمير " قدمه " يجمع رعيته عند سماعه بقدوم المسلمين، ويقول عنهم لقومه "إن قومنا يتحدثون بعدلهم وحسن سيرتهم، وإنهم لا يطلبون الفساد"(٣٦). ولما عرض عليهم عقد صلح مع المسلمين فرحوا واعدوا مستلزمات الضيافة لهم دون تكليف أو إكراه من أحد(٣٧).

وأما أهل حماه فخرجوا ومعهم الإنجيل يعرضون الصلح على أبي عبيدة، ويقولون له "نريد أن نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم أحب إلينا"(٣٨).

والواضح من ذلك أن سمعة المسلمين الطيبة وحسن أخلاقهم في التعامل مع الأهالي، وكذلك عدلهم ذاع في أنحاء بلاد الشام، حيث صار الأهالي يتحدثون عن سماتهم ويثنون عليهم، فأثناء قدوم الجيش الرومي لقتال المسلمين قبل معركة اليرموك، وكان معهم أحد نصارى العرب والذي روى ذلك بقوله "وأقبلت مع الروم فجعلنا لا نمر بأحد من أهل البلد، إلا وجدناهم أحسن شيء ثناء على العرب في كل شيء من أمرهم وفي سيرتهم"(٣٩).

إن ما ذكره هذا العربي النصراني صحيح فلو كان الأمر خلاف ذلك لذكره، ومما يؤكد صدق كلامه أن أهل الذمة في بعض المدن صاروا عيوناً للمسلمين، فنجد أهل شيزر(٤٠) بعد استقبالهم لأبي عبيدة وعقد الصلح معه، يخبرونه بأن هرقل قد بعث جيشاً بقيادة جبلة بن الأيهم الغساني ومعه العرب المتنصرة والروم بعشرة آلاف فارس بعد استنجاد صاحب قنسرين، ونزولهم بجسر الحديد، وطُلب منه أن يكون على حذر منهم(٤١). فكان ينبغي على أهل شيزر أن يقفوا مع الروم إخوانهم في العقيدة ضد المسلمين، ولكن حدث العكس، فقد صاروا عيوناً للمسلمين يراقبون تحركات الروم، وينقلون الأخبار إليهم بدون إكراه أو إلزام، لقناعتهم بعدل المسلمين وإحسانهم، فصاروا أحب إليهم من إخوانهم في العقيدة.

وفي حلب حدث انقسام بين والي المدينة الرومي الذي استعد بجيشه وخرج لقتال المسلمين، وبين الأهالي المرحبين بقدومهم، حيث خرج ممثلو الأهالي سراً وبدون إذن البطريق إلى أبي عبيدة يطلبون الصلح "جئنا نطلب منكم الصلح"[٤٢]. بما يشير إلى رفضهم مبدأ القتال. ولولا حسن تعامل المسلمين مع السكان، لما فعل أهالي حلب ما فعلوه، ولو رافق دخول المسلمين للمدن والقرى القتل ، والسلب والنهب والاعتداء على الأعراض لصمد الأهالي مع الجيش الرومي، وقاتلوا معه وسينتصرون في النهاية، لأن من يقاتلونهم عبارة عن لصوص وقتله لا هم لهم إلا أنفسهم وتحقيق مصالحهم.

أما سكان حمص فقد بادروا إلى طلب صلح المسلمين قبل وصولهم وكذا طلب الأمان لهم، فأمنهم المسلمون، فرحبوا بهم عند وصولهم وأخرجوا لهم الطعام ولبهائمهم العلف[٤٣].

ووجد من أهل الشام أفراد يتعاونون مع المسلمين، لأنهم لم يروا منهم إلا كل خير، ومن هؤلاء شخص حمل رسالة من المسلمين إلى بطريق حمص، ويبدو أنه كان شخصية لها مكانتها ومعروفة في المجتمع الشامي، حتى إن البطريق استغرب من تصرفه، وسأله: "أرجعت عن دينك إلى دين العرب؟ قال : لا، ولكن في ذمتهم وعهدهم أنا وأولادي وأهلي ومالي، وما رأينا من القوم إلا خيراً..."[٤٤].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن أهالي حمص استعدوا لقتال الروم إلى جانب المسلمين بعد انسحاب المسلمين منها، وتعاهدوا على قتال جيش هرقل إذا حاول اقتحام المدينة، وأقسم اليهود :"والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد"[٤٥]. وأغلق الأهالي الأبواب، وتناوبوا الحراسة عليها، ولما علم أهل الذمة الذين صالحوا المسلمين في مدن الشام الأخرى، بذلك استعدوا لقتال الروم إلى جانب المسلمين، خوفاً من عودتهم إلى العبودية الرومية، بعد أن حررهم الإسلام منها ورفع عنهم الظلم.

ولو سار المسلمون على نهج الروم لوقف أهل الذمة على الحياد، لأنهم لا يريدون الجميع، وربما وقفوا إلى جانب الروم بحكم الرابط الديني ، ولكنهم رأوا مصلحتهم أن يكونوا تحت حكم المسلمين، لأنهم أرحم بهم، وقالوا:"إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه"[٤٦].

وبعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك فتح أهل الذمة مدنهم للمسلمين، وعادت العلاقة بينهم بموجب العهود السابقة.

وبرغم ترحيب الغالبية العظمى من أهل الذمة بالمسلمين، إلا أنه وجد من بينهم من يُكِن للفاتحين الكراهية ويرغب في القضاء عليهم، مثل أهل بيت المقدس، الذين سعوا في البداية إلى الصلح واشترطوا عقده مع الخليفة عمر رضي الله عنه، وعلى الرغم من مجيئه وعقد الصلح معه، إلا أنهم حاولوا بعد ذلك الغدر بالمسلمين وقتلهم وهم في الصلاة بدون سلاح، غير أن بعضهم نصح بعدم الإقدام على هذا العمل، حتى لا ينقضوا الصلح، وطلب منهم بدلاً عن ذلك بإغرائهم بما يملكون من الأموال والمتاع، بعرضها في طريقهم، فإذا اعتدوا عليها كان لهم الحق في قتالهم(٤٧).

فعمل الأهالي بهذه النصيحة واخرجوا كل ما لديهم من مال ومتاع ووضعوه في الطريق، فكان المسلمون ينظرون إلى ذلك في دخولهم وخروجهم، وهم يعجبون من ذلك الأمر، ويقولون :"الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم لهم مثل هذا"(٤٨).

ومن ثم فقد حدث عكس ما كان يخطط له، فلم يلتفت أحد من المسلمين لما تم عرضه بل نجدهم يستغربون من تصرفات سكان بيت المقدس، وربما أصاب أهل الذمة الحيرة والدهشة من تصرفات المسلمين، وتغيرت نظرتهم تجاه المسلمين بعد تأكدهم من رقي سلوكهم بعد هذا الاختبار العملي، إذا لم تذكر المصادر التاريخية التي أطلعنا عليها، وحسب علمنا تكرار مثل هذه الحادثة أو غيرها خلال الفترة الزمنية لهذا البحث.

وقد لفت سلوك المسلمين الراقي انتباه بطريق دمشق ومعه قادته، وأعجبوا بهم، فعندما كانوا "يغيرون على أطراف دمشق وأصابوا نفلاً أتوا به في المقسم فلم يستحل أحد أن يغل شيئاً حتى أن الرجل من المسلمين، كان ربما أتي بكبة من غزل وبكبة من الصوف والشعر والإبرة و المسلة، وما فوق ذلك فيسلمه إلى صاحب المقسم"(٤٩).

والمطلع على كتب التاريخ لا يجد مثالاً مشابهاً لما قام به أهالي بلاد الشام مع المسلمين، ولولا الرعاية لهم والمحافظة على العهود من قبل المسلمين لما حدث من الأهالي هذا التأييد والترحيب وتذليل كافة الصعوبات التي تعترض طريقهم.

المحور الثاني : حقوق أهل الذمة من سكان الشام بعد الفتح :

تغير وضع سكان بلاد الشام بعد أن صاروا من رعايا الخلافة الإسلامية، وأصبح وضعهم

أفضل مما كانوا عليه في عهد حكم الروم، الذي استمر سبعة قرون[٥٠]. حيث أصبح لهم حقوق عديدة لم يكونوا يتمتعون بها مثل : حرية الاعتقاد والحرية السياسية، وحماية ممتلكاتهم، وحرية التقاضي والعدل، وحرية المتاجرة والكسب، وغيرها من الحقوق، وأصبحوا في الوقت نفسه ملزمين بتأدية واجبات تجاه الخلافة الإسلامية.

فقد كفل الإسلام لهم هذه الحريات ورعاها وحافظ عليها، ولم تكن هبة منحها المسلمون- قادة وأفراد- إذ لو كان الأمر كذلك لتغيرت السياسة من قائد إلى آخر وفقاً لأهوائهم .

حرية الاعتقاد:

الحرية بالنسبة للإنسان من ضروريات حياته، فلا يمكن أن يستغنى عنها بأي حال من الأحوال، والحرية تشمل نواح عدة من بينها حرية الديانة وممارسة شعائرها بدون تدخل من أحد، والإسلام لا يدعو أتباع الديانات الأخرى مثل النصرانية واليهودية وغيرها إلى اعتناق الإسلام بالإكراه، وإنما ترك لهم حرية الاختيار وهذا ليس اجتهاد من المسلمين، وإنما أمر ملزم من رب العالمين {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}[٥١]. وبالتالي فما على المسلمين سوى التنفيذ، والالتزام بما ورد.

فقد انتشر الإسلام بالدعوة القائمة على الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وسار المسلمون في بلاد الشام على هذا النحو، فقد عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء وجوده في بلاد الشام الإسلام على امرأة نصرانية عجوز، لكنها رفضت وفضلت الاحتفاظ بدينها حيث قال لها:"أسلمي تسلمي، بعث الله محمداً بالحق، فكشفت عن رأسها فإذا مثل الثغامة[٥٢]، فقالت: عجوز كبيرة، وإنما أموت الآن، قال عمر: اللهم اشهد"[٥٣].

وهذا جبلة بن الأيهم الغساني يعرض عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الإسلام"فأبي ذلك وقال: أقيم على ديني"[٥٤].

ويفهم من النصين السابقين أن التبليغ والتعريف بالإسلام من مهام المسلمين وإلا فهم محاسبون على التقصير أمام الله ، وأن الدعوة قد بلغت وبرئت ذمة الخليفة أمام ربه في تبليغ رسالته، ولم يمارس الخليفة أي ضغط لتغيير دين من دعاهم إلى الإسلام، وفي المقابل لم يخافوا أو يعتنقوا الإسلام إرضاء للخليفة.

وكذلك كان الحال بالنسبة لقادة الفتح الإسلامي لبلاد الشام، فكان واجبهم الإبلاغ دون الإكراه، فقد عرض خالد بن الوليد الإسلام على البطريق الرومي على الرستن الذي وقع في أسر المسلمين، فكان رده: "لا أريد بديني بدلا"[٥٥]. فلم يعامل معاملة سيئة لأنه رفض الإسلام، بل أطلق سراحه وخرج مع أفراد أسرته إلى حمص، ولم تكن قد فتحت بعد[٥٦].

وحدث الموقف نفسه مع القائد البيزنطي ماهان، فقد عرض عليه خالد بن الوليد الإسلام، فرد بقوله: "أما أن ندخل في دينكم، فما أبعد من ترى من الناس من يترك دينه، ويدخل في دينكم"[٥٧].

أما بالنسبة لسكان بلاد الشام بشكل عام فقد منحوا حرية الاعتقاد بموجب العهود التي منحت لهم من قبل قادة الفتح الإسلامي[٥٨]. ولم يجبر إنسان أو جماعة على اعتناق الإسلام، فقد منح خالد بن الوليد أهل الرستن حرية الاعتقاد "فأسلم منهم كثير وبقى الأكثر يؤدون الجزية"[٥٩].

أما حاضر[٦٠] قنسرين التي تسكنها بعض القبائل العربية، ومنها تنوخ، فقد دعاهم أبو عبيدة ابن الجراح إلى الإسلام " فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح"[٦١]. ولم يسلموا إلا في عهد الخليفة العباسي المهدي[٦٢].

وهؤلاء أهل طرابلس يُعرض عليهم الإسلام "فأسلم البعض بينما بقى البعض الآخر على دينه مع دفع الجزية"[٦٣].

إن إكراه الناس على اعتناق الإسلام غير جائز شرعاً، ولا يجدي نفعاً لأنه يولد العناد والتمسك بعقيدتهم، والدفاع عنها حتى الموت، والتاريخ يثبت ذلك، فقد حدث في بلاد الشام صراع شديد بين أهل الشام المعتنقين للمذهب المونوفيزي، الذي يؤمن أتباعه بأن للمسيح طبيعة لاهوتية واحدة، وبين المذهب الملكاني الذي يؤمن أتباعه ومنهم الروم (البيزنطيون) بأن للمسيح طبيعتين بشريه وإلهية، ونتيجة لهذا الاختلاف المذهبي، استخدمت الدولة الرومية وسائل عده لإجبار أهل الشام على اعتناق المذهب الملكاني منها القتل والتعذيب بأبشع صوره[٦٤]. فهل نفع القتل وخاف الشاميون منها وتحولوا عن مذهبهم؟ وهل نجحت وسائل التعذيب في تحقيق ذلك الهدف ؟ .. والجواب على ذلك أن الدولة الرومانية فشلت في تحويلهم إلى مذهبها .

ونجد هنا الصراع المذهبي لم يزد الشاميين إلا تمسكاً بمذهبهم ومقاومة أساليب القتل والتعذيب بالصبر.

إن الانتقال من دين إلى دين آخر لا يمكن أن يتم إلا عن قناعة وإيمان عميق بالدين الجديد.

لقد مُنح أهل الذمة حرية الاعتقاد وممارسة طقوسهم الدينية، وحفظت أماكن عبادتهم من كنائس وأديرة، ومثلما كان الآذان يرفع من المآذن للإعلان بدخول وقت الصلاة، فقد كانت تضرب نواقيس الكنائس فيسمع أجراسها حتى إن بعض المسلمين قد تذمر منها، لأنها طغت على أصوات المؤذنين فتمنع سماعهم، وهذا بعلم وموافقة الوالي(٦٥)، الذي لا يتدخل لتوقيفها أو منعها لأنها مرتبطة بالناحية العقدية لأهل الذمة، وهذا يؤكد على الحرية الدينية التي تمتعوا بها في بلاد الشام.

إن حرية الاعتقاد لأهل الذمة التي منحت لهم من المسلمين تشهد بها المصادر التاريخية، ويشهد بها الكثير من المؤرخين الغربيين فيقول سيديو(٦٦) عن المسلمين أنهم "ابدوا من الإيفاء بالعهود ما أبدوا مبتعدين عن كل جور".

أما جرجي زيدان(٦٧) فيشهد بعدم تدخل المسلمين في شؤون أهل الذمة في كافة نواحي حياتهم، فيقول: "كان العرب إذا فتحوا بلداً أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبل، لا يتعرضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر أحوالهم".

ولا يشذ عن هذا الرأي غوستاف لوبون(٦٨)الذي يؤكد أن المسلمين عرفوا : " كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبعدون عن أعمال السيف فيمن لم يسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها مكتفين بأخذهم في مقابل حمايتها جزية زهيدة".

بينما نجد ساليفان(٦٩) يقول عن علاقة المسلمين بأهل الذمة من الناحية العقدية أنهم:"سمحوا لهؤلاء الرعايا بممارسة طقوسهم الدينية المحلية... وعلى عكس ما هو معروف لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الإسلام".

كما يذكر لوثروب(٧٠) بأن الخليفة عمر رضي الله عنه"يرعي حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيم رعاية، وقد سار خلفاؤه من بعده على أثره، فلا ضيقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من أفجاج العالم الإسلامي".

هذه الشهادات وغيرها تؤكد بأن المسلمين منحوا أهل الذمة الحرية العقدية في ممارسة طقوسهم

الدينية والمحافظة على أماكن عبادتهم مثل الكنائس والأديرة والمعابد من الهدم والمصادرة.

الحرية السياسية :

عند الفتح الإسلامي لبلاد الشام أبقت الخلافة الإسلامية الولاة الروم في المدن التي كانوا يحكمونها ، وذلك بعد عقد الصلح معهم ، وأبقت النظم الإدارية المعمول بها دون تغيير ، فظل الولاة والموظفون في مناصبهم.

فقد ظل صاحب بيت المقدس والياً عليها بعد انعقاد الصلح مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وحاول هذا الوالي عمل وليمة طعام لأمير المؤمنين ، لكنه رفض حتى لا يرهقه ويحمله ما لا طاقة له(٧١).

وعند فتح الرها لم يتم عزل واليها الروماني ميطولس الذي عمل طعاماً كثيراً ودعا عياض بن غنم ومن شاء من المسلمين لتناوله ، لكنه اعتذر اقتداء بأمير المؤمنين عمر ، فصار البطريق محرجاً بين أصحابه وقادته ، فطلب من عياض أن يأمر أصحابه بتلبية دعوته ، فقال : " ما كنت بالذي آمرهم ولا أنهاهم "(٧٢) .

فازداد أمير الرها حرجاً ، وربما ظهرت عليه علامات الخوف حتى أن عياض طمأنه وقال له : " أيها البطريق إنما أنت تفعل بنا ذلك خوفاً على أرضك ، وإنما يجب عليك أن تفعل هذا بمن يأتيك بعدنا ، فأما نحن فقد وفينا لك بالصلح فلا تخف منا ظلماً ، ولا أن نحملك ما لا تطيق"(٧٣) . ويحمل هذا الجواب حُسن تعامل المسلمين مع أهل الذمة ووفائهم بالعهود وعدم نكثها مهما كانت الظروف ، وعدم تحميل أهل الذمة ما لا يطيقون ، وهذا منهج سار عليه جميع المسلمين .

وعلى الرغم من أن بلاد الشام قد صارت تابعة للخلافة الإسلامية إلاَّ إنها لم تتدخل في شئون أهل الذمة الداخلية ، فالولاة كانوا يعينون من قِبَل الدولة الرومية ، ولا يحدث اعتراض من قِبَل المسلمين ، لأنهم يعتبرون هذا شأن داخلي خاص بأهل الذمة ، طالما أمر دعوتهم قائمة.

فبعد وفاة بطريق شيزر الذي عقد صلح مع المسلمين ، أرسل هرقل امبراطور الروم بطريقاً على شيزر اسمه نكس ، وكان عاتياً جباراً ، وكان أول عمل قام به هو إلغاء الصلح مع المسلمين ، ثم أساء السيرة مع أهل شيزر بالاعتداء عليهم والاستيلاء على أموالهم ، ومصادرة ممتلكاتهم ، ولما

علم أبا عبيدة بإلغاء (نكس) الصلح مع المسلمين ، أعد جيشاً لمقاتلته ، وقدر للمسلمين عدم الدخول في قتال معه لأن أهل شيزر ثاروا عليه وعلى أتباعه وقتلوهم جميعاً ، ثم خرجوا إلى أبي عبيدة الذي كان معسكراً خارج المدينة وقالوا له : " أيها الأمير إنا قتلنا بطريقنا في محبتكم ، فقال : يا أهل شيزر بيَّض الله وجوهكم وأدرر رزقكم ..." (٧٤).

ونجد هنا أن المسلمين لم يتدخلوا في شئون أهل الذمة الداخلية مهما كان الصراع بينهم حاكماً ومحكوماً وأنهم لم يتهيأوا للتحرك ضد والي شيزر الروماني إلا لكونه نقض صلحهم فقط وليس لقيامه بظلم أهالي المدينة الذين قاموا بهذه المهمة وتخلصوا من نكس وأتباعه بدون تحريض من المسلمين أو دعم مادي ومعنوي قُدِمَ لهم . فكل ما قاموا به هو كراهيتهم لبطريقهم الذي أساء السيرة فيهم ، ومحبة في المسلمين لما لمسوه من الصدق والوفاء عندهم .

وتكرر الحدث نفسه في بعلبك ، حيث عقد المسلمون صلحاً مع بطريقها الروماني ، وظلوا في معسكرهم خارج المدينة ، ولكن التعامل بين المسلمين وسكان المدينة كان قائماً وخاصة في الناحية التجارية ، ولما كسب تجار المدينة الأموال الطائلة من تجارتهم مع المسلمين ابتزهم البطريق وفرض عليهم تسليم عُشر أرباحهم ، ورغم استجابتهم لمطلبه فقد زادت أطماعه وفرض عليهم تسليم ربع أموالهم ، فثاروا عليه وتمَّ قتله مع أتباعه ، وبعد هذا الحادث طلب أهل بعلبك من المسلمين دخول مدينتهم ، لكنهم فضَّلوا التشاور مع أبي عبيدة بن الجراح الذي وافق على دخولهم بناء على طلب أهلها ، وهذا ليس مخالفاً للعهود معهم (٧٥) .

إن الدولة - أي دولة - عندما تستولي على بلاد تسعى بكل ما تستطيع إلى ربطها بفلكها عن طريق تعيين ولاة من قِبَلِها ، وبواسطتهم تفرض القوانين والأعراف والتقاليد حتى تضمن ولائهم، لكن الخلافة الإسلامية أبقت الولاة والنظم السائدة في بلاد الشام كما هي دون تغيير ، لأن هدف المسلمين ليس سياسياً أو مالياً وإنما دينياً يقوم على الدعوة إلى الإسلام .

يقول ساليفان (٧٦) بأن المسلمين أبقوا " النظم الحكومية كما هي في البلاد التي فتحوها " ، كما يقول جرجي زيدان(٧٧) عن المنهج الذي سار عليه المسلمون : " كان العرب إذا فتحوا بلداً أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرضون لهم في شيء " .

احترام عادات وتقاليد أهل الذمة :

مع إن العهود التي منحها المسلمون لأهل الذمة لا تتضمن بنداً صريحاً يلزم المسلمين باحترام عادات وتقاليد أهل الذمة من سكان بلاد الشام إلا أن حرص الولاة على الإيفاء بتلك العهود جعلهم يعدون تلك الأمور من بين الأسباب التي يمكن أن يؤدي الاختلاف فيها إلى نقض تلك العهود وبالتالي اعتبروها من خصوصيات أهل الذمة التي ينبغي احترامها عند التعامل معهم، ومما يذكر أنه لما قدم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلاد الشام استقبله جمع من أهل الذمة بالسيوف والريحان ، فاستنكر الأمر وأمر بردهم ومنعهم " فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم منها يروا في ذلك نقضاً لعهدهم فقال عمر : دعوهم"[٧٨] .

واستقبال هؤلاء الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالسيوف والريحان كان لعبة ترحيبية تقوم بها فئة من أهل الشام تعرف بـ (المقلسين) بين أيدي الأمراء الذين يقدمون إلى بلادهم[٧٩] ، وبالتالي فعندما عرف الخليفة أنها من عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة فقد أقرها رغم كراهيته لها . ولم يستخدم سلطته في إجبار أهل الذمة على تركها

حماية ملكيات أهل الذمة:

كان لأهل الذمة ممتلكات مختلفة مالية وعينية كالبيوت والأراضي ومما أنّ حماية تلك الملكيات حقاً من حقوق أهل الذمة فقد حفظها المسلمون لهم وسَلِمَت من النهب والمصادرة بموجب النصوص الشرعية الإسلامية ووصايا الخلفاء والعهود التي عقدت معهم ..

فبالنسبة لبيوت أهل الذمة فقد كانت محرمة على المسلمين دخولها إلاَّ بإذن أصحابها ، فعندما عقد المسلمون صلحاً مع أهل الرها نادى عياض بن غنم في جنده : " ألا إن أهل الرها في ذمتنا وعهدنا ، فلا تؤذوهم ، ولا تدخلوا عليهم في منازلهم إلاّ بإذن ..."[٨٠] .

ونجد في هذه الرواية أن الأوامر لجند المسلمين لم تقتصر على عدم دخول المسلمين البيوت إلاّ بإذن أصحابها ، وإنما عدم إيذائهم في مدينتهم بشكل عام ، سواء كان ذلك بالجلوس في الطرقات ومؤاذاة المارة أم التصنت على السكان في بيوتهم ومراقبتهم ، أو كشف عوراتهم ، وهذا يعني الحفاظ على حرية العيش لأهل الذمة .

ووجدت بيوت خالية من سكانها أثناء الفتوحات تركها أصحابها وفروا منها خوفاً من المسلمين ، وما قد يتعرضون له بحسب رأيهم ، ورغم هذا نجد المسلمين هنا لا يحلون لأنفسهم هذه البيوت الخالية من سكانها وما فيها من ممتلكات ، وإنما تركت حتى يعود أصحابها إليها[٨١]، وصار لزاماً على المسلمين حمايتها من أي طامع أو معتدٍ ، وكان هذا هو تعامل المسلمين مع بيوت أهل الذمة في معظم بلاد الشام .

أما بيوت دمشق فسنتوقف عندها قليلاً ، ونتناول الخلاف بين المؤرخين حولها ، فنجد الطبري[٨٢] يورد رواية عن سيف بن عمر التميمي دون إيراد بنود الصلح أو العهد ، لكنه يذكر بأن الصلح مع أهل دمشق " كان على المقاسمة ، الدينار والعقار " وأخذ بهذه الرواية العديد من المؤرخين[٨٣] .

أما البلاذري[٨٤] فقد أورد رواية انفرد بها ، تضمنت العهد الذي أعطاه خالد بن الوليد رضي الله عنه لأهل دمشق " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها وأعطاهم أماناً على أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلاّ بخير إذا أعطوا الجزية " ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إننا نجده ينفي مسألة المناصفة المذكورة وتمثل ذلك في قوله : " وزعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم ، وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدي : قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ، وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه ، ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية ، فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون "[٨٥] .

وأمام هذا التباين بين ما ورد عند المؤرخين حول هذا الأمر ، فإننا نميل إلى ما ذكره البلاذري لاعتبارات عدة هي :

- إن هذا العهد لا يختلف عن العهود التي منحت لأهل الذمة في مدن الشام كافة .

- لماذا يتم تقسيم دور أهل دمشق دون غيرهم من أهل الذمة في مدن الشام ؟ وما هو الجرم الذي قاموا به حتى يتم تقسيم أموالهم ودورهم ؟

- إذا أقر أهل الذمة بالجزية وسُلمت للمسلمين بعد الفتح ، صار لهم حقوق كما نص العهد وبحسب الشرع بأن أهل الذمة الذين يعطون الجزية " لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم "[٨٦] فكيف للمسلمين أن ينتهكوا العهود ويقاسموا أهل الذمة في دمشق أموالهم وبيوتهم ، وهذا يُعد مخالفة للشرع الإسلامي ولأهداف الفتوحات .

- إن كتب الفتوح لم تشر إلى المناصفة[٨٧] .

ويبدو أنه حدث خلط بين الرواة حول هذا الأمر ، فالبيوت التي نزل فيها المسلمون كانت خالية من سكانها كما ذكرنا سابقاً ، ولو كانت عامرة بأصحابها لما نزلها المسلمون على الإطلاق ، فلم تذكر المصادر التاريخية بأن المسلمين أخرجوا أصحاب تلك البيوت عنها بالقوة ، وتمت مصادرتها ، ولو حدث مثل هذا لذكرت ذلك .

وبالنسبة لحمص فقد أورد الطبري[٨٨] أيضاً أن المسلمين صالحوا أهل حمص " على انصاف دورهم ، وعلى أن يترك المسلمون أموال الروم وبنيانهم لا ينزلونه عليهم ، فتركوه لهم " . ونجد أن هذا تكرار لما ذكره عن صلح دمشق ، والشيء الجديد فيما أورده عدم المناصفة في أموالهم، وترك أموال الروم وبيوتهم لأهل حمص .

ونحن لا نميل إلى ما أورده الطبري لأنه يتناقض مع ما ورد في بقية المصادر[٨٩] ومنها فتوح البلدان[٩٠] ، الذي ذكر أن أبا عبيدة عندما صالح أهل حمص " أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد " . أما الأزدي[٩١] فذكر أن أبا عبيدة كتب لهم " كتاباً بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ..." .

إن عهود الصلح التي عقدها المسلمون مع أهالي مدن الشام لا اختلاف بينها من حيث المضمون والذي منه الأمان لبيوتهم وعدم نزولها ومصادرتها ، وإن اختلف مانحها .

وفي بعض الأحيان ولظروف خاصة تستدعي ذلك يضطر المسلمون إلى إخلاء السكان من دورهم إذا اقتضى الأمر مثلما حدث مع سكان مدينة عرب سوس ، والسبب الذي جعل عمير بن سعد يقوم بهذا العمل أنها كانت عبارة عن مركز تجسس للروم على المسلمين مما ألحق الأذى بهم ، وقبل قيام عمير بذلك استأذن الخليفة : " يا أمير المؤمنين بيننا وبين عدونا مدينة يقال لها عرب سوس يُطلعُ عدونا على عوراتنا ويفعلون ويفعلون ، فقال عمر : خيّرهم بين أن ينتقلوا من مدينتهم وتعطيهم مكان كل شاه شاتين ، ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء شيئين ، فإن فعلوا فاعطهم ذلك ، وإن أبوا فانبذ إليهم على سواء ثم اجلهم سنة "[٩٢] .

ولما عرض عمير أمر الخليفة على سكان عرب سوس رفضوا ، فاضطر إلى إخراجهم بالقوة وصاحب إخراجهم حدوث أضرار في دورهم ، فوصلت الأخبار إلى أمير المؤمنين فلم يسامحه وضربه بالدرة[٩٣] . وما قام به عمير شيء طبيعي أن يصاحب عمله ضرر سواء للسكان أو البيوت نتيجة لرفضهم ، ومع ذلك لم يغفر له الخليفة للأذى الذي لحق بأهل الذمة ، وهذا يمثل قمة الأخلاق في التعامل والمحافظة على شعور أهل الذمة.

والإجلاء لم يكن دائماً وإنما كان مؤقتاً ومحدداً بمدة زمنية (لمدة عام) ، ثم يسمح لهم بالعودة ، ولم يذكر بأن المسلمين قد نزلوا هذه البيوت خلال مدة الإجلاء ، وإنما ظلت خالية ، وربما كلف من المسلمين من يحرسها حتى عودة أصحابها .

وقد كفلت العهود أيضاً حماية أراضي أهل الذمة فلا يجوز الاستيلاء عليها أو مصادرتها أو الاعتداء عليها ، وأولاها الخلفاء جل اهتمامهم من خلال المتابعة لما يجري في بلاد الشام ، وقد ذكرنا سابقاً رسالة أبي بكر الصديق رضى الله عنه لأبي عبيدة بن الجراح يطلب منه منع أي فساد قد يلحق بأراضي الداربين ، ويعلمه أن أهلها أحق بزراعتها ، وأنه بعث أيضاً برسالة إلى الداربين يطمئنهم على أراضيهم بمنع المفسدين عنها .

ولم يكتف المسلمون بذلك ، بل نجدهم يحافظون على أشجارها من الاعتداء عليها . فعندما كان أبو عبيدة بن الجراح في شيزر كانت عبيد المسلمين تأتي بالأحطاب من أشجار الزيتون والرمان وغيرها من الأشجار ، فلما علم أنكر عليهم ذلك وقال : " ما هذا الفساد ، فقالوا : أيها الأمير إن الأحطاب متباعدة منه ، وهذه الأشجار قريبة ، فقال الأمير أبو عبيدة : عزيمة مني على كل حر وعبد قطع شجرة لها طعم وثمار لأجازينه ولأنكلن به ، فلما سمع العبيد ذلك النكال جعلوا يأتون بالأحطاب من أقصى الديار "[٩٤] .

ومثال آخر يؤيد ذلك نلمسه فيما ذكر عن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فأثناء وجوده في الجابية جاء إليه رجل من أهل الذمة يشكو إليه قيام بعض المسلمين بالتعرض لعنبه ، فسارع الخليفة عندها إلى مزرعة ذلك الذمي ولما تأكد بنفسه من ذلك الأمر بعد رؤيته أحد المسلمين يحمل عنباً أمر " لصاحب الكَرْم بقيمة عنبه "[٩٥] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن الخليفة " تبرأ إلى أهل الذمة من معرة الجيش "[٩٦] واستخدام الخليفة كلمة معرة يعني أنه نظر إلى ذلك الفعل أنه من الأفعال المستقبحة والمكروهة لدى المسلمين لأن ذلك هو مدلول تلك الكلمة كما يذكر ابن منظور[٩٧] .

والأمثلة السابقة توضح دور الجانب الرسمي في المحافظة على أراضي أهل الذمة وما تحويه من أشجار وثمار ، أما على المستوى الشخصي فيتضح ذلك فيما قام به أبو الدرداء رضى الله عنه حيث كان ينزل في قرية لأهل الذمة ولا يزيد أثناء جلوسه فيها عن شرب مائهم والاستظلال بأشجارهم وعندما ترعى دابته في كلائهم كان يعطيهم مالاً مقابل ذلك(٩٨) .

ومما يذكر أيضاً أن أبا هريرة قال لرجل يريد الغزو : " لا تطأ حرفاً وتطلع شرفاً إلا بإذن إمامك، وإياك والمخلاة ... من أموال أهل الذمة ثم تقول : أنا غازٍ .. ثم لقي الرجل ابن عباس، فقال له مثل ذلك "(٩٩) .

وهنا نلاحظ إلتزام المسلمين على المستويين الرسمي والفردي لحماية أراضي أهل الذمة واحترام ملكيتهم لها بما تحويه من ثمار وكلاء ، وأن العلماء كان لهم دور كبير في التزام بقية المسلمين بتلك الأمور وأن الأمر لم يقتصر على ما ورد في العهود فقط .

ومثلما كانت هناك أراضٍ مملوكة لأهل الذمة ، كانت هناك أراضٍ غير مملوكة من قبلهم أو غيرهم ، وأيضاً كانت توجد أراضٍ تعود ملكيتها إلى الروم قادة وأفرادا ، وأثناء الفتوحات الإسلامية تركوها فصارت ملكيتها للمسلمين ، فتم توزيعها على المسلمين لبناء مساكن لهم ، بعد تخطيطها وتقسيمها فيما بينهم ، كما حدث في حمص(١٠٠) .

وبالنسبة للأراضي التي كانت تعود ملكيتها للدولة الرومانية فقد كان لها وضع خاص ، حيث تم إقطاعها للجنود المسلمين على سبيل المنفعة ، وليس على سبيل التملك ، والسبب الذي جعل القيادة في بلاد الشام تتجه نحو هذا أن القوات الرومانية كانت تُغير على سواحل بلاد الشام من تلك المناطق ، فاضطر المسلمون إلى مهاجمتها ، وعندما فر الروم منها تم إقطاعها للمسلمين وذلك أواخر خلافة عمر وبداية خلافة عثمان رضي الله عنهما(١٠١) .

والإقطاع (من أقطع) يعني إعطاء المسلمين أراضٍ غير مملوكة لأهل الذمة ، وقد يقول البعض أن هذا مخالف للعهود ، وحتى لا يلتبس الأمر نحب أن نوضح أمرين حتى تتضح الصورة عن أراضي بلاد الشام :

الأول : أن الأراضي التي فُتحت عنوة هي ملك المسلمين الفاتحين ، يتم تقسيمها بينهم ، ولكن هذا لم يتم لأن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه رفض تقسيمها ، لأنه كان يرى أن ذلك يؤدي إلى

حرمان من يأتي بعدهم من المسلمين حيث بعث برسالة إلى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه الذي طالبه المسلمون بتقسيم الغنائم ومنها الأراضي عند فتح العراق : " .. ما أجلب الناس عليك من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمال ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها فيمن حضر لم يكن لمن يجيء بعدهم شيء "(١٠٢)

الثاني : إن الأراضي التي فتحت صلحاً تكون لأهلها وللمسلمين الخراج فقط(١٠٣) .

حرية المتاجرة والكسب :

ومن الحقوق التي كانت لأهل الذمة والتي تمتعوا بها في عهد حكم المسلمين حرية المتاجرة والكسب مهما بلغت ثرواتهم فلا يتم التعرض لتجارتهم سواءً تلك التي مع المسلمين أو تلك التي تخصُّهم في نوعها والمتاجرة فيما بينهم .

فسبق وذكرنا أن أهل بعلبك ربحوا أموالاً كثيرة من البيع والشراء مع المسلمين ، فلم يتدخل المسلمون في شئونهم بعد ربحهم تلك الأموال أو أظهروا الرغبة في المقاسمة ، لأن ذلك رزقهم لا يجوز مشاركتهم فيه طالما وهم ملتزمون بتأدية الواجبات المالية التي عليهم(١٠٤) .

وهو ما افتقدوا وجوده لدى حاكم المدينة الروماني المسيحي الذي سعى إلى مقاسمتهم تلك الأرباح مما جعلهم يثورون عليه ، ويقومون بقتله مع جنده(١٠٥) .

ومما يندرج أيضاً ضمن حرية المتاجرة لأهل الذمة بعد الفتح حرية بيع وشراء الخمور ، رغم أنها تُعد من المحرمات عند المسلمين ، فقد وجدت محلات تجارية لبيع الخمور لأهل الذمة .

ومما يذكر عن ذلك أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ثقب قطارة تحمل خمراً لأحد تجار أهل الذمة ، ولما علم والي الشام معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه بذلك شكاه إلى الصحابي الجليل أبي هريرة وطلب منه أن يمنع عبُادة من تكرار ذلك الفعل لأنه :" يغدو إلى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم "(١٠٦) .

ويفهم من هذه الرواية أن أمير الشام رأى بحكم ولايته جواز متاجرة أهل الذمة للخمور فيما بينهم لإدراكه في الغالب أنها من خصوصياتهم وتدخل في حرياتهم الشخصية من دون أن يعني ذلك علاقة الأمر بتوجيهات أو وصايا الخليفة عثمان رضى الله عنه .

حرية التقاضي والعدل :

لم يتدخل المسلمون في شئون أهل الذمة فيما يخص المنازعات بينهم ، احتراماً لخصوصياتهم الدينية المرتبطة بذلك الأمر وتركوا لهم حرية القرار ، كما التزموا بانفاذ العدل في الحالات التي يكون فيها التنازع بين مسلم وذمي . ففيما يخص حرية التقاضي يذكر ابن أعثم[١٠٧] بأن امرأة نصرانية اختلفت مع ابن عمها فاحتكما إلى عياض بن غنم في شيء كان بينهما فقضى عياض على المرأة بالحق . ويبدو أنها قبلت حكمه ولم يذكر المصدر خلاف ذلك مما يرجح أنها قبلت حكمه ولم تعترض عليه لأنه أحق الحق وأبطل الباطل وهذا يؤكد على عدل المسلمين في أحكامهم ، ولو لم يكونوا كذلك لما احتكما إليهم وكان بإمكانهما أن يذهبا إلى كبار أهل ملتهم للتقاضي أمامهم .

أما فيما يخص التزامهم العدل عندما يكون النزاع بين مسلم وذمي فتتمثل أولى شواهد ذلك في شكوى تقدم بها رجل يهودي لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عندما قدم الشام ضد أحد المسلمين فقال : " يا أمير المؤمنين إن رجلاً من المسلمين صنع بي ما ترى - وهو مشجوج مضروب - فغضب عمر غضباً شديداً ثم قال لصهيب : انطلق فانظر من صاحبه ، فأتني به ، قال : فانطلق صهيب فإذا هو عوف بن مالك الأشجعي ... فقال له عمر : مالك ولهذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع ، فلم تصرع فدفعها فصرعت . فغشيها - أو أكب عليها ، قال : أئتني بالمرأة فلتصدق ما قلت ، فأتاها عوف بن مالك ، فقال أبوها وزوجها : ما أردت إلى صاحبتنا ؟ قد فضحتنا ، فقالت : والله لأذهبن معه ، فقال أبوها وزوجها : نحن نذهب فنبلغ عنك ، فأتيا عمر فأخبراه بمثل قول عوف فأمر باليهودي وصلب ، وقال : ما على هذا صالحناكم "[١٠٨] .

لقد غضب أمير المؤمنين من الصحابي عوف بن مالك لما رأى ما وقع لليهودي ، ومثل هذا الغضب مطلوب عندما يرى الظلم يقع على إنسان ، فأراد إنصافه ممن اعتدى عليه مهما كانت مكانته لأنه مسئول عن إقامة العدل ، ولما اتضحت الحقيقة أمر الخليفة بقتل اليهودي وصلبه لأنه انتهك حرمة المرأة المسلمة ، وهذا مخالف لما صولحوا عليه .

وماذا لو ارتكب عوف عمله هذا ظلماً وعدواناً ، هل ممكن لأمير المؤمنين أن يسامحه ويتجاوز عن جرمه ؟ وللإجابة نقول : لا ، لأنه في هذه الحالة يُعد ظالماً ومخالفاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في عدم إقامة العدل بين الناس .

وعندما تثبت القرائن على مخالفة أي إنسان يجب القصاص منه بحسب جرمه وإن كان صحابياً مثل عبادة بن الصامت رضى الله عنه الذي " دعا نبطياً يمسك له دابته عند بيت المقدس ، فأبى فضربه فشجه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، فقال له : ما دعاك إلى ما صنعت بهذا؟ فقال : يا أمير المؤمنين أمرته أن يمسك دابتي فأبى ، وأنا رجل في حدة فضربته ، فقال: اجلس للقصاص ، فقال زيد بن ثابت : أتقيد عبدك من أخيك ؟ فترك عمر القود وقضى عليه بالدية "(١٠٩) .

فعلى الرغم من مكانة عبادة إلاّ أن الخليفة لم يتركه بدون عقاب إحقاقا للحق وإنصافاً للمظلوم .

ومثلما وجد من المسلمين من تكون طباعهم حادة تؤذي الناس بغير حق ، فقد وجد منهم من يحرص على عدم إيذاء أهل الذمة حتى بالكلمة ، حفاظاً على مشاعرهم ، والرفق بهم واللين معهم ، فقد رفض عمير بن سعد أن يجدد له العهد بولاية حمص ، وكان رده لعمر رضى الله عنه :" إن ذلك شيء لا أعمله لك ولا لأحد بعدك ،والله ما سلمت بل لم أسلم ، لقد قلت لنصراني أخزاك الله ، فهذا ما عرضتني له يا عمر "(١١٠) .

لقد عدَّ عمير كلمة أخزاك الله للنصراني بمثابة جريمة ارتكبها ، وأراد أن يمحي آثارها بعدم الموافقة على تجديد ولايته ، وهذا يدل على المستوى الأخلاقي الرفيع في المحافظة على شعور رعاياهم ، وإذا كان الإحساس بالذنب من كلمة فهل من المعقول أن يعتدى على حقوق أهل الذمة في ظل أمثال هؤلاء الولاة .

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء والولاة في إقامة العدل بين رعاياهم من أهل الذمة ، بل شاركهم العلماء ، لأن رفع الظلم مسئولية الجميع ، فقد مرَّ قس فلعنه بعض المسلمين ، فسمع أبو الدرداء فقال : " من هذا الذي لعنتم آنفاً ؟ فقالوا قس مرَّ بنا فأعجبنا سمنه ، قال : فلا تفعلوا ، فإنه لا ينبغي للعان أن يكون عند الله صديقاً "(١١١) .

وإذا وجد من يجهل بما أمر الله به ، فقد وجد من يردهم إلى الصواب ، لأن الإسلام يأمرهم بهذا وينبغي العمل به وعدم مخالفته .

ومن عدل المسلمين لرعاياهم من أهل الذمة احترام رغباتهم الشخصية كونها من حقوقهم التي

يجب أن تصان ويحافظ عليها ، فقد رأى عياض بن غنم في الرها امرأة نصرانية تتمتع بالحسن والجمال ، فلم يعط لنفسه الحق في التعرض لها بل عرض عليها الزواج ، فوافقت بشرط الاحتفاظ بدينها ، فأعرض عنها وتركها ، وهذا السلوك الحسن جعل تلك المرأة تحبه وتوده ، حتى أنها رفضت من تقدم لخطبتها بعده ، وظلت توده حتى أنها كانت تصنع له الطعام وترسله إليه ، فيقبل منها ويبادلها نفس الود حتى أنه وهب لها جارية لتكون خادمة لها(١١٢) .

ومن عدل المسلمين ووفائهم وأمانتهم في الإيفاء بالعهود أن جعلت موقف سكان بلاد الشام يتغيرون في موقفهم من العداء والحقد المفرط ضد المسلمين إلى إظهار المودة لهم وإبداء استعدادهم مشاركتهم حرب الروم ، فنجد أن أهل حمص قبل دخول المسلمين إليها يحملون في قلوبهم الحقد والكره الشديد لهم ، لدرجة أنهم هموا برمي الرسول الذي يحمل إليهم رسالة أبو عبيدة بالسهام والحجارة وهو نصراني على دينهم(١١٣) ، فما الذي جعلهم يتغيرون بهذه الصورة ويصيرون قلباً واحداً مع المسلمين،ومثلما كانوا متحمسين لقتال المسلمين ، صاروا بنفس الحماسة والشدة مدافعين عنهم ويعملون معهم ، أليس العدل والأمن وصون ممتلكاتهم والحرية التي وجدوها مع الإسلام والمسلمين وافتقدوها مع أبناء جلدتهم وعقيدتهم .

ولذلك تحمل أهل الذمة لواء المعارضة ضد الروم ، فقد تعاهد أهل حمص بعد انسحاب المسلمين منها على مقاتلة جيش هرقل إذا حاول اقتحام المدينة ، وأقسم اليهود بأن لا يدخل الروم المدينة " والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاَّ أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود "(١١٤) .

والذي جعلهم يفعلون هذا ويقفون إلى جانب المسلمين ، الخوف من الرجوع إلى عهد الظلم والتعسف الرومي بعد أن عاشوا في جوٍّ يسوده العدل والحرية في عهد المسلمين .

واجبات أهل الذمة :

تحدثنا عن الحقوق (الحريات) التي تمتع بها أهل الذمة في بلاد الشام بعد الفتح ، ولابد أن نتعرف على الواجبات التي كانت عليهم فقد كان من الواجب عليهم الالتزام بواجبات مالية وغير مالية أما فيما يخص المالية فتتمثل في الآتي :

الجزية :

هي موضوعة على رؤوس أهل الذمة ، وتجب على الرجال الأحرار العقلاء ، وتسقط الجزية عنهم بالإسلام[١١٥] . وأموال الجزية هي مقابل الحماية والدفاع عنهم[١١٦] .

وعندما لا يفي المسلمون بما تم في الصلح مع أهل الذمة ، مثل حمايتهم والدفاع عنهم تسقط الجزية عنهم ولا يجوز أخذها ، وطبق هذا المبدأ أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه الذي أمر سويد بن كلثوم القرشي أن يرد على أهل الذمة في دمشق ما كان اجتبى منهم ، فرد عليهم ما كان أخذ منهم وقال لهم : " نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم ونحن معيدون لكم أماناً ومتمون لكم ما كنا صالحناكم عليه "[١١٧].

ولم يقتصر الأمر على دمشق عندما انسحب المسلمون منها إلى اليرموك لمواجهة الروم ، بل أمر أبو عبيدة بن الجراح عند الانسحاب أيضاً من حمص لنفس السبب حبيب بن مسلمة المتولي لخراج حمص برد أموال أهل الذمة الذين كانوا قد صالحوا المسلمين : " اردد على القوم الذين كنا قد صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم ، فإنه لا ينبغي لنا إذا لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً وقل لهم : نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح ، لا نرجع عنه ، وإنما رددنا عليكم أموالكم أنا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم "[١١٨] ، فدعا حبيب الناس ورد عليهم ما أخذ منهم من مال وأخبرهم بما قاله أبو عبيدة .

وأمام الوفاء عند المسلمين في المحافظة على عهودهم ، ونتيجة لهذا الموقف النبيل والأخلاق الفاضلة ، كان رد فعل أهل حمص أن قابلوا الإحسان بالإحسان والوفاء بالوفاء ، فقالوا للمسلمين : " ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم ، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا علينا ، لا بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا "[١١٩] . وفي رواية أخرى قالوا : " لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم "[١٢٠] .

واختلف الفقهاء في قدر الجزية فكان يؤخذ في البداية على كل رجل من أهل الذمة ديناراً وجريباً[١٢١] (من الحنطة)[١٢٢] ، " ثم وضعها عمر رضى الله عنه أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعين درهماً على أهل الورق[١٢٣] ، وجعلهم طبقات ، لِغنَى الغَنِي ، وإقلال المُقِلّ ، وتوسُّط المتوسط "[١٢٤] ، وتسلم الجزية آخر السنة ولا يجوز مطالبتهم بها قبل ذلك ، وفي حالة عدم القدرة على دفعها للمسلمين لا يجوز تعذيبهم ولا حبسهم ولا ضربهم على إيدائها[١٢٥] .

ويستثنى من دفع الجزية النساء والصبيان(١٢٦) ، وكذلك المسكين الذي يتصدق عليه ، والأعمى الذي لا حرفة له ولا عمل ، والفقير ، والمترهبون المساكين ، والشيخ الذي لا يستطيع العمل ، وكذلك المجنون(١٢٧) .

إن من عدالة الإسلام مراعاة ظروف أهل الذمة المادية ، فلم يجبر المساكين والفقراء منهم على دفع الجزية ، واستثنى أيضاً النساء والصبيان والمجانين من دفعها . ومع ذلك تهتم الخلافة الإسلامية بهؤلاء وغيرهم إذا اقتضت الحاجة ذلك ، فعندما مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم مجذومين من النصارى في بلاد الشام " أمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجري عليهم القوت "(١٢٨) .

فقدمت لهم مساعدة عاجلة لتدبير معيشتهم ، إضافة إلى تقديم الأرزاق لهم طوال حياتهم وهذا يمثل قمة العدل في تقديم ما يحتاجه رعايا الدولة من أهل الذمة ، فلم يكن هم المسلمين جمع الأموال دون مراعاة لظروف رعاياهم لأن الإسلام لا يأمر بذلك لأن الهدف هو الدعوة وليس الجباية .

الخراج :

هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها(١٢٩) .

وأراضي الخراج نوعان :

الأول : أراض فتحت عنوة فهي فيئ المسلمين ، يؤدي أهلها الخراج إلى الدولة (الإمام) .

الثاني : أراض افتتحت صلحاً على خراج معلوم(١٣٠) .

أما الواجبات الأخرى غير المالية فتتمثل في الآتي :

ألا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له ، وألا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء ، وألا يتعرضوا لدين الإسلام بذم له ولا قدح فيه ، وألا يزنوا بمسلمة، وألا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ، وألا يعينوا العدو ومن يناصره على المسلمين(١٣١) وألا يجتمعوا على قتال المسلمين(١٣٢) .

ونخلص في نهاية البحث إلى الآتي :

أن الإسلام حفظ لأهل الذمة حقوقهم ، وبيّن طريقة التعامل معهم من خلال النصوص الشرعية، ووصايا الخلفاء لقادة الفتح في كيفية التعامل مع سكان بلاد الشام ، وتعامل المسلمين أثناء الفتوحات مع سكان بلاد الشام لم يخرج عن النصوص الشرعية ووصايا الخلفاء، فكانت عهود الصلح التي عقدها المسلمون معهم بمثابة تطبيق عملي لما ورد في تلك النصوص والوصايا ، وكان تعامل أهل الشام مع المسلمين حسن ، فقد وجد تعاون وثيق بين الجانبين مبني على الاحترام ، ففتحت الكثير من المدن أبوابها للمسلمين ، وأحسنت استقبالهم ، وبعد الفتح وجدت الألفة بين المسلمين وأهل الذمة ، لأن التعامل كان مبنياً على عقود صلح التزم فيها الطرفان ، وصار بموجبها لأهل الذمة حريات وحقوق يتمتعون بها مثل حرية الاعتقاد ، والحرية السياسية ، وحرية المتاجرة والكسب ، وحرية التقاضي والعدل ، وكانت عليهم واجبات مالية مثل الجزية والخراج وواجبات أخرى تجاه الإسلام والمسلمين .



الهوامش

١- الأنبياء ، آية ١٠٧.

٢- النور ، آية ٥٤.

٣- البقرة ، آية ٢٥٦.

٤- النحل ، آية ١٢٥ .

٥- التوبة ، آية ٢٩.

٦- أبو داود ، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) : السنن ، جـ٣، ص ٤٣٧، باب الإمارة، حديث رقم ٣٠٥٢ ، إعداد وتعليق / عزت عبيد الدعاس ، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، دار الحديث، حمص، سورية. انظر أيضاً القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م) : الجامع لأحكام القرآن، جـ٨، ص ١١٥، صححه أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، ١٣٧٢- ١٩٥٢م.

٧- النحل، آية ٩٠.

٨- النساء، آية ٥٨.

٩- الازدي، محمد بن عبد الله (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م) : فتوح الشام، ص ١٢، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م. انظر أيضاً: ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م) : كتاب الفتوح، جـ١، ص ٨٢، تحقيق علي شيري، ط١/ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، دار الأضواء، بيروت.

١٠-البقرة، آية ٣٠.

١١-الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) : جامع البيان في تأويل القرآن المسمى تفسير الطبري ، جـ١، ص ٢٣٧، ط١/ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

١٢-ابن عساكر، أبو القاسم علي بن هبة الله الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) : تاريخ مدينة دمشق، جـ١١، ص ٦٦، تحقيق محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٣-اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام ببيت المقدس [ياقوت الحموي ، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص٢١٢ ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م].

١٤-من قرى بيت المقدس ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٨٠ .

١٥-ابن عساكر : تاريخ دمشق، جـ١١، ص ٦٦.

١٦-ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٤م) : سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، ص ٦٧، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، دار التقوى، شبرا الخيمة، منشية الحرية، القاهرة.

١٧-القرشي، يحيي بن آدم (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) : الخراج، ص ٤٦٤، صححه أحمد محمد شاكر، دار الحداثة، بيروت، لبنان.

١٨-الطبري: تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، جـ٥، ص ٢٤٤ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

١٩-الأزدي: فتوح الشام، ص ٨٢. خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) : تاريخ خليفة بن خياط، ص ١١٩، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار طيبة، الرياض. البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) : فتوح البلدان، ص ١٥٥، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) : الكامل في التاريخ، جـ٢، ص ٢٦٥، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠-الطبري: تاريخ الطبري، جـ٤، ص ٤٣٧.

٢١-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٧. انظر أيضاً: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ٢٨، ص ١٣٥-١٣٦.

٢٢-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٨٨.

٢٣-ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ١، ص ١٢٦.

٢٤-مدينة كبيرة من أعمال حمص ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٥٦ .

٢٥-ولاية بين حلب وأنطاكية ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٦٥ .

٢٦-مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٠٤ .

٢٧-بلدة بين المعرة ومدينة حلب ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٧٠ .

٢٨-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٧١- ٧٢.

٢٩-الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) : فتوح الشام، جـ١، ص ٩٣، ط٤، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٣٠-المصدر نفسه ، ج١، ص ١٠٥.

٣١-المصدر نفسه، غ١ ، ص ٩٣.

٣٢-المصدر نفسه والصفحة .

٣٣-الواقدي: فتوح الشام ، ج١، ص ٩٣- ٩٤.

٣٤-المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٤.

٣٥-المصدر نفسه، ج١، ص ٧١.

٣٦-الواقدي : فتوح الشام ، ج١، ص ١٥.

٣٧-المصدر نفسه، ج١، ص ١٥.

٣٨-المصدر نفسه، ج١، ص ٧٥.

٣٩-الازدي: فتوح الشام، ص ١٧٥.

٤٠-قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماه يوم ياقوت الحموي : **معجم البلدان** ، ج٣، ص٣٨٣ .

٤١-الواقدي: فتوح الشام، ج١، ص ١٧٣.

٤٢-المصدر نفسه، ج١، ص ١٧٣.

٤٣-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٨.

٤٤-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٩٥.

٤٥-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٨٧.

٤٦-المصدر نفسه، ص ١٨٧.

٤٧-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ١٦٨.

٤٨-المصدر نفسه، جـ١، ص ١٦٨.

٤٩-ابن أعثم: كتاب الفتوح، جـ١، ص ١٩٩.

٥٠-غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١٤١، نقله إلى العربية عادل زعيتر، مطبعة عيسي البابي الحلبي وشركاه.

٥١-البقرة آية ٢٥٦ .

٥٢-الثغامة : الثغام حلي الحبل يكون ابيض ، فإذا يبس أبيض ابيضاضاً شديداً فشبه الشيب به [ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) : لسان العرب ، ج١ ، ص٣٦١ ، مادة ثغم ، قدّم له الشيخ / عبد الله العلايلي ، إعداد وتصانيف / يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، بيروت] .

٥٣-ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٨، ص ٣٨٩.

٥٤-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٨٥.

٥٥-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٩٩.

٥٦-المصدر نفسه والصفحة .

٥٧-البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٠٧ .

٥٨-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٧٧. الطبري: تاريخ الطبري، جـ٤، ص ٤٣٧. ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢٨، ص ١٣٥- ١٣٦.

٥٩-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ٩٩.

٦٠-الحاضر في الأصل خلاف البادي والحاضر الحي العظيم ياقوت : جم البلدان ، ج٢ ، ص٢٠٦.

٦١-البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٩٧.

٦٢-المصدر نفسه، ص ١٩٧.

٦٣-الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص ١٩٠.

٦٤-لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ص ٨، نقله إلى العربية / عجاج نويهض ، ط٣، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، دار الفكر. فيليب حتى وآخرون: تاريخ العربالمطول، جـ١، ص ٢٠٦، ط٤ / ١٩٦٥م، دار الكشاف، بيروت.

٦٥-ابن عساكر: تاريخ دمشق، ص ٢٦، ص ٢٨.

٦٦-ل.أ. سيديو: تاريخ العرب العام، ص ١١٦، نقله إلى العربية عادل زعيتر، ط٢ / ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٦٧-جرجي زيدان: تاريخ التمدن العربي، جـ١، ص ٨١، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٨م.

٦٨-حضارة العرب، ص ١٣٤.

٦٩-ريتشارد.أ.ساليفان: ورثة الإمبراطورية الرومانية، ص ٧٣، ترجمة د جوزيف نسيم، ط١ ١٩٨٥م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٧٠-لوثروب: حاضر العالم الإسلامي، جـ١، ص ١٣- ١٤. وانظر أيضاً، لوبون: حضارة العرب، ص ١٣٥.

٧١-ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

٧٢-المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

٧٣-ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

٧٤-الواقدي : فتوح الشام ، ج ١ ، ص٩٩ – ١٠٠ .

٧٥-المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٩٣ – ٩٤ .

٧٦-ورثة الإمبراطورية الرومانية ، ص٧٣ .

٧٧-تاريخ التمدن الإسلامي ، ج١ ، ص٨١ .

٧٨-ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م) : الأموال ، ص٧٢ ، تحقيق مؤسسة ناصر للثقافة، ط١ / ١٩٨١م ، بيروت . لبنان .

٧٩-المصدر نفسه والصفحة .

٨٠-ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

٨١-الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٢٦٠ ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢٠ ، ص١٢٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ج٢ ، ص٢٨١ ـ الذهبي . محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) : سير أعلام النبلاء ، ج٤، ص٤٢٦ ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٨٢-تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٢٦٠ .

٨٣-ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢٠ ، ص١٢٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ج٢ ، ص٢٨١ ـ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١ ، ص٢٢ ـ ابن كثير . إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) : البداية والنهاية، ج٤ ، ص٢٠-٢١ ، تحقيق / أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

٨٤-فتوح البلدان ، ص١٦٦ .

٨٥-البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٦٨ .

٨٦-القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٨ ، ص١١٢ .

٨٧-الأزدي : فتوح الشام ، ص١٠٦ ـ الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص١٠٦ ـ ابن أعثم : كتاب الفتوح، ج١ ، ص١٦١ .

٨٨-الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٤٢٦ .

٨٩-الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص١٤٣ ـ ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢١٦ ـ ابن الأثير : الكامل ، ج١ ، ص٢٨١ .

٩٠-البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٩ .

٩١-فتوح الشام ، ص١٤٦ .

٩٢-الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢ ، ص٥٦٠ .

٩٣-المصدر نفسه والجزء والصفحة .

٩٤-الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص٧٥-٧٦ .

٩٥-ابن سلام : الأموال ، ص٧٢ .

٩٦-المصدر نفسه والصفحة .

٩٧-لسان العرب ، ج٢ ، ص٥ ، مادة : (قبح) .

٩٨-ابن سلام : الأموال ، ص٧٢ .

٩٩-المصدر نفسه والصفحة .

١٠٠- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٩ .

١٠١- المصدر نفسه ، ص١٧٣ ، ٢٠٢ .

١٠٢- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) : أحكام أهل الذمة ، ج٣ ، ص١٢٠٢ ، تحقيق / أبو براء يوسف بن أحمد البكري ، أبو أحمد شاكر بن توفيق الهاروري ، ط١ / ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، رمادي للنشر ، الدمام ، السعودية ، توزيع دار ابن حزم ، بيروت .

١٠٣- البلاذري : فتوح البلدان ، ص٢٠١ .

١٠٤- الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص٩٣ .

١٠٥- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٣-٩٤ .

١٠٦- ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٢٦ ، ص١٩٧-١٩٨ .

١٠٧- ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج١ ، ص٢٥٣ .

١٠٨- ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ج٢٤ ، ص٢١٢ .

١٠٩- البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م) : السنن الكبرى ، ج٨ ، ص٣٢ ، دار الفكر د. ط. د. ت ـ ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج١٩ ، ص٢٩٧ .

١١٠- ابن الجوزي ، أبوالفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٤م) : صفة الصفوة ، ج١ ، ص٢٩٩ ، ط١ / ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الجيل ، بيروت .

١١١- ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٤٧ ، ص١٨٧ .

١١٢- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٥٣ .

١١٣- الواقدي : فتوح الشام ، ج١ ، ص٩٥ .

١١٤- البلاذري : فتوح البلدان ،ج١ ، ص٩٥ .

١١٥- الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ص١٨١-١٨٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .

١١٦- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٨ ، ص١٣ .

١١٧- الأزدي : فتوح الشام ، ص١٦٠ .

١١٨- المصدر نفسه ، ص١٥٥-١٥٦ .

١١٩- المصدر نفسه ، ص١٥٦ .

١٢٠- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٨٧ .

١٢١- الجريب : مكيال قَدْرُه أربعة أقفزة ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص٤٢٩ ، مادة جرب.

١٢٢- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٠ . الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٤٢٦ . ابن أعثم: كتاب الفتوح ، ج١ ، ص١٧٠ .

١٢٣- الفضة ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص٩١٢ ، مادة ورق .

١٢٤- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٠ . انظر أيضاً : ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م) : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص٧٤، دار الحداثة ، بيروت . لبنان .

١٢٥- ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ج١ ، ص١٣٥ .

١٢٦- ابن ادم : كتاب الخراج ، ص٤٦٣ . انظر أيضاً : ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، ج١، ص١٣٧ .

١٢٧- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت٢٨١هـ/٨٩٧م): كتاب الخراج، ص٥٢-١٥٢، ط١ / ٩٩١م، دار الحداثة، بيروت . لبنان .

١٢٨- البلاذري : فتوح البلدان ، ص١٧٧ .

١٢٩- الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص١٨٦ .

١٣٠- ابن سلام : الأموال ، ص٣١ ، ٣٨ .

١٣١- الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص١٨٤-١٨٥ .

١٣٢- ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ،ج٣ ، ص١٣٦٦ .



المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .

– الكامل في التاريخ ، تحقيق / أبو الفداء عبد الله القاضي ، ط١ /١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

أحمد عادل كمال .

– الطريق إلى دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار النفائس ، بيروت . لبنان .

ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م).

– معالم القربة في أحكام الحسبة ، دار الحداثة ، بيروت .

ابن ادم ، يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م) .

– كتاب الخراج ، صححه / أحمد محمد شاكر ، دار الحداثة ، بيروت . لبنان .

الأزدي ، محمد بن عبد الله (ت ١٧٨هـ/٧٩٤م) .

– تاريخ فتوح الشام ، تحقيق / عبد المنعم عبد الله عامر ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٧٠م .

ابن أعثم الكوفي ، أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) .

– كتاب الفتوح ، تحقيق / علي شيري ، ط١ / ١٤١١هـ/١٩٩١م ، دار الأضواء ، بيروت .

البلاذري ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) .

– فتوح البلدان ، تحقيق / عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م) .

– السنن الكبرى ، دار الفكر ، (د.ط) (د.ت) .

جرجي زيدان .

– تاريخ التمدن العربي ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٤م) .

- سيرة ومناقب عمر بن الخطاب ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ، ط١ / ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، دار التقوى ، شبرا الخيمة ، منشية الحرية ، القاهرة .

- صفة الصفوة ، ط١ / ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الجيل ، بيروت .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) .

- تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق / د . أكرم ضياء العمري ، ط٢ / ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، دار طيبة ، الرياض .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م) .

- السنن (سنن أبي داود) ، إعداد وتعليق / عزت عبيد الدعاس ، ط١ / ١٣٩١هـ/١٩٧١م، دار الحديث ، حمص ، سورية .

الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، ط٣ / ١٤٠٩هـ/١٩٨٥م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت . لبنان .

ريتشارد . أ . سايفان .

- ورثة الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة جوزيف نسيم ، ط١ / ١٩٨٥م ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .

ابن سلام ، أبو عبيد القاسم (ت٢٢٤هـ/٨٣٨م) .

- الأموال ، ط١/١٩٨١م ، بيروت . لبنان .

الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) .

- تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، دار الفكر ، بيروت . لبنان .

- جامع البيان في تأويل القرآن المسمى تفسير الطبري : ، ط١ / ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .

ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) .

- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق / محب الدين أبو سعيد عمر بن عزامة العمروي ، ط١/ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، دار الفكر ، بيروت . لبنان .

غوستاف لوبون .

– حضارة العرب ، نقله إلى العربية / عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

فيليب حتى . ادوارد جورجي . جبرائيل جبور .

– تاريخ العرب (مطول) ، ط٤ /١٩٦٥م ، دار الكشاف ، بيروت .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م) .

– الجامع لأحكام القرآن ، صححه / أحمد عبد العليم البردوني ، ط٢/١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) .

– أحكام أهل الذمة تحقيق / أبو براء يوسف بن أحمد البكري ، أبو أحمد شاكر بن توفيق الهاروري ، ط١ ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، ردماوي للنشر ، الدمام ، السعودية ، توزيع دار ابن حزم ، بيروت .

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .

– البداية والنهاية ، تحقيق / أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

ل . م . سيديو .

– تاريخ العرب العام ، نقله إلى العربية / عادل زعيتر ، ط٢/١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

لوثروب ستودارد .

– حاضر العالم الإسلامي ، نقله إلى العربية / عجاج نويهض ، ط٣/١٣٩١هـ/١٩٧١م ، دار الفكر .

الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) .

– الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .

ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .

– لسان العرب ، قدَّم له الشيخ / عبد الله العلايلي ، إعداد وتصانيف / يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، بيروت .

الواقدي ، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) .

– فتوح الشام ، ط٤/١٣٨٥هـ/١٩٦٦م ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

ياقوت الحموي ، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .

– معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) .

– كتاب الخراج ، ط١/ ١٩٩٠م ، دار الحداثة ، بيروت .




ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د .أسعد لهلالي (*)

الشيـخ محمد خير الدين وجهـوده في مجـال التربية والتعليم في الجزائر (١٩٢٨ ـ ١٩٥٤م)

لقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تؤمن بدور التربية و التعليم في خدمة الشعب الجزائري وإيقاظه من سباته ،وحفظ تراثه ،منذ تأسيسها سنة ١٩٣١م وهي تشيّد المدارس الحرة لتعليم وتربية النشء فيتعلمون اللغة العربية و الدين الإسلامي ،كما أنّهم يتلقون معارف أخرى كالتاريخ و الجغرافيا و الحساب،وقامت الجمعية ببناء المساجد الحرة البعيدة عن السيطرة الفرنسية ليتفقّه أبناء الجزائر و ليعرفوا جيّدا تاريخ بلادهم لأنّ الاستعمار الفرنسي كان هدفه القضاء على دين و لغة وتاريخ هذه الأمة.

في ظل تلك الظروف وجد الشيخ خير الدين(*) نفسه أمام مسؤولية كبيرة خاصة بعد أن نال قسطا وافرا من العلوم و المعارف، كانت نهايتها نيل شهادة التطويع العالمية من جامع الزيتونة، لذلك عزم على منح أبناء بلاده ما تعلّمه، وأصبحت الظروف ملائمة عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وانضم إلى عضويتها إلى جانب علماء أجلاّء كالإمام عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ الطيب العقبي وغيرهم ،و كلّهم عزم و إصرار للدفاع عن كيان وشخصية هذه الأمة العربية الإسلامية.

* أستاذ التاريخ المعاصر، جامعة فرحات عباس ـ سطيف ـ الجزائر

و الحق أنّ الشيخ خير الدين قد بدأ نشاطه التربوي منذ أن عقد اجتماع الرواد سنة ١٩٢٨م حيث كلّفه الإمام ابن باديس بالوعظ و الإرشاد بمسجد فرفار(**)،والقرى المجاورة له، فكان يعلّم أبناء المنطقة مبادئ الدين و اللغة وبعدها يتوجهون نحو قسنطينة أو إلى تونس أو الجامع الأزهر لمواصلة تعليمهم في مختلف العلوم والمعارف وقد أدى هذا النشاط التعليمي إلى تنسيق العمل الإصلاحي مع جماعة من الروّاد في بسكرة أمثال الشيخ الطيب العقبي، والشيخ علي بن عمارة البرجي، والشيخ محمد العيد آل خليفة، و الأستاذ الأمين العمودي.

لقد ساهم مترجمنا في تكوين "جمعية الإخاء" وتأسيس مدرسة الإخاء للتربية التعليم ببسكرة سنة ١٩٣١م واقترح أن يكون مجلس الإدارة من أعضاء لهم علاقة بالسلطة الفرنسية كي لا تقوم بعرقلتها ،أمّا الشيخ خير الدين فقد عين ككاتب عام فقط وهذا لضمان السير الحسن للمدرسة ونشر الثقافة العربية الإسلامية(١)

ومن النشاطات التي قام بها الشيخ خير الدين في بسكرة توحيد صلاة العيدين التي كانت تؤدي في عدد من المساجد الموزعة بين المدينة القديمة و الجديدة فأصبحت تقام لجميع المصلين ببطحاء المدينة القديمة وقد وقع اختيار الشيخ خير الدين إماما لصلاة العيدين لمدة أربع سنوات(٢).

لقد انطلق شيخنا في عمله الإصلاحي من فرفار ثم بسكرة و كان يؤمن إيمانا راسخا بدور التربية و التعليم في الحفاظ على كيان و تراث الأمة،خاصة أنّ منطقة الجنوب كانت تعاني من نشاط المرابطين، و حسبما ذكر «شارل أندري جوليان» فإن تقديرات سنة ١٩٣٩م أحصت ٤٠٠ ألف منخرط في الزوايا ، نصفهم بأراضي الجنوب وقد وضعت الحكومة يدها عليها(٣)، و عندما أرست الحركة الإصلاحية أسسها ببسكرة وضواحيها ،كان العلماء الآخرون ينشطون في مناطق أخرى من الوطن و أصبح العمل أكثر تنظيما بعدما وزع الإمام ابن باديس المهام على رجال الجمعية وفق مبادئها وأهدافها.

ويبدو أن الجمعية كانت مهتمّة بالتعليم العربي و الديني، لأنّ التعليم العربي الحر كان محصورا في دائرة ضيقة بالنظر إلى أساليبه و كتبه، ولذلك فقد قامت الجمعية بجهود كبيرة لتوسيع ذلك التعليم عن طريق إنشاء مكاتب حرة للتعليم

المكتبي للصغار ،وتنظيم دروس في الوعظ و الإرشاد الديني في مساجد وتنظيم محاضرات في النوادي غايتها التهذيب و شؤون الحياة العامة[٤].

والحق أنّ نشاط الشيخ خير الدين كان ينبع من صميم القلب ،ومن جروح ومعاناة أبناء أمته ،وفي إطار أهداف الجمعية ونشاطاتها تم تأسيس جمعية خيرية لإعانة الفقراء والمساكين و تعليم البنين و البنات، مقرها بسكرة كان رئيسها أصيمدة عبد القادر، أما نائبه فهو الشيخ خير الدين وقد تعمّد مترجمنا أن لا يكون الرئيس لتفادي الصدام مع السلطة الفرنسية، و كي تصادق على قانون الجمعية و هو ما تم فعلا[٥]، كما أن تنقلات الشيخ في بسكرة وضواحيها لم تتوقف خاصة إذا تعلق الأمر بوفد لجمعية العلماء و على رأسها الإمام ابن باديس ،ففي جانفي ١٩٣٨م،زار وفد الجمعية قرية القنطرة في ضواحي بسكرة ،وكان الوفد يتكون من الإمام الرئيس والشيخ مبارك الميلي و الشيخ العربي التبسي ،إضافة إلى مترجمنا، وقد ألقى الوفد خطبا في الجامع ،وعند الانتهاء خطب الشيخ خير الدين في الناس، و عرّف بالجمعية و علمائها ومبادئها و أهدافها[٦].

لقد استمر نشاط الشيخ خير الدين مع وفد الجمعية في الجنوب، فقد زار الوفد وادي سوف و طولقة، ومنها إلى بلدة سيدي عقبة و ذلك في سبيل التعريف بالجمعية وتنشيط الحركة الإصلاحية و التأكيد على أنها ليست خاصة بالشمال فقط، بل هي شاملة للقطر الجزائري ،وأنّ الجنوب من اهتمامات الجمعية ،مما أدى إلى تحرك خصوم الجمعية من مرابطين ورجال الزوايا محاولين منع العلماء من أداء رسالتهم الإصلاحية التي كان من بين أهدافها محاربة هؤلاء الخصوم الذين كانوا يعيشون في جمود وبعيدين عن واقع الأمة ومعاناتها ،كما أصبحوا أداة في يد السلطة الفرنسية[٧].

كما أن السلطة الفرنسية فطنت إلى خطر العلماء، لأنّ أصحاب الزوايا والمرابطين كان لهم دور في تحذير الإدارة الفرنسية بما أن مكانتهم أصبحت في خطر لذلك حاربت مدارس الجمعية و نواديها وحتى المساجد،فقد قامت بغلق المدرسة الحرة "دار الحديث"بتلمسان بتاريخ ٣١ديسمبر ١٩٣٧م وأعلن ذلك الإجراء رسميا يوم ٤ جانفي ١٩٣٨م،هذا الإغلاق أحدث انفعالا كبيرا ،وهلّل له أعداء الشيخ

البشير الإبراهيمي وأعداء الجمعية[٨]، حتى أنّ الجرائد في ذلك الوقت عندما أعلنت الخبر ذكرت اسم المكتب الخاص ولم تذكر المدرسة الحرة"دار الحديث"[**].

لقد ركزت السلطة الفرنسية على المدارس لكي تقيّد نشاط العلماء، فأصدر وزير الداخلية "شوتان" قرارا رسميا في ٨ مارس١٩٣٨م يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر ومما جاء في ذلك القرار :<<إنّ اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية>>[٨]،وما كان لهذا القرار إلا أنّ زاد الشيخ خير الدين وزملاءه في الجمعية إصرارا على مواصلة جهودهم التربوية ،وبناءً على إحصاء عامل عمالة قسنطينة في سنة ١٩٣٨م ، كان عدد مدارس الجمعية في عمالة قسنطينة ٨٥ مدرسة تضم ٤٠٤٧ تلميذا مسجلا،ويسيرها معلمون مصلحون،أما في عمالة الجزائر فبلغ عدد مدارسها عام ١٩٣٨م ٦٨ مدرسة تضم ٩٠٦٣ تلميذا[٩].

و الحق أنّ مرسوم الثامن من مارس المشؤوم قد عرقل التعليم العربي،كما أنّ ظروف الحرب العالمية الثانية قد أثرت في نشاط الجمعية التي أوقفت نشاطاتها كي لا تستغلها فرنسا في خدمة مصالحها،وعودة التعليم جاء بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حيث خطت الجمعية خطوة كبيرة بإنشائها لأعظم معهد ثانوي في تاريخها وهو معهد عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٤٧م.

ويقول الشيخ خير الدين[١٠] في ذلك :<< وهنا تبلورت فكرة إنشاء معهد ابن باديس[***]، في قسنطينة ولم يكن من الممكن أن نعود إلى التعليم بالجامع الأخضر لأنه لم يكن لدينا رخصة للتعليم فيه كالتي كانت للإمام ابن باديس، فجمعنا التبرعات وإشترينا دارا كبيرة كانت ملك أحد أفراد "إبن الفقون"،و أثّثنا هذه الدار وجهزناها بالطاولات والمقاعد والبسط،ووضعنا البرامج وعيّنا المدرسين الأكفاء ،وتولى إدارة المعهد الشيخ العربي التبسي تساعده لجنة من الأساتذة>>،وقد عين التبسي مديرا للمعهد أما النائب فكان الشيخ خير الدين ،وقد حقّق المعهد نجاحا كبيرا مما أجبر الجمعية على توسيع المكان و الدخول إلى الجامع الأخضر، والجامع الكبير الممنوع التدريس فيهما وفق قرار منع المساجد على الجمعية الذي صدر في٢٧ فيفري ١٩٣٣م[١١]،لكن الجمعية أصّرت على فتحهما وكان مترجمنا على رأس طلبة الجامع الكبير ، والشيخ العباس على رأس

طلبة الجامع الأخضر ،وقد تزايد عدد التلاميذ بشكل سريع بهدف الحصول على الشهادة النهائية من المعهد(****)،وهي تعادل الشهادة " الأهلية " بتونس ويحصل عليها التلاميذ بعد دراستهم في المعهد مدة ٤ سنوات[١٢].

لقد حاولت السلطة الفرنسية أن تقضي على المدارس الحرة وأن تجذب أبناء الجزائر للتعليم في مدارسها ،حيث نص المادة ٥٧ من قانون الجزائر الصادر سنة ١٩٤٧م على اعتبار اللغة العربية إحدى لغات الإتحاد الفرنسي كما أنها تدرّس في مختلف مراحل التعليم،غير أن هذا النص لم يدخل حيّز التنفيذ إلاّ في سنة ١٩٥٤م[١٣].

لم يكن الشيخ خير الدين من الذين يضعون السلاح جانبا ويستسلمون للعدو، بل بالعكس فقد واصل نشاطه التربوي ،حيث قام برحلة علمية في ربيع ١٩٤٨م إلى عمالة وهران ودشّن بها المدارس ونظّم الشعب وألقى دروس الوعظ و الإرشاد ،وفي غليزان أاستقبل مترجمنا بحماس كبير وقد كتبت جريدة البصائر : << وما دقّت الساعة الثانية حتى وقف القطار السريع يحمل إلينا شخصية بارزة من رجال العلماء الذين قاوموا الجهل والاستعباد ،والبدع و الضلال مدى عشرين عاما منذ تأسيس جمعية العلماء ،مع المرحوم الأستاذ عبد الحميد بن باديس ومع خلفائه من بعده،فالشيخ خير الدين رجل مضحّ بنفسه وبنفيسه، و ما من مشروع خيري للصالح العام إلاّ ويؤيّده ويمدّه وينصره...>> [١٤].

وبعد عودته إلى بسكرة رأى أنّ حركة التعليم تسير بشكل سريع وتعرف إقبالا كبيرا ممّا صعّب على مدرسة التربية والتعليم(****)، استقبال كل التلاميذ لذلك قرّر الشيخ خير الدين مع الأعضاء إنشاء مدرسة جديدة، فشرع في البناء بنشاط مكثّف وكانت المرحلة الأخيرة قد بدأت في ١٨ ديسمبر ١٩٤٩م عندما حلّ الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس الجمعية بدعوة من الجمعية المحلية وتمّ توجيه الدعوة إلى سكان بسكرة والزيبان ومن مختلف أنحاء القطر ،فحضر الحفل العلماء و النواب و الأطباء والمحامون، وتمّ افتتاح المدرسة ،وألقى الرئيس خطابا بليغا كعادته، ثم جاء دور الشيخ خير الدين فألهب الجمهور بكلمات بين العامية و الفصحى ومما قاله:<< إنّكم ستسمعون منّي كلمات ليست من باب الحمد و الشكر و لكنها من باب الحث و الإزعاج ،وسأصل بها مبدأ هذا العمل بنهايته فقد بدأناه مجتمعين

...وما دمنا في موقف استنهاض الهمم وشدّ العزائم وما دمت عارفا بأسرار لغتي وتاريخ أجدادي،فإنّني أؤثر أن يكون افتتاح هذا الحفل التاريخي بالشّعر ...فأنا أريد أن أرجع بكم إلى ذلك الماضي الجليل،ولئن قال لنا أقوام :إنّكم تعيشون في الماضي القديم ، قلنا إننا نعيش بالاستمداد من الماضي و العمل للحاضر والاستعداد للمستقبل...>> (١٥).

وهكذا توالى فتح المدارس و بناء المساجد في شتّى أنحاء القطر ،ففي مدينة سطيف وفي يوم ٨ أكتوبر ١٩٥٠م، تمّ تدشين مدرسة الفتح الجديدة ،وحضر حفل التدشين الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ العربي التبسي و الشيخ خير الدين و الأستاذ فرحات عباس وكان حاضرا أيضا أحد علماء فاس الشيخ إبراهيم الكتّاني، إضافة إلى أساتذة ومديرين آخرين من داخل البلدة وخارجها(١٦)،كما كان للشيخ تنقلات إلى مناطق أخرى ،ففي عام ١٩٤٨م زار بلدة ندرومة، رفقة الشيخ السعيد الزموشي، وكانت هذه البلدة عامرة بالزوايا حيث كان بها سبع زوايا ،ولم تنشأ بها شعبة لجمعية العلماء ،ولم تفتح بها أية مدرسة لتعليم القرآن و اللغة العربية، واقترح الشيخ خير الدين بناء مسجد كبير وتعيين إمام لأداء الصلوات وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد ،وتم بناء المسجد وانتشرت الحركة الإصلاحية فيها بشكل سريع(١٧)،ثم زار الشيخان بلدة بريقو، وأسّسا بها شعبة وألقى الشيخ خير الدين محاضرة في المسجد إلى جانب محاضرة سعيد الزموشي بين من خلالها مقاصد الجمعية و أعمالها وآمالها(١٨).

وقد زار الشيخ خير الدين بلدة شاطودان، في السابع من أفريل سنة ١٩٥٤م وقام بتجديد هيئة المدرسة و الشعبة ،وقدّم التقرير المالي للجمعية وتمّ انتخاب الهيئة الجديدة بإعادة تجديد الثقة فيها(١٩)،كما حل الشيخ ببلدة سوق أهراس في صيف ١٩٥٤م وقام بوضع حجر الأساس لبناء المدرسة الجديدة ،وقد أقبل سكانها على البناء و الترميم فرحا بالمشروع العظيم(٢٠).

وفي خريف ١٩٥٤ تنقّل الشيخ خير الدين إلى أقصى الغرب الجزائري إلى بلدة بني صاف،حيث إفتتح بها "مسجد بني صاف" وممّا قاله الشيخ في خطبة الافتتاح:<< إنّ فتح المساجد معناه إحياء أمّة وميثاق مع الله على العمل لنشر الدين الصحيح والتعاليم والنقيّة في هذا الوطن ....أيها الإخوان إنّ الإنسان في

هذه الحياة يحيا ثم يموت ثم لا يرجع إلا بعد أن يقف بين يدي الله، و الأمم كذلك ولكن الأمة لا تقبر بل تموت موتا معنويا وحياتها لا بروح تدخل وتخرج إنما تحيا بالحياة الحقة وما الحياة الحقة إلا العزة والكرامة والقوة...>> [٢١].

لقد استمر شيخنا في خطبه البليغة ،بمختلف المساجد وفي مناسبات عديدة ، وكان ذلك في عهد الإمام عبد الحميد بن باديس الرئيس الأول لجمعية العلماء ، حيث ذكرنا سابقا أنّ النشاط الذي قام به الشيخ خير الدين هو الوعظ والإرشاد في بلدة فرفار وضواحيها، ونشر الحركة الإصلاحية بها ،فكانت تلك البداية التي فتحت له الطريق ليكون ضمن أبرز الوفود التي عيّنها الإمام ابن باديس عام ١٩٣٣م للوعظ في شهر رمضان ،فكان ضمن قائمة وعّاظ مدينة قسنطينة بالجامع الكبير ،ثم عيّن في الوفد الأول من بين ثلاثة وفود كبيرة إلى جانب الإمام ابن باديس و الشيخ مبارك الميلي حيث ركزوا نشاطهم بالشرق الجزائري[٢٢].

وهكذا كان الشيخ خير الدين يقوم بالوعظ في كل شهر رمضان ،ففي شهر ماي ١٩٥١م عيّن ببلدة العلمة[٢٣] ،ثم عيّن بقسنطينة في ماي ١٩٥٢م[٢٤] ،وتنقّل بين مساجدها باعتباره النائب الثاني لرئيس الجمعية،ثم عيّن بالجامع الكبير بقسنطينة في أفريل ١٩٥٤م[٢٥] ،كما تمّ تعيين شيوخ وأساتذة الجمعية في جميع مساجد القطر للوعظ والإرشاد و الدعوة للتمسك بالدين و اللغة و كانت أسماء الشيوخ و المناطق التي عيّنوا فيها تنشر في جريدة البصائر، و الحق أنّ مترجمنا كان حريصا على مدارس الجمعية دؤوب الحركة ،فكان يشرف على نشر الإعلانات الخاصة بأعظم معهد ثانوي شيّدته الجمعية "معهد ابن باديس"، وما يخص شروط قبول التلاميذ و ضمان الالتحاق العادي والحسن بالمعهد ،كما أنّ هذه الإعلانات التي تنشر في البصائر تساعد التلاميذ الجدد الراغبين في الالتحاق للدراسة بالمعهد بتحضير الوثائق اللازمة و الشروط الأخرى التي تدون مع الإعلان،وبعد أربع سنوات من مسيرة المعهد ،أصبح الشيخ خير الدين مديرا للمعهد نظرا للظروف الصحية التي كان يعاني منها الشيخ العربي التبسي لذلك طلب الاستعفاء من مهمته،كما أنّ الشيخ البشير الإبراهيمي طلب من مترجمنا تولي المهمة ،كونه نائب المدير[٢٦].

و كانت لجان الامتحانات تقوم بدور كبير لتعيّن الناجحين بعد الامتحان ،

وكان يشرف على اللجان الشيخ العربي التبسي والشيخ خير الدين ويشاركهم الإمام البشير الإبراهيمي في التنظيم[٢٧].

وقد ورد في إحدى خطابات الشيخ خير الدين[٢٨] في الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد: << فإنّ العلم أشرف المطالب وأسمى المقاصد و الرغائب فهو حياة الأمم وهو عزها ومجدها ...لقد فهم أسلافنا العظام هذه الحقائق فأقبلوا على العلم بجميع فنونه وتهافتوا على مناهله العذبة يكرعون منها فسادوا في الدنيا و قادوا الأمم وفتحوا – مع البلدان- القلوب و العقول ورفعوا مشعل الحضارة و المدنية...>>.

لقد كان الشيخ خير الدين حريصا على تلقين أبناء وطنه مختلف العلوم لأنّه كان يعرف قيمة العلم في بناء الحضارات ،لذلك لم يقتصر حرصه على تلاميذ المعهد والمدارس داخل الوطن بل امتد حرصه إلى خارج الوطن ،ففي جامع الزيتونة كان الشيخ يقوم بزيارات مستمرة ليتفقّد طلبة الجزائر وكان يلقي عليهم خطبا متنوعة،رغم أنّه كان يتعرض في بعض الأحيان للمضايقات من بعض الطلبة كتلك التي تعرض لها في صيف ١٩٤٨م ،لكن رغم ذلك فمترجمنا كان يعي ما يحدث ويعرف أن هناك محاولة للنيل من الجمعية و سمعتها ،لكن الطلبة استنكروا تلك الأفعال وأعلنوا تقديرهم واحترامهم لشيخهم وولاءهم لجمعية العلماء[٢٩].

يمكن القول أنّ الشيخ خير الدين كان يخوض تنقلاته ويقوم بدوره التربوي بكل شجاعة شرق الجزائر إلى غربها ،ومن الشمال إلى الجنوب تاركا وراءه تلك الخطب البليغة الحماسية المثيرة للنفوس وخلفه تلك القلاع الحصينة من مدارس ومساجد، التي و بدون شك قد منعت الاستعمار الفرنسي من تسلّق أسوارها العالية المحصّنة بالدين الإسلامي واللغة العربية، ووراءها جند من أبناء الجزائر ، وبتلك الإنجازات التربوية التي قام بها شيخنا إلى جانب أقرانه العلماء ،حافظت الجمعية على مقومات الشخصية الوطنية.

الهوامش

(*) الشيخ محمد خير الدين من مواليد ١٩٠٢ بمنطقة فرفار ولاية بسكرة ، وفيها وفي كتاتيبها حفظ القرآن وعلى فقهائها وعلمائها أخذ مبادئ العلوم اللغوية وعلوم الشريعة الإسلامية ثم انتقل إلى مدينة قسنطينة وتتلمذ لمشائخها ومنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطاهر بن زقوطة. وفي سنة ١٩١٨ ارتحل إلى تونس، وانتظم في سلك طلبة الجامع الأعظم (الزيتونة) ومنه تخرج سنة ١٩٢٥عالما متطوعا وكان الثاني في الخمسين مترشحا في امتحان التخرج ، ثم ساهم مساهمة فعالة في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ٥ ماي ١٩٣١م ، وتولى فيها عددا من المسؤوليات والمهام فكان أمينا لماليتها ، ومراقبا عاما لها ، ثم نائبا للرئيس ثم رئيسا ....، كما تولى في الجمعية – نائب مدير لمعهد عبد الحميد ابن باديس في قسنطينة مع هيئته الادارية ، ومختلف لجانه المختصة . وحين أعلنت الثورة أولى خطوات زحفها في أول نوفمبر ١٩٥٤م كان الشيخ محمد خير الدين سبّاقا إلى الانضمام إليها ، حيث أسندت اليه مهام تمثيلها في المغرب الشقيق ،ثم عيّن عضوا في أول مجلس للثورة سنة١٩٥٨م ، وعند استقلال الوطن سنة ١٩٦٢م شغل الشيخ محمد خير الدين منصب نائب في أول مجلس نيابي تأسيسي ، ساهم في استقرار الأمور واستعادة السيادة الوطنية بعد فقدانها لقرن وثلثه . ثم قرر اعتزال ميدان سياسة والتزام بيته إلى أن وافته المنيّة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٩٣م.

(**)من الذين درسوا على يد الشيخ خير الدين : فرحات بن الدراجي ،أحمد سحنون ،علي بن العرافي المغزي ،الطاهربخوش، المختار المغزي ،عبد الرحمان غريّب،الحسن أبو عبد الله وغيرهم ،أنظر محمد خير الدين، مذكرات ، ج١ ،، ط٢، مؤسسة الضحى، الجزائر ٢٠٠٢م، ص٧٤.

١- محمد خير الدين : المصدر نفسه،ص٧٨.انظر أيضا :محمد خير الدين : " اجتماع هام بدار المحترم الحاج الحفناوي دبابش النائب العمالي و تأسيس جمعية (الايخاء) ببسكرة " ، جريدة النجاح، العدد ١١٨٣ ، ٢٢ جويلية ١٩٣١ .انظر أيضا :مجلة الشهاب: مقال " في المجتمع الجزائري ،دور محمود من أدوار الجزائر الحاضرة "، مج ٧ ،ج٨ ، أوت ١٩٣١ ، ص ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠.

٢- محمد خير الدين : مذكرات ، ج١ ، المصدر السابق ،ص ص٧٩-٨٢.

٣- شارل أندري جوليان : إفريقيا الشمالية تسير،ترجمة المنجي سليم وآخرون الدار التونسية للنشر،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،تونس ١٩٧٦م، ص١٢٦.

٤- البشير الإبراهيمي: سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام بنادي الترقي الجزائر، دار الكتب ،الجزائر١٩٨٢م، ص٦٤.

٥- جريدة البصائر: مقال" الجمعية الخيرية الإسلامية " العدد ٤، ٢٤ جانفي ١٩٣٦ ، ص٧ .

٦- عبد اللطيف بن علي: "وفد جمعية العلماء يزور القنطرة" ،جريدة البصائر،العدد ٩٥ ،١٤ جانفي ١٩٣٨، ص٥ .

٧- أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية،ج٣،المرجع السابق،ص ٩٥.

bulletin mensuel d'informations concernant la politique indigène dans le département d'Oran mois de janvier 1938, S. L. N. A, archive historiques .W. de Constantine

٨- بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ،ط٢،دار النفائس ،بيروت ١٩٨٣م، ص٥٢.

٩- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى (١٩٣١-١٩٤٥م)دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة ،منشورات المتحف الوطني للمجاهد ،المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار،١٩٩٦م، ص ص١٣٧-١٣٨.

١٠-محمد خير الدين : مذكرات ، ج١ ، المصدر السابق ،ص١٧٠

١١-محمد الطاهر فضلاء:التحريف و التزييف في كتاب حياة كفاح ،ط١،دار البعث للطباعة ،قسنطينة،الجزائر: ١٩٨٢م،ص٤٤٨.

١٢-محمد خير الدين : مذكرات ، ج ١ ، المصدر السابق ، ص ص ١٧٠ـ ١٧١ .

13- Mohamed Harbi: 1954 , la guerre commence en Algérie .édition complexe, bruxelles.1998.

١٤-فرحات العابد : " الشيخ محمد خير الدين في غليزان" ،جريدة البصائر،العدد٣٦، ١٧ماي ١٩٤٨ ،ص٧.

١٥-الحفناوي هالي: "وصف الاحتفال الرائع بفتح مدرسة بسكرة" ،جريدة البصائر،العدد ١٤٠ ـ ١٤١، ٥فيفري ١٩٥١ ،ص ص٦-٧، أنظر جريدة الشعلة:مقال " بسكرة تحتفل بوضع الحجر الأساسي لمدرستها " ،العدد ١٩ ، ٢٠أفريل ١٩٥٠م، ص ٢ .

١٦-علي مرحوم: تدشين مدرسة الفتح بسطيف"،جريدة البصائر ،العدد ١٣٣، ٢٣ أكتوبر ١٩٥٠م،ص٢.

١٧-محمد خير الدين :مذكرات ، ج١، المصدر السابق ،ص٢٣٢

١٨-السعيد الزموشي: "وفد جمعية العلماء في بريقو ،جريدة البصائر ،العدد ٤٣، ١٢ جويلية ١٩٤٨م،ص٢.

١٩-جريدة البصائر:" أعمال جمعية العلماء " ،العدد ٢٦٩، ٣٠ أفريل ١٩٥٤م،ص٥.

٢٠-محمد مسلاتي:"آثار النهضة الإصلاحية بسوق أهراس"،جريدة البصائر ،العدد ٢٧٦،٢٥ جوان ١٩٥٤م،ص٧.

٢١-حمد منيع: " افتتاح مسجد بني مصاف وخطاب الشيخ خير الدين" ،جريدة البصائر ،العدد ٢٨٣، ٣ سبتمبر ١٩٥٤،ص٧٠.

٢٢-محمد خير الدين: مذكرات ، ج ١ ،المصدر السابق،ص ص٢٢١-٢٢٦.

٢٣-جريدة البصائر: " قائمة الوعّاظ " ،العدد١٥٦، ٢١ ماي ١٩٥١م،ص٢٠.

٢٤-جريدة البصائر: "قائمة الوعاظ لشهر رمضان "،العدد ١٩٠، ١٩ ماي ١٩٥٢م،ص٢٠.

٢٥-جريدة البصائر: "قائمة الوعاظ لشهر رمضان " ،العدد ٢٦٩، ٣٠ أفريل ١٩٥٤م،ص٣٠.

٢٦-محمد خير الدين: مذكرات ، ج١ ، المصدر السابق ص١٧٠.

٢٧-جريدة البصائر: مقال " معهد عبد الحميد بن باديس " ،العدد ١٥٨، ٤جوان ١٩٥١م،ص٢٠.

٢٨-جريدة البصائر: مقال" خطاب فضيلة الأستاذ محمد خير الدين في الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد" ، العدد ٢٨١ ، ٣٠ جويلية ١٩٥٤ ، ص ٠١ .

٢٩-جريدة البصائر:مقال "الشيخ خير الدين في تونس ، إستنكار وتبرؤ"، العدد ٤١ ، ٢٨ جوان ١٩٤٨، ص ٠٣ .



د . هيا بنت على النعيمى[*]

حركة الـردة فى البحـرين

عقب وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى عهد عمر بن الخطاب

تبلورت حركة الردة فى البحرين على أساس تخلى مجموعة من أهل البحرين عن ركائز الدين الإسلامى وخروجهم عن الامتثال للقيادة بعد وفاة الرسول ، وما تبع ذلك من ضجة وسخط انتهت إلى محاربتهم كأصناف معارضة فى بدايات العهد الراشدى .

يمتاز أهل البحرين بأسبقيتهم فى اعتناق الدين الإسلامى عن قناعة تامة فى وقت مبكر كانت تابعة فيه للدولة الساسانية ، وهذه حقيقة لانستطيع أن نتجاهلها ، لأن الدين الإسلامى يمتلك من الخصائص ما يؤكد على أنه عقيدة الفطرة ، ومنهج الحياة الذى يستوعب كافة شؤونها ، ولهذا وجد طريقه بين أهل البحرين ، بعيدا عن العنف والاكراه ، يبدو ذلك جليًا فى النصوص القرآنية (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) ، (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، وبناءً على ذلك فإن هذا الدين يخاطب إنسانية الفرد بأسسه المرنة ، دون أن يجبر الناس على الأخذ به قسرًا كمعتقد يحكم أسلوبهم فى الحياة ، ومن هنا نستغرب أن يرتد أهل إلى وثنية حاربها الدين ، لكن يتضح أن حركة الردة حقيقة فى ذات التاريخ على درجة من الخطورة ، وإن لم تدم طويلا ، فإما أن تكون خطأ ليس له أى مبرر من شئ ، وبالتالى لابد من تحطيمها ، وهذا ما حصل فعلا ، أو أن تكون حركة قائمة عن وجه حق ، أرادت تحريك الرفض ، والثورة احتجاجا على حالة غير شرعية آنذاك .

* عميدة كلية الآداب – جامعة البحرين .

وباختصار ، فإن ما يورده لنا التاريخ هو أنه بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ارتد قوم من البحرين ملكوا عليهم المنذر بن النعمان فيما ثبت مسلمو جواثا كالجارود العبدى ، فحاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم إلى أن أرسل أبو بكر العلاء لنجدتهم ، فهزمهم وقتل منهم مقتلة ، وكان جيش العلاء من الجيوش الإحدى عشر ، التى أرسلها أبوبكر لردع ما عرف بحركة الردة والروايات فى ذلك على أوجه مختلفة وكثيرة .

فهل كانت حركة الردة فى البحرين اعوجاجا باتجاه اللاوعى ، والانحطاط ، وفتنة جرت ويلات إهدار المكاسب ، والعبث بموازين الدولة الإسلامية ، أم أنها لا تعدو أن تكون أسلوبا تلقائيا ، للتعالى على واقع الأحوال الاقتصادية ، والاجتماعية التى مرت بها ؟ فمن هم رموز هذه التجربة، ولماذا زجوا بأنفسهم فى هذا المأزق ؟ وكيف كانت المؤشرات التى استتبعت تفاصيل هذه الظروف؟ ألم تكن الهوية الإسلامية مترسخة فى مسلك المرتدين ؟ لماذا سادت أكثر من موجة انشقاق، وتفكك فى مجتمع المسلمين ، بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟ كما نالت أعمال المؤرخين من حصص الحقيقة ، وإلى أى مدى التزموا بالواقعية والمصداقية ؟ وهل تخلو تفاصيل الأحداث من المبالغة أو التأثر بالظروف السياسية ؟

تساؤلات عديدة تطرح نفسها فى هذا المضمار ، ويجاب عليها إلى حد كبير فى غمار الدراسة.

الردة بين المضمون اللغوى والمحتوى الاصطلاحى

الردة (بالكسر ، الاسم من الارتداد) ، وقد ارتد ، وارتد عنه : تحول ومنه الردة عن الإسلام، أى الرجوع عنه ، وارتد فلان عن دينه ، إذا كفر بعد إسلامه[1] . وكما جاء فى اللسان : الرد : صرف الشئ ورجعه ، والرد مصدر رددت الشئ ورده عن وجه يرده ردًا ومردًا وترداداً . وقد ارتد عنه : تحول . وفى التنزيل : (من يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) [2]، والاسم الردة . يقال ارتد الرجل عن دينه ردة : إذا كفر بعد إسلامه ، وأمر الله لا مرد له [3].

فالردة ، بالكسر : مصدر قولك رده يرده ورده . وفى حديث القيامة والحوض يقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم أى متخلفين عن بعض الواجبات . قال : لم يرد ردة الكفر ولهذا قيده بأعقابهم لأنه لم يرتد أحد من الصحابة بعده ، إنما ارتد قوم من جفاة الأعراب [4].

وهناك معان كثيرة أخرى للردة لسنا بصددها ، فما يهمنا فى الواقع معنيان ، أولاهما: الرجوع الحقيقى لعموم الأشياء ، حيث نفهم منهم تصور العودة إلى ما كانت عليه فى مقدمة الأمر ، وذلك بعد حركتها ، وثانيهما : التحول عن الشريعة الإسلامية إلى اعتقال ضال ، ولهذا التحول عدة مقاييس فقد يكون حسيا ، أو معنويا ظاهريا أو خفيا .

تعرف الردة اصطلاحا على أنها التحول ، والرجوع المؤدى بالكفر بعد الإسلام ، وتحصل الردة بقول صريح أو لفظ يؤدى معناها أو فعل يظهر ذلك [٥]، وتكون من إنسان مسلم بالغ عاقل مختار ، كالشرك بالله تعالى أو جحوده ، أو نفى صفة ثابتة ، أو اعتقاد كذب النبى (صلى الله عليه وسلم) فى بعض ما أتى به، أو سب الله سبحانه أو أحد أنبيائه (صلى الله عليه وسلم)، وإنكار ضرورة من ضروريات الدين ، أو أن يحلل الحرام أو يحرم الحلال ، أو الإتيان بفعل صريح يكافئ الاستخفاف بالإسلام . ومن أكره على الكفر فجاء بكلمة الكفر لم يعد مرتدًا [٦]، وذلك لقوله تعالى : (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)[٧] .

ولنا أن نوجز مغزى المدلول الاصطلاحى على أنه : "كفر المسلم بقول صريح أو لفظ يقضتيه أو فعل يتضمنه" . ومن الواضح أن الردة تفشت فى صورة جماعية مثلما تبنت ذلك بعض القبائل ممن تناملت حركتهم فى عهد أبى بكر ، وهذا ما يعرف بحركة الردة الجماعية .

ولاشك أن لفقهاء المذاهب فهمهم الخاص إزاء فكرة الردة ، ونكتفى هنا بإيراد بعض التعريفات:

١- مذهب المالكية : الردة هى كفر بعد إسلام تقرر بالنطق بالشهادتين والتزام أحكامها .

٢- مذهب الحنفية : المرتد هو الراجع عن دين الإسلام .

٣- مذهب الشافعية : الردة هى قطع الإسلام بنية أول قول أو فعل يتضمن كفرا ، اعتقادًا أو استهزاءً أو عناد [٨].

وهناك من يعرف الردة عن طريق استقراء وتتبع مقومات المصادر التى ذكرت أن العرب ارتدوا بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنها كانت فى المقام الأول ثورة على السلطة المركزية فى الحكم وفى النظام الاقتصادى .

تذكر الكتب الفقهية على اختلاف المذاهب أنه يشترط فى صحة الردة البلوغ ، وكمال العقل ، والاختيار ، أو الطوع حيث لاتقع إلا من المكلف ، العاقل لا المجنون أو السكران ، إلا أن مذهبى المالكية والحنفية لم يشترطا البلوغ ، فاختلف فى وقوع ردة الصبى [٩]. وتحصل الردة كما أشرنا فى الباب السابق ، بنية أو قول كفر أو فعل ، استهزاءً أو اعتقادا ، فمن نفى الخالق أو رسله أو كذب أحدهم ، أو حلل محرمًا بالإجماع كالزنا وعكسه ، أو نفى واجبًا بالإجماع أو العكس أو ترك الصلاة أو الزكاة جحودًا ، أو عزم على الكفر غدًا ، أو خالطه كفر ، والفعل المكفر ما تعمده إهانة صريحة نحو الدين ، أو جحود له كإلقاء المصحف فى قاذورة أو تمزيقه أو إضرار الكعبة ، أو الخضوع لغير الله كصنم أو شمس [١٠].

نستخلص مما سبق أن هناك أربعة أقسام تصدق على حصول قضية الردة :

١- ردة على مستوى الاعتقاد .

٢- ردة على مستوى الفعل .

٣- ردة على مستوى القول .

٤- ردة على مستوى الإسقاط أو الترك [١١].

يبقى أن هناك فروقا طفيفة تدور فى فلك هذه الأقسام الأربعة بين المذاهب المختلفة فيما يصير به المسلم مرتدًا :

١- الحنفية : تتحقق الردة بإجراء كلمة الكفر على اللسان بعد حالة الإسلام .

٢- المالكية : وتتحقق إما بلغة صريحة أو لفظ يبطنها مما علم ضرورة فى الدين ، أو بفعل يختزن الارتداد كالقاء المصحف .

٣- الشافعية : وتتحقق إما بلفظ الكفر أو بجحود الفرض أو استباحة الحرام .

٤- الحنابلة : من أشرك بالله أو جحد ربوبيته أو جحد الحكم الواضح المجمع عليه .

٥- الظاهرية : من كفر بما صدر عن النبى من الصحيح المجمع عليه .

٦- الزيدية : اعتقاد كفر (الله ثالث ثلاثة) ، فعل ما يستنقص شرعة النبى أو ما دعا الله بتعظيمه ، تلفظ الكفر ، والسجود لغير الله .

٧- الإمامية : نية أو قول أو فعل منطقة الكفر.

٨- الأباضية : إنكار وحدانية الله والبعث والرسل أو ما علم من الدين بالضرورة أو شتم النبى أو ملك [١٢].

وحتى يتسنى لنا الربط بين ما سبق ، وما يخص الأمثلة والصور التاريخية فمن الضرورى تحديد أقسام المرتدين تاريخيا حيث تتضمن :

١-جماعة الممتنعين عن الزكاة والمطالبين بالإعفاء منها بعد رحيل الرسول ، وتضم بنى عبس وذبيان ومن تبعهم من بنى كنانة وغطفان فزارة بالإضافة إلى بنى يربواع ، وسيدهم مالك بن نويرة.

٢- فريق كفى بالله ورسوله مثل بنى بكر بن ةائل ، وقبائل ربيعة والأزد ، وجماعات فارسية، بالإضافة لمدعى النبوة الذين عاصروا النبى (صلى الله عليه وسلم) كمسيلمة الكذاب وأتباعه والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، وهناك جزء تنبأ بعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) كسجاح بنت الحارث التميمية التغلبية [١٣].

المرتد وما ينضوى ضمنه من أحكام

يتسم حكم الردة عن الاسلام بالحرمة والكفر الغليظ ، لأنها بمثابة تكذيب يلحق تصديق . إن المرتد هو الراجع عن دين الإسلام ، أى الذى يكفر بعد إسلامه ، ولو رجع يتوجب قتله، فإذا قتل لا يدفن مع المسلمين ، وتبين منه زوجته بمجرد الارتداد ، فبديهى بالتالى أن تعتد منه عدة الوفاة إن دخلت ، ويقسم ماله بين ورثته المسلمة ، وإن لحق بدار الحرب [١٤]. أما الثانى : فهو المسلم عن كفر بمعنى غير المولود على فطرة الإسلام ، فهذا من الواجب استتابته ، وأما أملاكه فتظل محفوظة له حتى يتوب ويوقف نكاح زوجته على انقضاء العدة المساوية لعدة المطلقة .

كما جاء فى ضوء تعريف المرتد : أنه كل من يأبى شفهيًا ويمطلق اختياره ركنين جوهريين من أركان الإسلام ، وهما : «أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، سواء كان مسلما بالولادة أو مسلمًا بعد كفر ، ويوازى نفى الكل بالنسبة للأصول ، إن باللفظ المباشر ، أو غير المباشر ، إن بالكلام أو بالعمل أو بالاساءة إلى مقدسات الشريعة ، وحكم المرتد فى كلا المذهبين الشيعى والسنى هو القتل [١٥]. ويلغى زواج المرتد وتصادر أمواله ، كما فرقت الأحكام بين المرأة والرجل ،

وبالتالى لم تحكم لدى كل من الشيعة والحنفية السنة، وإن كانت مسلمة على الفطرة ، وإنما تسجن حتى تتوب ، أو أنها تمكث مأسورة إلى أن تموت حيث تضرب كل ثلاثة أيام .

ويستتاب المرتد وجوبًا كما ذهب الشافعي وأحمد ، أو استحبابًا كما بالمذهب الحنفى ثلاثة أيام ، فإن تمسك على ما هو عليه قتل لامحالة ولايسترق ، وإن تاب لم يشمله الحكم، وقيل بأن إسلامه غير مقبول إن ارتد لكفر خفى مثل الزنادقة ، والحجة على ثبوت الاستتابة : « أن امرأة يقال لها أم رومان ارتدت فأمر النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يعرض عليها الإسلام ، فإن تابت وإلا قتلت » ونستنتج من الحديث السابق أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أقام عقوبة المرتد ، قبل أن يطبقها الصحابة بعد مماته مع المرتدين ومانعى الزكاة [١٦].

ومن ثم ، فبعد أن تثبت الردة إما بطريق الإقرار ، أو بطريق شهادة يدلى بها اثنان يبرزان نوع الكفر ، فإن المرتد يستتاب ، فإن رجع قبل منه وإن تنكر للدين قتل، وذلك لقول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « من بدل دينه فاقتلوه » [١٧]. ويتولى قتله الإمام حسب ما هبت إليه الحنفية والشافعية والحنابلة والظاهرية والزيدية ، ويتولى قتله كل من علم بأمره وفقًا لمذهب الإمامية ، وتذهب الأباضية إلى أكثر من ذلك حيث يصح قتل المرتد حتى على يد امرأة أو عبد مشرك أو مرتد آخر [١٨].

قراءة مقتضبة فى تاريخ البحرين الجغرافى

لم تكن البحرين فى السابق مجرد مجموعة من الجزر الصغيرة فى الخليج العربى التى تبعد لكيلومترات عن الساحل الشرقى للمملكة العربية السعودية كما هو الحال الآن ، بل هى كما قال قوم : « الإقليم الثالث وعرضها أربع وثلاثون درجة ، واسمها يجمع للبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان » ، كما قيل « أنها قصبة هجر ، وقيل هجر قصبة البحرين » ، وقد اعتبرها البعض من اليمن ، فيما صنفها أخرون كقصبة برأسها [١٩].

وقال ابن الفقيه، وأبو عبيدة أن مقدار ما يفصلها عن اليمامة يعادل مسيرة عشرة أيام، وما يفصلها عن البصرة يعادل خمسة عشريوما على الإبل، وما يفصلها عن عمان يقدر بمسيرة شهر، قال : « والبحرين هى الخط، والقطيف ، والآرة، وهجر، وبينونة، والزارة، وجواثا، والسابور ، ودارين ، والغابة » قال : « وقصبة هجر ، والصفا ، والمشقر ، والشبعان ، والمسجد الجامع فى

المشقر ، وبين المشقر والصفا نهر يجرى يقال له العين [٢٠] . ولقد كانت البحرين فى صدر الإسلام تمتد من كاظمة إلى جلفار ، وتشكل المنفذ نحو الجزيرة العربية بموانيها كالعقير والإحساء والقطيف ودارين ، وبجذرها كأول ، والمحرق ، وشفارن وتاروت ، وحوار ، وغيرها [٢١].

نخلص إلى أن ما كان يقصد بالبحرين هو ما كان متعارف عند العرب فى الحقب السابقة من أنحا الإقليم الممتد على ساحل الخليج العربى بين البصرة وعمان ، وكانت بذلك تضم ما يعرف فى عصرنا اليوم بالكويت والإحساء والبحرين وقطر وتتصل غربا باليمامة وشمالا بالبصرة وجنوبا بعمان [٢٢] .

دخول البحرين فى الإسلام

فى السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ م) ، باتفاق البلاذرى ، والطبرى ، وابن هشام وفد الصحابى العلاء بن عبد الله بن عباد بن الحضرمى ، حليف بنى عبد شمس ، سفير الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى البحرين التى كانت تحت إمرة المناذرة التابعين للفرس الساسانيين ، وقد كان قائدا فيما بعد فى حرب المرتدين . إلى أن وافى حاكم البحرين من قبل الفرس آنذاك المنذر بن ساوى التميمى العبدى[٢٣] ، شيخ قبيلة عبد القيس الذى ينتمى إلى بنى دارم ، والى سيبخت مرزبان، المتمركز بهجلر يدعو شعبهم إلى الدخول فى الإسلام أو دفع الجزية ، فتقبلت صدورهم الدين الجديد – الذى قال عنه المنذر : « فما يمنعنى من دخول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت فقد عجبت أمس ممن يقبله وعجبت اليوم ممن يرده »[٢٤]– طوعا من غير حرب أو قوة ، حيث أسلم أيضا سائر العرب بالبحرين مع بعض الأعجام . والملاحظ أن هذا يتباين مع ما رواه ابن الأثير فى تاريخه ، حيث يقول : « ولم يكن بالبحرين قتال إنما بعضهم أسلم وبعضهم صالح » ، وما قاله قتادة : «لم يكن بالبحرين قتال ، ولكن بعضهم أسلم وبعضهم صالح العلاء على أنصاف الحب والتمر » ،ولوحظ وقتها أن نصارى ومجوس البلد قد كتبوا معاهدة ضمنية بينهم وبين العلاء تنص على صيغة للمصالحة ، نسختها « بسم الله الرحمن الرحيم ،هذا ما صالح عليه بن العلاء الحضرمى أهل البحرين ، صالحهم على أن يكفونا العمل ،ويقاسمونا الثمر ، فمن لم يفى بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ، وبالنسبة إلى جزية الرؤوس ، فإنه قد استوفى لها دينارا من كل حالم ، ممن لا زال على المسيحية واليهودية ، وقد قيل أن رسول الله قد بعث العلاء لما بعث رسله إلى دعوة الملوك سنة ست ، وروى عن العلاء أنه قال : » بعثنى رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) إلى البحرين ، أو قال هجر ،وكنت آتى الحائط بين الأخوة ، قد أسلم بعضهم فأخذ من المسلم العشر ، ومن المشرك الخراج «[٢٥].

وورد على أهل البحرين كتاب أرسل إليهم : «بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد، فإنكم إذا أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ونصحتم الله ورسوله ، وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب، ولم تمجسوا أولادكم ، فلكم ما أسلمتم عليه ، غير أن بيت النار لله ورسوله ، وإن أبيتم ،فعليكم الجزية « ،ويقال أن ذلك كان سنة ٦ هجرية ،وفى رواية له (صلى الله عليه وسلم) ، ويحدث أصحابه : « سيطلع عليكم من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق « ، وفى رواية : « يسبق ركب من المشرق لم يكرهوا على الإسلام ، قد أنضوا الركائب ، وأفنوا الزاد ، اللهم اغفر لعبد القيس «[٢٦] ، وكان ذلك فى وفد عبد القيس عليه بالمدينة قبل فتح مكة ، ففى العام الثامن للهجرة كان قدوم وفد عبد القيس بقيادة(الأشج) ، ومن صاحبه من أهالى هجر ، معلنين إسلامهم السرى بين يدى الرسول ، ومنطلقين برسالة الدين إلى المنذر بن ساوى فى البحرين[٢٧] ، كما قدم وفد بحرينى آخر، فى العام العاشر للهجرة ، بقيادة الجارود بن المعلى العبدى ، الذى اعتنق الإسلام بعد أن كان نصرانيا [٢٨] .والحق ، أننا نستشف من خطاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أن عبد القيس حرصوا على الاستجابة طوعا ، وأن الإسلام قد احتل موقعا عظيما فى أنفسهم ، وبالتالى لم يلق أية معارضات أو مزاجيات رافضة تعترض طريق سيادته ، بل كان مقتضى تعاطى الأغلبية متفتحا وإيجابيا تمثل فى مدى استعدادهم لقبوله واعتناقه .

وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمنذر بن ساوى (التداعيات المرحلية)

قال تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) [٢٩].

تجدر الإشارة إلى أن البداية الفعلية لاندلاع حركات العصيان – كمنعطف على درجة من الحساسية،

والخطوة فى تاريخ هجر – الجزيرة العربية- كانت إبان الفترة الزمنية التى أعقبت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، يوم الثانى عشر من ربيع الأول ، ووفاة المنذر بن ساوى بعده وذلك فى السنة العاشرة ، أو الحادية عشرة للهجرة عل اختلافات الروايات ، وذلك لأن نماذج الردة خلال المدة السابقة لوفاة النبى كانت متمركزة فى محيط محدود شمل كلا من اليمن واليمامة .

وينقل إلينا المؤرخون بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مات ذلك الشهر ، ومات المنذر بعد رحيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بفترة وجيزة [٣٠] ، فتبع ذلك الكثير من طوائف العرب ، بين كافر ومانع للزكاة والصدقة [٣١] ، حيث تغلغل النفاق فى ثنايا المجتمع وقتئذ كما جاء فى قول السيدة عائشة : « لما توفى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية ، لفقد نبيهم حتى جمعهم أبو بكر » [٣٢] وكان أهل البحرين من ضمن من ارتدوا أيضا ، مملكين عليهم المنذر بن النعمان المنذر ، ولهذا السبب غادر أبان بن سعيد العاصى بن أمية من البحرين ، متجها نحو المدينة حيث أشار ابن عساكر فى تاريخه أن أبان بن سعيد قال إلى بنى عبد القيس : » أبلغونى مأمنى »، فقالوا : بل أقدم ، فلنجاهد معك فى سبيل الله، فإن الله معز لدينه « كما نجد أن الجارود حول تنحيته عن السفر فلم يجد ذلك أمام إصراره . والملاحظ لما قدم على أبى بكر لامه قائلا « ألا تثبتوا مع قوم لم يرتدوا » ، أو قال لم يبدلوا ، فعقب أبان : « هم على ذلك فما أرغبهم فى الإسلام وأحسن نياتهم ، ولكن لا أعمل لأحد بعد رسول الله » [٣٣] .

وكان ممن ارتدوا أيضا : شريح بن ضبيعة العبدى ، المعروف بالحطم وقبيلة ربيعة ، وبكر التى بقت على ردتها . وبخصوص عبد القيس ، فقد شهر كلامهم عقيدة أن النبى لا يموت ، أو أن النبوة لا تنقضى بمجرد وفاته إلا أن الجارود بن عمرو قد اجتمع إليهم وحدثهم بحديث ينزع إلى فطرة الحق فآمنوا بمنطقه ، واستجابوا لهذا الزعيم الإسلامى بعد المنذر ، برسوخهم من جديد على إسلامهم ولكى تكون الصورة أوضح ، سنذكر ما دار بين الجارود وبينهم ، حيث أنه قال : « تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى » ، قالوا : « نعم » ، قال : « فما فعلوا » « ؟ قالوا : « ماتوا » قال: فإن محمدًا مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله « فعادوا إلى حظيرة الإسلام بنفس الشهادة مضافا عليها وأنك سيدنا وأفضلنا [٣٤] .

وهذا يأخذنا إلى ما حدث به أبو بكر الناس إثر وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك لما قال « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت [٣٥] « وتجدر الإشارة إلى أن عمرا وغيره قد نصحوا أبا بكر بالتخلى عن قتال المرتدين ، لكنه كان حازما ومتشبثا بكرة النهوض لهم ،حيث قال : »والله لو منعونى عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لقاتلتهم على منعها ، « والعقال تعنى زكاة عام من الإبل ،والمقصود بعناق : الأنثى من ولد المعز [٣٦] .

كذلك فإن من أهم ما نطقت به تداعيات حركة الردة ، هو ذهاب فريق من رجالات بكر بن وائل إلى كسرى ملك الفرس ، يخبرونه بموت من كانت قريش ومضر يفتخرون به ، وبنبأ الرجل الذى حل بعده ، ووصفوه على أنه ضعيف البدن والرأى ، ملمحين إلى اتصراف عامله إلى جماعته ، وإلى الضياع الذى تسلل للبحرين بعد أن لم يعد بها مسلمون سوى من عبروا عنهم بشرذمة من عبد القيس لا يساوون شيئا بالنسبة لهم . وسألوه أن يبعث من يأخذ بزمام أمور البلد ، فطرح المنذر بن النعمان ، ولم يكن منهم إلا أن وافقوا عليه بشدة ، وكان من بينهم أبو ضبيعة الحطم بن زيد وظبيان بن عمرو ، فأمره بالخروج معهم وزودهم بسبعة آلاف فارس وراجل .

وقد قال بعض العرب بعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) : لو كان محمد نبيا لما مات ، وقال بعضهم الآخر : انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحدا بعده [٣٧].

إشكالية الردة ودوافعها

لم تكن حرب الردة أبدا وقفا على المسلمين ، كما أنه لا يوجد أى حكم قطعى على أن عامة العرب ارتدوا عن الإسلام ، لأنه من الواضح وجود جماعات فى الأقطار الإسلامية حافظت على تبعيتها للإسلام ، بل وأن البعض منهم ساهم فى التصدى بصفة خاصة للمرتدين ويحتدم الجدل فى الحقيقة الدائرة حول صحة وقوع الردة على عموم الناس ، خاصة مع انتفاء الاطمئنان إلى الكثير من المعلومات المغرضة الخالية من الدلالة القاطعة فى أخبار الردة ، فيما يعمق من هذه الإشكالية أن التفاصيل كانت مروية بالدرجة الأولى عن سيف بن عمر التميمى المنعوت بالكذب ودس الإفتراءات . فلقد ذكر بأنه كان مع المسلمين فى المواقف ، والمشاهد التى رأوها من أمر العلاء [٣٨] ،كما أن عملية تدوين التاريخ تمت بعد قرن ، أو أكثر من النقطة الزمنية للأحداث فى البحرين بالإضافة إلى ما ضمنه الموالى وأهل الكتاب والإخباريون الجاهلون للعربية من عناصر أسطورية تتطلب الفحص والتدقيق[٣٩] .

فهناك من الأمثلة ما يستبعد ارتدادها إلى الكفر استنادا إلى صلابة الإيمان ، فمثلا هناك نموذج أهل اليمن الذين قال فيهم النبى (صلى الله عليه وسلم) « الإيمان يمان » ، ومثال بنى حنيفة الذين ينتمى إليهم مالك بن نويرة ، وهو من الصحابة الأجلاء لا سيما وأنه قال لخالد : « والله ما ارتددت » ، وقد شهد أبو قتادة بعد أسره مع جماعته أنهم أقاموا الصلاة وأن عمرا (رضى الله عنه) سارع بالدغفاع عنه طالبا من أبى بكر (رضى الله عنه) محاسبة خالد لإعتدائه على حرمة مسلم ، ويروى أن أبا بكر قال له أرياء قتلت إمرئا مسلما [٤٠]؟

ومن الأمثلة الواردة والمغايرة إلى أن الصلاة لم تكن مقامة فى أوساط القبائل المرتدة أن مسيلمة الكذاب حين تزوج سجاح بنت الحارث التغلبية – وهى من نصارى العرب التى ادعت النبوة وأذعن لها دعامة بنى تميم وجماعة من أمرائها –كان قد جعل مهرها لإسقاط صلاتى الفجر والعشاء [٤١]،كذلك نموذج مسلمى البحرين اللذين صاروا مسلمين بإرادتهم التامة ، ونال وفدهم شهادة ثناء من النبى (صلى الله عليه وسلم) ، كما تقدم ، ومن أجل ذلك نعجب لمن يلصق بنثل هؤلاء الكفار لأنهم لم يمنعوا الزكاة ، ربما لعدة تماشى النظام مع ما يرتجونه نتيجة لتجاذبات غير مشروعة ؟ حول زحزحة المركزية عن من يعتقدون بأنه الأول باستحقاقها ولعل من الأسس التى تؤكد على وضعيتهم الإسلامية إعلان أبى بكر بعد استعلامه عن الجماعات التى تؤدى الصلاة دون الزكاة بأنه سيقاتلهم حتى لو منعوه عقال بعير كانوا يؤدونها إلى النبى(صلى الله عليه وسلم).

أما فيما يتعلق بدوافع الردة، فسنناقش موضوعها فى النقاط التالية :

١-وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ،ونظيرمثل هذا الحدث من اضطرابات لم تكن بالأمر السهل كان لها انعكاس بالغ على نفسية أفراد يواجهون تحديات الشكوك وتعقيدات المستقبل بالجزع ،والضياع ، حيث لم يستطع عدد كبير منهم أن يتقبل خبر وفاته،لدرجة أن عمر أقد فند نبأ الوفاة قائلا بأن النبى مضى لربه وسيؤوب مثلما آب موسى لقومه بعد غياب أربعين ليلة .

٢- انهيار سلطان المدينة ،حيث سجلت غزوات النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ومواقفه الإدارية فى السابق نفوذا عصريا دعم أركان الدولة ، وبسط قدرتها على أغلب مجتمعات العرب فعنصر الارتداد فى هذه الحالة شأنه شأن عدم التعاطى مع المنهجية السياسية القائمة بنفس الحماس السابق ،وليس الاعتداء بالوثنية ، أو الاعتقادات الفاسدة التى أفسدها مشروع الإسلام نهائيا [٤٢] . وهذا الأمر يقترن بانقسام الأمة بعد رحيل النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى اتجاهين ، أحدهما يرى استحقاقات الولاية لعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وقسم يقر برئاسة أبى بكر ملتمسا المبررات أو راضيا بالخيار ،وعلى ذلك فلا عجب لو لم تكن لوحدة كل المسلمين صفحة ناصعة .

٣- التأثر الواضح من قبل بعض العرب بالفرس والروم المحرضين ضد الدين الإسلامى [٤٣].

٤- ظهور العصبيات والنزعات القبلية بقوة حيث كان طموح حركات الردة ذا نسق سياسى أكثر من كونه دينى ، وأضفت عليها العصبيات القبلية واقع الطمع فى السياسة وحيازة كرسى

الملك ، فذلك معقول للغاية حين نقرأ عن ويلات الجاهلية المشينة التى طفحت مقاصدها كرد فعل عنيفة تختزن نفس المحنة فى الحقبة الإسلامية . وعلى ضوء ذلك عادى جمع من بكر بن وائل قوم عبد القيس الملتفين حول إسلامهم ، فما اقترحه بعضهم كان يدور حول تتويج سلالة النعمان بن المنذر كونه أحق بذلك من أبى قحافة [٤٤] ومن منظور أوسع سئم البعض سيطرة قريش واستفرادها بالزعامة كقيادة النبى (صلى الله عليه وسلم) ونجد هنا انطلاق بعض الطوائف لإرجاع المكانة والسلطان الذى كانوا يحتلونه فى زمن الجاهلية [٤٥] .

٥- بسبب جهل تعاليم الإسلام ، بمعنى نقص البينة من امره، و هذا خلاف ما لمسناه فى السبب الثانى ، إذا أنه من المحتمل أن اعتناق الإسلام لم يكن بالضرورة رغبة فى تحقيق الذات بجوهر الدين إنما قد يكون الهدف هو الرغبة فى الأمان خوفا من تعاظم أمر المسلمين أو البحث من فائدة مادية أو اجتماعية ، وعلى هذا وجدت فئات ضعيفة الإسلام ، مشوهة الإيمان تحركت للإسلام إذانًا لعظمة الإسلام واهله، برغم من هذه الهيئة الراهنة ، لابد من التأكيد على ان الأيديولوجية الإسلامية لم تفرض نفسها بالقسر ، إنما كانت تتسم بعقلانية ارقى من هذه النظرة .

٦- جنوح البعض للخلاص من الزكاة بدعوى أنها متعاصره فقد مع حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وفور وفاته تخلفت عن أدائها ، زاعمة أنها لم تجعل لمن يخلفة فلا حق له أن يطالبهم بجمعها ، حيث تذرع بعضهم بقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) [٤٦]، فى أن دفع الزكاة مقتصرة على من تكون صلاته سكنا لهم، وقالوا أنه لاينبغى للخليفة أن يحكم قبضته عليهم ، لأن تقييدهم يعد نوعا من التمرد على تبعية البدو بجماعات الحضر ، يتضح ذلك فى بيت يستحق الإشارة إليه ، وهو قول الحطيئة :

أطعنا رسول الله إذا كان بيننا ... فى لعباد الله ما لأبى بكر

أيورثها بكرًا إذا مات ، بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة القصر

٧- عدم تكاثر تأثير الهاجس الإسلامى فى جزء من أفراد الأمة ، الذين افتقروا للانتماء الروحى الأصيل ، وربما لحداثة ارتباطهم بالإسلام ، وبالتالى افتقدوا للنضج العقيدى الرصين ، فعاشوا على قاعدة مهزورة ، تختلف بواطنهم عن ظواهرهم ، وتنطبق عليهم الآية الكريمة التالية: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) [٤٧].

٨- حنين العديد من العرب إلى ماضى الشهوات ، التى غابت أثناء مرحلة الرسول لأن الأحكام

الإسلامية لم تصادق عليها ، فلم يشأ هؤلاء أن يظل شرب الخمر والزنا مثلا قيد المصادرة .

كانت هذه مجموعة الدوافع الحية التى اعتمادناها وفق سجلات الحركة التاريخية ، ولا يمكن أن نتخذها على أنها الأسباب المثالية لفيضان الردة فى محيط الجزيرة العربية بما فيها البحرين .

مجمل حرب الردة :

لقد برزت فى السنة الحادية عشرة أنباء ارتداد العديد من العشائر العربية عن الإسلام حينما علموا بوفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وامتنعوا عن الزكاة ، فعمل أبوبكر والمسلمون على قتالهم ، مما أسفر عن مقاومة الحركات الآتية :

١- حركة الأسود العنسى : انبثقت كأول ردة فى الإسلام على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، إذ كان عبهلة بن كعب بن عوف مشعوذا كاذبا يريهم الأعاجيب ، ويأخذ بقلوب من يستمع طرحه من أصحاب العقول الضعيفة ، وآزره عمرو بن معدى كرب الذى أسر ، ففكه أبو بكر لاحقا . وقتل فيروز الديلمى عبهلة العنسى بالتنسيق مع زوجته المسلمة التى كانت تبغضه، كما أن من تصدى له إضافة لفيروز رجل يدعى عامر بن شهر الهمدانى وداذويه [٤٨].

٢- حركة مسيلمة بن حبيب الكذاب : ارتدت بنو حنيفة ولحقوا بمسيلمة الكذاب الذى ادعى مشاطرته النبوة مع النبى (صلى الله عليه وسلم) ، يشهد على هذا صديقه الرحال ، ودعا نفسه برحمان اليمامة حيث أضل أهلها ، وأخذ يسجع لقومه ، ثم وضع عنهم الصلاة وشرع حلية الخمر، والزنا ونحو ذلك ، فمضى خالد بن الوليد لقتالهم ، فالتقى بهم فى عرباء (فى أرض اليمامة) ، بصحبة شرحبيل بن حسنة وعكرمة بن أبى جهل وأبى حذيفة ، فهزمهم وقتل منهم مقتلة، وأطلق وحشى ابن حرب حربته على مسيلمة فأصابته ، فصرعه أبو دجانة [٤٩].

٣- حركة طليحة بن خويلد الأسدى : تنبأ فى بنى تغلب على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وكثر أنصاره ، فقويت شوكته بعد رحيل النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وقد سمى نفسه بذى النون ، ومن جهة نزاله ، فقد مضى إليه خالد بن الوليد بجيش عرمرم لما خرج إلى بزاخة ، فهزم صفوف طليحة الذى كان قد بايع عيينة بن حصن، فيما فر هاربا إلى الشام نازلا عند كلب ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وعلى رواية أخرى أن أبا بكر حقن دمه ، وقيل أنه قتل فى نهاوند[٥٠].

٤- حركة سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية : هى نصرانية ادعت النبوة فى بنى

تغلب ، وصممت على مواجهة أبى بكر غير أن مالك بن نويرة ثناها عن فكرة القتال ، تفاعلت مع نبوءة مسيلمة الكذاب وتزوجته ، ثم انتقلت إلى أرض الجزيرة إلى أن نقلها معاوية عام الجماعة سنة ٤٠ هجرية فأسلمت وحسن إسلامها [٥١].

٥- حركة طوائف البحرين (محل الدراسة) : وهم تيار مرتد ، ملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر القائل بعد أن أسلم وأسلم الناس : «لست بالغرور ، والكنى المغرور » ، فأرسل إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمى لتقويم مجرى الباطل ، فأنقض بجيشه على القوم ليلاً فى أجواء سكر ، فأجهزوا عليهم، واستحوذوا غنائمهم [٥٢].

٦- حركة لقيط بن مالك الأزدى : وهو من كان يسمى فى الجاهلية الجلنرى ، وهو الآخر انفلت عن ثوابت الإسلام مدعيا النبوة ، فبعث له حذيفة بن محصن الحميرى ، وعرفجة بن هرثمة البارق، وتبعهما عكرمة بن أبى جهل، وشرحبيل بن حسنة بأوامر من أبى بكر ، وحدث اضطراب فى صفوف المسلمين كاد يفت عضدهم ، ويحيلهم مهزومين ، حتى أقبل إليهم المدد من بنى ناحية وعبد القيس ، فأفنوا عشرة آلاف مرتد ، وأسروا الذرارى [٥٣].

٧- حركة الردة فى مهرة : تمثلت فى إقبال عكرمة بقوى نحو مهرة ، مستنصرا أهل عمان ومن حولها ، فاستجاب له الأمير شخريت المختلف مع الأمير المصبح رئيس المرتدين الذى لقى حتفه حين تقابل جيش المسلمين والمرتدين ، ولقنوهم هزيمة قاسية [٥٤].

٨- حركة قيس بن عبد يغوث بن مكشوح : وهو من أهل اليمن ، خافه أهلها ، ووقف معه عمرو بن معدى كرب ، وجماعة من أصحاب الأسود العنسى ، وكان خطرهم ماحقًا لأمراء اليمن الثلاثة ، فتحرك إليهم المهاجر بن أمية الذى ولاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) على صنعاء ومعه عكرمة بن أبى جهل الموجه من أبى بكر فى خمسمائة مدد ، هزماهما ، ثم أصبحا مسلمين تائبين ، فقد ورد أنه أسر ، واقتيد إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقام الأخير بتوبيخه ، ثم عفا عنه ، لأنه أنكر الردة [٥٥] .

٩- حركة أبو الفجاءة السلمى : والذى دخل على أبى بكر يبغى سلاحًا للجم المرتدين ، فلما منح ما يريد خرج على وعده وارتد هو الآخر بقتله المسلمين فى جموع سليم عامر وعامر وهوارزم [٥٦].

نتوصل من تلك الطزاهر إلى تفشى حروب الردة وتعامل الخلافة معها على أساس أنها ثورات

مشوهة تحكمها النوازع القومية ، وطالما رأوها كذلك بدا ضروريا إخضاعها للحكومة الدينية من منطلق الدفاع عن الأطر الإسلامية التى لا تقبل هذه التعددية .

أهل البحرين بين الثابت والمرتد أهل البحرين تولد بعد وفاة المنذر ، ولابد أن نميز فى هذا الباب بين مواقف أهل البحرين المتباينة بالنسبة لحركة الردة حتى لا يحصل أى نوع من الالتباس فى رؤى الفريقين بمجال الأزمة الردوية .

إن الأنماط المرتدة كانوا من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة وقبيلة بكر بن وائل[٥٧] التى هزأ بها أحد المنتمين إلى بنى ضبيعة بن عجل عبر قوله :

ألم تر أن الله يسبك خلقــــه   فيخبث أقوام ويصفوا معشر

لحى الله أقوامًا يصيب بخنعـــة   أصابهم زيد الضلال ومعمر

والتى آثرت أن تتم على ردتها ، إذ أورد إليها المثنى بن حارث الشيبانى خطابًا يطلب منهم أن يكونوا على قدر من المسؤولية عن طريق توجيه اللوم إليهم ومنعهم من موقفهم بالرغبة فى حرب إخوتهم عبد القيس ، وتوعدهم بمهاجمة المهاجرين والأنصار لهم ، وكتب أبيات مطلعها :

طال ليلى لتمنى مسمع   وابن ضبيان جميعًا والحطم

إلا أنهم استهجنوا الدعوة واعتبروها مرادفًا للحسد يقودهم الحطم ، وهو شريح بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد ، ارتد بعد إسلامه هو وبنو قيس بن ثعلبة ، وهو من نزل القطيف ، وهجر واستغوى الخط ومن فيها من الرط والسياجة، وأرسل إلى دارين فأصغوا له ليصير عبد القيس وبينهم[٥٨]، والسر فى تسميته بالحطم يكمن فى قوله : « قد لفها الليل بسواق حطم »[٥٩]، حيث اضطرهم الظرف السياسى إلى تمليك المنذر بن النعمان بن المنذر عليهم ليتمكنوا من تشكيل قيادة تضمن مصالحهم ، وهناك من عمم ارتداد كل من اجتمع بالبحرين من ربيعة عدا الجارود ، ومن ساير منهجه من الأهالى ونلفت النظر إلى أن هناك من احتمل بارتداد جميع قبائل العرب ما عدا أهل جواثا مثل ما تطرق له ياقوت الحموى[٦٠]. كان الفريق الآخر المناوئ لمن ارتد يحوى عبد القيس يقودهم الجارود ومن تابعه من قومه الذين أمروا عليهم ابن النعمان بن المنذر ، والجارود هو بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى العبدى[٦١]، وهو من قال عندما ارتد العرب : «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله »[٦٢]، وهو من الكوادر المتفقهة على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبالمناسبة يورد الطبرى عن إسلام الجارود أنه لما قدم على النبى ، عرض عليه (صلى الله عليه وسلم) ، أن يسلم ، فقال : إن لى دينا ، فرد النبى (صلى الله عليه وسلم) : إن دينك

يا جارود ليس بشئ وليس بدين ، إلى أن أسلم وقضى فى المدينة لفترة تفقه خلالها ، ثم عاد لقومه يدعوهم للتحول إلى الإسلام ، فأجابوا مباشرة [٦٣]. وهذا من الشواهد التاريخية التى تفسر لنا أيضا اختيارهم المطلق فى أن يصبح الإسلام جزءًا من ذواتهم وكانت نتيجة انتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) للرفيق الأعلى أن ارتدوا من زاوية أنه لو أنه كان محمد نبيا لما مات ، ولحسن الحظ فإن براعة الجارود ، ومنطقيته القاطعة ، قد لعبت دوراً فى تنوير ذهنيتهم، وإعادتهم إلى موقف الشهادتين ، فثبتوا على ما يكفل لهم السعادة [٦٤]، وإن من الذين ثبتوا أيضا : قيس بن عاصم المنقرى ، وعفيف بن المنذر ، وعتبة بن النهاسى بن بكر بن ةائل ، أو (عتيبة بن النهاس)، وعامر بن عبد الأسود ، ومسمع وحفصة التميمى ، أو (خصفة التيمى) ، المثنى بن حارثة الشيبانى ، الذى كا بالمرصاد لأهل الردة تدعيمًا لمشروع العلاء ، وعوف والأبناء من سعد ابن زيد مناة الذين امتثلوا للزبرقان ، ودافعوا عن الإسلام وغيرهم كثير ، حيث استطاعوا إخضاع المرتدين تحت لواء العلاء بن الحضرمى [٦٥].

لجوء المسلمين إلى حصن جواثا :

تعرض البلاذرى بدقة إلى العتمة التى كان يتمتع بها هذا الحصن ، فوصفه بأنه حصن البحرين، وينبغى لفت النظر إلى أن آثاره لا تزال باقية حتى اليوم فهو من معالم الإحساء الأثرية، التى كان يشملها قطر البحرين الجغرافى آنذاك ، بالاضافة إلى أوال والقطيف ، ولقد اختاره النفر المسلم كقاعدة ذات دور فعال على مستوى وقائع الردة كما أنه برز كنطاق تجارى متميز فى السابق [٦٦].

إن الواقع التاريخى عكس المعاناة العميقة لمن ثبتوا على الإسلام فى هجر داخل هذا الحصن الذى ظلت جدرانه شاهدة على صراع الحركات السياسية والحصار النفسى الناتج عن محاولات التضييق على من تشبثوا بالأصالة الدينية ، يجسدون مقاومة الجوع والوضع العصيب ، إلى أن تغير مجرى الأوضاع لصالحهم بعد ذلك فقد دفع الإحساس بالخطر والتدهور قبيلة عبد القيس إلى الاحتماء بحصن جواثى أو جواثا على اختلاف الأخبار [٦٧]، غير أن بكر بن وائل أحاط ومن معه تماما بالحصن وحرموهم القوت ، حتى أوشكت هذه المأساة أن تقودهم للهلاك ولقد عبرت أبيات أحد المحاصرين المسلمين- هو عبد الله بن عوف العبدى – عن المعنى الكامل لهذه السطوة ، حيث كان يستعطف أبا بكر بحرارة ، وربما وثوقا من قدرته على معاونتهم وتخليصهم من الضيم الذى هم عليه ، فكان يقول :

ألا أبلغ أبا بكر رسولاً وفتيان المدين أجمعينا

فهل لك فى شباب منك أمسوا — جياعًا فى جواثا محصرينا
تحاصرهم بنو ذهل وعجل — وشيبان وقيس ظالمينا
يقودهم الغرور بغير حق — ليستلب العقائل والبنينا
فلما اشتد حصرهم وطالت — أكفهم بما فيها بلينا
توكلنا على الرحمن إنا — وجدنا الفضل للمتوكلينا
وقلنا والأمور لها قرار — وقد سفهت حلوم بنى أبينا
نقاتلكم على الإسلام حتى — تكونوا أو نكون الداهبينا
بكل مهند عضب حسام — يقد البيض والزرد الدفينا[٦٨]

واستمر المسلمون هكذا ، فى جوع متفاقم ينتظرون بصيص أمل إلى أن حان دور العلاء لينهض فى مواجهة عنيفة تحطم أصفاد الحصار ، والجدير بالذكر أن عبد القيس قد لجأوا إلى الحصن بعد أن شعروا بالهزيمة ، أمام اثنى عشر ألفًا من بكر بن وائل ، ثلاثة أرباعهم كانوا من الفرس ، وذلك بعد قتال ضار استمر أياما كثيرة [٦٩] ، وسنتناول آفاق حرب التحرير التالية لهذه الحرب ، بصورة أشمل فى الباب التالى .

دور العلاء فى التصدى للمرتدين

بعد أن انتهى خالد من مهمته فى اليمامة ، استجار جمع المحاصرين فى هجر بأبى بكر (رضى الله عنه) ، فاعراه هم بالغ ، فعقر اللقاء للصحابى العالم العلاء بن الحضرمى – كواحد من القادة الإحدى عشر الذين اختارهم أبوبكر ، فى سنة اثنتى عشرة ، على أساس تحرير البلاد الإسلامية من ممارسة الاعتراضات التى بلغت الذروة [٧٠]، فاستبلت ضمائر الكثيرين – وسيره إلى البحرين لكسر الحصار المفروض على الجماهير المتحمسة للإسلام ، مزودًا بألفين من المهاجرين والأنصار مع ستة عشر رجلاً من الفرسان، ليعينوه على مواجهة من عزموا على إطفاء نور الله على حد قوله ، وقال بنو عبد القيس : إن لم يرتدوا فهم جندك ، وغدا مع العلاء حتى بلغه عبد القيس [٧١].

ولما وصل العلاء إلى اليمامة ، وكان فى استقباله ثمامة بن أثال الحنفى الذى عرض عليه العلاء أن ينضم إليه فى الخروج لحرب أبناء عمه بكر بن وائل ، فلم يتوقع إجابة قومه من بنى

حنيفة بسبب التجربة القاسية التى تعرضوا لها مع مسيلمة فى معركته ضد خالد بن الوليد ، إذ عبر أحدهم عنها :

إنما عهدنا بقاصمة الظهر ويوم لنا كيوم القيامة(٧٢)

ولكن الحاصل أن دعوة اليوم جاءت خلافا لدعوة الأمس تتجلى مآربها فى نصرة المنهج السماوى القويم ، الأمر الذى حمل ثمامة على العزم للمضى مع العلاء وإمداده بقوات من قومه، وكان مع جمع من بنى عمهو ممن ضمن ما أنشده :

فلن أثنى الأعنة عن دعاه وعند الله فى ذاك الجـــزاء

وبعدها وصل إلى محل بنى تميم ، فلاقاه قيس بن عاصم المنقرى التميمى، الذى لقبه النبى بسيد أهل الوبر ، فعرض عليه السير معه لتولى الجهاد ووضع حد للردة فلم يكن منه إلا أن سانده وسار معه بصحبة عشرين فارسا من بنى تميم، وقال قائل :

ألم تر أنا أجرنا العلاء على كل من جاره من مضر

فصارت حصيلة جيش العلاء ألفين مقاتلا من المهاجرين والأنصار بالإضافة إلى جماعتى ثمامة بن أثال وقيس بن عاصم المنقرى ، وينقل أنه لما بلغ العلاء حصن جواثا ، اعترضته جماعات من ربيعة ، كان يقودهم الحطم ، استطاعوا تقييد حركة المسلمين ، وحصارهم ، مما حمل العلاء على أن يطلب المساعدة من أبى بكر ، فأصدر أبو بكر أمرًا إلى خالد بن الوليد بالتوجه من اليمامة إلى البحرين ، لمساندة جيش العلاء ، ولكن النصر كان قد سجل للمسلمين قبل مجئ خالد (٧٣).

وأورد أحد المسلمين فى الحصن إلى العلاء بأنه لم يعد هناك حل ناجح للقضاء على المعارضين وتأديبهم ، سوى مداهمتهم ليلا ، وعكس ذلك أحد أبياته التى خاطب بها العلاء :

أسد النهار ضباع الليل ليس لهم إلا البيـــات بمـا لا قـل أو كثـرا

والظاهر أن الجارود قد كتب للعلاء : «إن بينى وبينك أسود النهار وضباع الليل» فأدرك أنه يستحثهم للقتال ليلا ويرجح أن العلاء كان نازلا بأصحابه فنفرت دوابهم وما عاد لديهم ما يتزودون به فى الطريق ، فاشتد عليهم الخطب ، ودارت الوصايا فيما بينهم ، ولما حانت صلاة الفجر صلى بهم العلاء ، وجلس يدعو فاهتدوا إلى ماء شربوا منه واغتسلوا ، ولم يزالوا كذلك حتى أناخت بعيرهم (تكرد من كل وجه) . مما غرس فى قلوبهم الأمر ، ودفعهم للأمام .

ولم يلبث العلاء أن دعا الجارود ورجل آخر للاشتراك مع عبد القيس من أجل الهجوم على الحطم وإحاطته ، واقتضت المعادلة حلول العلاء ومن معه بهجر ولقد خندق المسلمون على أنفسهم وهو يتناوبون القتال قرابة الشهر[٧٤] ، ثم أقام المرتدون القتال فتوارى المسلمون بحصن البحرين المتعارف بجواثا ، وأخذ الجوع منهم مأخذه وكان جنود العلاء يتحينون الفرصة للاقتحام فاحتكم العلاء لفكرة البيات ، وأكد على الجماعة المحاصرين أنه ينبغى لهم التهيؤ للانطلاق ، بمجرد أن يستشعروا اقتحام المسلمين ومباغتتهم للقوم . وكان موقف العلاء فى ليلة البيات يتم بروح التحدى والثبات ، لاسيما وأنه استمر فى تحفيز الجيش ورفع معنوياته ، لخوض الصراع من دون وجل أو تردد ، ولم يتوان فى إرسال شخص يستقرئ له خبر القوم عن كثب - قيل أنه عبدالله بن حذف - خاصة بعد سماع ضجيج ، وضوضاء فى العسكر الآخر ، فانبرى للتقصى ، وقبيل انبلاج الصبح ، عاد الرجل يحمل بشارة التمكين ، وأعلم العلاء بالأمر المهم الذى تحقق منه ، حيث عاد قائلا : « قد أشرفت إلى معسكرهم فلم أسمع لهم حركة ، والقوم عندى سكارى ، لايعقلون » ، وقد ورد أيضا أنه لما اقترب من خندقهم أخذوه ، فصار يستغيث واأبجراه » فجاءه أبجر بن بجير ، فعرفه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : علام أقتل ، وحولى عساكر من عجل وتيم اللات ، وغيرها ؟ فخلصه ، فقال له : «والله إنى لأظنك بئس ابن أخت أتيت الليلة أخوالك ، فقال : « دعنى من هذا وأطعمنى ، فقد مت جوعًا » فقرب له طعامًا ، فأكل ، ثم قال: «زودنى واحملنى ، يقول هذا لرجل قد غلب عليه السكر » ، فحمله على بعير ، وزوده وجوزه ، وبعد أن دخل عسكر المسلمين أخبرهم أن القوم سكارى ، فلم يلبث العلاء أن دعا صحبه للركوب ، قاصدين هدفهم بترو ، حتى إذا شخصت أبصارهم للعسكر ، أحدقوا بهم وانقضوا عليهم بالخيول التى جالت عليهم حوافرها ، وبالسيوف التى تناولتهم ، حيث أذرع المسلمين فيهم قتلا وأبلوا بلاءً حسنا فى حرب طاحنة ، فهرب الكفار بين متردد ، وناج ومقتول ، ومأسور[٧٥]، وكما ورد عن ابن كثير أنه قل من هرب منهم[٧٦]. أما بالنسبة للجماعة المسلمين المحاصرة ، فإنهم أداروا باب الحصن ، وهموا بالقتال من الجهة الخلفية ، تنفيذا لتعاليم القائد ، فتضافرت القوى مما كبد المشركين خسائر هائلة فى الأرواح[٧٧]، وولت فلولهم بعد الهزيمة الشنعاء إلى قرية الردم ، فى حين تقاسم المسلمون الغنائم ، وقد قتل الحطم إثر انقطاع ركابه مع قدمه[٧٨] ، الذى قال فى قتله مالك بن ثعلبة العبدى :

وتركنا شريحا قد علته بصيرة	كحاشية البرد اليمانى المحبـــر
ونحن فجعنا أم غضبان بابنهـا	ونحن كسرنا الرمح فى عين حبتر

ونحن تركنا مسمعا متجدلا رهينة ضبع تعتريه وأنسر

ويبدو أن السر فى إحراز هذا النصر يكمن فى الموهبة العسكرية ، والمنهجية البارعة فى خطط الحرب حسب تكتيك العلاء . عندما كتب العلاء إلى أبى بكر : بهزيمة أهل الخندق ، وقتل الحطم، إذ قتله زيد ومسمع « أما بعد فإن الله تبارك وتعالى سلب عدونا عقولهم ، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار ، فاقتحمنا عليهم ، فقتلناهم إلا الشريد ، وقد قتل الله الحطم [٧٩] .

ولا يخفى فى مسار هذه الواقعة من أن المنذر بن النعمان قال عندما انتصر المسلمون « لست بالغرور ،ولكنى المغرور « فاستنزل أرض الخط مع شرزمة ربيعة ، حيث أن العلاء شن غارة عليها ، وقتله هناك لولا قول بأن أسلم وحسن إسلامه .

وبعد أن فرغ من جواثا قطع العلاء طريقه إلى جزيرة دارين ، والواقع أن الناس بها كانوا كثيرين، فعمد إلى المشى إليهم فى عز الليل ، فزحف بجيشه إلى طريقها الأوحد الذى كان قد لوحظ عليه الحراس الذين لم تنفعهم هذه الحصانة وغارت عليهم خيل المسلمين فى عقر دارهم، فاشتبكوا معهم وأردوهم عن آخرهم إلا صغارهم ، وأخذوا معهم جميع ما كان فى الجزيرة من النساء والذرية وحملوا الأموال ، واقتسموا الغنائم راجعين إلى عسكرهم ، وأشعر بعضهم يقول :

ألم ترى إلى الليل ذلل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعونا الذى شق البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل

ثم واصل العلاء سيره حتى بلغ الردم ، ودنوا من الخصم فى صراع يشتعل شراسة ، حيث دار النزال لساعة ، وتخلل المبارزات ضربة أحد الكفار يدعى أبجر لابن بجير على رأس قيس بن عاصم ، غير أن قيس صدها بالترس ، وأصابه بعد ذلك بسيفه ، وكان يقول :

ألم تر أدميت رمحى وأننـــــى ضربت بحد السيف يا فوخ أبجر

فلم يجد مناصا للهرب وحلت الهزيمة بالخصم أمام الهجوم العاتى للمسلمين[٨٠] ، وشهدوا مصرع رئيسهم الحطم بن زيد [٨١] الذى انثنى به السرج ، وقد انقطع ركاب الفرس حين عاودا الركوب سريعا إثر قضاء حاجة ، وظل واقفا متحيرا لا يعرف كيف يتصرف ، أو إلى أين يذهب إلى أن خر قتيلا على يد أحد المسلمين الذى أنشد :

لما بدا حطم لـــى وحـــده يدعو بأعلى الصوت من عاقلى

أقبلت فى النقع إلى فارس أشبــــه شىء منه بالراجـــل

منقطع الحيلة فى موضع فيه قصيد من قنا ذابل
فقلت لا تعجل أتاك الرد فلست عما جئت بالغافل
فلما انثنى وثنى رجله عممته بالمرهف الفاصل
سيفا حساما فوق يافوخه فخر مثل الجمل البازل

وعلى رواية أن قيس بن عاصم هو قاتله ، وهو من أجهز على أبجر بطعنة فى العرقوب أنشد فيها عفيف بن المنذر :

فإن اليرقأ العرقوب لا يرقأ النسا وما كل من يهوى بذلك عالم
ألم ترى أنا قد فللنا حماتهـم بأسرة عمرو والرباب الأكـارم

وعفيف ذاته هو من أسر الغرور بن سويد ، فطلبت منه الرباب أن يجيره ، فأجاروه بعد هذا النصر لاذت فلول بكر بن وائل بالصحارى ، ونزل المنذر بن النعمان إلى آل جفنة مستجيرا أما الفرس فقد ولى جزء منهم للزارة والقطيف ، فيما خرج بعضهم لكسرى وأخبروه عن هزيمة عساكرهم، فحزن لذلك وأما القسم الأخير منهم ، فقد سألوا العلاء الأمان ، فمنحهم ذلك ، واشتغلوا بالبحرين حراثين وزراعين ، ثم تولى العلاء دفع ما حصل عليه من الغنائم إلى أبى بكر، وأرسل له كتابا بما صار إليهم أمرهم فشعر بقوة العلاء فى إدارةزمام الأمور ، فولاه البلاد . وفى خبر المنذر بن النعمان فقد قيل وقتها أنه قد مسه ندم شديد ، وكتب إلى أبى بكر أبيات تفصح عن رجوعه إلى الرشد وتعبر عن ذلك بصراحة :

عجبا لأمرى والحوادث جمة أدعى الغرور وإننى مغرور
قد قلت لما لم أجد لى مهربا إنى لعمـرك واتـر موتـور
وأطعت كسرى فى الذى أملتـه ووترت قوما وترهم محذور [٨٢]

وهناك فى الطبرى ، والبلاذرى ، واليعقوبى من الشواهد ما يروى أنه لقى حتفه يوم جواثا[٨٣].

حركة الردة فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

استؤصلت آخر آثار حركة الردة ، فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى) ، حيث أحرز ذلك بمصرع المكعبر الفارسى [٨٤] ، وقد عمد الخليفة على الإبقاء على تعيين العلاء بن الحضرمى واليا على البحرين وقد قيل فى هذا الشأن أن أرناد ابن فيروز بن حشيش (المكعبر الفارسى قد تحصن

بالزارة ، وكان قائد المرتدين ، وحليف كسرى الذى أرسله للانتقام من بنى تميم أيام تعرضهم لغيره، وقد التحقت به قبائل من المجوس الذين تجمعوا بالقطيف ، وعارضوا تأدية الجزية ، فنهض العلاء للزارة لكنه لم يفلح فى فتحها لإبان خلافة أبى بكر ، وإنما عاد ليفتحها فى بدايات الخلافة العمرية ، حيث شهد له بفتح السابون ودارين بالسيف ، وعرف خندق باسمه .

وقد ألحق معمر بن المثنى مجموعة من الحملات العسكرية بالعلاء ، حيث يقول استنادا لما أورده الواقدى فى كتاب الردة : غزا العلاء بعبد القيس قرى من السّابين فى خلافة عمر بن الخطاب ، ففتحها ثم غزا مدينة الغابة ، فتل من بها من العج ، ثم أتى الزارة وبها المكعبر ، فحصره ثم إن مرزبان الزارة دعا إلى البراز ، فبارزه البراء بن مالك ، فقتله ، وأخذ سلبه ، فبلغ أربعين ألف ثم خرج رجل من الزارة مستأمنا على أن يدل على شرب القوم ، فدله على العين الخارج من الزارة ، فسدها العلاء، فلما رأوا ذلك ، صالحوه على أن له ثلث المدينة ، وثلث ما فيها من ذهب وفضة ، وعلى أن يأخذ النصف مما كان لهم خارجها ، وأتى الأخنس العارى العلاء، فقال له : إنهم لم يصالحوك على ذراريهم ، وهم بدارين ، ودله كراز المكرى على المخاض إليهم فاقتحم، العلاء فى جماعة من المسلمين البحر ، فلم يشعر أهل الذارى ، والسبى ، ولما رأى المكعبر ذلك، أسلم ، قال كراز :

هاب العلاء حياض البحر مقتحما   فخضت قدما إلى كفار دارينا [٨٥]

نتائج حرب الردة

لا بد لنا إذا ما أردنا فهم حركة الردة كجزء من حركات التاريخ الإسلامى ، أن نناقش بالإضافة إلى أصولها كل ما يستتبعها من النتائج والتحولات المنطقية ، باعتبارها مطردة من المنحنى المصيرى لأطوار الحركة ، وأصدائها على المدى القريب والبعيد .

وبناء على ذلك ، اعتمدنا التسلسل الآتى للكشف عن الآثار المترتبة على حركة الردة :

١ - أدت إلى نشوب معارك ، نجم عنها توحيد كلمة المسلمين ، وتقوية مركز الخلافة ، حيث بدا ذلك واضحا فى موازين الفتوحات ، واتساعها بنحو جغرافى فاق حدود الجزيرة العربية، ليشما أمتى الروم والفرس .

٢- إكساب الناس المقدرة والجرأة على دحض الشبهات الباطلة ، والدعاءات العقيدية الفارغة، مما غذى حيز الوعى والثقة فى الدين .

٣- عكرت فى بادىء الأمر أجواء الاستقرار والتراص الاجتماعى ، بسبب الاضطرابات المسلحة ، وأزمة العدائيات .

٤- استلزمت تجريد النفوس من الشرك وسد المجال على كل من يحاول تضليل الأمة ، سواء بإدعاء النبوة ، أو الخروج عن الرسالة المحمدية .

٥- لعبت دورا فى تطوير المهارات القيادية وتحسين مستوى القدرة العسكرية ، خاصة وأن حرب الردة قد استمرت لفترات ليست بالقصيرة ، برز خلالها العديد من القادة المحترفين ، كالعلاء الحضرمى الذى كانت له صولات وجولات ، دلت على براعته فى تهيئة الجيش ، وحسن تدبيره المتمثل فى بناء القرار واستعمال منهج التحرى والمباغتة ضد الخصوم فى ميدان الردة (٨٦) .

٦- فتور موجة التساهل فى تطبيق الأحلام .

٧- حضور بعض من ادعى النبوة بصورة حمل السلاح فى فتوح العراق وفارس .

٨- فرض حدود ضيقة على الكيان الآخر ، من خلال ممارسات الإلغاء الصريحة للرؤى والصيغ المخالفة ، بصفتها توسع فجوة النقص والخطأ .

لا شك أن هذه النتائج ليست مصدرة كأحكام نهائية ، بقدر ما تكون نقاطا حصدناها بعد سبر غور التاريخ ، وكشف النقاب عن بيئة الردة .

الهوامش

(١) الزبيدى : تاج العروس من جوهر القاموس ، ص٨٨-٩٠ .

(٢) البقرة : ٢١٧ .

(٣) الأزهرى : معجم تهذيب اللغة ، ج٢ ، ص١٣٩١ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ، م٣ ، ص١٧٢-١٧٣ .

(٥) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت ، ج٢٢، ص١٨٠ .

(٦) الصاوى ، أحمد : بلغة السالك لأمر المسالك ، ص٣٨٥-٨٦ .

(٧) النحل : ١٠٦ .

(٨) موسوعة الفقه الإسلامى المقارن الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر الفقهية ، م٢ ، ص٢٥٢ / بدوى إبراهيم : المرتد وحكمه فى الشريعة الإسلامية ، ص٣٤ .

(٩) مراوديد على : سلسلة الينابيع الفقهية ١ الحدود ، ص٣٥٢ ؛ النووى : مغنى المحتاج ، ج٤ ، ص١٣٧ .

(١٠) النووى : مغنى المحتاج ن ج٤ ص١٣٤-١٣٦

(١١) الموسوعة الفقهية ، ج٢٢ ، ص١٨٣ .

(١٢) موسوعة الفقه الإسلامى المقارن ، الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر ، ص٢٥٢-٢٥٤ .

(١٣) حسن ، إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياس] والدينى والثقافى والاجتماعى ، ص٢٨٦، ٢٨٨؛ المسرى ، حسين على : تاريخ البحرين وعمان من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموى، ص٧٨-٧٩ .

(١٤) بدوى ، إبراهيم : المرتد وحكمه فى الشريعة الإسلامية ، ص٤١ .

(١٥) النووى : مغن المحتاج ، ج٤ ، ص١٤٠-١٤١ ؛ الصاوى : بلغة السالك لأمر المسالك ج٢، ص٣٨٧ ؛ السمرقندى : تحفة الفقهاء ، ج٣ ، ص٣٠٨-٣٠٩ ؛ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الكويت : الموسوعة الفقهية ، ص١٩١-١٩٢ .

(١٦) كريزى كلوس : معجم العالم الإسلامى ، ص٥٠ .

(١٧) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت : نفس المصدر السابق ، ص١٩١-١٩٥ ؛ عكام، محمود : الموسوعة الإسلامية الميسرة ، م٦ ، ص١١٦٨ .

(١٨) موسوعة الفقه الاسلامى المقارن الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، م٢ ، ص١٦٠-١٦١ .

(١٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج١ ص٤٧ .

(٢٠) الوثيقة : العدد السادس ، السنة الثالثة ، ص٥٦ .

(٢١) الوثيقة : نفس المصدر ، العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة ، ص٦٧ .

(٢٢) الوثيقة : نفس المصدر : العدد الخامس ، السمة الثالثة ، ص٨٤ .

(٢٣) الوثيقة : العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة ، ص٥٨-٥٩ .

(٢٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢٧ .

(٢٥) الحموى : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٨ .

(٢٦) التاجر : عقد اللآل ، ص٧١ .

(٢٧) الوثيقة : نفس المصدر السابق ، ص٦٦ .

(٢٨) النويرى : سالم : أعلام الثقافة الإسلامية فى البحرين خلال ١٤ قرن ، م١ ، ص٧٥ .

(٢٩) آل عمران : ١٤٤ .

(٣٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج٣ ، ص١٥٢؛ ابن الأثير : الكامل ، م٢، ص٢٢٥ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٢٧ ؛ النبهانى الطائى : التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية، ص٥٤ .

(٣١) المسعودى : التنبيه والإشراف ، ص٣٤٧ .

(٣٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٤ ، ص٣١٦ .

(٣٣) التاجر ، محمد على : عقد اللآل ، ص٧١-٧٢ .

(٣٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، م٢ ، ص١٥١ .

(٣٥) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٤ ، ص٤٣ .

(٣٦) الذهبى : تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعيان ، ص٢٧ ؛ فروخ ، عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص٩٤-٩٥ .

(٣٧) الديار بكرى : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، ج١ ، ٢٠١ .

(٣٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢٩ ؛ النويدرى ، سالم : أعلام الثقافة الإسلامية فى البحرين خلال ١٤ قرن ، م١ ص٧٧ .

(٣٩) الوثيقة : العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة للهجرة ، ص٥٣ .

(٤٠) التاجر : عقد اللآل ، ص٧٢-٧٣ ؛ الذهبى : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ص٣٢.

(٤١) فروخ : عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص٩٤-٩٥ .

(٤٢) سرور ، محمد جمال الدين : الدولة العربية الإسلامية منذ العام الأول للهجرة وحتى نهاية العصر العباسى ، ص١٦٨-١٦٩ .

(٤٣) الموسوعة العربية العالمية : مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، ص١٩٩ .

(٤٤) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة «الشيبانى»، ص١٤٧ .

(٤٥) سالم ، السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب - تاريخ الدولة العربية - م٢، ص١٦٤-١٧٠ .

(٤٦) التوبة : ١٠٣ .

(٤٧) التوبة : ١٠١ .

(٤٨) ابن الأثير : الكامل ، ج٣ ، ص٢٢٨-٢٢٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٦ ، ص٣٠٧-٣٠٩ ؛ ابن الجوزى : المنتظم ، ص١٨-٢٠ .

(٤٩) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢٥ ؛ ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، ص٢٠-٢٢.

(٥٠) ابن الأثير : نفس المصدر السابق ، ص٢٣٢-٢٣٣ ؛ الذهبى : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ص٣٠ .

(٥١) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢١-٣٣٢ .

(٥٢) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢٧-٣٢٩ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ص١٥٢ ؛ ابن الجوزى : نفس المصدر السابق ، ص٨٤ .

(٥٣) ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٠٢ ؛ ابن كثير : نفس المصدر السابق ، ص٣٢٩- ٣٢٠؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج٣ ، ص٢٦١-٢٦٢ .

(٥٤) ابن الجوزى : المنتظم ، ص٨٦ .

(٥٥) ابن الجوزى ، نفس المصدر السابق ، ص٨٦-٨٧؛ الذهبى المصدر السابق ، ص٣٠-٣١ .

(٥٦) كنعان ، محمد : تاريخ الخلافة الراشدة ، ص٤٤-٤٨ .

(٥٧) الحموى : ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ص٣٤٩ .

(٥٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ، ص١٥٢ ز

(٥٩) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق ، وذكر المثنى بن حارثة «الشيبانى» ، ص١٤٩-١٥٠ .

(٦٠) الحموى ، ياقوت : نفس المصدر ، م ٢ ، ص١٧٤ .

(٦١) التاجر ، محمد على : عقد الآل ، ص٧٢ .

(٦٢) ابن الأثير : الكامل ، م٢، ص٢٢٥ .

(٦٣) الطبرى : نفس المصدر السابق ، ص١٥١ .

(٦٤) نفس المصدر ، ص١٥١-١٥٢ .

(٦٥) نفس المصدر ، ص١٥٣ ؛ الموسوعة العربية العالمية ، ص١٩٩ .

(٦٦) الوثيقة ، العدد الثانى والعشرون ، السنة الحادية عشرة ، ص٦٩؛ نفس المصدر ، العدد السادس - السنة الثالثة ، ص٥٨ .

(٦٧) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" ، ص١٥٢.

(٦٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ص١٥٢ ؛ الواقدى : نفس المصدر ، ص١٥٢ ، ص١٥٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج٥، ص٣٢٧ .

(٦٩) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" ، ص١٥٢.

(٧٠) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٧٦ ز

(٧١) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، ص٨٥ .

(٧٢) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" ، ص١٥٤-١٥٦ .

(٧٣) المسرى ، حسين على : تاريخ البحرين وعمان من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموى ، ص٨٣-٨٧ .

(٧٤) النبهانى الطائى ، العلامة الشيخ محمد : التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية ، ص٥٥.

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، م٢ ، ٢٢٧ .

(٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢٨ .

(٧٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ص٥٠٥ .

(٧٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥ ، ص٣٢ .

(٧٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، م٢، ص١٥٢-١٥٧ .

(٨٠) الواقدى : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر "المثنى" بن حارثة الشيبانى ، ص١٥٤-١٦١ .

(٨١) الحموى : ياقوت ، معجم البلدان ، ص٤٣٩؛ التاجر ، محمد على : عقد اللآل ، ص٧٢؛ البلاذرى : فتوح البلدان ، ص١١٤-١١٥ .

(٨٢) الواقدى ، كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق ، وذكر المثنى بن حارثة "الشيبانى" , ص١٤٧-١٦٦ .

(٨٣) اليعقوبى البغدادى : تاريخ اليعقوبى ، ج١ ، ص٨٩ .

(٨٤) النويدرى ، سالم : أعلام الثقافة ، ص٧٨ .

(٨٥) التاجر ، عقد اللآل ، ص٧٣-٧٤ .

(٨٦) الناطور ، شحادة على : تاريخ صدر الاسلام وفجره ، ص٢٠٦ .

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، المجلد الثانى ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٢- ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد : المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ج٤ ، ط١٤ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

٣- ابن خلدون ، عبدالرحمن : تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج٢ ط٢ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٤- ابن قدامة : المغنى ، ج٥ ، ط٦ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ، مكتبة المعارف - بيروت .

٥- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٥، ط٦، ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٨ م ، مكتبة المعارف - بيروت.

٦- ابن منظور : لسان العرب ، دار صاد - بيروت، ط١ ، ١٤١٠ هـ -١٩٩٠م ، المجلد الثالث.

٧- ابن هشام : السيرة النبوية لابن هشام ، دار إحياء التراث العربى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٥ م .

٨- الأزهرى ، أبى منصور محمد بن أحمد : معجم تهذيب اللغة ، تحقيق د. رياض زكى قاسم، دار المعرفة - بيروت ، المجلد الثانى .

٩- الباكستانى ، شبير أحمد محمد على : عصر الصديق (رضى) ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط١، ١٤٠٤ هـ -١٩٨٣ م .

١٠ - بدوى ، د. إبراهيم عبد العزيز : المرتد وحكمه فى الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية مقارنة) ، ١٤١٩ هـ /١٩٩٨م .

١١- البستانى ، الشيخ عبد الله : الوافى (معجم وسيط اللغة العربة) ، مكتبة لبنان - بيروت، الطبعة ١٩٨٠ م.

١٢ - البلاذرى ، الإمام أبى العباس أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

١٣ - بهيج ملاحوش (د) : موسوعة الزاد للعلوم والتطنولوجيا بالكتاب والفيديو ، ج٩ ، التاريخ الاسلامى ، مطابع دايداكو برشلونة ـــ اسبانيا .

١٤- التاجر ، الشيخ محمد على : عقد اللآل ، مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر - البحرين ، ١٩٩٤ .

١٥- حجازى ، عبد الحميد : موسوعة العالم الاسلامى ، دار الرأى العام ، مصر - القاهرة ، ١٣٩٩هـ - ١٩٩٧م ، المجلد الثانى .

١٦- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج١ ، دار الجيل- بيروت .

١٧- الخولى ، أ.د. محمد على : معجم الألفاظ الاسلامية (عربى - إنجليزى وإنجليزى - عربى)، ط١ مطابع الفرذدق التجارية ، الرياض ..

١٨- الديار بكرى ، الإمام الشيخ حسن بن محمد بن الحسن : تاريخ الخميس فى أحوال أنفس النفس ، ج١ ، مؤسسة ١١ شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت .

١٩- الذهبى ، شمس الدين : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، دار الكتاب العربى- بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .

٢٠- الرازى : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر : مختار الصحاح إخراج دائرة المعاجم فى مكتبة لبنان ، مكتبة لبنان، طبعة مدققة كاملة التشكيل ومميزة المداخل ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٢١- رجب محمد عبد الحليم : الردة فى ضوء مفهوم جديد ، دار النهضة العربية .

٢٢- الزبيدى ، السيد محمد مرتضى الحسينى : تاريخ العروس من جواهر القاموس ، تحقيق د. عبد العزيز مطر ، مطبعة حكومة الكويت ، دار الجيل ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

٢٣- زقزوق ، أ.د. محمود حمدى : الموسوعة الإسلامية العامة ، جمهورية مصر، وزارة الأوقاف ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، الاقهرة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠١ م .

٢٤- سرور ، محمد جمال الدين : الدولة الاسلامية منذ العام الأول للهجرة وحتى نهاية العصر العباسى ، دار الفكر- القاهرة ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

٢٥- سلسلة الينابيع الفقهية : الحدود ، إشراف وتحقيق على أصغر مرواديد ، مؤسسة فقه الشيعة والدار الاسلامية – بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٢٦- السمرقندى ، علاء الدين : تحفة الفقهاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الجزء الثالث ٥٩هـ .

٢٧- سمير عبد الحميد ابراهيم : الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامى ، دار الصحوة للنشر.

٢٨- السيد عبد العزيز سالم : دراسات ف] تاريخ العرب ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، المجلد الثانى .

٢٩- الشرقاوى ، عبد الرحمن : الصديق أول الخلفاء ، مكتبة غريب .

٣٠- شوفانى ، د . إلياس ، حزوب الردة .

٣١- الصاوى ، الشيخ أحمد : بلغة السالك لأمر المسالك دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج٢ .

٣٢- الطبرى ، محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، مؤسسة الستين للطباعة والنشر ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، المجلد الثانى .

٣٣- عبد الشافى محمد عبد اللطيف : موسوعة سفير للتاريخ الإسلامى ، شركة سفير – القاهرة ن ١٩٩٦م .

٣٤- عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٣٥- العصفرى ، أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبى هبيرة الليثى : تاريخ خليفة بن خياط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

٣٦- العقاد ، عباد محمود : عبقرية الصدريق ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ــ بيروت.

٣٧- عكام ، د. محمود : الموسوعة الإسلامية الميسرة ، دار صحارى للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ، المجلد السادس .

٣٩- غريب ، حسن : الردة فى الإسلام ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ــ لبنان .

٤٠- فاروق عمر : الخليج العربى فى العصور الاسلامية ، ط١ ، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م ، دار القلم - الامارات العربية .

٤١- الفراهيدى ، أبى عبد الرحمن خليل بن أحمد : كتاب العين ، د . مهندى المخزومى د. إبراهيم السامرائ.

٤٢- الكاندهلوى ، محمد يوسف : حياة الصحابة ، ج١ ، دار صعب ــ بيروةت .

٤٣- الكعبى ، الشيخه زهير : موسوعة خلفاء المسلمين .

٤٤- كلوس كريزر وآخرون : معجم العالم الإسلامى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ط٢ ترجمة د.ج. كتورة .

٤٥- كنعان ، محمد بن أحمد : تاريخ الخلافة الراشدة ، مؤسسة المعارف ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

٤٦- مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت - لبنان - ج٨ .

٤٧- موسوعة الفقه الإسلامى المقارن الشهيرة بموسوعة جمال عبد الناصر ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، المجلد الثانى .

٤٨- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط٣ .

٤٩- محمد الحسينى عبد العزيز : حضارة الكويت ودول الخليج العربى .

٥٠- محمد شاكر : التاريخ الإسلامى ، ج٣ الخلفاء الراشدون ، المكتب الإسلامى .

٥١- محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الحديث ، القاهرة .

٥٢- مركز الأبحاث والدراسات الدولية فى دار الرأى العام : موسوعة العالم الاسلامى ، دار الرأى العام ، مصر- القاهرة ، المجلد الثانى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٥٣- المسرى د. حسين على : تاريخ البحرين وعمان من عصر النوة إلى نهاية العصر الأموى ، مجلس النشر العلمى- لجنة التأليف والتعريب والنشر ، ٢٠٠٠م .

٥٤- مسعود جيران : الرائد (معجم لغوى عصرى) ، دار العلم للملايين ، ط٤ ، ٢٠٠٠م.

٥٥- المسعودى : التنبيه والإشراف ، دار التراث - بيروت ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

٥٦- الناطور ، د. على شحاته : تاريخ صدر الإسلام وفجره ، ١٩٩٥م.

٥٧- النبهانى الطائى ، العلامة الشيخ محمد بن الشيخ خليفة بن حمد بن موسى التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية ، دار إحياء العلوم- بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥٨- النووى ، أبى زكريا : مغنى المحتاج ، ج٤ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى ، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

٥٩- النويدرى ، سالم : أعلام الثقافة الإسلامية .

٦٠- الواقدى ، محمد بن عمر بن واقد : كتاب الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة (الشيبانى) ، دار الغرب الاسلامى ، تحقيق د. يحيى الجبورى .

٦١- الوثيقة ، العدد الثانى والعشرون ، السنة الحالدية للهجرة رجب ١٤١٣هـ / يناير ١٩٩٣م.

٦٢- الوثيقة ، العدد السادس ، السنة الثالثة ربيع الآخر ١٤٠٥هـ - يناير ١٩٨٥م.

٦٣- الوثيقة العدد الخامس ، السنة الثالث شوال ١٤٠٤هـ - يوليو ١٩٨٤م.

٦٤- وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية - الكويت : الموسوعة الفقهية ، طبعة ذات السلاسل ، ط٢ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٦٥- اليعقوبى البغدادى : تاريخ اليعقوبى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــلبنان ط١ ، ج١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. محمود إبراهيم السعدني(*)

«نقش أماسيس المصري(!!)»
(قراءة تاريخية حضارية في نص باليونانية)



عناصر البحث:-

أولاً : التعريف بالنقش : مكانه وزمانه

ثانيا : ترجمة النقش .

ثالثاً: المضامين الحضارية.

(تقديم):اعتذار واجب :-

لما كان قد تعذَّر عليَّ الحصول علي النص الأصلي اليوناني لموضوعنا المعلن أمامكم في البرنامج ، آثرت كعهدي مع نفسي ولحرصي على التميز في المعالجة المباشرة مع كلمات وسطور النص الأصلي الكلاسيكي، أن أقدم نصاً آخر، غالباً ما نجهل قيمته الحضارية والثقافية، تحديداً، كأقدم نص يوناني كامل علي أرض مصر الكنانة، كبداية للتوجه المصري الفرعوني في عصر مجده المتأخر، صوب الغرب ، وحضارته، حيث بدأت مصر القديمة آنذاك الاستعانة بمرتزقة من اليونان!!!

* أستاذ تاريخ الحضارة اليونانية - الرومانية - جامعة حلوان- وعضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب

أولاً : التعريف بالنقش:

(أ) مكانه : محفور علي ساقي تمثال للملك رمسيس الثاني (أمام معبده الجنائزي الشهير ، في منطقة أبي سمبل ،بصعيد مصر الأعلى (Ano Aigyptos) ، أسفل الركبة اليسرى .

(ب) زمانه : يؤرخ ب ٥٩٤ أو ٥٩٦ ق . م ، من عهد الفرعون أبسماتيك الثاني (psmmetikos II) .

(ج) سطوره : (٥) سطور كاملة فضلاً عن توقيعات لأشخاص بأسمائهم ، وتوقعان في آخر النقش .

(د) النشر : تم نشره وترجمة هذا النقش إلي الإنجليزية عند كل من :

(1)- Tod, M.N., A Selection of Greek Historical Inscriptions, I, Oxford 1933, P. 5.

(2)- Jeffery, L. H., The Local Scripts of Archaic Greece, Oxford 1961, P. 348.

(3)- Cook, J. M., The Greeks in Ionia and the East, London 1962, P. 66.

ثانيا : الترجمة

أ. القراءة الصحيحة للسطور الخمسة الكاملة هي كالآتي:.

1. Basileos élthontos es Elephantinan Psamatikho,
2. autá égrapsan toi (s) yn Psammatikho toi Theoklos,
3. èpleon èlthon de Kèrkios kat›upèr Thenis o potamos, Thenis.
4. ealoggos ani os dèkhe Potasimto aigyptios de Amasis.
5. egraphe da me arkhon Amoibikho kaí Pèlexos oudamó. Kai...............

Krí this egraphan em........Pýthon Amoibikhou

وترجمة هذا النص اليوناني القديم، كأقدم أثر كتابي لليونانيين، على الإطلاق، في صعيد مصر، منذ مطلع القرن السادس قبل الميلاد، تكون كالتالي، وهي أول ترجمة عربية متخصصة، مباشرةً عن الأصل، وليست عن الإنجليزية، كما جاءت عند الناشرين الأول.

السطر الأول: «بوصول الملك أبسماتيك إلى إليفانتين(**)،

السطر الثاني: كتب (السطور) هذه من أجل الذين مع أبسماتيك،

السطر الثالث: ولكنهم أبحروا، ووصلوا حتى كيركيس(***)،

السطر الرابع: في أعالي النهر حتى ثينيس(****)، ولقد عَيَّنَ أماسيس المصري، بوتاسيمتو على الوحدات التسع حامل الرماح (٤) الرماح.

السطر الخامس: سُجِّل هذا بأمر القائد بن أمبيخوس وبيليبيكس، وليس في أي مكان آخر كتب هذا كل من ....أخر.

التوقيعات: كريثيس وبيثون بن أمبيخوس.

ثالثاً: المضامين التاريخية والحضارية

أ) المضامين التاريخية: ويمكن إيجازها فيما يلي:

١- قيام الملك أبسماتيك الثاني، في عام ٥٩٤/٥٩٣ ق.م، بحملة على أقصى صعيد مصر، وحتى آخر قلعة لحدود مصر الجنوبية، وهي أسوان (عند بيغانين)، وقيادتها بنفسه وذلك، على الأرجح، لتحقيق بعض المهام والأهداف، ومنها:

** هي مثل جزيرة "بجه"، في نيل أسوان ولكنها إلى الشمال منها، أما تلك التي تسمى الآن "فيلة" فهي ترجمة حرفية لاسمها اليوناني أو "الرفيقات" القديم، والمسمى الروماني لها، من بعد ذلك هو "Philae" وأما لماذا سميت كذلك، فلا ندري، إلا إذا كان الاسم يشير إلى حواري ايزيس "الصديقات".

*** لا نعلم يقيناً جغرافياً، ماذا كان المقصود بهذا الموضع على النيل، جنوباً بعد أسوان!!!، والأرجح عندنا أنها هي جرجاً، الآن، استناداً إلى أصوات الحروف الصامتة لهذا الاسم اليوناني، الذي هو تحوير أجنبي، في الغالب، للاسم المصري القديم (!!!)

**** كما لا نعلم موقع مدينة "ثيني" هذه، وربما كانت هي ذات الموضع الذي يشير إليه علماء الآثار المصرية باسم "Theni" في أعالي النيل.

أ- إستتباب الأمن الضروري، ولاسيما بعد مرور حوالي (٥٠ عاماً فقط على تأسيس الأسرة الصاوية، وإعلان أبسماتيك الأول المؤسس نفسه ملكاً منفرداً للقطرين، الشمال والجنوب، عام ٦٥٦ ق.م، وقيام خلفائه بالسير على السياسة نفسها أي سير الخلف وسير على سنة السلف!!!

ب- استمرار الإستعانة بالمرتزقة اليونان، حتى في مثل تلك المهام الوطنية الداخلية، مما يعكس الثقة الزائدة فيهم، حتى حينه (!!!).

٢- بقاء الملك في إليفانتيني((Elephantine، واستمرار سير الحملة براً فقط في اتجاه الجنوب، حتى معبد أبي سمبل (أي جنوباً لأكثر من ٥٠م ك.م) بقيادتين إحداهما مصرية، ممثلة في أماسيس المصري (Amasis)، والأخرى يونانية، بقيادة ثيوكليس(theolès).

٣- النقش، (فيما يخص ترتيب أخبار الحملة)، لا يعرض لخط سيرها، بصورة طبيعية، وفق جغرافيا الصعود في النيل، إلى أعالي الصعيد، ففي السطر الأول يتحدث عن الوصول إلى إليفانتين (أسوان)، ولكنه في السطر الثالث، يعود بذاكرته إلى المحطات الأسبق في مشوار الحملة، حيث مرت بمدن كيركيس (kerkes)، (التي ربما كانت هي موضع «جرجا» الآن، وذلك بفضل تشابه مخارج الحروف وإمكانية تبديل حرفي الكاف (K) والجيم (G) في اللغات الأوروبية القديمة، وعلى رأسها اليونانية).

وكذلك مدينة ثينيس (Thènis)، وكلتاهما قبل أسوان، على ضفتي نهر النيل.

ولنا نحن، في ذلك تبرير مقبول، من واقع علمنا بفنيات (Techniques) وأولويات كتابة النقوش القديمة، وبخاصة اليونانية، فلقد كانت تعطى أولوية مطلقة لـ:

١- تسجيل اسم الملك/ الفرعون، أولاً، (وكذلك الملكة منذ العصر البطلمي وما بعده).

٢- تسجيل الكاتب / أو / لمن يُكْتَبُ النقش.

رابعاً: المضامين الحضارية:

١- يتضح الاحترام الواجب من المرتزقة اليونان، في الجيش المصري للأسرة السادسة والعشرين لمليكهم، الذي يعملون في خدمته، وهو أبسماتيك الثاني، وتسجيل خبر وجوده بينهم، على رأس الحملة، بالرغم من كتابتهم بلغتهم هم، اليونانية القديمة، والتي لولاها ما عرفنا شيئاً أبداً عن تلك الحملة العسكرية، شكلاً، والسياسية هدفاً وغرضاً، وبالطبع إقتصادية كذلك، تبعاً للعادة

الفرعونية الراسخة لتحقيق مكاسب عدة من تجريد الحملات، سواء في الداخل، أو حتى صوب الحدود الخارجية لتأمين أملاك مصر القديمة ضد أعدائها.

٢- ويتضح أيضاً تماماً من لفظة «èpleon»، بمعنى «أبحروا»، أن الحملة كانت نهرية، على مراكب وسفن في النيل، مما يؤكد أنها تمت في الصيف أثناء الفيضان الدائم كل عام (في شهور يوليو، أغسطس وسبتمبر)، وهو استخدام أمثل لإمكانات النهر الخالد، في أفضل حالاته المائية مما يعكس تخطيطاً مسبقاً وفكرياً عملياً إلى درجة بعيدة.

٣- لم يسجل المرتزقة اليونان، مثل هذا الأثر في أي مكان آخر، بأمر من قائدي تلك القوات الإيونية والكارية الأصل، وهما بيثون بن أميبيخوس وبيليكس ويبدو أنهما كانا يرأسان، كل منهما، جماعته العرقية اليونانية، مما يعكس حالة الإعتزاز والإنتماء للأعراق أكثر من الولاء للحضارة نفسها، كما تعودنا من اليونان دوماً (!!!).

٤- تغيير القيادة الميدانية للقوات في الحملة بقرار من القائد العام المصري لها، وهو أماسيس (Amasis)، الذي أثبت اليونانيون في نقشهم صفته الخالصة، وإمكانية عدم انتسابه للأسرة الحاكمة الفرعونية الملكية، وأنه من الشعب المصري، وينتمي بجذوره إلى العامة، بقولهم «المصري» (Aigyptios) يؤكد، تاريخياً وحضارياً، أمرين:

١- أن هذا القائد العام المصري الخالص، أماسيس، كان هو نفسه، الذي أصبح ملكاً من بعد ذلك عام ٥٧٠ ق.م وفرعوناً البلاد وصدق فيه قول وشهادة هيرودوت اليوناني، أبي التاريخ، بأنه كان من الشعب، وذلك بعد حوالي قرن كامل من الأحداث على الأقل (!!!) عندما جاء زائراً لمصر مما يزيدنا يقيناً، في بعض روايات هيردوت في كتابه الثاني، حول مصر، وعلى الأقل، فيما يخص الشئون السياسية المصري آنذاك.

٢- تسليم قيادة الوحدات التسع لحاملي الرماح، وهم القوة الضاربة للجندية آنذاك، لقائد مصري أصغر هو بوتاسيمتو (Potasimto) كان خطوة ضرورية لمتطلبات المرحلة التالية، براً، صوب الجنوب حتى سمبل، درأ لتجاوزات المرتزقة اليونان مع الأهالي وسكان تلك المنطقة من العناصر الإفريقية (!!!).

٥- جاءت التوقيعات لجنود يونان مشاركين في الحملة، سجلاً خالداً لحرص أولئك على

تخليد الحدث التاريخي، من ناحية، وإشباع رغبتهم الدائمة في إثبات الذات، وتضخم الأنا لدى أولئك ، وعلى كل المستويات الإجتماعية، سواء بسواء، وليست فقط عند الملوك أو الأمراء أو الحكام، كما في شرقنا القديم (!!!).

فالخلود للجميع وليس حكراً على علية القوم، وصدق قولهم في أمثالهم وحكمهم بتمني الخلود، حيث جاء: "Αἰωνία σου ἡ μνήμη"

أي// «فالتعش ذكراك إلى الأبد

وكان اختيارهم إختياراً موفقاً جداً، وإن كان قد لوث الأثر العظيم لأحد تماثيل الفرعون رمسيس الثاني، حينما اعتلوا الموقع، وسجلوا ذلك، حسداً على خلود ذلك الفرعون الأشهر في التاريخ المصري القديم. وليسوا هم بأقل منه خلوداً، ولكن شتان بين الإثنين وإنجاز كلا الفريقين: الخلود المصري (حقاً وصدقاً، والخلود اليوناني (على أرضنا) غضباً واحتلالاً واستغلالاً لظروفنا، وهو إننا على أنفسنا، فهنا عليهم، وساروا أنفسهم بنا، وتطالوا علينا عند نومنا وضعفنا (!!!). وهيهات أن يدوم، هكذا، حالنا، لأنه ضد ناموس الخالق ربنا.

أ.د/ محمود السعدني



قراءة كاملة لسطور النقش الخمسة والتوقيعات أسفلها

٢٢

1- βασιλέως ἐλθόντος ἐς Ἐλεφαντίναν Ψαματίχω

2- αὐτὰ ἔγραψαν τῷ σὺν Ψαμματίχῳ τῷ Θεοκλός

3- ἔπλεον ἦλθον δὲ Κέρκιος κατ' ὕπερ Θένις ὁ ποταμός

4- ανιεά λόγγος ὃς δέχε Ποτασίμτω αἰγύπτιος δὲ Ἄμασις

5- ἔγραφε δα με ἄρχων Αμοιβιχω καὶ Πέλεκος οὐδαμῶ

Κρίθις ἔγραφαν καὶ εμ... Πύθων Ἀμοιβίχου

د. سيد محمود محمد عبد العال[*]

نقابة الأشراف فى مصرعصر سلاطين المماليك

(٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

تعد نقابة الأشراف أول تنظيم اجتماعى يقوم على أساس النسب وخلاصه الدم وهى فى ذلك تختلف عن النقابات المهنية . والنقيب لغة : فهو الرئيس الأكبر . وإنما قيل للنقيب نقيب ، لأنه يعلم دخيلة أمر القوم ، ويعرف مناقبهم ، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم [١]. والنقيب كالأمين والكفيل ، ويقال نقب الرجل على القوم ينقب نقابة فهو نقيب ، ويعرف مناقبهم، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم [٢]. والنقيب أيضا شاهد القوم ، وضمينهم . وعريفهم . وقد نقب عليهم نقابة – بالكسر- فعل ذلك [٣]. والنقيب فعيل ، قيل بمعنى فاعل مشتقا من النقيب وهو التفتيش ومنه "فنقبوا فى البلاد" وسمى بذلك لأنه يفتش عن أحوال القوم وأسرارهم ، وقيل : هو بمعنى مفعول كأن القوم اختاروه على علم منهم وتفتيش على أحواله. وقيل هو للمبالغة كعليم وخبير [٤].

وقد طلب النبى من الأنصار أثناء بيعة العقبة الثانية أن يخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا فقال: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس " [٥].

والأشراف لغة : هم جمع الشريف وهو مشتق من الشرف والرفعة والسمو . وهو الحسب بالآباء والشرف والمجد لايكونان إلا بالآباء ، ويقال رجل شريف ورجل ماجد له آباء متقدمون فى الشرف ، والشرف مصدر الشريف من الناس، وجمع شرفاء وأشراف [٦].

* مدرس التاريخ الاسلامى - كلية الآداب - جامعة الفيوم

واصطلاحًا : أطلق لقب شريف على من كان من آل الرسول صلى الله عليه وسلم شاملاً بنى هاشم وخاصة الطالبيين وهم ذرية أبى طالب بن عبد المطلب والعباسيين ذرية العباس بن عبد المطلب(٧)، بينما حدد ابن تيمية آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم على وجه التحقيق على وفاطمة وأولادهما ومن تناسل منهما حتى تقوم الساعة (٨)، لذا يعد نقيب الأشراف عميد المنتسبين لأولاد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩). وأشار السيوطى أن لقب الشريف كان يطلق على كل من كان من أهل البيت العلوى أو العباسى فى الصدر الأول للدولة الإسلامية ولما تولى الفاطميون قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين (١٠).

وأشار القلقشندى أن المقصود بالأشراف فى العصر المملوكى "هم أولاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١١).

وقد عرف القلقشندى نقابة الأشراف بأنها "وظيفة شريفة ومرتبة نفيسة ، وموضوعها التحدث على ولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٢)، وكان بنو هاشم ينقسمون إلى : أولاد أبى طالب "الطالبين" وأولاد العباس " العباسيين" لهم نقيب واحد يطلق عليه "نقيب الهاشميين" . فقد كان الشريف أبو نصر الزينى العباسى المتوفى عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م " نقيب الهاشميين (١٣). وكان يطلق عليه "نقيب العلويين"(١٣) وأطلق عليه "نقيب الشرفا"(١٤).

وقد نشأت أول نقابة للأشراف فى منتصف القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وذلك فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية (١٥) إذ يذكر ابن عنبة الحسنى أن الحسين النسابة والذى يرجع نسبه إلى زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، والذى هاجر من الحجاز إلى العراق عام ٢٥١هـ / ٨٦٥م (١٦). ثم أنشأت نقابات فرعية فى جميع الولايات والأمصار تتبع النقابة الرئيسية ببغداد ومن بينها مصر . وكانت نقابة الأشراف التى وجدت فى بغداد تجمع كل من العباسيين والطالبيين تحت نقيب واحد (١٧).

وقد ظلت نقابة الأشراف فى مصر تابعة لنقابة الأشراف فى بغداد حتى قيام الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون ، فأصبح يولى نقيب الأشراف فى مصر ، مما جعل نقابة الأشراف فى مصر تستقل عن نقابة الأشراف فى بغداد (١٨).

ولكن ما هى الأسباب الى دعت إلى وجود نقابة للأشراف ؟ هل بسبب كثرة عدد الأشراف من العلويين والجعفريين والعقيليين ، مما جعل من السهل على أى إنسان ادعاء النسب الشريف . أم بسبب رغبة الدولة فى حصر العلويين والعباسيين وبخاصة العلويين الذين كثرت ثوراتهم على الدولة العباسية فى أمصار الدولة الشرقية والغربية على حد سواء . الأمر الذى تطلب معرفة أعداد العلويين فى كل ولاية ومدينة وتحت إشراف أحد شيوخ هؤلاء ، مما يسهل للدولة السيطرة عليهم وبخاصة إذا علمنا أن من مهام نقيب الأشراف إحصاء الأشراف فى إقليمه وقيد المواليد وإسقاط المتوفين مما جعل الدولة على علم دائم بتحركات العلويين وأعدادهم [١٩].

ويعد على بن الحسن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب المشهور بابن طباطبا المتوفى ٢٨٠هـ / ٨٩٣ م[٢٠] أول نقيب للأشراف فى مصر ، ويذكر ابن الموفق بأنه "كان مكينا من أحمد بن طولون" [٢١]. فى حين يشير ابن زولاق إلى أن أحمد بن طولون " قد فزع الموفق به" [٢٢]. وذلك أثناء الصراع بين أحمد بن طولون والموفق طلحة والى عهد الخليفة العباسى المعتمد بالله مما يوحى بأن أحمد بن طولون كان يلوح بإقامة خلافة علوية ردًا على الموفق طلحة . وعاصر على بن الحسن كل من أحمد بن طولون وابنه خمارويه وتوفى عام ٢٨٠هـ / ٨٩٣م، ويذكر الصفوى القلعاوى " وكانت له النقابة والتقدم فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون"[٢٣] . وتولى النقابة بعده ابن عمه محمد بن إسماعيل بن القاسم الرسى حتى وفاته عام ٣١٥هـ ./٩٢٧م[٢٤]، ثم تولى بعده ابنه اسماعيل بن محمد حتى وفاته عام ٣٣٧هـ /٩٤٨م [٢٥] .

ويذكر المقريزى أنه " كان يتولى النظر فى أمور الطالبيين بمصر بإلزام السلطان له لصيانته"[٢٦].

ثم تولى بعده أخوه أحمد بن محمد المتوفى عام ٣٤٥هـ /٩٥٦م [٢٧] . وتولى النقابة بعده ابنه إبراهيم المتوفى عام ٣٦٩هـ /٩٧٩م [٢٨] . ثم تولى النقابة بعد ابنه الحسن بن إبراهيم ، إذ يذكر المقريزى أنه " استقر فى نقابة الطالبيين بعد موت أبيه إلى أن مات يوم الجمعة لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة ، فصلى عليه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله [٢٩] .

أما فى العصر الفاطمى فقد اقتصر الأشراف على أولاد على بن أبى طالب " الطالبيين " لذا أطلق عليها نقابة الطالبيين " ، وكان يتولها أحد الأستاذين غير المحنكين [٣٠] ، والذى كان له

الإشراف الكامل على كل الطالبيين الموجودين بالدولة ، " أن قلدك النقابة على الأشراف الطلبيين أجمعين ، المقيمين بالحضرة وسائر أعمال المملكة شرقا وغربا وبُعدًا وقربا " (٣١) .

كما كان لنقيب الأشراف فى العصر الفاطمى اثنا عشر نقيبا ، ويخلع عليه فيسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء ، وله ديوان ومشارف وعامل ونائبه وجارية فى الشهر عشرون دينارا ، ولمشارف ديوانه عشرة دنانير ، ولنائبه فى النقابة ثمانية دنانير ، وللعامل خمسة دنانير (٣٢).

أما فى العصر المملوكى فقد أطلق ابن ناظر الجيش عليه" نقيب السادة الأشراف " وجعله من أرباب الوظائف الدينية ، الذين يكتب لهم المجلس السامى بالياء ، وتوقيعه فى قطع الثلث(٣٣).

كما يذكر القلقشندى أنه كان يكتب لنقيب الأشراف توقيع فى قطع الثلث بقلم التوقيعات : توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الأميرى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى علوه ، فى نقابة الأشراف بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه وقاعدته ، على ما شُرح فيه (٣٤) .

فضلا عن ذلك فقد ذكر القلقشندى نقابة الأشراف الوظيفة السادسة ضمن الوظائع العشرة التى كانت تصدر عن خلفاء بنى العباس (٣٥) . وهى النقابة على ذوى الأنساب كنقابة الطالبيين، ومن فى معناهم على معنى نقابة الأشراف فى زماننا (٣٦) .

وقد وضع القلقشندى نقابة الاشراف ضمن وظائف أرباب السيوف ، ويكتب فى ألقاب نقيب الأشراف "الأميرى" وإن كان من أرباب الأقلام (٣٧) . ويرجع السبب فى ذلك أن نقيب الأشراف فى نيابة حلب شمس الدين حسن بن محمد بن زهرة أعطى إمارة طبلخانة بحلب عام ٧٤٧هـ /١٣٤٦م (٣٨) وكان للأشراف ديوان يضبط به جميع الأشراف وأنسابهم ، وما يتعلق بهم من الأوقاف ، وله ناظر ومباشرون (٣٩).

وكان السلطان المملوكى هو الذى يتولى تعيين نقيب الأشراف وعزله فى مصر ، ويكتب له فى توقيع شريف فى قطع الثلث بقلم التوقيعات ، " توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الأميرى ، الفلانى ، فلان الدين : أدام الله تعالى علوه ، فى نقابة الأشراف بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه وقاعدته ، على ما شرح فيه (٤٠) .

كما كان يكتب فى توقيع نقيب الأشراف : " المجلس السامى الأميرى الكبيرى العالمى المجاهدى المؤيدى الشريفى الحسيبى النسيبى الذخيرى النصيرى الأوحدى الأصيلى عز الإسلام

زين الأنام نسيب الإمام شرف الأمراء نقيب النقباء جمال العترة الطاهرة جلال الأسرة الزاهرة زخر الغزاة والمجاهدين ظهير الملوك والسلاطين ولى أمير المؤمنين " (٤١) .

كذلك يذكر المنهاجى الأسيوطى من أنه : " يكتب لنقيب الأشراف سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم الفاضل البارع ، السيد الشريف ، الحسيب النسيب ، الطاهر الأصيل العريق ، التقى النقى الذكى ، فلان الدين ، جمال العترة الطاهرة ، كوكب الأسرة الزاهرة ، فرع الشجرة الزكية ، زين الذرية العلوية ، طراز العصابة الهاشمية ، خلاصة الأنساب النبوية ، فخر السادة الأشراف فى العالمين ، نسيب أمير المؤمنين ، نقيب السادة الأشراف بالمملكة الفلانية، أدام الله شرفه ، ورحم سلفه ، وأبقى خلقه (٤٢) .

فى حين أن تعيين وعزل نقيب الأشراف فى النيابات الشامية سواء فى نيابة دمشق (٤٣) أو نيابة حلب (٤٤) أو نيابة طرابلس (٤٥) من سلطات نواب هذه النيابات . فيذكر القلقشندى بأن " ولايتها عن النائب بتوقيع كريم " (٤٦) .

وكان يتم اختيار نقيب الأشراف من شيوخ الأشراف وأجلهم قدرا (٤٧) ، كما جرت العادة أن يكون النقيب من رؤوس الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام (٤٨) وكان يخرج له توقيع كريم من ديوان الإنشاء (٤٩).

وفى أغلب الأحيان ساد مبدأ ورثة وظيفة نقابة الأشراف ، فعند موت النقيب يتولى ابنه النقابة من بعده ، وفى حلات يطلب شيوخ الأشراف من السلطان تولية ابن النقيب المتوفى النقابة بدلا عنه ، مثال ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث رجب عام ٧٧٨هـ / يناير ١٣٧٧م " وفى يوم الاثنين ثالث شهر رجب خلع على السيد الشريف شرف الدين على بن السيد فخر الدين ، واستقر فى نقابة الأشراف بعد وفاة أبيه ، بسؤال عدة من الأشراف ولايته"(٥٠) .

وعندما يتم اختيار نقيب الأشراف يخلع عليه السلطان خلع الولاية ، ويخرج له توقيع كريم من ديوان الإنشاء ، ويتم قراءة هذا التوقيع فى المسجد الجامع على رؤوس الأشهاد . م ذلك ما أشار إليه النويرى فى حوادث عام ٦٣٥هـ /١٢٣٢م وعندما تولى الشريف شمس الدين محمد بن الحسن الحسينى الأرموى (٥١) المشهور بقاضى العسكر نقابة الأشراف بالديار المصرية " قرىء تقليده بجامع مصر – عمرو بن العاص – وحضر قراءته الأمير جمال الدين يغمور ، وفلك الدين

المسيرى وابن النجيلى " (٥٢) . وهو ما يؤكده المقريزى " وقرىء سجله بجامع مصر بحضرة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور والفلك المسيرى " (٥٣) .

واستمر اختيار نقيب الأشراف من قبل الأشراف فى مصر حتى سقوط دولة المماليك عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ودخول العثمانيون مصر والتى أصبحت إحدى ولاياتها ومن ثم فقد أرسلت الدولة العثمانية نقيبا للأشراف . فذكر بن إياس فى حوادث عام ٩٢٥هـ /١٥١٩م " وفى يوم الخميس خامس عشرينه حضر شخص شريف من عند ابن عثمان ، وزعم أنه قد قرر فى نقابة الأشراف ، وقد أظهر مرسوم الخندكار بذلك " (٥٤) .

وكان يحقق السلطان المملوكى أو من ينوب عنه عزل نقيب الأشراف وقد تعددت أسباب عزل نقيب الأشراف إما بسبب تقصيره فى أداء مهامه ، مثل إدخال من ليس شريف ضمن الأشراف، فقد عزل السلطان المملوكى الأشرف شعبان نقيب الأشراف فخر الدين محمد . وذلك فى رجب عام ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م بسبب اتهامه بأنه أدخل فى الأشراف ما ليس منهم (٥٥) .

وقد يعزل نقيب الأشراف بسبب معارضته لبعض الأوامر الصادرة من السلطات المملوكية ، من ذلك عزل نقيب الأشراف شرف الدين على بن فخر الدين ابن قاضى العسكر عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م بسبب أنه رفض أن يعطيه حجة وقف الأشراف للأمير برقوق قبل أن يلى السلطنة (٥٦).

بالإضافة إلى ذلك فقد يعزل السلطان المملوكى نقيب الأشراف بسبب أن السلطان الذى سبقه قد عينه . مثلما حدث عام ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م عندما عزل السلطان الظاهر برقوق نقيب الأشراف شرف الدين على بعد عودته لسلطنة المماليك على الرغم من أن نقيب الأشراف خرج بالأشراف لاستقباله وذلك لأن الذى ولاه فى منصب النقابة السلطان المملوكى حاجى بن شعبان(٥٧) .

كما كان لسوء مباشرة نقيب الأشراف لأوقاف الأشراف سببا لعزله . مثلما حدث عام ٨٧٤هـ /١٤٦٩م عندما عزل السلطان المملوكى قايتباى نقيب الأشراف حسين بن الشاطر عن نقابة الأشراف والنظر على أوقافهم ، وأساء عليه بلفظ « يا شيطان أنت نحس » (٥٨) .

أما عن موقف سلاطين وأمراء المماليك من الأشراف فقد نظر المجتمع المصرى وعلى رأسهم سلاطين وأمراء المماليك نظره يملؤها الاحترام والتقدير والإجلال للسادة الأشراف على اعتبار أنهم آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم (٥٩) فيذكر ابن تغرى بردى أن الظاهر جقمق « كان معظما

للسادة الأشراف «[٦٠] من ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث ذى القعدة عام ٨٤٢هـ /أبريل ١٤٣٩م إلى أن أحد الأمراء المماليك يسمى يخشباى قام بسب أحد أشراف منفلوط ، مما جعل الظاهر جقمق يأمر بقتله بعد سجنه بالإسكندرية [٦١] . وكانت نقابة الأشراف من الوظائف الدينية التى ليس لها حضور مجلس السلطان [٦٢] نقيب الأشراف يذهب للسلام على السلطان فى مطلع كل شهر هجرى مع القضاة ، حيث يجلس على ميسرة السلطان بعد قاضى القضاة الحنبلى[٦٣].

أما عن مقر نقابة الأشراف فى العصر المملوكى فهو غير معروف لنا على الإطلاق ، وإن كنا نرجح أن مقر نقابة الأشراف كان هو بيت النقيب نفسه . فكان بيت نقيب الأشراف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى المعروف بقاضى العسكر المتوفى عام ٦٥٠هـ /١٢٥٢م يقع فى سويقة الصاحب [٦٤] فيذكر ابن أيبك الصفدى فى ترجمة نقيب الأشراف الحسين بن محمد الحسين «وسألته عن مولده فقال : سنة ثمان وتسعين وست مائة بالقاهرة فى دار جده شمس الدين قاضى العسكر فى سويقة الصاحب» [٦٥].

كما أن نقيب الأشراف بدر الدين الحسن بن عز الدين أحمد الحلبى الحسينى المتوفى ٧٤٣هـ/١٣٤٢م [٦٦] ، فكانت داره تقع فى حارة الديلم [٦٧] . فيذكر النويرى فى حوادث عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م « ثم سكن ذلك إلى يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأولى ، فوقع الحريق فى القاهرة ومصر ، وكان أول الحريق بخط حارة الديلم ، فاحترقت دار الشريف بدر الدين نقيب الأشراف ، وما يجاورها من دور الأشراف والمسلمين ، فكان جملة ما احترق من الدور المتجاورات ما ينيف على الثلاثين دارا يقارب المائة مسكن» [٦٨] .

أما عن الملابس التى كان يرتديها نقيب الأشراف فلم تشر المصادر التاريخية المعاصرة إلى نوع معين من الملابس لنقيب الأشراف عند توليه هذه الوظيفة فى العصر المملوكى ، ولكن فى العصر الفاطمى فكان يخلع على نقيب الأشراف عند توليه هذه الوظيفة أو التجديد له « ثوب ديبقى مذهب مصفف بأطواق عراض ومن تحته ثوب مصمت وغلالة مذهبة وعلى رأسه عمامة شرب مذهب» [٦٩] .

وعندما يتولى أحد الأشراف أى وظيفة من الوظائف الدينية أو الديوانية فكان يخلع عليه ثياب من اللون الأخضر وهو اللون الذى يتميز به العلويون ، وقد ذكر السخاوى فى ترجمة أحمد

بن عدنان نقيب الأشراف بدمشق الذى تولى وظيفة كتابة السر بمصر عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م « وكانت طرحته خضراء برقمات ذهب » [٧٠] وهو ما ذكره ابن تغرى بردى « عملت الطرحة خضراء برقمات ذهب » [٧١] .

أما عن أهم أعمال نقيب الأشراف فقد وقع على عاتق نقيب الأشراف العديد من الأعمال والمهام تجاه الأشراف والتى حددها الماوردى بإثنى عشر عمل (حقا) .

ويأتى فى مقدمتها حفظ أنساب الأشراف من الاختلاط بغيرهم ممن لا يكافئهم فى المكانة والشرف حتى لا يدخل فيهم أحدا ويخرج منهم أحد ، ومعرفة بطون الأشراف على اختلافها وتعددها وإثباتهم فى ديوان الأشراف حسب طبقاتهم ، ومعرفة من ولد منهم من ذكر أو أنثى وتسجيل ذلك فى سجلات النقابة ، ومعرفة من مات منهم حتى لا يضيع نسب المولود إذا لم يثبته، ولا يدعى نسب الميت غيره إذا لم يذكره [٧٢] .

فيذكر ابن الطوير « ولهذه النقابة ميزة ، ولصاحبها النظر فى أمور هذه الطائفة ، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء ، وهم منزلون عنده فى جريدة ، ونظيرها فى ديوان الرواتب فمن مات وضعه (ومن ولد أثبته بعد علم بصحة الولادة بقرائن الأحوال ، وإذا إرتاب بأحد أخذه بإثبات ذلك ممن يوثق به من جيرانه ، ثم ينزل فى وقته فى الجريدة » [٧٣] .

وأكدت تلك المهام وثائق تقليد نقابة الأشراف ، فجاء فى تقليد نقيب الأشراف ، يأمره « بحياطة هذا النسب الأطهر ، والشرف الأفخر ، عن أن يدعيه الأدعياء ، إذ يدخل فيه الدخلاء، ومن انتمى كذبا ، وانتحله باطلا ، ولم يوجد له بيت فى الشجرة ، ولا مصداق عند النسابين المهرة .... » [٧٤] ويذكر ابن فضل الله العمرى فى وصية لنقيب الأشراف « وانظر فى أمور أنسابهم نظرًا لا يدع مجالا للريب ، ولا يستطيع معه أحدٌ أن يدخل فيهم بغير نسب ، ولا يخرج منهم بغير سبب » [٧٥] .

وفى تقليد آخر لنقيب الأشراف يذكر أن أول مهام نقيب الأشراف « .....النظر فى أعراق هذه الأسرة الطاهرة التى قدم عهد ميلادها ، وتكاثرت شعب أعدادها ، واحتاجت إلى الثقات الإثبات من النسابين فى إيصال آبائها بأولادها ...... » [٧٦] الأمر الذى يجعل من عملية ضبط وتحقيق الأنساب فى غاية الأهمية ، لأنها عملية ذات وضع معقد وحساس فى الوقت نفسه ، ومن أهم

مسئوليات نقيب الأشراف[٧٧] ، ويذكر أن الإمام مالك بن أنس أفتى بضرب من يدعى الانتساب إلى آل بيت الرسول ، وأن يشهر ويحبس طويلا حتى يظهر توبته » [٧٨] .

ولقد اهتم الأشراف كثيرا بأنسابهم . لذا اهتموا بعلم الأنساب ، وقاموا بتأليف العديد من الكتب والرسائل فى أنسابهم ، وكان نقيب الأشراف فى أغلب الأحوال ممن مهروا فى علم النسب، وإلا استعان بالنسابة من شيوخ الأشراف ممن يتصف بالأمانة والعلم ، ليساعدوه فى المحافظة على حفظ نسب الأشراف ، حتى لقب أكبرهم وأكثرهم بعلم الأنساب بلقب» نسابة الأشراف » ومن هؤلاء النسابة الشريف جعفر بن محمد بن عبد العزيز الإدريسى الفاوى (٦١١- ٦٩٦هـ / ١٢١٤م -١٢٩٧م) وكان أيضا أديبا ومؤرخا [٧٩] .

ولعل من أشهر نسابة الأشراف فى مصر فى العصر المملوكى الشريف بدر الدين حسن بن محمد الحسنى المتوفى عام ٨٠٩هـ /١٤٠٦م (٨٠) . وقد أشار المقريزى فى المقفى الكبير إلى أنه « استقر نسابة الأشراف بديار مصر دهرا طويلا » [٨١] .

كما أشار فى درر العقود إلى أنه « ولى نسابة الأشراف زمان » [٨٢] ، ووصفه ابن حجر بأنه « كان عارفا بأنساب الأشراف كثير الطعن فى كثير ممن يدعى الشرف» [٨٣] . ويضيف « بل رام الخلافة على اعتباره حسنى وأمه من بنى العباس .....ونازع نقيب الأشراف » [٨٤] . ومن نسابة الأشراف أيضا الشريف حسن بن محمد بن أيوب الإدريسى المتوفى عام ٨٦٦هـ /١٤٦٢م[٨٥] .

أما طريقة إثبات النسب ، فكانت لها أصول وقواعد يسير عليها نقيب الأشراف ، فكان يتم عقد مجلس لشيوخ الأشراف يرأسه نقيب الأشراف مع النسابة ، ومن يريد إثبات نسبه يتقدم إلى النقيب ويرفق معه المستندات الخاصة به ، والتى تؤكد نسبه وشهادة من الأشراف المقيمين بالناحية التى يقيم بها هذا الشخص ، ويقوم نقيب الأشراف بالبحث فى دفاتر النقابة عن اسم والد أو جد الشخص الذى تقدم لإثبات نسبه ، فإن وجد له أبا أو جدا يكفله فى هذه الحالة بتقديم شهود عدول على ذلك . وأما فى حالة عدم وجود أب أو جد له فى تلك الدفاتر ، فإن نقيب الأشراف يلزمه بتقديم محضر من الشهود العدول ، يشهدون فيه بأنه شريف أبا عن جد [٨٦] . وبناء على ذلك فإن النقابة كانت تصدر محاضر أو شهادات بإثبات صحة النسب أو عدمه [٨٧] .

وقد انتشرت محاضر إثبات النسب أونفيه ، حيث كان الشريف يحمل معه محضر نسبه

بصفة دائمة كإثبات شخصية ، ومع ذلك فإن هذه المحاضر كان يشكك فى صحتها فى بعض الأحيان[٨٨]. ويذكر السخاوى أنه قد رأى هذه المحاضر التى تثبت النسب ، ومحاضر أخرى تنفى النسب [٨٩] .

كما كان على نقيب الأشراف إثبات المولودين من أبناء الأشراف فى جريدة - السجل - الأشراف عند ميلادهم . وقد أشار المقريزى إلى أن الشريف الحسن بن قاضى العسكر الأرموى عندما ولد له ولداه محمد وعلى « ثبت نسبهما بالجريدة » [٩٠] .

وقد اختلف العلماء فى قضية إثبات نسب الشرف هل يكون من أبناء الشريفات أم من أبناء الأشراف ؟ فقد رفض البعض اكتساب الشرف عن طريق الأم ، فى حين أكد كثير من العلماء على صحة نسب أبناء الأمهات ومساواة الإناث والذكور فى النسب ، على اعتبار أن أصل الشرف جاء عن طريق السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى تخصيص الشرف بذرية السبطين ليس بشرعى وإنما هو عرفى ، وقد كتب فى إثبات النسب عن طريق الأم رسائل وكتب كثيرة [٩١] .

ويذكر المرى بأن « الشرف ثابت لأولاد بنات ذرية السبطين لقربهم من النبى من جهة أمهم لأن الإبن وإن كان لفظه جامدا فمادته التى هى الباء والنون والياء أو الواو وتثبت له تأصيل شىء وتفرع آخر عنه » [٩٢] وقد ترتب على إثبات النسب عن طريق الأم أن تسابق بعض الناس وبخاصة الأثرياء إلى الزواج من النساء الشريفات مهما كانت تكاليف هذا الزواج ، الأمر الذى أدى إلى زيادة أعداد الأشراف فى مصر بشكل ملحوظ [٩٣] .

وكثيرا ما وقع الاختلاف بين نقيب الأشراف ونسابة الأشراف حول إثبات نسب بعض الأشراف ، من ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث رجب عام ٧٧٤هـ /يناير ١٣٧٢م إلى أن نسابة الأشراف الشريف بدر الدين حسن الحسنى ت ٨٠٩هـ /١٤٠٦م ، نقيب الأشراف فخر الدين محمد بأنه « أدخل فى الأشراف من ليس بشريف ثابت النسب ، وقدح فيه بسبب ذلك » [٩٤] « ولما رمى به من أخذ الرشوة على إدخال من ليس بثابت النسب جملة الأشراف » [٩٥] ، كما يذكر ابن حجر أن « ما أنهاه الشريف بدر الدين حسن النسابة أنه يرتشى ممن ليس بشريف فيلبسه العلامة الخضراء » [٩٦] وقد رفع النسابة الأمر للسلطان الأشرف شعبان الذى أمر بعزل نقيب الأشراف فخر الدين محمد وتعيين الشريف عاصم بدلا عنه ، كما أمر بعرض الأشراف حتى

يتأكد من صحة نسب الأشراف ، وطلب من الشريف حسن النسابة أن يثبت صحة ما رمى به النقيب ، فلما عرض السادة الأشراف على السلطان لم يظهر فيهم من ليس بشريف ولا له نسب ثابت ، ولم يستطع النسابة أن يقيم أى دليل أو بينة على اتهامه لنقيب الأشراف ، مما جعل السلطان يتغير على الشريف النسابة ، وأمر بإعادة النقيب فخر الدين إلى منصبه مرة ثانية وذلك فى شهر ذى الحجة من نفس العام [٩٧] .

وهذا الحادث جعل السلطان الأشرف شعبان يلزم الأشراف فى مصر والشام بوضع علامة خضراء فى عمائم الرجال وأزر[٩٨] النساء . وقد اعتبر مؤرخو ذلك العصر بأن ذلك تعظيما لقدرهم ، فيذكر ابن تغرى بردى بأن ذلك « إجلالا لحقهم ، وتعظيما لقدرهم ليقابلوا بالقبول والإقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين ، فوقع ذلك ولبس الأشراف العمائم الخضر التى هى الآن مستمرة على رؤوسهم » [٩٩] .

ويعلق ابن تغرى بردى على ذلك بقوله : « قلت : وبهذه الفعلة يدل على حسن اعتقاد الملك الأشرف المذكور فى آل بيت النبوة وتعظيمه لهم ولقد أحدث شيئا كان الدهر محتاجا إليه ، ولا ألهم الله توالى الملوك ذلك من قبله ولله در القائل : « كم ترك الأول للآخر » [١٠٠].

ويذكر فى المنهل الصافى « رسم السلطان الأشرف المذكور، بأن الأشراف بالديار المصرية الشامية ، كلهم يسمون عمائمهم بعلامة خضراء بارزة للخاصة والعامة ، نظرا فى حقهم ، وتعظيما لقدرهم ن ليقابلوا بالتعظيم ، ويمتازوا عن غيرهم .... قلت : وهذا مما يدل على حسن اعتقاد الملك الأشرف هذا رحمه الله – فى آل بيت النبوة وتعظيمه لهم» [١٠١] . كما أشار السخاوى إلى ذلك بقوله : « ميز الأشراف بعلائم خضر فى عمائمهم تشريفًا لهم لينزلهم الناس المنازل» [١٠٢] وقد اعتبر ابن إياس ذلك بحادثة غريبة فذكر « وفى شهر جمادى الأولى ، وقعت حادثة غريبة ، وهو أن السلطان رسم للسادة الأشراف قاطبة ، الرجال والنساء أن يجعلوا فى عمائمهم شطفات خضر، ليمتازوا بها عن غيرهم» [١٠٣] . وسار على سيرهم العديد من الشعراء فى مصر والشام ، مثل ابن جابر الأندلسى :

جعلوا لأبناء الرسول علامة	إن العلامة شأن من لم يشتهر
نور النبوة فى كريم وجوههم	يغنى الشريف عن الطراز الأخضر [١٠٤] .

وكذلك قول الشاعر الدمشقى شمس الدين محمد بن إبراهيم المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس خضر كأعلام على الأشـراف

والأشرف السلطـان خصهمُ بهـا شرفا ليفرقهم عن الأطراف [١٠٥].

وكذلك شهاب الدين حجلة قوله :

لآل رسـول الله جاه ورفعـة بها رفعت عنا جميـع النـواب

وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم إذا ما بدوا للناس تحت العصائب [١٠٦]

كما مدحهم المؤرخ ابن حبيب الحلبى بقوله [١٠٧] :

عمائم الأشراف قد تميزت بخضرة رقت وراقت منظرا

وهذه إشـارة أن لهـم فى جنة الخلد لباسًا أخضرًا

ولابنه طاهر بن حبيب يمدح بنى زهرة نقباء الأشراف بحلب قوله [١٠٨]:

وهذه إشارة لمن يبغى ظهور سيادة تملكها الزهر الكرام بنو الزهرا

لئن نصبوا للفخر أعلاما خضـرة فكم رفعوا للمجد ألوية حمرا

كما اتهم السخاوى نقيب الأشراف حسين الملقب بالشاطر المتوفى عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م [١٠٩] بأنه « اشتد تساهله فى إدخال الناس فى الشرف طمعا فى اليسير فانحط مقداره مع عاميته ونقصه » [١١٠] . ويؤكد ذلك « وكان مع نقصه متساهلا فى الإدخالفى الشرف» [١١١] ومن الأعمال الهامة أيضا التى يقوم بها نقيب الأشراف على الأوقاف الووقوفة على السادة الأشراف، وقد ذكر الماوردى فى أحكامه الواجب الثانى عشر الملقى على عاتق نقيب الأشراف: « مراعاة وقوفهم بحفظ أصولهاوتنمية فروعها ،وإذا لم يرد إليه جباتها راعى الجباة لها فيما أخذوه ، وراعى قسمتها إذا قسموه ، وميز المستحقين لها إذا خصت ، وراعى أوصافهم فيها إذا شرطت حتى لا يخرج منهم مستحق ، ولا يدخل فيها غير محق » [١١٢] . وهو ما حددته وثائق تعيين نقيب الأشراف فى العصر المملوكى ، منها : « وينمى بتدبيره ريعهم ......ويضبط أوقافهم ، ويعتمد إنصافهم ، ويثمر متحصلاتهم ، ويكثر بالتدبير غلاتهم ، ويأخذ نفسه بمساواتهم فى جميع حالاتهم » [١١٣] .

وقد جاء فى إحدى وثائق تعيين نقيب الأشراف الأمر له « واصرف اهتمامك إلى حفظ أوقافهم وأملاكهم ومستغلاتهم فى سائر الأعمال ، وحطها من العفاء والاضمحلال ، وتوفر على تثمير ارتفاعها ، وتزجية مالها ، واستخدم لضبط حاصلها ، وجهات منفقها ، من تسكن إلى ثقته وتثق بنهضته ، ووزع ما يرتفع من استغلالها بينهم على رتبهم التى يشهد بها ديوانهم » (١١٤) .

كما جاء فى وثيقة أخرى تطلب من نقيب الأشراف « ولينظر فى الوقوف على المشاهد والذرية، نظرا يحمده عليه من يعلمه من البرية ، ويحظيه بالثواب عند مالك المشيه . ويبتدىء بعمارة أصولها واستكمال فروعها ، وقسمة مغلها على ما تضمنه شرط الواقفين لها ، وليحتط على النذور ، وينفقها على عادتها فى المصالح والجمهور ، عالما أن الله تعلى سائله عما توخاه فى جميع الأمور ، وأنه لا يخفى عليه كل حقى مستور ..... » (١١٥) .

وكان الأشراف يأخذون الأموال من الدولة من سهم ذوى القربى ، ثم أوقفت عليهم الأوقاف ، وأشهر الأوقاف التى أوقفت عليهم فى مصر ، ما أوقفه الوزير الفاطمى طلائع بن رزيك المتوفى عام ٥٥٥هـ / ١١٦١م ، فى عهد الخليفة الفاطمى الفائز بعض الأراضى ليصرف ريعها على السادة الأشراف » (١١٧) . وشملت الأوقاف التى أوقفها طلائع بن رزيك (١١٨) على الأشراف « بركة الحبش » (١١٩) وبلقس » (١٢٠) حيث خص الأشراف الحسنيين والحسينيين الموجودين بالقاهرة بستة عشر قيراطا ، وأشراف المدينة المنورة سبعة قراريط وبنى معصوم إمام مشهد الإمام على بالكوفة قيراط واحد . مما جاء فى حجة الوقف « فمن ذلك ما يصرف إلى الأشراف المقيمين بالقاهرة المعزية ومصر خاصة دون من بعد عنها وسكن بغيرها من الأقارب والطالبيين الحسنيين والحسينيين النصف » (١٢١) .

كذلك أوقف صلاح الدين الأيوبى على الأشراف قطعة من أرض من ناحية حفصا (١٢٢) بولاية الدقهلية (١٢٣) .

وكان الأشراف يأخذون رواتب من ديوان الأشراف ، كما كان بعض الأشراف يترك نصيبه . فقد ذكر المقريزى فى حوادث عام ٧٣١هـ / ١٣٣١م أن الشريف « موفق الدين أبو الفتح عيسى بن عبد الرحيم كان لا يتناول نصيبه من ديوان الأشراف » (١٢٤) .

وقد أعفى السلطان المملوكى حسام الدين لاجين أوقاف الأشراف من المكوس المفروضة عليها ، وكانت تبلغ ثلاثين ألف درهم فى العام فيذكر المقريزى « ووضع عن أهل بلقس الأشراف ما كان

عليهم من المظالم ، وهو يبلغ ثلاثين ألف درهم فى كل سنة ، وعوض مقطعيه بدل ذلك » [١٢٥].

وكان لقاضى القضاة الشافعية الإشراف على أوقاف السادة الأشراف ، فذكر المقريزى فى حوادث جمادى الآخرة « خلع على أبى البقاء بهاء الدين محمد السبكى ، وفوض إليه السلطان قضاء القضاة ، وأضاف إليه نظر وقف الأشراف » [١٢٦] .

كما كان قاضى القضاة الشافعى أن ينيب عنه من يقوم بالإشراف على هذه الأوقاف . فقد أشار المقريزى فى حوادث ذى القعدة عام ٧٨٣هـ / فبراير ١٣٨٢م « فى يوم الخميس رابع عشرينها وفيه استناب قاضى القضاة برهان الدين بن جماعة عنه فى نظر وقف الأشراف الشريف صدر الدين مرتضى بن غياث الدين إبراهيم بن حمزة » [١٢٧] . والذى استمر فى نيابة نظر أوقاف الأشراف حتى شهر ربيع الأول علم ٧٨٥هـ /مايو ١٣٨٣ م حيث صرف برغبته ، واستقر عوضه صدر الدين عمر بن رزين أحد نواب الحكم [١٢٨] .

وكان من حق نقيب الأشراف أن يحتفظ بحجج الوقف الخاصة بالسادة الأشراف ولذلك رفض نقيب الأشراف أن يسلم هذه الحجج لناظر وقف الأشراف ، حيث أشارت بعض المصادر التاريخية فى حوادث عام ٧٨٠هـ /١٣٧٨م إلى أن « الأمير برقوق والأمير بركة طلبا من نقيب الأسراف السيد على كتاب وقف ناحية بلقس على الأشراف ليتسلمه الشريف مرتضى صدر الدين مرتضى الذى عين ناظرالأوقاف الأشراف ، ولكن النقيب رفض إعطاءه مما أدى إلى قيام الأميرين بإهانته إهانة بالغة وعزله عن نقابة الأشرف» [١٢٩] .

ويبدو أن نقيب الأشراف جمع بين وظيفتى نقابة الأشراف ونظر وقفهم حيث أشارت المصادر التاريخية المعاصرة فى حوادث شهر شوال عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٢م إلى أنه « خلع على نقيب الأشراف السيد جمال الدين عبد الله بن عبد الرحيم الطباطبى ، واستقر فى نظر وقف الأشراف، عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء ، فخرج من حينئذ نظر الإشراف عن القضاة الشافعيين ولم يعد إلى الآن» [١٣٠] .

وقد استمر نقيب الأشراف يجمع بين النقابة ونظر وقف الأشراف حتى وفاة نقيب الأشراف شرف الدين على فى ربيع الأول عام ٨٢١هـ / أبريل عام ١٤١٨م ، إذ أشارت المصادر التاريخية إلى ذلك « وفى ثامن عشرة خلع على الشريف حسن بن الشريف على بن محمد بن على الأرموى بنقابة الأشراف ، عوضا عن والده بعد وفاته ، واستقر الأمير فخر الدين فى نظر وقف الأشراف» [١٣١]

ويبرر المقريزى ذلك « لصغر سن الشريف » [١٣٢] وقد ظل نظر وقف الأشراف بيد الأمير فخر الدين بن أبى الفرج حتى وفاته فى شوال عام ٨٢١هـ / أكتوبر عام ١٤١٨م ، فتولى النظر على أوقاف الأشراف ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السر . [١٣٣] ، ثم تولاه الأمير ططر ، ثم تولاه فى يوم الخميس ١٩ المحرم عام ٨٢٤هـ / يناير عام ١٤٢١م القاضى شرف الدين محمد بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله المتوفى عام ٨٣٣هـ / ١٤٩٢م [١٣٤] . وقد أشار المقريزى إلى أنه « كلن قد باشر وقف الأشراف بعفة ونهضة ، وأنفق للأشراف فى كل سنة أزيد مما كانت عادتهم» [١٣٥]

ثم عاد لنقيب الأشراف النظر فى أوقاف الأشراف وذلك فى شهر شوال عام ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م حيث « كان على نقيب الأشراف السيد بدر الدين حسن بن الشريف النقيب على ، وأضيفت إليه نظر وقف الأشراف » [١٣٦] .

ويبدو أن أوقاف الأشراف قد أسالت لعاب كثير من الطامعين من سلاطين وأمراء المماليك . فقد قاموا النشو [١٣٧] ناظر الخاص فى عهد الناصر محمد بن قلاوون بالاستيلاء على « بركة الحبش » وصار ينفق على الأشراف من بيت المال ، واستمر ذلك حتى قام السلطان المملوكى أبو بكر بن محمد بن قلاوون بالإفراج عنها وعودتها إلى الأشراف وذلك فى عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م [١٣٨] .

كما قام بعض أنظار أوقاف الأشراف بنهب أموال هذه الأوقاف مثال ذلك ما ذكره المقريزى فى ترجمة فخر الدين ابن أبى الفرج الأرمينى الاستادار الذى كان يتولى نظر وقف الأشراف ففى عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م « فزاد مبلغ أجرة ناحيتى « بركة الحبش » وبلقس » زيادة كبيرة لنفسه وضيق على الأشراف وتعنت فى صرف ما بأسمائهم ، ومنع جماعة منهم ، فكثر دعاؤهم عليه ووقع فى الأنفس أنه قد قرب زواله » [١٣٩] .

كذلك ذكر البقاعى فى حوادث صفر عام ٨٥٧هت / ١٤٥٣م « وطلع الأشراف إلى السلطان - المنصور عثمان بن الظاهر جقمق - فشكوا إليه ، أن من الموقوف عليهم بلدا اسمها بلقس وأن الإستدار كان يستأجرها منهم باليد العادية بمائتى ألف درهم ، ويأخذ منهم ألف ألف [١٤٠] فقال جانبك الإستدار [١٤١] : أما فى هذا العام فإنها فى إجارة من كان قبلنا ، فنحن نستغلها بتلك الإجارة ، ثم ندفعها إليكم ، فحسن ذلك تمربغا الدويدار الثانى [١٤٢] ومن كان حاضرا ، فلما فرغوا من كلامهم قال الأمير قراجا الخزندار : لم يمنعون حقهم ، وهم آل الرسول صلى الله عليه

وسلم ؟ ادفع إليهم بلدهم . فقال السلطان : نعم فدعوا له وانصرفوا « [١٤٣] وفى نفس اليوم طلع جانبا الاستادار إلى السلطان ، فراجعه فى أمر بلقس ، فرسم له فى إبقائها معه» [١٤٤] . ويضيف البقاعى « ولما صح عند الأشراف ، أن السلطان رسم لجانبك الإستدار باستمرار يده على بلدهم ، طلعوا يوم الثلاثاء حادى عشر صفر المذكور إلى السلطان ، فشكوا إليه أخذ بلدهم منهم قهرا وظلما ، فلم يجبهم إلى شىء ، وراجعه من لديه دين وعقل من أخصائه ، فلم يفد شيئا » [١٤٥] .

وفى الشهر الذى يليه ربيع الأول ٨٥٧هـ / مارس عام ١٤٥٣م عزل المنصور عثمان وتولى الأشرف أينال سلطنة المماليك فرفع الأشراف إليه شكوى فى أمر بلدة « بلقس « فانتزعها من الاستادار وردها عليهم [١٤٦] . كما ذكر بن الجيعان أن ناحية المشعلية بإقليم الدقهلية وكانت وقف الأشرف وأصبحت ضمن أوقاف السلطان المملوكى الأشرف أينال (١٤٧).

كذلك تسلم أوقاف الأشراف من اعتداءات العربان من ذلك ما ذكره البقاعى فى حوادث عام ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م من أن بنى حرام [١٤٨] من قبائل العرب بإقليم الشرقية قاموا بنهب قرية « بلقس « وقف الأشراف مما جعل نقيب الأشراف يأخذ جماعة من الأشراف وشكوا إلى السلطان أينال العلائى « فقال : من فعل ذلك ؟ فقالوا : قرية كذا ، وقرية كذا ، وسموا له المفسدين ، فلما طال سكوته ، قال الأمير بردبك الدويدار [١٤٩] اذهبوا ، حتى يكشف السلطان عن هذا الأمر فانفصلوا على ذلك» [١٥٠] ، ومع ذلك فقد ذكر ابن الجيعان أن ناحية العمرية باقليم البحيرة كانت وقف السادة الأشراف ، ثم أصبحت إقطاع العربان ومن معهم [١٥١].

وفى بعض الحالات أساء بعض نقباء الأشراف مباشرة أوقاف الأشراف وعدم المساواة فى نفقات المستحقين للوقف من الأشراف ، الأمر الذى جعل الأشراف يقومون بشكوى نقيب الأشراف إلى السلطان المملوكى قايتباى الذى عقد مجلسا لذلك الأمر ، فقد ذكر ابن الصيرفى فى حوادث ٢٦ ربيع الأول عام ٨٧٤هـ / أكتوبر عام ١٤٦٩م « يوم الثلاثاء سادس عشريه عقد مجلس بالقلعة بحضور السلطان بقضاة القضاة بسبب السيد الشريف نقيب الأشراف وأخيه الذى كان إمام المقر الشهابى ابن العينى ، فإن الأشراف شكوا منهما أنهما أخربا البلاد ، وكان استعيض عن الشريف المذكور من نقابة الأشراف واستقرار الشريف نور الدين على الكردى صاحب السلطان نصره الله، فسعى الشريف المقدم ذكره عند السلطان بالأمير برقوق وغيره حتى عقد لهما هذا

المجلس، وغضب السلطان ــ نصره الله - من نقيب الأشراف وحط عليه ونقم عليه سوء مباشرته فى بلاد الوقف وعدم التساوى بين المستحقين فى النفقة ، ونسب ذلك إلى صنيع أخيه ، وأساء عليه بلفظ: « يا شيطان أنت نحس « فصار يرعد ويقول : « السلطان يعرفنى « ، وخرجت أخلاق السلطان وعنف الشريف نقيب الأشراف ووبخه ، فكان جوابه : « يا مولانا السلطان ، أنا أتوب إلى الله ةاستغفر الله » (١٥٣).

ويضيف ابن الصيرفى « وانفصل المجلس على لآن يعمل حساب الوقف بحضور نواب قضاة القضاة من كل مذهب نائب ، ويعملون ما يقتضيه الشرع ، وأن يكون السيد الكردى ناظرا على البلاد والمال والمصرف ، ونقيب الأشراف يصل إليه معلومه ولايتكلم فى شئ ، وهذا مع جوار السلطان لنقيب الأشراف عدة سنين واتحاده بصحبته» (١٥٤).

يذكر ابن الصيرفى أيضا « وسأل السلطان - قايتباى - عن متحصل الأشراف فقيل له ثمانية آلاف دينار ، فقال : « كم تصرفوا للأشراف ؟ فقيل له : النصف من ذلك وسأل عن المتأخر فذكر المباشرون أن عدتهم عشرون نفرًا فرسم باستقرار أربعة وإبطال ما عداهم ، وأن يضاف المتأخر ويصرف على الأشراف بالسوية » (١٥٥).

ثم خلع فى يوم الخميس ٢٨ ربيع الأول على نقيب الأشراف واستقر كعادته ، وخلع على السيد الشريف علاء الدين الكردى واستقر ناظر الأشراف (١٥٦).

كما يذكر عبد الباسط بن خليل فى حوادث عام ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م « وفيه عقد مجلس بسبب وقف يتعلق بجماعة من الأشراف ، منهم السيد إبراهيم الذى كان كاتب السر بدمشق ، وخنق السلطان على السيد هذا ووقع منه هو أيضا كلمات ، وانفض المجلس لا على طائل « (١٥٧).

وقد حاول السلطان المملوكى قنصوه الغورى الاستيلاء على أوقاف الأشراف من ذلك ما ذكره ابن إياس فى حوادث صفر عام ٩١٨هـ / أبريل عام ١٥١٢م «وفى يوم الأحد تاسع عشرينه رسم السلطان بعرض السادة الأشرف ، وسبب ذلك أن السلطان قصد أن يخرج عنهم شيئا من الجهات الموقوفة عليهم مثل « بركة الحبش» وبلقس» وغير ذلك من الجهات ، وكان القائم فى مرافعتهم الشريف بن مصبح دلال الأملاك ، فالتزم بأن يوفر للسلطان من هذه الجهات فى كل سنة عشرة ألاف دينار ، فرسم السلطان بعقد مجلس بالقضاة الأربعة بسبب الأشراف وقد طعنوا فى أنساب

جماعة منهم » [١٥٨] . وقد علق ابن إياس على ذلك بقوله : « وهذه من جملة الوقائع الفاحشة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » [١٥٩].

ومن مهام نقيب الأشراف عدم تزويج الشريفات من العوام وقد أوردها الماوردى « أن يمنع أيامهم أن يتزوجن إلا من الأكفاء لشرفهن على سائر النساء صيانة لأنسابهن وتعظيما لحرمتهن أن يتزوجهن غير الولاة أو ينكحهن غير الأكفاء » [١٦٠].

وأكدت على ذلك كثير من عهود تولية نقباء الأشراف « وأن تحصن الفروج عن مناكحة من ليس لها كفؤا ، ولا مشاركها فى شرفها وفخرها ، حتى لايطمع فى المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلاً لها مساويا ، ونظيرا موازيا ، فقد قال الله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » [١٦١]. كما ورد فى سجل تعيين نقيب الأشراف « واحتط فى أمر المناكح رصنها عن العوام » [١٦٢].

فضلا عن ذلك فقد جاء فى الوصية التى كان يوصى بها نقيب الأشراف أن « يمنع من اتصال أيم الأسرة إلى عامى ، ولايفسح أن يعقد عليها عقد إلا لكف ملى : ليبرأ هذا المجد الشريف من التكدير ، ولاتزيفه شوائب التغيير » [١٦٣].

ويبدو أن رغبة كثير من الناس فى الزواج من إحدى الشريفات رغبة فى انتساب أبنائهم إلى هذا الشرف مع قوة الرأى الذى يتيح الانتساب إلى الأشراف عن طريق الأم . من ذلك ما ذكره السخاوى فى التحفة اللطيفة فى ترجمة محمد بن فرحون المالكى صاحب كتاب الديباج المذهب فى طبقات المالكية من أن أباه نزل المدينة المنورة فأشار عليه بعض علمائها أن يتزوج فامتنع « فلم يزل به حتى زوجه أكبر بنات الشريف عبد الواحد الحسين الأربع ، الثابت النسبة بالقاهرة ، ليتعاطى من وقف « بلقيس » الموقوف على الشرفاء . بل لما حج نقيب الأشراف أوقفته على ذلك الثبوت ، فصار يصرف لابنته مباركة حتى ماتت . وكان فى تزوج أبى بالشريفة البر التام بنا ، إذ ألحقنا بنسب النبى صلى الله عليه وسلم ، وسيرنا من ذريته إجماعا ، وشرفاء عند أكثر العلماء. كما أفتى به ناصر الدين المشدالى ، وغيره ممن هة مثله فى العلم » [١٦٤].

ومع ذلك فإن وجهة نظر بعض المعاصرين عدم الزواج من الشريفات إلا إذا التزم لها بعدة آداب، فقد ذكر الشعرانى فى جملة الأدب مع الشرفاء « لا نتزوج شريفة إلا أن كان أحدنا يعرف من نفسه القدرة على القيام بواجب حقها وأن يعمل على رضاها فلايتزوج عليها ولا يتسرى

ولا يقتر عليها فى المأكل والملبس دون قدرتنا ونقول أن جدك رسول الله صلى عليه وسلم اختار ذلك (وكذلك) لانمنعها شهوة مباحة سألتنا فيها ونقدم لها نعلها إذا قامت واحتاجت ونقوم لها إذا وردت علينا لأنها بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم » [١٦٥] وللأسف فإن المصادر التاريخية لم تسعفنا فى الوقوف على جالة واحدة لمنع زواج امرأة شريفة وأى رجل من خارج الأشراف مهما كان هذا الرجل بل سنجد تكالب بعض الرجال للزواج من شريفة حتى ينتسب أولاده إلى هذا البيت هذا الشرف .

كما كان على نقيب الأشراف أن يعود مرضاهم ، ويمشى فى جنائزهم ، ويسعى فى حوائجهم، ويأخذ على يد المتعدى منهم ، ويمنعه من الاعتجاء ، ولايقطع أمرًا من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك [١٦٦].

كما لعب نقباء الأشراف دورًا هامًا فى الحياة العلمية إذ كان معظم نقباء الأشراف من العلماء، كما كانت لهم مشاركات فى الحياة العلمية فى العصر المملوكى ، ومن الجدير بالملاحظة أن كل نقباء الأشراف فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك أهل سنة على المذهب الشافعى ، بل كانوا من علماء هذا المذهب ، ورشح بعضهم لتولى أعلى مناصب المذهب الشافعى وهي وظيفة «قاضى القضاة الشافعية» من هؤلاء نقيب الأشراف محمد المعروف بقاضى العسكر المتوفى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م كان يتولى التدريس بالمدرسة الناصرية صلاح الدين الأيوبى – المجاورة لجامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، والمعروفة بمدرسة ابن زين التجار ، وبسبب شهرته عرفت هذه المدرسة به وقيل لها « المدرسة الشريفية» وهى مدرسة للفقهاء الشافعية [١٦٧] كما درس أيضا بالمدرسة الشريفية التى بناها الشريف اسماعيل بن ثعلب الجعفرى بالقاهرة [١٦٨] وله من المؤلفات العلمية كتاب « شرح فرائض الوسيط للغزالى » وكتاب شرح المحصول للفخر الرازى » [١٦٩].

ونبغ نقيب الأشراف الشريف أحمد المعروف بابن الحلبى المتوفى ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م . فى علم الحديث حتى لقب بالحافظ وهو أعلى مراتب علماء الحديث ، وله من التصانيف «الأربعين البلدانية فى الحديث » وله «وفيات الشيوخ» ذيل به على كتاب شيخه الحافظ عبد العظيم المنذرى «تكملة وفيات النقلة» وهو من عيون التاريخ [١٧٠] .

كما تولى نقيب الأشراف شرف الدين على المتوفى عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٣ م التدريس بمشهد الحسين بالقاهرة [١٧١] وبالمدرسة الفخرية والمدرسة الطيبرسية المجاورة للجامع الأزهر [١٧٢] ويذكر ابن

قاضى شهبة بأنه «اشتغل بالفقه والأصول والعربية وأفتى ودرس » [١٧٣] توضيح الحاوى » [١٧٤]. «شرح المعالم فى أصول الفقه [١٧٥] .

وكان بعض نقباء الأشراف على درجة عالية من العلم فقد كان الشريف صدر الدين مرتضى نقيب الأشراف «فصيحا بالألسن العربية والعجمية والتركية » [١٧٦] .

وبالاضافة إلى ذلك فقد تولى بعض نقباء الأشراف فى مصر فى العصر المملوكى العديد من الوظائف الادارية والمالية والقضائية والعلمية.

ومن هذه الوظائف وظيفة «الحسبة» والتى انقسمت فى مصر زمن المماليك إلى حسبة القاهرة ولصاحبها نواب بالوجه البحرى ، وحسبة مصر- الفسطاط ولصاحبها نواب بالوجه القبلى ، وحسبة الاسكندرية على المدينة وما حولها .

وقد تولى نقيب الأشراف شرف الدين على المتوفى عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٣ م حسبة القاهرة فى التفرة من رجب عام ٧٣٨هـ / فبراير عام ١٣٣٨ م إلى عام ٧٤٢هـ / ١٣٣٧-١٤٣١م [١٧٧].

كذلك تولى نقيب الأشراف عاصم بن محمد الحسنى « حسبة مصر » وذلك فى شوال عام ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م وعزل فى ربيع الأول عام ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م [١٧٨] .

وتولى نقيب الأشراف الشريف على «حسبة مصر» فى ربيع الأول عام ٧٨٢هـ / ١٣٨٠ م عوضا عن سراج الدين عمر العجمى ، وعزل فى ٢٧ جمادى الأخرة من نفس السنة (١٧٩) .

كما تولى بعض نقباء وظيفة «قضاء العسكر » [١٨٠] مثل نقيب الأشراف محمد بن الحسين الأرموى المتوفى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م الذى تولى «قضاء العسكر» والتى أصبحت لقب له ولأبنائه وأحفاده الذين عرفوا بـ « ابن قاضى العسكر » [١٨١] .

كذلك تولى بعض نقباء الأشراف وظيفة « نيابة دار العدل» وقد تولاها نقيب الأشراف محمد بن الحسين الأركوى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م للملك الكامل الأيوبى ثم لأبنه الملك الصالح نجم الدين أيوب واستمر يتولاها حتى وفاته عام ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م .

ومن الوظائف التى تولاها بعض نقباء الأشراف وظيفة « نظر البيمارستان المنصورى» ، وهذه الوظيفة من أجل الوظائف وأعلاها ، ويتولى النظر فيه عادة من العسكريين من أكبر الأمراء بالديار المصرية ، تولى هذه الوظيفة نقيب الأشراف فخر الدين أحمد [١٨٢] .

ومن الوظائف الدينية التى تولاها بعض نقباء الأشراف «مشيخة الشيوخ» [١٨٣]، حيث تولى هذه الوظيفة نقيب الأشراف فخر الدين أحمد وذلك فى ١٩ شوال عام ٧٩٤هـ / أغسطس ١٣٩٢م[١٨٤] ، واستمر بها حتى وفاته فى ذى القعدة عام ٨٠١هـ / يوليو عام ١٣٩٨م [١٨٥] .

أما عن دور نقباء الأشراف فى المناسبات العامة فقد شارك نقيب الأشراف ومعه الأشراف فى بعض المناسبات السياسية والاجتماعية . مثال ذلك ما حدث فى يوم الثلاثاء ١٤ صفر عام ٧٩٢هـ / نوفمبر عام ١٣٨٩م بعد عودة السلطان الظاهر برقوق للسلطنة للمرة الثانية بدلا من «الناصر الحجى» فخرج إلى لقائه الأشراف مع السيد على نقيب الأشراف ، وخرجت طوائف الفقراء بصناجقها ، والعساكر بلبوسها الحربية وذلك فى خارج القاهرة بالريدانية»[١٨٦] .

وشارك نقيب الأشراف والسادة الأشراف فى حوادث عام ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م حيث تعرضت مصر لوباء من أشد الأوبئة ، واختلفت هذه عن بقية الأوبئة السابقة له إذ وقع فى فصل الشتاء ، وعامة الأوبئة تقع فى فصل الربيع – فترة الخماسين- وكان هذا الوباء من الشدة حتى أطلق عليه ابن تغرى بردى «الفناء العظيم» [١٨٧] وأطلق عليه ابن إياس «الفصل الكبير» [١٨٨].

وقد قام الشريف أحمد بن عدنان كاتب السر بالديار المصرية ونقيب السادة الأشراف بنيابة دمشق بجمع أربعين شريفا اسم كل واحد منهم محمد، وانفق فيهم خمسة آلاف درهم من ماله الخاص ، وأجلسهم بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة يقرأون ما تيسر من القرآن الكريم، وقد غاص الجامع بالناس، ثم أخذ هؤلاء الأربعين فى الدعاء والناس تؤمن على دعائهم ، ثم صعدوا إلى سطح الجامع الأزهر ، *وأذنوا جميعا لصلاة العصر ، ثم انفضوا ، وقد أشار بذلك بعض العجم* من المشرق الإسلامى ، وأنه حدث عندهم وباء وفعلوا ذلك فارتفع عقيب ذلك [١٨٩] ويعلق ابن الصيرفى على ذلك بقوله : «وكل ذلك ببركة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبركة اسمه ، وبركة ذريته» [١٩٠] .

وساهم نقباء الأشراف فى مصر بالعديد من المنشآت العمرانية كبناء المدارس من ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة إلى أن نقيب الأشراف الشريف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى ابن قاضى العسكر المتوفى عام ٧٦٣هـ / ١٣٦١م جعل منزله الموجود بحارة بهاء الدين مدرسة عرفت باسم المدرسة الشريفية [١٩١]، ويذكر ابن قاضى شهبة « وكان عند موته قد جعل داره بحارة بهاء الدين مدرسة للشافعية» [١٩٢] وقام بعض نقباء الأشراف ببعض الأعمال

التعميرية فى القاهرة ، ففى عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م قام نقيب الأشراف السيد بدر الدين حسين بن الفراء بتجديد بعض المساجد والمشاهد منها مشهد السيدة رقية [١٩٣] بالقرب من مشهد السيدة نفيسه [١٩٤] وكان قد اتخذه بعض الناس سكنًا ، وتعطلت زيارته مدة سنين فجدده [١٩٥]، وجدد جامع الفاكهيين [١٩٦] وجامع الفخر [١٩٧] وجامع الصارم [١٩٨] .

ويتضح لنا مما سبق أن نقابة الأشراف هى أول تنظيم اجتماعى يرتبط بصلة الدم فى الحضارة الاسلامية . وأنها بدأت فى مصر منتصف القرن الثالث الهجرى واستمرت حت الآن . كما نلاحظ أن الفرع الحسنى هم أول من تولى نقابة الأشراف فى مصر زمن الطولونيين والإخشيديين وبداية عهد الفاطميين حيث تحولت إلى الفرع الحسينى واستمر ذلك الفرع يتولى نقابة الأشراف زمن الأيوبيين والمماليك إلا فى فترات قصيرة تولاها نقباء من الفرع الحسنى . كما ساد منصب نقيب الأشراف فى معظم الأحيان مبدأ الوراثة .

كذلك تعددت الواجبات الملقاة على عاتق نقباء الأشراف من حفظ النسب ، والإشراف على أوقاف الأشراف ، والعمل على تزويج الشريفات بمن يكافئهم ، بالإضافة إلى واجبات أخرى .

قائمة بأسماء نقباء الأشراف فى مصر زمن سلاطين المماليك

١- محمد بن الحسين بن محمد ، شمس الدين الأرموى الشافعى الحسينى ، المعروف بـ قاضى العسكر.

ولد عام ٥٧٨هـ وتولى نقابة الأشراف عام عام ٦٣٥هـ حتى وفاته عام ٦٥٠هـ [١٩٩]

٢- على بن الحسين الأموى الأصل المصرى المولد والدار أخو الأول

مولده : عام ٦٠٣هـ ، وتولى النقابة عام ٦٥٠-٦٦٤هـ [٢٠٠]

٣- شهاب الدين الحسين بن محمد الأرموى الحسينى ابن قاضى العسكر

٤- أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد الحسينى المعروف بابن الحلبى مولده عام ٦٣٦هـ وتوفى عام ٦٩٥هـ وتاريخ تولية النقابة غير معروف [٢٠١] .

٥- شمس الدين محمد بن شهاب الدين الحسين بن شمس الدين محمد المعروف بابن قاضى

العسكر . مولده عام ٦٧٦هـ وتولى النقابة عام ٦٩٥هـ عز الدين أحمد بن محمد ابن الحلبى إلى عام ٧٠٤هـ حيث قتل بدمشق وابن الثالث وحفيد الأول [٢٠٢] .

٦- بدر الدين الحسن بن عز الدين أحمد بن محمد الحسينى المعروف بابن الحلبى ابن الخامس مولده عام ٦٧٦هـ [٢٠٣] ابن الرابع . تولى النقابة عام ٧٠٤هـ حتى عام ٧٤١هـ وتوفى عام ٧٤٣هـ[٢٠٤] .

٧- شرف الدين على بن الحسين بن محمد بن الحسين الحسينى الشافعى المعروف بابن قاضى العسكر ابن الثالث وحفيد الأول وأخو الخامس . ولد عام ٦٩١هـ وتولى النقابة يوم الأحد ١١ رجب عام ٧٤١هـ وحتى وفاته عام ٧٥٧هـ [٢٠٥] .

٨- شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين الحسينى الشافعى المعروف بابن قاضى العسكر ويشتهر بأبى الركب بضم الراء وفتح الكاف- ولد عام ٦٩٨هـ وتولى النقابة عام ٧٥٧هـ حتى وفاته عام ٧٦٢هـ [٢٠٦] .

٩- شمس الدين محمد بن شهاب الدين الحسين الحسينى ابن قاضى العسكر ويعرف والده بأبى الركب وتولى النقابة : ٧٦٢هـ - ٧٦٣هـ [٢٠٧] .

١٠- فخر الدين محمد بن على بن الحسين ابن قاض العسكر (الأولى) تولى النقابة عام ٧٦٣هـ وعزل فى شوال ٧٧٤هـ [٢٠٨] .

١١- الشريف عاصم تولى النقابة فى ١٩ شوال ٧٧٤هـ عزل فى ٢٠ ذو الحجة عام ٧٧٤هـ[٢٠٩].

١٢- فخر الدين محمد بن على ابن قاض العسكر (الثانية)

تولى النقابة للمرة الثانية فى ٢٠ ذو الحجة عام ٧٧٤هـ [٢١٠] واستمر حتى وفاته فى أول رجب عام ٧٧٨هـ [٢١١] .

١٣- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الأولى) تولى النقابة فى يوم الاثنين ثالث شهر رجب عام ٧٧٨هـ [٢١٢] عزل فى أول ربيع الآخر عام ٧٨٠هـ [٢١٣]

١٤- الشريف عاصم (الثانية) تولى النقابة فى ١٧ ربيع الآخر عام ٧٨٠هـ [٢١٤] واستمر حتى وفاته عاشر المحرم عام ٧٨٢هـ [٢١٥]

١٥- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الثانية) تولى النقابة للمرة الثانية فى ١٠ المحرم عام ٧٨٢هـ [٢١٦] وعزل فى ذو القعدة عام ٧٨٣هـ [٢١٧]

١٦- جمال الدين عبدالله بن عبد الكافى الطباطبى (الأولى) تولى النقابة فى ٢٢ ذو القعدة عام ٧٨٣هـ [٢١٨] وعزل فى جماد الآخرة عام ٧٩١هـ [٢١٩]

١٧- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الثالثة) تولى النقابة فى ٢٦ جمادى الآخرة عام ٧٩١هـ [٢٢٠] وعزل فى ١٩ صفر عام ٧٩٢هـ [٢٢١]

١٨- جمال الدين عبدالله بن عبد الرحيم الطباطبى (الثانية) تولى النقابة فى ١٩ صفر عام ٧٩٢هـ [٢٢٢] حتى وفاته فى ذو القعدة عام ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م [٢٢٣]

١٩- شرف الدين على بن فخر الدين محمد (الرابعة) وتولى النقابة فى ١٥ ذو القعدة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م [٢٢٤] ويستمر حتى وفاته فى ١٩ ربيع الأول عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م [٢٢٥] .

٢٠- بدر الدين حسن بن على ابن قاضى العسكر

تولى النقابة بعد والده فى ١٩ ربيع الأول عام ٨٢١هـ / ١٤١٨م [٢٢٦] وعزل فى جمادى الآخرة عام ٨٤٤هـ / ١٤٤١م [٢٢٧] وتوفى فى يوم الاثنين ٦ صفر ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م [٢٢٨] .

٢١- بدر الدين حسين بن أبى بكر بن حسن الحسينى ويلقب بالشاطر ويقال له ابن الفراء تولى النقابة فى يوم الخميس ٧ جمادى الآخرة عام ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ، وتوفى فى شوال عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م [٢٢٩]

٢٢- محمد بن حسن الحسنى خازن الشربخاناه تولى النقابة عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م بعد حسين بن أبى بكر ، وتوفى عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م [٢٣٠]

٢٣- أبو المحاسن حسن بن محمد بن حسن كان موجودا عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م [٢٣١]

٢٤- أبو عبدالله محمد الطنبدى الحسنى كان موجود فى الفترة من ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م [٢٣٢].

الهوامش

(١) ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢ ج١ ، ص٧٧٠ مادة (نقب) ؛ الزبيدى : تاج العروس ، ج١، ص٩٨٣ ؛ الفيومى : المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى ، المكتبة العلمية، بيروت ، ج٢ ص٦٢٠ ؛ ابن فارس : مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٦ أجزاء ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٤٢٣هـ ، ج٥ ، ص٣٧٤ ؛ ابن الأثير : النهاية فى غريب الأثر ، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ج٥ ، ص٢١٣ .

(٢) الأزهر : تهذيب اللغة ، ج٣ ، ص٢٤٠ .

(٣) الطاهر أحمد الزاوى : ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، ط٢ ، القاهرة ١٩٧٣، ج٤ ، ص٤٢١ .

(٤) أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى : الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون ، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٧ ، ج٤ ، ص٢٢٠ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق محمد فهمى السرجانى ، المكتبة التوفيقية (د.ت) ، ج٢ ، ص٢٩.

(٦) ابن منظور : لسان العرب ، ج٩ ، ص١٦٩-١٧٥ ، مادة «شرف» ، البلاذرى : أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، المقدمة ، ص٢٠ .

(٧) القلقشندى : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص١٥٦-١٦٦ .

(٨) حقوق آل البيت بين السنة والبدعة ، دراسة وتحقيق عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د.ت) ، ص٥ .

(٩) محمد قلعجى : معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ج١ ص٤٨٧ .

(١٠) السيوطى : الحاوى للفتاوى و طبعة المنيرية ، دمشق ١٣٥٢هـ ، ج٢ ص٣٢ .

(١١) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٢ .

(١٢) صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٧ .

(١٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ص١٠٩ .

(١٤) ابن أيبك الصفدى : أعيان العصر وأعوان النصر ، ج١ ، ص٥ ..

(١٥) رضوان محمد الجنانى : طبقة الأشراف فى مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة المنيا ، ١٩٨٦ ، ص٢٦

(١٦) ابن عنبة الحسنى : عمدة الطالب فى أنساب آل طالب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت ، ص٢١٥.

(١٧) الهمذانى : تكملة تاريخ الطبرى ، ص٩٢؛ المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ص١٥٠-١٥١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص١٤ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص ، ٠٨ ، ١٣ ، ٣٤٢ ، ٥، ج١٢ ، ص١٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٤ ، ص٥٦-٥٧ ، ١٥٧، ٢١٠ ، ٢٢ ، ج٥ ، ص٢١٧ وانظر أيضًا أحمد عبد الرازق : الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص٢٤٨ .

(١٨) رضوان الجنانى : طبقة الأشراف ، ص٢٦١-٢٦٢ .

(١٩) كثرة ثورات العلويين ضد العباسيين خلال القرنين الثانى والثالث الهجرى ، وقد توافد على مصر كثير من العلويين ؤ، وأصبحت مصر أهم مركز لهم يجتمعون فيه واتخذه طريقا إلى بلاد المغرب ، وساعدهم فى ذلك العاطفة الجياشة فى نفوس أهل مصر نحوهم وحبهم لآل البيت ، مما جعل العباسيين ينظرون إليهم بعينين واستعين ، لذا أمر الخليفة العباسى المتوكل على الله ةقلى عهده المنتصر يأمر والى مصر اسحق يحى بإخراج الطالبين من مصر إلى العراق وذلك فى رجب عام ٢٦هـ / ٨٥١م انظر : : الكندى ، ولاة مصر وقضاتها ، ص٢٢٤؛ محسن محمد حسن سليم ، « ثورات العلويين فى مصر عصر الولاة مجلة كلية الدراسات الانسانية ، جامعة الأزهر ، العدد السابع ، ١٩٨٩ ، ص١٨٥-٢٢٩ .

(٢٠) طباطبا : هو إبراهيم بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن على أبى طالب ، ولقب بذلك لأن أباه أراد أن يقطع له ثوبا وهو طفل فخيره بين قميص وقبا ، فقال : طبا طبا يعنى قباقبا ، ولقبوه بذلك أما ابن خلكان فيذكر أنه كان يلثغ فيجعل القاف طاء ؛ ويذكر ابن تغرى بردى أنه سمى «طباطبا » لأن أمه ترقصه وتقول طباطبا - يغنى نم نم . انظر :- ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ج١ ، ص١٣٠ ؛ ابن حجر : نزهة الألباب فى الألقاب ، ص١٩٦ ؛ الحسنى: عمدة الطالب ، ص١٣٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص٢١٩ .

(٢١) موفق الدين بن عثمان : مرشد الزوار إلى قبور الأولياء ، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ، ١٩٩٥ ، ج١، ص٢٥ ؛ البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد على ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، القاهرة ١٩٩٩ ، رقم ٥٥ ، ص١٩٩ .

(٢٢) ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، تحقيق على محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص٤٤ . ولاحظ أن الموقع الرسمي لنقابة الأشراف بمصر يذكر أن الخليفة المعز لدين الله هو أول نقيب للأشراف في مصر أنظر : www. Niqabat alashraf.oeg

(٢٣) مشاهد الصفا في المدفونين بمصر من آل المصطفى ، تحقيق على عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ص٥٢ .

(٢٤) ابن زولاق : فضائل مصر ، ص٤٤ ، محمد بن اسماعيل بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الحسنى توفى بمصر عام ٣١٥هـ / ٩٢٧م أنظر : ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج٥٢ ، ص١٠٢-١٠٣ ، رقم ١٠٩٤٣ ؛ ابن منظور : مختصر تاريخ دمشق، ج١ ص٢٩٥٢ ؛ الذهبى ، تاريخ الإسلام ؛ حوادث عام ٣١٥هـ .

(٢٥) إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن القاسم الرسى .

(٢٦) المقريزى : المقفى الكبير ، ج٢ ص١١-١٢ ، رقم ٧٦٢ .

(٢٧) أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا . وكان من شعراء مصر فى القرن الرابع الهجرى . انظر: ابن زولاق : فضائل مصر ، ص٤٤ ؛ الثعالبى ، يتيمة الدهر ، ج١ ، ص٣٢٨ ؛ ابن سعيد الأندلسى: المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الأول تحقيق زكى محمد حسن وآخرون ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة، ١٩٥٣ ، ص٢٠٢ - ٢٠٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ص٣٦ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٥٥٩ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ؛ ١١٨١ ؛ البغدادى : هدية العارفين، ج١ ، ص٣٣ ؛ سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص٢٣٣ ؛ محمد عبد المنعم خفاجي ومحمد مصطفى الماجي : شعراء مصر من الفتح الاسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠، ص١١٠-١١١.

(٢٨) ابن زولاق ، فضائل مصر ، ص٤٥ ؛ ويذكر المقريزى أنه ولى نقابة الأشراف فى أيام العزيز بالله ، أى أنه عاصر الدولة الإخشيدية والفاطمية حتى أيام العزيز بالله . انظر : - المقفى الكبير ، ج١ ، ص٧-٨ ، رقم ١١ ؛ السخاوى : التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة ، ج١ ، ص١٠٤ ، رقم ١٢ .

(٢٩) المقفى الكبير ، ج٣ ص٤٦٥-٤٦٦ ، رقم ١٢٢٢ .

(٣٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨١-٤٨٢ ؛ المقريزى اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص٧٢-٧٣ ، ص٨٦، ص٨٨؛ عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ج٢ ،

ص٣٣-٣٤؛ عبد المنعم سلطان : الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى ، دراسة تاريخية وثائقية ، دار الثقافة العلمية ، الاسكندرية ، ١٩٩٩، ص٢٦ .

(٣١) القلشندى : صبح الأعشى ، ج١ ، ص٣٩٨ ٩٩ .

(٣٢) ابن الطوير : نزهة المقلتين ، ص١١٣-١١٤ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص٣٤٢ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج ٤ ، ج١ ، ص٤٥ .

(٣٣) ابن ناظر الجيش : تثقيب التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق رودلف سلى ، المعهد العلمى الفرنسى للآصار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص١٩٢ .

(٣٤) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١١٨ .

(٣٥) القلقشندى : مآثر الإناقة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ج١، ص٣٠٦ .

(٣٦) القلقشندى : مآثر الإناقة فى معالم الخلافة ، ج١ ، ص٣٨ .

(٣٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٢٧٣-٢٧٤ .

(٣٨) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ، ص١٦٩ .

(٣٩) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، وبيان الطرق والمسالك ، الطبعة ، دار العرب ، القاهرة ، ١٩٨٨، ص١٠٤ .

(٤٠) القلقشندى : صبح الأعشى : ج١١ ، ص١١٨ .

(٤١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٦ ، ص١٤١ .

(٤٢) شمس الدين محمد بن أحمد المنهاجى الأسيوطى (القرن التاسع الهجرى) : جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ، تحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدنى ، دار الكتب العغلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ج٢ ، ص٢٧٥ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص١٩٣ . حيث وضعها ضمن الوظائف الدينية الموجودة فى نيابة دمشق، كما كانت تورد ضمن وظائف أرباب السيوف إذ كان يكتب فى توقيع متوليها الأميرى .

(٤٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ص: ج٦ ص١٣٢-١٣٣ ؛ ج١٢ ، ج١٢ ، ص٢٨٥-٢٨٦ ؛ ص٢٩٦؛

انظر ايضا عادل عبد الحافظ : نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ج٢ ، ص٢٤٢ .

(٤٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٩٩٦ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ص٩٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٤٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، ص١٩٣ . وقد أورد لنا القلقشندى بعض سجل تعيين نقباء الأشراف فى كل من دمشق وحلب وطرابلس .

(٤٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨١٦ .

(٤٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٢ .

(٤٩) ابن ناظر الجيش: تثقيف التعريف ، ص١٩٢ .

(٥٠) المقريزى ، السلوك ، ج٣ ، ص٢٦٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٦٩ .

(٥١) نسبة لمدينة أرمية : بالضم ثم السكون وباء مفتوحة وهاء ، مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، كثيرة الخيرات وافرة الغلات ، يزعم المجوس أن زردشت منها . البلاذرى : فتوح البلدان ، ج٢ ، ص٤٠٥ ؛ ايقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٢ .

(٥٢) نهاية الآرب ، ج٢٩ ، ص٢٣٦ .

(٥٣) المقفى الكبير ، ج٥ ، ص٥٩٧-٥٩٨ ، رقم ٢١٤٨ .

(٥٤) بدائع الزهور ، ج٥ ، ص٣٠٢ .

(٥٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٥ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٥ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج٢ ، ج ، ص٤١٣ ؛ بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١١٣ .

(٥٦) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٧٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١ ، ق٢ ، ص٢٢٨ .

(٥٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج ٩ ، ص١٠٨ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٧ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الصريفى : نزهة النفوس ، ج١ .

(٥٨) ص٢٩٧ ابن الصيرفى : إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص١٤١-١٤٢ ..

(٥٩) المقريزى ، السلوك ، ج٣ ، ص٧٧٧-٧٧٨ ؛ انظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص١٥٣ ؛ محمود إسماعيل : سوسلوجيا الفكر الإسلامى ، ج٣ ، طور الانهيار ، ص١٣١ .

(٦٠) النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص١٩٨ .

(٦١) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص١١٣٩ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ص١٢٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٥، ص٨٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٤ ، ص١٠٩-١١٠ ، ص١٣٣ ؛ السخاوى : الضوء ، ج١٠ ، ص٢٦٨-٢٦٩ ، رقم ١٠٦٨ .

(٦٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٧ .

(٦٣) البقاعى : إظهار العصر لأسرار أهل العصر ، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفى ، القسم الثالث ، ص١٦٢ .

(٦٤) وهى من أسواق القاهرة القديمة من أيام الدولة الفاطمية وتعرف بسويقة الوزير يعلى الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس ، ثم عرفت باسم السوق الكبير فى أخريات الدولة الفاطمية ، فلما ولى صفى الدين عبدالله بن شكر الدميرى وزارة العادل أبوبكر بن أيوب سكن فى هذا الخط فعرفت من حينئذ هذه السويقة بسويقة الصاحب . انظر : المقريزى : الخطط ، ج٣ ، ص١٦٩ .

(٦٥) الوافى بالوفيات ، مخطوط رقم ٧٠٤ ، ج١٣ ، ص٣٣ .

(٦٦) ابن رافع السلامى : الوفيات ، ج٢ ، ص٤٢٦ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص٩٣ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، تحقيق عدنا درويش ، ج٢ ، ص٣٢٥ .

(٦٧) حارة الديلم من حارات القاهرة القريبة من الجامع الأزهر ، وهى ، وهى منسوبة إلى الديلم الذين نزلوا القاهرة فى العصر الفاطمى . ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، المقريزى: الخطط ، ج٣ ، ص١٢.

(٦٨) نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الجزء الثالث والثلاثون ، تحقيق مصطفى حجازى ، الطبعة الثانية ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، ص١٨ .

(٦٩) المسبحى ، أخبار مصر فى سنتين (٤١٤-٤١٥هـ) تحقيق وليم ج. ميلورد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٢٥ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص١٣٣ .

(٧٠) الضوء اللامع ، ج٢ ، ص٥-٦ ، رقم ١٤ ؛ ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي ، مراجعة وتقديم دكتور عبد الرحمن فهمى محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص٩٧.

(٧١) النجوم الزاهرة ، ج١٤ ص١٦٧ .

(٧٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨م ، ص٨٥ .

(٧٣) ابن الطوير : نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين ، أعاد بناءه وحققه وقدم له أيمن فؤاد سيد ، جمعية المستشرقين الألمانية ، فيسبادن ، ١١٣ -١١٤ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، تحقيق حسن محمد الشماع ، البصرة ، د.ت ، المجلد الرابع ، ج١ ، ص١٤٦ .

(٧٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٢٥١ .

(٧٥) التعريف بالمصطلح الشريف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص١٦٩-١٧٠ . وقد نقل القلقشندى هذه الوصية عن ابن فضل الله فى كتابه صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٥-١٦٦ .

(٧٦) ضياء الدين بن الأثير : رسائل ابن الأثير ، نشر أنيس المقدسى ، بغداد ، ١٩٥٥ ، ص١٣٥ .

(٧٧) الخالدى ، المقصد الرفيع المنشأ الهادى إلى صناعة الانشاء ، مخطوط مصور بجامعة القاهرة ، تحت رقم ٢٤٠٤٥ ، ورقة ١٣٣ ؛ عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر دراسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢، ج٢، ص٥٦ .

(٧٨) السخاوى : استجلاء وارتقاء الغرف ، ص٧٢-٧٣ الشبلنجى : نور الأبصار ، ص١١٧؛ الجرجاوى : مدارج الأشراف ، ص٥٩ ؛ رضوان الجنانى : طبقة الأشراف ، ص٢٦٨ .

(٧٩) الأدفوى : الطالع السعيد ، ص١٧٩-١٨١ ، رقم ١١٥ ؛ ؛ السيوكى : حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٤٥٣؛ محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، مج ٤ ، ص٢٩ .

(٨٠) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٤٨ ؛ ابن حجر : إنبأ الغمر ، ج٢ ، ص٢٦٧ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص١٣٦-١٣٧ ، رقم ٩١ ؛ النجوم الزاهرة ج١ ، ص١٦٤ ؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٧٠ ، رقم ٩٢٨ ؛ ابن الصرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٢ ص٢٣٧ ؛ السخاوى : الضوء اللامع، ج٣ ، ص١٢٣-١٢٤ ؛ ابن آياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٧٧٤-٧٧٥ .

(٨١) المقريزى : المقفى الكبير ، ج٣ ، ص٤٤٩-٤٥٠ ، رقم ١٢١٣ .

(٨٢) درر العقود ، ج٢ ، ص٦-٧ ، رقم ٧٥ .

(٨٣) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣٦٧ ؛ وقد نقل السخاوى عنه ذلك فى الضوء اللامع ، ج ، ص١٢٤ .

(٨٤) ذيل الدرر الكامنة ، ص١٨٣-١٨٤ ؛ المجمع المؤسس المفهرس ، ج١ ، ص٥٦٨ .

(٨٥) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٢١-١٢٢ ، رقم ٤٧٢ ؛ البقاعى : عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران ، تحقيق حسن حبشى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ج٢ ، ص١٦٢-١٦٧ ، رقم ١٩٦ ؛ السيوطى : نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، تحقيق فليب حتى ، نيويورك ، ١٩٢٧ ، ص١٠٤-١٠٥ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٧ ، ص٣٠٥ .

(٨٦) ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، تحقيق زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ج٣ ، ص١٣٣٠-١٣٣١؛ على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ج٣ ، ص٤٠٥ . الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٧ ، ص٣٠٥.

(٨٧) ابن عنبة الحسنى : عمدة الطالب ، ص١٥٧ ؛ التقنسى : رسالة أحكام الأشراف ، ص٧ ، ٩ ، ١٠ .

(٨٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٧٤-٧٧٥ ؛ ابن عنبة : عمدة الطالب ، ص١٠١-١٠٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٥٥ .

(٨٩) استجلاء الغرف ، ص٧٣-٧٤ .

وللأسف لم تمدنا المصادر المعاصرة بصورة لما كان يكتب فى هذه المحاضر، ولكن وصلتنا نماذج تعود إلى فترة متأخرة فقد أمدنا السمهودى بصورة لهذه المحاضر : " بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد فاننى اتشرف بأن أشهد بصحة هذا النسب الكريم المتفق على صحته من مشايخنا وعلماينا وأفاضلنا رضى الله عنهم ونفعنا بهم واسأل الله بوجه نبيه الكريم ورجال هذا النسب العظيم أن يأخذنا إليه مما سواه ويمتعنا من أهله بقربه ورضاه ... كاتبه تراب أقدامهم خادم خدامهم ... أحمد الشرقاوى فى ١٩ الحجة المحرم سنة ١٣١٣ وختم عليه بخاتم الشريف " انظر : - السمهودى : مدارج الأشراف ، ص٨٥؛ رضوان الجنان: طبقة الأشراف ، ص٢٦٩ .

(٩٠) درر العقود الفريدة ، ج٢ ، ص٤٦١ .

(٩١) من هذه الرسائل :

- أسماع الصم فى اثبات الشرف من قبل الأم" لابن أبى زيد المراكشى ت ٧٣٩هـ / ١٢٣٩م .

- " أسماع الصم فى اثبات الشرف من الأم" لابن مرزوق التلمسانى ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م .

- " راسلة الفوز والغنم فى مسألة الشرف من الأم " لخير الدين البرمجلى ت ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م.

- " تبيان الحكم بالنصوص الدالة على الشرف من الأم" للصديقى ت ١١٣٨ هـ / ١٧٢٥ /ز

انظر : البغدادى : إيضاح المكنون ، ج١ ، ص٨١ ن ٢٢٣ ؛ هدية العارفين ، ج١ ، ص٥٢٩ ، ٣١٩ ، ١٨٨ . ومن الكتب :

- " كتاب رفع اللبس ووالشبهات عن ثبوت الشرف من قبل الأم " لأبى العباس أحمد بن سودة المرى.

- "شرف الأسباط" للقاسمى .

(٩٢) رفع اللبس ، ص٢-٤ .

(٩٣) سليمان محمد حسين : الأشراف ودروهم فى مصر فى فى العصر العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة عين شمس ، ١٩٩٣ ، ص٤٧ .

(٩٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٠٥ .

(٩٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٠٦ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل فى ذيل الدول ، ج٢ ، ص٤٨.

(٩٦) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥ ؛ ابن قاضى شهبه : تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج٢ ، ج٢ ، ص٤١٣؛ ابن إياس بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١١٣ .

(٩٧) ولى الدين العراقى : ذيل العبر ، ق٢ ، ص٣٤٥ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ص٢٠٥-٢٠٧ ؛ ابن حجر إنباء الغمر ، ج١ ص٣٥ ؛ ابن قاضى شهبة ، تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٤١٤ .

(٩٨) الأزار : عبارة عن ملاءة متسعة فضفاضة تلف جميع جسد المرأة وكان الأزار بالنسبة للمسلمات عامة أبيض اللون ، وللمسيحيات أزرق اللون ، ولليهوديات أصفر اللون ، وللسامريات أحمر اللون . ماير : الملابس المملوكية ، ص١٢٥-١٢٦ .

(٩٩) النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٦ انظر أيضا ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى ، ص٢١٤ ؛ عبد المنعم ماجد : نظم المماليك ، ج٢ ، ص٨٤ .

(١٠٠) النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ .

(١٠١) المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٨-٢٣٩ .

(١٠٢) وجيز الكلام ، ج١ ، ص١٨٦ .

(١٠٣) بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠ .

(١٠٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص١٩٩ ؛ ابن حجر : انباء الغمر ، ج١ ، ص١٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، دار التراث بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م ، ص٤٦٢؛ حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٠٣ ؛ ابن إياس بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص٢٣٩ .

(١٠٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٠٣ ؛ عبد الباسط : نيل الأمل ، ج٢ ، ص٣٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٦، ص٢٢٦ .

(١٠٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ .

(١٠٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى ، ج٦ ، ص٢٣٩ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٠٨ .

(١٠٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص١٩٩؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص٤٧ ؛ المنهل الصافى، ج٦ ص٢٣٩ .

(١٠٩) بدر الدين حسين بن أبى بكر بن حسين الحسينى ويلقب بالشاطر ، ويقال له ابن الفراء ، تولى نقابة الأشراف فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة عام ٨٤٤هـ / نوفمبر ١٤٤٠/ وتوفى فى شوال عام ٨٨٥هـ/ يناير ١٤٨١ م . المقريزى ، السلوك ، ج٤ ، ص١٢١٣ ؛ ابن الصريفى ، نزهة النفوس ، ج٤ ، ص٢٠٥ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل فى ذيل الدول ، ج٧ ، ص٢٧٥ .

(١١٠) الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٣٨ ، ص٥٤٧ .

(١١١) وجيز الكلام ، ج٣ ، ص٩١٤ .

(١١٢) الأحكام السلطانية ، ص٨٦ .

(١١٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص١٦٤ .

(١١٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٤٠٠-٤٠١ .

(١١٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٥٠ .

(١١٦) محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٢٨٥-٢٨٦ ؛ عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٣٨ .

(١١٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٣١٣-٣١٤ ؛ المقريزى : الخطط ، جج٤ ، ص٨١-٨٣ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ٢٤٦-٢٥٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٣١٤ ؛ جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص٣٣٧ ؛ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ، ص٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، الطبعة الرابعة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٤ ص٣٥٨-٣٥٩ . ومن حسن الحظ أن وصلتنا حجة وقف طلائع بن رزيك سليمة ، حيث تحتفظها بها دار الوثائق القومية بالقاهرة (مجموعة محكمة الأحوال الشخصسة) وهى وثيقة رقم ١ محفظة رقم ١ ؛ وقد قام بنشرها كل من كلور كاهن ويوسف رجب ومصطفى أنور طاهر : محمد محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار بالقاهرة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص٣ ؛

Claud Cahen , yusuf Ragib et Mustafa Anouar Taher, L'Achat et le Waqf d'un Grand Domaine Egyptien Par Vizir Fatimide Tolai B. Ruzzik , Annales Islamoloiques , Tome XVI , le Caire , 1978 , pp. 12-126 .

(١١٨) الوزير الفاطمى أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح كان واليا بنى خصيب من أعمال الصعيد ، فلما قتل الخليفة الفاطمى الظافر سير أهل القصر إلى الصالح واستنجدوا به على عباس وولده نصرا المتفقين على قتله فتوجه طلائع إلى القاهرة وقاتل عباس وولده وتولى الوزارة للفائز ، وقد بنى جامع خارج اب زويلة لكى يدفن فيه رأس الحسين : انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥٣٦ ، رقم ٣١١ .

(١١٩) بركة الحبش : وتعرف ببركة المعافر وبركة حمير ، وتعرف أيضا باسطبل قرة ، وتقع فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل ، وكان يقع إلى شرقيها بساتين تعرف بقتادة بن قيس بن حبش الصدفى لذا عرفتهذه البركة ببركة الحبش . انظر :- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت ، ج٤ ، ص٤٥ ؛ المقريزى : الخطط ، ج٣ ، ص٢٤٧-٢٤٩ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣، ص٣٤٠؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص٢٧؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٣٩٠ .

(١٢٠) بلقس : قرية قديمة كانت تقع ضمن إقليم الشرقية ، ثم إقليم ضواحى القاهرة فى العصر المملوكى ، وهى إحدى قرى محافظة القليوبية الآن . انظر : ابن مماتى : قوانين نشر عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ص٢١٠ ؛ ابن دقماق : الانتصار ، ج٥ ، ص٤٥؛ ابن الجيعان : التحفة السنية بلأسماء البلاد المصرية ، نشر مورتيز ، القاهرة ، ١٨٩٢ ، ص٩ ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ق٢ ، ج١ ، ص٥٥ .

(١٢١) وثيقة طلائع بن رزيك ، ص١١٣-١١٥ ، أسطر ٢٢-٤٥ ؛ المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص٨٢ .

(١٢٢) حفصا : هى من القرى القديمة اسمها الأصلى دجسفة وردت فى قوانين الدواوين لابن مماتى من أعمال الشرقية ، وذكرها ابن دقماق فى الانتصار ، ق٥ ، ص٦١١ باسم "دجفة الشرفا" ضمن الأعمال الشرقية، وذكرها ابن الجيعان فى التحفة السنية ، ص٣٠ باسم "دجسفه الشرفا ، وهى رحسفة الرهبان لم تمسح فى الروك" ، ويذكر محمد رمزى والصواب دجسفة الشرفا كما ورد فى دليل سنة ١٢٢٤هـ وفى تاريخ سنة ١٢٢٨هـ ، وهى بلدة بمركز ميت غمر محافظة الدقهلية ، القاموس الجغرافى ، ق٢ ، ج١ ، ص٢٥٥.

(١٢٣) سجلات محاكم الأقاليم ، محكمة الدقهلية ، دار الوثائق القومية بالقاهرة ، سجل ٩ ، ملف ٦١٦ ، ص٢٧٠ ؛ مصطفى كامل شلول : عروبة مصر من قبائلها ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص١١٨-١١٩ ؛ سليمان محمد : السادة الأشراف ، ص١١ .

(١٢٤) السلوك ، ج٢ ، ص٣٤٠ .

(١٢٥) المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٨٦٤-٨٦٥ .

(١٢٦) السلوك ، ج٣ ، ص٩٩ .

(١٢٧) السلوك ، ج٣ ، ص٤٥٦ .

الشريف مرتضى صدر الدين مرتضى بن غياث الدين إبراهيم بن حمزة الحسنى العراقى ولى نظر وقف الأشراف عام ٧٩٨هـ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٨٦٧ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٤٣٧ .

(١٢٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٤٨٨ .

(١٢٩) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣ ؛ ابن حجر : انباء الغمر ن ج١ ، ص١٧٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١ ، ق٢ ، ص٢٢٨ .

(١٣٠) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٥٠٣ ؛ ابن حجر : انباء الغمر ، ج١ ، ص٢٧٨ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٨ ؛ إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٣٨ .

(١٣١) السلوك ، ج٤ ، ص٤٤٠ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص١٥٨ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٤، ص٢٥٠ ، رقم ٦٤٩ فى حين يذكر كل من العينى ةابن الصيرفى بأن الشريف هو الذى استقر فى نظر الأوقاف المتعلقة بالاشراف عوضا عن الأمير فخر الدين بن أبى الفرج .. عقد الجمان ، حوادث عام ٨٢١ هـ ، ص٣٣٩ ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص٤٣٢ .

(١٣٢) السلوك ، ج٤ ، ص٤٤٠ .

(١٣٣) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٤٦٧ .

(١٣٤) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٥٨٦ ، ٥٦٦ ؛ العينى : عقد الجمان ، ص١٢٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص١٠ ؛ المنهل الصافى ، ج١٠ ، ص١٧٨ ، رقم ٢٢٤٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس، ج٢ ، ص٤٦٨ ، ج٣ ، ص٢٠٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٨ ، ص١٣٩ .

(١٣٥) السلوك ، ج٤ ، ص٦٤٤ .

(١٣٦) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٦٤٤ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٣ ، ص٢١ .

(١٣٧) النشو : شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله ، كان يتولى ديوان أنوك بن الناصر محمد بن قلاوون ، ثم تولى الخاص السلطانى ، ثم تولى ديوان الجيش ، وقد اشتهر بالاحتيال والاستيلاء على أموال الناس، ومصادراتهم حتى كثر أعدائه ، ثم تخلص الناصر محمد منه وقتله عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م. انظر : - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص٤٢٩-٤٣٠ ، رقم ٢٥٤٩ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٧، ص٣٩٠-٣٩٣ ، رقم ١٥٠٤ ؛ الدليل الشافى ورقة ٤٣٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص٣٢٣ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص١٢٦ .

(١٣٨) المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص٥٥٢ ؛ الخطط ، ج٣ ، ص٢٥٢ .

(١٣٩) المقريزى : درر العقود المفيدة رقم ٦١٦ ، ج٢ ، ص٣٠٤ .

(١٤٠) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٤٠ .

(١٤١) جانبك الظاهرى جقمق الجركسى الدوادار وشاد جدة عام ٨٤٩هـ وأطلق عليه نائب جدة ، ثم تولى الاستادارية عام ٨٥٧هـ ، وتوفى عام ٨٦٧هـ . ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٤ ، ص٢٤٣-٢٤٨ ،

رقم ٨٢٩ ؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٣٩ ، رقم ٨٢٧ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٧-٥٩ ، رقم ٢٣٥ .

(١٤٢) تمربغا الرومى الظاهرى جقمق ، وظل يترقى فى الوظائف حتى تولى السلطنة باسم الظاهر أبو سعيد تمربغا عام ٨٧٢هـ . ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٤ ، ص١٠٠-١٠٢ ، رقم ٧٨٤ ؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٢٣ ، رقم ٧٨٢؛ النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص٣٧٣-٣٩٣ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣، ورقة ٤٠-٤١ رقم مخطوط رقم ١٦٧ .

(١٤٣) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٠٦-٣٠٧ .

(١٤٤) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٠٧ .

(١٤٥) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٠٩ .

(١٤٦) البقاعى : إظهار العصر ، ج١ ، ص٣٤٠ .

(١٤٧) ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص٥١ ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق٢ ، ج١ ، ص١٧٠ .

(١٤٨) بنو حرام : بطن من جذام من القحطانية بالشرقية بنو حرام القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١ ، ص٣٣٣ ؛ نهاية الآرب فى أنساب العرب .

(١٤٩) بردبك الأشرفى اينال ملكه فى عام ٨٢٩هـ فرباه واعتقه وعمله خازنداره وزوجه ابنته الكبرى ثم دواداره ، فلما تسلطن عمله دوادارا ثالثا ، ثم نقله إلى الدواداريه فى سنة ٨٥٩هـ ، وتوفى عام ٨٦٨هـ . السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٤-٥ ، رقم ٢٠ .

(١٥٠) البقاعى : إظهار العصر وج٣ ، ص١٤٢-١٤٣ .

(١٥١) ابن الجيعان : التحفة ، ص١٢٠ ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ق٢ ، ج٢ ، ص٢٨٤ .

(١٥٢) على بن محمود بن محمد بن أبى بكر بن الجنيد بن شبلى بن الشيخ خضر بن عبدالملك بن عثمان ، ويعرف بالشريف الكردى ، ولد عام ٨٢١هـ ، وتولى مشيخة الخانقاه الناصرية بسرياقوس وكان بينه وبين الأشرف قايتباى صحبة قديمة ، مات بالقاهرة عام ٨٨٢هـ دفن بحوش خانقاة سعيد السعداء . البقاعى: عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران ، تحقيق حسن حبشى ، دار الكتب الوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦ ، ج٤ ، ص١٠٦-١٠٧ ، رقم ٣٩٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٦ ، ص٣٦-٣٨ ، رقم ١٠٤ .

(١٥٣) ابن الصيرفى : إنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص١٤١-١٤٢ .

(١٥٤) ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص١٤٢ .

(١٥٥) ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، ص١٤٢ – ١٤٣ .

(١٥٦) ابن الصيرفى : إنباء الهصر ، السخاوى : الذيل التام على دول الإسلام ، ج٢ ، ص٢٣١ .

(١٥٧) نيل الأمل ، ج٧ ، ص٣٦٩ .

(١٥٨) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٢٦٠ .

(١٥٩) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٢٦٠ ؛ البيومى إسماعيل الشربينى : مصادرة الأملاك ، ج٢ ، ص٢٠ .

(١٦٠) الأحكام السلطانية ، ص٨٦ .

(١٦١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص٢٥١ سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

(١٦٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١ ، ص٤٠ .

(١٦٣) صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٥٠ .

(١٦٤) السخاوى : التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة ، تحقيق طرابزونى الحسينى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ج٣ ، ص٧٠٧ ، رقم ٤٠٦٦ .

(١٦٥) الشعرانى ، لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، المطبعة العامرة العثمانية ، الاقهرة ، ١١١١هـ ، ص١٠١ .

(١٦٦) ابن الطرير : نزهة المقلتين ، ص١١٥ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج٤ ، ج١ ، ص١٤٦ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨١-٤٨٢ ، ج٤ ، ص٣٧-٣٨ .

(١٦٧) المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص١٩٣ .

(١٦٨) المقريزى : المقفى الكبير ، ج٥ ، ص٥٩٧-٥٩٨ ، رقم ٢١٤٨ ؛ ابن قاضى شهبة : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج١ ، ص٤٣٩ ، رقم ٤٢٠ .

(١٦٩) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، ج١ ، ص٤٤٠ ؛ الأسنوى : طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص٩٩؛ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٣٨٥ × البغدادى : هدية العارفين ، ج١ ، ص٥١٥ .

(١٧٠) المقريزى : المقفى الكبير ، ج١، ص٥٨٧ ؛ البغدادى : هداية العارفين ، ج١ ، ص٥٣ .

(١٧١) الحسينى : ذيل العبر ، ص١٧٢ .

(١٧٢) ابن قاضى شهبة : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج٢ ، ص١١٢ .

(١٧٣) تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج٢ ، ج٣ ، ص١٠٨ .

(١٧٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٢ .

(١٧٥) السخاوى : وجيز الكلام ، ج١ ، ص٨٩ .

(١٧٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص١٥٣ .

(١٧٧) زيترستين : تاريخ سلاطين المماليك، ص١٩٧ ، ٢١٧؛ الصفدى : أعيان العصر ، ج٣ ، ص٣٣٤ ، رقم ١١٤٩؛ المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص٤٤٤ ، ٤٨٩ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ؛ ج٣ ، ص٣٢ ؛ ابن حجر الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٤١ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج٣ ، ص٢٠٠ ؛ سهام أبو زيد الحسبة فى مصر الإسلامية ، ص٢٧٦؛

Abd ar – Raziq (Ahmad), "La Hisba et le muhtasib en Egypte au temps des Mamluks "an isl. XIII, le Caire, 1977, p. 140.

(١٧٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٦ ، ٢٧١ ، ٣٣٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٦ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١، ص٢٢٤؛

Abd ar – Raziq (Ahmad), "La Hisba et le muhtasib en Egypte au temps des Mamluks "an isl. XIII, le Caire, 1978 p. 131, No .10.

(١٧٩) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٨٧ ، ٣٩٥؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٢١١ .

(١٨٠) من الوظائف الدينية ، وهى وظيفة جليلة قديمة من زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع قضاة القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٦ .

(١٨١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٣٦؛ ابن أيبك الصفدى ، الوافى ، ج٣، ص١٧ ، رقم ٨٧٧؛

الأسنوى ، طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص٩٩ ، رقم ٨٤٥؛ المقريزى ، المقفى ، ج٥ ، ص٥٩٧ ؛ ابن القاضى شهبه ، طبقات الفقهاء الشافعية ، ج١ ، ص٤٣٩ .

(١٨٢) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٧١؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج١ ، ص٣٤٨ .

(١٨٣) مشيخة الشيوخ : وهى من الوظائف الدينية التى لامجلس لها بالحضرة السلطانية . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٨ . وكانت تطلق منذ العصر الأيوبى على من يتولى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ، حتى عام ٧٢٥هـ عندما بنى السلطان المملوكى الناصر محمد قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فأصبح يطلق على من يتولى مشيختها شيخ الشيوخ . عبد الرحمن أبو راس : شيخ الشيوخ بالديار المصرية فى الدولتين الأيوبية والمملوكية ، دراسة تاريخية حضارية ، عالم الفكر ، ١٩٨٧ ، ص٥٨ وما بعدها .

(١٨٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٩٤ .

(١٨٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٤٤ .

(١٨٦) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج٩ ، ج١ ، ص١٩٩ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٩٤ .

(١٨٧) النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٣٣٨ .

(١٨٨) بدائع الزهور ، ج٢ ، ص١٢٨ .

عن هذا الوباء انظر :- المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٨٢١-٨٢٦؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص٨٧٣؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٣٣٧-٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ج١٥ ، ص١٥٦ ؛ العينى : عقد الجمان، حوادث عام ٨٣٣هـ ، ص٣٨١ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٣ ، ص١٨٦-١٨٧ ، ٢٠١-٢٠٢ ؛ إبراهيم على طرخان مصر : مصر فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص٢٥٤ ؛ حامد زيان : الأزمات الاقتصادية فى مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٧٦، ص٩٨ ؛

Darrage (Ahmad) , L'Egypte Sous Barsbay , Damas , 1961 , p. 5 "The Second Plague pandemic and its recurrences in Middle East " , JESHO, vol . 22 , 1979 , pp 162-189 .

(١٨٩) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٨٢٨ ح ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ، ص٤٣٨ .

(١٩٠) نزهة النفوس ، ج٣ ، ص١٩١ . لطفى أحمد سيد : وسائل الترفيه ، ص٤٥-٤٦ .

(١٩١) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٨؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ، ص٣١٤ ، رقم ٨٤١؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى ، مج٢ ، ص١٠٨ ؛ السخاوى : وجيز الكلام ، ج١ ، ص٢٢٧-٢٢٨ .

(١٩٢) تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٢١٢ .

(١٩٣) رقية بنت على أبى طالب قدمت مصر بعد كربلاء ومسجدها يعرف بجامع شجر الدر على يسار الطالب للسيدة نفيسة وقد بنت هذا المشهد السيدة علم الأمرية أم ابنه الآمر بأحكام الله الفاطمى عام ٥٣٣هـ ١١٣٨م وذكر هذا المشهد على مبارك ضمن التكايا . أنظر :- ابن عبد الظاهر ، الروضة البهية ، ص٩٣-٩٤؛ المقريزى ، الخطط ، ج٤ ، ص٤٢٣ ؛ الشلبجى ، نور الأبصار ، ص٢٩٠-٢٩١ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص١٦٠ ؛ سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ج٢ ، ص١٢٦-١٣٠ .

(١٩٤) نفيسه بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب توفيت بمصر عام ٢٠٩هـ / انظر :- ابن زولاق، فضائل مصر ، ٤٨ ، ٤٣؛ السخاوى ، تحفة الأحباب ، ص١٠٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج٤ ، ص٣١٣؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج١ ، ص٥١١ ؛ ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص١٩٣ .

(١٩٥) المقريزى ، السلوك ، ج٤ ، ص١٢٢٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٣٤٨ ؛ ابن الصيرفى نزهة النفوس والأبدان ، ج٤ ، ص٢١٦ .

(١٩٦) جامع الفاكهيين ويعرف بجامع الظافر والجامع الأفخر عمره الخليفة الفاطمى الظافر بنصر الله أبو منصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله عام ٥٤٣هـ / ١١٤٥م ، ويقع بسوق السراجين . أنظر :- ابن عبد الظاهر الروضة البهية الزاهرة ، ص٧٤؛ المقريزى ، الخطط ، ج٤ ، ص٨٠-٨١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٢٢٣؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٥ ، ص١٥٦-١٥٧ انظر أيضا حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الآثرية ، ج١ ، ص٧٤ .

(١٩٧) جامع الفخر أنشاء فخر الدين محمد بن فضل الله العمرى ، ناظر الجيش المتوفى عام ٧٢هـ / ١٣٢م، بناحيد بولاق ، وكان يعرف مكانه بخط الكيالة وهو مكان يؤخذ فيه مكس الغلال المبتاعة أنظر : المقريزى ، الخطط ج٤ ، ص١٠٩ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٥ ، ص١٥٧-١٠٩ .

(١٩٨) أنشأ هذا الجامع محمد بن صارم ويقع بناحية بقلاق فيما بين بولاق وباب البحر . أنظر :- المقريزى ، الخطط ج٤، ص١٣٢ .

(١٩٩) النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٣٦ ، ج٣٠ ، ص١٤٥-١٤١ ؛ الذهبى : تاريخ الاسلام ، حوادث عام ٦٥٠ ؛ ابن أيبك الصفدى : الوافى ، ج٣ ، ص١٧ ، رقم ٨٧٧؛ الإسنوى : طبقات الشافعية ،

ج٢، ص١٥٢ ، رقم ٤٢٠ ؛ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٢٣٠، ٢٢٣ ، ٣٠٦ ، ٣٨٥ ؛ الخطط ، ج٤، ص١٩٣ ؛ المقفى الكبير ، ج٥ ، ص٥٩٧-٥٩٨ ، رقم ٢١٤٨، ابن قاضى شهبه : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج١، ص٤٩-٤٤٠، رقم ٤٢٠ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج١ ، ص٧٦؛ ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ، ج٢ ، ص٦١٦ .

(٢٠٠) سبط ابن الجوزى : ذيل مرآة الزمان ، ج٢، ص٣٥٥ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج١، ص٤٠-٤١ .

(٢٠١) ابن أيبك الصفدى : الوافى ، ج٨ ، ص٤٤ ، رقم ٣٤٤٩ ؛ أعيان العصر وأعوان النصر ، ج١ ، ص٩٢؛ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٨٣١ ولكنه يذكر وفاته عام ٦٩٦ هـ المقفى الكبير ، ج١ ، ص٥٨٦ ، رقم ٥٦٧ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج٣، ص٣٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٢ ، ص١١٩-١٢٠، رقم ٢٧٤؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٧٨، رقم ٢٧٢ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٤٣٠ ؛ محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، مج٤ ، ص٤٧ .

(٢٠٢) المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص١٤ ؛ درر العقود الفريدة ، ج٢ ، ص٤٦١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص٢١٤ . ولكنه يذكر وفاته فى ١٩ شوال عام ٧٠هـ .

(٢٠٣) يذكر ابن حجر أنه ولد عام ٦٩٦ هـ وهذا خطا وغير مقبول إذا أن أبيه توفى فى العام السابق ، وكيف يتولى النقابة ولديه ثمان سنوات وهذا غير معقول الدرر الكامنة ج٢ ، ص٩ .

(٢٠٤) ابن رافع السلامى : الوفيات ، ج٢ ، ص٤٢٦؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج٣٣ ، ص١٨؛ ابن قاضى شهبه : تاريخ ابن قاضى شهبه ، تحقيق عرتان درويش ، مج ١ ، ج٢ ، ص٣٢٥ .

(٢٠٥) المقريزى : درر العقود المفيدة ، ج٢، ص٤٦١-٤٦٢، رقم ٧٨٠ ، ابن أيبك الصفدى : الوافى ، ج٣، ص٣٣٤- ٣٣٥ ، رقم ١١٤٩ ؛ الحسينى : ذيل العبر ، ص١٧٢؛ ابن رافع السلامى : الوفيات ، ج١، ص٣٣٥ ، رقم ٦٩٢ ؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١٠، ص١٧؛ زيترسين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص١٩٧، ٢١٧؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣، ص٥؛ المقريزى : السلوك ، ج٢، ص٤٤٤، ٨٨٩ ، ٨٨٨، ٤٨٩، السخاوى : وجيز الكلام ، ج١ ، ص٨٩؛ ابن حبيب : تذكر النبيه ، ج٣، ص٢٠٠ ؛ درة الأسلاك ، ص٣٩٨؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٠، ص٣٢٢ ؛ ابن قاضى شهبه : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج٢ ، ص١١٢-١١٣ ، رقم ٥٩٩ ؛ تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج ٢ ، ص٣ ، ص١٠٨ ؛ سهام أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية ، ص٢٧٩؛

Abdar - Raziq, "La Hisba et le muhtasib en Egypte au temps des Mamluks" An. Isl. . XIII, 1977, p. 140

(٢٠٦) ابن رافع السلامى : كتاب الوفيات ، ص٢٤٢-٢٤٣ ، رقم ٧٥٨ ؛ العراقى : الذيل على العبر ، ص٦٩-٧٠؛ ابن حبيب : تذكر النبيه ، ج٣ ، ص٢٤٣-٢٤٤؛ ابن فهد المكى: لحظ الألحاظ ، ص١١؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٦٩ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢، ص١٥٣-١٥٥، رقم ١٦١١؛ ابن قاضى شهبه : تاريخ ابن قاضى شهبه ، مج ٢ ج٢ / ص١٩٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١، ص١٠ ؛ المنهل الصافى ، ج٥، ص١٦٩-١٧٠، رقم ٩٥٥؛ الدليل الشافى ، ج١ ، ص٢٧٦ ، رقم ٩٥٢؛ السخاوى : وجيز الكلام ،ج١، ص١١٩ .

(٢٠٧) العراقى : ذيل العبر ، ج١ ، ص١٠٨-١٠٩ ؛ ابن قاضى شهبة : مج٢ ، ج٣، ص٢١٢ . ويذكر كل من المقريزى والسخاوى شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بدلا من الحسين . المقريزى : السلوك، ج٣ ، ص٧٨؛ السخاوى : وجيز الكلام، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨ .

(٢٠٨) تاريخ ابن قاضى شهبة، مج٢، ج٣ ، ص٤١٣ .

(٢٠٩) العراقى : ذيل العبر ، ج٢ ، ص٣٤٥ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٦-٢٠٧ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ، ج٢ ، ص٤١٣ .

ويذكر ابن حجر أنه تولى النقابة فى ٩ شوال . إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥ ؛ فى حين يذكر ابن إياس أنه تولى النقابة فى ١٩ رمضان . بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١١٤ .

(٢١٠) العراقى : ذيل العبر ، ج٢ ص٣٤٥ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٠٧؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٣٥؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٤١٤ .

(٢١١) العراقى : ذيل العبر ، ج٢، ص٤٣٩-٤٤٠ ؛ المقريزى / السلوك ، ج ، ص٣٠٠ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٧٤٥ح ابن قاضى شهبة : تاريخ قاضى شهبة ، مج ٢ ، ص٥٣٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٩٨ .

(٢١٢) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٢٦٩ ح ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص١٦٩ .

(٢١٣) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٧٢ ؛ ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ، مج ٢ ، ج٣ ، ص٥٧٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق٢ ، ص٢٢٨ .

(٢١٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٣٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٧٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج١ ، ق٢، ص٢٢٨ .

(٢١٥) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٤٠٦ ، ٣٧٧ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق٢ ، ص٢٨٠-٢٥٣.

(٢١٦) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٣٧٧ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ص٢٥٣ .

(٢١٧) المقريزى : السلوك ، ج، ص٤٥٦ .

(٢١٨) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٦٣٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق٢، ص٢٩٧ .

(٢١٩) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٦٣٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١، ص٢٢٧ .

(٢٢٠) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج ٩ ، ج١ ، ص١٠٨ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣، ص٦٣٣ ؛العينى : عقد الجمان ، حوادث عام ٧٩١هـ ، ص٢٤٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٢٢٧ .

(٢٢١) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٧٠٧ ؛ ابن حجر : إنباء الغمرو ج١ ، ص٣٩٥ ؛ ابن الصرفى : نزهة النفوس، ج١ ، ص٢٩٧ .

(٢٢٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، مج٩ ، ج١ ، ص٢٠١ ؛ المقريزى : السلوك ، ج٣، ص٧٠٧ ؛ ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١، ص٣٩٥ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١، ص٢٩٧ .

(٢٢٣) ذكر كل من العينى وابن الصيرفى أنه توفى فى أوائل ذى القعدة عقد الجمان ، حوادث عام ٨٠٠هـ ، ص٤٦٢ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٤٧٩ . أما المقريزى وابن تغرى بردى فذكر أن وفاته فى ١٤ ذو القعدة . السلوك ، ج٣ ، ص٩١١ ، النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص١٦٢ . وذكر ابن حجر أن وفاته فى ١٢ ذو القعدة إنباء الغمر، ج٢ ، ص٢٦ ، ١٥ ؛ أما ابن إياس فيذكر وفاته فى شوال . بدائع الزهور ، ج١، ق٢، ص٥٠٠ .

(٢٢٤) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٩٠٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ص٤٦٤ . فى حين يذكر ابن حجر أنه توفى فى ١٢ ذو القعدة . إنباء الغمر ، ج٢ ، ص١٥ .

(٢٢٥) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٤٧٢ ؛ درر العقود ، ج٢، ص٤٦٣ ، رقم ٧٨٣ ؛ ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٣، ص١٨٤؛ ذيل الدرر الكامنة ، ص٢٦٣، رقم ٤٩٥ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ،ج٨ ، ص٣٩، رقم ١٥٦٠ ؛ الدليل الشافى ، ج١، ص٤٤٩ ، رقم ١٥٥٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص١٤٩؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٢ ، ص٤٣٢ ؛ السخاوى : الضوء ، ج٥، ص١٧٢ ، رقم ٥٩٤ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل ، ج٤ ، ص١٢؛ فى حين يذكر العينى وفاته فى ١٨ ربيع الأول ، حوادث عام ٨٢١هـ ، ص٣٩ .

(٢٢٦) المقريزى : السلوك ، ج٤، ص٤٤٠ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص١٥٨ ؛ السخاوى : الضوء ، ج٣، ص١٠٥ ، رقم ٤٢٠ .

(٢٢٧) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص١٢١٣ ؛ الصيرفى : نزهة النفوس ، ج٤، ص٢٠٥ .

(٢٢٨) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، ج١ ، ص١٥٢ ، ١٧؛ المنهل الصافى ،ج٨ ، ص٤٠ ؛ السخاوى : الضوء ، ج ، ص١٠٥ .

(٢٢٩) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص١٢١٣ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٤، ص٢٠٥ ؛ السخاوى: الضوء ، ج٣، ص١٨ ، رقم ٥٤٧ ؛ وجيز الكلام ، ج٣ ، ص٩١٤ ؛ الذيل التام ، ج٢ ، ص٣٣٧-٣٣٨ ؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل ،ج٧ ، ص٢٧٥ .

(٢٣٠) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٣٨ ، رقم ٥٤٧ ؛ وجيز الكلام ، ج٣، ص٩١٤ ؛ الذيل التام ، ج٢ ، ص٣٣٨؛ عبد الباسط بن خليل : نيل الأمل ،ج٨ ، ص١٦٩ .

(٢٣١) وثيقة وقف رقم ٢٣١ ملف ٢٦ ، دار الوثائق القومية بالقاهرة : انظر محمد محمد أمين : فهرست وثائق القاهرة ، ص.

(٢٣٢) وثيقة رقم ٣٧٠ج أرشيف وزارة الأوقاف بتاريخ ٥ ذو الحجة ٩٠٩هـ . وثيقة رقم ٥٥٣ج أرشيف وزارة الأوقاف بتاريخ ١٨ رجب ٩١٤ هـ انظر: محمد محمد أمين : فهرست القاهرة ، ص٢٥١-٢٥٢ .

د. حاتم عبدالرحمن الطحاوى(*)

العثمانيون و المغول فى مذكرات أسير الحرب

يوهان شيلتبرجر ١٣٩٦-١٤٢٧م

تناولت العديد من المصادر التاريخية المعاصرة أحداث تاريخ كل من العثمانيين و المغول. على أن ما رواه الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر Johan Schiltberger فى مذكراته [١]، يعد فى غاية الأهمية بسبب وقوعه فى الأسر لفترة جاوزت الثلاثين عاما ، جاب فيها العالمين العثمانى و المغولى معاً.

حدث ذلك بعد سقوطه فى أسر القوات العثمانية على إثر موقعة نيقوبوليس Nicopolis ١٣٩٦م [٢]، التى دارت بين السلطان العثمانى بايزيد الأول Beyazit I (الصاعقة Yildrem) . و بين القوى الأوربية المسيحية بقيادة ملك المجر سيجموند Sigmond . فمكث بعدها فى خدمة السلطان العثمانى حتى هزيمته أمام العاهل المغولى تيمورلنك Timur Lenk فى موقعة أنقرة ١٤٠٢م [٣] . ليدخل شيلتبرجر بعدها فى طور جديد من أطوار الأسر والعبودية، عبر التحاقه بخدمة تيمور، حتى وفاة الأخير فى فبراير ١٤٠٥م.

بعد ذلك انتقل للعمل فى خدمة شاه رخ ،ثم إلى خدمة ابنه أبى بكر ، الذى قام بإرساله للعمل والخدمة لدى حكام مغول القبيلة الذهبية .

---

* الأستاذ المساعد بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الزقازيق

حدث هذا قبل أن يتمكن شيلتبرجر من الهرب و التخلص من ربقة الأسر و العبودية ، بعد نجاحه فى العودة إلى وطنه ألمانيا عام ١٤٢٧م.

و هكذا عاش أسيرنا البافارى أكثر من ثلاثين عاماً ، هى مدة الأسر ، فى كنف السلطتين العثمانية و المغولية . الأمر الذى جعل روايته عن الأحداث السياسية و العسكرية التى عاصرها خلال تلك الأعوام ،تحمل خصوصية و مصداقية إلى حد كبير عن باقى الروايات التاريخية المتعلقة بالعثمانيين و المغول خلال فترة البحث ، على الرغم من تشوشها فى بعض الأحيان .

حكى شيلتبرجر فى مذكراته – التى أملاها بعد عودته إلى بلاده – عن العديد من الأحداث التى عاصرها ، و كان شاهد عيان عليها لدى العثمانيين و المغول ، و كذا عند المماليك و الأرمن أيضاً ، الذين ساقته الظروف إلى بلادهم و مكث بها فترات معينة .

و بالإضافة إلى ذلك ، فقد تناول العديد من الأحداث و القصص و الأخبار الأسطورية التى سمع عنها و لم يشهدها بنفسه .

و يمكن القول دون مبالغة ، أن ما رواه الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر فى مذكراته يعد مصدراً أصيلاً مليئاً بالحوادث التاريخية . فلم يهتم فقط بذكر الأحداث السياسية العسكرية التى عاصرها ، بل قام برصد العادات الاجتماعية للشعوب التى عاش لسنوات فى كنفها ، فضلا عن مناخاتها الثقافية و الدينية . و هو الأمر الذى يجعلنا نذكر أنه يمكن إدراج مشاهداته ورواياته ضمن إطار ما يمكن تسميته بالأنثروبولوجيا الثقافية للعصور الوسطى.

وسوف يهتم هذا البحث بالتركيز على الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية والأنثروبولوجية التى تناولها فى المجتمعين العثمانى والمغولى إبان فترة الأسر ،دون التطرق إلى رؤيته وانطباعاته عن الدين الإسلامى والمسلمين، وهو مايستحق أن نفرد له بحثا منفصلا .

غادر يوهان شيلتبرجر منزله القريب من مدينة ميونخ عام ١٣٩٤م ، برفقة سيده الألمانى ،الأمير لينهارت ريتشارتنجر Leinhart Richartinger [٤]، بهدف محاربة الأتراك العثمانيين استجابة لمناشدة الملك المجرى سيجموند الذى زحف بجيش يتألف من آلاف المجريين والبلغار، فضلاً عن مئات الفرسان الفرنسيين و الإنجليز، عبر المنطقة المعروفة باسم البوابة الحديدية Iron Gate [٥] ، قبل أن يعبر نهر الدانوب و يستولى على مدينة بودم Pudem عاصمة بلغاريا من قبضة العثمانيين ، متخذا طريقه لضرب حصار بحرى و برى ، استمر لستة عشر يوماً حول مدينة نيقوبوليس [٦].

رصد شيلتبرجر وصول السلطان العثمانى بايزيد لإنقاذ المدينة و مواجهة سيجموند ، كما رصد الاستعدادات المسيحية لمواجهة العثمانيين . من ذلك تقدم سيجموند لمسافة ميل واحد عن المدينة لمواجهة بايزيد ، و سماحه لدوق والاشيا Werterwaywod باستطلاع أحوال الجيش العثمانى ، الذى عاد ليبلغ الملك بأنه شاهد عشرين راية تضم كل منها عشرة آلاف رجل (٧) .

و هو نفس العدد الذى قرره المؤرخ فرواسار Froissart الذى ذكر بأن أعداد المحاربين العثمانيين بلغ مائتى ألف مقاتل (٨) ،و بينما ذكر أيضاً أن قوات الملك سيجموند تألفت من ٣٠ ألف مقاتل بالإضافة إلى ٧٠٠ فارس فرنسى ،فإن شيلتبرجر ذكر وجود ١٦ ألف مقاتل كانوا مع سيجموند بالإضافة إلى ٦ آلاف مقاتل فرنسى مع دوق بورجنى (٩).

على أن شيلتبرجر ، ربما بسبب صغر سنه ، فضلا عن خلفيته العسكرية المتواضعة ، ودوره كتابع لسيده ، لم يذكر لنا بالتفصيل أسلوب الجيش العثمانى فى إدارة المعركة . على حين ذكر فرواسار أن بايزيد قام بتنظيم جيشه على هيئة أجنحة ، بحيث كانت تتقدمه فرقة مؤلفة من ثمانية آلاف جندى ، و بمجرد أن اقترب الجيش المسيحى ، قامت تلك الفرقة باستدراجه ، و حينها انقض آلاف الجنود العثمانيين من الجناحين عليها ، حتى حلت الهزيمة بجيش سيجموند (١٠).

على أية حال ، يبدو أن الأمير الألمانى لينهارت ريتشارتنجر و برفقته تابعه شيلتبرجر ، كانا قريبين من الملك سيجموند و كبار القادة المسيحيين ، إذ ذكر شيلتبرجر أن دوق والاشيا أراد أن يكون البادىء بالهجوم على الجيش العثمانى ، غير أن دوق بورجنى de coucy ناشد الملك المجرى أن يبدأ هو بالقتال (١١). على حين كان سيجموند يرى أن يبدأ المجريون القتال أولاً مع العثمانيين لسابق معرفتهم بأساليب قتالهم (١٢) . وعلى الرغم من ذلك اندفع دوق بورجنى لمحاربة العثمانيين ، الذين تمكنوا من إيقاع الهزيمة به بعد حصاره و إجباره على الاستسلام (١٣).

عندما شاهد الملك المجرى ما حدث ، حمل على الجيش العثمانى ، غير أنه أجبر على الانسحاب . و عندما حلت الكارثة بالجيش المسيحى فى نيقوبوليس ، فر سيجموند إلى نهر الدانوب ، حيث نجح فى الهرب على متن سفينة حملته حتى وصل إلى القسطنطينية (١٤). بينما قتل العثمانيون الآلاف من الجنود المسيحيين الفارين من المعركة . فضلاً عن غرق المئات منهم إبان محاولتهم الهرب عبر نهر الدانوب (١٥).

و لأن التابع شيلتبرجر كان قريباً من سيده الألمانى لينهارت فى ميدان المعركة ، فلم يفته أن

يشير إلى إصابة حصان سيده بسهم قاتل ، الأمر الذى أوجب عليه ضرورة تقديم حصانه إليه ، قبل أن يعود إلى موقعه مع الأتباع الآخرين .حدث هذا قبل أن تسفر المعركة عن مصرع سيده الألمانى فى النهاية [١٦] .

و نتيجة للهزيمة الساحقة التى حلت بجيش الملك سيجموند و القوى الأوربية المسيحية فى موقعة نيقوبوليس ١٣٩٦م ، فقد سقط الآلاف من الجنود المسيحيين فى أسر القوات العثمانية ، إلى جانب العشرات أيضاً من النبلاء الفرنسيين [١٧] .

وعلى الرغم من إشارة شيلتبرجر إلى رغبة السلطان العثمانى بايزيد فى قتل جميع الأسرى لولا تدخل دوق بورجنى الذى توسل للسلطان من أجل بقاء العديد من النبلاء الفرنسيين الذين يعرفهم ، و هو ما حدث بالفعل [١٨] . فإنه لم يشر إلى ما أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة كفرواسار و دوكاس من أن تدخل دوق بورجنى جعل العثمانيين يدركون أهمية العشرات من الأسرى الفرنسيين ، و هو ما جعلهم يوقفون عمليات القتل ،من أجل الحصول على فديات ضخمة مقابل إطلاق سراحهم ، بينما تم قتل باقى الجنود العاديين [١٩] .

و الحقيقة أن الأسرى من النبلاء الفرنسيين فى موقعة نيقوبوليس كانوا يرتدون ملابس فاخرة ميزتهم عن باقى الجنود ، فتمت المحافظة على حياتهم بواسطة العثمانيين التواقين إلى الحصول على أموال طائلة [٢٠] .

و لكى يتأكد السلطان العثمانى بايزيد بنفسه من هويتهم ، قام بإطلاق سراح الفارس الفرنسى جاك دى كريك Jacques de Crequy ، سير هيللى Sire de Heilly ، الذى يجيد اللغة العثمانية - بفضل عمله من قبل فى خدمة السلطان العثمانى قبل العودة لمحاربة العثمانيين فى نيقوبوليس - من أجل التعرف على شخصيات النبلاء الفرنسيين .

و هو الأمر الذى حدث بالفعل ، إذ عاد دى كريك ليخبره بأنهم من أعلى الطبقات الاجتماعية فى فرنسا .ومن جانب آخر فإن النبلاء ناشدوه أيضاً إخبار السلطان بأنهم يستطيعون دفع فديات عالية مقابل الحفاظ على حياتهم [٢١].

و على الرغم من سقوط شيلتبرجر فى الأسر العثمانى لست سنوات تالية حتى العام ١٤٠٢م ، فضلا عن قربه من البلاط العثمانى ، فإنه لم يشر أيضاً إلى المفاوضات التى جرت بين السلطان بايزيد و القوى الأوربية من أجل افتداء أسرى نيقوبوليس .

إذ أنه بات من المعروف أن بايزيد قد أطلق سراح الفارس جاك دى كريك فى الصباح التالى للمعركة حتى يرحل لمقابلة ملك فرنسا ، حيث وصل إلى باريس ليلة عيد الميلاد عام ١٣٩٦م . وبعد مفاوضات طويلة تم دفع الفدية التى تم تحديدها أولاً بمليون فرنك ، ثم مائتى ألف فلورين، بعد أخذ تعهد عليهم بالإقامة فى مدينة البندقية حتى استكمال دفع الفدية التى وصلت فى النهاية إلى مائة وإثنين و سبعين ألف فلورين ، تم دفعها فى شهر فبراير من العام ١٣٩٧م ،ليتم تحرير الأسرى بعد ذلك فى شهر يونيه من نفس العام (٢٣).

و هناك مثال آخر على عدم اهتمام شيلتبرجر بذكر و متابعة أحوال الأسرى من النبلاء الفرنسيين الذين جرى تحريرهم ، فقد أغفل تماما الإشارة إلى وجود النبيل الفرنسى الشهير المارشال بوسيكيو Bouciquoi ، ضمن الأسرى الذين عرضوا عراة الصدور أمام السلطان العثمانى (٢٤)، و كان من المفروض أن يتم إعدامه كالأسرى الباقين .

غير أنه بمجرد أن رآه إيرل نافار ، توجه مباشرة للسلطان العثمانى وخر ساجداً أمامه، متوسلاً إرجاء تنفيذ حكم الإعدام فى بوسيكيو ، بوصفه فارساً عظيم الشأن فى فرنسا ، و أن السلطان يستطيع أن يجلب من وراء إطلاق سراحه فدية كبيرة . و هكذا استجاب بايزيد لطلبه ، لينتقل بوسيكيو بعدها للجلوس وسط النبلاء الفرنسيين الذين تم إنقاذ حياتهم (٢٥).

و تنبع أهمية إطلاق سراح النبيل بوسيكيو من كونه لعب دوراً خطيراً ضد العثمانيين فيما بعد ، إبان حصار السلطان العثمانى بايزيد للقسطنطينية ١٣٩٦- ١٤٠٢م ، فقد أرسله الملك الفرنسى شارل السادس Charles VI (١٣٨٢ -١٤٢٢م) لمساعدة الامبراطور البيزنطى مانويل باليولوغس Manuel Palaelogus (١٣٩١- ١٤٢٥م) ضد العثمانيين .

و بالفعل نجح المارشال بوسيكيو فى كسر طوق الحصار البحرى الذى فرضه العثمانيون على القسطنطينية ،كما نجح فى التسلل إليها ليقود عمليات دفاع ناجحة عن المدينة ، وهو ما ساهم فى إفشال الحصار الذى قام به السلطان بايزيد (٢٦).

و بعيداً عن النبلاء الفرنسيين الذين تم حصرهم وتسجيلهم من أجل الحصول على فديات عالية مقابل إطلاق سراحهم ،فإن الإتجاه الغالب لدى العثمانيين ،كان قتل جميع الأسرى الباقين. حيث يذكر شيلتبرجر أن السلطان بايزيد أمر الجنود العثمانيين بعيد انتهاء المعركة ،بضرورة إحضار الأسرى الأوربيين الذين كانوا بحوزتهم وإعدامهم . و أنه كان حاسماً فى هذا الأمر لدرجة أنه كان يعين جندياً بديلاً للجندى الذى رغب عن قتل أسراه (٢٧) .

وهكذا تم جمع الأسرى الباقين عراة الصدور أمام السلطان العثمانى الذى أصدر أمره بإعدامهم جميعاً .

وصف شيلتبرجر عملية إراقة الدماء التى استمرت حسب كلماته " من الصباح حتى صلاة المساء (المغرب) حيث تم إعدام عشرة آلاف أسير " . واسترعى انتباهه أن ما حدث قد أثار عطف مستشارى السلطان بايزيد ، فتوسلوا إليه أن يوقف سفك الدماء ، و أن يكظم غضبه إرضاء لله ، حتى لا يحل عليه عقابه نتيجة كثرة الدماء التى أمر بإهراقها [٢٨].

و الحقيقة أن قيام السلطان العثمانى بايزيد بإعدام الأسرى الأوربيين فى نيقوبوليس كان بمثابة رد فعل على تصرف القوى الأوربية المسيحية ضد الأسرى المسلمين . بعد قيام الكونت دى نافار و ملك المجر بإعدام جميع الأسرى المسلمين بعيد سقوط راهوفا Rahova [٢٩]. و هو الأمر الذى أثار غضباً عارماً لدى السلطان بايزيد ، مما دفعه لاتخاذ ذلك التصرف ضد الأسرى المسيحيين .

ولم تكن تلك هى السابقة الوحيدة فى التاريخ الأوربى الوسيط ، فقد قام بعد ذلك الملك الإنجليزى هنرى الخامس Henri V (١٤١٣ - ١٤٢٢م) بإعدام الأسرى الفرنسيين لديه بعيد معركة أزينكور Azincourt ١٤١٥م .. [٣٠]

كما أشار شيلتبرجر أيضا إلى أن العرف الموجود لدى العثمانيين ، والقاضى بعدم إعدام الأسرى الذين يقل سنهم عن العشرين ، قد منحه الحياة . فقد كان لم يتجاوز السادسة عشر عاماً بعد ،وهو ما دعا ابن السلطان بايزيد لضمه حيث الصبية الآخرين ، فالتحق بحاشية السلطان العثمانى كخادم أو جندى مراسلة runner [٣١] .

غير أن بعض التشوش يدخل على حديث شيلتبرجر ، الذى يذكر أنه بعد استمراره فى عمله عبر العدو أمام السلطان لست سنوات ، فإنه قد أصبح جديراً بأن يركب جواداً لست سنوات أخرى [٣٢] . و هو ما يجافى الحقيقة لأنه بنهاية السنوات الست الأولى ، سقط شيلتبرجر فى أسر تيمورلنك بعد هزيمته للسلطان بايزيد فى موقعة أنقره ١٤٠٢م [٣٣].

على أية حال، تابع شيلتبرجر رحلته مع أسرى معركة نيقوبوليس الذين لم يتم إعدامهم ،فذكر أنه تم إرسالهم أولاً إلى مدينة أدرنه Adrianople ،ثم إلى مدينة غاليبولى Gallipolis [٣٤] .قبل أن يستقروا فى العاصمة العثمانية بورصا Brusa .

و اعترافا من السلطان العثمانى بايزيد يلدرم بفضل كبار السن من الأسرى ،جعل إقامتهم فى أدرنه داخل إحدى القلاع ، وفى بورصا فى أحد القصور ، قبل أن يتم نقلهم بعد ذلك إلى مدينة Mikaleditch (قراجابك Karacabey) [٣٥].

بعد ذلك أشار شيلتبرجر إلى عادة السلاطين العثمانيين فى إرسال الأسرى المسيحيين كهدايا ، تعبيرا عن النصر ،الى باقى الممالك الاسلامية . فذكر أن بايزيد أرسل ستينا من الأسرى للسلطان المملوكى الظاهر برقوق (١٣٩٠ - ١٣٩٩ م) بالقاهرة . و أنه كاد أن يرسل فى معية هؤلاء الأسرى ، لولا إصابته بجروح خطيرة فى معركة نيقوبوليس [٣٦]. ليدفع به القدر إلى حاشية السلطان العثمانى .

و لدينا مصدر تاريخى يتحدث عن وجود هؤلاء الأسرى فى مصر ، هو ما كتبه البندقى مانويل بيلوتى Emmanuel Piloti ، الذى أشار إلى إرسال العثمانيين لمائتين من أسرى نيقوبوليس للسلطان المملوكى . و أنه رأى بنفسه أولئك الأسرى من الفرنسيين و الايطاليين وغيرهم . و حسب كلماته " ... لقد رأيتهم جميعاً فى قصر السلطان بالقاهرة ، و تحدثت معهم و كانوا جميعاً من الشبان حسنى الخلقة ،الذين تم اختيارهم بعناية" [٣٧] .

على أن جين ريتشارد J. Richard يرى أنه من الضرورى أن نصدق رواية شيلتبرجر حول إرسال السلطان العثمانى لستين صبياً فقط إلى البلاط المملوكى فى القاهرة ، و أن الباقين الذين شاهدهم بيلوتى إنما كانوا من المماليك الآخرين للسلطان الظاهر برقوق [٣٨].

ويبدو هذا منطقيا فى ظل شهادة شيلتبرجر ، وبفضل معرفتنا بوجود العديد من الأسرى الأوربيين فى البلاط المملوكى.

بعد أن استقر شيلتبرجر فى حاشية السلطان بايزيد بدأ فى رصد التطورات السياسية و العسكرية للعثمانيين . فأشار إلى ما حدث فى العام التالى لأسره من صراع ما بين السلطان بايزيد و صهره علاء الدين القرمانى انتهى بمقتل الأخير بعد موقعة أق جاى Ak Schay عام ١٣٩٧م [٣٩].

و على الرغم من تعرضه لتفصيلات عديدة فان شيلتبرجر لم يتناول جوهر الصراع بين العثمانيين و القرمانيين الذى بدأ قبل ذلك منذ وقت بعيد . فقد ورث القرمانيون سلاجقة قونية فى الوقت الذى حاول فيه العثمانيون إقامة نظام حكم مركزى خاضع لهم فى الأناضول . و هو ما دفعهم إلى الإطاحة بكافة الأسر التركمانية الحاكمة [٤٠].

و هكذا فإن تقاطع الأحداث بين العثمانيين و القرمانيين كان قد ساهم فى نشأة الصراع بينهما منذ عهد السلطان العثمانى مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩م) ، حيث استغل علاء الدين القرمانى إنشغال السلطان مراد بتقوية جبهته الأوربية وقام بالاستيلاء على بعض الأقاليم التابعة للعثمانيين فى الأناضول . فما كان من السلطان مراد سوى العودة وحصار علاء الدين القرمانى فى قونية ،قبل أن يلتقى الجيشان فى معركة Efrank – Yazisi عام ١٣٧٨م، حيث دان النصر للعثمانيين ، وهو ما دفع علاء الدين للتفاوض مع حميه مراد الأول، الذى وافق على الصلح[٤١].

وبعد مصرع السلطان مراد الأول فى موقعة كوسوفو الأولى ١٣٨٩م ،قام علاء الدين بمحاولة جديدة لتقويض Travels" ، pp.8-9 و القرمانيين ساهم فى نشأة الصراع بينهما منذ عهد السلطان العثمانى مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩م)ماالسلطة العثمانية المركزية فى الأناضول ، فاستغل انشغال السلطان بايزيد بن مراد بحصار مدينة القسطنطينية ليقوم بالإستيلاء على مدينة أنقرة Angora عام ١٣٩٧ م، و أسر أميرها تيمور طاش Timur Tas . و هو ما دفع بايزيد إلى الرحيل عن أسوار القسطنطينية والعودة مسرعاً إلى عاصمته بورصا من أجل حمايتها و الاستعداد لملاقاة القرمانيين .

خشى علاء الدين القرمانى من عواقب مواجهة العثمانيين . فأرسل سفارة لتهدئة السلطان بايزيد، و زيادة فى إبداء الود قام باطلاق سراح تيمور طاش . غير أن السلطان العثمانى كان قد اتخذ قراره بالحرب . وبالفعل نجح العثمانيون فى هزيمة القرمانيين فى السهل المواجه لمدينة قونية ، مما دفع علاء الدين إلى الهرب إليها .

و بعد حصار دام عدة أسابيع ، إستولى العثمانيون على المدينة و قاموا بأسر علاء الدين القرمانى ، ليأمر تيمور طاش أمير أنقرة بقتله بسرعة ، قبيل وصول السلطان بايزيد .

و يذكر شيلتبرجر رواية غير دقيقة عن مقتل علاء الدين القرمانى ، مفادها أن بايزيد غضب بشدة لمقتل صهره ، وأمر بقتل من قام بذلك . غير أن ذلك لا يتسق مع حديثه بعيد ذلك ، وكذا أمره ، بأن ترفع رأس علاء الدين القرمانى على رمح ليطاف بها فى باقى أنحاء البلاد[٤٢] .

و تابع شيلتبرجر خضوع مدينة قونيه للسلطان بايزيد ، و خروج أخته وولديها لمقابلته ،وقراره بإرسالهم إلى العاصمة العثمانية بورصا.

و ما لم يشر إليه شيلتبرجر ، و ربما كان ذلك بسبب انتقاله إلى الأسر المغولى ، أن هذه المعركة لم تقض تماماً على القرمانيين ، بل أنهم نجحوا بعد ذلك فى استغلال هزيمة بايزيد فى موقعة أنقره ليعلنوا تحالفهم مع تيمورلنك من أجل استعادة ممتلكاتهم السابقة من قبضة العثمانيين، خاصة بعد قيام تيمورلنك بالإفراج عن ولدى علاء الدين القرمانى وتثبيتهما على إمارة قرمان ، بعد أن طلب منهما إعلان التبعية السياسية له عبر إقامة الخطبة وضرب السكة باسمه [٤٣].

عرج شيلتبرجر بعد ذلك إلى الإشارة إلى العلاقات العثمانية المملوكية ، فجاءت رواياته متفقة مع العديد من المصادر المملوكية التى تحدثت عن اجتياح السلطان العثمانى بايزيد لمدينة ملطية التابعة للمماليك ١٣٩٩م . فذكر إرسال السلطان بايزيد رسالة للسلطان برقوق يأمره فيها بتسليم ملطية بوصفها من ممتلكات العثمانيين . و إزاء رفض السلطان المملوكى لذلك ، توجه إليها مع مائتى ألف مقاتل ، لتسقط المدينة بعد حصار دام شهرين [٤٤].

ولد استيلاء بايزيد على ملطيه كراهية و توجساً لدى المماليك من أطماع العثمانيين ، لدرجة أن السلطان برقوق رفض عرض السلطان العثمانى بايزيد بمساعدته بعد ذلك بعدة سنوات فى مواجهته مع تيمورلنك [٤٥]، و أثر عنه قوله " ما أخشى من تيمورلنك ، فإن كل أحد يساعدنى عليه.. و إنما أخشى من بنى عثمان" [٤٦].

و هكذا حدث لدى السلطة المملوكية فى مصر شعور عام بالإستياء مما فعله العثمانيون ، دعمه الرأى الذى ردده ابن خلدون إمام المالكية فى القاهرة آنذاك ،حيث ورد على لسانه " لا تخشوا على ملك مصر إلا من أولاد ابن عثمان ، و أشدهم بايزيد الذى تسلطن " [٤٧].

و يخطئ شيلتبرجر حين يذكر أنه بعيد وفاة السلطان المملوكى الظاهر برقوق ، خلفه ابنه يوسف ، لنجد أن السلطان فرج هو الذى خلف أبيه . قبل أن تستقيم روايته من جديد ليذكر أن السلطان الجديد طلب مساعدة العثمانيين العسكرية لمواجهة اضطرابات داخلية . فأرسل له السلطان بايزيد عشرين ألف رجل ،كان من بينهم شيلتبرجر نفسه ، نجحوا فى تثبيت السلطان فرج على سدة العرش المملوكى [٤٨].

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإنه يجب ملاحظة أن بعض روايات شيلتبرجر تبدو غير مرتبة زمنياً من ذلك ذكره لنجاح السلطان العثمانى بايزيد فى الاستيلاء على سبسطية (سيواس) . بعد نجاح ابنه الأمير محمد فى دخولها و طرد حاكمها برهان الدين [٤٩].

و الحقيقة أن السلطان بايزيد قد استولى على سبسطية عام ١٣٩٦م ، و ذلك بناء على طلب أهلها بعد مصرع صاحبها القاضى برهان الدين على يد قرايلك التركمانى ،الذى اتجه للتحالف مع تيمورلنك .كما أن ابنه الأمير سليمان هو الذى نجح فى دخول المدينة [٥٠].

و فى متابعة لأحوال مدينة سبسطية ، رصد شيلتبرجر أيضاً اجتياح القوات المغولية لها عام ١٤٠٠م ، وقتلهم الآلاف من سكانها ، وذلك عبر دفنهم أحياء تحت التراب [٥١]. بعدما سبق أن منحهم تيمورلنك الأمان ، وتعهد لحاكم المدينة بعدم إراقة دماءهم .

و لم يفطن الفارس الألمانى إلى أن القتل دون إراقة الدماء هى عادة تركية و مغولية قديمة ، احتفظوا بها بعد دخولهم الإسلام . و تعود تلك العادة إلى أنهم كانوا يقدسون الأرواح، ويعتقدون أن روح الإنسان تسكن فى دمه . فكانوا يحرصون على عدم إراقة الدماء حتى لا تزهق الروح معها [٥٢].

كان من الطبيعى أن يعانى شيلتبرجر من جراء الأسر و العبودية لدى العثمانيين ، و هو ما جعله يفكر فى الهرب من هذا المصير . فأخبرنا أنه قد اعتزم الفرار ضمن ستين أسيراً مسيحياً ، هربوا إلى أحد الجبال ،قبل أن تستعيدهم قوة عثمانية ، ليأمر السلطان بايزيد بإعدامهم ، لولا شفاعة أحد القادة العثمانيين الذى وعدهم بحماية أرواحهم . وهكذا تم إلقاؤهم فى السجن لتسعة أشهر حتى مات بعضهم . و عندما حل أحد الأعياد الإسلامية تشفع فيهم الأمير سليمان بن بايزيد فتم إطلاق سراح الباقين ، بعد وعد منهم بعدم تكرار محاولة الفرار ثانية [٥٣].

على أن أهم الأحداث العسكرية التى عاصرها شيلتبرجر إبان فترة الأسر العثمانى ، والتى مثلت له فى نفس الوقت نقطة تحول فاصلة ، كانت حضوره لمعركة أنقره [٥٤] التى دارت بين السلطان بايزيد و العاهل المغولى تيمورلنك ، حيث نجح الأخير فى إلحاق هزيمة ساحقة بالسلطان العثمانى وأسره ، وبرفقته رجال حاشيته ، الذين كان من بينهم بطبيعة الحال الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر .

والحقيقة أن وجود الأخير فى معية بايزيد قد جعله ينتبه إلى مقدمات الحرب وأسبابها بين العاهلين المسلمين ، فأشار إلى غزو السلطان العثمانى لمدينة أرزنجان Erzencen بأرمينيا الصغرى ، و استنجاد أميرها تخرتين Teherten بتيمورلنك [٥٥]، وكذا رفض بايزيد إعادتها ، مما تسبب فى حتمية نشوب معركة أنقره.

غير أن شيلتبرجر لم يتطرق للجهود الدبلوماسية التى سبقت ذلك الصدام ، حيث أرسل تيمور لبايزيد يطالبه بتسليم قلعة كماخ ، وكذا تسليمه أعداءه الفارين لديه، قرا يوسف التركمانى ، و السلطان أحمد بن أوس الجلائرى (٥٦). غير أن السلطان العثمانى رفض ذلك مما أدى إلى نشوب المعركة و هزيمته فى النهاية.

و نظراً لأن شيلتبرجر كان شاهد عيان على هذه المعركة ، فإننا نجد روايته عنها تتصف بالمصداقية الواضحة ، فقد أشار إلى انضمام القوات المغولية الموجودة فى الجيش العثمانى إلى قوات تيمورلنك . كما رصد فرار قوات الإمارات التركمانية : أيدين ، منتشا ، صاروخان ، جرميان ، من الميدان . كما أنه يعد المصدر التاريخى الوحيد الذى انفرد باشراك تيمورلنك لإثنين و ثلاثين فيلاً مدرباً على القتال فى معركة أنقره (٥٧). و يبدو أن الأخير قد تعرف على استخدام الأفيال فى المعارك نتيجة حروبه فى الهند.

كما تناول أيضاً ما حدث بعيد المعركة من أسر بايزيد ووفاته . و زحف قوات تيمور باتجاه العاصمة العثمانية بورصا للاستيلاء على ثروات و خزائن السلطان العثمانى (٥٨).

أما أبرز نتائج موقعة أنقرة ١٤٠٢م على الصعيد الشخصى بالنسبة للأسير يوهان شيلتبرجر فكان انتقاله من العمل فى خدمة و حاشية السلطان العثمانى المهزوم بايزيد ، إلى خدمة و حاشية السلطان المغولى المنتصر تيمورلنك (٥٩).

و يتصف شيلتبرجر بأمانته فى سرد الأحداث التى عاصرها . و هو ما يحدث فارقاً بين روايته للأحداث التى شهدها بنفسه ، وتلك التى سمع عنها . من ذلك ما نجده لدى حديثه عن العلاقة بين سيده الجديد تيمورلنك و دولة المماليك فى مصر و الشام . فعلى الرغم من عدم تطرقه لجذور العداء بينهما ، فإنه عرض لما سمع به من اجتياح تيمورلنك لبلاد الشام و تدمير مدينة حلب ١٤٠٠م . كما أنه بالغ فى تقدير عدد جيش تيمور و أعداء المدافعين عن المدينة . فضلاً عن أنه لم يشر إلى المقاومة الشديدة التى أبداها دمرداش قائد قلعة حلب ، و كذا لم يذكر فظائع تيمور مع سكان المدينة التى لم تغفل عنها المصادر التاريخية العربية و الفارسية و العثمانية (٦٠) .

بعد ذلك أشار شيلتبرجر إلى استيلاء تيمورلنك على مدن حماه ، وحمص ، ودمشق ، والى الفظائع التى قام بارتكابها داخلها . و يلاحظ على رواية شيلتبرجر حول تلك الأحداث ، على الرغم من أنه سمع عنها ولم يشهدها بنفسه ، أنها تكاد تتطابق مع المصادر التاريخية المعاصرة(٦١)،

باستثناء بعض التفاصيل المهمة مثل ذكره أن السلطان فرج بن برقوق طلب من تيمور عند حصاره دمشق ألا يعيث فساداً فى المسجد الأموى ، و أن الأخير قد وافق على ذلك.

كما تابع شيلتبرجر أيضاً تحركات تيمورلنك و قواته من الشام إلى بغداد ، و فرار أحمد بن أويس الجلائرى إلى السلطان بايزيد . و هو ما مكن القوات المغولية من اقتحامها و سلبها، وارتكاب الفظائع بأهلها (٦٢).

وتعرض شيلتبرجر لكيفية استيلاء أحد أتباع تيمورلنك على خراج مدينة سلطانية لخمس سنوات ، و تحالفه مع صديقه أمير مازندران . و أن القوات التى أرسلها تيمور لمطاردته قد عادت دون إنجاز مهمتها بسبب الغابات الكثيفة التى تحيط بالمنطقة التى هرب إليها التابعان (٦٣) .

غير أننا نجد صدى مغايراً لهذه الرواية لدى المؤرخ الفارسى خواندمير الذى تحدث عن اسكندر شيخ ، الذى شق عصا الطاعة على تيمورلنك ، فأرسل الأخير وراءه قوة عسكرية فى مطاردة طويلة ، بسبب اختبائه فى الغابات ، حتى نجح فى القبض عليه و قتله . بينما لم يشر المصدر الفارسى إلى مسألة الخراج (٦٤).

كما اتفقت رواية شيلتبرجر حول اجتياح تيمورلنك لمدينة أصفهان ١٣٩٣ م ، و المذابح الوحشية التى ارتكبها ضد السكان و الأطفال ، بعدما قتل الآلاف منهم مع المصادر التاريخية المعاصرة (٦٥) .غير أنه انفرد بذكر أن تيمورلنك أمر بقطع إبهام ١٢ ألف رام للسهام بالمدينة ، نتيجة غدر سكانها بالحامية المغولية (٦٦).

ويبدو أن ذلك الأمر لم يكن جديدا أيضا على طرق العقاب المغولية والتركية، إذ يمكن عقد مشابهة تاريخية بين ما فعله تيمورلنك فى أصفهان فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، و ما سبق أن فعله عماد الدين زنكى قبل ذلك فى القرن الثانى عشر ، حين أمر بحز إبهامات الجرخية فى حصن صور عقاباً لهم على قتل أحد جنوده ، بعد تحذيرهم من ذلك (٦٧) .

و من بين الأحداث التى لم يشهدها شيلتبرجر بنفسه ، بل سمع عنها عندما كان فى معية تيمورلنك ، هو تمكن الأخير من اجتياح الهند و الإستيلاء على العاصمة دهلى ١٣٩٨م . فذكر أن الجيش المغولى سار لفترة أربعة أشهر من سمرقند حتى بلاد الهند عبر الصحراء . وذكر كيفية عبوره أحد الممرات الجبلية الخطرة بأن أمر تيمور بربط الخيل و البعير عبر ألواح خشبية كى تتمكن من الانخفاض حتى تتمكن من اجتيازه . كما أشار إلى أن تيمور كاد يخسر المعركة

بسبب اشتراك أربعمائة فيل مدربة على الحرب . بحيث كان على كل فيل برج خشبى يحمل عشرة محاربين بأسلحتهم . و لما كانت خيول تيمور تخشى الأفيال فقد تراجعت فى ميدان المعركة .

و لم ينته هذا الأمر الا بعد الاستماع إلى مشورة سليمان شاه ، أحد مستشاريه ، بأن تشد الأخشاب على ظهور الإبل ، و أن يتم اشعال النيران بها .وجرى الأمر كما كان مخططا له ، فعندما أحست الإبل بلسع النيران ، إندفعت فى هجوم خاطف وعنيف على الأفيال التى اضطرت للهرب من أمامها [٦٨].

و من الواضح أن السلطان العثمانى بايزيد يلدرم لم يكن قد عرف بتفاصيل تلك المعركة التى جرت قبل مواجهته مع تيمورلنك بأربع سنوات . و هو ما أدى إلى جهل العثمانيين بكيفية التعامل مع الأفيال التى اشتركت إلى جانب الجيش المغولى فى معركة أنقرة ١٤٠٢م .

و على الرغم من عدم ذكر شيلتبرجر لاسم حاكم الهند ، ملو ، فى مذكراته ، فإن ما يحسب له أنه لم يغفل شروط الإتفاق بينه و بين تيمورلنك ، عبر حصول الأخير على مائتى كيلوجرام من ذهب الهند ، فضلاً عن كمية من الأحجار الكريمة ، مع وعد بتزويد العاهل المغولى بثلاثين ألف رجل لمساعدته فى حملاته الحربية [٦٩].

غير أنه من اللافت للنظر أن شيلتبرجر ، الملازم لحاشية تيمورلنك ، لم يتحدث سوى باقتضاب و عبر سطور قليلة ، عن رغبة العاهل المغولى و مشروعه فى زيادة رقعة ممتلكاته شرقاً باتجاه الصين Cathay بداية العام ١٤٠٥م . كما لم يجهد الأسير الألمانى نفسه فى توضيح خلفيات العلاقة بين تيمورلنك و بين إمبراطور أسرة مينج Ming بالصين Ching Tsu (١٤٠٣ - ١٤٢٥م) ، الذى سبق أن أرسل سفارة قبل ذلك بعامين إلى تيمورلنك تطلب منه سرعة تسديد الضريبة السنوية التى كان يقوم بدفعها للصين [٧٠]. خاصة وأن انشغال الأخير بحملاته ضد الأتراك العثمانيين فى بلاد الأناضول و ضد المماليك فى بلاد الشام ، كان قد عطل إرسال تلك الضريبة لسبع سنوات .

و يمكننا أن نجد صدى تلك السفارة عبر ما سطره المبعوث الأسبانى كلافيخو Clavijo مبعوث الملك القشتالى هنرى الثالث (١٣٩٠ ١٤٠٦ -م) إلى بلاط تيمورلنك ، الذى رصد فى مذكراته أن السفراء الصينيين كانوا يجلسون على مقاعد عالية عن تلك التى جلس عليها هو ورفاقه داخل البلاط المغولى . كما لفت نظره أنه ، نتيجة لحنق تيمورلنك على الإمبراطور الصينى و

رغبته فى شق عصا الطاعة، فضلا عن عدم دفع الضريبة المتوجبة عليه ، فإن العاهل المغولى عاد و أمر بأن يجلس كلافيخو و رفاقه على مقاعد أعلى من تلك التى جلس عليها أفراد السفارة الصينية [٧١].

و فى تعبير واضح عن نوايا تيمور تجاه الصين، فقد أسر للسفير الأسبانى بكراهيته للإمبراطور الصينى بسبب غطرسته ، لدرجة وصفه بأنه لص و شرير ، وأنه بمثابة عدو له .

كما لاحظ كلافيخو أيضاً أن المغول كانوا يستهزؤن بامبراطور الصين ، وأطلقوا عليه لفظ Tanguz . أى الخنزير باللغة التركية الجغطائية [٧٢].

و على أية حال ، أشار شيلتبرجر إلى أن سيده تيمورلنك قد شق عصا الطاعة على الإمبراطور الصينى ، فتشاور مع أمرائه على ضرورة الخروج بحملة عسكرية للرد على غطرسته ، وكذلك من أجل تحقيق مشروعه وضم الصين إلى امبراطوريته . غير أنه يشير فى مبالغة واضحة ، إلى أن العاهل المغولى قاد جيشاً مؤلفاً من مليون و ثمانمائة ألف رجل فى حملته لغزو الصين [٧٣].ساروا لمدة شهر كامل قبل أن يشرعوا فى اجتياز صحراء جليدية يقتضى اجتيازها سبعون يوماً . لم تستطع الجحافل المغولية السير عبرها سوى لعشرة أيام فقط ، بسبب الجليد و البرودة القارصة ، فضلاً عن مقتل العديد من الرجال ،وكذا نفوق الخيول و الماشية . وهو ما دفع تيمور إلى اتخاذ قراره بالتوقف عن المضى فى حملته .

ومن الواضح أن شيلتبرجر لم يكن موجوداً بنفسه فى حملة تيمورلنك على الصين ،و لهذا فإنه لم يقم بتغطيتها بشكل كاف . إذ يذكر المؤرخ الفارسي خواندمير أن تيمور خرج من سمرقند بجيش يبلغ ثمانمائة ألف رجل من المشاة و الفرسان ، وإبان عبورهم الصحراء الجليدية فاجأتهم الأمطار الغزيرة، فكان من الطبيعى أن يتوقف تيمور ، ليأمر بعض أمرائه بالتوجه إلى طشقند لاحضار الإمدادات و المؤن و الحبوب [٧٤].

و مرة أخرى فى الطريق من أق صولات Aqsulat إلى أوترار Otrar هبت العواصف الجليدية و الأمطار الغزيرة التى حولت الجبال و الوديان إلى ما يشبه البحار . و نتيجة لهذا البرد القارس، والجليد اللانهائى ، فقد العديدون من رجاله الكثير من أصابع أطرافهم [٧٥].

و عند ذلك الحد توقف تيمور ، غير أنه قام بمحاولة أخيرة لاستطلاع الطريق ، فأرسل الأمير موسى كمال مع آخرين من أجل بحث إمكانية مواصلة المسير ، غير أنهم عادوا ليخبروه باستحالة اجتياز الصحراء الجليدية . و عندها فقط قرر تيمورلنك العودة عن غزو الصين [٧٦].

و قد توافق ذلك مع ما ورد لدى ابن عربشاه ، فعلى الرغم من كراهيته لتيمورلنك ، فإنه وجد تبريراً واقعياً لفشل حملة تيمورلنك على الصين بفضل الطقس القارس إذ ذكر " ... و أصبحت مشارق الأرض و مغاربها من الثلوج المنقضة ...بحر صاغه الله من الفضة " (٧٧).

وكان من الطبيعى أن يتناول شيلتبرجر مسألة وفاة سيده تيمورلنك ، غير أنه لم يهتم بذكر تاريخ وفاته . كما أنه عزى موته لثلاثة أسباب هى هروب تابعه السابق بالخراج ،و خيانة صغرى زوجاته له ، ثم حنقه بعد قيامه بقتلها (٧٨).

ويمكننا أن نشير إلى أنه من الغريب بالنسبة لشخص أجنبى عاش لأكثر من عقدين فى المجتمع المغولى ألا يتعرض بشكل عام لقوانين المغول حول عفة النساء ، و الخيانة الزوجية ، و عقاب الزانية والزانى. و هو الأمر الذى أفاض فيه الرحالة الغربيون أمثال بيانو كاربينى Plano Carpini و ماركو بولو Marco Polo (٧٩).

و إذا كان خواندمير قد ذكر أن تيمورلنك قد تزوج إبان حياته بثمانى عشرة زوجة (٨٠)، بينما أشار كلافيخو إلى وجود ثمانى زوجات للعاهل المغولى (٨١)، فيبدو أن أسيرنا الألمانى الذى كان فى حاشية تيمورلنك قد لاحظ أن ذلك العدد قد تقلص إلى ثلاث زوجات فقط عندما وافت المنية سيده (٨٢).

كما أن شيلتبرجر لم يحدد مكان دفن تيمورلنك بدقة ، فلم يذكر سوى أنه دفن فى سمرقند بعد جنازة مهيبة . بينما يذكر خواندمير أنه تم نقل جثمان تيمورلنك من أوترار حيث مات إلى العاصمة سمرقند ليوارى التراب فى خانقاه أمير زاده محمد سلطان (٨٣).

و هكذا ، فعلى الرغم من إشارة وليم روبروك William of Rubruck قبل ذلك بقرن و نصف إلى أن مكان دفن الشخصيات الهامة لدى المغول كان يجب أن يظل مجهولاً (٨٤)، فيبدو أن هذا العرف قد تغير بعد ذلك ليصبح قبر تيمورلنك فى سمرقند مزاراً معروفاً حتى اليوم .

على أية حال ، لم يبد شيلتبرجر أى عاطفة تجاه موت سيده الثانى فى رحلة الأسر الطويلة ، غير أنه أشار إلى رواية يذكر أنها حدثت بعيد دفن جثمان تيمورلنك ، لم يجد لها الباحث صدى فى باقى المصادر التاريخية المعاصرة ، سوى فى مصدر أرمينى وحيد يتحدث عن تاريخ تيمورلنك و خلفائه ، تتعلق بسماع شيوخ الخانقاه التى دفن فيها جثمانه صوت عواء ليلى من مدفن تيمور

لمدة عام كامل . ويضيف شيلتبرجر أن أصدقاء تيمور قاموا بإخراج الصدقات حتى يتوقف هذا الصوت . غير أن ذلك كان بلا جدوى . فتمت الاستعانة بالفقهاء ، الذين طلبوا من أبناء تيمور ضرورة إطلاق سراح جميع الأسرى من الحرفيين ، الذين سبق أن قام تيمورلنك بإحضارهم قسراً للعمل فى العاصمة سمرقند . و ما أن تم ذلك ، حتى توقف صوت العواء بالخانقاه [٨٥].

و يبدو أن شيلتبرجر، المسيحى الكاثوليكى ، الذى عاش شطراً من حياته فيما بعد فى بلاد أرمينيا ، كان قد استمع إلى هذه الرواية لدى حديثه مع بعض أصدقائه من الأرمن [٨٦]. الأمر الذى جعلها تتردد لدى المؤرخ الأرمنى T'ovma Metsobets فى القرن الخامس عشر الميلادى ، الذى ذكر أن " تيمور القذر قد عاد إلى بلاده و مات بها كالكلب . و ظل بعد ذلك يعوى ، قبل نقل جثمانه ووضعه فى النار ، ثم بعد ذلك جرى تمريره عبر الماء ، و لم يتوقف ذلك العواء البغيض لفترة طويلة " [٨٧].

و عندما أنهى شيلتبرجر حديثه عن تاريخ تيمورلنك [٨٨] ، عاد مرة أخرى إلى التشوش الذى لازمه عند الحديث عن سنوات الأسر لدى المغول ،فذكر أنه "روى كل ما شاهده و سمعه خلال الستة أعوام التى قضاها مع تيمورلنك". غير أننا نعرف أنه لم يمكث فى كنف تيمور سوى أقل من ثلاث سنوات ،و هى الفترة الفاصلة ما بين شهر يوليو عام ١٤٠٢م حيث معركة أنقرة ،و شهر فبراير عام ١٤٠٥م حيث توفى العاهل المغولى .

خلف تيمورلنك بعد وفاته ولديه شاه رخ على مملكة خراسان و عاصمتها هراة، و ميران شاه الذى حكم مملكة تبريز Taurusوبلاد فارس . فالتحق شيلتبرجر أولا بخدمة الابن الأكبر شاه رخ[٨٩]، و هكذا فإنه لم يغفل الصراع العسكرى الذى دار بين قرا يوسف التركمانى حاكم كردستان و أرمينيا الصغرى و ميران شاه ، الذى استنجد بأخيه فأمده شاه رخ بقوات مكنته من طرده. و هو ما مكن شاه رخ من الإستيلاء على بلاد التركمانى ،و منحها لأخيه ميران شاه قبل أن يعود إلى خراسان ، تاركاً خلفه عشرين ألف رجل لمساعدته ، كان من بينهم الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر [٩٠].

و بعد عام واحد قام قرايوسف بهزيمة ميران شاه و أسره فى سهل كراباخ بأرمينيا . و فسر لنا شيلتبرجر سبب قيام قرايوسف بقتل ميران شاه بعيد ذلك ،بدعوى أن الأخير قام بقتل أخى قرايوسف ، الذى سبق له أن قتل أحد إخوة ميران شاه الذى كان يدعى Zychanger (جهانجهير)

وهو نفس ما ورد لدى المؤرخ الفارسى شرف خان البدليسى الذى أشار إلى نجاح قرا يوسف فى النهاية فى قتل ميران شاه و الاستيلاء على أرضه [٩١].

بعد ذلك انتقل شيلتبرجر إلى خدمة أبى بكر بن ميران شاه لفترة أربع سنوات حسبما ذكر ، و لم تفته الاشارة إلى القوة الجسدية الواضحة لسيده الجديد متفقاً فى ذلك مع ما ورد لدى ابن عربشاه [٩٢].

و بينما كان لدى سيده الجديد ،أشار شيلتبرجر إلى وجود الأمير التترى جكرة أوغلان Tchekre ، برفقة أبى بكر بن ميران شاه قبل أن تصله سفارة من القبيلة الذهبية تطالبه بالعودة لتولى شئون الحكم بها [٩٣].

و ما لم يذكره أسيرنا الألمانى أن جكرة أوغلان كان من سلالة أوروس خان المعادية لأسرة طقتمش الحاكمة آنذاك [٩٤].و هو ما دعاه للجوء إلى بلاط الأمير أبى بكر . حدث هذا قبل أن يرسل اليه الأمير التترى إديجاى Edigi ، الذى كان يعد شخصاً ذا مرجعية هامة لدى القبيلة الذهبية ، سفارة تدعوه للعودة إلى العاصمة سراى من أجل تنصيبه خاناً جديداً هناك.

و على الرغم من إشارة شيلتبرجر إلى التقليد السياسى التترى الذى يقضى بضرورة وجود مرجعية عليا من سلطتها تعيين الخان وخلعه ، كما تحتفظ أيضاً بسطوة و سلطة كبير على أتباعها [٩٥]، فإنه قد أغفل الدور الكبير الذى لعبه الأمير إديجاى عبر التاريخ السياسى و العسكرى للقبيلة الذهبية لعدة عقود .فقد انحدر من قبيلة قونكرات ، و كان حليفاً للخان طقتمش . قبل أن يتخلى عنه ليتحول إلى معسكر تيمورلنك إبان المواجهة بينهما فى موقعة كوندروشا عام ١٣٩١م [٩٦].

و بعد مقتل طقتمش ، نجح الأمير إديجاى فى الإستبداد بشئون القبيلة الذهبية بشكل تام ، فأعاد لها هيبتها السياسية و العسكرية ، قبل أن يقوم بتعيين تيمور قتلغ خاناً (١٣٩٥ – ١٤٠٠م) . الأمر الذى جعله صاحب التأثير الكبير على مقدرات الأمور . و هو ما دفعه بعد ذلك إلى قيادة جيش من تتار القبيلة الذهبية و إيقاع مذبحة كبرى بالقوات الليتوانية على نهر Varskla عام ١٣٩٩م [٩٧].

وبعد وفاة تيمور قتلغ ،قام إديجاى بتعيين شادى ، أخى تيمور و زوج إبنته ، خاناً على القبيلة الذهبية (١٤٠٠ –١٤٠٧ م) . و كان من الطبيعى أن يقع الخان الجديد تحت تأثير

الشخصية الطاغية لإديجاى ، والذى ما أن اختلف معه حتى أمر بقتله [٩٨]. ليقوم بعد ذلك بتعيين بولاد خاناً جديداً (١٤٠٧ - ١٤١٠ م) [٩٩].

وإبان ذلك ، أظهر إديجاى عداءه نحو مدينة موسكو التى قام بحصارها بنفسه عام ١٤٠٨ م بسبب امتناع أميرها فاسيلى Vasili عن دفع الجزية، فضلاً عن عدم اشتراكه معه فى حربه ضد الليتوانيين من قبل ، و كذلك بسبب منحه الحماية لأبناء طقتمش .

و على الرغم من عدم نجاح الأمير التترى فى اقتحام موسكو ، فانه لم يوافق على رفع الحصار عن المدينة الا بعد حصوله على جزية تقدر بثلاثة آلاف روبل ، بالإضافة إلى استيلاء المغول على العديد من المدن الروسية مثل Ryazan ، Novgorod ، Rostov ، فضلاً عن قتلهم و أسرهم للعديد من الروس المسيحيين ، حتى أنهم وصلوا إلى تخوم مدينة Tver التى تقاعس أميرها عن نصرة التتار لدى حصارهم لمدينة موسكو [١٠٠].

بعد ذلك قام إديجاى برفع حصاره عن المدينة ، وعاد إلى العاصمة سراى فى استجابة لنداء الخان الجديد بولاد (١٤٠٧ - ١٤١٠م) .

و هكذا استمر الأمير إديجاى فى فرض هيمنته السياسية على الأمور فى القبيلة الذهبية حتى عهد كبك خان (١٤١٤ -١٤١٧ م) ، حيث أعاد مهاجمة موسكو ثانية و قام بإحراقها بالإضافة إلى مدينة Smolensk عام ١٤١٥م [١٠١].

و حدث أن دب الخلاف بين كبك خان و إديجاى ، فقام الأخير بإرسال سفارة إلى الأمير جكرة أوغلان الموجود لدى أبى بكر بن ميران شاه تستدعيه لتولى الأمور فى القبيلة الذهبية .

و هكذا أشار شيلتبرجر إلى موافقة سيده أبى بكر على عودة الأمير التترى إلى بلاده . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد قام بإرسال ٦٠٠ فارس معه ، كان من بينهم خمسة من المسيحيين ، على رأسهم شيلتبرجر نفسه [١٠٢].

لم ينس شيلتبرجر أن يصف بسرعة البلاد العديدة التى مر بها حتى أراضى التتار برفقة جكرة أوغلان ، مثل بلاد الكرج ،وشروان ثم دربند (البوابة الحديدية) ، فاستراخان حتى العاصمة سراى [١٠٣].

و تم اللقاء فى النهاية بين الأخير و الأمير إديجاى ، الذى كان برحلة صيد فى أراضى

سيبيريا . و بعيد عودتهما معاً إلى بلاد القفجاق ، قاما بإعلان الحرب على كبك خان و قتله ، و هكذا نجحا فى القبض على مقدرات الأمور فى العاصمة سراى.

حدث هذا قبل أن يدب الخلاف فيما بعد بين الأمير إديجاى و الخان الجديد جكرة أوغلان بعد ذلك بتسعة أشهر ، ليقوم إديجاى بعزله و تعيين السيد أحمد أوغلان [١٠٤] بدلا منه.

و بعد مرور فترة من الإضطرابات السياسية لدى مغول القبيلة الذهبية ،قام الأمير إديجاى، بما له من مرجعية عليا ، بمحاولة أخيرة للسيطرة على مقاليد الأمور . غير أن ذلك كان بلا جدوى[١٠٥] ، فقد نشب صراع طويل بين أبناء أسرة الخان الأسبق طقتمش ،والأمير إديجاى ، بعدما خرج الإبن للأخذ بثأر أبيه ، و حقق انتصاراً على إديجاى ، الذى فضل الفرار ، قبل أن ينجح كوجك محمد ابن أخى طقتمش فى قتله [١٠٦] فى العام ١٤١٩م .

و يحسب ليوهان شيلتبرجر أنه مع اهتمامه بذكر التقلبات السياسية التى مرت على القبيلة الذهبية ، فإنه قد اهتم أيضاً بتدوين مشاهداته فى منطقة سيبيريا التى مكث بها وقتاً طويلاً برفقة إديجاى و الأمير التترى جكره أوغلان . فقد خلف لنا وصفاً رائعاً لتلك البلاد ، التى اعتقد أهلها أن الصحراء الواقعة خلف الجبل الماثل أمامهم ، إنما تمثل نهاية المعمورة بالنسبة لهم . فضلاً عن أنها منطقة موحشة لايمكن العيش بها بسبب الحيوانات المفترسة التى تجوس فيها .

و فى ملاحظة أنثروبولوجية هامة يذكر شيلتبرجر وجود قوم متوحشين لا يشبهون بقية البشر ، إذ يغطى الشعر أجسادهم بالكامل عدا الوجه و الكفين ، و يدورون حول بعضهم البعض مثل الحيوانات المتوحشة ، يعيشون على ذلك الجبل ، فضلاً عن أنهم يقومون بأكل أوراق الأشجار و الأعشاب و كل ما يقع تحت أيديهم . و أشار إلى أن حاكم تلك المنطقة كان قد أرسل إلى الأمير إديجاى برجل و امرأة من هؤلاء السكان المتوحشين [١٠٧].

ويبدو أن حديث شيلتبرجر هنا كان حقيقيا فيما يتعلق بهذا البعد الأنثروبولوجى للمنطقة ، فقد شاهد الباحث السوفيتى بادزار بارادين Badzar Baradiin أحد هؤلاء الرجال بالفعل فى العام ١٩٠٦م ، الأمر الذى ساهم فى قيام العديد من الدراسات الأنثروبولوجية فى هذا الميدان حول هذا الجنس البشرى الذى عرف علميا باسم Mongolian Almas [١٠٨].

و بعيداً عن إشارته عن تطابق أحجام الخيول و الحمير ، و إلى الحيوانات التى لم يرها من قبل فى بلاده ألمانيا ، فإن أهم ما ذكره شيلتبرجر عن سيبيريا كان وجود العربات و الزلاجات

التى تستخدم لحمل الأشخاص و المتاع . و لم يفته ضخامة حجم الكلاب التى تماثل حجم الحمير(١٠٩).

و يكاد يتطابق وصفه لتلك العربات و الزلاجات مع وصف ماركوبولو ، الذى وصف تلك العربات و الزلاجات فى سيبيريا بشكل أكثر تفصيلاً بوصفها خالية من العجلات ، و مسطحة القاع ، كما يستخدم السكان الكلاب التى تبلغ حجم الحمير أيضاً فى جرها ، بحيث تقوم ستة أزواج من الكلاب بجر العربة التنى يقوم صاحبها بقيادتها ، و برفقته أحد التجار مع سلعه و بضائعه(١١٠).

كما يتطابق ذلك أيضاً مع رواية ابن بطوطة الذى تحدث عن أراضى جليدية فى سيبيريا ، فذكر أن العربة يجرها أربعة من الكلاب التى تحظى بأهمية كبرى فى تلك البلاد لأنها الوحيدة التى تستطيع السير فوق الجليد " فلا تثبت قدم الآدمى ، و لا حافر الدابة فيها ، و الكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد "(١١١).

وفى لمحة أنثروبولوجية أخرى سابقة على ذلك أشار شيلتبرجر إلى أنه حينما كان فى حاشية شاه رخ فى مدينة هراة ، سمع عن وجود شيخ طاعن فى السن يبلغ من العمر ٣٥٠ عاما "... تدلى حاجباه على وجنتيه، ووصلت لحيته حتى الركبة ، بينما تدلى شعر أذنيه على فكه، وبلغ طول أظافره بوصة واحدة". وأشار إلى احترام وإجلال السكان المسلمين له(١١٢).

ومن المثير أن نرى أن تلك الملاحظة تكاد تتفق مع ماورد فى المصادر الإسلامية القريبة والمعاصرة لفترة أسر شيلتبرجر ١٣٩٦-١٤٢٧م. فقد أشار الرحالة ابن بطوطة فى القرن السابق له ، إلى أنه بعد مغادرته مدينتى نيسابور وبسطام باتجاه جبال الهندكوش ، وصل إلى زاوية الشيخ أطا أولياء (أبو الأولياء) بجبل بشاي ، ليجد شيخا يبلغ من العمر ٣٥٠عاما، يتبرك به حكام المنطقة من السلاطين والخواتين. غير أنه ، وبعكس شيلتبرجر الذى سمع عن الرجل ولم يقابله ، لاحظ أن سنه تبدو أصغر مما قيل له(١١٣).

وقد أشار ابن عربشاه أيضا إلى ذلك الدرويش ، وذكر أنه دعى بالشيخ العريان ، غير أنه ذكر أنه كان يعيش فى مدينة سمرقند . واتفق مع ابن بطوطة أيضا فى أنه على الرغم مما قيل عن عمره الذى بلغ ٣٥٠ عاما ، فإنه تمتع بصحة جيدة ، ولم يبد أنه قد طعن بالسن(١١٤) .

على أية حال ، فبعد عودة شيلتبرجر برفقة جكرة أوغلان و الأمير إديجاى من بلاد سيبيريا

إلى سراى عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، مكث بها حوالى عشرة أعوام حتى تمكن من الفرار بعد ذلك إلى مدينة القسطنطينية عبر البحر الأسود . و من ثم نجح فى العودة إلى بلاده ألمانيا فى العام ١٤٢٧م.

و كان من الطبيعى أيضا للأسير الألمانى أن يتناول بعض العادات الاجتماعية لدى المغول الذين عاش بينهم ، فعلى سبيل المثال ذكر شيلتبرجر أنهم لم يكونوا يزرعون سوى الذرة ، و يأكلون لحوم الخيل ، بينما لا يأكلون الخبز و لا يشربون الخمر ، و لديهم مشروبهم المعروف المستخرج من ألبان أنثى الخيول [١١٥].و هو ما يتطابق مع مشاهدات الرحالة المسيحيين و المسلمين الذين زاروا بلاد المغول من قبل [١١٦].

كما ذكر أنه رأى المغول إبان إقامته لديهم يدمون الخيول و يشربون دماءها [١١٧]. كما أنهم يقومون بوضع قطع اللحم بعد تقطيعها إلى شرائح و تمليحها تحت أسرجة الخيول خلال سفرهم الطويل ، فإذا شعروا بالجوع ، توقفوا من أجل تناول طعامهم هذا ، بعد تمام نضجه بسبب سخونة الخيول أثناء حركتها .كما أشاد بشجاعة المغول و بسالتهم فى الحروب ، و شدة اهتمامهم بها ، و حسب كلماته " ... لا يوجد من هو مولع بالحرب مثل أهالى مملكة التتر ، فالقتال و السفر عندهم سواء" [١١٨].

وهكذا حدثنا شيلتبرجر عن ولع السكان التتار ، رجالا ونساء بالحرب ، فلم تفته الإشارة كذلك إلى شجاعة وبأس النساء التتريات حينما كان برفقة جكرة خان والأمير إديجاى عندما قدمت إليهما سيدة تترية تقود أربعمائة فتاة وسيدة ، على صهوات الجياد ومسلحات كالرجال، لتطلب الثأر ممن قتل زوجها . ويذكر شيلتبرجر أنها نجحت فى النهاية من القصاص منه بعد أن تم أسره وتقديمه لها ، فأمرته أن يجثو على ركبتيه ،قبل أن تستل سيفها لتطيح برأسه فى ضربة واحدة [١١٩].

وإذا كان ثمة مبالغة فيما سبق فإنها قد تتعلق فقط بأعداد الفتيات والنساء المرافقات لها، على الرغم من تأكيده لروايته " ..لقد كنت حاضرا هناك ، وشاهدت هذا بنفسى أيضا " [١٢٠]، وذلك لأننا نعرف من المصادر التاريخية المعاصرة لتاريخ المغول إجادة النساء المغوليات لفنون القتال والحرب . فقد ظهرت المغوليات كمحاربات مثل الرجال تماما فى ثنايا التاريخ العسكرى للمغول ، واتصفن بالشجاعة والإقدام . كما اعتلين صهوات الجياد ببراعة ، فضلا عن مهارتهن

فى استخدام السهام والأقواس (١٢١) . وكن يتميزن عن المقاتلين الرجال بغطاء للرأس ، وحزام حول الخصر ، فضلا عن شد أثدائهن بحزام آخر (١٢٢).

ويبدو أن اشتراك النساء المغوليات فى القتال كان موجودا منذ عهد جنكيز خان ،الذى كانت إحدى بناته زوجة للقائد المغولى تفاجار كوركان الذى قتل بينما كان على حصاره لمدينة نيسابور، فاندفعت الزوجة إلى داخل المدينة بعد اقتحامها لتأمر بقتل جميع سكانها فى الحال (١٢٣).

كما أن قوتولون جغان، ابنة قايدو حفيد أوكتاى ، أظهرت شجاعة فى القتال بعدما حاربت عدة مرات فى صفوف القوات القوات المغولية غير النظامية فى القرن الثالث عشر الميلادى(١٢٤).

واستمرت مشاركة النساء المغوليات بعد ذلك فى الحروب ، فيحدثنا البدليسى عن إحدى النساء المغوليات التى قتلت عشرة من الرجال بمفردها من أكراد اللر فى إحدى المعارك بينهما(١٢٥).

ومن الواضح أن التقليد المغولى الذى قضى باشتراك النساء فى القتال لم يستمر فقط حتى زمان شيلتبرجر ، حسبما تأكد من ابن عربشاه الذى أشار إلى شجاعة نساء التتار فى المعارك التى خاضتها جيوش تيمورلنك ، بل ظلت النساء المغوليات لفترة طويلة بعد ذلك على عادتها فى المشاركة فى القتال إلى جوار الرجال ، وهناك العديد من الأدلة على اشتراك السيدات من مغول الهند فى الحملات العسكرية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين(١٢٦).

على أية حال ، بعد أن مكث شيلتبرجر فى سراى Saray عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، حوالى عشرة أعوام (١٤١٧ - ١٤٢٧م) ، تمكن من الفرار بعد ذلك عبر البحر الأسود إلى مدينة القسطنطينية. و من ثم نجح فى العودة إلى بلاده ألمانيا ، ليملى كتابه الحافل بالأحداث التاريخية الهامة حول مجتمعات العثمانيين والمغول و المماليك والبيزنطيين والأرمن .

غاية الأمر أن الأسير الألمانى طوف بنا خلال رحلة أسره التى امتدت لواحد وثلاثين عاما (١٣٩٦- ١٤٢٧م) فى كنف العثمانيين والمغول ، فرصد الكثير من مظاهر الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والأنثروبولوجية لديهم . وعلى الرغم من اختلاط بعض الأمور عليه ، فإنه يعد مصدرا فى غاية الأهمية للعالمين العثمانى والمغولى فى نهاية القرن الرابع عشر وخلال الربع الأول من القرن الخامس عشر الميلاديين .

الهوامش

1- The bondage and Travels of Johan Schiltberger, A Native of Bavaria, in Europe, Asia, And Africa 1396-1427, Trans. by, Telfer, B, with notes by, Bruun, New York, 1879.

٢- عن موقعة نيقوبوليس ، انظر :-

Froissart ,chronicle of Froissart, Trans. By , John Bouchier, Lord Berners , edited by , Macaulay , G.C , London , 1930 , pp.422-447; Doukas, M, Decline and Fall of Byzantium to The Ottoman Turks,Trans. by, Magoulias, H,J,.Detroit, 1975,pp.83-85, Chalcocondylas,L, Historiarum Demonstrations,ed,B.G.Niebuhrii , book II ,in, C.S.H.B, Bonne,1841,PP.75-77.

وانظر أيضا موقعة نيقوبوليس فى الكتاب الثانى من الترجمة الإنجليزية للكتب الثلاثة الأولى لنفس المؤلف :

Chalcocondylas,L, A Translation and commentary of the Demonstrations of Histories (Books I-III), ed. by ,Nicoloudis , N , Athen , 1996 , pp. 199 - 201 ;

وانظر أيضا

Veszpremy,L, «Some Remarks on Recent Historiography of The Crusade of Nicopolis 1396»,in , The Crusades and The Military orders Expanding The Frontiers of Medieval Latin Christianity , ed. by, Zsolt Hunyadi and Jozsef Laszlovszky , Budapest, 2001 ,pp.223-230

و انظر أيضا هذه الدراسة الهامة على الرغم من كلاسيكيتها :

Atiya,A.S, The Crusade of Nicopolis , London , 1934.

و عن الصراع بين العثمانيين و القوى المسيحية الأوربية حتى سقوط القسطنطينية ،انظر :

Charanis,p,»The Strife among The Palaelogui and The Ottoman Turks 1370-1402 «,in ,Byzantion,xvi,1942- 1943.

Inalcik ,H,»The Ottoman Turks and The Crusades , 1329-1451»,in, A History of The Crusades , ed. By, Setton , K,,M,,vol,,vi, Wisconsin, 1989, pp. 222-275.

٣- عن موقعة أنقرة بين تيمورلنك و السلطان العثمانى بايزيد الصاعقة . انظر المصادر العثمانية والفارسية والعربية التالية :-

Asikpasaoglu, Aşikpasa Tarihi , Hazirlayan,H.Nihal Atsiz , Ankara. 1985,p .78 ;Khwandamir ,Habibus-siyar,Tome Three . TheReign of The Mongol and The Turk , .part one : Genghis khan -Amir Temur .Trans..and ed. By , W.M, Thackston ,Harvard university , 1994,pp. 282-285.

شرف الدين يزدى ، ظفر نامه ، تاريخ عمومى مفصل إيران درورة تيموريان بتصحيح واتمام محمدعباسى، أزروى نسخى كه ، در عصر مصنف نوشته شده ، جلد دوم ، تهران ، ١٣٣٦ ه ، ص٣٠٧ -٣٢٣ ، تزوكات تيمور، مقالت أول فى تدبيرات وكنكاشها ، ص ١٥٣ – ٤٠٣ ؛ ابن عربشاه (شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى)، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، بيروت ، ص ١٩٨٩ ، ص ٣٢٠-٣٢٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج١٢ ،القاهرة، د.ت ،ص٢٦٧-٢٦٨

وانظر أيضا المصادر البيزنطية التالية :

Chalcocondylas .L, op.cit,pp.156 -158 ; Doukas , op.cit,pp.91-95: Sphrantzes,G, The Fall of

Byzantine Empire . The Chronicle by George Sphrantzes , Trans.by,M. Philippides,Amherest, 1980,p.21.

وراجع كذلك هذه الدراسة الهامة :

Alexandrescu - Dersca ,La Campagne de Timur En Anatolia , 1402, London , 1972.

4- Schiltberger,J,op.cit,p.1.

٥- هذه المنطقة عبارة عن غور أو مضيق بطول ٢ ميل بطول نهر الدانوب فى مكان يقطع جبال الألب الترنسفالية على الحدود ما بين رومانيا و يوغوسلافيا السابقة . انظر:

Webester New Geographical Dictionary , New York , 1996 , p.145

6- Schiltberger, op.cit,p.2.

7- Loc.cit.

8- Chronicle of Froissart, .p.443.

9- Schiltberger ,op. cit,pp.2-3 .

شرع عزيز سوريال عطيه فى مناقشة جادة لأعداد الجيش العثمانى و الجيش المسيحى . و ذلك عبر استعراض كافة المصادر الأوربية و العثمانية المتاحة , و خلص إلى أن الجيش العثمانى ربما كان قد بلغ عدده ١١٠ ألف رجل و بخلاف جيش القوى المسيحية الذى قدر عدده ب ١٠٠ ألف رجل ,ليذكر أن القوى كانت متكافئة فى ميدان المعركة . رافضاً المبالغة فى تقدير القوات العثمانية بوصفها حققت نصراً ساحقاً , و التقليل من أعداد الجيش المسيحى بوصفه منى بهزيمة ثقيلة . عن ذلك انظر :

The Crusade of Nicopolis , pp.66-69.

10- Chronicle of Froissart « ,p.443.

11- Schiltberger ,op.cit,p.3.

12- Loc.Cit

و يذكر عزيز سوريال عطيه أنه لسابق خبرة المجريين بقتال العثمانيين و معرفتهم بأساليبهم القتالية عن الجنود الأوربيين القادمين من الغرب ,فقد رأى الملك سيجموند أن يبدأوا بالقتال . بالإضافة إلى أنه ، و خوفاً من الخيانة من جانب كلاً من ميرشيا Mercea و لازكوفيتش Laczkovic حكام والاشيا و ترانسلفانيا ، فقد وضعهم فى موقع يجعل انسحابهم من المعركة صعباً .كما أن الملك المجرى كان يدرك أن العثمانيين يدخرون زهرة جيشهم للمعركة الفاصلة ،فأراد أن يدخر أفضل قواته لذلك . عن ذلك انظر :

The Crusade of Nicopolos, p.85.

13- Froissare ,op.cit,p.445

و يرى عزيز سوريال أيضا ،أن دوق بورجنى de coucy و كبار قادته قد تفهموا وجهة نظر الملك المجرى ، غير أن صغار القادة الفرنسيين رفضوا خطة سيجموند ، و ارتأوا ضرورة المبادرة بالهجوم . انظر:

The Crusade of Nicopolis , p.85.

14- Schiltberger, op.cit,pp.3-4 ; Froissart ,op.cit,p.445

الذى ذكر أن الملك فر من ميدان المعركة تاركاً خلفه كافة متعلقاته و خاصة المجوهرات و المعادن النفيسة، و بدا سعيداً أنه نجا بحياته . انظر أيضا : Atiya, op.cit, p.94

15- Schiltberger,op.cit,p.4 ; Doukas ,op.cit,pp.84-85 ; Froissart ,op.cit,pp.445-446

الذى ذكر أيضاً أن عدد الجنود المسيحيين الذين قتلوا فى المطاردات التى تلت المعركة كان أكبر من الذين قتلوا فى المعركة نفسها . و انظر أيضاً : Atiya,op.cit,p.94

16- Schiltberger ,.op. cit.pp.3-4.

17- Loc.cit

18- Loc.cit

19- Chronicle of Froissart « . op.cit,pp.446-447 ; «Decline and Fall of Byzantium « pp.84-85 .

20- Froissart ,op.cit,p.445.

21- Froissart, op . cit,p. 447 ; Atiya , op .cit,p.96

عندما أدرك جاك دى كريك الهزيمة التى حاقت بالجيش المسيحى قام بتسليم نفسه للعثمانيين ، الذين استفادوا من خبراته كما سبق القول .قبل أن يقوموا بإطلاق سراحه فيما بعد مقابل فدية ذهبية و فضية . انظر :Froissart . op. cit, p.445

كذلك أطلق السلطان بايزيد سراح الفارس الفرنسى جاك دوفاى Jacques du Fay ،الذى كان يعمل من قبل فى خدمة تيمورلنك ، و بمجرد أن علم بدخول الفرنسيين الحرب ضد الأتراك ، ترك خدمته و توجه لمساعدة زملائه ، غير أنه سقط فى الأسر بعيد المعركة بواسطة الجنود التتار الذين كان تيمورلنك قد أرسلهم لمساعدة السلطان العثمانى فى حربه ضد القوى المسيحية .انظر :

Froissart,op.cit,p.445; Richard , J, « Les prisonniers de Nicopolis « .in , Annales de Bourgogne , t. 68 ,1996, p.76 .

22- Atiya , op. cit ,pp. 100 -101 .

23- Richard , J, op.cit ,pp. 76-77.

و عن السفارة التى أرسلها السلطان بايزيد إلى أوربا التى كان أبرز نتائجها تحرير الأسرى المسيحيين بعد دفع فديات عالية لهم انظر : Atiya , op. cit, pp. 101 -112

24- Froissart , op. cit,p.447

يعد المارشال بوسيكيو أهم القادة العسكرين الأوربيين الذين نجحوا بعد التحرير من الأسر فى الوقوف فى وجه الطموحات العسكرية العثمانية خاصة عند حصار السلطان بايزيد لمدينة القسطنطينية ١٣٩٦ – ١٤٠٢م . ولد فى مدينة تور بفرنسا عام ١٣٦٤م ، تم تعيينه حاكما على جزيرة جنوه عام ١٤٠١م بعد منحها لملك فرنسا لويس السادس عام ١٣٩٦م .

عن الدور التاريخي للمارشال بوسيكيو ضد العثمانيين و المسلمين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .
انظر :

; Godefroy . T, (ed.) , Histoire de messier Jean de Boucicaut , mareschal de France , gouverneur de Genne , collections.vols. vi , vii, Paris , 182;.

Delaville le Roulx (Joseph) , La France en Orient au XIV siécle: expeditions du marchal Boucicaut , 2vols , paris , 1886. ; Dopp , p. H, (ed.) L>Egypte Au Commencement du Quinzieme siécle , d>Apres Le Traite d>Emmanuel piloti de Créte (Incipit 1420) , Le Caire , 1950 ,pp.84-95.

25- Froissart , op. cit , p. 447 ; Atiya , op. cit, p. 97.

٢٦- عن حصار السلطان بايزيد للقسطنطينية بعد موقعة نيقوبوليس .انظر :

Doukas , op. cit,pp.83-86 ; Aşik pasa oglu , op.cit,, pp. 68 -70 ; Barker , J , Manuel II Palaelougus (1391- 1425), A study in Late Byzantine Statesmanship , New Jersey , 1969, pp.127-128,138-144 ; Gauter . « Un Recit Indet Du Siége De Constantinople Par Les Turcs , 1394-1402 » , in , Revue d, etudes Byzantion, Tom . XIII, 1965,pp.100-110 .

27- Schiltberger , op. cit, p.5 .

28- Ibid, p. 5 ; Atiya ,op. cit, p.97 .

29- Atiya , op .cit ,p. 86 , Hously,N, The Later Crusades from Leon to Alcazar, 1274-1580,Oxford,1992,pp.76 ; Richard ,op.cit,p. 76.

30-Atiya , op .cit ,p. 86 ; Richard ,op.cit,p. 76.

انتصرت قوات هنرى الخامس على قوات الملك الفرنسى شارل السادس على الرغم من التفوق العددى للقوات الفرنسية فى أزينكور فى أكتوبر عام ١٤١٥م . وذلك بفضل استخدامها لسلاح المدفعية . ليتم الإعتراف بعد ذلك بمقتضى معاهدة تروى ١٤٢٠م بهنرى الخامس وريثا للتاج الفرنسى ، بل والزواج أيضا من كاترين ابنة شارل السادس . عن أزينكور وتداعياتها أنظر :

Treveliane,G,M, History of England ,London,1942,p,230; Painter,S, A History of the Middle Ages from 284 to 1500,London,1953,pp.354-358; Previte-Orton,C.W, The shorter Cambridge Medieval History, vol.2, the Twelfth Century to the Renaissance , Cambridge,1979,p.978.

31- Schiltberger ,op. cit,p. 4,7

الذى ينوه إلى أنه أجبر على الهرولة على أقدامه لست سنوات مع رفاقه الآخرين أمام السلطان العثمانى أينما ذهب « .. فقد جرت العادة أن يتخذ السادة (السلاطين) أتباعاً يهرولون أمامهم « .

و انظر أيضاً :- Atiya , op . cit,ppp.96-97

الذى يشير إلى أن الدافع الرئيسى لدى العثمانيين للابقاء على حياة الأسرى من سكان صغار السن هو أنهم مازالوا فى مقتبل العمر و أمامهم سنوات طويلة من العبودية . و هو هنا ينزع صفة الإنسانية عن العثمانيين . على الرغم من أنه تم اعفاء الأسرى الشبان دون العشرين من القتل طوال فترة الحروب الصليبية . عن ذلك انظر : Richard , op. cit,p.77 .

32- « The Bondage and Travels » .p.7

حيث يذكر « ...و هكذا مكثت مع العثمانيين اثنى عشرة عاماً « .

33- Loc.cit,p.21.

« هكذا أصبحت أسيراً لتيمورلنك الذى اصطحبنى إلى بلاده» . وعلى الرغم من حديثه المفصل عن موقعة أنقره و هزيمة سيده بايزيد ووفاته فى الأسر , فإنه نسى أن يحدد عام ١٤٠٢م موعداً لهذه الموقعة و هو ما يشى بوقوعه فى خطأ يتعلق بسنوات الأسر لدى العثمانيين منذ موقعة نيقوبوليس ١٣٩٦م و حتى موقعة أنقرة ١٤٠٢م.

34- Loc . cit, p.6 حيث ذكر أنهم مكثوا فى أدرنه خمس عشرة يوماً قبل أن يتم نقلهم بحراً إلى غاليبولى ، حيث تم سجن ثلاثمائة أسير منهم فى أحد الأبراج لمدة شهرين .

35- Atiya , op. cit, p.97 ; Richard ,op. cit, pp.77.

كما أن الأخير يتحدث عن تحرير تيمورلنك لبعض الأسرى الأوربيين فى مدينة بورصا , بعد سقوطها على أثر موقعة أنقره و هزيمة بايزيد ١٤٠٢م ، فى اشارة صداقة إلى الملك الفرنسى شارل السادس .

36- Schiltberger , op .cit,p.7

الذى ذكر إصابته بثلاث جروح شديدة خلال موقعة نيقوبوليس . فخشى السلطان بايزيد عليه من أن يلقى حتفه فى الطريق إلى مصر.

37- Dopp,, op.cit , pp.109-110

و انظر أيضاً :

Traite d›Emmanuel Piloti sur Le passage en Terre Saint (1420) , paris, 1958 , p.229 .

ولد مانويل بيلوتى عام ١٣٧١م فى جزيرة كريت الواقعة تحت السيطرة البندقية ، ومارس التجارة لمدة طويلة فى القاهرة والاسكندرية، وكذلك مع الشام . أصبح مقربا من السلطان المملوكى الناصر فرج الذى دفعه للتفاوض مع دوق ناكسوس من أجل دفع الفدية المطلوبة من أجل إطلاق سراح الأخير للأسرى المسلمين لديه . أطلق عليه زملاؤه اسم « مانولى». انظر : Dopp, op.cit.pp.xi-xii

؛آن دولف , كم تبعد القاهرة ؟ ترجمة وتقديم قاسم عبده قاسم , القاهرة ،٢٠٠٦م ، ص١٣٥ -١٣٧ .

38- « Les Prisonniers de Nicopolis »,p.82

كما أنه يفسر ذلك بأن السلطان العثمانى قد أهدى السلطان المملوكى برقوق 60 أسيراً كما ذكر شيلتبرجر من قبل ، أما باقى المائتين فكانوا من أسرى معركة نيقوبوليس أيضاً ، و قد اشتراهم السلطان المملوكى فيما بعد .

39- « The bondage and Travels » , pp.7-10

الحقيقة أن هناك تضارباً فى الآراء حتى بين المصادر العثمانية حول زمان موقعة أق جاى .حيث يذكر كلا من عاشق باشا زاده وأوروج بك أنها قد حدثت إبان حملة السلطان بايزيد الأولى على الأناضول قبل نيقوبوليس بعدة سنوات . انظر:

Aşik Pasaoglu , pp.72-73;Oruç Beğ ,Oruç Beğ Tarihi ,hazirlayan , Atsiz, Istanbul, 1973, pp.55-56 ; و كذلك . Atiya . op.cit,p.17

أما شيلتبرجر فيحددها فيما بعد معركة نيقوبوليس ، أى حوالى العام 1397م .و هو ما يؤيده فيه الباحث التركى أوزون تشارشيلى .

انظر: Uzunçarsili,"karamanoğullari", Artin Anadolu Beylikleri ve Akkoyunlu, Karakoyunlu Devleterim, Ankara, 1969 , p.15

معتمداً على المصدر التاريخى المعروف بزم و رزم ، الذى تناول أخبار مدينة سيواس و حاكمها القاضى برهان الدين ، و الذى أشار إلى وجود علاء الدين القرمانى على قيد الحياة حتى العام ١٣٩٦م .

٤٠- فى الحقيقة فإن سياسة السلطان بايزيد كانت تهدف إلى تصفية الأسر التركمانية الحاكمة فى الأناضول، بهدف تحويل إماراتهم إلى ولايات عثمانية . عن ذلك انظر :-

خليل اينالجك « العثمانيون – النشأة و الازدهار » ، بحث فى كتاب : دراسات فى التاريخ العثمانى ، ترجمة و تقديم سيد محمد السيد ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص ٥٤

٤١- انظر : Uzuncarsili.op.cit,p.13;Nicol,op.cit,288

42- " The Bondage and Travels " ,pp.8-9

٤٣- ابن عربشاه، المصدر السابق، ص ٣٤٠-٣٤١، ابن تغري بردى، المصدر السابق ، ج١٢ ،ص٢٦٩. انظر أيضا : Hously, op.cit, p. 81

44- " The Bondage and Travels " ,p .18.

عن ذلك راجع المصادر التاريخية المملوكية و العثمانية التالية :-

الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود) ، نزهة النفوس و الأبدان فى تواريخ الزمان ، ج٢ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٥٥ ؛ ابن إياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى) ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج١ ،ق٢ ، القاهرة ،١٩٨٣ ، ص٥٤٧ ؛ . Aşik pasa ǒglu. op.cit. p. 75 ; Oruç Beg . op. cit. p. 57.

انظر أيضاً : ؛ عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ، ١٩٩٥م ،ص٤٢.

٤٥- أدرك السلطان بايزيد أبعاد الخطر المغولى مبكراً . فأرسل فى العام ٧٩٥/ ١٣٩٢م رسالة للسلطان المملوكى برقوق يحذره من أطماع تيمورلنك . و يخبره أنه يضع تحت تصرفه ٢٠٠ ألف رجل لهذا الأمر . انظر : المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ ، ق٢، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ٨١٣ ؛ ابن إياس ، المصدر السابق ، ج١ ،ق٢ ،ص٤١٧.

و إذا كنا نستطيع تفهم دوافع السلطان العثمانى بايزيد فى مواجهة الأطماع المغولية ، فان ما يثير الاستغراب هنا هو حجم القوات العثمانية التى عرض إرسالها لمساعدة السلطان المملوكى برقوق . فلم يكن لدى السلطان العثمانى ـــ الذى كان يحاصر القسطنطينية منذ عدة أعوام - هذا العدد من القوات لإرسالها للسلطان المملوكى فى القاهرة. و ربما كان الأكثر صحة ما أورده ابن تغرى بردى من أن السلطان العثمانى قد أعد نفقة بمائتى ألف درهم لمساعدة السلطان المملوكى فى حربه ضد تيمورلنك . عن ذلك انظر :ـــ

المصدر السابق ، ج١٢ ، القاهرة ، د.ت،ص ٥٩.

٤٦- ابن إياس ، المصدر السابق ،ج١،ق٢ ،ص٤٧٦. و يبدو أن ابن تغرى بردى كان صاحب رؤية أكثر اتساعاً من السلطان المملوكى إذ انتقد قراره بشده ،:لأنه كان يرى ضرورة تحالف القوى المملوكية و العثمانية عبر كثافة أعداد الجيوش المصرية و الخبرة العسكرية العثمانية . و على حد قوله « ... إن المصلحة كانت تقتضى الصلح مع ابن عثمان » . انظر المصدر السابق، ج١٢،ص ٢١٧.

٤٧- ابن إياس ، المصدر السابق ، ج١ ، ق٢، ص ٤٧٦.

48- " The Bondage and Travels " ,p .19

كانت تلك المرة الأولى التى توجه فيها شيلتبرجر إلى مصر . قبل أن تعود القوات العثمانية إلى السلطان بايزيد من جديد . انظر أيضاً :Richard , op.cit,p.80

49- Ibid , p.10

٥٠- انظر المصادر التالية :

Aşik pasa ŏglu , op.cit, p.74 ; Tursun Bey , Tarihi , Ebu>l-feth , Hazirlayan ,Mertol Tulum, Istanbul , 1977, p. 159 ; Oruç Beg , op . cit, p.57

المقريزى ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٤ ؛ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على) إنباء الغمر بأنباء العمر ،ج٢، تحقيق ، القاهرة ، 1971م ، ص 107;. Doukas , op. cit, p.88, p. 283 . not .85

51- « The Bondage and Travels « ,p .20 .

عن غزو العاهل المغولى لمدينة سبسطية (سيواس) انظر :

Khwandamir ,:op.cit. , p.274 ; Aşik pasa ŏglu , op .cit, p.77 ; Oruç Beg ,op. cit,p.58 ;

ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ١٩٣- ١٩٤ ؛ شرف الدين يزدى، المصدر السابق، ص١٨٣-١٩٥؛

Doukas , op. cit,p.89 ; Dennis , G, « Three reports from Crete on The Situation in Romania 1401-1402» , in ,Studi Veneziani ,12,1970 ,p.254 . Doc. 1 ; Clavijo , Embassy to Tamerlane 1403 - 1406 , Trans.by , Le strange , G , London , 1928 , pp. 132 . .

غير أنه يذكر أن قوات سليمان بن بايزيد تألفت من مائتى ألف مقاتل ، بخلاف الجيش السلطانى نفسه . و من الواضح أن ذلك من قبيل المبالغة لأن السلطان العثمانى كان على حصاره لمدينة القسطنطينية ذلك الوقت، و لم تكن قواته بمثل هذا العدد.

انظر أيضاً هذا المصدر الأرمنى الهام الذى اتفق مع كافة المصادر التاريخية السابقة فى بيان الوحشية و الفظاعة التى عامل بها العاهل المغولى تيمورلنك سكان مدينة سبسطية عند غزوة لها عام ١٤٠٠م :

Tovma Metsobets>I>s . « History of Tamerlane and His successors « p.13 in . http :// rbedrosian.com/ tm1.htm .

٥٢- سعد زغلول عبد الحميد ، « الإسلام و الترك فى العصر الإسلامى الوسيط » ، مجلة عالم الفكر ، العدد ، الكويت ، ١٩٨٦م ، ص ١٩٨-١٩٩ .

و سبق أن حدثنا ماركو بولو فى رحلته عن أمر قبلاى خان باعدام خصمه تايان عبر وضعه فى بساطين مع تنفيضهما بقوة شديدة حتى فاضت روحه ، و يفسر الرحالة الأوربى الأشهر ذلك بأنه لم يكن يجوز فى عرف التتار أن تشهد الشمس أو الهواء سفك دماء فرد ينتمى إلى الأسرة الامبراطورية . و يعلق مارسدن على ذلك بأن عملية ازهاق روح أى شخص يحظى بمكانة عالية لدى المغول دون إراقة دمائه قد تكررت كثيراً . و ربما ورثها الأتراك عنهم عبر استخدام وتر القوس فى السراى السلطانية العثمانية . انظر :

ماركو بولو ، رحلات ماركوبولو ، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسدن ، ترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد ،ج٢، القاهرة ، ٢٠٠٤م ، ص١٢ ،٢٠٣ هامش ١٥ .

و بخصوص ازهاق تيمورلنك لأرواح أهالى سيواس دون أى عملية لسفك الدماء فيبدو أن العاهل المغولى قد اعتبر أنه قد احترم أهالى المدينة عندما تنازل و اعتبرهم مثل الطبقة العليا بالمجتمع المغولى ، فحق عليهم الموت عبر ازهاق أرواحهم دون سفك للدماء .

53- The Bondage and Travels « pp 9-10 ; Richard , op. cit ,p.79. »

٥٤- تعد معركة أنقره ١٤٠٢م من أهم المعارك التى دارت فى العصور الوسطى ، و على الرغم من أنها جرت بين أكبر عاهلين مسلمين فى ذلك الوقت ، فان نتائجها كانت متباينة على العالمين المغولى الذى اتسعت رقعته عقب الاستيلاء على آسيا الصغرى ، و العثمانى الذى دخل فى دوامة حرب أهلية بعد أن كان على وشك فتح مدينة القسطنطينية .عن هذه الموقعة انظر ما سبق . ص ٢ هامش (٣) .

55- The Bondage and Travels « ,p.21 و انظر أيضاً

Khwandamir , op.cit,p. 280 ; ; Aşik pasa oğlu, op. cit, p.74.

٥٦- انظر : Khwandamir , op.cit, p.282 .

ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٣٠٨ -٣١٣ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٢٦٧ ؛ الصيرفى ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٥٠.

57- The Bondage and Travels « p.21 .

عن انضمام القوات المغولية بالجيش العثمانى إلى تيمورلنك ، و انسحاب القوات التركمانية من جيش بايزيد . راجع : ; Aşik pasa oğlu، op. cit, p.78 ؛ ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٣٢٠ ، ٣٢٢،٣٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢٦٧ ؛Doukas , op.cit ,p.93.

٥٨- Schiltberger ,op.cit, p. 21 يتطابق هنا ما ذكره شيلتبرجر مع ما ورد فى المصادر المعاصرة. من ذلك :

Khwandamir . op.cit,p.284 ؛ ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٣٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج١٢، ص ٢٦٩ .

59- Loc. Cit

60- The Bondage and Travels « , p.22

ذكر شيلتبرجر فى مبالغة واضحة أن أعداد جيش تيمورلنك لدى حصار حلب كان مليون و مائتى ألف جندى ، و جعل قوات حاكم حلب تبلغ ثمانية ألف رجل ، و الحقيقة أن دمرداش ، قائد قلعة المدينة كان قد أبدى مقاومة بطولية أمام جحافل القوات المغولية . قبل أن تنجح تلك القوات فى النهاية فى دخول المدينة و ارتكاب العديد من المذابح و الفظائع فضلاً عن أعمال السلب و النهب . اذا كان شيلتبرجر قد أشار فقط إلى أن تيمور أمر بقذف كافة أهل حلب فى خندق المدينة المائى قبل أن يملأه بالماء ، فإن باقى المصادر العربية و الفارسية و العثمانية تتحدث عما هو أكثر من ذلك بكثير .

عن اجتياح المغول لحلب ١٤٠٠م و الفظائع التى قاموا بارتكابها بها . انظر:

ابن اياس ، المصدر السابق ،ج١ ، ق٢، ص٥٩٧ - ٥٩٨ ؛ ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩ ؛ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢٢٤-٢٢٥ ؛ الصيرفى ، المصدر السابق ، ج٢ ،ص٧٤-٧٧ ؛المقريزى ، المصدر السابق ، ج٣،ق٣ ، ص١٠٣٣-١٠٣٤ ؛ ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى) ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٧ ، بيروت ، د.ت ، ص ٦٤؛شرف الدين يزدى ، المصدر السابق ، ص٢٠٧ ، ٢١٨ -٢٢١

Khwandamir ,op.cit, pp.275- 276 ; Aşik paşa oğlu,op.cit, p.77; Oruç Beg ,op.cit,p.58 ; T>ovma Metsobets>I>s , op.cit , pp.13-14

،تزوكات تيمور ، مقالت أول فى تدبيرات وكنكاشها ، تهران، د.ت

61- Loc.cit.

.عن دخول القوات المغولية إلى دمشق . راجع المصادر العربية و الفارسية و العثمانية السابقة

٦٢- Ibid , p.24 . عن غزو تيمورلنك لمدينة بغداد و ارتكاب الفظائع بها انظر:

Khwandamir ,op.cit, p278 ؛ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج٢ و ص ٢٦٦ ؛ المقريزى ، المصدر السابق ، ج٣،قسم ٣ ، ص ١٠٦٧ ؛ ابن اياس ، المصدر السابق ،ج١،قسم ٢ ،ص ٦٣٣ ؛ ابن العماد الحنبلى ، المصدر السابق ، ص٦٥؛و انظر أيضاً:

ابن عربشاه ، المصدر السابق ،ص ٣٠٢-٣٠٦ ، الذى أشار إلى أنه نتيجة للوحشية و الفظائع التى ارتكبتها قوات تيمورلنك فى بغداد « ...فقد صارت بعد أن كانت مدينة السلام ، دار السام « .

63- Ibid , pp. 26-27 .

64- « Habibu>s - siyar », pp.290 - 291

حيث يتحدث مؤرخنا الفارسى عن اسكندر شيخ ، تابع تيمور الذى شق عصا الطاعة عنه . فأرسل العاهل المغولى وراءه أمير زاده رستم و الأمير سليمان شاه . و استمرت المطاردة طويلاً بسبب اختباء اسكندر شيخ فى الغابات الكثيفة ، حتى تم القبض عليه فى النهاية و قتله . غير أن رواية حبيب السير لم تشر أيضاً إلى مسألة استيلائه على الخراج . عن ذلك أنظر أيضا : حافظ إبرو ، ذيل كتاب ظفر نامه نظام الدين شامى ، تهران. د.ت، ص ١٤ -١٥ .

٦٥- The Bondage and Travels « . pp.27-28 ؛انظر : ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٩٨ -١٠١ ، ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ، ج٥ ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٥٤٠ .Khwandamir .op.cit. p.257.

66- The Bondage and Travels « . p.27

٦٧- أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، برنستون ، ١٩٣٠م، ص ١٥٥ - ١٥٦.

68- The Bondage and Travels « . p.26

عن استيلاء تيمورلنك على الهند ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م. انظر المصادر و المراجع التالية:

Khwandamir .op.cit. p p.264-268 ؛ شرف الدين يزدى ، المصدر السابق ، ص ٩٧ -٩٩ ، ١١٢

Tovma Metsobets›I›s . op.cit . p14 .غير أنه يذكر أن ذلك تم فى العام ١٣٩٦م ؛ أنظر أيضا : تزوكات تيمور ، المصدر السابق ، ص١٣٥ - ١٣٩ .

انظر كذلك : المقريزى ، المصدر السابق ، ج١ ، ق٢ ، ص٨٩٢،٩٣٤ ؛ ج٢، ص١٠٢٤ ؛ ابن اياس ، المصدر السابق ، ج١ ،ق٢ ، ص ٤٩٥ -٤٩٦ ،٥٩١ ؛ ابن العماد الحنبلى ، المصدر السابق ، ص٢ ؛ ؛شبولر ، ب ، العالم الاسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد سعد ، مراجعة سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٢ م ،ص ١٢٤ ؛ أحمد الساداتى ، تاريخ الدول الاسلامية فى آسيا و حضارتها ، القاهرة ، ١٩٧٦ م ، ص ، ٢٠٢ ؛فامبرى ، أ ، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة أحمد الساداتى ، مراجعة و تقديم يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٢٣٢. حيث يصف بالتفصيل المعركة التى دارت بين تيمورلنك و حاكم الهند ملو ، و كيف نجح جنود تيمور فى خداع و إثارة الأفيال الهندية بحيث انقلبت على أصحابها . و عن حملة تيمورلنك على الهند انظر أيضاً : 256- Clavijo , op.cit.pp. 255 .

الذى تحدث أيضاً عن تحميل المغول للجمال بالأخشاب و اشعال النيران بها ، و فرار الأفيال من أمامها . غير أنه تحدث عن وجود خمسين فيلاً فقط فى الجيش الهندى .

69- Loc.cit .

استخدم شيلتبرجر هنا وحدة الوزن zentner التى تعادل مائة كيلو جرام ، مع اشارة أخرى تظهر معرفته بالسلع و المعادن فى عصره ، عندما نوه إلى أن ذهب الهند آنذاك كان يفضل على ذهب الجزيرة العربية.

٧٠- قام المغول تحت قيادة قبلاى (١٢٥٧- ١٢٩٤ م) بغزو الصين و ترتب على ذلك أن دفع خلفاء الجغطائيين فى سمرقند ضريبة سنوية له . بعد ذلك تدهورت أحوال خلفاء قبلاى ، قبل أن تظهر العام ١٣٧٠ م أسرة ملكية مغولية فى الصين ، عرفت باسم أسرة يوان Yuan بعد ذلك ظهرت أسرة ملكية أخرى هى أسرة مينج Ming ، التى أسسها الامبراطور Hongwan الذى مات عام ١٣٩٩م ، ليحكم بعده الامبراطور Ching tsu الذى أصبح اسمه رسمياً الامبراطور Yuanglo خلال الأعوام ١٤٠٣-١٤٢٥ م. و هو الحاكم الذى أسماه كلافيجو Chayscan أو Chayskan ، و الذى أطلق عليه المغول لقب Tanguz .

و على أية حال أراد هذا الامبراطور الذى عرف أيضاً باسم جودى أو جوتشى أن يرغم تيمور على دفع الضريبة السنوية المفروضة على حكام سمرقند إلى البلاط الصينى . انظر :

Clavijo , J , Embassy to Tamerlane 1403- 1406 . Trans.by Le strange , G , London , 1928 , p.358. not.2

و انظر أيضاً : لويز ليفاثيس ، يوم سادت الصين البحار ، مفخرة عرش التنين ١٤٠٥ – ١٤٣٣م ، ترجمة على أحمد كنعان ، بيروت ، ٢٠٠٥ م ، ص ٢٠١- ٢٠٢ .

71- Embassy to Tamerlane , op . cit, p. 222.

٧٢- Ibid , pp. 223 ; p. 327. not .2 ؛ لويز ليفاثيس ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

73- The Bondage and Travels , , p.28

يذكر المؤرخ الفارسى خواندمير خروج تيمورلنك لغزو الصين فى جيش يبلغ تعداده ثمانمائة ألف رجل . انظر :

« Habibu›s –siyar », p. 294 ، أنظر أيضا : شرف الدين يزدى ، المصدر السابق ، ص ٤٤٥ – ٤٥٢، حافظ ابرو ، المصدر السابق ، ص٢٥ – ٢٧ . و تذكر لويز ليفاثيس أن تيمور خرج على رأس مائتى ألف رجل فقط عبروا نهر سيحون Jaxartez المتجمد قبل أن تعود على أعقابها دون تحقيق هدفها المرجو . انظر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

و انظر أيضاً كلافيجو الذى أشار إلى بعد المسافة ما بين سمرقند عاصمة تيمور ، و بكين عاصمة الامبراطور الصينى ، التى تبلغ مسيرة ستة أشهر . انظر : « Embassy to Tamerlane », p. 291 .

74- " Habibu's–siyar",p.294 74-

٧٥- Ibid , pp. 294 -295 75 ، و ذكر خواندمير أيضاً أن نهر سيحون يتجمد فى الشتاء و يصبح لونه فضياً . كما أن الرياح القوية تدفع بكتل الجليد من الجبال و السهول إلى صفحة النهر ،مما يجعل المشهد كله أقرب إلى تكون البحار.

٧٦- Loc.cit الذى ذكر أيضاً أن تيمور أرسل شخصاً آخر للتحقق من الطريق عبر مضيق قولان Qulan ، غير أنه عاد اليه ليخبره أن المضيق مغطى بالثلج بطول رمحين مما يستحيل اجتيازه . انظر أيضا : شرف الدين يزدى ، المصدر السابق ، ص ٤٥٧-٤٦٩.

٧٧- « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » ، ص٣٨٨ .

٧٨- The Bondage and Travels « , p.29 » .وانظر أيضا ابن عربشاه ، المصدر السابق،ص٤٦٦ ،حيث أشار أيضا إلى قتل تيمور لإحدى زوجاته « ... لشئ بلغه عنها ، وكان غير واقع »

بينما يحدد خواندمير تاريخ وفاة تيمورلنك فى الثامن عشر من فبراير عام ١٤٠٥م الموافق للسابع عشر من شعبان عام ٨٠٧ . وعن وفاة تيمور، انظر أيضا Tovma Metsobetsi›s op.cit , p. 14

الذى ذكر خطأ أن وفاته كانت فى العام ١٤٠٨م . غير أن ذلك لم يرد فى المصادر التاريخية المعاصرة لحياة العاهل المغولى التى أشارت إلى تجرع تيمور لكميات من الخمر المقطر الممزوج بالبهارات والتوابل كى يعينه على تحمل البرد القارص إبان حملته باتجاه الصين .انظر : ابن عربشاه،المصدر السابق ، ص٣٩١-٣٩٢ ،ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج١٣،ص ٢٦٩.

٧٩- ذكر كل من كاربينى و بولو أن نساء المغول يقترن بالعفة و الاحتشام و الإخلاص لحياتهن الزوجية، و لا يرتكبن الأعمال المشينة التى تحط من قدرهن . وأنه اذا ما حدث غير ذلك يتم على الفور إدانة الزانية و الزانى و توقيع عقوبة القتل عليهما فى الحال . انظر :, Dawson , ch.(ed.) Mission to Asia , London ,1966 , pp. 15,17.

ماركو بولو ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٣٥ -١٣٦ .

٨٠- « Habibu›s – Siyar « , pp. 299 -300 حيث ذكر أيضا وجود ٢٢ خليلة لديه .

٨١- Embassy to Tamerlane « , p. 261 " لا يعترض لى سترانج – مترجم كتاب كلافيخو – على ذلك مقترحاً أنه إذا كانت الشريعة الاسلامية تتيح لتيمور الزواج من أربعة فقط . فإنه قد استثنى نفسه من ذلك ، تماماً مثلما كان يشرب الخمر دائماً ، فى مخالفة واضحة للشريعة الإسلامية أيضا . انظر:3 p.359, not. .

83- Schiltberger ,op .cit,p 29

84- « Habibu›s – Siyar «, p

85- «Mission to Asia», p.105.

Schiltberger, op.cit. p. 30 ؛

وعن الأسرى فى سمرقند راجع ما ذكره السفير الأسبانى كلافيخو عن آلاف الأسرى من الحرفيين الذين جلبهم تيمورلنك من بلادهم من مسلمى دمشق و بلاد الأناضول و من المسيحيين بمختلف طوائفهم ، كالبيزنطيين و الأرمن و الكاثوليك و اليعاقبة و النساطرة ، بخلاف الهنود و الروس و الصينيين انظر : Embassy to Tamer-lane, pp. 287-288

٨٦- The Bondage and Travels ، p.86 . حيث ذكر أنه بعد وفاة تيمورلنك تم نقله إلى حاشية ابنه الأكبر شاه رخ الذى كان يمتلك أراضى خراسان و أرمينيا ، و أنه عندما كان يرافقه شتاء إلى أرمينيا كان يعيش وسط الأرمن الذين امتازوا بالود تجاه الألمان ، فأحاطوه بعطفهم و رعايتهم .

87- « History of Tamerlane and His successors », p. 14 .

٨٨- The Bondage and Travels », p.30 . « و يبدو أن التشوش الذى أصاب شيلتبرجر هنا عند حديثه عن أعوام الأسر لدى المغول قد تأثر به المؤرخ الأرمنى Tovma Metsobets . و هو الأمر الذى يمكن أن نلحظه لديه إذ قرر أن وفاة تيمورلنك كانت العام ١٤٠٨م ، و هو ما يخالف باقى المصادر التاريخية الفارسية و العربية . لكن ذلك يتسق مع الخطأ الحسابى لدى شيلتبرجر ، الذى تأثر به مؤرخنا الأرمنى . و هكذا سقط الأول فى الأسر بعيد موقعة أنقرة ١٤٠٢م و مكث ست سنوات عند تيمورلنك إلى وفاة الأخير عام ١٤٠٨م. انظر : History of Tamerlane », p.14 .

و يشى تأثر الرواية الأرمنية بالتشوش الذى لازم حسابات شيلتبرجر . ثم أن نقلها رواية صوت العواء الصادر من قبر تيمورلنك بسمرقند يشى بأن المؤرخ الأرمنى قد استمع إلى أحاديث الأسير الألمانى يوهان شيلتبرجر من أصدقائه الأرمن . كما سبقت الاشارة خاصة و أن مؤرخنا الأرمنى قد ولد العام ١٣٧٨م و مات عام ١٤٤٦م، و كان لديه ٢٧ عاماً عندما وصل شيلتبرجر إلى أراضى أرمينيا مع سيده الجديد شاه رخ .

٨٩- The Bondage and Travels ، p.30 . وعن مملكة شاه رخ فى خراسان . انظر : بارتولد ، المرجع السابق ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

90- Ibid, p.31

٩١- شرفنامه ، الجزء الأول ، ترجمة محمد على عونى ، مراجعة يحيى الخشاب ، دمشق ٢٠٠٦م ،ص٣٥٦. الذى ذكر حدوث تلك المعركة فى (نشيب غازان تبريز) ، ومن أهم نتائجها كان سقوط بلاد أذربيجان كلها فى قبضة قرا يوسف .

٩٢- " The Bondage and Travels",p. 33 ، انظر أيضا : عجائب المقدور ، ص ٣٩٩ ،... و كان أبو بكر هذا فى الجغطاى من الفوارس و الضاربين بالبيض السهام و القوانس ...و كان يوقف بقرة ... و يضربها

بالسيف ضربة لا ضربتين ، فيجعلها قطعتين مفصولتين" . و عن أبي بكر بن ميران شاه انظر أيضاً :

Clavijo , op. cit, pp.317.

93- The Bondage and Travels «, p.33 «

٩٤- محمد سهيل طقوش ، تاريخ مغول القبيلة الذهبية و الهند ، بيروت ،٢٠٠٧م ، ص ١٢٣ .

95- The Bondage and Travels «, p.35 «

٩٦- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٩ .

97- Halperin ,ch, Russia and The Golden Horde , London , 1985 ,p.57 .

٩٨- انظر : ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

٩٩- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ١١٧ -١١٩ .

100- Robert Michell & Nevill Forbes (eds.) , The Chronicle of Novgorod 1016 – 1471 , London , 1914 , p. 183 .

101- Loc.cit, P.33

102-"The Bondage and Travels «

103- Ibid , p. 34 .

١٠٤- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ،ص ١٢٣.

105- Halperin , op.cit,pp.29.57 .

١٠٦- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص١٢٤ .

107- The Bondage and Travels «, p.35

١٠٨- عن ذلك أنظر :

- Heaney ,M. The Mongolian Almas : A Historical Reevalution of The Sighting By Baradiin , in , Cryrtozoology 2, 1983, pp. 40- 52 .

- Newton, M. " Almas / Almasti ", in, Encyclopedia of Cryptozoology : A Global Guide, London, 2005, pp. 19- 20

109- Loc.cit.

١١٠- المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٩٦ -٩٧ .

١١١- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، بيروت ، د.ت ، ص ٢٢٥ . حيث تحدث عن سعر الكلب الذى يصل لما يساوى ألف دينار بسبب الحاجة الماسة للكلاب فى جر و سحب العربات و أثر ذلك على حركة التجارة .

و عن استخدام الحيوانات فى جر العربات فى مناطق أخرى قريبة تحدث ابن بطوطة عن ما شاهده فى اقليم القرم من عربات تتألف كل واحدة منها من أربع بكرات كبار تجرها الخيول أو البقر و الجمال . انظر ، ص215.

١١٢- " The Bondage and Travels".pp.37-38. وذكر أنه كان يدعى Phiradamschych .

١١٣- المصدر السابق،ص ٢٦٠. « ...يظن رائيه أن عمره خمسون سنة ....وشككت فى حاله ، والله أعلم بصدقه".

١١٤- المصدر السابق،ص٤٧٠. « ...من رآه يتصور أنه لم يبلغ أشده ، لم يكن للكبر بوجهه تجعيد ولا أثر « .

115- The Bondage and Travels «. p.48. «

عن ذلك انظر ما ذكره كاربينى و وليم أف روبروك و ماركوبولو :

١١٦- Dawns. ch.op.cit.pp.16.17 , 96-98.112 ؛ ماركوبولو ، المصدر السابق ، ج١ ، ١٣٤، ١٣٥ ،١٣٨ -١٣٩ ؛ وانظر كذلك ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ٢١٠، ٢١٩ .

١١٧- The Bondage and Travels «. p.48 «.و هو نفس ما أشار إليه ماركو بولوأيضا من قبل ، الذى ذكر أنه إذا ما زحف المغول فى سفر طويل و انتهت مؤنهم ، يمكنهم العيش لعشرة ايام أخرى عبر الإعتماد على دماء خيولهم ... إذ يشق كل رجل عرقاً و يشرب من دم ماشيته « . انظر رحلات ماركو بولو ،ج١ ، ص١٤٠.

118- The Bondage and Travels «. p.48.

119- Ibid.p.38

120- Loc.cit

121- Carpini.op.cit.p.18.

وانظر أيضا Howorth. , History of the Mongols.vol.4.London 1888. 162.

شبولر ،ب، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد عيسى ،مراجعة سهيل زكار ،دمشق، ١٩٨٢ ،ص٢٨.
كما أشار عطا ملك الجوينى إلى أن النساء والرجال الذين لا يشاركون فى القتال يبقون فى المنازل والخيام لإعداد الطعام والمؤونة للقوات المحاربة.انظر: تاريخ فاتح العالم جهانكشاى،ترجمة محمد التونجى،المجلد الأول،دمشق، ١٩٨٥م،ص٦٦.

١٢٢- سعد الغامدى المغول: بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية،الرياض، ١٩٩٠م،ص ١١٣-١١٤ .

١٢٣-عطا ملك الجوينى، المصدر السابق،ص١٧١. الذى يشير أيضا إلى أنها استثنت - كما عادة المغول- الحرفيين والصناع الذين تم أسرهم وإرسالهم إلى التركستان .

١٢٤ رشيد الدين فضل الله الهمذانى، جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاى قاآن إلى تيمورقاآن ، ترجمة فؤاد الصياد ، ص١٠٧ الذى ذكر أن انها تميزت بقوة بدنية مكنتها من هزيمة عشرات الرجال، وأعلنت أنها لن تتزوج سوى من الرجل الذى يستطيع هزيمتها. وسمح لها القائد قايدو بعد ذلك بأن ترافقه فى كافة المعارك التى خاضها.

ويبدو أن تلك القصة قد تم تداولها فى القرن التالى مباشرة ، إذ نجد لها صدى عند حديث ابن بطوطة عن الصين الذى يشير إلى إحدى ملكاتهم التى كانت تقاتل الرجال وتصرعهم، فأخبرت أبيها أنها لن تتزوج سوى بمن يبارزها ويغلبها. انظر المصدر السابق ، ص٤١٣-٤١٤ .

١٢٥- المصدر السابق ، ج١ ، ص ٧٦. واللر الكبير واللر الصغير من أقاليم الجزيرة العراقية، كان غالبية سكانهما من الأكراد. راجع أيضا ص ٧٠.

١٢٦- المصدر السابق، ص ٤٨١. وحسب كلماته «...يصنعن أبلغ مايصنع الفحول من الرجال فى النزال، من طعن بالرمح وضرب بالسيف ورشق بالنبال».

١٢٧- عن ذلك أنظر: ريخا ميسرا : المرأة فى عصر المغول ، ترجمة أحمد الجوارنة ، إربد ، ١٩٩٨، ص١٤٦- ١٤٧ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١- ابن بطوطة (أبو عبدالله بن عبدالله اللواتى)

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، بيروت ، د.ت.

٢- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة ، ج١٢ ، القاهرة ، د.ت.

٣- ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على)

إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج٢ ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة، ١٩٧٣م .

٤-ابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى)

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ،ج٧ ، بيروت ، د.ت .

٥ ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى)

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ،ج١ ، ق٢، القاهرة ، ١٩٨٣م.

٦- ابن عربشاه (شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقى)

عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، بيروت ، ص ، ١٩٨٦م .

٧- أسامة بن منقذ ،

كتاب الأعتبار ، تحقيق قاسم السامراتى ، الرياض ، ١٩٨٧م.

٨- الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود)

نزهة النفوس و الأبدان فى تواريخ الزمان ، ج٢ ،تحقيق حسن حبشى ، القاهرة،١٩٧١م .

٩- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ ،ق٢ ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

١٠- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ، ج٥ ، بيروت ، ١٩٨١م .

ثانياً : المصادر الفارسية و العثمانية:

1- Aşikpasaoğlu , Aşikpasa Tarihi , Hazirlayan , Nihal Atsiz , Ankara, 1985 .

2- Khwandamir. Habibus-siyar, Tome Three. The Reign of The Mongol and The Turk Part one : Genghis Khan - Amr Temur . Trans and ed. By , w.M. Thackston, Harvard university , 1994.

3- Oruç Beg , Oruç Beg Tarihi , Hazirlayan , Nihal Atsiz , Istanbul, 1973.

4- Tursun Bey , Tarih-I Ebu'l-Feth , Hazirlayan , Mertol Tulum , Istanbul , 1977.

٥- البدليسى (شرف خان) شرفنامه ، الجزء الأول ، ترجمة محمد على عونى ، مراجعة يحيى الخشاب ،دمشق ٢٠٠٦م.

٦- الجوينى (عطا ملك)، تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ، ترجمة محمد التونجى ، المجلد الأول ، دمشق ، ١٩٨٥م .

٧- الهمذانى(رشيد الدين فضل الله)، جامع التواريخ ، تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاى قاأن إلى تيمور قاأن ، ترجمة فؤاد الصياد ، مراجعة يحى الخشاب ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٨- تزوكات تيمور ، مقالت أول فى تدبيرات وكنكاشها ، تهران، د.ت .

٩- حافظ إبرو ، ذيل كتاب ظفر نامه نظام الدين شامى ، تهران. د.ت .

١٠- يزدى (شرف الدين)، ظفر نامه ، تاريخ عمومى مفصل إيران دروورة تيموريان بتصحيح وإتمام محمد عباسى ، أزروى نسخى كه ، در عصر مصنف توشته شده ، جلد دوم ، تهران ، ١٣٣٦ ه .

ثالثاً : المصادر البيزنطية و اللاتينية و الروسية و الأرمينية :

1- Chacocondylas , Historiarum demonstrations . ed. By, I .Bekker , C.S.H.B , Bonne , 1843.

2 - Clavijo . J. Embassy To Tamerlane 1403 -1406 .Trans. By. Le Strange . G . London . 1928.

3 - Dawson . ch.(ed.) Mission to Asia . London . 1966.

4 -Delaville le Roulx (Joseph) . La France en Orient au XIV siécle: expeditions du marchal Boucicaut . 2vols . paris . 1886.

5 - Dennis.G. "Three reports from Crete on The situation in Romania 1401 - 14-2 " .in S.V. 12 . 1970.

6 - Dopp.p.H. (ed.) L'Egypte Au Commencement du Qunzieme Siécle . d'Apres Le Traite d'Emmanuel e Au Commencement du Qunzieme Sieomania 1401 - 14-Piloti de Crete (Incipit 1420) . Le Caire . 1950

.

7 - (ed.) Traite d'Emmanuel e Au Commencement du Qunzieme Sieomania 1401 - 14-Piloti sur Le passage en Terre saint (1420). parise . 1958.

8 - Doukas . M. Decline and Fall of Byzantium to The Ottoman Turks . by .Magonlias . H . J. . Detroit . 1975 .

9 - Froissart .Chronicle of Froissart . Trans . by John Bouchier .Lord Berners .edited by . Macaulay . G. C . London. 1930.

10 - Gauter. P. " Un Recit Indet Du Siege de Constantinople par Les Turcs . 1394- 1402 " . in . Revue d.etudes Byzantion. Tom . XIII .1965.

11- Godefroy . T. (ed.) . Histoire de messier Jean de Boucicaut . mareschal de France . gouverneur de Gennes . collections.vols. vi . vii. Paris. 182 5.

12-Robert Michell & Nevill Forbes (eds.) . The Chronicle of Novgorod 1016 - 1471 . London . 1914

13 - Marco Polo. The Travels. trans. By. William Maresden. London. 1980.

اعتمدت على الترجمة العربية لهذا الكتاب :

- ماركو بولو، رحلات ماركو بولو .ترجمة وليم مارسدن ، ترجمها إلى العربية عبدالعزيز جاويد ، ج٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

14- Schiltberger , J , The Bondage and Travels of Johan Schiltberger , A Native of Bavaria , in Europe , Asia , And Africa 1396 – 1427 , Trans . by .Telfer , B , with notes by , Brunn , P, New York , 1878.

15 - Sphrantzes,G, The Fall of Byzantine Empire . The Chronicle by George Sphrantzes , Trans. by, M.Philippides, Amherest, 1980,p.21.

16- T'ovma Metsobets;I;s , " History of Tamerlane and His successors ", in , http: // rbedrosian . com /Tm 1.htm

رابعا : المراجع الأجنبية :

1 - Alexandrescu – Dersca ,La Campagne de Timur En Anatolia , 1402, London , 1972.

2 - Atiya, A. S, The Crusade of Nicopolis , London , 1934.

3 - Barker , J , Manuel II Palaelougus (1391- 1425), A study in Late Byzantine Statesmanship , New Jersey , 1969.

4 - Charanis, p, "The Strife among The Palaelogui and The Ottoman Turks 1370-1402 ", in ,Byzantion, xvi, 1942- 1943.

5 - Dennis , G, " Three reports from Crete on The Situation in Romania 1401-1402" , in ,Studi Veneziani , 12, 1970.

- Halperin ch, Russia and The Golden Horde , London 6 1985.

7 - Heaney ,M, The Mongolian Almas : Historical Reevalution of The Sighting By Baradiin , in, Cryrtozoology, 2, 1983.

8 - Hously,N, The Later Crusades from Leon to Alcazar, 1274-1580,Oxford, 1992.

9 - Inalcik . H. "The Ottoman Turks and The Crusades . 1329-1451".in. A History of The Crusades . ed. By. Setton . K. M. vol. vi. Wisconsin. 1989.

10 - Newton. M. " Almas / Almasti ". in. Encyclopedia of Cryptozoology : A Global Guide . London. 2005.

11- Painter.S. A History of the Middle Ages from 284 to 1500.London.1953.

12- Previte - Orton.C.W. The Shorter Cambridge Medieval History. vol.2. the Twelfth Century to the Renaissance . Cambridge.1979.

13- Richard . J. "Les prisonniers de Nicopolis " .in . Annales de Bourgogne . t. 68 .1996 .

14-Treveliane.G.M. History of England .London.1942.

15-Uzun çarşili ." karaman ŏgullari". Art in Anadolu Beylikleri ve Akkoyunlu.Karakoyunlu Devleterim. Ankara. 1969.

14 -Veszpremy.L. "Some Remarks on Recent Historiography of The Crusade of Nicopolis 1396".in . The Crusades and The Military orders Expanding The Frontiers of Medieval Latin Christianity . ed. by. Zsolt Hunyadi and Jozsef Laszlovszky . Budapest. 2001.

القواميس

1-Webester.s New Geographical Dictionary . New York . 1996.

سادسا :المراجع العربية والمعربة :

١ – أحمد الساداتى ، تاريخ الدول الإسلامية فى آسيا و حضارتها ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

٢- خليل إينالجك " العثمانيون – النشأة و الازدهار " ، بحث فى كتاب : دراسات فى التاريخ العثمانى ، ترجمة و تقديم سيد محمد السيد ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

٣- ريخا ميسرا ، المرأة فى عصر المغول ،ترجمة أحمد الجوارنة ، إربد ، ١٩٩٨م .

٤- سعد الغامدى ، المغول : بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية ، الرياض ، ١٩٩٠م .

٥- سعد زغلول عبد الحميد ، " الإسلام و الترك فى العصر الإسلامى الوسيط " ، مجلة عالم الفكر ، العدد ، الكويت ، ١٩٨٦م .

٦- شبولر ، ب ، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد سعد ، مراجعة سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٢ م.

٧- عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٨- فامبرى ، أ ، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ترجمة أحمد الساداتى، مراجعة و تقديم يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

٩- لويز ليفاثيس ، يوم سادت الصين البحار . مفخرة عرش التنين ١٤٠٥ - ١٤٣٣م ، ترجمة على أحمد كنعان ، بيروت ، ٢٠٠٥ م .

١٠- محمد سهيل طقوش ، تاريخ مغول القبيلة الذهبية و الهند ، بيروت ،٢٠٠٧م .



د. لمياء بنت أحمد عبد الله شافعي[*]

كتب التراجم في المدرسة التاريخية المكية

القرن العاشر الهجري (١٦م) نموذجاً

مقدمة :

تميزت المدرسة التاريخية المكية بالتنوع في مجالاتها الكتابية مما أثرت لنا الموروث الثقافي والذي نستمد منه المعلومات الأساسية لدراسة التاريخ المكي في مختلف الجوانب السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

ولقد أردتُ بهذا البحث المشاركة المتواضعة ضمن البحوث التي تتناول خصائص المدرسة التاريخية المكية ، التي وإن نالت العناية من الدارسين والباحثين فإنها لا تزال تحتاج إلى الهمم العالية والجهود المبذولة لاستجلاء جوانبها وبيان خصائصها التي امتازت بها عن بقية المدارس التاريخية في البلاد العربية الإسلامية الأخرى .

يكاد لا يجد الباحث ميداناً من ميادين الكتابة التاريخية خلا من إنتاج المكيين . ومن بين مشاركاتهم المتنوعة نلاحظ عناية واضحة منهم بالتأليف في مجال التراجم والطبقات ، وهو مجال أساسي في الكتابة التاريخية [1] بما يقدمه من معلومات تفيد في معرفة الأشخاص والجماعات ، مما يوضح الخصائص الاجتماعية لمكة وبيّن أبعاد القيمة العلمية للمكيين . لذلك رأيت من المفيد أن استجلي أهمية ما أنتجه المكيون في ميدان المؤلفات التي تناولت التراجم والطبقات في القرن العاشر الهجري كمثال لجهودهم في هذا المجال من الدراسات التاريخية .

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك - جامعة أم القرى - مكة المكرمة

وإن الناظر في تنوع كتب التراجم يلاحظ أنها تتنوع إلى نوعين أساسيين :

١- كتب تترجم لشخص واحد معين فأولته كل اهتمامها .

٢- كتب تترجم للعديد من الأشخاص وهي التي تعرف بكتب الطبقات .

ثم إن كتب الطبقات هذه على نوعين :

١- كتب طبقات عامة : وهي التي ترجمت لكل من ذكر في الحياة العلمية والسياسية وغيرها .

٢- كتب الطبقات الخاصة : وهي التي ترجمت لجماعة معينة اجتمعت في اختصاص واحد أو بلد أو انتساب واحد أو غير ذلك .

وسنتناول في هذا البحث كل ما عُرف من الإنتاج المكي المتخصص في فن التراجم الخاصة بالأشخاص والتراجم الخاصة بالطبقات خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، إلا ما كان من كتب السيرة النبوية وكتب التراجم الخاصة برجال الحديث المؤلفة في تلك المرحلة تاركين ذلك للدراسات الحديثية وأصحابها ، وهو ما جعلنا نُعرض عن دراسة الكتب التي حملت العناوين الآتية :

١- كتب السيرة النبوية .

٢- معاجم الشيوخ .

٣- فهارس الشيوخ .

٤- كتب الأثبات .

٥- كتب المشيخات .

٦- تخريج المشيخات .

٧- المنتقيات من كتب المشيخات .

٨- فهارس المرويات .

أما غيرها من كتب تراجم الأشخاص وكتب الطبقات التي اعتنت بها هذه الدراسة فلقد أمكننا أن نضع قائمة هامة منها بعد أن بحثنا في ترجمات المؤرخين المكيين الذين عاشوا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي فحصلنا منها على إنتاج ثري في الموضوع ، ونعرضه بإيجاز في الجدول التالي :

المؤلف	تاريخ وفاته	عناوين الكتب
العز بن فهد : عبد العزيز بن عمر	٩٢٢هـ/١٥١٧م	• غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام . • نزهة ذوي الأحلام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة البلد الحرام . • ترتيب طبقات القراء للذهبي .
ابن العليف : أحمد ابن الحسين	٩٢٦هـ/١٥٢٠م	• الدر المنظوم في مناقب بايزيد سلطان الروم .
ابن ظهيرة : محمد بن أبي السعود	٩٤٠هـ/١٥٣٤م	• الأخبار المستفادة فيمن ولي مكة من آل قتادة .
ابن ظهيرة : أحمد بن عطية	كان حياً ٩٤٢هـ/١٥٣٤م	• جواهر العقود في ترجمة القاضي جمال الدين أبي السعود .
جار الله بن فهد : محمد بن عبد العزيز	٩٥٤هـ/١٥٤٧م	• الأقوال المتبعة ، في بعض ما قيل في مناقب أئمة المذاهب الأربعة . • بلوغ الأرب ، بمعرفة أي الأنبياء من العرب . • تاريخ يُفيد في معرفة المترجمين في الضوء اللامع من الأحياء . • تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف . • تحقيق الصفا في تراجم بني الوفا . • الجواهر الحسان ، في مناقب سليمان بن عثمان. • القول المؤتلف في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف. • معجم الشعراء .
ابن حجر الهيتمي المكي : أحمد بن محمد	٩٧٤هـ/١٥٦٧م	• الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان . • معدن اليواقيت الملتمعة في مناقب الأئمة الأربعة. • ترجمة معاوية بن أبي سفيان .

المؤلف	تاريخ وفاته	عناوين الكتب
الفاكهي : عبد القادر بن أحمد	٩٨٩هـ/١٥٨١م	• فضائل ابن حجر الهيتمي . • القول النقي في مناقب المتقي . • مشكاة الاقتباس في فضائل ابن عباس . • مناقب عبد الرحمن العمودي .
النهروالي : قطب الدين محمد بن علاء الدين	٩٩٠هـ/١٥٨٢م	• طبقات فقهاء الحنفية . • زيادات على كتاب دستور الأعلام لابن عزم .

أنواع كتب التراجم التي ألفها المكيون

خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

إذا كانت هذه القائمة قد عرضت أسماء المؤلفين من المؤرخين وما أنتجوه من الكتب في مختلف أنواع الكتابة ضمن مجال التراجم والطبقات على اختلاف أنواعها ، فإنه بعد البحث والمطالعة تبين لنا أن عدد المؤرخين المكيين من رجال القرن العاشر الذين تناولوا فن التراجم يبلغ ثمانية مؤلفين [٢] ، وأن عدد مؤلفاتهم في هذا المجال بلغ ثلاثة وعشرين كتاباً ورسالة .

وبعد النظر فيها أمكننا أن نصنفّها حسب الموضوعات إلى صنفيْن أساسييْن :

١- كتب التراجم التي اختصت بشخص واحد ، وقد يكون ذلك الشخص من رجال العلم أو من رجال السياسة .

٢- كتب التراجم التي تتناول التعريف بمجموعة من الأشخاص على اختلاف فئاتهم :

فمنها كتب اختصت بجماعات معينة كالأنبياء أو الصحابة .

ومنها التي اختصت بالأنساب والتي اشتملت على تراجم لجماعات كآل البيت .

ومنها تلك التي اختصت بالحُكّام والملوك .

وتلك التي اختصت بالعلماء ، وأصحاب الوظائف الدينية كالأئمة والفقهاء والخطباء ومناقبهم.

الصنف الأول : الكتب التي تناولت التعريف بشخص واحد .

* ابن العليف : أحمد بن الحسين (ت٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) [٣] .

هو مكيّ ولد بها سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م من عائلة اشتهرت بالشعر .

أخذ العلم عن كبار العلماء المكيين والمصريين . أنتج أشعاراً كثيرة اتسمتْ بالجزالة والبلاغة نُقلتْ في المصادر المكية . واعتبره المؤرخون كبير شعراء مكة حتى وصفه جار الله بن فهد بمتنبّي زمانه وبشاعر البطحاء وبشيخ الأدباء [٤] له ديوان شعر لا تُعرف منه نسخة [٥] .

ومن مؤلفاته التي اختصت بالترجمة لشخص واحد :

كتاب : (الدر المنظوم ، في مناقب بايزيد سلطان الروم) .

نسبه إليه حاجي خليفة [٦] . منه نسخة سلطانية كُتبتْ بخط المؤلف محفوظة في مكتبة فاتح بتركيا رقم ٤٣٥٧ ، تقع في ١١٨ ورقة ، تم نسخها يوم ١٦ ذي الحجة سنة ٩١٠هـ/٢١ مايو ١٥٠٥م .

يقول ابن العليف في المقدمة : " أما بعد ، فلما كان تقييد المآثر من أهمّ الأسباب ... جمعتُ هذا الديوان اللطيف ... في مناقب سلطان الزمان ... الملك الأعظم بايزيد ... وجعلته علماً لتخليد مآثره ... وأضفتُ إليه لُمعاً مفيدة من نفائس الأخبار " .

أما محتوى الكتاب وعرض أبوابه وفصوله فإننا ننقله مما كتبه د. الهيلة في كتابه التاريخ والمؤرخون بمكة فجاء فيه :

" الورقة ٣ أ : المقدمة في ذكر نسب الروم ومن اصطفاه الله منهم للنبوة ... والولاية " . ذكر فيها النبي أيوب - عليه السلام - والإسكندر ذا القرنين وأصحاب الكهف وما ورد في فضل الروم وأخبارهم .

الورقة ٢٣ب : الباب الأول في مناقب السلطان بايزيد ومآثر سلفه من أكابر العثمانيين.

الورقة ٣٢أ : ترجمة السلطان بايزيد .

الورقة ٣٣أ : فصل في العلوم النقلية والعقلية التي يُتقنها هذا السلطان .

الورقة ٣٤أ : فصل في ذكر كرمه وإحسانه لأهل الحرمَيْن .

الورقة ٣٦ب : فصل في ذكر المباني التي أحْدَثَها بإسطنبول وغيرها .

الورقة ٣٧ب : فصل في ذكر جهادة ومرابطته وفتوحاته .

الورقة ٤٣أ : فصل في نبذة من حُسْن سيرته وعدله وحِلْمه وسياسته .

الورقة ٥٣أ : فصل في ذكر أولاده .

الورقة ٥٥أ : الباب الثاني في ذكر طُرَفٍ من أخبار ملوك الروم .

الورقة ٨٣ب : الباب الثالث في ذكر خبر القسطنطينية .

الورقة ١١٤أ : الخاتمة في فضل الشعر والشعراء وإكرام الخلفاء والملوك لهم ، ثم أورد قصيدة وضعها في مدح السلطان بايزيد طالعها :

خُذْ مِن ثنائي مُوجِبَ الحمد والشكر

ومِن دُرّ لفظي مُحكم النَّظم والنَّثر

وهي تقع في ٦٣ بيتاً .

وبآخر المخطوط ما نصّه : " على يد راقم بُرده ومُفَوّفه ، وناظم عقده ومُؤلّفه ، الفقير إلى الله تعالى أحمد بن الحسين بن محمد بن العُليف المكي المدني الشافعي غفر الله ولوالديه ولمشائخه وأحبابه .. " (٧) .

ويبدو من محتوى الكتاب ونصوصه أن ابن العليف أراد بتأليفه هذا أن يتقرب من السلطان ويمدحه طلباً لكرمه وإحسانه فإن من صفات وعادات ملوك العثمانيين أنهم كانوا يغدقون إكرامهم على أهل الحجاز . فكانت هذه النسخة سلطانية جميلة الشكل كبيرة الحجم اعتنى المؤلف بنسخها بيده واهتم بتجميل خطها .

أسلوب ابن العليف ومصادره في كتابه :

كان ابن العليف شاعراً بارعاً يمكن أن يُعتبر أكبر شعراء مكة في عصره ؛ لذلك نراه في كتابه هذا أديباً ناثراً امتلك عنان اللغة ، فجاء أسلوبه فيه بالغ الدقة في التعبير ، يختار ألفاظه ومعانيه ويتصرف في ذلك بلغة جزلة مع استعمال المحسّنات البلاغية واللّجوء في أحيان كثيرة إلى السجع والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال وأقوال العلماء وبدائع الشعراء .

وبما أنه كان يقصد التقرّب من السلطة العثمانية فقد أوغل في مدح السلطان بايزيد كعادة أبناء عصره في مدحهم ، واعتمد في أغلب فصول الكتاب المبالغة في التقرب إليهم بإطراء أصول العثمانيين الذين كان يُطلق عليهم عامة الأدباء والمؤرخين اسم الروم ، فإن لفظ الروم في تلك المرحلة وبعدها يُقصد به الأتراك . وقلما تجد المؤرخين والأدباء يذكرون الأتراك إلا باسم الروم ، وربما كان ذلك بسبب استعمال لفظ الروملي أو أرض روم في تسمية إحدى مناطق مملكتهم . وقد وقع المادحون للأتراك في خطأ كبير عندما وسعوا نسبة الأتراك فأدخلوا فيها من يسمّون بالروم من الرومانيين أو من عامة الأوروبيين حتى ربطوا نسب الأتراك بذي القرنين ونسبوهم إلى ملوك روما وبلغ بهم الأمر أن نسبوهم إلى ملوك البلاد الأسبانية . وفي هذا الخلط الواضح وقع ابن العليف أيضاً فجمع من النصوص الدينية كل ما ورد فيه لفظ الروم وألحقه بتاريخ الأتراك سواء من القرآن أو الأحاديث النبوية أو كتب التفسير أو من النصوص التاريخية والأدبية ، فجمع بذلك العديد من النصوص التي أوردها في كتابه من مصادر عديدة ومتنوعة .

مصادر الكتاب :

وبغض النظر عن وقوع المؤلف في هذا الخطأ الشائع في عصره فإن مصادر الكتاب التي نقل عنها الأخبار والحوادث والأقوال تُعتبر غنية ثرية دالة على ثقافته وسعة اطلاعه ومعرفته بالمؤلفات كبيرها وصغيرها . ولا أبالغ إذا قلت إن مصادر الكتاب قد قاربت المائة بين تفاسير القرآن والكتب الجامعة للأحاديث النبوية والمفسرة لها ، يضاف إلى ذلك كتب الآداب الدينية وكتب التاريخ والبلدان والطبقات مع كتب الأدب الكبيرة التي جمعت الكثير من الأخبار ، وهو يعرضها في أغلب الأحيان بعد أن يذكر عناوينها ومؤلفيها ، ولو أنه في بعض المناسبات يُهمل إيراد اسم المؤلف وعنوان الكتاب .

* ابن ظهيرة : أحمد بن عطية القرشي المكي (كان حياً ٩٤٢هـ/١٥٣٤م) [٨].

هو من عائلة بني ظهيرة المكية التي اشتهر منها العديد من العلماء على مر القرون .

ولد سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م . أخذ العلم في صغره على العديد من شيوخ مكة والواردين عليها ومنهم السخاوي الذي وصفه في كتابه الضوء اللامع بأنه ذكي قوي الجنان والحافظة .

ورغم أنه من كبار علماء الشافعية إلا أنه تولى القضاء الحنبلي بمكة لخلوها من فقهاء الحنابلة رغم توليه نيابة قاضي الشافعية .

من مؤلفاته في التعريف بشخص واحد :

كتاب : (جواهر العقود ، في ترجمة القاضي جمال الدين أبي السعود) .

وضع فيه ترجمة موسعة للشيخ القاضي جمال الدين أبي السعود بن ظهيرة القرشي المكي الذي توفي سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م . وهو جد المؤلف حسبما ورد في الكتاب ص٤ .

لا نعرف من الكتاب غير نسخة واحدة محفوظة بدار الكتب المصرية (تيمور) رقم ٥٠٣٧ تقع في ٥٣ ورقة ، نسخها الحافظ المؤرخ المكي جار الله بن فهد مؤرخة بسنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م ونقلها عن نسخة بخط المؤلف مؤرخة سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٣م .

وبعد الاطلاع على صورة المخطوط المحفوظة بمركز البحوث التابع لجامعة أم القرى (رقم ٢٣٠ تاريخ) تبين لنا أنه رتبه على مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة .

فالمقدمة في نسب وولادة المترجم وما حصل عند ظهوره لوالده وأهله من السعادة والباب الأول: في مبدا أمره وما حفظه من الكتب وطلبه للعلم .

والباب الثاني : في تحصيله . وذكر من لازمه من الشيوخ ورجال العلم . وما أخذ عنهم من الكتب .

والباب الثالث : في تدريسه وإفتائه ووظائفه السنية وعلو قدره ، وعرض فيه الكتب التي درّسها في الحرم في علوم القرآن والحديث والفقه والآداب والتاريخ وعيّن بعض مواطن تدريسه وأماكنه في مكة .

والباب الرابع : في ماله من التصانيف وما كتبه العلماء عليها من تقاريض وإجازات العلماء له مثل السخاوي ومن عاصره .

والباب الخامس : في صفاته وشمائله .

والباب السادس : في مهماته النفيسة .

والباب السابع : أورد فيه شيئاً من شعره فعرض فيه العديد من أشعاره وقصائده الطويلة وما مدحه به البلغاء من أدباء عصره .

أما الخاتمة : فقد خصصها لوفاة المترجم وما اتفق له من حسن الخاتمة .

ويشتمل المخطوط على تقريضات كثيرة من كبار علماء عصره من حجازيين ومصريين وشاميين، من بينها إجازات هامة منها إجازة السخاوي للمترجم وهي طويلة .

* جار الله بن فهد : محمد بن عبد العزيز (العز) بن عمر (النجم) بن فهد الهاشمي المكي (ت٩٥٤هـ/١٥٤٧م) [٩] .

من عائلة راسخة الجذور في العلم تعدد علماؤها وكثرت تآليفهم وظهرت مؤلفاتهم طيلة قرنين ونصف من الزمن ، اشتهروا بعلم الحديث وبرعوا في علم التاريخ العام والخاص فأولوا عنايةً فائقةً بالتاريخ المكي سجلوا فيه الكثير من المؤلفات ، تنحّوا عن تولّي الوظائف السياسية والشرعية فلم تظهر لهم غير شهرتهم العلمية [١٠] .

ولد جار الله بمكة سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وتلقى العلم على والده وكبار شيوخ الحرم من المكيين والمجاورين ثم رحل لطلب العلم من القاهرة واليمن ودمشق وغيرها .

ألف العديد من الكتب والرسائل في مختلف الفنون ، واهتم اهتماماً خاصاً بفن التاريخ فبلغت مؤلفاته فيه ٣٥ بين كتاب كبير ورسالة تناولت العديد من المجالات التاريخية .

ومن مؤلفات جار الله في التراجم الخاصة :

كتاب : (الجواهر الحسان ، في مناقب السلطان سليمان بن عثمان) .

هو كتاب ألفه جار الله بن فهد عندما كان في مدينة بورصا العثمانية سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م وقدّمه هدية للسلطان سليمان القانوني العثماني ذكر فيه مناقبه ، كما ضمنه رسالةً رفعها إليه ، وعرض فيه تاريخاً موجزاً للدولة العثمانية وسجل انتصاراتها وإنجازاتها ، مع اهتمامه الواضح بوقائع فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح . وفي القسم الأخير من الكتاب عرض الكثير من المشاكل المادية التي كانت واجهت مكة وأهلها في عصر المماليك ، ثم سجّل ورود الإنعامات العثمانية عليها مع شكره للسلطان سليمان على عنايته بمكة وأهلها .

ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب الأولى (الورقة ٨ أ) أنه رتبه على مقدمة وبابين وخاتمة.

المقدمة : من الورقة (٩ أ إلى ١٩ أ في الهدية للملوك) بدأها بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " وعرض فيها الأحاديث الواردة في الهدية للملوك ، ثم ألحق بها رسالة رفعها للسلطان العثماني سليمان . وفي النص يصف المؤلف نفسه بأنه (خادم الحديث الشريف ، ومؤرخ بلد الله المعظم المنيف) .

الباب الأول : (من الورقة ١٩ ب إلى ٧٠ أ) عرض فيه تاريخاً موجزاً للدولة العثمانية مع ذكر بطولاتها في فتح القسطنطينية والفتوحات الأخرى ، ومواجهتها للتحرك الشيعي الصفوي القادم من إيران ، مع الاعتناء بانتصارها على المماليك في الشام وفي مصر ، ثم انضواء مكة المكرمة ضمن الولايات العثمانية في عهد السلطان سليم .

الباب الثاني : (من الورقة ٧٠ أ إلى ٩٣ أ) خصصه لذكر فضائل الروم - وهم أصول العثمانيين - مُحيلاً على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ورد فيها لفظ الروم ، مجارياً لما كان يقع من خلط عند الكثير من مؤرخي عصره وتعميمهم لفظ الروم على الأتراك وغير الأتراك . وأورد جار الله بن فهد الكثير من النصوص التي تذكر مكارم الأتراك وفضائلهم ، خاصة في إعاناتهم لمكة المكرمة وعناياتهم بأهلها ، مع إبراز ما قام به السلطان سليمان القانوني في هذا المجال . ثم نقل نص رسالة الوصية التي كان كتبها شيخ مكة محمد بن عراق ووجّهها إلى السلطان سليم والد السلطان سليمان . ثم ختم الباب بأدعية كثيرة وبليغة خصصها لسلطان عصره .

الخاتمة : (من الورقة ٩٣ أ إلى ١٢٧ أ) أورد فيها أيضاً أحاديث في فضل العثمانيين وفَضل نصيحة السلطان ، ثم تطرق إلى أوضاع الحرمين الشريفين ، وشرع في تذكير السلطان بمكانتهما ، ونصحه بالعناية بهما . وبيّن شرف أهل مكة عند الله وعند الناس ، وفضل المجاورة ، منتقلاً إلى بيان معاناة أهل مكة من الغلاء ، ودعاه إلى الشفقة بهم وإعانتهم مع عرضه للمشاكل الاقتصادية وما شاهده من نتائجها في عصره خاصة ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، مشيراً إلى ما أرسله الملوك العثمانيون من عطايا وهبات .

اعتمد جار الله في تأليفه هذا على مصادر عديدة منها كتب الحديث النبوي على مختلف درجاتها وأهميتها مورداً الأحاديث ببعض أسانيدها أحياناً وبمختلف رواياتها أحياناً أخرى ، ومن مصادره كتب التاريخ المكي خاصة والتاريخ الإسلامي عامة دون إهمال لبعض المصادر من كتب

الجغرافيا وأوصاف البلدان . كما استشهد ببعض الأشعار والنصوص الأدبية . وكان سالكاً في جميع كتابه مسلك المحسنات البديعية والتزويق اللفظي والسجع .

من الكتاب نسخة في مكتبة جامعة اسطنبول (دار مثنوي رقم ٣٦٠) تشمل على ١٢٨ ورقة نُقلت عن نسخة المؤلف .

* ابن حجر الهيتمي المكي : أحمد بن محمد بن حجر شهاب الدين (ت٩٧٤هـ/ ١٥٦٧م[١١]).

فقيه محدثٌ مؤرخ مصري المنشأ ، ورد إلى مكة المكرمة فقضى بها ٣٤ سنة من حياته إقامة دائمة بعائلته تاركاً نسله فيها . بدأ تكوينه العلمي في مصر حيث أخذ عن كبار علمائها من الشافعية مثل زكريا الأنصاري وعبد الحق السنباطي والشهاب الرملي . ولما دخل مكة كان متكامل التأسيس العلمي فدرّس الدروس العديدة في الحرم وفي بيوت العلماء ، وألف المصنفات الكبيرة والصغيرة ، وكان واعياً بمشاكل مجتمعه ، فأفتى الفتاوى الكثيرة ، وعاش في مكة محترماً ومفيداً بكتبه العديدة التي تناولت العلوم الدينية والتاريخية والقضايا الاجتماعية والسياسية مما جعله يحتل الدرجة الهامة بين علماء مكة في عصره .

كانت عناية ابن حجر الهيتمي بالتأليف في فنون التاريخ كبيرة ، حيث ألف فيها واحداً وأربعين تأليفاً ، تناولت العديد من مجالاته وفنونه . ومن بين مؤلفاته التاريخية التي تتعلق بالتراجم ، عدة كتب تناولت التعريف بشخص واحد هو الإمام أبو حنيفة النعمان وسنتناولها بالعرض الموجز فيما يلي نقلاً عن دراستي لها في رسالتي للدكتوراه .

كتابات ابن حجر المتعلقة بترجمة أبي حنيفة النعمان :

وضع ابن حجر عدة ترجمات مختلفة الأساليب لأبي حنيفة النعمان فجاءت في خمس ترجمات ، ثلاث منها قصيرة وضعها في ثنايا كُتبه الحديثية وغيرها ، وترجمتان جعلهما في كتابين خاصين بالموضوع .

١- ترجم ابن حجر لأبي حنيفة في كتابه الحديثي (فتح الإله ، في شرح المشكاة) ضمن ترجمته لجماعة من كبار أئمة الحديث والفقه ، شملت نسبه ومولده وعلومه التي تلقاها من الصحابة والتابعين وتلاميذه ومحنته في توليه القضاء لبني أمية وبني العباس وبعضاً من أقوال العلماء فيه ووفاته .

٢- وضع ابن حجر لأبي حنيفة ترجمة موجزة جاءت في شرحه لكتاب عين العلم وطُبعت في مقدمة كتابه الخيرات الحسان الذي سنذكره بعد قليل .

٣- ترجم ابن حجر ترجمة ثالثة قصيرة أيضاً للإمام أبي حنيفة ضمنّها في معجمه المعروف بالإجازة ، اشتملت على اسمه ومولده وشيوخه وسبب تأليفه كتاباً مستقلاً في مناقب أبي حنيفة ، وذلك للرد على من أتهّم الإمام الغزالي الشافعي بوضع كتاب في الحط من أبي حنيفة وهو بريء من ذلك .

٤- الترجمة الرابعة التي وضعها ابن حجر للإمام أبي حنيفة جاءت في رسالة مستقلة بعنوان " رسالة في مناقب أبي حنيفة النعمان " أحال عليها ابن حجر نفسه في مقدمة كتابه الثاني في الموضوع والمعنون بـ " الخيرات الحسان " وقال ابن حجر عن سبب تأليفه لهذه الرسالة بأنه كان استجابة لطلب أحد علماء القسطنطينية . ووضح أنه كتب منه عدة نُسخ وزعت في البلاد وفُقدت منه نسخته الأصل لذا أعاد التأليف في نفس الموضوع وكتبه من جديد تحت عنوان " الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان " .

ورغم أن ابن حجر قد أضاع نسخته في زمانه إلاّ أننا عثرنا في بحثنا على ثلاث مخطوطات منه وهي : نسخة دار الكتب المصرية ضمن المجموع رقم (٢/٢١٢) تشتمل على ٢٧ ورقة ، ونسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم (٩٠٠/٢١٥) تقع في ٢١ ورقة ، ونسخة ثالثة بالمكتبة الظاهرية بدمشق برقم (١٠١٠٥) . ولقد ألف ابن حجر رسالته هذه في سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٨م بمكة المكرمة وقسمها على مقدمة وثلاثين فصلاً ، ذكر في المقدمة سبب التأليف وخصص الفصول الثلاثين لترجمة الإمام ونسبه ومولده وفضله وشيوخه وتلاميذه وفتاويه وصفاته ومحنته ثم وفاته .

٥- الترجمة الخامسة التي وضعها ابن حجر للإمام أبي حنيفة هي كتابٌ بعنوان : الخيرات الحسان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان . وجاء هذا الكتاب أيضاً بعنوان آخر وهو : قلائد العقيان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان .

ذكر ابن حجر مؤلفه هذا وأحال عليه في كتابه الإجازة المعروف بالمعجم كما أحال عليه في كتاب آخر له بعنوان المناهل العذبة في إصلاح ما وهي من الكعبة .

طُبع كتاب الخيرات الحسان طبعات عديدة بمصر ، وله طبعة أخيرة بلبنان . ومنه عدة نُسخ

مخطوطة اطلعت على واحدة منها بمكتبة المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم ١/١٨٣٦ وهي نسخة حسنة واضحة الخط .

يشتمل الكتاب على ٣ مقدمات وأربعين فصلاً .

يقول في أوله إنه ألفه استجابة لرغبة رجل من فضلاء القسطنطينية دعاه إلى وضع كتاب في مناقب أبي حنيفة ، كما يذكر أنه لخصه ونقحه من كتاب آخر في الموضوع وهو كتاب عقد الجمان لمحمد الشامي .

ولابن حجر سبب آخر أهم في تأليفه لهذا الكتاب وضحّه في المقدمة الأولى .

وهو ما شاع عن الإمام الغزالي في تأليفه لكتاب يحط فيه من أبي حنيفة ويسبّه ، وما أحدث هذا الكتاب من ردود فعل عند بعض العلماء مثل الكردي الذي ألف كتاباً في الحط من الإمام الشافعي ، إلا أن ابن حجر رفض تطاول العلماء والمؤرخين على الأئمة وانبرى في تأليف هذا الكتاب .

جعل المقدمة الأولى في الرد على ما ورد في الكتاب الذي نُسب إلى الغزالي في الحط من أبي حنيفة مع عرض ما مدحه به كبار العلماء . وفي المقدمة الثانية نهى الناس عن الوقوع في الأئمة والمجتهدين من العلماء . وفي الثالثة فيما ورد من تبشير النبي صلى الله عليه وسلم بالإمام أبي حنيفة ، وفيها استشهاد على فضل أهل فارس (وهم أصول أبي حنيفة) بالأحاديث التي رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموضوع .

أما الفصول الأربعون فقد قسمها بين العناصر التالية :

- ترجمة أبي حنيفة وذكر شيوخه وتلاميذه .
- مجالسه العلمية والأسس التي بنى عليها مذهبه .
- أخلاقه ودينه : من عبادة وتقى وآداب .
- وفاته وما قيل فيها من روايات .
- الرد على ما قيل فيه من التجريح .

ومن الملاحظ أن منهج ابن حجر في كتابه الخيرات الحسان هذا يختلف عن منهجه في رسالته

الأولى السابقة لأنه توسع في الأخبار التي أوردها في الكتاب الثاني وأضاف معلومات لم يذكرها في الرسالة الأولى [١٢].

ولنا أن نتساءل هنا بعد هذا العرض : ما الذي يجعل فقيهاً من كبار فقهاء المذهب الشافعي في عصره يؤلف خمس مؤلفات في المدح والثناء على إمام مذهب آخر كالإمام أبي حنيفة ؟ وقد يأتي الجواب من خلال العرض السابق ، فلعل السبب يعود إلى ما أشيع من أن الإمام الغزالي ألف كتاباً في الحط من أبي حنيفة ، فقام بعض الأحناف بردة الفعل ووضع مؤلف في ذم الإمام الشافعي . فيتضح لنا هدف ابن حجر الهيتمي من تعدد كتاباته في مناقب أبي حنيفة بأنه أراد ردع الناس من الكتابات التي تمس رجال العلم وأعلامه الفقهاء نتيجة للتعصب بين المذاهب السنية وبيان وجوب احترام المذاهب الأخرى على اختلافها . كما يمكن أن يكون ابن حجر قد قصد من تآليفه المتعددة هذه عدم تعصب الشوافع وفقهاءهم ضد المذهب الحنفي مذهب الدولة العثمانية القائمة بمكة آنذاك وإطفاءً لنار فتنة ربما تقوم بين مذهب الدولة والمذاهب الأخرى المتعايشة في المجتمع المكي . وذلك هو الدور الحقيقي للعلماء .

* كتاب (تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان) .

وضع ابن حجر كتابه هذا في ترجمة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[١٣].

نسبه له تلميذه السيفي في ترجمته وقال : " إن ابن حجر وضع كتابين في فضائل معاوية أحدهما أبسط من الآخر " [١٤] . وبعد البحث عن نسخ الكتاب لم نعثر إلا على كتاب واحد يحمل هذا العنوان لذا لم نعرف إن كان هو الأطول أم الأبسط .

طُبع الكتاب مع كتاب آخر لابن حجر الهيتمي وهو الصواعق المحرقة ، لإخوان الشياطين أهل البدع والضلال والزندقة . طبعة مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، وله طبعة حديثة بتحقيق أبي عبد الرحمن المصري دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

سبب تأليف الكتاب :

كما هو واضح من عنوان الكتاب فإن ابن حجر ألَّفه في الرد على من تطاول على الصحابي معاوية – t – ، وهذا دأب العلماء في تحمل مسئولياتهم والدفاع عن الصحابة من اعتداء الرافضة والشيعة وأهل البدع عليهم .

وقال في مقدمته : أنه ألفه استجابة لطلب من السلطان همايون أكبر سلاطين الهند (توفي سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٤م)[١٥] لظهور هؤلاء الرافضة في بلاده .

فوضع ابن حجر كتاباً بيّن فيه فضل معاوية وصفاته وما قيل فيه من أحاديث وذكر جهاده في نشر الإسلام وتنظيم دولته الأولى بعد عهد الخلفاء الأربعة وغير ذلك من مزاياه .

ورتبه على مقدمة وفصول وخاتمة .

اشتملت المقدمة : على بيان وجوب محبة جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم معاوية رضي الله عنهم أجمعين .

وجاءت فصول الكتاب للحديث عن مناقبه وعلومه وجهاده .

واشتملت الخاتمة : على فوائد منها قضية مقتل عثمان – t – ، وأحداث معركتي الجمل وصفين ، والصلح بين الحسين ومعاوية ، وبعض أخبار خلفاء بني أمية .

ولقد اعتمد ابن حجر في كتابه على مصادر الحديث وكتب المغازي والسير وبعض كتب التاريخ المكي كالفاكهي .

* عبد القادر الفاكهي المكي : عبد القادر بن أحمد بن علي (ت٩٨٩هـ/١٥٨١م)[١٦].

ولد الفاكهي بمكة سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م ودرس على كبار الشيوخ والعلماء فجمع من العلوم زاداً واسعاً في مختلف الاختصاصات ، من تفسير وفقه وأدب وتاريخ . كثُرتْ مؤلفاته حتى شبهه بعض المؤرخين بالجلال السيوطي[١٧] .

له بعض المؤلفات في التاريخ والسيرة . أما كتبه من التراجم التي تناولت التعريف بشخص واحد فقد عرفنا عناوين ثلاثة منها ذكرها المؤرخون وهي :

كتاب فضائل (أو مناقب) ابن حجر الهيتمي :

الذي ذكره الشوكاني ونقل عنه الغزي[١٨] منه نسخة محفوظة بمكتبة الحرم المكي برقم ١٤ تراجم (الفيلم رقم ١٨١٤) تقع في ثمان ورقات .

بعد الاطلاع على نسخة المخطوطة تبين أنها اشتملت على ضبط اسم ابن حجر الهيتمي ونسبه

وانتمائه وأصول قبيلته وولادته ووفاته ، مع ترجمة موجزة له يغلب عليها عرض أوصافه ودرجته العلمية ومختلف اختصاصاته مع ذكر بعض مؤلفاته . ثم أضاف إلى ذلك قصيدة في مدح ابن حجر الهيتمي كتبها الشاعر عبد العزيز الزمزمي ، وقصيدتين كتبهما المؤلف عبد القادر الفاكهي إحداهما في مدح الشيخ والثانية في رثائه .

ويذكر الفاكهي أنه لخص الرسالة مما كتبه أبو بكر با عمرو السيفي في ترجمته لشيخه ابن حجر .

كتاب القول النقي في مناقب المتقي :

لم نعرف منه نسخة وإنما عنوانه وبعض النقول عنه تدل على أنه يشتمل على ترجمة علي المتقي بن حسام الدين بن عبد الملك ابن قاضي خان المتوفى سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م . وهو من كبار علماء مكة ومن المشهور عنه الصلاح والتقوى .

نسب هذا الكتاب لعبد القادر الفاكهي العيدروسي ونقل عنه نصوصاً عديدة ، ولا نعرف منه نسخة [١٩] .

رسالة في مناقب عبد الرحمن العمودي :

كذلك لم نعرف من هذه الرسالة نسخة إلا أن عنوانه والنقول عنه تدل على أن فيه ترجمة للإمام العمودي المتوفى سنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م ، وهو من علماء مكة وعبادها ، تتلمذ على ابن حجر الهيتمي وغيره ، وله مؤلفات في الفقه الشافعي . وقد نقل العيدروسي عن كتاب الفاكهي في مناقب عبد الرحمن العمودي أنه قال : " ومناقبه أفردتها في رسالة " فيؤكد وجود هذه الدراسة ، كما نقل نصوصاً أخرى منها تدل على مكانته العلمية وقيمته في مجتمعه [٢٠] .

الصنف الثاني : الكتب التي تناولت التعريف بالعديد من المترجمين

وهي كتب الطبقات .

تتنوع كتب الطبقات إلى نوعين رئيسيين هما : كتب الطبقات العامة وكتب الطبقات الخاصة.

فكتب الطبقات العامة هي تلك التي وُضعت لتراجم خاصة الناس وعامتهم على مختلف اختصاصاتهم وأنواعهم وبلادهم ، مثل كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وذيله الوافي بالوفيات للصفدي ، وغير ذلك كثير .

وخلال بحثنا عن كتب الطبقات التي ألفها المكيون في القرن العاشر لم نجد كتاباً واحداً ألف في هذا المجال . ولعل آخر كتاب مكي من كتب الطبقات العامة ألف قبل القرن العاشر الهجري هو كتاب " دستور الأعلام " الذي ألفه محمد بن عمر بن عزم التونسي ثم المكي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) .

وأما كتب الطبقات التي وضعها المؤرخون المكيون في القرن العاشر فقد خُصصت للتعريف بجماعات معينة وتنوعت إلى العديد من الجوانب :

فمنها كتب اختصت بجماعة معينة من الأنبياء .

ومنها التي اختصت بجماعة يتحدون في انتساب واحد كالتي وضعت لتراجم آل البيت.

ومنها التي اختصت بالحكام والملوك .

ومنها التي خصصت لتراجم العلماء وأصحاب الوظائف الدينية كالأئمة والفقهاء والخطباء .

ومن هذه الاختصاصات ألف المكيون في القرن العاشر الهجري عدداً من المؤلفات نورد الحديث عنها في ما يلي بمنهجية نذكر فيها مصنفات المؤلفين مرتبين على ترتيب تواريخ وفياتهم.

* العز بن فهد : عبد العزيز بن عمر (ت٩٢٢هـ/١٥١٧م) [٢١] .

هو ثالث كبار المؤرخين والحفاظ من عائلة الفهود ، تتلمذ على كبار علماء عصره من المكيين والمشارقة عامة ، فمن شيوخه : والده النجم بن فهد ، وابن حجر العسقلاني ، وإمام الفقه الشافعي في عصره الشيخ زكريا الأنصاري . وتتلمذ عليه الكبار ومنهم السخاوي .

اشتهر في المجتمع المكي ونال فيه الدرجة اللائقة به ، تنوعت مؤلفاته بين التاريخ والحديث والعقيدة وغير ذلك ، اهتمت كتب التاريخ الكبيرة بذكر أخباره وترجمته والنقل عنه . وترك عدداً وافراً من المؤلفات ، كما نسخ بخطه العديد من كتب التاريخ والتراجم التي ألفها والده النجم أو التي ألفها التقي الفاسي .

وللعز بن فهد ثلاثة كتب وضعها في تراجم الطبقات الخاصة وهي : كتاب غاية المرام ، وكتاب نزهة ذوي الأحلام ، وكتاب ترتيب طبقات القراء للذهبي .

فله كتاب اختص بأصحاب الوظائف كالأئمة والخطباء والفقهاء وهو :

١- كتاب (نزهة ذوي الأحلام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاة البلد الحرام) .

هو كتاب في الطبقات ، ذكره ونسبه إليه المحبي والكتاني [٢٢] ولم نعرف للكتاب نسخة مخطوطة ، ويبدو من عنوانه أنه خصصه لتراجم الخطباء والأئمة والقضاة في مكة المكرمة .

وله كتاب اختص بأمراء مكة وهو :

٢- كتاب (غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام) .

أما عن كتاب غاية المرام هذا فنشير إلى أنه وعلى ما يبدو قد اشترك فيه الوالد النجم وابنه العز بن فهد في تأليفه ، ونُسب إلى الابن لأنه هو الذي أكمل نصوصه الكثيرة وألحق به قسماً كبيراً من تاريخه ، حسبما أثبته د. محمد الحبيب الهيلة بعد مقابلته المخطوطات [٢٣] .

ألف العز بن فهد كتابه هذا ليقدمه لشريف مكة أبي زهير بركات بن محمد بن بركات الحسني [٢٤] ليكون في خزانته لذا قال عنه في مقدمة كتابه : " وخدُمت بهذا التأليف خزانة من ألف برسمه ، وشرُف قدره باشتماله على اسمه ، وهو السيد الشريف ، والطود المنيف ... أبو زهير بركات ، عين المملكة وسر الذات ، سلطان مكة " [٢٥] .

لذا نرى أن العز بن فهد أكثر علماء عائلته مدحاً لأمراء مكة وأشدهم مبالغة في ذلك ، فجاءت مقدمة كتابه مشتملة على الكثير من أوصاف الأمتداح والتحلية لأمير مكة في عصره أبي زهير بركات ملحقاً ذلك بالعديد من الأشعار المادحة له . ثم تدرج إلى آبائه أمراء مكة التسعة واصفاً كل واحدٍ منهم بالأوصاف العلية والمدح والتشريف مع اختيار الأشعار في تفضيل كل واحد منهم [٢٦] .

تناول كتاب غاية المرام تراجم وأخبار الولاة والحكام الذين حكموا مكة من سنة فتحها في العهد النبوي إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري وهو العام الذي توفي فيه المؤلف ٩٢١هـ/١٥١٥م ، فأشتمل الكتاب على ٢٠٥ ترجمة .

واختلف أسلوب الترجمة حسب الأمير المترجم له فجاءت بعضها موجزة مختصرة وبعضها مطولة كما في ترجمته لعبد الله بن الزبير في قرابة ٣٦ صفحة [٢٧] وكما في ترجمته المطولة لشريف عصره بركات حيث بلغت ٣٠٤ ورقة [٢٨] .

أما عن مصادر هذا الكتاب الهام في تاريخ أمراء مكة وحكامها فقد اعتمد مؤلفه في جزئه

الأول على العديد من كتب الحديث والسيرة وتراجم الصحابة وأورد اختلاف الروايات فيها ، واعتماد العز بن فهد على كتب الحديث والسيرة يعود إلى سعة معرفته بالحديث ومؤلفاته ، كما اعتمد في كامل الكتاب على كتب التاريخ القديمة والقريبة من عصره .

ومن أهم مصادره التاريخية تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير ، وكتاب العقد الثمين للفاسي ، وتاريخ إتحاف الورى وكتاب الدر الكمين وهما لوالده النجم بن فهد ، وكان يعزو كل نص استفاده من المصادر إلى أصله .

ومن المهم في مصادر العز بن فهد أنه نقل وسجل لنا نصوصاً تاريخية هامة رغم ضياعها وعدم توفرها بين أيدينا مثل نقولاته المطولة عن تاريخ ابن محفوظ المكي [٢٩] .

٣- كتاب (ترتيب طبقات القراء ، للذهبي) :

اختص بطبقات خاصة محددة وهم القراء ، ولم نعرف له نسخة وإنما ذكره الغزي وابن العماد والكتاني ونسبوه إليه [٣٠] .

* محمد بن أبي السعود بن ظهيرة (ت ٩٤٠هـ/١٥٣٤م) [٣١] .

هو فقيه عالم ويُعد من المؤرخين الذين ألفوا في الطبقات ، تولى القضاء بمكة فكان قاضي القضاة بها إلى وفاته .

ذكر جار الله بن فهد بعض أخباره في كتابه نيل المنى [٣٢] .

- كتابه هو (الأخبار المستفادة ، فيمن ولي مكة من آل قتادة) .

ومن عنوان الكتاب نفهم أنه وضعه لترجمة وتاريخ أمراء مكة من القتاديين الذين حكموها بداية من سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م إلى عصر المؤلف [٣٣] ؛ ولم نعرف من الكتاب نسخة موجودة وإنما ذكره ونسبه إليه العصامي في مقدمة كتابه وحاجي خليفة في كشف الظنون [٣٤] .

* مؤلفات جار الله بن فهد في الطبقات [٣٥] :

كما اهتم جار الله بالكتابة في التراجم للشخص الواحد فقد اهتم أيضاً بالتأليف في الطبقات الخاصة ، فصنف منها ثمانية كتب تنوعت موضوعاتها وأغراضها وهي :

١- كتاب الأقوال المتبعة ، في بعض ما قيل في مناقب أئمة المذاهب الأربعة .

وهي رسالة انفرد بنسبتها لجار الله بن فهد الزركلي [٣٦] وذكر بأنها مخطوطة من خمس ورقات حفظت بالمكتبة الظاهرية برقم ٢١٣ . وأنها عبارة عن تلخيص لمناقب الأئمة الأربعة فجاءت موجزة ملخصة من مصادر سابقة . ولم نتمكن من الاطلاع عليها ، رغم حرصنا على ذلك .

٢- كتاب (بلوغ الأرب ، بمعرفة أي الأنبياء من العرب) .

ذكره ونسبه إليه حاجي خليفة [٣٧] ، وقال : ألفه سنة ٩٣٦هـ/١٥٢٩م .

وهو رسالة صغيرة مختصرة قال مؤلفها جار الله في مقدمتها : " فقد تكرر السؤال عن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هل نسبتهم للعجم أو العرب ، وهل اسمهم ولفظهم أعجمي أو مُعرب ... فأستخرت الله في بيان ذلك فجمعته على أحسن الطرق والمسالك ... الذي ظهر لي من كلام العلماء والمفسرين وقصص الأنبياء وكتب النسب والتاريخ أن العروبية فيهم تنقسم على ثلاثة أقسام عربي الاسم [وقد اعتبر أن اسم آدم عربياً من اديم الأرض] وعربي النسب وعربي اللسان " [٣٨] .

عرض المؤلف في رسالته هذه أصول الأجناس البشرية من أبناء نوح عليه السلام الساميين والحاميين وبني يافث ، بروايات متعددة تتماشى مع آراء وأقوال عصره ، وعرض أسماء الأنبياء من العرب معتمداً على نصٍ من فتاوى الشيخ أحمد العراقي متعلقاً بمعرفة الأنبياء والمرسلين المذكورين في الكتاب والسنة ، وفي نهاية الرسالة يقول : " لما قدم علينا شيخنا الإمام أبو الحسن محمد بن محمد البكري القاهري في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وتسعمائة سألته نظم هذه الأقوال فقال في مجلسه بديهة :

إذا رُمت عدّ الأنبياء من العرب	فهم خمسةُ في قول جمع قد اقترب
محمد هود صالح وشعيب مع	أخي المجد إسماعيل يا صاحب الأدب
وأكثرهم يُعزى ليعقوب غير من	تقدمه أو للأخير قد انتسب " [٣٩]

وقد اعتمد المؤلف في هذه الرسالة على العديد من المصادر الهامة سواء في الأنساب مثل تهذيب الأسماء واللغات للنووي ، وكتاب نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب للقلقشندي ، كما اعتمد على العديد من الكتب اللغوية من أهمها كتاب : المعرب للجواليقي وكتاب المُزهر في علوم اللغة للسيوطي .

اعتمدنا في هذا التعريف على مخطوطة حُفظت بمكتبة الحرم المكي ضمن المجموعة رقم ٤٢٣ حديث وقد وقع ترقيمها بالصفحات من ص٣١-٣٩ ، وهي نُقلت من خط المؤلف كتبها علي الحسني سنة ١٠٣١هـ/١٦٢٢م .

٣- كتاب (تاريخ يُفيد في معرفة المترجمين في الضوء اللامع من الأحياء) .

جعله جار الله ذيلاً لكتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي ، فأكمل فيه تراجم العلماء الذين عاشوا بعد وفاة السخاوي ولم يذكرهم في كتابه ، فأضاف جار الله العديد من المعلومات لتراجمهم .

إلا أننا لم نعثر على نسخة من الكتاب ، وإنما وجدنا عنه نقولاً كثيرة في كتاب النور السافر للعيدروسي حيث اعتمد عليه في النقل عن سبعة عشر من تراجم العلماء .

وفي كتاب السحب الوابلة لابن حميد حيث نقل عنه في أربعة عشر ترجمة .

وتفاوتت هذه النقول في الكتابين بين النصوص الطويلة للترجمة (٤٠) وبين النقول المتوسطة والقصيرة غالباً (٤١) .

ولقد تعددت التراجم التي نقل فيها العيدروسي أخباراً منقولة عن هذا الكتاب لجار الله بن فهد إلا أن أغلبها كانت تهم علماء المكيين من مختلف المذاهب الفقهية ، في حين أن نقول ابن حميد في السحب الوابلة اختصت بالحنابلة من الفقهاء ، وأغلبهم من غير المكيين .

نضيف إلى ذلك أن ابن حميد قد اعتمد في النقل على أكثر من نص عن جار الله (٤٢) ؛ وذلك في الترجمة لشخص واحد من الفقهاء فنجده يقول في أول النقل : قال الشيخ جار الله بن فهد القرشي المكي في تذييله على الضوء ، ثم يقول في نقل آخر : قال في الضوء ، ويلحقها في نقل ثالث بقوله : قال جار الله (٤٣) .

وقد يرجح ابن حميد ما ينقله عن جار الله وبين الأسباب كقوله في ترجمة إبراهيم الشويهي: " ما ذكره الشيخ جار الله في تاريخ وفاته أصح لأنه أجازه سنة أربع عشرة وهو أعرف بذلك "(٤٤).

وعلى كلٍ فإن النصوص التي نقلها الكتابان تعتبر هامة إذ احتوت على إضافات تاريخية لتراجم العديد من المكيين وغيرهم جُمعت من كتاب جار الله بن فهد الذي وضعه تكملة وملحقات على كتاب الضوء اللامع للسخاوي مع اعتمادهما على الكثير من المصادر الأخرى .

٤- كتاب تحفة اللطائف ، في فضل الحبر ابن عباس ووج والطائف .

نسب هذا الكتاب لجار الله بن فهد حاجي خليفة وقال : " ألفه سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م (٤٥) إلا أن مطالعة الكتاب تدلنا على أنه ألفه بعد ذلك التاريخ ، ففي ص٣٤ منه يذكر جار الله أنه زار الطائف سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م ويترحم على والده العز بن فهد المتوفى سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م مما يدل على أن الكتاب ألف بعد ذلك .

على الرغم من أن العنوان يدل على أن الكتاب تناول مدينة الطائف ووج ، وترجمة ابن عباس – t – ، فإن واقع الأمر أنه يحتوي على تراجم ثلاثة ممن دفنوا بالطائف وهم : العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبر الأمة عبد الله بن عباس ، وأبي القاسم محمد ابن الحنفية . وبذلك اشتمل الكتاب على تراجم ثلاثة رجال لا شخص واحد كما دل عليه العنوان .

يذكر جار الله بن فهد في المقدمة أنه وضع كتابه على مقدمة وبابين وخاتمة .

فكانت المقدمة : في فضائل الطائف ووادي وج .

والباب الأول : في أخبار الطائف .

والباب الثاني : يحتوي على ثلاثة فصول :

١- فضائل العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢- فضائل ترجمان القرآن عبد الله بن عباس .

٣- فضائل ابن الحنفية (وهو ابن الإمام علي بن أبي طالب ، وهو من التابعين) .

ويذكر المؤلف أنه أورد ترجمة محمد ابن الحنفية في كتابه هذا لأن نسب بني فهد يتصل به فيقول : " وما نقلت سلسلة نسبه إلا بسبب اتصال نسبي به ، لأنه من ذرية الشريف الفاضل أبي علي أحمد ... " (٤٦) .

والخاتمة : في ذكر الآثار في وادي وج وقرى الطائف . وذكر شهداء يوم فتح الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عرض أشعاراً كثيرة في ذكر زيارة ابن عباس ومدحه وعرض فضائله.

وقد سلك جار الله منهجاً علمياً وثق فيه النصوص التي نقلها من مصادرها المتنوعة . فقد اعتمد العديد من كتب طبقات الصحابة ، والكثير من كتب السيرة النبوية ، وكتب تاريخ

الطائف، بالإضافة إلى أمهات الكتب القديمة في التاريخ الإسلامي ، ومصادر معاصرة له وخاصة كتاب شيخه السخاوي الذي وضعه في تاريخ المدينة نفسها .

وطُبع الكتاب بعناية نادي الطائف الأدبي (دون ذكر تاريخ الطبع) حققه وعلق عليه وراجعه محمد سعيد كمال ، ومحمد منصور الشقحاء .

٥- كتاب تحقيق الصفا ، في تراجم بني الوفاء .

ذكره حاجي خليفة وقال : جمع فيه الوفائية والشاذلية ورتبهم على الحروف [٤٧] ، ولم نعرف منه نسخة .

٦- رسالة في كتاب السر في ديوان مصر . .

لم نعثر على نسخة من هذه الرسالة ، وقد ذكرها المؤلف في كتابه تحفة اللطائف ونسبها إليه العديد من المؤرخين منهم حاجي خليفة ومرداد [٤٨] .

٧- القول المؤتلف في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف .

ذكره ونسبه إليه المحبي والكتاني [٤٩] . تحتفظ مكتبة الحرم المكي بنسخة منه برقم ١١٨ تراجم ، تقع في ثلاث ورقات . درسها د. الهيلة فقال عنها : " كتب جار الله بن فهد رسالته هذه جواباً عن سؤال ورد عليه في ذلك فأجاب ذاكراً العائلات المكية الخمسة : بيت الفاسي ، بيت الطبري، بيت عبد القوي ، بيت البخاري ، بيت الطباطبائي ... أثبت جار الله بن فهد في رسالته هذه أن بيت الفاسي ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، أما بيت الطبري فهو حسيني . وذكر بعض مشاهيرهم كالمحب الطبري (ت٦٩٤هـ/١٢٩٥م) وتحدث عن أقدميتهم بمكة ، وبيّن أن المؤرخ ابن جرير الطبري لا قرابة له مع هذا البيت ... منكراً انتساب البيوت الثلاثة الباقية وهم بنو عبد القوي ، بنو البخاري ، بيت الطباطبائي إلى السلالة النبوية . اعتمد جار الله في رسالته هذه على مصادر كثيرة منها مؤلفات التقي الفاسي ومؤلفات جده النجم بن فهد (وهي كثيرة) ومن مصادره كتاب التشويق ، إلى بيت الله العتيق تأليف جمال الدين الطبري " [٥٠] .

٨- كتاب معجم الشعراء .

جمعه جار الله وخصه بالشعراء الذين سمع منهم الشعر ، ولم نعرف منه نسخة وإنما ذكره الغزي ونسبه إليه في ترجمته لأحمد الباعوني الحلبي الشاعر المعروف بابن الصواف . ونسبه إليه أيضاً الكتاني في كتابه [٥١] .

* مؤلفات ابن حجر الهيتمي المكي في الطبقات الخاصة :

لقد ألف ابن حجر الهيتمي في التراجم التي اختصت بشخص واحد كما ألف كتاباً في الطبقات الخاصة بفئة معينة وهو .

كتاب معدن اليواقيت الملتمعة في مناقب الأئمة الأربعة .

نسب هذا الكتاب لابن حجر ، البغدادي ومن نقل عنه (٥٢) ، ولم نعرف منه نسخة .

ومن الواضح اهتمام ابن حجر العالِم المكي بمناقب الأئمة وفضائلهم لذا نراه يضع مؤلفاً خاصاً بأئمة المذاهب السنية كما كان يترجم لهم في ثنايا مؤلفاته الأخرى .

ومع أننا لم نحصل على نسخة من هذا المخطوط إلاّ أننا عثرنا على تراجم الأئمة الأربعة في معجم شيوخ ابن حجر المعنون بالإجازة (٥٣) حيث وضع ترجمة مطولة للأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل .

كما وضع لهم ترجمات أخرى في كتابه الحديثي فتح الإله في شرح المشكاة وهي ترجمات وافية في فضائلهم .

* النهروالي : قطب الدين محمد ابن علاء الدين (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) (٥٤) .

ينتسب لأسرة عدنية الأصل انتقلت إلى نهروالة من بلاد الهند فانتسبت إليها . ولد في مدينة لاهور الهندية ثم قدم إلى مكة مع والده وأقام بها وجمع زاده العلمي من شيوخها ومؤرخيها كجار الله بن فهد ، برع في الفقه وعلوم الدين واللغة والتاريخ وألف بالعربية والتركية والفارسية ، كما استعان به الأمراء وكبار الشخصيات العثمانية في حجهم واعتمارهم . تولى الإفتاء والتدريس بمكة المكرمة .

تناول قطب الدين النهروالي الكتابة في التراجم والطبقات في مؤلفين له وهما : كتاب طبقات الفقهاء الحنفية ، وزياداته على كتاب دستور الأعلام لابن عزم .

١- كتاب طبقات فقهاء الحنفية :

لم نعرف منه نسخة وإنما يدل عنوانه على أنه كتاب طبقات لفقهاء المذهب الحنفي ، ذكره الغزي ونسبه إليه ونقل عنه ، وقال عنه حاجي خليفة بأن النهروالي جمع كتاباً في أربع مجلدات في طبقات الحنفية ، كما ذكره البغدادي والكتاني ونسبوه للنهروالي (٥٥) .

وعندما ترجم الغزي لقطب الدين النهروالي في كتاب الكواكب السائرة قال عنه : " وألم باللغتين التركية والفارسية ، ومن مؤلفاته طبقات الحنفية احترقت في جملة كتبه " (٥٦) .

٢- زيادات النهروالي على كتاب دستور الإعلام .

كتاب دستور الإعلام ، بمعارف الأعلام ألفه المؤرخ محمد بن عمر بن عزم التونسي المكي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) [٥٧] ليكون جامعاً للعديد من تراجم العلماء في مختلف اختصاصاتهم وبلدانهم ، فجاءت تراجمه موجزة ومفيدة لا تزيد غالباً على بعض الجمل القليلة . وقد رتبه على خمسة أقسام بحسب الشهرة والكنية والنسبة إلى الحرفة أو البلد أو الجد وغير ذلك .

انتشر الكتاب وظهرت فوائده وتعددت نسخ مخطوطاته ، وعلى الرغم من كثرة التراجم الواردة فيه فإن علماء التواريخ شاركوا بالزيادات فيه فوضع عليه أربعة من المؤلفين إضافات عديدة هامة.

فجاءت زيادة القطب النهروالي المكي (ت٩٩١هـ/١٥٨٣م) .

زيادة زين الدين البصروي (ت١١٠٢هـ/١٦٩١م) .

زيادة إبراهيم الجينيني (ت١١٠٨هـ/١٦٩٦م) .

زيادة ابن حمزة (ت١١٢٠هـ/١٧٠٧م) .

وفي أغلب المخطوطات وضعت علامات على كل تلك الزيادات ، فكانت علامة زيادات قطب الدين حرف (ق) [٥٨] .

وعند تتبعي لمخطوطة الكتاب المحفوظة بمكتبة خدا بخش بالهند (برقم ٢٣٧٦) مكنني أن أحصي من إضافات النهروالي ٣٦ ترجمة في ٥٠ ورقة متفرقة من الكتاب . ورأيت أنه سار فيه على نفس أسلوب أصل الكتاب كما وضعه ابن عزم فكانت ترجماته موجزة تكتفي بإيراد اسم المترجم وتاريخ وفاته مع عرض اختصاصاته العلمية ومكانته في مجتمعه .

الخاتمة

تنوع الإرث الثقافي التاريخي الذي خلفه لنا المؤرخون المكيون فمن مؤلفات تاريخية على منهج الحوليات ، إلى مؤلفات تسجل الأحداث حسب الدول والمناطق ، إلى مؤلفات عديدة في تراجم الشخصيات وكتب الطبقات ، وغير ذلك من النصوص التاريخية ذات المجالات العديدة .

وتتنوع مؤلفات المكيين في التراجم – في القرن العاشر الهجري – إلى نوعين :

١- كتب تراجم خصصت لشخص واحد سواء كان سياسياً أو عالماً أو ذا درجة عالية في دينه وخلقه .

٢- كتب طبقات يترجم فيها المؤرخ للعديد من الأشخاص الذين تجمعهم صفة واحدة أو انتساب واحد كأن يكونوا من الأنبياء أو من آل البيت أو أن يكونوا من الملوك والحكام أو أئمة المذاهب الفقهية السنية أو فقهاء من أحد المذاهب أو أصحاب الوظائف الدينية الشرعية بمكة المكرمة .

وإن المتمعّن في أسباب وضع بعض هذه المؤلفات يلاحظ أنها أُلِّفت لغايات شريفة أهمها :

- التعريف برجال لمعوا في مجتمعهم بعلو درجاتهم الدينية والعلمية والأخلاقية .

- محاولة إطفاء الفتن التي يمكن أن تحدث بين أتباع المذاهب السنية ، فنرى أن العديد من المؤلفين يكتبون تراجم وفضائل كل الأئمة الأربعة في كتاب واحد ليعلموا الناس عدم تفاضلهم وعدم تمييز مذهب على آخر .

- كما نرى أن بعض هؤلاء المؤلفين يكون شيخاً كبيراً في مذهبه الشافعي فيضع المؤلفات العديدة في فضائل الإمام أبي حنيفة (كابن حجر الهيتمي الشافعي) ولا يخفى ما في ذلك من تقوية أواصر الوحدة والمحبة بين أتباع مختلف المذاهب الفقهية ، والرد على ما قد يحدث من بعض الكُتاب من تجريح وتطاول يمس أحد الأئمة .

- كما تعدد مؤلفات المؤرخين المكيين في تراجم بعض سلاطين الدولة العثمانية بحكم بسط سلطانها على مكة المكرمة في تلك الفترة ، وأثرها على المجتمع المكي بما أغدقته عليه من أموال وهبات .

- واعتنى بعض المؤلفين بتراجم أمراء مكة على مر العصور وجمع أخبارهم وإنجازاتهم في مكة .

وبسبب هذه الغايات والأسباب ظهرت مؤلفات عديدة في فن التراجم والطبقات لتكون مصادر تاريخية مفيدة وثرية تعين على استجلاء العديد من الأخبار التي لم ترد في كتب التاريخ الكبيرة ، وتفتح آفاق لمعرفة شخصيات المجتمع المكي ودراسة خصائصه .

والله ولي التوفيق فله الحمد سبحانه ،،

الهوامش

١- انظر : التمهيد الذي وضعته داليا عبد الستار الحلومي في رسالتها : كتب التراجم في التراث العربي، ص٤٣-٥٧ .

٢- من هؤلاء المؤرخين الثمانية من ألف كتاباً واحداً فنُعرّف بالمؤلف عند ورود تأليفه ، وبعض المؤرخين تعددت مؤلفاتهم في هذا المجال ؛ لذلك نُعرف بكل واحد منهم عند ورود أول كتاب له .

٣- انظر ترجمته في : العيدروسي : النور السافر ١٢٦-١٣٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ١٤١-١٤٢ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص١٠٧ .

٤- جار الله بن فهد : نيل المنى ص٢٩٧ ، ٣٠١ .

٥- نقل عنه العز بن فهد في كتابه غاية المرام أشعاراً كثيرة بلغ عدد أبياتها ٣٦٥ بيتاً . انظر فهرس الأشعار في تحقيق كتاب غاية المرام ص٦٦٤-٦٦٩ ، بالإضافة إلى قصيدته التي وردت في كتابه الدر المنظوم وبها ٦٣ بيتاً .

٦- حاجي خليفة : كشف الظنون ص٧٣٥ .

٧- اعتمدنا في التعريف بهذا الكتاب ونقلنا قسما هاما مما أورده د. الهيلة في كتابه التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٨١-١٨٢ . ونضيف عليه بعض ما ظهر لنا من التعريف بمصادره وبيان أسلوبه .

٨- انظر ترجمته : السخاوي : الضوء اللامع ٢ : ٤ ، ابن حميد : السُحب الوابلة ص٨٠-٨١ ، مرداد : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ص١٠٢ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٨٤-١٨٥ ، ويذكر د/ الهيلة أنه كان حياً سنة ٩٣٣هـ ولكن ما وجدناه في مصادر ترجمته يدل على أنه كان حياً سنة ٩٤٢هـ .

٩- تعددت مصادر ترجمة جار الله بن فهد – انظر مثلاً : السخاوي : الضوء اللامع ٣ : ٥٢ ، العيدروسي: النور السافر ٢٤١-٢٤٢ ، الغزي : الكواكب السائرة ٢ : ١٣١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٠١ ، كحالة : معجم المؤلفين ١٠ : ١٧٥-١٧٦ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٩٥-١٩٧ .

١٠- الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص٩٩-١٠٨ .

١١- انظر ترجمته : العيدروسي : النور السافر ٢٨٧-٢٩٢ ، الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ١١١-١١٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٧٠-٣٧٢ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ص٢٨٣ ، الشوكاني : البدر الطالع ١ : ١٠٩ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ١٢٢-١٢٤ ، الكتاني : فهرس الفهارس ١ : ٣٣٧-٣٤٠ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون ٢١٦-٢٢٨ ، لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية .

١٢- لمياء شافعي : ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ص٣٨٩-٤١٠ . اعتمدت الدراسة على مؤلفات ابن حجر ومصادر ترجمته منها : ابن حجر : فتح الإله ، في شرح المشكاة ورقة ١٢ب-١٣ب ، : رسالة في مناقب أبي حنيفة ورقة ٢أ ، : الإجازة ورقة ٥٧ب-٦٠ب ، : الخيرات الحسان ص٤-٨ ، العيدروسي : النور السافر ص٢٩١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٧١ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص١٢٣ .

١٣- أحيل في استنتاجاتي لدراسة هذا المؤلف على ما ورد لي من دراسة سابقة عنه ضمن رسالتي للدكتوراه والتي عنوانها ابن حجر الهيتمي وجهوده في الكتابة التاريخية ص٣٥٢-٣٦٤ .

١٤- السيفي : نفائس الدرر ورقة ٥ ب - كما أحال عليه ابن حجر نفسه في كتابه إخوان الصفابنبذ من أخبار الخلفاء ورقة ١٩ ب ، وأحال عليه حفيد ابن حجر خليفة الزمزمي في كتابه نشر الآس في فضائل زمزم ورقة ١٢ ب ، ٢٣ أ . ونسب هذا الكتاب لابن حجر الكتاني : فهرس الفهارس ص٣٩٣ ، البغدادي : هدية العارفين ١ : ١٤٦ ، سركيس : معجم المطبوعات ١ : ٨٢ ، دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ١ : ١٣٤ .

١٥- انظر ترجمة السلطان همايون في : العيدروسي : النور السافر ص٢٥٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٣٣٣ .

١٦- انظر ترجمته : الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ١٦٩ ، العيدروسي : النور السافر ص٣٥٣ ، الشوكاني : البدر الطالع ١ : ٣٦٠ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ٢٧٢-٢٧٣ ، البغدادي : هدية العارفين ١ : ٥٩٨ ، الزركلي : الأعلام ٤ : ٣٦ ، كحالة : معجم المؤلفين ٥ : ٢٨٣ .

١٧- مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص٢٧٣ .

١٨- الشوكاني : البدر الطالع ١ : ٣٦٠ ، الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ١١٣ .

١٩- انظر ترجمة علي المتقي . العيدروسي : النور السافر ٣١٥-٣١٩ ، والنقول عن الكتاب وردت في ص٣١٧ ، ٣١٨ منه .

٢٠- انظر ترجمة عبد الرحمن العمودي في العيدروسي : المصدر السابق ص٢٦٥-٢٦٦ ، والنقول وردت في نفس الصفحات .

٢١- انظر ترجمته : السخاوي : الضوء اللامع ٤ : ٢٢٤ ، الغزي : الكواكب السائرة ١ : ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ١٠٠-١٠٢ ، البغدادي : هدية العارفين ١ : ٥٨٣ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٧٥٤-٧٥٦ ، الزركلي : الأعلام ٤ : ٢٤ ، والأستاذ فهيم شلتوت في مقدمة تحقيقه لكتاب العز بن فهد : غاية المرام ، ص٧ .

٢٢- المحبي : خلاصة الأثر ٢ : ٤٥٧ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٧٥٥ .

٢٣- الهيلة : التاريخ والمؤرخون بمكة ص١٧٥-١٧٦ .

٢٤- بركات بن محمد بن بركات ولد بمكة سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م وحكمها منفرداً لمدة طويلة من سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م إلى أن توفي سنة ٩٣١هـ/١٥٢٥م غير الفترة التي حكمها مشاركاً لوالده وإخوانه .
انظر ترجمته : عارف عبد الغني : تاريخ أمراء مكة المكرمة ص٦٥٩-٦٩١ .

٢٥- العز بن فهد : غاية المرام ، المقدمة ص٤ .

٢٦- العز بن فهد : المصدر السابق ص٤-١٠ .

٢٧- العز بن فهد : المصدر السابق ١ : ١٣٩-١٧٥ .

٢٨- العز بن فهد : المصدر السابق ٣ : ٣٥-٣٣٩ .

٢٩- انظر فهارس كتاب غاية المرام ٣ : ٣٥٧ .

٣٠- الغزي : الكواكب السائرة ١ : ٢٣٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ١٠٠ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٧٥٥ .

٣١- انظر ترجمته : ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٢٤٣ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ص٣٠ ، كحالة: معجم المؤلفين ١٠ : ٢٤ .

٣٢- جار الله بن فهد : نيل المنى انظر فهارس الكتاب ص٨٦٤ .

٣٣- عارف عبد الغني : تاريخ أمراء مكة المكرمة ص٤٦٢-٦٩١ .

٣٤- العصامي : سمط النجوم العوالي ١ : ١٦ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ٣٠ .

٣٥- سبقت الترجمة لجار الله بن فهد . انظر (ص١٠) .

٣٦- الزركلي : الأعلام ٦ : ٢٠٩ .

٣٧- حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ٢٥٣ .

٣٨- جار الله بن فهد : بلوغ الأرب ص٣٢ .

٣٩- جار الله بن فهد : بلوغ الأرب ص٣٧ .

٤٠- العيدروسي : النور السافر ص٢٠٦-٢٠٧ ، وما ورد في السحب الوابلة لابن حميد ص١٣٦-١٣٧ وص١١٢-٢١٤ .

٤١- انظر : العيدروسي : النور السافر ص٢١ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٣٧ . أما نقولات ابن حميد في السحب

الوابلة فجاءت في الصفحات ٢٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٣٦ ، ٢١٢ ، ٢٣٨ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٤٣١ ، ٤٧٣ ، ٤٨٧ .

٤٢- كثيراً ما يقع محقق كتاب السحب الوابلة ، طبعة دمشق في خطأ بأن يورد اسم جار الله بن فهد بلفظ جاد الله كما في الصفحات ٢٤ ، ١٠١ وغيرهما .

٤٣- انظر : ابن حميد : السحب الوابلة ص٢٤ .

٤٤- المصدر السابق : نفس الصفحة .

٤٥- حاجي خليفة : كشف الظنون ص٣٧٢-٣٧٣ .

٤٦- جار الله : تحفة اللطائف ص١٣٧ .

٤٧- حاجي خليفة : كشف الظنون ١ : ٣٧٨ .

٤٨- حاجي خليفة : مصدر سابق ١ : ٨٨٥ ، مرداد : المختصر من نشر النور والزهر ص١٥٣ .

٤٩- المحبي : خلاصة الأثر ٢ : ٤٥٧ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٢٩٧ .

٥٠- الهيلة : التاريخ والمؤرخون ص٢٠٦-٢٠٧ .

٥١- الغزي : الكواكب السائرة ١ : ١٣٩ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٦٢٠ .

٥٢- البغدادي : هدية العارفين ١ : ١٤٦ ، إيضاح المكنون ٢ : ٥١٠ ، ٥٤٣ ، الزركلي : الأعلام ١ : ٢٣٤ ، كحالة : معجم المؤلفين ٢ : ١٥٢ .

٥٣- ابن حجر : الإجازة ورقة ٥٧ ب - ٧١ ب .

٥٤- راجع ترجمته : النهروالي : البرق اليماني : مقدمة تحقيق حمد الجاسر والتي اشتملت على ٨٠ صفحة ، الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ٤٤-٤٨ ، العيدروسي : النور السافر ص٣٨٣-٣٨٨ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ٤ : ٣٣٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٨ : ٤٢٠ ، الهيلة : التاريخ والمؤرخون ص٢٤٢-٢٤٥ ، لمياء شافعي : تذكرة النهروالي المكي وأهمية رحلاته ص٤١٠-٤١٢ .

٥٥- حاجي خليفة : كشف الظنون ص١٠٨٩ ، البغدادي : إيضاح المكنون ٢ : ٧٨ ، الكتاني : فهرس الفهارس ص٩٤٥ .

٥٦- الغزي : الكواكب السائرة ٣ : ٤٥ .

٥٧- انظر ترجمته : الهيلة : التاريخ والمؤرخون ص١٦٣-١٦٥ .

٥٨- وعلامة (هـ) للجينيني ، وعلامة (ز) لابن حمزة ، وعلامة (ب) للبصروي .

ثبت المصادر والمراجع

- البغدادي : إسماعيل باشا (ت١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) :

إيضاح المكنون ، في الذيل على كشف الظنون ، عن أسامي الكتب والفنون ، ط: إسطنبول سنة (١٩٤٥م) مجلدان .

هدية العارفين ، في أسماء المؤلفين ، وآثار المصنفين ، ط : إسطنبول سنة (١٩٥١م) مجلدان .

- ابن حجر : أحمد بن محمد الهيتمي المكي (ت٩٧٤هـ/١٥٦٦م) :

الإجازة معجم شيوخ ابن حجر ، نسخة مكتبة برلين - ألمانيا - رقم (١٧٤) .

تطهير الجنان واللسان ، عن الخطور والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان ، تحقيق أبي عبد الرحمن المصري الأثري ، ط : دار الصحابة للتراث بطنطا ، مصر (١٤١٣هـ/١٩٩٢م) .

الخيرات الحسان ، في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان ، ط : دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، تقديم وتحقيق الشيخ خليل الميس .

- الحلومي : داليا عبد الستار (معاصرة) :

كتب التراجم في التراث العربي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ٢٠٠٨م .

- ابن حميد النجدي :

السحب الوابلة ، على أضرحة الحنابلة ، ط : مكتب الإمام أحمد ، دمشق ، سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

- خليفة : حاجي مصطفى بن عبد الله (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) :

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ط : إسطنبول (١٩٤١م-١٩٤٣م) ، نشر محمد شرف الدين، مجلدان .

- الزركلي : خير الدين (ت١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) :

الأعلام ، ط : دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، ١٩٩٠م ، ٨ أجزاء .

- السخاوي : محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) :

الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع ، نشر مكتبة حسام الدين المقدسي ، ط : القاهرة ، ١٣٥٣هـ ، ١٢ جزءاً .

- شافعي : لمياء أحمد بن عبد الله :

تذكرة النهروالي المكي وأهمية رحلاته الست ، بحث منشور ضمن سلسلة مداولات جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ص٤٠٧-٤٤٥ ، اللقاء التاسع ١٤١٩هـ/٢٠٠٨م .

ابن حجر الهيتمي المكي وجهوده في الكتابة التاريخية ، رسالة دكتوراه منشورة ، ط : مكتبة الغد ، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

- الشوكاني : محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) :

البدر الطالع ، بمحاسن من بعد القرن السابع ، مطبعة السعادة ، القاهرة سنة ١٣٤٨هـ ، جزآن .

- ابن ظهيرة : أحمد بن عطية (كان حياً ٩٤٢هـ/١٥٣٤م) :

جواهر العقود ، في ترجمة القاضي جمال الدين أبي السعود ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، تيمور ، رقم ٥٠٣٧ .

- عبد الغني : عارف :

تاريخ أمراء مكة المكرمة ، ط : دار البشائر ، دمشق ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

- العصامي : عبد الملك بن حسين المكي (ت١١١١هـ/١٦٩٩م) :

سمط النجوم العوالي ، في أنباء الأوائل والتوالي ، ط : المطبعة السلفية ، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ، ٤ أجزاء .

- ابن العليف : أحمد بن الحسين (ت٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) :

الدرر المنظوم ، في مناقب با يزيد سلطان الروم ، مخطوط مكتبة فاتح - تركيا - رقم ٤٣٥٧ .

- ابن العماد الحنبلي : عبد الحي بن علي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) :

شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب ، ط : دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٨٩م، ٨ أجزاء .

- العيدروسي : محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) :

النور السافر ، عن أخبار القرن العاشر ، تصحيح محمد رشيد أفندي الصفار ، مطبعة الفرات - بغداد - (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) .

- الغزي : نجم الدين محمد بن محمد بن أحمد (ت١٠٦١هـ/١٦٥١م) :

الكواكب السائرة ، بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبر سليمان جبور ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، سنة ١٩٧٩م ٣ أجزاء .

- ابن فهد : جار الله محمد بن عبد العزيز (ت٩٥٤هـ/١٥٤٧م) :

تحفة اللطائف ، في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف ، تعليق ومراجعة محمد سعيد كمال ، ومحمد منصور الشقحاء ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ، د.ت.

بلوغ الأرب ، في معرفة أي الأنبياء من العرب ، مخطوط ، مكتبة الحرم المكي ، ضمن المجموع رقم ٤٢٣ حديث .

الجواهر الحسان ، في مناقب السلطان سليمان بن عثمان ، مخطوط مكتبة جامعة إسطنبول (دار مثنوي رقم ٣٦٠) .

القول المؤتلف ، في نسبة الخمسة البيوت إلى الشرف ، مخطوط مكتبة الحرم المكي (رقم ١١٨ تراجم) .

نيل المنى ، بذيل بلوغ القرى ، لتكملة إتحاف الورى ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، طبع مؤسسة دار الفرقان للتراث الإسلامي ، ط : بيروت ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، جزآن .

- ابن فهد : العز عبد العزيز بن عمر الهاشمي المكي (ت٩٢٢هـ/١٥١٧م) :

غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، تحقيق فهيم شلتوت ، ط : مركز البحث العلمي التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، دار المدني ، جدة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ثلاثة أجزاء .

- الكتاني : عبد الحي بن عبد الكبير (ت١٣٨٢هـ/١٩٦٢م) :

فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، طبع باعتناء وفهرسة إحسان عباس، ط : دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، في ثلاثة أجزاء.

- كحالة : عمر رضا :

معجم المؤلفين ، مبطعة الترقي ، دمشق ، سنة ١٩٥٧م-١٩٦١م ، ١٥ جزءاً .

- المحبي : محمد أمين بن فضل الله (ت١١١١هـ/١٦٩٩م) :

خلاصة الأثر ، في أعيان القرن الحادي عشر ، ط : دار صادر ، بيروت ، د.ت، ٤ مجلدات .

- مرداد : أبو الخير عبد الله بن أحمد (ت١٣٤٣هـ/١٩٥٤م) :

المختصر ، من كتاب نشر النور والزهر ، في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي ، ط : عالم المعرفة ، جدة ، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- النهروالي : قطب الدين محمد بن علاء الدين المكي (ت٩٩٠هـ/١٥٨٢م) :

البرق اليماني ، في الفتح العثماني ، طبع بإشراف حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

زيادات على كتاب دستور الإعلام لابن عزم ، نسخة مكتبة خدا بخش بالهند (رقم٢٣٧٦) .

- الهيلة : محمد الحبيب (معاصر) :

التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر ، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، مكة ، ط : دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

د. ثريا حامد الدمنهوري[*]

التنافس الأنجلو أمريكي على امتيازات التنقيب عن النفط في إمارات الساحل العماني

(من نهاية الحرب العالمية الأولى حتى ستينيات القرن العشرين)

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على التنافس الأنجلو أمريكي على امتيازات التنقيب عن النفط في إمارات الساحل العماني (دولة الإمارات العربية المتحدة) منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، حتى ستينيات القرن العشرين. ويرجع السبب الرئيس في اختيار هذا الموضوع إلى التنافس الشديد الذي ظهر بصورة جلية بين الدولتين على هذه الامتيازات التي شكلت آنذاك استراتيجية واضحة في سياسة الدولتين، بريطانيا التي هيمنت على الخليج منذ القرن التاسع عشر، والولايات المتحدة التي ظهرت بوصفها قوة عملاقة، مع نهاية الحرب العالمية الثانية. ويجب أن نشير إلى أن الدراسة لا تهدف إلى تقديم دراسة عن النفط، ولكن عن امتيازات التنقيب عنه.

كما تكمن أهمية موضوع الدراسة في أن عمليات التنقيب عن النفط من قبل الشركات البريطانية والأمريكية لم تكن عملية اقتصادية بحت، ولكنها أثرت بشكل واضح في مسار العلاقات السياسية بين الدولتين، والأهم من ذلك أنها أثرت في الأوضاع الاقتصادية والسياسية في منطقة الخليج بصفة عامة، والإمارات بصفة خاصة. وقد ظهر ذلك جليا من خلال تدخل الدولتين في العلاقات التي حدثت بين الإمارات وعدد من دول الخليج، أبرزها

* جامعة الملك عبد العزيز

إيران، ليس بهدف مصلحة الإمارات، ولكن من أجل مصالح تلك الشركات، وذلك من خلال عملها كل ما فى وسعها من أجل الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى الإمارات.

السيطرة البريطانية على إمارات الساحل العمانى:

يقصد بإمارات الساحل العمانى الإمارات السبع(*) التى شكلت فيما بعد دولة الإمارات العربية المتحدة، وكانت تعرف أيضا بساحل القرصنة(**) ومشيخات الساحل العمانى والإمارات المتصالحة والساحل المتهادن[١]، وكانت تابعة لعمان الكبرى(***) التى انقسمت من جراء تكالب القوى الاستعمارية والتناحر الداخلى إلى سلطنة مسقط وعمان الداخل[٢]، وعلى أثر التفكك السياسى فى عمان، حدثت موجة من الهجرات القبلية إلى سواحل الخليج، تمخض عنها ولادة كيانات سياسية جديدة فى المنطقة[٣]، أهمها بنو ياس والقواسم، اللذان بسطا سيطرتهما على إمارات الساحل العمانى[٤].

كان المشهد السياسى فى منطقة إمارات الساحل يكشف هيمنة القواسم على مقدرات الأمور فى المنطقة[٥]، ولكن سرعان ما اصطدم القواسم بالنفوذ البريطانى المتغلغل فى الخليج[٦]، ومع تعاظم الخطر القاسمى كتب المقيم البريطانى فى البصرة إلى حكومته يحذر من خطر القواسم؛ لذا وجهت السياسة البريطانية وجهتها صوب السيطرة على الساحل العمانى، والقضاء على قوة القواسم[٧]، فقامت بثلاث حملات للإجهاز عليهم(****)، كانت الحملة الثالثة عام ١٨١٩[٨] قمة الصراع بين القواسم وبريطانيا، وانتهت بتوقيع عدد من المعاهدات عام ١٨٢٠[٩] التى تحولت إلى معاهدة سلام عامة مع شيوخ الساحل الذين وقعوا عليها تباعا فى مارس ١٨٢٠، وبدأت حقبة ما أسمته بريطانيا بالسلام البريطانى فى المنطقة Pax-Britannica(*****)(١٠). وقد وضعت تلك المعاهدة أسس سياسة التجزئة فى المنطقة، من خلال تفتيت إرث القواسم وبقية إمارات الساحل إلى كيانات صغيرة، منحتها بريطانيا الاستقلال، فشجعت استقلال عجمان وأم القوين والفجيرة وكلبا، وانسلاخ رأس الخيمة عن الشارقة، ومن ثم تمزق الساحل إلى إمارات صغيرة لا حول لها ولا قوة[١١].

وعلى ضوء تزايد حدة التنافس الإقليمى والدولى للهيمنة البريطانية على منطقة الخليج، أبرمت بريطانيا مع شيوخ الساحل الاتفاقية المانعة Exclusive Agreement عام ١٨٩٢[١٢]، ومثلت هذه الاتفاقية تعهدا ضمنيا من بريطانيا بالحماية والاضطلاع بالشئون الخارجية لإمارات

الساحل، وفرض إلزامية الرجوع إليها قبل الشروع فى منح أية امتيازات لدول غيرها (١٣). وقد شكلت هذه الاتفاقية حجر الزاوية للسياسة البريطانية فى المنطقة التى ارتكزت على عزل إمارات الساحل عن العالم الخارجى، وإبقائها فى حالة من التفكك؛ ليسهل فرض السيطرة عليها، وعلى مواردها[١٤]. ويعد تصريح لانزدون Lansdowne فى مايو ١٩٠٣ بمجلس اللوردات البريطانى، وزيارة نائب الملك فى الهند اللورد كيرزون Curzon لساحل عمان فى نوفمبر من العام نفسه، دليلا دامغا على تعاظم أهمية الخليج فى الاستراتيجية البريطانية التى أقرت بأن العلاقة بين منطقة الخليج والأمن البريطانى فى الهند علاقة لا انفصام لها. ويتضح من خلال ذلك التصريح وخطاب كيرزون، الرغبة القوية لدى بريطانيا فى دعم النفوذ البريطانى فى المنطقة، وفرض ستار حديدى عليها، وإبقائها بعيدا عن أية تيارات أجنبية أو عربية[١٥].

التنافس الأنجلو أمريكى على امتيازات التنقيب عن النفط فى منطقة الخليج:

كان النفط - ولا يزال - عصب الحياة وشريانها فى السلم والحرب. وخير دليل على ذلك ما صرح به الفرنسى كلمنصو فى مطلع القرن العشرين، حينما قال: إن "كل قطرة من النفط تساوى قطرة من الدم"[١٦]، وكذلك الرئيس أيزنهاور عندما قال: "إن الحلفاء سبحوا نحو النصر على بحيرة من النفط"[١٧]. من هذا المنطلق، أدركت بريطانيا ضرورة السيطرة على امتيازات التنقيب عن النفط. وبالفعل، حصلت فى عام ١٩٠١على امتياز التنقيب عن النفط فى إيران، حيث تدفق النفط بكميات تجارية، لأول مرة عام ١٩٠٨ من مسجد سليمان (مدينة صغيرة واقعة جنوب إيران). وقد مثل هذا الاكتشاف، منعطفا مهما فى تاريخ البترول العالمى[١٨].

ومنذ ذلك الحين، فرضت على مستعمراتها فى الخليج - التى كانت تنبئ باحتمال وجود فرص عظيمة لظهور النفط بها - توقيع اتفاقيات تحرم عليها إعطاء حقوق التنقيب لأية شركة غير بريطانية قبل موافقة المقيم السياسى البريطانى. وتأسيسا على هذا، وقع شيخ الكويت على تعهد بهذا فى عام ١٩١٣، وشيخ البحرين فى عام ١٩١٤، وحاكم عمان فى عام ١٩٢٠، وحاكم إمارات الساحل العمانى فى عام ١٩٢٣[١٩].

وترجع إرهاصات التنافس الأنجلو أمريكى على امتيازات التنقيب فى الخليج إلى الفترة اللاحقة للحرب العالمية الأولى، حينما سعت فرنسا وبريطانيا إلى اقتسام بترول العراق بينهما. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت هذا الإجراء، وطالبت بحصة من هذه الكعكة. وبعد

جدل دام بضع سنوات وافق الحليفان على بيع نسبة ٢٣,٧٥٪ من أسهم الامتياز للأمريكيين. وقد ظفر بهذه الحصة ائتلاف يضم خمس شركات بزعامة موبيل وستاندرد نيوجرسي، فى نوفمبر ١٩٢٤[٢٠].

ومع تدفق النفط فى البحرين، تطلعت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى الاستئثار بامتيازات التنقيب فى المنطقة[٢١]. وبالفعل اتجهت الولايات المتحدة إلى البحرين، فى حين كانت إمارات الساحل العمانى حتى ذلك الوقت حكرا على الشركات البريطانية، وبدرجة أدنى، الفرنسية، التى تمتعت بهذه الامتيازات لسيطرة حكوماتها على بلدان المنطقة[٢٢]. وبدأ نشاط الولايات المتحدة الأمريكية من خلال شركة ستاندرد نيوجرسى[٢٣]. وفى ظل تزايد الاعتماد على النفط فى تحريك عجلة النشاط الاقتصادى الأمريكى، وتناقص الاحتياطات الأمريكية من النفط، اتجه كثير من الشركات النفطية الأمريكية الكبرى للبحث عن النفط خارج حدودها، ومد الاستثمارات النفطية إلى العالم الخارجى. وزاد من ذلك، شعور الشركات الأمريكية الكبرى بالقدرة على توسيع نشاطاتها. وبالفعل بدأ التنافس الأنجلو أمريكى على امتيازات التنقيب عن النفط فى المنطقة إلى عام ١٩٢٠، خاصة فى ظل تدفق النفط فى إيران، وظهوره فى عدة مواقع من العراق.

وفى ٢٤ إبريل ١٩٢٤، وقع البريطانيون والفرنسيون اتفاق سان ريمو الذى تضمن ستة بنود تنظم تقسيم الحصص فى بترول الشرق الأوسط[٢٤]؛ وهو ما أثار حفيظة الولايات المتحدة الأمريكية التى رأت فيه محاولة من بريطانيا للاستئثار بالسهم الأوفر من تركة المنطقة، بدون مراعاة شركائها الآخرين الذين قدموا لها كثيرا من الدعم والمساندة إبان الحرب، وقد ظهر ذلك فى الرسائل المتبادلة بين اللورد كيرزون وزير خارجية بريطانيا، وسفيره فى واشنطن السير أ.جيدس، والسفير الأمريكى فى لندن[٢٥]، التى توضح مدى الجدل والتنافس بين لندن وواشنطن حول النفوذ السياسى والمصالح البترولية فى الخليج؛ إذ أصبح الصراع على المصالح يدور الآن بين الحكومتين، بعد أن بقى مدة محصورا فى إطار الشركات البترولية التابعة لبلديهما. ولعل اتخاذ الموضوع بعدا سياسيا عائد إلى التأثير الحاسم للشركات الثلاث الرئيسية (الأنجلو فارسية، ورويال داتش شل، وستاندرد نيوجرسى)، فى صانعى السياسة فى البلدين، وطالبت واشنطن بريطانيا بضرورة تطبيق سياسة الباب المفتوح؛ ففى رسالة من السفير باعتماد مبدأ الباب المفتوح، لإتاحة الفرصة أمام الشركات الأمريكية للعمل فى الأراضى العربية الواقعة تحت الانتداب البريطانى، أكد أن

عدم اعتماد هذا المبدأ يسىء إلى مصالح بلاده فى الشرق، وأشار إلى أن الشركات الأمريكية لا تحصل على فرص متكافئة مع الشركات البريطانية التى تحظى بدعم حكومتها، على حساب بقية الشركات، على الرغم من إقرار بريطانيا، بإمكان إعطاء نسبة محدودة من الاستثمارات للشركات الأمريكية، كما أكد السفير أن بريطانيا تعمل فى الخفاء للسيطرة على مصادر النفط فى البلاد العربية، على الرغم من أنها اتفقت مع واشنطن على مبادئ عامة فى مؤتمر الصلح، تتضمن الإقرار بأن استغلال هذه المصادر هو حق مشاع لكل الأمم، وليس حكرا على أمة واحدة[٢٦].

وعددت واشنطن الأسباب التى تؤكد أحقيتها فى الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى مناطق الشرق الأوسط والخليج، نوجزها فيما يأتى[٢٧]:

أولا- أن (ستاندارد نيوجرسى) الشركة البترولية الرئيسية فى الولايات المتحدة، فقدت أسواقها المألوفة، إثر تركيز جهودها فى تموين قوات الحلفاء بالبترول فى أثناء الحرب فى أوربا، لذا فمن الواجب على بريطانيا مساعدة الشركة ودعمها.

ثانيا- منع استئثار بريطانيا وفرنسا باستغلال الثروات الطبيعية للبلدان التى تحت الوصاية، إلا بموافقة الأسرة الدولية، الممثلة فى عصبة الأمم.

ثالثا- أن احتياطى البترول المؤكد وجوده فى الأراضى الأمريكية أخذ فى التقلص، وأنه يوشك - حسب الدراسات المتاحة - على النفاد فى خلال مدة تتراوح بين عشر وعشرين سنة.

رابعا- أن بريطانيا تضع العقبات والعراقيل فى وجه بعثات التنقيب التى أرسلتها الشركات الأمريكية إلى الخليج[٢٨].

أنكر وزير الخارجية البريطانى هذه الادعاءات، وقال: إن بريطانيا لم تنتهج سياسة تمييز أو محاباة لصالح شركاتها ضد الشركات الأمريكية[٢٩]، وأكد الوزير كيرزون أن الموقف الأمريكى يضم فى طياته سياسات متناقضة، ففى الوقت الذى تطالب فيه واشنطن بتطبيق مبدأ الباب المفتوح فى الخليج، تضع كثيرا من العقبات فى وجه الشركات الأوربية الراغبة فى استثمار احتياطيات النفط المتوافرة فى الأراضى الأمريكية، كما أنها افتعلت المشاكل والصعوبات أمام الاستثمارات البريطانية فى القارة الأمريكية الجنوبية، خاصة فى كوستاريكا وهاييتى، ولم يسفر ذلك الجدل عن نتيجة مهمة، وازداد شعور الأمريكيين بأنهم على وشك أن يخسروا مصالح مهمة، كانوا يتوقعون أن تصبح بين أيديهم[٣٠].

ومع رغبة الحكومة البريطانية فى ترسيم الحدود الإقليمية لتركيا(٣١)، ووجود معارضة حادة من جانب الأطراف المشاركة فى مؤتمر لوزان ١٩٢٣؛ وهو ما اضطرها إلى طلب الدعم السياسى من الولايات المتحدة، كان هذا الطلب عاملا مساعدا فى تليين الموقف البريطانى من قضية الامتيازات البترولية التى دار الصراع عليها مع الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. وعلى أثر ذلك أعطت الحكومة الضوء الأخضر لإدارة الشركة الأنجلو فارسية للبدء فى البحث عن إطارات المشاركة الأمريكية. وعلى أثر تلك التطورات الإيجابية فى العلاقة بين المصالح الأمريكية والبريطانية، بدأت الشركات الأمريكية تدخل بقوة فى حلبة المنافسة للحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى كثير من بقاع مناطق الخليج[٣٢].

وقد ظهر اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بساحل الخليج العربى واضحا منذ عام ١٩٢٤، وفى عام ١٩٢٨ أخذ بعض الأمريكيين يجوسون فى أنحاء المملكة العربية السعودية، بخاصة منطقة الإحساء، بحثا عن البترول، نتيجة تناقص الاحتياطى الأمريكى[٣٣].

وكانت أراضى المملكة العربية السعودية من أوائل المناطق التى مثلت ساحة لهذا الصراع والتنافس المحموم[٣٤].

وعلى هذا، بدأ التنافس والصراع بين الشركات الأمريكية والبريطانية على التنقيب عن النفط فى المملكة العربية السعودية، ودام الصراع والتنافس مدة قصيرة، انتهت باختيار الملك عبد العزيز للشركة الأمريكية "ستاندرد أويل أف كاليفورنيا (سوكال)"، بعد مفاوضات مطولة للفوز بامتياز التنقيب، كما أن اكتشاف البترول فى البحرين عام ١٩٣٢ كان عاملا مهما زاد من شهية الشركات الأمريكية؛ وهو ما شجعها على دخول حلبة الصراع النفطى للحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل العمانى، وكسر جدار العزلة الذى فرضته الشركات البريطانية للفوز بامتيازات النفط فى تلك المنطقة[٣٥].

التنافس الأنجلو أمريكى على الامتيازات فى الإمارات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية:

كان للخلفية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تكتنف إمارات الساحل العمانى أثر واضح فى احتدام التنافس الأنجلو أمريكى حول الاستحواذ على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل. فالمتتبع للأوضاع السياسية والاقتصادية للمنطقة يتجلى له كيف أن تلك

الأوضاع أسهمت فى تأجج حدة التنافس بين واشنطن ولندن، وأن الأوضاع السياسية التى مرت بها بريطانيا، ولاسيما عقب الحرب العالمية الثانية، كان لها تداعياتها بالنسبة إلى الاستمرار فى السيطرة والهيمنة على مناطق الامتيازات التى حصلت عليها بريطانيا، بحكم علاقاتها التاريخية مع شيوخ إمارات الساحل.

لقد حازت إمارات الساحل العمانى حيزا كبيرا فى الاستراتيجية البريطانية، إثر اكتشاف البترول فى إمارات الخليج المتاخمة لإمارات الساحل العمانى[٣٦]، ووجود الشركات الأمريكية بشكل مكثف فى المنطقة خاصة فى المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، إضافة إلى الدراسات التى قامت بها شركة النفط الإنجليزية الفارسية فى منطقة الساحل العمانى، والتى أكدت بقوة احتمالات وجود النفط فى تلك الإمارات[٣٧]، ومن ثم اتجهت بريطانيا إلى تكبيل شيوخ الساحل بتعهدات اقتصادية وسياسية، تهدف منها فى المقام الأول إلى احتكار امتيازات التنقيب عن النفط فى كل إمارات ساحل عمان[٣٨]، ومرجعيتها القانونية فى ذلك أن مفاوضات التنقيب عن النفط بين الشركات والشيوخ تقع تحت بند العلاقات الخارجية المنوط بها إلى الإدارة البريطانية طبقا للاتفاقية المانعة التى وقعتها بريطانيا مع شيوخ الإمارات عام ١٨٩٢[٣٩]، وبشكل واضح وصريح حصلت بريطانيا عام ١٩٢٢ على تعهدات تلزم شيوخ الساحل بعدم منح امتيازات التنقيب عن البترول فى أراضيهم لأى شخص عدا الذى تختاره الحكومة البريطانية؛ وهو الأمر الذى يعد احتكارا سافرا من أجل الحصول على امتيازات التنقيب فى الإمارات[٤٠]، ويتضح من خلال صيغة التعهدات أنها قد أمليت على الشيوخ، ولم يكتبوها بمحض إرادتهم[٤١].

فلا شك فى أن نجاح شركة ستندارد كاليفورنيا Standerd Oil of California فى الحصول على امتيازات التنقيب عن البترول فى المملكة العربية السعودية(٤٢)، كان له صدى قوى لدى الدوائر الرسمية البترولية البريطانية؛ لذا أبرم المقيم السياسى فى الخليج عام ١٩٢٢ اتفاقية مع حكام إمارات الساحل، منحتها امتيازات التنقيب عن النفط فى تلك المنطقة للشركات البريطانية[٤٣]، وكان لحصول شركة ستندارد على امتيازات التنقيب عن النفط فى البحرين عام ١٩٢٨[٤٤]، وتمكن شركة Gulf Oil Cooperation من مشاركة الشركة الأنجلو فارسية Anglo – Pesian Company فى نفط الكويت، أثر فاعل فى تزايد حدة التنافس بين الشركات الأمريكية والبريطانية فى منطقة إمارات الساحل[٤٥].

ونخلص إلى أن تعهدات عام ١٩٢٢ جاءت لتكريس امتيازات التنقيب عن النفط للشركات البريطانية، وهو ما سعت إليه بريطانيا منذ بدايات اكتشاف البترول فى إمارات الخليج المتاخمة لإمارات ساحل عمان، ومن ثم شددت بريطانيا قبضتها على تعاملات الإمارات الخارجية، خشية تسلل الشركات الأمريكية الطامحة للفوز ببعض امتيازات التنقيب عن النفط فى الإمارات، مع التركيز على إمارتى أبوظبى ودبى، فقد أشارت معظم التقارير الجيولوجية إلى ارتفاع نسبة وجود النفط فى المناطق البرية والبحرية لتلك الإمارات[٤٦].

كان الوضع الاقتصادى لإمارات الساحل قبل الحقبة البترولية يتسم بالبدائية والنمط التقليدى؛ إذ فرض الموقع الجغرافى والبيئة الصحراوية والظروف المناخية العمل فى النشاط البحرى، ومثلت صناعة اللؤلؤ وصيد الأسماك والتجارة أهم الأنشطة الاقتصادية لإمارات الساحل، فى حين كانت الزراعة والرعى والصناعات الحرفية أنشطة اقتصادية ثانوية[٤٧].

وعلى ضوء تلك المعطيات الاقتصادية التى تضيف إليها تردى الأوضاع أكثر إبان حقبة ثلاثينيات القرن العشرين، بسبب أزمة الكساد العالمى التى أدت إلى كساد تجارة اللؤلؤ؛ إذ حدثت تطورات ساعدت على تحسين الوضع المالى، والخروج من تلك الأزمة، كان أهمها البدء فى التنقيب عن النفط[٤٨]؛ إذ أبرمت بريطانيا عددا من الاتفاقيات الخاصة بالامتيازات النفطية مع شيوخ إمارات الساحل فيما بين عامى ١٩٣٧ و١٩٣٩؛ وهو مما أسهم فى تحسن الوضع المالى لشيوخ الإمارات[٤٩]. والملاحظ أن امتيازات التنقيب عن البترول فى الساحل تكاد تتوازى مع اتفاقيات إنشاء الطريق الجوى الإمبراطورى التى بدأت فى أوائل الثلاثينيات[٥٠].

ونستنتج مما سبق أن بريطانيا شرعت فى إبرام الاتفاقيات النفطية والجوية فى هذا الوقت لاستغلال الوضع الاقتصادى المتدهور لإمارات الساحل، على خلفية الأوضاع السابق ذكرها، بوصفها ورقة ضغط لإقناع حكام الإمارات بعقد مثل هذه الاتفاقيات، مقابل قدر من المال يسهم فى الخروج من تلك الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى أرخت بظلالها على المنطقة بأسرها. وينهض دليلا على ذلك رصد المسئولين البريطانيين للوضع المالى لإمارات الساحل، مع زيادة إيقاع المباحثات بالنسبة إلى تلك الامتيازات فى خلال فترة الأزمة، وقد استخدمت بريطانيا كثيرا من الآليات لضمان الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل، مستغلة نفوذها التاريخى فى المنطقة، وعلاقاتها الضاربة بجذورها فى القدم مع شيوخ الساحل، فضلا عن استخدام سياسات التهديد والوعيد[٥١].

التنافس الأنجلو أمريكى على الامتيازات فى الإمارات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية:

أسهم الوضع السياسى والاقتصادى فى بريطانيا الذى ألم بها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى تزايد مزاحمة الشركات الأمريكية للشركات البريطانية، بغية الحصول على امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل. فالملاحظ أنه بعد أن كبلت بريطانيا شيوخ الساحل بتعهدات لتضمن لنفسها امتيازات التنقيب فى تلك المنطقة، كان الوضع العام لبريطانيا فى حالة يرثى لها. فعقب الحرب العالمية الثانية، وهنت الهيمنة البريطانية فى منطقة الخليج، ومن ثم ضعف الدعم الذى كان يقدمه المسئولون البريطانيون للشركات البريطانية؛ وهو ما فتح المجال أمام الشركات الأمريكية للسعى للحصول على امتيازات التنقيب، وكان ذلك إيذانا ببدء فترة عرفت بالوجود الأنجلو أمريكى فى منطقة الخليج، مارست فى خلالها واشنطن ضغوطا قوية على بريطانيا لقبول سياسة الباب المفتوح، والسماح للشركات الأمريكية بالحصول على بعض امتيازات التنقيب عن النفط فى المنطقة[٥٢]. والأمر الذى لا مراء فيه أن البترول كان العامل الرئيسى للصراع بين الجانبين(٥٣)؛ لذا صارت العلاقات بين الدولتين فى خط أكثر تعرجا، ولكنها لم تصل إلى مرحلة الصدام المباشر؛ لوجود مصالح حيوية فى المنطقة لكلتا الدولتين[٥٤].

فقد تشابكت سياستهما تجاه عدد من القضايا والأحداث؛ نذكر منها: أزمة تأميم النفط الإيرانى (١٩٥١-١٩٥٣)، وما تبعها من انتقاص هيبة النفوذ البريطانى فى الخليج، ومعارضة الولايات المتحدة فكرة استخدام بريطانيا القوة العسكرية ضد إيران فى خلال الأزمة، خوفا من أن يؤدى ذلك إلى تدخل سوفيتى فى شمال إيران، ومن ثم تصاعد وتيرة الحرب فى المنطقة، واكتفت بتدبير انقلاب ضد الدكتور مصدق (رئيس الوزراء الإيرانى) لإنهاء الأزمة[٥٥]. وهناك أيضا النزاع الحدودى بين السعودية وأبوظبى على واحة البوريمى[٥٦]، ورؤية الملك فيصل بأن الاعتراف بالدولة الجديدة لابد أن يسايره تسوية المنازعات الحدودية القائمة بين السعودية وأبوظبى[٥٧].

وبرغم اختلاف الرؤى السياسية بين البلدين تجاه بعض قضايا المنطقة؛ فإنهما كانا أكثر ميلا لتنسيق سياستهما لمواجهة الخطر الشيوعى، وتطويق تيار القومية العربية. وجاء حلف بغداد عام ١٩٥٥ معبرا عن هذا الاتجاه[٥٨]. وقد قام نورى السعيد - رئيس الحكومة العراقية - فى فبراير عام ١٩٥٥ بنشاط مكثف فى منطقة الخليج للترويج لحلف بغداد، وبحث إنشاء حلف الخليج،

لمقاومة النفوذ المصرى[٥٩]، والزحف السوفيتى فى المنطقة الذى كان يسعى لنشر الفكر الشيوعى فى كل جنبات المنطقة، عبر إيران، وبسط سيطرته على بترول إيران والعراق[٦٠]. وقد شنت مصر والسعودية حربا إعلامية ضد سياسة الأحلاف، خاصة بعد توقيع الميثاق العراقى التركى الذى عد إضعافا للإرادة العربية[٦١]، وحددت مصر موقفها من مسألة الأحلاف أملا فى تنظيم عملية الدفاع مع الدول العربية، وتفعيل نظام الدفاع العربى المشترك[٦٢].

ونلاحظ أن انضمام إيران لحلف بغداد أحدث قدرا من الارتباك للسياسة البريطانية تجاهها؛ إذ فقدت القدرة على خلق توازن بين سياستها التقليدية تجاه إمارات الساحل؛ "أى التصدى للأطماع الإيرانية"، وكيفية التعامل مع إيران بعد أن أصبحت معها فى بوتقة واحدة[٦٣]. ونلمس هذا الارتباك فى الموقف البريطانى الذى لم يعد متشددا إزاء الادعاءات الإيرانية فى الجزر الإماراتية الثلاث (طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى) وجزر البحرين[٦٤].

ونستنتج مما سبق أن العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، لم تكن علاقة صراع على طول الخط، غير أنها شهدت فترات مد وجزر، حسبما تقتضيه مصلحة كل منهما. ونؤكد أن سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية سجلت نهاية عهد قديم، وبداية عهد جديد فى تاريخ المنطقة؛ إذ لاح فى أفقها جملة من المتغيرات كانت كفيلة بتقويض النفوذ البريطانى فى الخليج.

وحدثت تطورات محلية وإقليمية ودولية، أرغمت بريطانيا على تبنى استراتيجية الانسحاب شرق السويس. وقد حملت تلك التطورات بين ثناياها أوضاعا سياسية واقتصادية واستراتيجية، لم تستطع بريطانيا فى ظلها الاضطلاع بمهامها فى المنطقة؛ لذا كان قرار الانسحاب بغية الحفاظ على ما تبقى لها من نفوذ. ولاشك أن العوامل (الاقتصادية والسياسة والاجتماعية) الدافعة للانسحاب، وإن اختلف معدل تأثيرها؛ فإنها شكلت فى مجملها مناخا ضاغطا على صانعى القرار البريطانى لإقرار سياسة الانسحاب. ومنذ ذلك الحين تنامى الاهتمام الأمريكى بمنطقة الخليج وأمنه ونفطه، مع العمل على استمرار تدفق النفط للغرب، ومواجهة أى مد سوفيتى فى المنطقة[٦٥].

وقعت شركة امتيازات البترول المحدودة البريطانية Petroleum Concessions Ltd Coast اتفاقيات التنقيب عن البترول مع حكام إمارات الساحل عام ١٩٣٩[٦٦] الذين قبلوا ذلك على مضض، تحت ضغط بريطانى، واتباع سياسة التهديد والوعيد؛ إذ هددت بريطانيا بعدم إصدار

وثائق السفر، وحجز السفن التابعة لإمارات الساحل، تحت ذريعة تفتيشها وحجزها، لمكافحة تجارة الرقيق، فضلا عن التلميح باستحقاقات اتفاقية عام ١٩٢٢[٦٧]. وقد حال أندلاع الحرب العالمية الثانية دون مواصلة الشركة أعمالها، حتى انتهت الحرب[٦٨]، فاستأنفت أعمال الاستكشاف والتنقيب. ومع تعثر اكتشاف البترول بكميات تجارية[٦٩]، تخلت الشركة عن امتيازها فى كل الإمارات - ما عدا مناطق أبوظبى البرية، وأضحت تعرف باسم شركة بترول أبوظبى المحدودة[٧٠] لذا منح حكام الإمارات امتيازات التنقيب عن البترول فى إماراتهم لشركات جديدة، كان أهمها: شركة أبوظبى البحرية المحدودة للتنقيب عن البترول فى المناطق البحرية بأبوظبى عام ١٩٥٣[٧١]، وشركة بترول دبى للتنقيب عن البترول فى المناطق البحرية عام ١٩٦٣، فضلا عن الامتياز الذى منحته إمارة الشارقة عام ١٩٦٩ لشركة الهلال[٧٢].

وعقب توقيع امتيازات التنقيب عن النفط وُجدت ضرورة ملحة لتخطيط الحدود، لكى تتمكن الشركات البترولية من القيام بعمليات المسح الچيولوچى والتنقيب، ومن ثم طفت على السطح مشاكل الحدود، وكان من أبرزها مشكلة البوريمى[٧٣] التى جسدت فى جوهرها صراعا واضحا بين الشركات النفطية الأمريكية والبريطانية المتنافسة، أكثر من كونها خلافا بين السعودية وأبوظبى[٧٤]؛ إذ أثار تنقيب شركة تطوير بترول الساحل المهادن (البريطانية) فى واحة البوريمى حفيظة ابن سعود. وقد تزامن ذلك مع وجود شركة أرامكو الأمريكية فى واحة البوريمى لعمل مسح چيولوچى هناك[٧٥]. ولما كانت بريطانيا المسئولة عن الشئون الخارجية لإمارات الساحل، بموجب الاتفاقية المانعة، طردت القوات السعودية التى دخلت قرية حماسا بواحة البوريمى فى أغسطس عام ١٩٥٥[٧٦].

وعلى هذا، قطعت السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا، وسعت لعرض القضية على مجلس الأمن. بيد أنها تراجعت، إثر قيام ثورة اليمن عام ١٩٦٢، وحدوث التقارب البريطانى السعودى، لمواجهة الوجود المصرى فى اليمن[٧٧]. وقد أوكلت بريطانيا إلى الملك حسين فى خلال زيارته إلى منطقة الخليج فى فبراير عام ١٩٦٧ مهمة القيام بدور الوساطة لحل مشكلة البوريمى، ومن ثم حل الاشتباك الذى حدث بين الشركات الأمريكية والبريطانية على أحقية أى منهم فى التنقيب عن النفط. فادعاء السعودية بأحقيتها فى واحة البوريمى يمنح شركة أرامكو الأمريكية حق التنقيب، فى حين أن حق أبوظبى فى البوريمى يمنح شركة تطوير بترول الساحل المهادن (البريطانية) الحق فى التنقيب. ولا شك أن الذى أشعل فتيل الأزمة الحدودية بين المملكة العربية السعودية

وأبوظبى هى شركات النفط الأمريكية والبريطانية المتنافسة[٧٨]. ومع تزايد النزاعات الحدودية بين بعض إمارات الساحل وبعضها؛ مثل النزاع الحدودى بين أبوظبى ودبى عام ١٩٤٥، أعاق عمل شركات التنقيب[٧٩]؛ وسعت بريطانيا إلى إنشاء قوة كشافة ساحل عمان؛ لحماية المصالح النفطية البريطانية، ومنع النزاعات الحدودية بين الإمارات، والدفاع عن إمارات الساحل ضد الأطماع الإقليمية، كما حدث عند طرد القوات السعودية من البوريمى[٨٠].

ومما يسترعى الانتباه أن بعض الإرساليات الأمريكية فى الخليج التى كانت تقدم نوعا من الرعاية الصحية لسكان إمارات الساحل[٨١]، أثارت مخاوف لدى البريطانيين؛ إذ خشيت بريطانيا أن يستغل أطباء تلك الإرساليات فى تيسير حصول الشركات الأمريكية على امتيازات البترول بإمارات الساحل؛ لذا طالب الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين بضرورة وجود إشراف طبى فى ساحل عمان، وفرض قيود صارمة على زيارات البعثات الإرسالية الأمريكية للساحل[٨٢]، ومن منطلق تخوف البريطانيين من نشاط الإرساليات الأمريكية الطبية فى المنطقة قدمت بريطانيا بعض الخدمات الطبية لسكان الساحل، وسعت لمكافحة انتشار وباء الجدرى والملاريا فى المنطقة. ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى رغبة بريطانيا فى استمرار عزلة إمارات الساحل، وضمان عدم خروج امتيازات التنقيب عن النفط بعيدا عنها[٨٣].

ومما سبق نستنتج أن الإرساليات الأمريكية فى إمارات الساحل كان لها دور فى فتح باب للتفاوض مع شيوخ إمارات الساحل، للحصول على حق التنقيب عن النفط فى أراضيهم؛ وهو الأمر الذى أرغم بريطانيا على تقديم قدر من الخدمات الطبية لإمارات الساحل، بعد تيقنها من دور أعضاء تلك الإرساليات فى الدعاية لشركات النفط.

وانتهزت إيران حالة التخلف التى كانت تعيشها المنطقة، وبادرت بتقديم عدد من الخدمات التعليمية والصحية، وسعت لكسب ولاء سكان المنطقة، من خلال تقديم المساعدات الاقتصادية والاجتماعية[٨٤]. ويُعتقد أن السعودية وإيران استخدمتا العامل الاقتصادى ورقة ضغط لتحقيق أغراض سياسية؛ إذ كانت تحركهما أطماع إقليمية تجاه إمارات الساحل، متمثلة فى البوريمى بالنسبة إلى الرياض، والجزر الثلاث بالنسبة إلى طهران؛ لذا استغلا الوضع الاقتصادى والاجتماعى المتخلف فى المنطقة، لاستقطاب سكان إمارات الساحل، وكسب ولائهم.

ونلاحظ من خلال شركات النفط العاملة بإمارات الساحل (شركة نفط أبوظبى المحدودة، وشركة

مناطق أبوظبى البحرية المحدودة "أدما"[٨٥]، وشركة نفط فيليبس، وشركة زيت الشرق الأوسط، وشركة توتال أبو البخوش، وشركة نفط البندق المحدودة، وشركة نفط أميراداهيس، وشركة بترول دبى، وشركة مناطق دبى البحرية، وشركة بترول الهلال، فضلا عن شركة اتحاد نفط كاليفورنيا، وشركة الغاز الطبيعى الجنوبية) أن معظمها شركات أمريكية؛ إذ استطاعت الشركات الأمريكية أن تخترق الجدار الذى فرضته بريطانيا على المنطقة، وتستحوذ على أكبر قدر من الامتيازات فى إمارات الساحل السبع[٨٦].

وقد آثر شيوخ إمارات الساحل العمانى منح امتيازات التنقيب عن النفط للشركات الأمريكية، بدلا من الشركات البريطانية التى كان لها سبق الحصول على الامتيازات فى بادئ الأمر؛ ويرجع ذلك إلى تركيز المفاوض الأمريكى، فى خلال تلك المفاوضات، على عدم جدية الشركات البريطانية فى عرضها، وأن غاية ما تبتغيه الشركات البريطانية هو التأكد من وجود البترول فى الأراضى الإماراتية، ثم بيع الامتياز للشركات الأمريكية، والحصول على مبالغ طائلة من المال، دونما بذل جهد كبير، كما فعل فرانك هولمز الذى باع امتياز البحرين لشركة جلف أويل الأمريكية، قبل أن تشتريه منها ستاندارد كاليفورنيا، وتأكيد أن الشركات الأمريكية تمتلك إمكانات مادية وفنية كبيرة، وهى لهذا السبب قادرة على الاستمرار فى التنقيب، بدون الإخلال بالتزاماتها المالية. واستدل الوفد الأمريكى على ذلك بالنتائج الباهرة التى توصلت إليها شركة ستاندارد كاليفورنيا فى ذلك العام ١٩٣١؛ إذ تدفق النفط فى البحرين[٨٧]، إضافة إلى كبر المقابل المادى الذى عرضته الشركات الأمريكية، مقارنة بعرض الشركات البريطانية التى كانت عاجزة عن تقديم عروض أكثر سخاء فى ظل الضائقة الاقتصادية التى كانت تمر بها بريطانيا، ولاسيما بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وخرجت منها بريطانيا منهكة اقتصاديا وسياسيا[٨٨]. وهكذا عجزت الشركات البريطانية عن مجاراة الشركات الأمريكية التى حازت معظم امتيازات التنقيب فى إمارات الساحل السبع[٨٩].

وتعد أبوظبى أولى إمارات الساحل التى اكتشف بها البترول؛ إذ اكتشف بكميات تجارية فى حقل أم الشيف البحرى عام ١٩٥٨، وبدأ تصدير أول شحنة منه فى ٣ يونيو عام ١٩٦٢[٩٠]، وفى ديسمبر عام ١٩٦٣ صدر البترول من حقل الباب البرى[٩١]، وجاءت إمارة دبى فى المكانة الثانية من حيث أهميتها البترولية، فقد اكتشفت شركة نفط دبى فى يونيو عام ١٩٦٦ البترول فى حقل فاتح البحرى، وصدرت أول شحنة منه فى سبتمبر عام ١٩٦٩[٩٢].

وهكذا يتضح أن الإمارات دخلت فى ميدان الإنتاج النفطى عام ١٩٦٢، مع بداية تصدير النفط من حقل أم الشيف البحرى، ثم تبع ذلك تصدير النفط من الحقول البرية بأبوظبى والبحرية بدبى، وفى عام ١٩٧٠ اكتشف البترول فى حقل مبارك بإمارة الشارقة(٩٣).

كما استأثرت الشركات الأمريكية بشراكة إماراتية على امتيازات الغاز الطبيعى؛ إذ تنتج إمارة أبوظبى الغاز من جميع الحقول المنتجة للبترول، سواء البحرية أو البرية، واضطلع بدور تصنيع الغاز فى أبوظبى شركتا أبوظبى لتسييل الغاز المحدودة "ادجاز"، وشركة أبوظبى لصناعات الغاز المحدودة "جاسكو"(٩٤).

خاتمة:

يتضح من خلال هذه الدراسة كيف أن الصراع بين الشركات الأمريكية والبريطانية انتقل من المجال الاقتصادى ليلقى بظلاله على العلاقات السياسية بين الدولتين؛ إذ وقفت كل دولة إلى جانب شركاتها النفطية، تدعمها بكل ما أوتيت من قوة، وتوفر لها كل السبل لتضمن لها التفرد بأكبر مساحة من امتيازات التنقيب عن النفط، وهذا يعد تطبيقا واقعيا لنبوءة أيزنهاور الرئيس الأمريكى فى خمسينيات القرن العشرين الذى أكد أن الشركات سيكون لها تأثير فاعل فى قرارات الحكومات فى خلال الحقبة القادمة.

وقد أدت الصراعات بين الشركات الأمريكية والبريطانية، ومن ثم صراع الحكومات، إلى تفجر مشاكل الحدود فى المنطقة، فمشكلة البوريمى والجزر الثلاث، ينهضان دليلا على أن أساس تلك المشكلات كان صراعا خفيا بين شركات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل، كما أن العلاقات السياسية بين بريطانيا وإيران، ولاسيما ارتباطهما معا بحلف بغداد، جعل بريطانيا تغض الطرف عن الادعاءات الإيرانية فى الجزر الثلاث، وما بهما من امتيازات للتنقيب عن النفط، ولاسيما جزيرة أبو موسى.

نضيف إلى ذلك أنه مع أفول القوة البريطانية السياسية، توارت معها الشركات البريطانية التى كانت تتمتع فى خلال ثلاثينيات القرن العشرين بهيمنة واضحة من قبل شركاتها على معظم امتيازات التنقيب عن النفط، ليس فى إمارات الساحل فحسب، بل فى منطقة الخليج برمتها، لتفسح المجال للشركات الأمريكية التى كانت مدعمة من قبل قوى عظمى خرجت فى أعقاب

الحرب العالمية الثانية، لتسيطر على مقدرات المنطقة، وتدفع شركاتها قدما للأمام نحو مزيد من امتيازات التنقيب عن النفط، وتنحى الشركات البريطانية جانبا، فى ظل وهن بريطانى سياسى واضح.

وعلى هذا فإن العلاقة بين الوضع السياسى للدولتين كان عامل الفصل فى سيطرة شركات كل جانب على الآخر.

وهنا نشير إلى مقولة هارولد لاسكى فى كتابه "تأملات فى ثورة العصر" أنه لا يمكن الفصل بين السياسى والاقتصادى والاجتماعى؛ لأن الفصل بينهم يعد تعسفيا.

ويتضح من ذلك أن الوضع الاحتكارى، والعزلة التى سعت بريطانيا جاهدة لفرضها على إمارات الساحل، والقبضة الحديدية التى ظلت تحكم بها المنطقة، ما يربو على قرن ونصف، كل هذا أخذ يتهاوى، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية التى عصفت ببريطانيا بوصفها قوة عظمى لا تغيب عنها الشمس، وفتحت الباب على مصراعيه أمام قوة أمريكية طامحة تمتلك شركات بإمكانات مالية وإدارية وتقنية ضخمة، استطاعت أن تزيح بريطانيا عن عرشها لتؤرخ لحقبة جديدة من التنافس الأنجلو أمريكى، استطاعت فى خلالها واشنطن أن تقر سياسة الباب المفتوح، وتفسح المجال أمام الشركات الأمريكية، لتحصل على قدر من امتيازات التنقيب عن النفط، ثم أعقب تلك الحقبة فترة ما زلنا نعاصرها حتى هذه اللحظة؛ هى فترة التفرد الأمريكى بمعظم امتيازات التنقيب عن النفط فى إمارات الساحل العمانى (دولة الإمارات العربية المتحدة).

الهوامش

(*) الإمارات السبع هى: أبوظبى، ودبى، والشارقة، ورأس الخيمة، وأم القوين، والفجيرة، وعجمان. ولتتبع الأصل التاريخى لكل إمارة من إمارات الساحل السبع، ومساحة كل إمارة وموقعها، راجع:

Malakh R. EL:, The Economic Development of the United Arab Emirates, London, 1981, pp. 5-9.

(**) ساحل القرصنة: ترجع تسمية المنطقة بساحل القرصنة إلى حقبة الوجود البرتغالى فى الخليج؛ إذ أطلق هذا اللقب على أعمال أئمة دولة اليعاربة، إبان جهادهم من أجل تحرير عمان وساحل أفريقيا الشرقى، من الاحتلال البرتغالى فى القرن السابع عشر، كذلك نعت الإنجليز القواسم بالقراصنة، إثر مهاجمتهم السفن البريطانية التى كانت تبحر فى الخليج، ويمكن إرجاع هجوم القواسم على السفن البريطانية إلى عوامل اقتصادية ودينية وسياسية، وبهذا لم يكن لتلك الأعمال أية علاقة بأعمال القرصنة. ولعل إلصاق تهمة القرصنة بالقواسم حسب الزعم البرتغالى والبريطانى، شبيه بما يلصق فى وقتنا الراهن بمن يدافع عن أرضه ومقدساته بالإرهابى. لمزيد من التفاصيل عن ساحل القرصنة، راجع:

S. M. Al-Qasimi, The Myth of Arab Piracy in the Gulf, London, 1986, PP. 31-51. Sir R. Hay& E. Rear, the Persian Gulf States, Washington D. 1959, p.113

(***) كانت عمان الكبرى خاضعة للواء دولة اليعاربة من (١٦٢٤ - ١٧٤٣)، وقد نجحت تلك الدولة فى تحرير عمان من احتلال البرتغاليين، ولكن سرعان ما تشرزمت تلك الدولة، إثر الصراع الداخلى، ودعم القوى الأجنبية الطامحة فى المنطقة لهذا الصراع. لمزيد من التفاصيل عن دولة اليعاربة، انظر: ج. ج. لوريمر: دليل الخليج، ترجمة: مكتب أمير دولة قطر، القسم التاريخى، الجزء الثانى، ص٦٢٦-٦٢٧.

(٢) عادل رضا: عمان والخليج العربى، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٠٠.

(٣) محمد عبد الله مرسى: دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، ط١، دار القلم، الكويت ١٩٨١، ص١٢٠.

(٤) Long, E, A: The Persian Gulf An Introduction to its Peoples, Politics, and Economics, the Middle East, Colorado, 1978, p.16

(5) Shaban, M.A Arabia and the Gulf from Traditional Society to Modern States, London 1986, p.146

(٦) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ - ١٨٦١، مكتبة القاهرة، القاهرة ١٩٦٨، ص٨٠.

(٧) يوسف أبو الحجاج: دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة تحليلية لملامحها العامة، فى: "دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة مسحية شاملة"، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨، ص٦.

(****) كانت الحملة البريطانية الأولى ضد القواسم عام ١٨٠٥، والثانية عام ١٨٠٩. ولمزيد من التفاصيل عن الحملات البريطانية الثلاث ضد القواسم، انظر: ج. ج. لوريمر: مرجع سابق، ص٩٧٦-١٠٢٣.

(٨) Anthony,J.D: Arab States of Lower Gulf: People Politics Petroleum, Washington.D.C, 1975, p.240

(٩) Mansfield.P: The Middle East: A Political and Economic Survey, Fifth, Edition,London,1989, p.240

(*****) ما أشبه الليلة بالبارحة؛ إذ أطلق مصطلح السلام البريطاني Pax-Britannica فى منطقة الخليج تعبيرا عن هيمنة بريطانيا على مقدرات المنطقة فى خلال القرنين ١٩ و٢٠، ومع فرض أمريكا مظلتها على المنطقة وتسلم إرث الإمبراطورية البريطانية، أصبحنا نسمع عن Pax-Americana

(١٠) Country Profile,The Economist Intelligence Unit,London,1987, p.3

(١١) أحمد قاسم البوريني: الإمارات السبع على الساحل الأخضر، دار الحكمة، ب.ت، ص١٧٧.

(١٢) Common House, Record of the Arab World,13 Marsh,1892, p.44

(١٣) Mansfield.P: op. cit, p.184

(١٤) محمد عبد الله مرسى: مرجع سابق، ص٣٣؛ مصطفى عبد القادر النجار: الحركة العربية السياسية، ص١٣٨.

(١٥) سيد فاروق حسن، ترجمة: محمد عبد الغنى المسعودى: مسح تاريخى للمصالح الأوربية فى منطقة الخليج العربى، مجلة الخليج العربى، العدد ٢٥، ١٩٨٧، ص٨٩؛ جمال زكريا قاسم: مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى، ص٣٣.

(١٦) إبراهيم شرف: البترول أهم سلاح من أسلحة الحرب الحديثة – بحث مقدم إلى المؤتمر العربى الثانى، بيروت، أكتوبر ١٩٦٠، ص٩، د. راشد البراوى: حرب البترول فى الشرق الأوسط، ط٥، ١٩٦٢، ص٤٥.

(١٧) بيير فونتين: السباق الجديد نحو البترول، ترجمة: د. جلال صادق، ١٩٦٢، ص٩.

(١٨) -Hoskins Halford: Middle East Oil in United States Foreign Policy, Public Affairs, Bulletin, 1977, p.2

(١٩) Roosevelt Kermit, Arabs, Oil and History, New York, 1955, p.12

(٢٠) هارفى أكونور: الأزمة العالمية فى البترول، ترجمة: عمر مكاوى، مراجعة: د.راشد البراوى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧، ص٨٧.

(٢١) محمد صبحى الإتربى: مدخل إلى دراسة الشركات الاحتكارية متعددة الجنسية، منشورات النفط والتنمية، بغداد ١٩٧٧، ص٨.

(٢٢) FCO, British Embassy, Washington, to FCO, September, 7, 1973, U.S Policy in the Middle East

(٢٣) مجموعة من الباحثين: السياسة الأمريكية والعرب، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١، ص٢٧.

(٢٤) كان اتفاق (سان ريمو) محاولة لتنظيم تقاسم النفوذ والسيطرة بين فرنسا وبريطانيا، وقد خصصت أهم البنود الواردة فيه لتنظيم حصص البلدين فى بترول العراق؛ إذ رفعت حصة فرنسا إلى ٢٥٪ فى شركة البترول التركية، وفى المقابل سمحت فرنسا بتمديد خطوط الأنابيب التى تنقل بترول الموصل إلى شاطئ البحر المتوسط، مرورا بسوريا الخاضعة لسيطرة الفرنسيين، ويمكن عد اتفاق سان ريمو اتفاقا بشأن النفط فى الدرجة الأولى، أندريه نوسشى، الصراعات البترولية فى الشرق الأوسط، ص٧١-١٢٣.

(٢٥) المرجع السابق، ص١٢٥.

(٢٦) محموعة من الباحثين: السياسة الأمريكية والعرب، مرجع سابق، ص٢٩.

(٢٧) أندريه نوسشى: مرجع سابق، ص١٥٨.

(٢٨) Arabian Gulf Concessions 1911-1953,Documents from the India Office, Recording the Negotiations and Agreements for the first Land- Based Oil Concessions in Kuwait, Bahrain, Qatar, the Trucial States and Muscat and Oman, London,1989, pp.77-79.

(٢٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى: الولايات المتحدة والمشرق العربى، عالم المعرفة العدد ٤، الكويت ١٩٦٥، ص١٤. أنتونى سامبسون، الشقيقات السبع: شركات البترول الكبرى والعالم الذى صنعته، ١٩٧٦، معهد الإنماء العربى، ص١٠١.

(٣٠) أندريه نوسشى: ، مرجع سابق، ص١٥٩.

(٣١) وقعت معاهدة (سيفر) بين الحلفاء فى أغسطس ١٩٢٠، وقد قضت بسلخ مجموعة من الأقاليم عن تركيا وإلحاقها بدول مجاورة، أو جعلها مفصولة تحت الانتداب، كما تنظم المعاهدة امتيازات رعايا الحلفاء فى تركيا والأراضى العثمانية السابقة، لكن الأتراك قاموا بثورة وحاربوا الجيش اليونانى الذى سلمت إليه بعض أقاليم البلقان، فدحروه فى معركة سافاريه (سبتمر ١٩٢١)؛ وهو ما أضعف من قيمة المعاهدة، وألغيت أخيرا فى مؤتمر لوزان (صيف ١٩٢٣).

(٣٢) Niblock,T: Social and Economic Development in the Arab Gulf London, 1980 , P 34-35

(٣٣) سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة، الكتاب الأول، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦-١٩٦٧.

(٣٤) أحمد مدحت إسلام: الطاقة ومصادرها المختلفة، ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٨، ص٥٧-٥٩.

(٣٥) Witchell K.S. T: Saudi Arabia with an Account of the Development of its Natural Resources - third edition - Greenwood Press 1969- p.222

سيد فتحى الخولى: اقتصاديات البترول، ط١، مكتبة دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة ١٩٨٨، ص٣٤٧.

(٣٦) روزمارى سعيد زحلان: الوحدة والحكم البريطانى، حالة الإمارات العربية المتحدة، فى: "تجربة دولة الإمارات العربية"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، بيروت ١٩٩٩، ص١١٧.

R. EL Malakh, op. cit, p.1.

(٣٧) دكتور سيد نوفل: مرجع السابق،الكتاب الثانى، ص١٩٦-١٩٧.

(٣٨) محمد حسن العيدروس: التطورات السياسية فى دولة الإمارات العربية المتحدة، ذات السلاسل، الكويت، د. ت، ص١٧٤.

(٣٩) رياض نجيب الريس: صراع الواحات والنفط، هموم الخليج العربى ١٩٦٨-١٩٧١، ط١، بيروت، ١٩٧٣، ص٢٣٢.

(٤٠) وثيقتا تعهد من حاكمى الشارقة ودبى فى عام ١٩٢٢حول امتيازات البترول، نقلا عن سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية، ص١٩٤-١٩٥.

(٤١) أحمد زكريا الشلق وآخرون: التاريخ السياسى لإمارات الخليج العربى، ص١٨٠.

(٤٢) H. Hoskins, The Middle East Problem Area in World Politics, NewYork, 1955, p.208.

(٤٣) محمود على الداود: عوامل الوحدة والتجزئة فى الجزيرة العربية،فى: "تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة"، ط٤، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، ص٢٨؛ روزمارى سعيد زحلان: مرجع سابق، ص١١٧.

(٤٤) R. F. Mikesell & Hollis. B. Chenery, Arabian Oil: Americans Stake in the Middle East, the University of North Carolina, 1949 ,p.60

(٤٥) بيتر ر. اوديل: النفط والقوة العالمية، خلفية أزمة النفط، ترجمة: راشد البراوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٠٨.

Sir R. Hay & E. Rear, op. cit, p.93-94.

(٤٦) إبراهيم إبراهيم: أثر النفط على قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، فى: "تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، بيروت، ١٩٩٩، ص١٨٣.

(٤٧) محمد ياسر شرف: مجتمع الإمارات، دار المتنبى، أبوظبى ١٩٩٢، ص٢

(٤٨) محمد عبد الله مرسى: مرجع سابق، ص١٤٥، ١٤٨- ١٤٩.

(٤٩) إبراهيم إبراهيم: مرجع سابق، ص١٤٨-١٤٩.

(٥٠) روزماري سعيد زحلان: مرجع سابق، ص١٢٠-١٢١.

(٥١) وزارة التخطيط: الملامح الرئيسية للتطورات الاقتصادية والاجتماعية فى دولة الإمارات العربية المتحدة فى خلال المدة ١٩٧٥-١٩٨٥، ص٢١-٢٥.

(٥٢) محمود على الداود: الخليج العربى فى العلاقات الدولية، ص١٨١.

(٥٣) ف. تروخانوفسكى: سياسة بريطانيا الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية، ترجمة: عبد الحميد الجمال، مراجعة وتقديم: عبد الخالق لاشين، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٧٦، ص٤٨٨.

(٥٤) ك.م ووهاوس: السياسة الخارجية البريطانية بعد الحرب الثانية، ترجمة: حسن القبانى، المؤسسة الدولية للنشر، ب.ت، ص٣١.

(٥٥) وثائق وزارة الخارجية المصرية: محفظة ٤٨٩، الملف الأول، تقرير حول الحديث الذى دار بين سفيرى مصر وواشنطن فى ١٩٥٢/١٢/١٨، أرشيف سرى جديد.

(٥٦) Fenelon, K.G: The Trucial States, p. 89

(٥٧) International Journal of Middle East Studies, vol. 12, no.4, Dec. 1980, pp.541-542.; Melamid, A: op. cit, pp. 542-45

(٥٨) وثائق الخارجية المصرية: محفظة ٥، بغداد، ملف ١٠٣٨/١٠٣٧/١، ج١، حلف بغداد، تقرير رقم ٢٥٨ من القائم بالأعمال المصرى بطهران إلى وكيل الخارجية بشأن حلف بغداد والهيكل التنظيمى للحزب ولجانه، فى ١٩٥٧/١١/١٦ سرى للغاية.

(٥٩) وثائق الخارجية المصرية: محفظة ١٤٠٦، ملف ٣٨/٢٧/١٧، ج٤، حلف بغداد، مرفق بتقرير ١٨٤ من السفير المصرى ببغداد إلى وكيل وزارة الخارجية الدائم بشأن اجتماع المجلس الوزارى لحلف بغداد فى طهران، فى ١٩٥٦/٥/٢٢، سرى للغاية.

(٦٠) F.O 371/115514, Extract, From the Hearings before the Committee of Foreign Relation United States Senates, May, 6,1955

(٦١) F.O. 371/113579, Tele, No118, from, British Embassy Cairo to F.O, July, 18, 1955

(٦٢) F.O. 371/113578, Tele, no. 72, from British Embassy Cairo to F.O, March, 29, 1955

(٦٣) صلاح العقاد: التيارات السياسية فى الخليج العربى، مكتبة الأنجلو، القاهرة، د.ت، ص٣٢٩.

(٦٤) محمد حسن العيدروس: الجزر العربية والاحتلال الإيرانى: نموذج للعلاقات العربية الإيرانية، دراسة وثائقية أرشيفية، ج٣، محمد رضا خان والجزر العربية ١٩٤١-١٩٧٩، دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٠١.

(٦٥) هادى طعيمة: الخليج العربى والاستراتيجية الاستعمارية البريطانية الخاصة، القاهرة، ١٩٧١، ص٥٦.

(٦٦) دائرة التخطيط: مركز الإحصاء، أبوظبى، يوليو ١٩٨١، ص٤٠.

(٦٧) محمد مرسى عبد الله: مرجع سابق، ص٩٠-٩١؛ روزمارى سعيد زحلان، مرجع سابق، ص١٢.

(٦٨) H. Hoskeins,Op Cit,PP. 208,209, EL- Malakh,op. cit,p. 89

(٦٩) K.G.Fenelon, The United Arab Emirates, p.32

(٧٠) EL- Malakh R., op. cit, p.89

(٧١) R. F. Mikesell & H. B.Chenery, op. cit, pp.116-117

(٧٢) موسوعة زايد: مرجع سابق، ص١٦٢.

(٧٣) كانت مشكلة البوريمى من أكثر النزاعات الحدودية تعقيدا فى منطقة الخليج؛ إذ شمل النزاع ثلاثة أطراف: السعودية وأبوظبى ومسقط، وقد تم التوصل إلى تسوية لتلك المشكلة عام ١٩٧٤، على ضوء الاتفاق الذى أبرم بين الشيخ زايد حاكم دولة الإمارات والملك فيصل العاهل السعودى. لمزيد من التفاصيل عن أزمة البوريمى ومباحثات تسويتها ومؤتمر الدمام، ومسألة التحكيم فى جنيف حتى اتفاق ١٩٧٤ بين فيصل وزايد، راجع: ابتسام حسون: مرجع سابق، ص٢٦١-٢٩٣.

.R.S. Zahlan, The Origin's of the United Arab Emirates, pp.192-194

(٧٤) إبراهيم إبراهيم: مرجع سابق، ص١٨٧.

(٧٥) Arabian Gulf Concessions 1911-1953,Documents from the India Office, Recording the Negotiations and Agreements for the first Land- Based Oil Concessions in Kuwait, Bahrain, Qatar, the Trucial States and Muscat and Oman, London,1989, p.457

(٧٦) Mikesell & H. B.Chenery, R. F., op. cit, pp.118-119

(٧٧) ابتسام عبد الأمير حسون: مرجع سابق، ص٢٨٩، ٢٩٣.

(٧٨) عن زيارة الملك حسين إلى أقطار الخليج العربى (البحرين - قطر - أبوظبى - دبى - رأس الخيمية) فى فبراير ١٩٦٧، وأهم المباحثات حول قضايا المنطقة، راجع:

F.O 17/299, Tele, no.98, fromBritish Embassy, Amman to F.O, King Hussein's Visit, 27, January,1967. F.O 17/299,Tele, from Political Agency, Bahrain to F.O, no.38, 20, .January,1967

(٧٩) R. S. Zahlan, The Origin's of the United Arab Emirates, p.191

(٨٠) إبراهيم إبراهيم: مرجع سابق، ص١٩٠.

R. F. Mikesell&H. B.Chenery, op. cit.,p.115.

(٨١) عبد القوى فهمى: مرجع سابق، ص٤١٩-٤٢٢.

(٨٢) محمد عبد الله مرسى: مرجع سابق، ص٧٩، ٨٦.

(٨٣) عبد القوى فهمى: مرجع سابق، ص٤٢٣.

(٨٤) جمال زكريا قاسم: إمارات قديمة ودولة حديثة، ص٦٩. محمد عبد الله مرسى: مرجع سابق، ص٩٢.

(٨٥) تقرير وزارة البترول والثروة المعدنية: البترول فى دولة الإمارات، أبوظبى، ١٩٧٧، ص٢-٧.

(٨٦) محمد على الفرا: جغرافية البترول فى دولة الإمارات العربية المتحدة، فى: "دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة مسحية شاملة"، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٨، ص٤٤٠، ٤٤٣؛ خزعل الجاسم: دور قطاع النفط والغاز فى البرنامج الإنمائى لإمارة أبوظبى ١٩٨١-١٩٨٥، ودوره فى تخطيط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، دائرة التخطيط، أبوظبى، يوليو ١٩٨١، ص٤٤-٤٥.

(٨٧) سيد فتحى الخولى: اقتصاديات البترول، ط١، مكتبة دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة ١٩٨٨، ص٣٤٧.

(٨٨) أنتونى سامبسون: الشقيقات السبع: شركات البترول الكبرى والعالم الذى صنعته، معهد الإنماء العربى، ١٩٧٦، ص١٣٥.

(٨٩) قصة النفط، مرجع سابق، ص٧١.

(٩٠) Fenelon, K.G.: The United Arab Emirates, pp.38-39

(٩١) جمال زكريا قاسم: إمارات قديمة ودولة حديثة، ص٥٣.

(٩٢) موسوعة زايد: مرجع سابق، ص١٦٩.

(٩٣) عبد الرحمن غنيم، محمد إبراهيم الشاعر: الاستراتيجية القومية لدولة الإمارات العربية المتحدة، ط١، دمشق، ١٩٧٨، ص٣٣؛ وزارة التخطيط: التقرير الاقتصادى لعام ١٩٩٢، إدارة التخطيط، أبوظبى، ١٩٩٣.

(٩٤) موسوعة زايد، مرجع سابق، ص١٦٤.

د. سحر علي حنفي (*)

أضواء على
الصحة العقلية في القاهرة العثمانية
٩٢٣ - ١٢١٦ هـ / ١٥١٧ - ١٨٠١ م

كثر الحديث فى الآونة الاخيرة في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية عن الأمراض النفسية، كما تشجع الجامعات الباحثين على دراسة مثل هذه الموضوعات لما لها من تأثير على مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولربط العلم بالمجتمع من خلال بحوث تؤدي إلى حل مشكلاته، بغية الوصول إلى أفضل النتائج في مجال التنمية البشرية. وعلى الرغم من عدم تخصصي في الطب أو الاجتماع، غير أنني أردت تناول الصحة العقلية في المجتمع المصري خلال العصر العثماني ٩٢٣ - ١٢١٦ هـ / ١٥١٧ - ١٨٠١م،نظراً لأن المتخصصين في الطب أو الاجتماع لا يستطيعون الرجوع إلى هذه الأزمنة البعيدة لتتبع أنواع وأعراض الأمراض التي كانت تحمل احيانا مسميات مختلفة عن مسميات الوقت الحاضر، وبالتالي لا يستطيعون معرفة ما استخدم من الأعشاب والنباتات لعلاج مثل هذه الأمراض، والتي ربما تكون أفضل مما هو مستخدم حاليا. ومن هنا ليس أمام الباحث في الطب أو الاجتماع إلا أن يقوم باستكمال ما وصل إليه الباحثون السابقون عليه. أما دراسة الباحث في التاريخ لمثل هذه الموضوعات فإن الهدف منها هو معرفة العوامل التي أدت إلى

(*) أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - كلية الآداب -جامعة القاهرة

هذه الأمراض وطرق علاجها، والعلاقة بين الصحة العقلية والصحة البدنية، وأثر الصحة العقلية على السلوك الاجتماعي، ونسبة المصابين بالأمراض العقلية فى المجتمع خلال تلك الفترة، وطرق العلاج، والجهة التي قامت بعلاج مثل هذه الأمراض.

ونظرا للارتباط الوثيق بين الصحة العقلية والنفسية لابد أولا من معرفة معنى الصحة النفسية.

فالصحة النفسية Mental Health هي قدرة الفرد على التوافق والتكيف مع نفسه ومع مجتمعه وعقد صلات اجتماعية تتميز بالأخذ والعطاء والتعاون والتسامح، واختيار الآمال والأهداف التي تتناسب مع واقعه وإمكانياته والقدرة على مواجهة الأزمات النفسية التي تطرأ عليه وإحساسه بالسعادة والرضا. (١)

والمرض النفسي، والمرض العقلي، مظهران لاضطراب الشخصية، غير أن هناك اختلافاً بينهما؛ فالأمراض النفسية هي اضطرابات تكون العوامل النفسية صاحب اليد الطولي فيها، وتتخذ شكل صراعات داخلية، وتصدع في العلاقات الشخصية تؤدي إلى مظاهر خارجية كالقلق Anxiety والتوتر Tension. وتعتبر الظروف البيئية السيئة التي يعيش فيها الفرد من أهم الأسباب التي تؤدي إلى مثل هذه الأمراض. (٢)

أما المرض العقلي Psychosis (موضوع الدراسة) فهو اضطراب في الشخصية، و هو أخطر من المرض النفسي، حيث يبدو في صورة اختلال عنيف في القوى العقلية، وعجز ظاهر عن ضبط النفس، الأمر الذي يعوق قيام علاقات اجتماعية متوافقة بين الفرد وغيره، بل وعدم قيام توافق بين الفرد وذاته. (٣)

وترجع مصادر العصر العثماني وجود مثل هذه الأمراض – التي نظر إليها على أنها ضرب من الجنون (٤)– إلى ارتفاع درجة الحرارة في مصر وطبيعة أرضها التي أدت إلى جعل بعض سكانها سوداويين (٥) كما أضاف داود الأنطاكي إلى هذه الأسباب الهموم معرفا أياها بأنها (أشغال النفس بما ستلقاه من مكروه، فيغلي الدم) مما يؤدي إلى إفساد الحواس، وقد أوضح بأن أقل الناس هما ذو الأمزجة الباردة Cold Temperament، وأكثر الناس هما من (غزر عقله وصح حدسه). لتوفر نظرة في العواقب، كما أوضح أنه يترتب على الهموم بدون مخرج لها قتل أصحابها، وأقل ما تحدثه في البدن سرعة الشيب والهرم والهزال والنسيان واختلال العقل(٦)، يضاف إلى ذلك إقبال بعض المصريين أغنياء أو فقراء على تعاطي المخدرات بأشكالها المختلفة،

والتي كان مسموحا ببيعها بمحلات خاصة بها ، ويطلق على بائعها ومحضرها المعجوني،والتي اعتقد المصريون أنها سبب السعادة والراحة[٧] ، بالإضافة إلى إقبال البعض على شرب الخمر، إلا أن الإفاقة من هذه المواد المخدرة والمسكرة، مع عدم القدرة على شرائها عند الفقراء ربما يؤدي إلى تلك النوبات العصبية التي نشاهدها في الوقت الحالي لحالات المدمنين المحاولين الإقلاع عن الإدمان والذين يكون مأواهم المصحات النفسية والعقلية. ويؤكد على ذلك عبد العزيز القوصي، حينما أشار إلى أن (إدمان الخمر أو المخدرات يؤدي إلى تعطيل العمليات العقلية، وإفساد التفكير، واختلال الأحكام التي يصدرها الفرد، واضطراب إدراكاته ، فهي تدفع بعض الناس للبكاء، وبعضهم للانقباض، وبعضاً ثالثاً للمرح، وبعضهم للغضب والهياج ، كما أنها تؤدي إلى نتائج عقلية دائمة كضعف الذاكرة، وتأخر القدرة على التفكير المنطقي المنظم، وتسلط الأوهام والوساوس) [٨] نضيف إلى ذلك سببا آخر وهو ما يثيره أصحاب السلطة والنفوذ في مصر وبخاصة البكوات المماليك من الرعب والفزع لدى الفقراء والتي يؤدي أحيانا إلى ذهاب العقل ، وخير مثال على ذلك اتهام علي بك الكبير (ت١١٨٧ هـ - ١٧٧٣م) لأحد الشباب بمدينة دمنهور بتهريب السلاح للعربان ، فأمر بقطع رأسه، إلا أنه اكتشف الحقيقة في اللحظة الأخيرة، وأطلق سراحه، ولكن ترتب على الرعب الذي عاش فيه هذا الشاب فقدانه لصوته. [٩]

وأخيرا كثيرا ما كان يتم الزج بأحد الأشخاص بالبيمارستان [٩٠]طمعا في ماله، أو انتقاما منه لسبب ما ، فقد شاهد ديجنت Desgenttes كبير الأطباء في الحملة الفرنسية على مصر عند زيارته للبيمارستان المنصوري- [١٠] وهو البيمارستان الوحيد الذي يأوى المرضى العقليين في مصر خلال فترة الدراسة - فتاة وصفها بقوله (شابة جميلة جالسة على أرض الحجرة ترسف في أغلالها وهي تكاد تكون عارية في أسمالها البالية المزقة) ، وعند اقترابه منها فرحت برؤيته، وحاولت محادثته بعصبية شديدة، لم يفهم منها ديجنت شيئا لاختلاف لغته الفرنسية عن لغتها العربية، غير أنه أشفق عليها ، وتتبع حالتها قائلاً : (خطر لي أنها ليست مجنونة، وأن بعض الأشرار قد زجوا بها في الموستان ظلما وكيدا) ، وتبين له بعد ذلك أنه كان محقا فيما اعتقد ، وأخرجها من البيمارستان. [١١]

و قد أطلقت المصادر الطبية في العصر العثماني على الأمراض التي تصيب الرأس و تؤدى إلى زوال العقل، مسمى الماليخوليا [١٢]. ويندرج تحت هذا المسمى أنواع عديدة من الأمراض العقلية يوضحها الجدول التالي [١٣]:

البيانات	أنواع الماليخوليا				
	المراقي	القطرب	الماثريا	الصبار	الهذيان والجنون
سبب المرض	المعدة	السوداء	السوداء : إذا كان المريض في حالة سكون ونحافة. الصفراء : مادون ذلك.		
وقت المرض	يشتد المرض وقت الجوع أو الهضم	——	——	——	——
أعراض المرض	العزلة، قلة الكلام، تخيلات	اختلاف مشية. تقليب وجهه. نفوره من الناس والأماكن.	اختلاط غضبه باللعب وضحكه بالبكاء والعطش.	اختلاف الأفعال المضادة والرعونة والخوف والتكدر والصفاء	كل ما سبق مع فساد الخلط من الداخل أو الخارج
معلومات إضافية			يسمى هذا المرض أيضا بماتويا وداء الكلب أو الداء السبعي لشبه أفعاله بأفعال الكلاب أو السباع.		

و قد أورد مؤرخو مصر في العصر العثماني نماذج من هذه الأمراض. فهناك من يدعي أنه نبي مرسل [١٤] أو المهدي المنتظر [١٥] أو يكون في حالة هدوء تام لفترة طويلة من الزمن قد تصل إلى اثنين وثلاثين عاما (واحيانا يتكلم، وأحيانا أخرى لا يكلم أحداً ، وإن أتاه الوزير) ثم فجأة يصرخ ويبكي مدعيا أنه قد سلب حقه ،وأنه يرغب في تخليص قريبته (أوسيم) من المعتدين. ثم

يعود إلى هدوئه مرة أخرى [١٦] وهناك من تكون حالته هياجاً مستمراً [١٧] (وكأنه يزأر كالأسد، ثم يعود إلى الهدوء، وتعلو شفتيه ابتسامة بلهاء [١٨]) وهناك من هو شارد [١٩] بصفة مستمرة [٢٠] وهناك من هو مصاب بالهوس [٢١] على الدوام[٢٢].

وإذا كانت هذه أمثلة لبعض الحالات التي أودعت في البيمارستان المنصوري، إلا أن هناك العديد من المرضى يجوبون الشوارع والأسواق، ويصيحون، ويصرخون، وتعتقد فيهم العامة الولاية [٢٣] ، ومنهم «علي البكري» الذي اعتقد فيه العوام الولاية وأطلقوا عليه «الشيخ علي البكري» وقد وصفه الجبرتي بقوله إنه (رجل طويل ، حليق اللحية، يمشي عريانا، وأحيانا يلبس قميصا وطاقية، ويمشي حافيا) وقد تبعته امرأة ، وصارت تمشي خلفه أينما توجه وتخلط في ألفاظها وتدخل معه البيوت واعتقدت بها النساء. وتبعهما الأطفال والصغار وهوام العوام ، وصاروا يقبلون أيديهما ، ويتبركون بهما. وعندما دخل الشيخ والمرأة ومن تبعهما بين القصرين وبه أحد أجناد الدولة العثمانية ويدعى جعفر كاشف، قبض على الشيخ والمراة ومن تبعهم، ثم أطلق الشيخ لحال سبيله ربما لاعتقاده هو نفسه في هذا الشخص، أما المرأة فقد أرسلها إلى البيمارستان، وأطلق باقي من تبعهما بعد أن ضربهم ، وتابوا ولبسوا ثيابهم. ويعلق على ذلك الجبرتي بقوله : (بعد أن طارت الشربة [٢٤] من رؤسهم). [٢٥]

و قد أدى تواجد الكثيرين من أمثال علي البكري في الشوارع إلى استفسار نابليون بونابرت عنهم من مشايخ الأزهر خصوصاً مع (اعتقاد العامة فيهم، وهم لا يصلون ولا يصومون، هل هذا حلال أم حرام في الشريعة؟) فأجابه المشايخ بأنه حرام. عندئذ أمر بونابرت بجمع من على هذه الشاكلة والكشف على عقولهم، وأدخل البيمارستان من ثبت عليه الجنون. [٢٦]

وقد حاول المصريون آنذاك وقاية أنفسهم من الأمراض النفسية والعقلية، حيث حرصوا على الهدوء [٢٧] واسترخاء الأعصاب [٢٨] مع عدم شغل العقل بالتأمل والتفكير [٢٩] وعدم الاستجابة للانفعالات العنيفة ، وتقبل الواقع بما فيه من محاسن ومساوئ وهو ما يعرف عند علماء النفس بالمنهج الوقائي Preventive Method[٣٠]. كما سعوا إلى زيادة سعادتهم والاستمتاع بمباهج الحياة كالذهاب إلى الحدائق ، وسماع الموسيقى ، وقضاء وقت في الهواء الطلق [٣١] والمرح والضحك لإزالة التوتروتخفيف آلامهم سواء كانت هذه الآلام، آلاماً بدنية أو نفسية [٣٢] ، وهو ما يعرف لدى علماء النفس حاليا بالمنهج الإنشائي Constructive Method[٣٣]. أما إذا أحس

المصريون بإعتلال في الصحة، عللوا ذلك بانسداد مسام الجلد ، وقلة إفراز العرق ، لهذا يتوجهون إلى الحمامات البخارية فى محاولة لتبديد ما ظهر من تلك الأعراض. [٣٤]

ولم يعتد أهل مصر استخدام الأدوية إلا في حدود ضيقة ، فالمريض يستخدم ما يناسبه من الأعشاب والنباتات[٣٥]، ولا يستشر الطبيب إلا عند الأمراض الخطيرة وغير العادية[٣٦].

و قد كانت وسيلتهم الأساسية للعلاج ما يطلق عليه (الطب الروحاني) ، وهو الرقي بآيات من القرآن الكريم ، و ما ورد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه الرقي بعضها للشفاء من الأمراض بصفة عامة، وبعضها الآخر للشفاء من الأمراض العقلية. غير أنهم أضافوا إلى آيات الله وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، بعض الأدعية والكلمات غير المفهومة والتي ترتبط بالسحر والأحجبة والتمائم[٣٧]، مثل كتابه تسعين صادا في ثلاثة أسطر في كاغد ويعلق على الرأس ، و يكتب بعدها أ ح أ ك ك خ ع ح أ م ح وقوله تبارك وتعالى(ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا[٣٨] ، وأيضا (إن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين). [٣٩]

كما حرص المصريون من أجل شفاء المريض على معرفة مكان المرض، وما لذلك العضو من الحروف، والعضوين القريبين منه (فوقه وتحته) ، ويقومون بجمع حروف الأعضاء الثلاثة، ثم ينظرون في القرآن في أي آية جمعت تلك الحروف، ثم تكتب هذه الآية ، وتسقى للمريض ، أو تعلق عليه [٤٠] ، بالإضافة إلى حلقات الزار التي رأى فيها المصريون شفاء من الأمراض العصبية[٤١]

أما إذا فشلت تلك الطرق مع المريض ، فعندئذ يلجأ المريض أو أقاربه للطبيب. و يبدأ مع المريض ما يعرف بالمنهج العلاجي Remedial Method الذى يكون الهدف منه عودة المريض إلى التوازن والاعتدال والتوافق النفسي والاجتماعي.[٤٢]

و تتم معالجة مريض الماليخوليا بعقاقير، بعضها بسيط مكون من نبات واحد، وبعضها الآخر مركب من عدة نباتات. ومن هذه العقاقير الأشربة والمعاجين والسفوف والحبوب والادهان والمفرحات. [٤٣]

فمن الأشربة، شراب أسطوخودس ويتكون من الأسطوخودس وعصير تفاح وسفرجل وحماض

ولسان ثور[٤٤]. وشراب مركب من اللازورد والأفتيمون والسكنجبين بماء الجبن، وشراب بسيط من نبات بزر قطو نامع السكر وماء الورد.[٤٥]

أما المعاجين وهي من أعظم المركبات قدرا وأجلها نفعا وأكثرها في التداوي، والقانون الجامع لسائر المعاجين أن تكون بالعسل. والجدول التالي يوضح المعاجين المستخدمة في علاج الماليخوليا:

اسم المعجون	مكونات المعجون	جرعة المريض اليومية	مدة صلاحية المعجون
معجون النجاح	أهليلج [٤٦]- بليلج - افتيمون- اسطوخودس- بسفايج - غاريقون - حجر ارمني - مرجان - لؤلؤ - بادروج.	مثقالان [٤٧]	سنة واحدة
معجون الفائق	تربد - لوز - سقمونيا - قرنفل - مصطكي - جوزبوا - دار صيني - زنجبيل - أنيسون	أربعة مثاقيل	سنة واحدة
معجون داود	أفتيمون - بسفايج - فستق - صنوبر - حب بلسان - غاريقون - صندل أحمر - بزر خشخاش - قنطريون - انيسون - رازيانج - مصطكي - صمغ - لازورد - حجر ارمني - فاوانيا - مرجان - لؤلؤ	مثقالان	عشر سنين
معجون الافتيمون	أفتيمون - اهليلج - بليلج - أملج - بسفايج - بزر شاهترج - حجر ارمني - لازورد - غاريقون - انيسون - مصطكي	من خمسة إلى عشرة مثاقيل	ـــــ
ـــــ	سنا - حنظل - صبر - اسارون - أفتيمون - بسفايج - لؤلؤ - ازورد - مسك	ـــــ	ـــــ
ـــــ	زعفران - اسارون - دار صيني - صبر	ـــــ	ـــــ[٤٨]

ومن السفوف، سفوف اللؤلؤ وتتكون من درونج، وبزر ريحان، وباذر نبوية، ولازورد، ومصطكي ،وحجر أرمني، وذهب، وفضة ،ومرجان، وياقوت، ولؤلؤ. وسفوف أخرى مكونة من قرفة ،وفرنجمشك، وقرنفل، وجوز بوا ،و مصطكي،واسارون، واهليلج، ونار مشك ،ونار قيصر، ودار صيني، وزنجبيل.[٤٩]

ومن الحبوب حبوب اصطميحقون وهي يونانية، و معنى اصطمحيقون منقي الأخلاط الباردة. ويتكون من صبر وبسفايج وافتيمون وسقمونيا وغاريقون وحنظل وزعفران وحب بلسان وأسارون ومصطكي وزراوند ودار صيني. وحبوب تتكون من مسحوق كل من اللؤلؤ وحماض الأترج وصبر وسقمونيا وافتيمون ودار صيني وقصب ذريرة ولازورد وقرنفل(٥٠).

أما الأدهان ، فيقصد بها طبخ الدواء سواء كان على شكل أوراق أو عصير في دهن حتى يذهب الماء ويبقى الدهن . ومن أهم الأدهان، دهن اللبوب السبعة المكون من بندق وفستق ولوز وجوز وصنوبر وسمسم وقرع لب، ودهن البنج وإن لم يذكر- المصدر مكوناته، غير أن تسميته تدل على أن تركيبة الأساسي من نبات البنج.(٥١)

وإلى جانب هذه العقاقير، التي يرى البعض إنها أنواع معتادة من العلاج، استخدم أطباء العصر العثماني نوعا من العلاج يدل على عبقرية الأطباء خلال فترة الدراسة ،ويطلق على هذا النوع الأخير مسمى (المفرحات)، ويقصد به ما يسر القلب ،ويبسط النفس ،وينشط الحواس، ويصقل الذهن. فقد استخدم الأطباء حينئذ كل ما يؤدي إلى تهدئة وارضاء المريض كالغذاء الجيد، والعقار الذي يخدر العقل والأعضاء. كما حاول الأطباء الاستفادة من حواس الإنسان، و قدموا حاسة السمع على غيرها من الحواس. (٥٢) لذلك كان يتم علاج مريض الماليخوليا في البيمارستان أولا بالموسيقى ورواية القصص المسلية للترويح عنهم. (٥٣) وما إن ينتبه المريض إلى ما يدور حوله يتم الانتقال للاستفادة من الحاسة الثانية للمريض ألا وهي البصر، حيث يتم نقل المريض إلى غرفة أخرى للاستمتاع بمشاهدة الرقص وألوان من الكوميديا(٥٤). مع لفت نظر المريض بالألوان والأضواء. وقد رأى الأطباء أن أكثر الألوان المفرحة هو اللون الأبيض. وأن أفضل الألوان المركبة هي الأبيض والأحمر متساويان مع أصفر بسيط. و في نفس الوقت استفاد الأطباء من حاسة الشم عند المرضى، فأوصوا بإقامتهم وسط الورود والبنفسج والياسمين قرب المياه في الصيف للاستمتاع بالمناظر والروائح الجميلة. وتجنب تيارات الهواء في الشتاء مع تعليق الفاوانيا حول المريض. (٥٥)و قديما كان الأطباء يصعدون كل يوم أعلى البيمارستان لمعرفة اتجاه هبوب الهواء، ثم يتم وضع المريض في المكان المناسب له، ولكن أبطل ذلك من البيمارستان المنصوري خلال العصر العثماني مما كان له أثره في تأخر شفاء المرضى. وكان أطيب الروائح المستخدمة للمرضى هو المسك والعنبر. أما عند وصول الروائح الكريهة ، فأن الأطباء كانوا ينصحون المرضى باستخدام السعوطات(٥٦).

كما استغل الأطباء حاسة اللمس عند الإنسان، حيث عالجوا بعض المرضى المحبين للمال بلمس الذهب والفضة طالما أن هذه المعادن تسر نفوسهم. [٥٧] في حين أقام المرضى عموما، بالبيمارستان المنصوري- خلال فترة إزدهار تلك المؤسسة العلاجية- على أسرة حريرية، وأغطيتهم ألحفه حريرية[٥٨]

كما استفاء الأطباء من حاسة التذوق عند المريض، فأوصوا بإطعامه ألذ الأطعمة، و بخاصة ما يناسب ميول المريض. كما صرح للمرضى بالدجاج واللبن والقرع. [٥٩] وقد ذكر البعض أن الدجاج يزيد من جوهر العقل، ويصلح الأعصاب،وشحمه يسكن الماليخوليا والجنون، وغالب الأمراض السوداوية. ومرقه خصوصا مرق الديك الهرم بالبسفايج يستأصل السوداء، وطبخه مع اللوز يصلح الفكر. واللبن يلين الطبع ويخرج الأخلاط السوداوية. كما أن شرب ماء القرع مفيد في إزالة الوساوس والجنون. [٦٠] وقد أجمع الأطباء على أن الحلويات تحظي بقبول ورضا كافة المرضى وأضاف الأطباء أمرا مفرحا أخر للمرضى، فإن كان المريض ممن يحبون مهنتهم، تترك له حرية مزاولة هذه المهنة، لأنها تؤدي إلى إسعاده[٦١].

وبالإضافة إلى الاستفادة من حواس المريض ،أعد الأطباء مركبات كانت تستخدم أيضا للتفريح عن المرضى. والجدول التالي يوضح المفرحات المستخدمة لعلاج الماليخوليا.

اسم المفرح وأصله	مكونات المفرح	جرعة المريض اليومية	مدة صلاحية المفرح
مفرح بطولا ماخس أصله رومي بمعنى جبار القلب	حليب بقر – بزر رجلة- صندل – رازيانج- دار صيني- كزبرة يابسة- بارنج – مرجان – لؤلؤ- حماض الاترج.	مثقال	سبع سنين
مفرح الياقوت	شاهترج – باذرنبوية – بهمن – لازورد – صندل – فستق – مرجان – لؤلؤ- حماض الاترج – ماء ورد وسفرجل وتفاح- زعفران- درونج – زرنب – ذهب – فضة – ياقوت أحمر.		لا يبطل مفعوله بمرور الوقت.

مفرح العود	بزر خشخاش - أسارون - مصطكي - قرنفل - فرنجمشك - لؤلؤ- عنبر - ياقوت - ذهب- فضة- مسك- ليمون- ماء العناب والتفاح والريباس.		سنة واحدة
ــــ	أشنة - أظفار طيب - نارمشك - فرنجمشك - قرفة - قرنفل- دار صيني - مصطكي - زعفران - سنبل طيب.		
ــــ	افتيمون - اسطوخودس - قرنفل - حب بلسان - سليخة - اسارون - زرنباد - درونج - لؤلؤ- مرجان - بهمن - سنبل الطيب - زنجبيل - مسك.	درهمان [٦٢]	ثلاث سنين [٦٣]

غير أن هناك حالات مستعصية تشكل خطورة على المجتمع استدعت الضرورة إيداعها بالبيمارستان للعلاج. لهذا كان لابد من الحصول على إذن من الباشا، وذلك لان البيمارستان لا يقبل المريض إلا بأمر منه، لأن المريض يكلف الإدارة العثمانية قرشا [٦٤] كل يوم حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر[٦٥]، في حين أصبح المريض يكلف الإدارة في أواخر القرن الثامن عشر ديناراً [٦٦] كل يوم[٦٧].

وكان البيمارستان ينقسم إلى قسمين، الأول ويشمل كافة الأمراض، والثاني ويشغله المرضى العقليون. وانقسم هذا الأخير بدوره إلى ساحتين، إحداهما تضم ثماني عشرة حجرة للرجال، وثانيتهما تضم ثماني عشرة حجرة للنساء[٦٨].

والمرضى العقليون من الرجال معزولون في حجرات ضيقة ذات قضبان، في أعناقهم السلاسل [٦٩] ويشرف على علاجهم عدد من الحكماء، يساعدهم أتباع من الممرضين لهم طبع الجلادين ويصف أوليا جلبي قسوتهم بقوله: (يطعمون بعض الأخوان الفاقدي العقل خشافا من عصا الشوم فيعقلون). [٧٠]

أما المريضات من النساء فكن عاريات أو شبه عاريات [٧١] وحجراتهن ليست جميعها ذات قضبان ومع إنهن كلهن مقيدات فإنهن لسن مشدودات إلى الجدار كما هو الحال بالنسبة للرجال[٧٢] وجميع خدمة هذا القسم من النساء وليس به رجال غير الحكماء[٧٣] ولم يرحمن لمرضهن، فبعضهن حملن في البيمارستان، فقد ولد غلام في عهد إبراهيم باشا (١٠٧٨- ١٠٨٥ هـ / ١٦٦٧ - ١٦٧٤م) [٧٤] وسمي (شفائي). [٧٥]

وإلى جانب عدم رحمة بعض القائمين على العلاج. عانى المرضى أيضا- خاصة خلال القرن الثامن عشر – من سوء أحوال البيمارستان ذاته. [٧٦] ، فقد كان حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر على درجة كبيرة من الرقي. حيث وصفه أوليا جلبي، الذي زار مصر بين عامي (١٠٨٢ – ١٠٩١هـ / ١٦٧٢ – ١٦٨٠ م) بقوله:(بناء عجيب لا نظير له في بلاد الترك والعرب والعجم، فقد بنى على أسلوب لو اختل عقل إمرئ عالجه الحكماء فارتد عاقلا) كما أوضح كيفية إقامة المرضى بالبيمارستان، و ما حظوا به من رعاية صحية متكاملة، فهناك اثنا عشر طبيبا مع تلاميذهم يحضرون لكل مريض، في مكان صرف الطعام، ما يوافق مرضه من الطعام والدواء. وإذا ما اقترب المريض من الشفاء سمح له بالاستحمام في المياه الجارية داخل البيمارستان. وحوله المرضون يخدمونه كأنهم فراش حول الشمع . [٧٧]

لكن أوضاع البيمارستان ساءت خلال القرن الثامن عشر بعد أن انتقل الإشراف عليه إلى البكوات المماليك ، فأصبح بعض المرضى يرقد على أسرة خشبية مفروشة بالحصر أو مفروشة بمراتب ممزقة، والبعض ينام على مصاطب مبنية من الحجارة أو الطين ، وطعامهم الخبز والأرز وشوربة العدس[٧٨] ، رغم كثرة الأوقاف المرصودة للإنفاق على هذه المؤسسة العلاجية [٧٩] إلى جانب مصادر دخل أخرى للمؤسسة كالترياق [٨٠] الذي تخصص حصيلة بيعه للعناية بالبيمارستان ، لكن رغم ذلك لا ينفق على البيمارستان إلا القليل نتيجة لنهب البكوات المماليك لمعظم هذه الأموال. [٨١]

وقد استغل رجال البيمارستان حالات المرضى؛ فعندما وضع أحد المرضى بالبيمارستان لإدعائه النبوة، استغل البيمارستاني المشرف عليه ذلك. وأدخل عليه من يرغب في رؤيته من الناس. واصفا المصدر المعاصر هؤلاء الناس بأنهم :(من لا عقل لهم، ويغلب عليهم الجهل)، وصار المارستاني يأخذ منهم مالا، كل على حسب حالته. ويعترف المارستاني بأنه خلال الثلاثة أيام التي أقام فيها المريض بالبيمارستان. استطاع كسوة نفسه وعياله، وعمل كعك العيد، واشترى النقل و دبر مصروفات رمضان، وصار يدعو لعثمان كتخدا [٨٢] الذي أرسل هذا المريض للبيمارستان[٨٣].

وقد أشفق ديجنتت، المكلف من قبل نابليون بونابرت بالإشراف على البيمارستان، على المرضى الموجودين به، وأوصى قائده بمنح هذه المؤسسة العلاجية إعانة مالية قدرها خمسون دينارا يوميا رحمة بالمرضى البؤساء إلى أن يتم إنشاء المستشفى العسكري [٨٤] المزمع إنشاؤه[٨٥].

وختاما لابد من الإشارة إلى قلة نسبة المرضى العقليين في مصر العثمانية. فقد أشار كارستن

نيبور الذي زار مصر فى الفترة من (١١٧٤ – ١١٧٦ هـ / ١٧٦١ – ١٧٦٢م) إلى قلة عددهم بالقياس إلى حجم مدينة القاهرة [٨٦] ، فى حين حدد ديجنت عددهم فى أواخر القرن الثامن عشر أربعة عشر مريضا عقليا [٨٧] كما أوضح كلوت بك فى أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر، أن عدد المرضى العقليين يبلغ ما بين ثلاثين إلى أربعين مجنونا من الرجال والنساء في مدينة القاهرة التي يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة [٨٨]

وقلة نسبة المرضى العقليين في القاهرة العثمانية، يدفعنا إلى وضع عدد من الفروض، أولها أن هذه النسبة تؤخذ من البيمارستان المنصوري، وهذا البيمارستان لا يودع به إلا الحالات المستعصية التي تؤذي غيرها في المجتمع. وربما كان ميل المصريين للتدين والقبول بقضاء الله في كل أمور حياتهم المعيشة . مع عدم إجهاد العقل بكثرة التفكير قد أدى إلى قلة المرضى العقليين ، أو ربما كان لرفض البعض إيداع أقاربهم بالبيمارستان وإبقائهم في المنازل دون أن يعلم عنهم أحد شيئاً.

غير أن تتبع طرق العلاج التي اتبعها أطباء مصر في العصر العثماني لعلاج الأمراض العقلية تدل على تقدم علم الطب بصفة عامة، والطب العقلي و النفسي بصفة خاصة، حيث يتضح عدم اكتفاء أطباء العصر بما وصل إليهم من الطب الإسلامي، إذ كانوا على دراية بتطور طرق العلاج في جهات العالم المختلفة. والمستخدمة عند الفرس والروم واليونان، وتسمية كل نبات طبي بمسماه في كل بلاد العالم.

لكن رغم تقدم الطب في مصر العثمانية، إلا أن المصريين أنفسهم رفضوا الخضوع لكشف وعلاج الأطباء، وفضلوا العلاج بالطب الروحاني قبل الأقدام بعرض المريض على الطبيب. والذى كان يتم عند وصول المريض إلى حالة خطرة ربما تؤدي به إلى الموت في النهاية.

فمعظم الحالات التي أشارت إليها المصادر المعاصرة، وتم إيداعها بالبيمارستان المنصوري، هي حالات تم تقييدها بالسلاسل، سواء أكانت من الرجال أو النساء مما يدل على إيذائها لنفسها، أو لمن حولها ، كما أن معظمها كان في حالة هياج مستمر. مما أضطر الأطباء إلى علاجهم بالمهدئات المصنعة من النباتات المخدرة كبذر الخشخاش والبنج. فالمصريون لا يودعون مريضهم بالبيمارستان إلا عندما ييأسون منه، وكأنهم قد أودعوه في قبره.

أما من فقد عقله، ولم يؤذ أحد من المجتمع، فقد نظر إليه المصريون على أنه مجذوب، قد جذبه الله، إذ هم يتبركون به ويتفاءلون برؤيته مثل شخصية الشيخ على البكري، وهناك العديدون من أمثاله في شوارع القاهرة.

ملحق عن

المواد الخام المستخدمة في عقاقير الأمراض العقلية

آس :	باليونانية أموسير، والفارسية مرزباح، والسريانية سن، والبربرية أحماض، والعبرية أخمام، والعربية ريحان، وبمصر مرسين، وبالشام منه البستاني والبري، ورقة دقيق، مر الورق حلو الخشب، زهره وثمره أسود ، غير أن ثمر البستاني كالعنب في الحجم ، ويسمى تكمام. و ينفع في علاج الصداع.
أسارون :	الناردين البري والأقليطي ، وهو نبات مبزر، نحو ذراع، منبسط على الأرض، وغالبه تحت الأرض ، وجميعه أغبر إلى الصفرة، وزهره دقيق الورق، صلب وعريض وهش، أجوده الأصفر الطيب الرائحة القليل المرارة المجتني في يوليو.
أسطوخودس :	يوناني بمعنى موقف الأرواح ، ويسمى أيضا الكمون الهندي ، وهو كالشعير يميل إلى الحمرة ، وأوراقه كالصعتر. أجوده الحديث الطيب الرائحة المر المأخوذ في يونيو، وفائدته أنه يخرج السوداء ، ويفرح ويقوي القلب ، وينقي الدماغ لذلك يسمى المكنسة. والسعوط منه بماء العسل ينقي الدماغ، وشربه مع السكنجبين يشفي من الصداع والماليخوليا ، وتقدر جرعة المريض ما بين اثنين إلى خمسة مثاقيل، وفي السعوط مرة واحدة.
أشنه :	يطلق عليها فى العربية شيبه، و فى اليونانية بريون، وهي أجزاء شعرية تتخلق بأصول الأشجار ، وأجودها ما على الصنوبر والجوز ، تذهب الأعياء والتعب ، وجرعتها إلى ثلاثة مثاقيل.
أظفار الطيب:	قشور صلبة على طرف من الصدف قد حشى تقعيرها لحما رخوا ، تخرج من الأرض أواخر مارس، وأجودها الأبيض الضارب إلى الحمرة، وجرعته من واحد إلى ثلاثة مثاقيل، وبدله الفاوانيا.

أفتيمون:	يوناني معناه دواء الجنون، وهو نبات شديد الحمرة، وفروعه كالخيوط الليفية وأجوده المأخوذ في يونيو، يزيل أمراض الجنون السوداوي لاسيما إذا أضيف إليه الخل ونقع منه رطل في ثلاثين رطلاً لمدة أربعين يوما. ومتى استعمل منه خمسة أرطال في نصف رطل حليب وأوقيتين سكنجبين أسبوعا أذهب الماليخوليا.
أملج:	يسمى بمصر السنابير، وفي فارس إذا نقع باللبن سمي شير أملج ؛ لأن الشير هو اللبن الحليب ، وأجوده ما يشبه الكمثرى الصغيرة ، وإذا طبخ مع ورقه الأس ، ثم طبخ ماؤه بدهن كالسيرج والزيت، أفاد في تقوية الأعصاب. و جرعته من ثلاثة إلى خمسة مثاقيل.
أهليلج:	وهو أربعة أصناف ؛ الهندي المعروف بمصر بالشعيري، والأسود المعروف بالصيني، والكابلي كالبلح ، والأصفر كالتمر ؛ وأكثرها نفعا الكابلي فالأصفر فالصيني فالهندي. وهو يقوى الحواس والدماغ ، ويساعد على سرعة الحفظ.
بادروج:	باليونانية أفيمن، والعبرية حول، وعندنا يسمى بالريحان الأحمر أو السليماني، لان الجن جاءت به لسليمان فكان يعالج به ،وجرعته إلى ثلاثة.
باذر نجوية:	ويطلق عليه باذر نبوية، وباليونانية لبوفلن، وهو بقلة تنبت وتستنبت خضراء، عطرية ربيعية وصيفية، يستخدم في التفريح وتقوية الحواس والذكاء والحفظ، وجرعته إلى مثقالين.
بزر قطونا:	باليونانية تسليون ، وهو ثلاثة أنواع ؛ الأبيض وهو الأجود ، والأحمر ويعرف بالبرلسية نسبة إلى البرلس، والأسود وهو الأردأ ويسمى بالصعيدي ؛ لأنه يجلب من الصعيد الأعلى.
بسفايج :	باليونانية يولوديون، والفارسية سكرمال، والهندية والسريانية تنكار علا، ومعنى هذه الأسماء الحيوان الكثير الأرجل ، و سمي هذا النبات به لكونه كالدور الكثير الأرجل ، ويدعى بمصر اشتيوان ، وهو نبات طوله نحو شبر ، دقيق الورق أغبر مزغب ، في أوراقه نكت صفرين صفره وحمره وهو الأجود ، وأردأه الأسود ، ربيعي يدرك في يونيو : يبرئ من الجنون ورداءه الأخلاق والماليخوليا.

بليلج:	ثمر شجرة هندية، تجنى بيوليو ، وأجوده الأصفر الرخو يخرج السوداء ، وجرعته إلى ثلاثة مثاقيل.
بنج:	بالعربية السيكران، وباليونانية أفيقوامس ، والسريانية أرمانيوس، والبربرية اقنقيط . ويقال اسقيراسن، وهو نبات ينبسط على الأرض دائرة ، ويرتفع وسطه دون ذراع، شديد الخضرة، مزغب غليظ الورق مائي مشقق الأطراف، زهره يخلف حبا أسود وأصفر وأحمر وأبيض. يدرك في الصيف في يونيو، وأجوده الذي لم يجاوز سنة، يسكن الصداع المزمن، وإذا دق بذره مع بذر خس وخشخاش ، واستخرج دهن ذلك كان ترياقا للماليخوليا والجنون والوساوس وحديث النفس شربا ودهنا وسعوطا.
بهمن:	نبات فارسي جبلي، ساقه شبر، يبسط أوراقا كورق الأجاص، لكنها شائكة. أوراقه ملتفة بلا زهر، يدرك في يوليو.
تربد :	نبت فارسي، يخرج من جبال خراسان، يخلف ثمرا كألسنة العصافير، ويدرك يوليو ، وأجوده الأبيض الخفيف المجوف المصمغ الطرفين. مع الكابلي يشفي غالب أنواع الجنون ، وغالب المستعمل منه الآن بمصر عروق تجلب من أطراف الشام ودياربكر، وجرعته من ثلاثة إلى خمسة مثاقيل، وإذا طبخ تصل جرعته إلى عشرة مثاقيل.
جوزبوا:	يسمى جوز الطيب لعطريته، يخرج بجبال الهند وجزائر آشية، أجوده الحديث السالم من التأكل الهش الذي لم يبلغ ثلاث سنين من يوم قطعه.
حجر أرمني:	لا زوردي لكنه أغبر، وأجوده الهش الخالي من الملوحة، يتولد بأرمينيا وجبال فارس ينفع في السوداء وأمراضها كالجنون والوساوس والماليخوليا. وجرعته درهم.
حماض:	نبت كثير الأصناف منه نوع دقيق الورق محمر الأصول ، له سنابل بيض ، يخلف بذرا أسود براقا ، ونوع يولد بذره من غير زهر، وكلاهما حامض جيد. والمولد بذراً بلا زهر إذا سحق وشرب فرح النفس وقارب الخمر.

حنظل:	باليونانية دوفوفينا، وقد يسمى أغريسومس ، وحبه يسمى الهبيد، وهو نبت يمد على الأرض كالبطيخ ، إلا أنه أصغر ورقا. وفائدته إذا غلى بالماء والعسل والأفيتمون والقرفة يستأصل السوداء ، ويبرئ الماليخوليا والجنون.
خس الحمار:	الشنجار، خسرو دارو، الخولنجان، الخشخاش:
	يقصد به النبات المعروف في مصر بأبي النوم، وأجوده الأبيض. أوراقه خشنة ، و طوله نحو ذراع ، ويخلف زهرًا ذا رؤوس مستديرة ، غليظ الوسط يجمع آخره قمعًا. ويرزع الخشخاش فى أواخر طوبة إلى تمام أمشير. ويجمع ببرموده. ومنه يستخرج الأفيون بالشرط. وقشره إذا دق رطبا وقرص كان مفيدا لمرضى الأرق. ويصب طبيخة على الرأس فيشفى الصداع وأنواع الجنون والماليخوليا.
دار صيني:	معرب عن دار شين الفارسي، وباليوناني أفيمونا، والسريانية مرسلون ، و هو شجر هندي بتخوم الصين كالرمان، اوراقه كأوراق الجوز ألا أنها أدق، ولا زهر ولا بذر له ، والدار صيني هو قشر تلك الأغصان ، وأجوده الشحم المتخلخل بين حمره وسواد وصفره وحلاوه وملوحه ومراره الكائن بالصين، فالياقوتي الكائن بآشية وجزائر الزنج، فالأسود البراق، فالأصفر الدقيق، وأردأه الأبيض، يستمر مفعوله خمس عشرة سنة، يمنع الخفقان والوحشة والوساوس وضروب الجنون.
درونج:	نبت مشهور بجبال الشام خصوصا ببيروت يدرك بسبتمبر، يستمر مفعوله عشر سنين، مفرح ويقوي الحواس، وجرعته مثقال.
رازيانج:	هو الأنيسون، ويسمى الشمار بالشام ومصر، والشمرة بحلب، والبسباس بالمغرب، وهو برى بستاني، عطري ذكي الرائحة، يجني بمصر في الربيع.
زراوند:	نبت مشهور يسمى باليونانية رسطولوخيا معناه دواء يبرئ، وهو كثير الوجود بالشام، مر الطعم، يستمر مفعوله سنتين، يفيد في الوسواس والجنون، وجرعته إلى درهمين.

زرنب:	يسمى الملكي ورجل الجراد ، و هو نبات لا يزيد طوله على ثلثي ذراع، له ورق أعرض من الصعتر، وزهر أصفر، يوجد بجبال فارس، وهو الأجود ، وقد يوجد بالشام، ولكنه لأحرافه فيه، يدرك ببشنس، و يستمر مفعوله أربع سنين، فيه شدة تفريح حتى أن عصارته تفعل فعل الخمر. يقضى على الصداع سعوطا ، و جرعته إلى درهمين، وبدله الدار الصيني.
زرنباد:	يسمى كافور الكعك، وأهل مصر يسمونه الزرنبة وهو عطري، ينبت بجبال بنكالة والدكن وبجزائرها ، ويطول نحو شبرين، وله أوراق تقارب ورق الرمان، وزهر أصفر يخلف بذرا كبذر الورد ، يدرك بمسرى وتوت، و يستمر مفعوله ثلاث سنين، والمرهو الأجود ، والحلو ضعيف المفعول يذهب الوسواس لشدة تفريحة.
زعفران:	بالسريانية الكركم، والفارسية كركيماس، ويسمى بالجساد و الجاتد والرعبل والدلهقان. وهو نبات بأرض سوس، وينبت كثيرا بالمغرب زهرة كالباذنجان فيه شعر، إذا فرك فاحت راحته وصبغ، وهذا الشعر هو الزعفران. يظهر في أكتوبر. وفائدته يفرح القلب ويشفي الأرق.
سقمونيا:	هي المحمودة، وهي عبارة عن نبات ينبت بالأحجار والجبال، يطول نحو ثلاثة أذرع، وله ورق كاللبلاب لكنه أدق وزهره أجوف مستدير أبيض. وطريقة أخذها بأن يشرط الأصل ، ويصفى في إناء ، فيسيل كاللبن ويجمد. وأجودها الخفيف الأسفنجي المائل إلى الزرقة والصفرة. ويستمر مفعوله ثلاثين سنة، وخلطها باللازورد يساعد في علاج السوداء ، وتزيل الوسواس والجنون ومبادئ الماليخوليا.
سكنجبين:	صمغ شجرة بفارس، يخرج منها في يونيو ، أجوده الأبيض، تظل قوته عشرين سنة.
سليخة:	باليونانية أسليوس، وهي قشر شجر هندي ويمني ، يظل مفعوله سبع سنين، وجرعته درهم، وبدلها الدارصيني.

سنا:	نبات ربيعي له زهر أزرق، وثمره داخلها حب مفرطح محزوز الوسط، ومنه نوع عريض الأوراق أصفر الزهر يسمى بالحجازي، يظهر بالصيف، وفائدته أنه ينقي الدماغ من الصداع الشديد.
شاهترج :	فارسي بمعنى ملك البقول، ويسمى كزبرة الحمار، عريض الأوراق ، وزهره إلى البياض، مر الطعم، يدرك في الربيع، وأهل مصر يسمونه شاتراج، والجرعة من مائة إلى خمسين مثقالا.
صبر:	يطلق عليه صباره ، أضلاعه كالقرنبيط وأعرض ، وعلى أطرافه شوك ، والصبر عصاره، ينقي الدماغ ، ويشفي الجنون والوساوس والصداع.
صندل:	شجر بالصين يشبه الجوز، وهو من الأدوية التي يستمر مفعولها ثلاثين سنة، وأجوده الأبيض المعروف بالمقاصيري، وهو مفرح، وجرعته مثقال.
غاريقون:	رطوبات تتعفن في باطن ما نأكل من الأشجار، يستمر مفعوله أربع سنين، له خاصية عظيمة في علاج الأعصاب خصوصًا مع السكنجبين، وجرعته إلى مثقال.
فاوانيا :	يطلق عليه وفايوتا، والكهينا، وعود الصليب، وفي المغرب ورد الحمير. نبت دون ذراع. ولا ينبغي أن يؤخذ إلا يوم نزول الشمس الميزان. ويقطع بحذر، فإن اختل الشرط بطلت خواصه. ويبقى مفعوله سبع سنين. وهو يشفى من الكابوس ، ويجلو الأثار السود ، وهذه الشجرة بجملتها تشفى في الصرع والجنون والوسواس كيفما استعملت ولو تعليقا وبخورا.
فرنجمشك :	القرنفل البستاني، طيب الرائحة، ينبت ببساتين مصر كثيرا، ودهنه مفيد للأعصاب، وجرعته ثلاثة مثاقيل.
قصب ذريره:	نبت كالقش عقد محشو بشيء أبيض ، وأجوده المتقارب العقد الياقوتي الضارب إلى الصفرة القابض المر.
قنطريون:	يوناني، شديد الحمرة، ساقه مزغب خشن، له زهر كحلي، يخلف بذر كالقرطم، مر الطعم، يدرك بالخريف، يستمر مفعوله عشر سنين، يزيل علل الأعصاب، ويذهب الإعياء والتعب.

لازورد:	معدن مشهور بجبال أرمينيا وفارس، أجوده الصافي الشفاف الضاربة زرقته إلى خضرة ما وحمره، ينفع في الجنون والوسواس والهم وفساد العقل.
لسان الثور:	باليونانية فوغلص، والفارسية كاوزبان، نبت ربيعي، غليظ الورق، خشن يخلف بذرا مستديراً، يستمر مفعوله سبع سنين، وموضعه جبال فارس والموصل، شديد التفريح، ويقوى الحواس، لهذا ينفع في علاج الجنون والوساوس والماليخوليا، فأوقيه ونصف منه تعادل رطلا من الخمر الخالص في شدة التفريح مع حضور الذهن، وجرعته عشر دراهم.
لؤلؤ:	معدن أجوده الكبير الأبيض الشفاف الكائن ببحر عمان، وأردأه الصغير الأسود القلزمي، وهو يمنع الوسواس والجنون وتسعيطه يذهب الصداع.
ماء الجبن:	من لبن الماعز، ينفع في أمراض السوداء كالوسواس والجنون والماليخوليا وخصوصًا إذا أضيف له اللازورد.
مسك:	دم ينعقد في حيوان دون الظباء، قصير الرجل بالنسبة إلى اليد، له نابان معقوفان إلى الأرض، وقرنان في رأسه معوجان إلى ذنبه، شديد البياض، ويفيد في إزالة الغم.
مصطكي:	معرب عن مصطيخا اليوناني، يسمى العلك الرومي والمراد به الصمغ، وهو نوعان: أبيض ناعم طيب الرائحة فيه لدونة، حلو يسحق ويسمى المعلق، والثاني يؤخذ من العود الغض والورق بالطبخ، ولا يوجد إلا في رودس وأشبيلية بالأندلس. يستمر مفعوله عشرين سنة، يذهب الصداع والسوداء والوسواس وحديث النفس ومبادئ الماليخوليا مع الأهليجات، وزيادة الفهم مع الكندر.
نارقيصر:	نبت دقيق أحمر إلى صفره، يجلب من الروم، ويسمى بمصر سلق الحمام، وهو عطري طيب الرائحة، مفرح، جرعته مثقال.
نارمشك:	فارسي معناه رمان بري، يوجد بخراسان، يزيل الوسواس والماليخوليا، وجرعته درهمان. (٨٩)

من الملحق السابق يتضح :

براعة الأطباء في مصر العثمانية، فهم يعرفون كافة المواد الخام الموجودة في مختلف أنحاء العالم ، واستخداماتها المختلفة.

اقتصر عند ذكر تلك المواد الخام على فائدتها للأمراض العقلية، وان كانت لكل مادة منها استخدامات لعلاج أمراض أخرى لم يتم ذكرها تركيزا على موضوع الدراسة.

تشمل المواد الخام الأساسية في علاج الماليخوليا كلا من أسطوخودس وأفتيمون وبسفايج وبليلج وبنج وتربد وحجر أرمني وحنظل وخشخاش ودار صيني وزراوندو زرنباد وسقمونيا وصبر وفاوانيا ولازورد ولسان الثور ولؤلؤ وماء الجبن ومصطكي ونار مشك: في حين ان باقي المواد استخدم لإستكمال تركيب المواد الأساسية أو للتفريح.

غير أن هناك قدراً لا يستهان به من تلك المواد الخام يستخدم كمخدر لمرضى الماليخوليا ، أو تفريح لهم كبديل عن الخمور مما يؤدي إلى عيش المريض في الخيال.

إلا أن كثرة استخدام الأطباء للمواد المخدرة والمفرحة تدل على تدهور حالات مرضى الماليخوليا مما يدفع أطباءهم إلى استخدام تلك المواد لتهدئتهم، وربما لإجبارهم على الاستغراق في نوم عميق.

الهوامش

(١) محمد السيد الهابط : حول صحتك النفسية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ص ٣٢ – ٣٣

(٢) عباس محمود عوض : الموجز في الصحة النفسية، الإسكندرية ،١٩٨٩ ، ص ٩١

(٣) نفس المرجع السابق، ص ص ٩١ – ٩٢

(٤) الجنون : مصدر جن وهو زوال العقل وفساده، والجنون في اصطلاح الفقهاء عبارة عن التصرف في المال بخلاف مقتضى الشرع والعقل، وعند الأطباء اختلال القوة المميزة بين الأمور الحسنة والقبيحة.. لمزيد من التفاصيل [أنظر بطرس البستاني : محيط المحيط، بيروت ، ص ص ١٣٠ – ١٣١]

(٥) أوليا جلبي : سياحتنامه مصر ، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرون، دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٣٤٧؛ كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود، الجزء الثاني، القاهرة د. ت، ص ٥٦٧.

والسودآء : فساد الفكر، من اليونانية بمعنى الخلط الأسود. وتشير المراجع الحديثة إلى أن السواد هو الماليخوليا Melancholia ، وهو مصطلح يشمل جميع الاضطرابات العقلية المزمنة .. لمزيد من التفاصيل أنظر. بطرس البستاني : المرجع السابق، ص ٤٣٩؛ أحمد محمد عبد الخالق : أصول الصحة النفسية، الإسكندرية ٢٠٠٣، ص ص ٣١٥ – ٣١٦.

(٦) داوود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) : تذكره أولى الألباب الجامع للعجب العجاب، الجزء الثاني، القاهرة ٢٠٠٨، ص ١٠٩.

(٧) روبية : التداوي بالأعشاب عند المصريين المحدثين، ضمن وصف مصر (قاهرة المماليك)، الجزء الحادي عشر، ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ص ١٥٦ ، ١٦٥.

(٨) عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية، القاهرة د.ت، ص ٤٠

(٩) Sonnini, C.S : Voyage dans la Haute et Basse Egypte, Tome Second, Paris, P. 228

(١٠) البيمارستان : لفظ فارسي مركب من بيمار أي مريض، وستان أي محل، أي دار المرضى، ويقال أحيانا البيمرستان، والمارستان ؛ وهو مستشفى لمعالجة كافة الأمراض، ولكن بمرور الزمن اقتصر الاسم على المكان الذي يعد لإقامة المجانين. لمزيد من التفاصيل أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢، ص ص ١٠٣ – ١٠٤؛ محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧ م، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٥٥.

(١١) البيمارستان المنصوري : نسبة إلى المنصور قلاوون، وقد شيده عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م، ويقع هذا البيمارستان بالقاهرة بين القصرين بخط المدارس الكاملية والصالحية والظاهرية .. أنظر محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص ص ١٥٥ – ١٧٧.

(١٢) ديجينيت : تقرير عن المورستان أو مستشفى القاهرة، مقدم إلى القائد العام بونابرت، لاديكاد إيجيبسين، العدد التاسع ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ – ١٨٠١، القاهرة د.ت، ص ١٣٢.

(١٣) أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : منهاج الدكان ودستور الأعيان في معرفة العقاقير وطب الأبدان، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب، ل ٣٤٨٥، ميكروفيلم ٢٢٩٤٢، بدون صفحة

(١٤) أحد تلاميذ داوود بن عمر الأنطاكي : ذيل تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب، القاهرة ٢٠٠٨، ص ص ١٨٤ – ١٨٥

(١٥) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٤، ص ٥٩٩؛ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٩٧ ص٧٥٢.

(١٦) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨هـ (١٥١٦-١٥٢٢م)، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦١، ص ٤٧٢.

(١٧) أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري : المصدر السابق، ص ص ٥٦٤ – ٥٦٥

(١٨) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧.

(١٩) بله- بلها – بلاهة – بلهاء : الغفلة، ضعف العقل، قلة التمييز.. لمزيد من التفاصيل أنظر الهيئة المصرية العامة للكتاب. المعجم الكبير، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٥٦٥؛ بطرس البستاني : المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢٠) جومار : وصف مدينة القاهرة، ضمن وصف مصر، ترجمة زهير الشايب وآخرون، الجزء العاشر، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٠٣.

(٢١) يسمى علماء النفس حاليا هذه الحالة بالاكتئاب Deprcssion ويكون المريض فيها في حالة خمول ويأس وحزن، و يشعر بالضعف. ويوجه عدوانه إلى نفسه، وقد يحاول الانتحار.. لمزيد من التفاصيل أنظر عباس

محمود عوض : المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٢٢) جومار : المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٢٣) الهوس : Mania هو اضطراب حاد دون وجود حمى ، ويسمى هذا المرض العقلي الوظيفي بالدهان الدوري أو النواب Manic- depressive psychosis ذلك إن المريض قد تنتابه حالة من الهوس، ثم حالة من الإكتئاب تختلف من حيث الشدة والاستمرار. والهوس، قد يكون هوسا خفيفا Hypomania وهذا النوع يتسم بنشاط وتفاؤل زائدين، أو هوسا زائدا Hypermania وهنا يكون المريض في حالة هياج حاد، ويعرض نفسه وغيره للخطر. فالمريض في حالة الهوس يوجه عدوانه إلى العالم الخارجي .. [لمزيد من التفاصيل أنظر: عباس محمود عوض : المرجع السابق ، ص ص ٩٩ - ١٠٠

(٢٤) جومار : المصدر السابق ، ص ٢٠٢

(٢٥) كلوت بك : المصدر السابق، ص ٥٦٧.

(٢٦) الشربة : يقصد بها هوى النفس، يقولون- وافق الأمر مشربه أي هواه. والشربة أيضا الطريقة يقال مازال فلان على شربة واحدة أي طريقة واحدة .. لمزيد من التفاصيل [أنظر بطرس البستاني : المرجع السابق، ص ٤٥٨.

(٢٧) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٥٥

(٢٨) نفس المؤلف : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢١٤؛ نفس المؤلف : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٣١

(٢٩) كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٥٦٨

(٣٠) Brown, Edward : Voyage en Egypte 1673 – 1674 caire 1974, P. 181

(٣١) Sonnini, C.S : OP. cit, Tome premier, P. 273

(٣٢) عباس محمود عوض : المرجع السابق، ص ٦؛ محمد السيد الهابط : المرجع السابق، ص ٢٩.

(٣٣) Sonnini, C.S : Op. Cit, Tome premier, P. 273

(٣٤) Ibid. P. 273

(٣٥) عباس محمود عوض : المرجع السابق ، ص ٦؛ محمد السيد الهابط : المرجع السابق، ص ٣٠

(٣٦) كلوت بك : المصدر السابق، ص ص ٥٢٩ ، ٥٧٨ - ٥٧٩

(٣٧) روبية : المصدر السابق ، ص ١٥١

(٣٨) كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٥٧٨

(٣٩) سيريزول : مستخرج من ملاحظات للمواطن سيريزول الطبيب بالجيش عن رحلة له على الضفة الغربية للنيل من القاهرة إلى أسيوط، لاديكاد إيجيبسين، العدد الرابع، ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، المرجع السابق، ص ٧٦

(٤٠) القرآن الكريم، سورة الفرقان، آية ٤٥.

(٤١) القرآن الكريم، سورة القلم، آية ٥١.

(٤٢) أحد تلاميذ داوود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٥

(٤٣) نفس المصدر السابق، ص ١١٦

(٤٤) عصمت محمد حسن : جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي، القاهرة ٢٠٠٣، ص ص ١٨٤ - ١٨٥

(٤٥) محمد السيد الهابط : المرجع السابق، ص ٣٠

(٤٦) أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : المصدر السابق، بدون صفحة.

(٤٧) أحد تلاميذ داوود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، ص ١٩٣

(٤٨) داوود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٤٢

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن المواد الخام المستخدمة في العقاقير أنظر الملحق.

(٥٠) المثقال : واحد ونصف درهم، أي أربعة وعشرون قيراطاً أو اثنان وسبعون حبة شعير أو ست وتسعون حبة قمح. وكان المثقال يستخدم في تقييم الذهب والأحجار الكريمة والسلع والعقاقير الثمينة التي تباع بأوزان بالغة الصغر.. لمزيد من التفاصيل انظر، صاموبل برنار : الحياة لاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، الموازين والنقود، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ص ٢٤ - ٢٦؛ سحر علي حنفي : العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ص ١٠٥ - ١٠٦

(51) Alpin, prosper : plantes d› Egypte 1581 - 1584, caire 1980, PP. 12 - 13

داوود بن عمر الانطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ٣٤٥ - ٣٤٩؛ أحد تلاميذ داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤

(٥٢) أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : المصدر السابق، بدون صفحة، داود بن عمر الانطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ٢١٧ - ٢١٩

(٥٣) داود بن عمر الانطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ١٣٢

(٥٤) نفس المصدر السابق ، ص ص ١٧٩ - ١٨٠

(٥٥) نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٦٠

(٥٦) جومار : المصدر السابق، ص ٢٠١

(٥٧) نفس المصدر السابق، ص ٢٠١

(٥٨) داورد بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول، ص ١٨١

(٥٩) السعوط : اخترعه جالينوس للصداع، ثم توسع فيه لأمراض الأنف والعين، فإن جعل مائعا فهو السعوط أو مشتدا فالنشوق أو يابسا يسحق وينفخ فنفوخ أو طبخ وكب المريض على بخاره فكبوب ، وكلها مختصة بأوجاع الرأس.. لمزيد من التفاصيل أنظر داوود بن عمر الأنطاكي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢١٤.

(٦٠) نفس المصدر السابق، ص ص ٣٥٨ - ٣٥٩

(٦١) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧

(٦٢) أحد تلاميذ داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، ص ١٨٥

(٦٣) داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ١٧٢ ، ٢٩٢ ، ٣١٨

(٦٤) نفس المصدر والجزء : ص ٣٦٠

(٦٥) نفس المصدر والجزء : ص ص ٣٦٠ - ٣٦٥

(٦٦) الدرهم : يساوي ستة عشر قيرطا أو أربعا وستين حبة قمح. لمزيد من التفاصيل أنظر .. صامويل برنار: المصدر السابق ، ص ص ٢٤ ، ٢٦؛ سحر علي حنفي : المرجع السابق ص ١٠٥

(٦٧) داود بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ص ٣٦٦ - ٣٦٧

(٦٨) القرش : هناك نوعان من القروش العثمانية، القرش الأسدي الذي ساد منذ عهد السلطان سليمان القانوني وتبلغ قيمته أربعين نصف فضة، والقرش العددي الذي ضرب في عهد السلطان سليمان الثاني (١٠٩٩ - ١١٠٢هـ / ١٦٨٧ - ١٦٩١م) وتبلغ قيمته ثلاثين نصف فضة .. [أنظر، صامويل برنار المصدر السابق، ص ص ٨٨ - ٨٩، سحر علي حنفي : المرجع السابق، ص ١١٤]

(٦٩) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧

(٧٠) الدينار : نقد من الذهب، ومن أهم أنواعه في العصر العثماني المحبوب والفندقلي والطرلي و الجنزير صامويل برنار : المصدر السابق، ص ص ٦٦ – ٦٧، سحر علي حنفي : المرجع السابق، ص ١١٣.

(٧١) جومار : المصدر السابق، ص ٢٠١

(٧٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣

(٧٣) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ؛ كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٦٣٦.

(٧٤) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧

(٧٥) جومار : المصدر السابق ، ص ٢٠٢

(٧٦) نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣

(٧٧) ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، تعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ٢٠٠١، ص ٣٤٩.

(٧٨) محمد مختار : التوفيات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية، المجلد الثاني من سنة ٧٥١ إلى سنة ١٥٠٠ هجرية، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠، ص ص ١١١٤ ، ١١٢١

(٧٩) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٨.

(٨٠) كرستوفر هيرولد : بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٤٠

(٨١) أوليا جلبي : المصدر السابق ، ص ٣٤٧.

(٨٢) ديجينت : المصدر السابق ، ص ١٣٢.

(٨٣) كارستن نيبور : رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١– ١٧٦٧، الجزء الأول، رحلةإلى مصر ١٧٦١ – ١٧٦٢، ترجمة وتعليق مصطفى ماهر، د ت ، ص ٢٢٢؛ جومار : المصدر السابق، ص ٢٠٤

(٨٤) روبية : المصدر السابق ، ص ١٥٧. والترياق : يصنع من لحوم الثعابين والحيات، ويستخدم لعلاج العديد من الأمراض.. أنظر أوليا جلبي : المصدر السابق، ص ص ٣٤٨ – ٣٦١.

(٨٥) جومار : المصدر السابق ، ص ص ٢٠٤ ، ٢٠٦.

(٨٦) الكتخدا : بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء، في التركية كتخدا، من الفارسية كدخدا، والكلمة

الفارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت، و (خدا) بمعنى الرب والصاحب فالكتخدا هو في الأصل رب البيت، ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك، ويطلقها الترك على الموظف المسئول والوكيل المعتمد... أحمد السعيد سليمان : تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف د.ت، ص ١٧٦

(٨٧) أحمد شلبي بن عبد الغني : المصدر السابق، ص ٦٠٠.

(٨٨) مونج وآخرون : تقرير مقدم إلى الجنرال بونابرت، القائد الأعلى بشأن مشروع إنشاء مستشفى مدني في القاهرة، لأديكاد إيجيبسين، العدد الأول، المجلد الثاني، ضمن كتاب صلاح الدين البتساني : المرجع السابق، ص ص ١٥٣ – ١٥٧.

(٨٩) ديجينت : المصدر السابق ، ص ١٣٣

(٩٠) كارستن نيبور : المصدر السابق ، ص ٢٢٢

(٩١) ديجينت : المصدر السابق ، ص ١٣١

(٩٢) كلوت بك : المصدر السابق ، ص ٥٦٧

(٩٣) داورد بن عمر الأنطاكي : المصدر السابق، الجزء الأول، ص ص 330,325,321,316,300,284,280,277 255,253,235,228,223,222,219,202

374,342,340, ,201,200,188,172,169,159,151,146,136,125,104,98,96,94,85,84,76,75,71,65,58,53 ,49,48

قائمة المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم.

ثانيا : المخطوطات

أبو النبي بن نصر بن حفاظ المعروف بالكرهق العطار الإسرائيلي : منهاج الدكان ودستور الأعيان في معرفة العقاقير وطب الأبدان، مخطوط بالهيئة العامة للكتاب،ل٣٤٨٥، ميكروفيلم ٢٢٩٤٢.

ثالثا : المصادر العربية المنشورة :

أحد تلاميذ داود بن عمر الأنطاكي : ذيل تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب، القاهرة ٢٠٠٨.

أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري : أوضح الأشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشا، الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٤م.

داوود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) : تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب، الجزآن الأول والثاني، القاهرة ٢٠٠٨م.

عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الأجزاء الأول والثاني والثالث، القاهرة ١٩٩٧ - ١٩٩٨م. : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٩٨م.

محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الخامس من سنة ٩٢٢ إلى سنة ٩٢٨ هـ (١٥١٦ - ١٥٢٢)، الطبعة الثانية، القاهرة١٩٦١م.

رابعا : المصادر الأجنبية المعربة :-

أوليا جلبي : سيا حتنامة في مصر، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عزام وآخرون، القاهرة ٢٠٠٥م.

جومار : وصف مدينة القاهرة، ضمن وصف مصر، ترجمة زهير الشايب وآخرون، الجزء العاشر، القاهرة ٢٠٠٢م.

ديجينيت : تقرير عن المورستان أو مستشفى القاهرة مقدم إلى القائد العام بونابرت، لاديكاد إيجيبسين، العدد التاسع، ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ م ، القاهرة د.ت.

روبية : التداوي بالأعشاب عند المصريين المحدثين، ضمن وصف مصر (قاهرة المماليك)، الجزء الحادي عشر، ترجمة منى زهير الشايب، القاهرة ٢٠٠٢ م.

سيريزول : مستخرج من ملاحظات للمواطن سيريزول Ceresole الطبيب بالجيش عن رحلة له على الضفة الغربية للنيل من القاهرة إلى أسيوط، لاديكاد ياجيبسين، العدد الرابع، ضمن كتاب صلاح الدين البتساني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١م ، القاهرة د.ت.

صامويل برنار : الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر، الجزء الثالث، الموازين والنقود، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٠م .

كارستن نيبور : رحلة إلى بلاد العرب وما حولها ١٧٦١ - ١٧٦٧م ، الجزء الأول، رحلة إلى مصر ١٧٦١ - ١٧٦٢ م، ترجمة وتعليق مصطفى ماهر، د.ت.

كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود ،الجزء الثاني، القاهرة د.ت.

مونج وآخرون : تقرير مقدم إلى الجنرال بونابرت، القائد الأعلى، بشأن مشروع إنشاء مستشفى مدني في القاهرة، لاديكاد ايجبسين، العدد الأول، المجلد الثاني، ضمن كتاب صلاح الدين البستاني، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨- ١٨٠١م، القاهرة د.ت.

خامسا : المراجع العربية :

أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة د.ت.

أحمد محمد عبد الخالق : أصول الصحة النفسية، الإسكندرية ٢٠٠٣م .

الهيئة المصرية العامة للكتاب : المعجم الكبير، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨١ م.

بطرس البستاني : محيط المحيط ، بيروت د.ت.

سحر علي حنفي : العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، القاهرة ٢٠٠٠م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢ م.

عباس محمود عوض : الموجز في الصحة النفسية، الإسكندرية ١٩٨٩ م.

عبد العزيز القوصي : أسس الصحة النفسية، القاهرة د.ت.

عصمت محمد حسن : جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي، القاهرة ٢٠٠٣ م.

كرستوفر هيرولد : بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس ، مراجعة محمد أحمد أنيس، القاهرة ١٩٦٢ م.

محمد السيد الهابط : حول صحتك النفسية، الإسكندرية ١٩٨٩ م.

محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧، دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة ١٩٨٠ م.

محمد مختار : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية المجلد الثاني من سنة ٧٥١ إلى سنة ١٥٠٠ هجرية، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠ م.

ميكل ونتر : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة محمد إبراهيم، تعليق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ٢٠٠١ م.

سادسا : المصادر الأجنبية :

lpin, prosper : plantes d› Egypte 1581-1584, Caire 1980.

rown, Edward : Voyage en Egypte 1673-1674, Caire 1974.

›nnini, C.S : Voyage dans la Haute et Basse Egypte, Tome I, II, Paris.